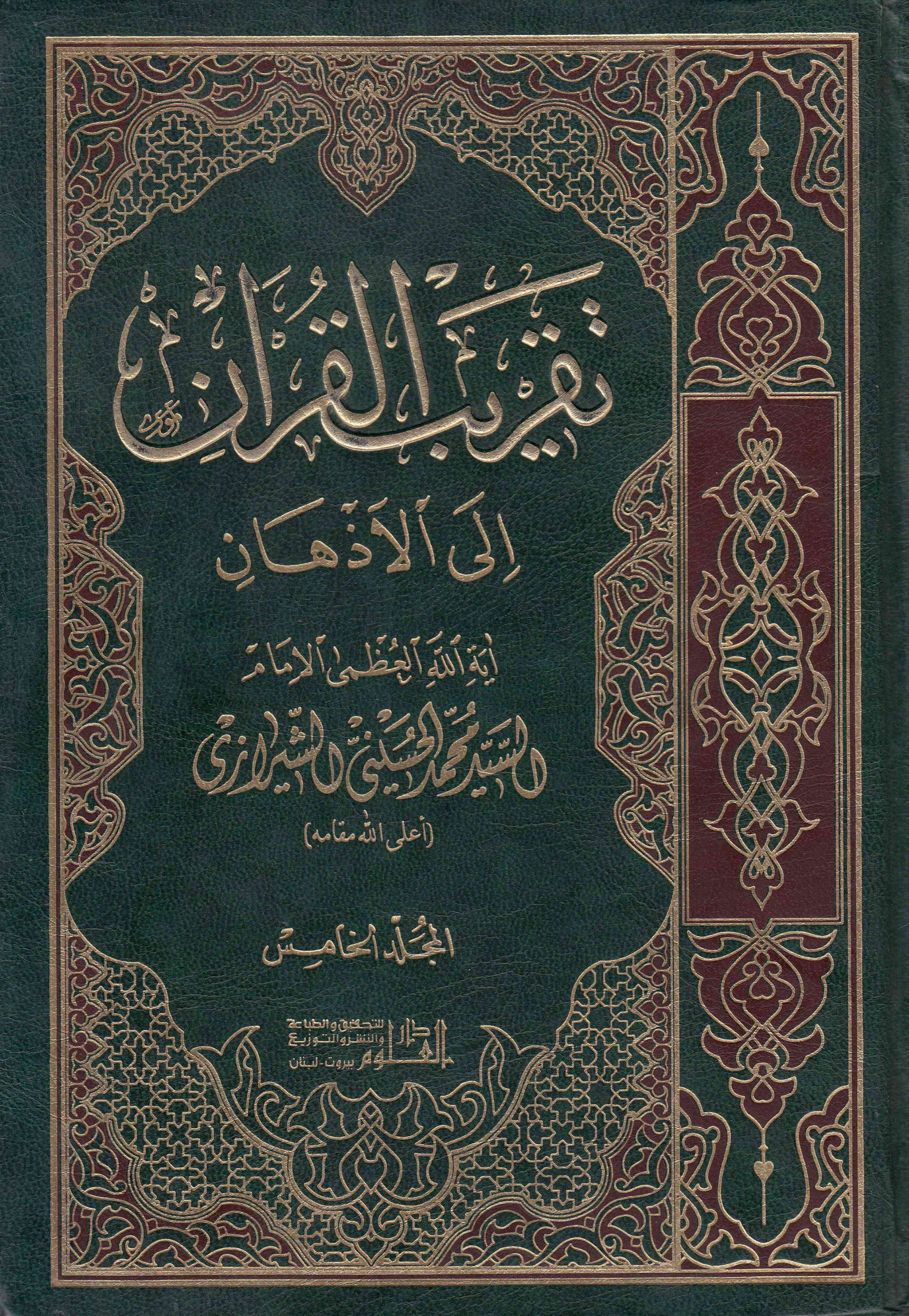
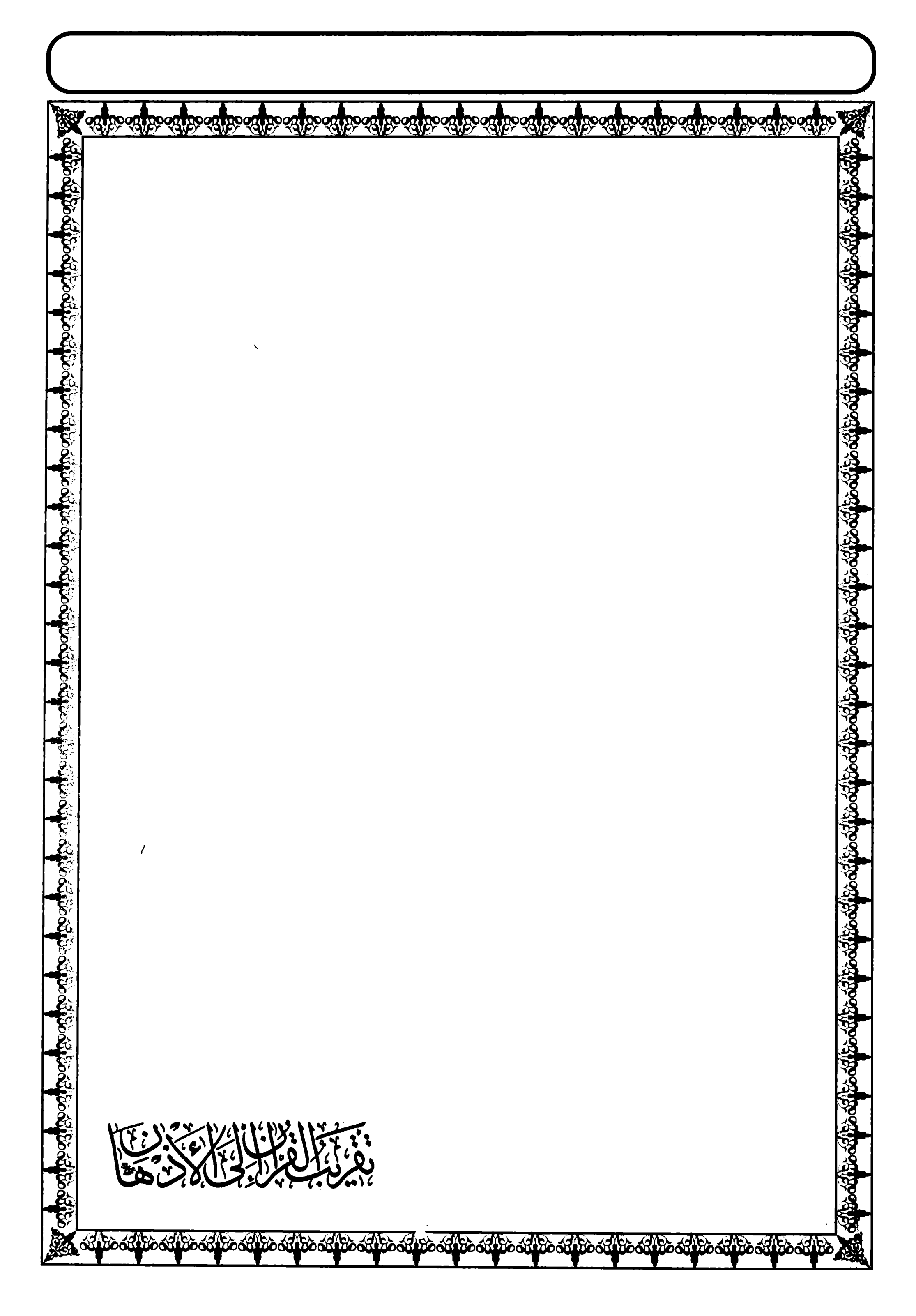
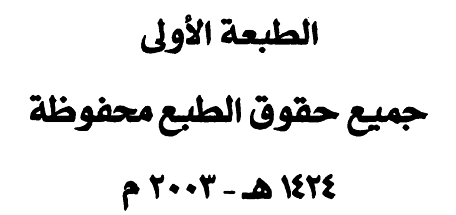

تقريب القرآن
إلى الأذهان
آية الله العظمى الإمام
السيد محمد الحسيني الشيرازي
(أعلى الله مقامه)
المجلد الخامس
دار العلوم
للتحقيق والطباعة والنشر والتوزيع
بيروت - لبنان


تقريب القرآن إلى الأذهان





دار العلوم للتحقيق والطباعة والنشر والتوزيع

المكتبة : حارة حريك ـ بئر العبد ـ شارع السيد عباس الموسوي ـ الهاتف : ٠١/٥٤٥١٨٢ ـ ٠٣/٤٧٣٩١٩ ـ ص.ب : ١٣/٦٠٨٠

المستودع: حارة حريك ـ بئر العبد ـ مقابل البنك اللبناني الفرنسي ـ تلفاكس : ٠١/٥٤١٦٥٠

www.daraloloum.com E-mail : daraloloum@hotmail.com



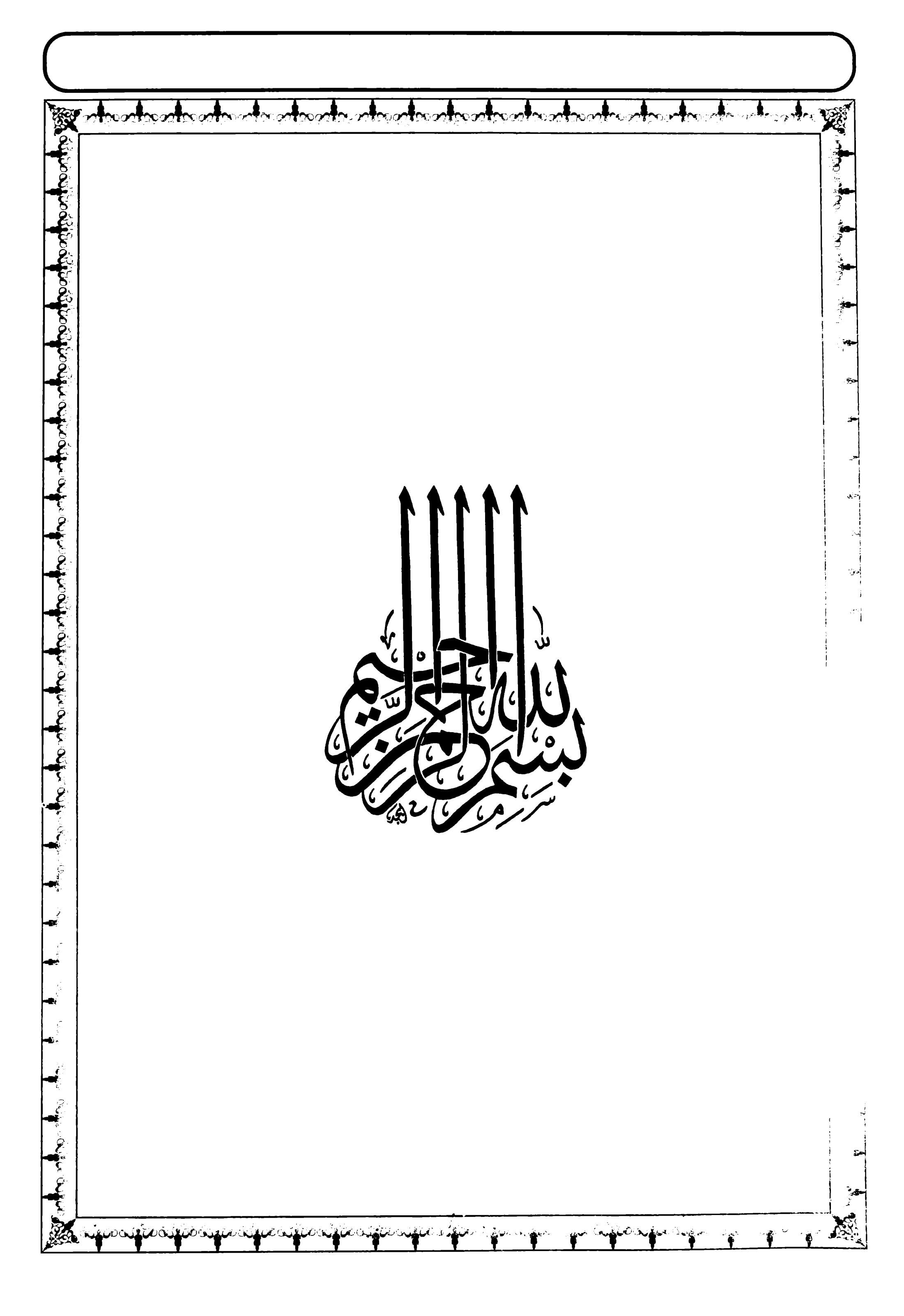
آية الله العظمى

الإمام السيد محمد الحسيني الشيرازي

(أعلى الله درجاته)

المجلد الخامس

دار العلوم
للتحقيق والطباعة والنشر والتوزيع
بيروت - لبنان

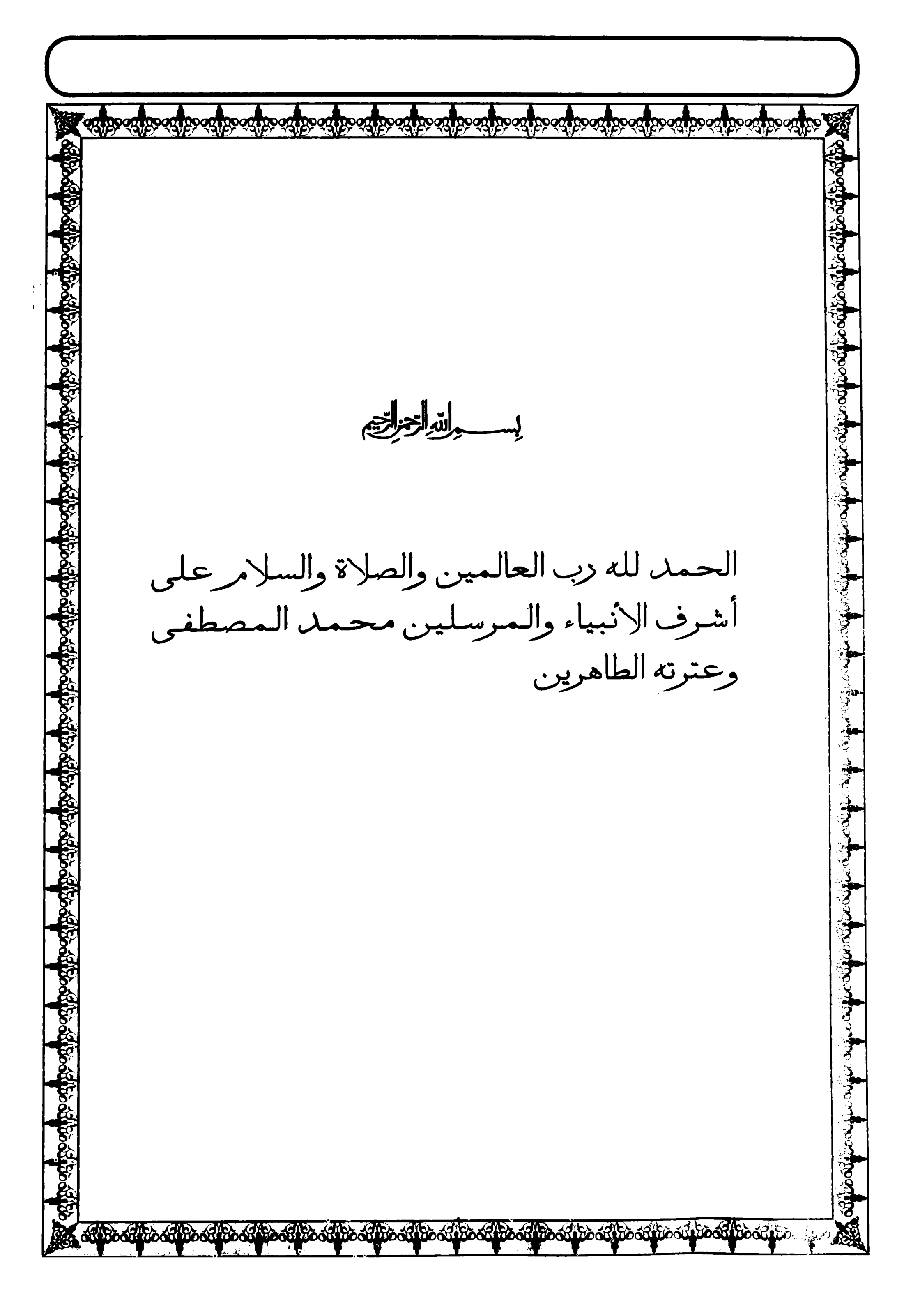

بسم الله الرحمن الرحيم



الجزء الخامس والعشرون

من آية (٤٨) سورة فصلت

إلى آية (٣٣) سورة الجاثية



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين محمد المصطفى وعترته الطاهرين

﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ ۚ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى قَالُوٓا۟ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ ﴿٤٨﴾ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَدْعُونَ مِن قَبْلُ ۖ﴾

[٤٨] وبمناسبة ما تقدم من أوصافه سبحانه، وذكر المعاد، يأتي السياق يؤكد ذلك، حتى يعرف الناس، أن ما يعملون، إنما هو باطلاعه سبحانه، ثم يجازيهم عنه ﴿**إليه**﴾ سبحانه ﴿**يرد علم الساعة**﴾ التي هي القيامة، والمعنى أنه، إذا سئل عن وقت القيامة، رد علمه إلى الله، وقيل الله عالم، إذ لا يعلمه سواه ﴿**وما تخرج من ثمرات من أكمامها**﴾ أي لاتخرج ثمرة من وعائها وغلافها، إلا بعلمه سبحانه، وأكمام جمع كم، وهو الغلاف، يقال تكمم الرجل بثوبه إذا تلفف به ﴿**وما تحمل من أنثى**﴾ إنساناً كان أو حيواناً ﴿**ولا تضع**﴾ مولودها ﴿**إلا بعلمه**﴾ تعالى، وحيث إن القيامة عبارة عن ظهور عالم جديد، ناسب ذلك الإتيان بظهور الثمرة، وظهور الحمل، وظهور الولد، فعلمه سبحانه عامّ لكل شيء ﴿**و**﴾ اذكر يا رسول الله ﴿**يوم يناديهم**﴾ أي ينادي الله سبحانه المشركين، قائلاً لهم ﴿**أين شركائي**﴾ الذين زعمتم أنهم مشتركون معي في صفة الألوهية؟ وهذا الاستفهام للتقريع ﴿**قالوا**﴾ أي المشركين ﴿**آذناك**﴾ أي أعلمناك، والمعنى نعلمك ونعترف لك بأنه ﴿**ما منا**﴾ أي ليس منا جماعة المشركين ﴿**من شهيد**﴾ يشهد بأن لك شريكاً، يريدون بذلك التبرؤ من أعمالهم الإشراكية.

[٤٩] ﴿**وضل عنهم ما كانوا يدعون من قبل**﴾ أي ضاع عنهم الآلهة، التي

وَظَنُّواْ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٤٩﴾ لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ ﴿٥٠﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ

كانوا يعبدونها قبل يوم القيامة، في دار الدنيا، فلم يجدوها في المحشر ﴿**وظنوا**﴾ بأنهم ﴿**مالهم من محيص**﴾ أي ملجأ ومهرب وإنما قال ظنوا حكاية عنهم، فإن الإنسان لا يقر نفسياً بما يؤلمه، وإن كان في قرارة نفسه يعلم بوصول المكروه إليه، أو إنهم ظنوا حقيقة لاحتمالهم النجاة.

[٥٠] ثم يأتي السياق ليصف حال الكفار في الدنيا، بعد أن أرى جانباً من حالهم في الآخرة، ليبين وجه إصلائهم النار في الآخرة، إنه لانحرافهم في الدنيا، فبالإضافة إلى كفرهم، إنهم منسلخون عن الفضيلة ﴿**لا يسأم الإنسان**﴾ أي لا يمل ولا يكل ﴿**من دعاء الخير**﴾ ويطلبه، فهو يدعو الخير ويطلبه لنفسه دائماً أبداً لا قناعة له ولا رضى في نفسه، مما حصل عليه بقدر الكفاية ﴿**و إن مسه الشر**﴾ مجرد إحساس، من فقر ومرض وخوف وما أشبه ﴿**فيؤوس**﴾ أي شديد اليأس من الفرج ﴿**قنوط**﴾ من رحمة الله تعالى.

[٥١] ﴿**ولئن أذقناه**﴾ أي أعطينا هذا الإنسان المتصف بتلك الصفة ﴿**رحمة منا**﴾ أي فرجاً من كربه، بالصحة والغنى بعد المرض والفقر، أو ما أشبه ذلك ﴿**من بعد ضراء مسته**﴾ أي وصلت إليه ﴿**ليقولن**﴾ منكراً فضل الله وإحسانه في كشف كربه ﴿**هذا**﴾ الخير الذي جاءني ﴿**لي**﴾ فأنا فاعله، والآتي به، عوض أن يشكر ربه، ويعرف أنه من إحسانه وفضله ﴿**و ما أظن الساعة**﴾ أي القيامة

قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّيٓ إِنَّ لِي عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ ۚ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥١﴾ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴿٥٢﴾

﴿**قائمة**﴾ أي سوف تكون، فإن الإنسان إذا وجد نعمة بطر ونسي ربه وميعاده، فلا يشكر، ولا يصرف النعمة في حقها، فيعرض ميعاده، بل يقول إن النعمة لي، ويصرفها في الشر قائلاً، لا قيامة، حتى أعمل صالحاً بالنعمة، ثم فوق ذلك يظن أنه مكرم عند الله ـ كما هو تمني الجهّال ـ فيقول ﴿**ولئن رجعت إلى ربي**﴾ بأن صدق قول الناس المؤمنين بوجود الميعاد ﴿**إن لي عنده للحسنى**﴾ أي المنزلة الحسنى، وهي الجنة، فكما أعطاني في الدنيا، يعطيني في الآخرة، وهنا يأتي السياق ليبين مصير هذا الإنسان ﴿**فلننبئن الذين كفروا**﴾ أي لنخبرن هؤلاء الكفار ﴿**بما عملوا**﴾ في الدنيا من الكفر والعصيان، والإخبار إنما هو لأجل التقرير، وإفضاحهم أمام الملأ العام ﴿**ولنذيقنهم من عذاب غليظ**﴾ هو النار والنكال، لما عملوا من الأعمال السيئة.

[٥٢] ﴿**وإذا أنعمنا على الإنسان**﴾ والمراد به الإنسان المنحرف، كما سبق في الآية السابقة ﴿**أعرض**﴾ عن الله سبحانه ﴿**و نأى بجانبه**﴾ أي بعد بجانبه عن الاعتراف بالله وشكره، تشبيه بالإنسان المعرض عن شيء، حيث يبعد نفسه منه بعداً حسياً ﴿**و إذا مسه الشر**﴾ من مرض وفقر وخوف وما شابه ﴿**فذو دعاء عريض**﴾ يكثر الإلحاح والطلب منا لرفع ضره، و«العريض» أبلغ من «الطويل»، إذ العريض لايكون إلا طويلاً،

قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ

وإلا لايسمى عريضاً، بخلاف الطويل، فإنه لا يلازم العريض.

[٥٣] ﴿**قل**﴾ يا رسول الله لهؤلاء الكفار المنكرين، لكون القرآن من عند الله تعالى ﴿**أرأيتم**﴾ أي أخبروني ﴿**إن كان**﴾ القرآن ﴿**من عند الله**﴾ بأن أنزله عليَّ لا كما تقولون من أنه افتراء مختلق ﴿**ثم كفرتم به**﴾ وجحدتموه ﴿**من أضل ممن هو في شقاق بعيد**﴾؟ أي من يكون ـ حينذاك ـ أكثر ضلالاً منكم؟ وإنما أتي بهذا الوصف، تقريعاً. ورهاناً، لكونهم أضل، إذ هم في شقاق بعيد عن الحق، فهم شق والحق في شق، وبينهما تباعد كثير.

[٥٤] ﴿**سنريهم آياتنا**﴾ الدالة على وجودنا، وسائر صفاتنا ﴿**في الآفاق**﴾ جمع أفق، وهو أطراف الكون، لأن كل طرف أفق، من سماء وأرض، وشمس، وقمر، ونجوم، وجبال، وشجر، وحيوان، وبحار، وغيرها ﴿**وفي أنفسهم**﴾ وما فيها من لطائف الصنع، وعجائب التراكيب، التي تدل على وجود الله وعلمه، وقدرته، وإرادته، وسائر صفاته، ومعنى الإرائة، إلفاتهم إلى الآيات، بواسطة التوجيهات في القرآن، وكلمات الرسول والأئمة، والإلقاء في قلوبهم ﴿**حتى يتبين**﴾ أي يظهر ﴿**لهم**﴾ أي لهؤلاء الكفار ﴿**أنه**﴾ أي الله سبحانه، أو الرسول، أو القرآن ﴿**الحق**﴾ فإن الأدلة الكونية ترشد إلى كل ذلك ـ وإن كان الأول أقرب ـ ﴿**أولم يكف بربك**﴾ يا رسول الله، والباء في

أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ﴿٥٤﴾ أَلَآ إِنَّهُمۡ فِي مِرۡيَةٖ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمۡۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءٖ مُّحِيطُۢ ﴿٥٥﴾

«بربك» زائدة دخلت على الفاعل، إذ الأصل في المعنى «أولم تكف بربك» ﴿**أنه على كل شيء شهيد**﴾ أي حاضر، وهذا برهان على أنه الإله الحق، إذ الإله يحضر ويشهد كل شيء بخلاف سائر الأشياء، فإنها لاتشهد «الله» إذ الإله سابق عليها، والشاهد يلزم أن يكون حاضراً من البدء إلى الختم، وليس لأحد أن يقول: من أين نعلم، أن الله شاهد على كل شيء؟ إذ الجواب هل هناك شيء أول شهد كل شيء، أم لا؟ فإن قال نعم قلنا ذلك هو الله، وثبت المطلوب، وإن قال لا، قلنا هذا خلاف الضروري، إذ لا يعقل أن لا يكون هناك شيء أول، وإن قال، بل يمكن أن يكون الأول متعدداً، فلا وحدة في الأول قلنا اعترفت بالواحد، فعليك الدليل على الأكثر، ثم لا يمكن تعدد الأول، لما ثبت في علم الكلام، من أن التعدد في الأزلي غير معقول، إذ يلزم من التعدد التركب، ومن التركب، عدم الأولوية ـ فهو خلف ـ .

[٥٥] ﴿**ألا إنهم**﴾ أي الكفار ﴿**في مرية**﴾ وشك ﴿**من لقاء ربهم**﴾ أي لقاء حسابه وجزائه ـ على سبيل تشبيه المعقول بالمحسوس ـ وهذا على سبيل التسفيه لعقيدتهم، فكيف يمكن أن يكون الخلق عبثاً، لا حساب لهم ولا جزاء؟ ﴿**ألا إنه بكل شيء محيط**﴾ إحاطة علم وقدرة، فهو عالم بهم، ولا يخرجون عن قبضته، فسيأتي يوم يحاسبهم بما علم، ويعطيهم جزاء كفرهم وإنكارهم، فلا مفر لهم منه، ولا مجال للإنكار، لما اقترفوه من الكفر والآثام.



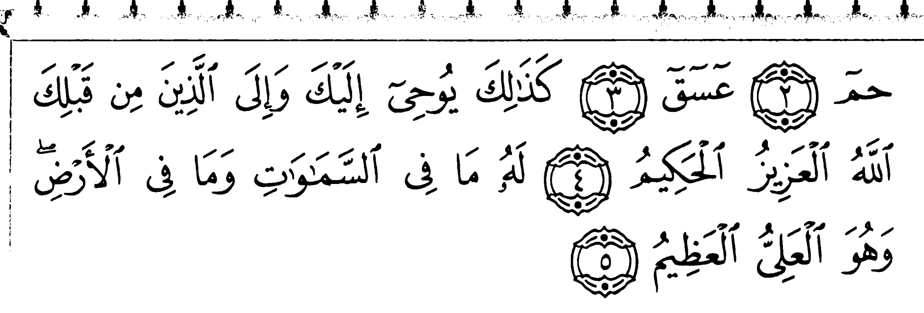
سورة الشورى

مكية ـ مدنية/ آياتها(٥٤)

وتسمى بـ «حمعسق» أيضاً لاشتمالها على كلمة «الشورى» و«حمعسق»، وهي كسائر السور المكية، تعالج قضايا العقيدة، قالوا ونزلت بعض آياتها في المدينة، كآية «القربى» وحيث ختمت سورة فصلت، بذكر إنكار الكفار للأصول، ابتدأت هذه السورة، بتقريرها، وتأكيدها، فقال سبحانه:



[١] ﴿**بسم الله الرحمن الرحيم**﴾ شروع في السورة، باسم الله، والإتيان، بـ «الاسم» دون أن يقال «بالله» للتحليل والتصريح، إذ قوله «بالله» أيضاً تؤول إلى «باسم الله» وللمعارضة لما يقوله أهل سائر الأديان، والطرق كقول المسيحي «باسم الأب والابن والروح القدس» والتأكيد على صفتي «الرحمن الرحيم» للتوجيه إلى أهم الصفات التي تنفع الناس في دنياهم وآخرتهم.



[٢ ـ ٣] ﴿حم * عسق﴾ أي أن هذا القرآن مؤلف من حروف الهجاء، التي منها «حاء» «ميم» «عين» «سين» «قاف» ـ على قول ـ أو رمز بين الله والرسول ـ على آخر ـ أو هو إشارة إلى أسامي لله تعالى، فمعناه الحليم المثيب العالم السميع القادر ـ على رواية عن الصادق عليه السلام[1] ـ أو غير ذلك من الأقوال الكثيرة، في فواتح السور.

[٤] ﴿**كذلك**﴾ أي كهذا الذي ذكرها من «حم عسق» أو كالوحي الذي تقدم من سائر سور القرآن ﴿**يوحي إليك**﴾ يا رسول الله ﴿**وإلى**﴾ الأنبياء ﴿**الذين من قبلك الله**﴾ فاعل يوحي ﴿**العزيز**﴾ في سلطانه، فلا غالب عليه ﴿**الحكيم**﴾ في تكوينه وتشريعه، فإنه يخلق الأشياء حسب الحكمة والصلاح، ويأمر ويشرع، حسب الحكمة والصلاح، فإنزال الوحي عليك، وعلى الأنبياء السابقين، تابع للحكمة، لا عبث فيه، ولا إعتباط، ولا محاباة.

[٥] ﴿**له**﴾ تعالى بالخلق والملك والتدبير ﴿**ما في السماوات وما في الأرض**﴾ المراد الظرف والمظروف، فإن أحدهما يطلق، ويراد به الآخر ـ في كثير من الأحيان ـ إيجاز في الكلام ﴿**وهو العلي**﴾ أي الرفيع الذي لا أرفع منه، والمراد رفعة المنزلة لا رفعة المكان، فإنه تعالى منزه عن المكان والمكانيات ﴿**العظيم**﴾ الذي هو أعظم من كل شيء

(١) بحار الأنوار: ج٨٩ ص٣٧٣.

تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ

علماً وقدرة، ومن حيث سائر الصفات.

[٦] ثم بين سبحانه بعض عظمته في الكون التي أوجبت أن تقترب السماوات إلى الانفطار والانشقاق خوفاً وروعة، وأوجبت تنزيه الملائكة، وطلب غفرانهم لأهل الأرض العصاة، كما نرى من اعتذار الوزير من الملك، عمّن عصاه، لما يرى شدة بطشه، ولما يخاف من أن تحل نقمته ـ **﴿تكاد السماوات يتفطرن﴾** أي يتشققن **﴿من فوقهن﴾** أي جهة أعلاهن، لأن الأعلى، أقرب إلى ما ارتكز في الذهن من علوه سبحانه، وإن كان العلوان مختلفان، فعلوه سبحانه معنوي وعلوها حسي، والمعنى أن عظمته سبحانه، بحيث تؤثر في السماوات، حتى أنها تقترب من الانشقاق، وهذا كقوله سبحانه (وَلَوْ أَنَّ قُرْآناً سُيِّرَتْ بِهِ الجِبَالُ)[١] وقوله (إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ)[٢] **﴿و الملائكة يسبحون بحمد ربهم﴾** أي ينزهونه بذكر محامده، فإن من قال فلان شجاع، كان حمداً وتنزيهاً عن الجبن، بخلاف ما لو قال إنه ليس بجبان، فإنه لا يلزم أن يكون شجاعاً **﴿ويستغفرون لمن في الأرض﴾** بأن يغفر الله لهم، أما مؤمنهم، فيغفر له عصيانه، وأما كافرهم فبأن يهيئ سبحانه مغفرته بالإيمان، حتى لا يحل بهم العذاب مما يرهب منه، حتى الملائكة، وإن كان تعذيباً لغيرهم، فإن الشخص يرهب العذاب، حتى إذا نزل بغيره **﴿ألا﴾** فيتنبه البشر **﴿إن الله هو الغفور﴾**

(١) الرعد: ٣٢.

(٢) الأحزاب: ٧٣.

ٱلرَّحِيمُ ۝٥ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيۡهِمۡ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٍ ۝٦ وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ وَمَنۡ حَوۡلَهَا وَتُنذِرَ يَوۡمَ ٱلۡجَمۡعِ لَا رَيۡبَ فِيهِۚ

لذنوب عباده ﴿**الرحيم**﴾ بهم يتفضل عليهم بالإحسان فوق الغفران.

[٧] ﴿**والذين اتخذوا من دونه**﴾ أي من دون الله ﴿**أولياء**﴾ أي الأصنام بأن عبدوها ﴿**الله حفيظ عليهم**﴾ أي أنه يحفظهم، فالأصنام موهومات، لاحقيقة لإلوهيتها، وإنما الله هو الحافظ لهم، وهكذا كما يقول الرئيس: إن فلاناً الذي يحاربني، يأكل رزقي وعطائي، ﴿**وما أنت**﴾ يا رسول الله ﴿**عليهم بوكيل**﴾ فإنك غير مسؤول عن كفرهم، وإنما أنت مسؤول عن تبليغهم، وقد فعلت ذلك.

[٨] ﴿**وكذلك**﴾ أي كما أوحينا إلى الأنبياء من قبلك ﴿**أوحينا إليك**﴾ أو المعنى، «هكذا أوحينا إليك» وإنما جيء بـ«ذلك» لتنزيل رفعة القرآن معنى، منزلة بعده حساً ـ كما ذكروا في علم البلاغة ـ ﴿**قرآناً عربياً**﴾ فإنه بلغة العرب ليفقهوا ما فيه ﴿**لتنذر**﴾ يا رسول الله ﴿**أم القرى**﴾ وهي مكة، والمراد أهلها ﴿**و من حولها**﴾ أي حول مكة من سائر القرى في العالم، فإنها حيث صارت أُمّاً صارت كل قرية حولها، فإن البنات حول الأم، وإنما سميت أم القرى، لأن الأرض دحيت من تحتها، كالأولاد الذين يخرجون من الأم بالولادة، وكأن هذا الإنذار، بالنسبة إلى الأمور الدنيوية، فإن من أعرض عن ذكره تكون معيشته ضنكاً ﴿**وتنذر يوم الجمع**﴾ هو يوم القيامة، الذي يجمع فيه الخلائق، بأن من كفر أو عصى، عذب بالنار والنكال ﴿**لا ريب فيه**﴾وإن ارتاب

فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ ﴿٨﴾ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٩﴾ أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ

فيه كثيرون، إذ المعنى، إنه ليس محلاً للريب، كما قال سبحانه، بالنسبة إلى القرآن (لاَ رَيْبَ فِيهِ)(١) وكما تقول «لا ريب في نور الشمس» وإن أنكره السوفسطائيون ﴿**فريق في الجنة**﴾ وهم المؤمنون المطيعون ﴿**و فريق في السعير**﴾ أي النار المستعرة الملتهبة، وهم الكفار والعصاة، فتنذرهم، بأن لا يتمادوا في الكفر والعصيان، حتى يكونوا من أصحاب السعير.

[٩] ﴿**و لو شاء الله**﴾ أن يجبر الناس على دين واحد ﴿**لجعلهم أمة واحدة**﴾ ولكن هذا نقض للغرض، فإن الغرض من الخلقة التكليف، حتى يترتب عليه الثواب والعقاب، ولو كان الناس مجبورين، لكانوا كالأحجار والنبات في الفعل ﴿**و لكن**﴾ خيّرهم، وأعطى الزمام بأيديهم، لـ ﴿**يدخل من يشاء**﴾ ممن آمن وعمل صالحاً ﴿**في رحمته**﴾ بالسعادة في الدنيا، والجنة في الآخرة ﴿**و الظالمون**﴾ الذين اختاروا الكفر والعصيان ﴿**ما لهم من ولي**﴾ يواليهم ويلي أمورهم ﴿**و لا نصير**﴾ ينصرهم.

[١٠] ﴿**أم**﴾ منقطعة، بمعنى «بل» أي أن الكفار ضربوا عن عبادة الله وولايته، و﴿**اتخذوا من دونه أولياء**﴾ هي الأصنام التي والاها الكفار ﴿**فالله هو الولي**﴾ وإنما الأصنام أحجار لا تضر ولا تنفع، فهي

(١) البقرة: ٣.

وَهُوَ يُحْيِ الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠﴾ وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿١١﴾ فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُم

لاتوالي أحداً ولا تنفع ولاية الناس لها ﴿**و هو يحي الموتى**﴾ فمبعث الخلق بيده، لا بيد غيره، ويلزم من ذلك، أن يخاف الناس عقابه، حيث إن بيده الحكم ﴿**و هو على كل شيء قدير**﴾ من الإحياء والإماتة والرزق، وغيرها، بخلاف الأصنام، التي لا تقدر على شيء، واتخاذ القادر ولياً أولى من اتخاذ العاجز.

[١١] أما هذه الاختلافات التي حدثت بين الناس، فالحكم الوحيد فيها هو الله تعالى، إذ هو المطلع على الصدق والكذب والحقيقة والزيف ﴿**وما اختلفتم فيه من شيء**﴾ الضمير عائد إلى «ما» أي كل شيء اختلفتم فيه﴿**فحكمه إلى الله**﴾ وهو الحَكَم العالم الذي يحق له الحكم، أما من سواه، فبين جاهل، وبين ما لا يحق له الحكم، وإن كان عالماً، إذ الفصل في القضايا ونفوذها أمر يحتاج إلى السلطة، ولا سلطة إلا له سبحانه ﴿**ذلكم**﴾ «ذا» إشارها، و«كم» خطاب ﴿**الله ربي**﴾ أي أن الذي يحكم بين المختلفين هو ربي، لا الأصنام العابرة الجاهلة ﴿**عليه توكلت**﴾ في مهامي ﴿**و إليه أنيب**﴾ أي أرجع في جميع أموري، أو المعنى، أتوب إليه.

[١٢] ثم وصف سبحانه بأنه ﴿**فاطر السماوات والأرض**﴾ أي خالقهما ومبدعهما، من فطر بمعنى خلق، وهو الذي ﴿**جعل لكم**﴾ أيها البشر

مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا وَمِنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ أَزۡوَٰجٗاۖ يَذۡرَؤُكُمۡ فِيهِۚ لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ﴿١٢﴾ لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ

﴿**من أنفسكم**﴾ أي من جنس نفوسكم ﴿**أزواجاً**﴾ ليسكن الإنسان إليها، فإن «كل جنس لجنسه يألف» ولا يقال فكيف تكون في الآخرة زوجة الإنسان حورية؟ إذ هناك يلطف الإنسان، حتى يكون كالملك فيتجانسان ﴿**و**﴾ جعل ﴿**من الأنعام**﴾ الإبل والبقر والغنم ﴿**أزواجاً**﴾ ذكراً وأنثى، لتكميل المنافع والنتاج، لبقاء النسل، فمن يا ترى جعل كل ذلك؟ ﴿**يذرؤكم**﴾ ذرأ، بمعنى أوجد، أي يخلقكم ـ أنتم والأنعام ـ ﴿**فيه**﴾ أي في هذا الجعل، فإن امتداد نسل الإنسان والحيوان، إنما هو بجعل الأزواج، ولذا ينقطع من لا زوج له ﴿**ليس كمثله شيء**﴾ من الأصنام وغيرها من سائر المعبودات، والكاف إما زائدة لتأكيد النفي ـ كما هو شأن الزوائد غالباً ـ أي ليس مثله شيء، قطعاً، أو هذا مبالغة، فإن الشيء إذا لم يكن لما يشابهه مثل، لم يكن له مثل بطريق أولى، مع أنه سبحانه لا يشابه أحداً، فهو غير منقطع عن خلقه ﴿**وهو السميع**﴾ للمسموعات ﴿**البصير**﴾ للمبصرات، فهو غير منقطع عن خلقه، فقد أحاطهم علماً وإدراكاً.

[١٣] ﴿**له**﴾ سبحانه ﴿**مقاليد**﴾ جمع مقلاد وهو المفتاح ﴿**السماوات والأرض**﴾ فإن مفتاح الصحة والمرض، والغنى والفقر، والحياة والموت، والإيجاد والإعدام، وغيرها.. ، بيده، وهذا من باب التشبيه، فإن من بيده المفتاح يكون مسيطراً على الخزينة التي منها العطاء والمنح ﴿**يبسط الرزق**﴾ أي يوسعه ﴿**لمن يشاء**﴾ من عباده

وَيَقْدِرُ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٣﴾ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ

﴿**ويقدر**﴾ أي يضيق الرزق لمن يشاء، حسب حكمته في التوسعة والتضييق، وليس معنى هذا، أن لا مدخلية للطلب، إذ الطلب من جملة الأشياء التي قررها سبحانه للرزق، كما أن الزواج من جملة الأسباب التي قررها سبحانه للولد، وإن كان الولد من خلقه تعالى ﴿**إنه بكل شيء عليم**﴾ ومن علمه جعل بعض الناس أغنياء، بأن وسع عليهم، وجعل بعضهم فقراء، بأن ضيق عليهم.

[١٤] ثم أن هذا الخالق العظيم، الذي بيده كل شيء، وهو سميع بصير بكل شيء، هو الذي شرع الدين لرفاه البشر، ونظامه أفضل الأديان والأنظمة، إذ يعرف ما يلائم حياة الإنسان، وما لا يلائم، ثم إن نظامه خال من الأغراض، والأهواء والميول ﴿**شرع لكم**﴾ أيها المسلمون ﴿**من الدين**﴾ أي الإسلام، ومعنى الشرع، جعل النهج والنظام وأصله من الظهور، ومنه الشريعة لظهور محل أخذ الماء على الشاطئ، أو من الشروع بمعنى الابتداء ﴿**ما وصى به نوحاً**﴾ فالإسلام دين الأنبياء، من شيخ المرسلين نوح الذي كان بدء العالم الجديد ﴿**و**﴾ هو ﴿**الذي أوحينا إليك**﴾ يا رسول الله ﴿**و ما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى**﴾ فهؤلاء الأنبياء، وغيرهم من سائر الأنبياء، إنما بشروا بدين واحد، كما قال الله سبحانه (إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ)[1] وقد ذكرنا في بعض

---

(١) آل عمران: ٢٠ .

أَنْ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ

المؤلفات، إن الدين ينقسم إلى أصول وفروع وأخلاق، والكل غير قادر للتبدل، فالأصول: التوحيد، والعدل، والنبوة، والوصاية، والمعاد، وهل هذا قابل للاختلاف؟ والفروع: خضوع يسمى الصلاة، وإنفاق يسمى الزكاة، وإمساك يسمى الصيام، وذهاب إلى محل يذكر الله يسمى الحج، وأمر بالمعروف، ونهي عن المنكر، وهل هذا قابل للنسخ؟ ثم بيع وشراء وإجارة وإرث، وما أشبه، ورذائل محرمة، كالخمر والقمار، وفضائل لازمة، كالصلة وبر الوالدين، وهل يمكن تحريف شيء منها؟ والأخلاق شجاعة وغيرة وبذل ومعونة وعفة، وما أشبه، وهل يمكن أن تنقلب الشجاعة رذيلة، والجبن فضيلة، وهكذا؟ نعم اختلاف في الحدود، والقيود، والآداب، لا في الجوهر والأصل ﴿**أن أقيموا الدين**﴾ متعلق، بـ «وصّى» أي أوصيناهم بإقامة الدين، بأن يكون قائماً غير دارس ﴿ **ولا تتفرقوا**﴾ أيها الأنبياء عليهم السلام أو أيها الناس - بأن يكون من باب الالتفات - ﴿**فيه**﴾ أي في الدين ثم ذكر الله سبحانه، إن الكفار يستعظمون دعوتك إلى التوحيد، لأنهم عباد أصنام قد توارثوها عن الآباء ﴿**كبر على المشركين**﴾ بالله ﴿**ما تدعوهم**﴾ من التوحيد والإخلاص ﴿**إليه**﴾ أو المراد كبر عليهم دعوتك إلى نفسك بالرسالة، إذ قالوا، كيف صار رسولاً من بيننا (لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ) [1]؟ وهذا المعنى أقرب إلى الجملة التالية ﴿**الله يجتبي إليه من يشاء**﴾ أي أن الله سبحانه يختار من يشاء للرسالة،

---

(١) الزخرف: ٣٢ .

وَيَهْدِيٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٤﴾ وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِيَ بَيْنَهُمْۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ

ولفظ «إليه» إنما هو لأن المختار ينضم وينتهي إلى من اختاره واجتباه، ولا يختار الله إلا من هو قابل للرسالة، فليس اعتباطاً وجزافاً، أو تابعاً للمال والشرف الظاهري ﴿**و يهدي إليه**﴾ بالألطاف الخفية ﴿**من ينيب**﴾ أي من يتوب إليه، ويرجع عن كفره وعصيانه، فإنه إذا هدى شخصاً وأرشده الطريق، فأناب وتاب، لطف به بألطافه الخفية.

[١٥] ﴿**وما تفرقوا**﴾ أي لم يختلف أهل الكتاب فيما بينهم ﴿**إلا من بعد ما جاءهم العلم**﴾ بوحدة الدين، وحقيقة جميع الأنبياء، فقد أرشدهم سبحانه، فلم ينيبوا ولم يرجعوا، ولذا تركهم سبحانه ولم يلطف بهم الألطاف الخفية، ولم يزدهم هدى، وإنما تفرقوا ﴿**بغياً**﴾ أي حسداً وظلماً ﴿**بينهم**﴾ بأن بغى بعضهم على بعض حسد بعضهم بعضاً، والمراد ظلم أهل الكتاب بعضهم بعضاً، وكان الإتيان بلفظ «بينهم» لإفادة أنهم لم يظلموا الأجانب عن الإيمان بل حسدوا وظلموا من هم على شاكلتهم في الدين والإذعان ﴿**ولولا كلمة سبقت من ربك**﴾ بأن يمهلهم ﴿**إلى أجل مسمى**﴾ قد سمي ذلك الأجل والأمد في اللوح المحفوظ ﴿**لقضي بينهم**﴾ أي قضى الله سبحانه بينهم، بتقوية الحق، وإهلاك المبطل، لكن الله سبحانه، حيث حكم ببقائهم مدة معينة ـ لمصلحة رآها في ذلك ـ أخر العذاب عنهم ﴿**وإن الذين أورثوا الكتاب من بعدهم**﴾ بأن صاروا من أهل

لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١٥﴾ فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ

الكتاب، بعد أولئك الأنبياء، أو بعد آبائهم المختلفين ﴿**لفي شك منه**﴾ أي من هذا القرآن أو من الدين ﴿**مريب**﴾ موجب للتشكيك والريب، فهؤلاء كآبائهم في الاختلاف والتفرق، أو المعنى، أن أخلاف أهل الكتاب، لفي شك من كتابهم، إذ التفرق والاختلاف، يوجب الشك والريب في أن ما بيد الإنسان، هل هو صحيح أم لا؟

[١٦] ﴿**فلذلك**﴾ أي لاختلاف هؤلاء في الدين بحيث لم يبقَ الدين واضحاً قائماً ﴿**فادع**﴾ يا رسول الله إلى الله سبحانه ﴿**و استقم**﴾ في الدعوة، ولا تبالي بما تلاقي من أنواع الأذى وصنوف المكروه ﴿**كما أمرت**﴾ أي كما أمرك الله سبحانه بالدعوة والاستقامة ﴿**و لا تتبع**﴾ يا رسول الله ﴿**أهواءهم**﴾ أي أهواء أهل الكتاب الذين حرفوا الدين، وزادوا فيه، وأنقصوا منه ﴿**و قل**﴾ يا رسول الله معلناً وحدة الأديان والكتب والرسالات ﴿**آمنت بما أنزل الله من كتاب**﴾ فكل الكتب للهداية، والتبشير من جانب الله تعالى ﴿**و أمرت لأعدل بينكم**﴾ فمن طبيعة دين الله العدل بين جميع الناس، فلا يحابي أحداً، ولا ينقص أحداً قدره ﴿**الله ربنا وربكم**﴾ أيها الناس، فلا إله سواه ﴿**لنا أعمالنا ولكم أعمالكم**﴾ فكل امرئ مجزي بأعماله، إن كان خيراً فخير، وإن كان شراً فشر، فكفر الكافر لا يضر إلا نفسه، كما أن إيمان المؤمن لا ينفع إلا نفسه، وقد ظهر الحق فـ ﴿**لا حجة بيننا وبينكم**﴾ فقد تم

﴿ٱللَّهُ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَاۖ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ١٦ وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ٱسۡتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمۡ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمۡ وَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ وَلَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٌ ١٧﴾

الاحتجاج، وظهر الحق، واضحاً جلياً، إذ الاحتجاج إنما يكون قبل ظهور الحق، أما بعده، فلا فائدة فيه ﴿**الله يجمع بيننا**﴾ للحساب يوم القيامة، حتى يظهر هناك، من المحق، ومن المبطل ﴿**وإليه المصير**﴾ أي إلى ثوابه وعقابه، فالمؤمنون مصيرهم نعيم الله سبحانه وجنانه والكافرون مصيرهم سخط الله ونيرانه.

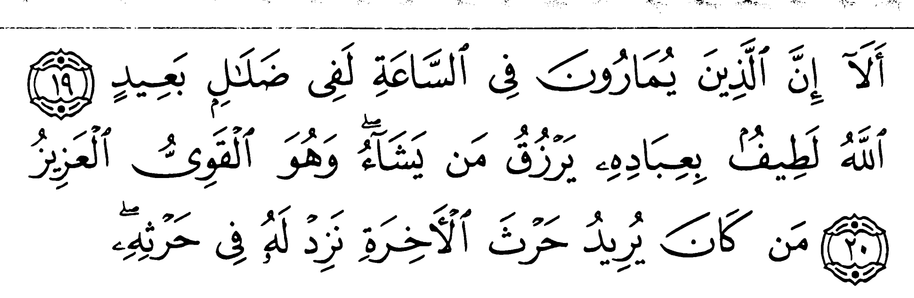
[١٧] ﴿**و الذين يحاجون في الله**﴾ في ذاته، أو صفاته ﴿**من بعد**﴾ تلك الحجج الواضحة، وقد ﴿**ما استجيب له**﴾ استجاب للدعوة الزمرة المؤمنة ﴿**حجتهم داحضة**﴾ أي باطلة زائفة، إذ الاحتجاج بعد تمام الدليل، والتفات المؤمنين حول الدعوة لا قيمة له، نعم لو لم تثبت الحجة، أو لم يكن هناك جماعة مستجيبة، يأوي إليها الإنسان من شر الخصوم والعداء، لكان لهم بعض الحق، في الجدل والخصومة، أما وقد بان الطريق، وسلكه الناس، فلا حجة، لمن لا يسلك ﴿**عند ربهم**﴾ وإن كان بعض الناس يعطيهم الحق في بقائهم على الكفر، ولكن عند الله سبحانه، وفي حسابه لا حق لهم، ولا مفهوم لقوله «من بعد ما استجيب له» بل ذلك بيان لشدة ضلال هؤلاء، حتى أنه بعد الاستجابة، يبقون على كفرهم وضلالهم ﴿**وعليهم غضب**﴾ من الله سبحانه ﴿**و لهم عذاب شديد**﴾ يوم القيامة، أو أعم منه، ومن الدنيا، وحيث إن الله سبحانه، ليس غضبه، بمعنى ما فينا ـ مما هو ملازم للنفس ـ كان معناه نتيجة الغضب، وهو الانتقام، وذلك أعم من

ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ وَٱلۡمِيزَانَۗ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٞ ﴿١٨﴾ يَسۡتَعۡجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِهَاۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مُشۡفِقُونَ مِنۡهَا وَيَعۡلَمُونَ أَنَّهَا ٱلۡحَقُّۗ

العذاب الشديد، فلا يقال بأنه موجب للتكرار.

[١٨] ﴿**الله**﴾ الذي يحاجون فيه، هو من أنزل الشريعة وبيده المعاد، وهل يحاج الإنسان في جاعل النظام، وإليه مصير الأنام؟ فإن الله هو ﴿**الذي أنزل الكتاب**﴾ أي القرآن ﴿**بالحق**﴾ أي إنزالاً بالحق، ولأجل إقامة الحق، فلا الإنزال بالباطل، كإنزال الشياطين على الكهنة، ولا المنزل باطل، كما لو أمر صاحب الدار بخراب داره، فإن له الحق في الإنزال، لأنه صاحب السلطة، لكن ليس له حق في الأمر المنزّل، وهو خراب الدار ﴿**و**﴾ أنزل ﴿**الميزان**﴾ الذي يوزن به بين الحق والباطل في العقائد، والأعمال والأقوال ﴿**و ما يدريك**﴾ يا رسول الله، أي من أين تدري ـ وهذا للتهويل ـ أو المراد، ما يدريك أيها المخاطب ﴿**لعل الساعة قريب**﴾ أي القيامة، فلا يغر الإنسان، ما يراه من الأمن والسلامة، فلعل محكمته قربت، فاللازم أن يكون الإنسان على خوف ووجل منها.

[١٩] ﴿**يستعجل بها**﴾ أي يطلبون عجلة الساعة، بأن تأتيهم عاجلاً ﴿**الذين لا يؤمنون بها**﴾ وإنما استعجالهم على وجه الاستهزاء والسخرية، كما يسخر غير المؤمن بالساعة إذا ذكّر بها ﴿**والذين آمنوا**﴾ بالله ورسوله والمعاد ﴿**مشفقون**﴾ أي خائفون ﴿**منها**﴾ أي من الساعة، لما يعلمون من أهوالها، ولخوفهم، بأن يكونوا قد قصروا، فيسألهم عقابها ونكالها ﴿**و يعلمون أنها**﴾ أي الساعة ﴿**الحق**﴾ الذي لا كذب فيه مقابل



الكفار، الذين يظنون أنها باطلة، لاحقيقة لها ﴿ألا﴾ فليتنبه السامع ﴿إن الذين يمارون﴾ أي يجادلون من المراء، وهوالجدال ﴿في الساعة﴾ ليثبتوا بطلانها، منكرين لوجودها ﴿لفي ضلال﴾ وابتعاد عن الصواب ﴿بعيد﴾ كالإنسان الذي يضل عن الجادة كثيراً، ومقابل العصاة، الذين هم في ضلال، ولكن ليس بذلك البعد، فإنهم أقرب إلى الجادة، من منكر المعاد.

[٢٠] إن الله سبحانه خلق الدنيا للامتحان، ولذا يرزق المؤمن والكافر فيها، لتهيئة وسيلة السعادة، أما الآخرة، فليس رزقها، إلا لمن آمن وعمل صالحاً، وهذا لتنبيه الكفار، بأن الآخرة، التي يوعدونها ليست بمثابة الدنيا يُرزق فيها كل صالح وطالح، وإنما مقياس تلك غير مقياس هذه الدار ﴿الله لطيف بعباده﴾ يلطف بهم ليسعدهم، فيهيئ لهم وسائل السعادة، سواء كانوا صالحين أم طالحين ﴿يرزق من يشاء﴾ كيف يشاء في سعة أو ضيق ﴿وهو القوي﴾ القادر على الإعطاء والمنع والتوسعة والتضييق ﴿العزيز﴾ الغالب في سلطانه، فلا يتمكن أحد من معارضته،

[٢١] وإذا كان الله رازقاً هنا، فليعلم العباد أن من طلب رزق الدنيا يؤتيه بقدر، ولا نصيب له في الآخرة، ومن طلب رزق الآخرة ـ بالإيمان والعمل الصالح ـ يُعطى أكثر من كسبه ﴿من كان يريد﴾ بعمله ﴿حرث الآخرة﴾ أي زرعه، فكأن العمل هنا بذر يعطي هناك ثماره ﴿نزد له في حرثه﴾ إذ يعطيه الله سبحانه من عشرة أضعاف إلى ما فوق سبعمائة

وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢١﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾ تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ

ضعف ﴿**ومن كان يريد حرث الدنيا**﴾ بأن عمل وكد واجتهد للدنيا فقط، بدون لحاظ للآخرة في عمله ﴿**نؤته**﴾ أي ذلك المريد ﴿**منها**﴾ أي من الدنيا ﴿**وما له في الآخرة من نصيب**﴾ لأنه لم يزرع حتى يحصد.

[٢٢] لقد تقدم، أن الدين شرع الله سبحانه الذي بشر به الأنبياء جميعاً، أما طريقة هؤلاء الكفار، فمن ذا الذي شرعها لهم، بعد أن لم يأذن بها الله سبحانه؟ ﴿**أم لهم شركاء شرعوا**﴾ أي هل لهؤلاء الكفار أصنام شرعوا ونهجوا تلك المنهاج ﴿**لهم من الدين**﴾ والطريقة في العقيدة، والعمل ﴿**ما لم يأذن به الله**﴾؟ وهذا سؤال استنكاري، أي كيف يحق لهم أن ينهجوا نهجاً لم يأذن الله سبحانه به؟ ﴿**و لولا كلمة الفصل**﴾ أي الكلمة التي قالها الله سبحانه، في شأن تأخير العذاب عن هؤلاء والتي هي فاصلة بين حياتهم، وبين عذابهم ﴿**لقضي بينهم**﴾ أي حكم عاجلاً، فيما بين هؤلاء الكفار، وبين المؤمنين، بإنزال العقوبة على هؤلاء، لانحرافهم عن الطريق ﴿**وإن الظالمين**﴾ الذين ظلموا أنفسهم بالكفر والعصيان ﴿**لهم عذاب أليم**﴾ يؤلمهم جزاءً على كفرهم وعصيانهم.

[٢٣] ﴿**ترى**﴾ يا رسول الله، وأيها الرائي ﴿**الظالمين**﴾ في يوم القيامة

مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا۟ وَهُوَ وَاقِعٌۢ بِهِمْ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِ ۖ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾ ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۗ

﴿**مشفقين**﴾ أي خائفين﴿**مما كسبوا**﴾إذ يتجلى هناك لهم، أن أعمالهم أثمرت النيران والنكال ﴿**وهو**﴾ أي ما كسبوا ـ والمراد جزائه، إلا أن يقال بتجسيم الأعمال ـ ﴿**واقع بهم**﴾ قطعاً فلا مفر لهم منه ﴿**و الذين آمنوا وعملوا الصالحات**﴾ أي الأعمال الصالحة فصحت عقيدتهم وعملهم ﴿**في روضات الجنات**﴾ الروضة هي الأرض الخضرة، بحسن النبات، والجنة الأرض التي يحفها الشجر، ويجنها عن الشمس والأبصار ﴿**لهم ما يشاءون**﴾ من أنواع الملاذ ﴿**عند ربهم**﴾ فلهم شرف القرب المعنوي من الله سبحانه، كما أن لهم ما يشتهون من الملذات الجسيمة ﴿**ذلك**﴾ الثواب الذي ينعم الله سبحانه عليهم به ﴿**هو الفضل الكبير**﴾ الذي تفضل الله سبحانه عليهم، وإلا فالإنسان مهما كان عمله، لا يستحق على الله سبحانه شيئاً.

[٢٤] ﴿**ذلك**﴾ الثواب والفضل الكبير، هو ﴿**الذي يبشر الله**﴾ به ﴿**عباده**﴾ الصالحين ﴿**الذين آمنوا**﴾ بالله ورسوله ﴿**وعملوا**﴾ الأعمال ﴿**الصالحات**﴾ فليرغب فيه الناس، والرسول صلى الله عليه وآله وسلم، لا يطلب عوض هذه البشرى، وهذه الهداية المنتهية إلى تلك النعم، وذلك الفضل الكبير مالاً وأجراً، وإنما يريد من الناس أن يوالوا أقربائه، فاطمة والأئمة الأطهار، وذلك ليس له أيضاً، وإنما لهم، إذ إن الأئمة عليهم السلام

قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰۗ وَمَن يَقۡتَرِفۡ حَسَنَةٗ نَّزِدۡ لَهُۥ فِيهَا حُسۡنًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ

يرشدون الناس إلى الخير والصلاح، ويهدونهم إلى الحق والصواب والصدق ﴿**قل**﴾ يا رسول الله لهؤلاء الذين بشرتهم ﴿**لا أسألكم عليه**﴾ أي على ما جئتكم به من الهداية والبشرى ﴿**أجراً**﴾ وثمناً ﴿**إلا المودة**﴾ أي الود والحب ﴿**في القربى**﴾ أي في أقربائي، ومن الواضح، أن المودة الواجبة هي بالنسبة إلى فاطمة والأئمة، صلوات الله عليهم أجمعين، آما بالنسبة إلى سائر ذرية الرسول ـ غير من كفر منهم ـ فالمودة مستحبة، وقد قال الرسول ﷺ «أكرموا ذريتي الصالحين لله والطالحين لي»، وقال « المرء يحفظ في ولده»[1] وينسب إلى الشافعي، أنه قال:

يا آل بيت رسول الله حبكم
فرض من الله في القرآن أنزله

كفاكم من عظيم الفخر أنكم
من لم يصل عليكم لا صلاة له

وقد ورد إن المشركين تسألوا، هل يريد محمد من رسالته أجراً، فنزلت هذه الآية ﴿**و من يقترف**﴾ أي يعمل ﴿**حسنة**﴾ من عقيدة أو عمل أو مودة لآل البيت ﴿**نزد له فيها**﴾ أي في تلك الحسنة ﴿**حسناً**﴾ بأن نجعل له ثواباً في الآخرة فالتصدّق ـ مثلاًـ حسن في الدنيا، فمن تصدق نزيد صدقته حسنة، بجعل ثواب لها في الآخرة﴿**إن الله غفور**﴾

---

(١) الاحتجاج: ج١ ص١٠٢ .

شَكُورٌ ﴿٢٤﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٥﴾

للسيئات، فلا ييأس المذنب من عفوه وغفرانه ـ وهذا بمناسبة ذكر الكفار والظالمين ـ . ﴿**شكور**﴾ يشكر حسنات العباد، وشكره سبحانه، بإعطائه الزيادة هنا، والأجر هناك ـ وهذا بمناسبة ذكر المؤمنين العاملين للصالحات ـ .

[٢٥] إن هؤلاء الكفار يصمون عن الحق، ولا ينظرون في الأدلة ﴿**أم**﴾ أي بل ﴿**يقولون افترى**﴾ محمد ﴿**على الله كذباً**﴾ حيث نسب القرآن إليه كذباً، وهو من كلامه، ولكن هذا الكلام منهم كذب، إذ ليس الله سبحانه يدع أحداً يدعي النبوة، ويأتي بالخارقة، ثم يذره ﴿**فإن يشأ الله**﴾ حين يراك كاذباً ـ كما زعموا ـ ﴿**يختم على قلبك**﴾ فلا تتمكن من تلاوة القرآن، كالظرف المختوم الذي لا يخرج منه شيء مما فيه ﴿**و**﴾ لا يهمك يا رسول الله هذا الافتراء منهم، فإنه ﴿**يمحُ الله الباطل**﴾ من أقوالهم ويزيله، فلا يتعلق به أحد، ولا يرى كلامهم صواباً ﴿**ويحق الحق**﴾ أي يظهر كونه حقاً، إذ معنى «أحق» أثبت ﴿**بكلماته**﴾ أي يظهر حقية الرسول، بما ينزله من القرآن الذي لايتمكن أحد من الإتيان بمثله، فيبطل دعواهم، إذ لو كان الأمر، كما قالوا لتمكن فصحاؤهم من الإتيان بمثله ﴿**إنه**﴾ تعالى ﴿**عليم**﴾ أي عالم ﴿**بذات الصدور**﴾ أي بالأمور التي تدور في صدورهم حولك لإبطال أمرك، فلا يترك مؤامراتهم وأفكارهم تنفذ فيك، وتطبق عليك، بل يحبطها ويبطلها.

وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٦﴾ وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۚ وَٱلْكَٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿٢٧﴾ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ

[٢٦] ولا ييأس هؤلاء الكفار عن رحمة الله وفضله وعفوه، فإن تابوا مما هم فيه، تاب عليهم ﴿**و هو**﴾ الله ﴿**الذي يقبل التوبة عن عباده**﴾ فمن تاب ورجع إليه قبل توبته ﴿**ويعفو عن السيئات**﴾ أي المعاصي، وهذا في مقابل أن يقبل التوبة، ويضم التائب إلى جماعته، لكنه ينتقم منه لما فعل سابقاً ﴿**و يعلم ما تفعلون**﴾ أيها البشر من عصيان وطاعة وإدبار وتوبة فلا يظن أحد أنه مختف عليه سبحانه، لا يرى سيئته، فيعاقبه، أو حسنته فيجازيه بالثواب.

[٢٧] ﴿**و**﴾ هو الذي ﴿**يستجيب**﴾ أي يجيب ﴿**الذين آمنوا**﴾ بالله ورسوله ﴿**و عملوا**﴾ الأعمال ﴿**الصالحات**﴾ فهو يعطي طلباتهم إن رأى ذلك صلاحاً، وإلا أخرها إلى القيامة، كما ورد بذلك الأحاديث ﴿**ويزيدهم من فضله**﴾ فليس إجابة الدعاء فحسب، بل إثابة على الدعاء، فمن طلب من الله ولداً أعطاه، وتفضل عليه بالثواب حيث دعاه، أو المراد أنه يزيد على الطلب لطفاً وكرماً، فمن طلب ولداً أعطاه ولدين - مثلاً - ﴿**والكافرون لهم عذاب شديد**﴾ في مقابل المؤمنين لهم الإجابة والفضل.

[٢٨] وإذ تقدم أنه سبحانه، يستجيب للمؤمنين، ويزيدهم من فضله، يأتي سؤال أنه، لماذا نرى حاجة كثير من المؤمنين وفقرهم، وإنهم يدعون ليل نهار؟ والجواب ﴿**و لو بسط الله الرزق لعباده**﴾ بأن وسع عليهم في

لَبَغَوْا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٩﴾

دار الدنيا، كما يريدون ﴿**لبغوا في الأرض**﴾ فـ(إنَّ الإنسانَ لَيطغىٰ * أَنْ رآهُ اسْتَغْنَىٰ)[1]، ولذا يضيق عليهم، حتى يحفظهم من البغي والتعدي وقد حكي: إن معدماً سأل موسى أن يطلب من الله ـ في مناجاته ـ أن يتفضل عليه، فلما سأل موسى، أجابه الله بذلك، وأعلمه أن التوسعة على هذا، لم يكن صلاحاً، وإنما أجاب الدعاء، وحين رجع موسى من «الطور» رأى المعدم، وهو يؤخذ للقضاء، فقالوا: إنه أثرى فشرب الخمر وسكر، وقتل إنساناً فهو يؤخذ للقصاص ﴿**ولكن ينزل**﴾ الله الرزق ﴿**بقدر ما يشاء**﴾ مما يراه صلاحاً، وإن قيل، فلماذا يفقر بعض الصالحين، كالأنبياء، ويثري بعض الفاسدين كالفراعنة؟ فالجواب، أن الفقر هناك، لترفيع الدرجات، وهنا لإزهاق أرواح هؤلاء بالمال، حيث تظهر منهم بعض السيئات، فيستحقون التوسعة للنكال والعذاب ﴿**إنه**﴾ تعالى ﴿**بعباده**﴾ جمع عبد ﴿**خبير**﴾ مطلع على أحوالهم ﴿**بصير**﴾ يراهم، فهم تحت علمه الشامل، ورؤيته النافذة، ولذا يدبرهم على نحو الصلاح والحكمة.

[٢٩] ﴿**وهو الذي ينزل الغيث**﴾ أي المطر من السماء ﴿**من بعد ما قنطوا**﴾ أي بعد أن يئسوا عن المطر، وجدبت أراضيهم، وقحلت ﴿**وينشر رحمته**﴾ بإخراج النبات والثمر، وتنمية الزرع والضرع، فيرى الإنسان نعمه سبحانه، منتشرة في سهول الأرض وجبالها ﴿**وهو الولي**﴾ الذي يلي شؤون عباده ﴿**الحميد**﴾ المحمود في أفعاله، فما يتفضل به يستحق به

---

(١) العلق: ٧ و ٨ .

وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴿٣٠﴾ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴿٣١﴾

الحمد والشكر.

[٣٠] **﴿و من آياته﴾** الدالة على وجوده، وسائر صفاته **﴿خلق السماوات والأرض﴾** فمن خلقهما وأوجدهما، إنه هو الله وحده لا شريك له **﴿و ما بث فيهما﴾** أي نشر في السماوات والأرض **﴿من دابة﴾** تدب على وجه الأرض، أو تطير في السماء **﴿و هو على جمعهم إذا يشاء﴾** الجمع **﴿قدير﴾** والمراد بالجمع، إما الحشر ـ كما قال تعالى: (وَإذا الوُحُوشُ حُشِرَتْ)[1] ـ وإما أن يجمعهم في مكان واحد، وهذا لإلقاء ظلٍّ قوي من القدرة الوسيعة، في ذهن المخاطب، حتى أنه سبحانه، يتمكن من جميع هذه الكثرة الهائلة المتشتتة من صنوف الحيوان.

[٣١] أرأيتم فضل الله وقدرته؟ فاعلموا أن انحرافكم عن منهاجه، يوجب التضييق على أنفسكم، فما يصيبكم من الأذى، إنما هو من أعمالكم، وإلا ففضله سبحانه عام، كما أنكم لا تقدرون على الفرار من بأسه، إذا شاء بكم الأذى، فإنه صاحب القدرة الوسيعة **﴿و ما أصابكم﴾** أيها الناس **﴿من مصيبة﴾** مالية أو بدنية، أو غيرهما **﴿فبما كسبت أيديكم﴾** من الكفر والعصيان، والنسبة إلى اليد لأنها الآلة العاملة في تحصيل الكثير من الآثام، كالسرقة والضرب، والنهب والقتل، وما أشبه، ولا يخفى أن هذا العام مخصص بمن لم يكن له كسب سيّء، فإن ما أصابه، إنما هو لزيادة الأجر والمنزلة، كما هو معلوم عقلاً ونقلاً **﴿و يعفو عن كثير﴾** فليس يعاقب عليها.

---

(١) التكوير: ٦.

وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ ﴿٣٢﴾ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِ ٱلۡجَوَارِ فِي ٱلۡبَحۡرِ كَٱلۡأَعۡلَٰمِ ﴿٣٣﴾ إِن يَشَأۡ يُسۡكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظۡلَلۡنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهۡرِهِۦٓۚ

[٣٢] ﴿**وما أنتم**﴾ أيها البشر ﴿**بمعجزين في الأرض**﴾ أي لا تتمكنون من تعجيز الله سبحانه، بأن تفرون منه، فلا يقدر على عقوبتكم التي استحقيتموها، ولعل الإتيان بـ «في الأرض» للتعميم، فإن بعض المجرمين أيضاً، لا يتمكنون من تعجيز سلطاتهم في البلاد التي هم مسيطرون عليها، أما عدم التعجيز في الأرض كلها، فذلك خاص به سبحانه ﴿**وما لكم**﴾ أي ليس لكم أيها البشر ﴿**من دون الله**﴾ أي سواه ﴿**من ولي**﴾ يلي أموركم، ويدبر شؤونكم، ويدفع العذاب عنكم ﴿**و لا نصير**﴾ ينصركم من بأس الله سبحانه، وهذا لتنبيه الكفار على أن معاصيهم، لا بد من الجزاء عليها، فلا يظنوا أنهم يتمكنون من الفرار، أو أن أولياءهم، يتمكنون من دفع العذاب عنهم، أو أن أنصارهم يقدرون على التغلب على إرادة الله سبحانه.

[٣٣] ﴿**و من آياته**﴾ أي آيات الله سبحانه الدالة على وجوده وسائر صفاته ﴿**الجوار**﴾ جمع جارية، وهي السفينة، سميت بها لجريها في الماء ﴿**في البحر كالأعلام**﴾ جمع علم، وهو الجبل الطويل، فمن جعل الماء بحيث يحملها، ومن سخر الهواء، بحيث تجريها إلى حيث تشاء؟

[٣٤] ﴿**إن يشأ**﴾ الله سبحانه ﴿**يسكن الريح**﴾ بأن لا تتحرك ﴿**فيظللن**﴾ أي تلك السفن، والإتيان بضمير العاقل، لعله باعتبار من فيها ﴿**رواكد**﴾ جمع راكدة، وهي الواقفة في محلها ﴿**على ظهره**﴾ أي ظهر الماء،

إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٤﴾ أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُواْ وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٥﴾ وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٣٦﴾ فَمَآ أُوتِيتُم

لاتتحرك من أماكنها، وهذا بالنسبة إلى السفن الهوائية لا البخارية ﴿**إن في ذلك**﴾ الذي ذكر من تسخير الماء والهواء، لتسيير السفن ﴿**لآيات**﴾ دلالات متعددة من البحر والريح والسير، وغيرها ﴿**لكل صبار**﴾ يصبر عند البلاء ﴿**شكور**﴾ يشكر عند النعماء، فإن مثل هذا الإنسان، الذي نضج عقله، حتى أنه صار صباراً شكوراً، هو الذي يلتفت إلى هذه النعمة العظيمة، ويراها الدالة على وجود الله سبحانه، وسائر صفاته.

[٣٥] ﴿**أو**﴾ إن يشأ الله سبحانه ﴿**يوبقهن**﴾ أي يهلك السفن، بأن يجعل الريح عاصفة حتى تغرقها ﴿**بما كسبوا**﴾ أي كسب أهلها من الكفر والعصيان ﴿**و يعف**﴾ الله سبحانه ﴿**عن كثير**﴾ فإذا أهلكهم، فببعض ذنوبهم لا بكلها، وإلا كان الكل مقتضياً، لإهلاك العاصي قبل ذلك، وإن رحمهم، فبعفوه عن جميع الذنوب، بمعنى عدم معالجته بعقوبتها.

[٣٦] ﴿**و**﴾ هناك، إذا وقفت الريح أو عصفت ﴿**يعلم الذين يجادلون في آياتنا**﴾ أي يجادلون لإبطال آياتنا ﴿**مالهم من محيص**﴾ أي لا نجاة لهم من تلك التهلكة، وإنما خصهم، لأنهم هناك يعترفون، أما غيرهم، وهم المؤمنون، فاعترافهم دائم الأوقات.

[٣٧] وإذ بين الله سبحانه بعض نعمه على البشر في البر والبحر، ألفت الناس إلى أن كل هذه في جنب نعيم الآخرة، هين يسير ﴿**فما أوتيتم**﴾

مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ

أي أعطيتم أيها البشر ﴿**من شيء**﴾ من هذه النعم ﴿**فـ**﴾ هي ﴿**متاع الحياة الدنيا**﴾ أي تتمتعون بها في الحياة القريبة الزائلة ﴿**و ما عند الله**﴾ والمراد عند رتبته، بل شرّفها، وأعلى رتبتها عن رتبة ما في الدنيا، وإلا فليس لله تعالى مكان ﴿**خير**﴾ من متع هذه الحياة ﴿**و أبقى**﴾ أي أكثر بقاءً، لأنها تبقى دائم الأبد، وأنها ﴿**للذين آمنوا**﴾ بأن صحت عقيدتهم ﴿**و على ربهم يتوكلون**﴾ في أمورهم، وذلك دليل الإيمان، حيث يرون الله سبحانه، مالك كل شيء، وبيده أزمة كل شيء.

[٣٨] ﴿**و الذين**﴾ عطف على «للذين» والمعنى أن ما عند الله سبحانه، إنما هو لمن اتصف بهذه الصفات ﴿**يجتنبون كبائر الإثم**﴾ مثل الزنى والقمار والربا، وترك الصلاة، والزكاة، وما أشبه، وإنما قال «كبائر الإثم» لأن الصغائر تقع من غير المعصوم، لا محالة ﴿**و الفواحش**﴾ وهي المعصية الفاحشة التي تتجاوز الحد كثيراً، وكأن هذا أعظم من الكبائر، أو المراد التي تسمى في العرف فاحشة، كالزنى واللواط والسحق وما أشبه ﴿**و إذا ما غضبوا**﴾ «ما» زائدة للتأكيد أو مصدرية، أي حين الغضب ﴿**هم يغفرون**﴾ ذنب الذي أوجب غضبهم، بأن أزادوا على الحلم، عن المغضب غفران ذنبه.

[٣٩] ﴿**و الذين استجابوا لربهم**﴾ بأن أجابوه سبحانه في كل ما دعاهم إليه

وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ

من أمور الدين **﴿و أقاموا الصلاة﴾** خصصها بالذكر لأهميتها، ولصعوبتها على الإنسان ولأنها إذا استقامت، نهت عن الفحشاء والمنكر بطبعها **﴿و أمرهم شورى بينهم﴾** يتشاورون في أمورهم، هي «فعلى» من المشاورة، وهي المفاوضة في الكلام ليظهر الحق، والمراد بالأمور، هي جميع شؤونهم، التي لم يجعل لها الله حداً خاصاً، وذلك من المستحب، في الزواج، والبيع، والإجارة، والتعلم، والاكتساب، وغيرها، وقد تمسك بعض ممن تأثرت أفكارهم بأنظمة الغرب، بهذه الآية، لتصحيح الديمقراطية الغربية، من أحزاب، وبرلمان، ومجلس الشيوخ، وانتخابات، وما أشبه، وهذا بالإضافة إلى أنه غلط في نفسه، وإن وقع فيه كثير من بلاد الغرب، كما التثليث «في الدين المسيحي» غلط وقعت فيه جماعات كثيرة، مخالف للإسلام، ولم يطبقه المسلمون في يوم من الأيام، وذلك دليل عدم فهمهم من الآية ذلك ولم يفسرها الرسول أو الأئمة عليهم السلام بذلك، فلنأخذ أهل السنة أنهم قالوا، بأن الرسول مات بلا تعيين، فأبو بكر خليفة بالقوة ـ كما يظهر ذلك لمن راجع تاريخ السقيفة ـ وعمر بالوصاية من أبي بكر فقط، وعثمان بجعل من عمر في ستة فقط ـ وإن سماه شورى، وهل نصب الملوك لشخص في مشاورة سداسية تعتبر انتخابات على ما يريدون هؤلاء؟ وعلي عليه السلام بانتخاب الثوار وجماعة من أهل المدينة، وإن كثرت الأصوات له بالنسبة إلى سابقيه نوعاً ما، ومجيء علي إلى الحكم، لأنه عرف نفسه أحق، لا لأنه انتخب، ولذا قال في خطبة الشقشقية «و هو يعلم أن محلي منها محل القطب من الرحى» و«أرى تراثي نهبا»، والحسن عليه السلام بالوصاية، أو انتخاب جماعة من أهل

. . . .

الكوفة، ومعاوية بالسيف ويزيد بالوصاية، وهكذا دامت السيف والوصاية إلى آخر خليفة عثماني، وعمر بن عبد العزيز جاء بالوصاية، ثم بانتخاب أهل المسجد فقط ـ خوفاً من السلطان، كما هو معلوم في مثل هذه الأحوال، قديماً وحديثاً ـ فأين من هذا «الديمقراطية» وإن طورها أحزاب اليوم ألف تطوير، لإلصاقها بالإسلام، ويظنون أنه فتح للإسلام، فبينما هو هدم لأقوى دعائمه، ثم لنأخذ الشيعة: فنعتقد نحن أن الله كما عين الرسول، عين الأئمة الإثني عشر، ثم عين الأئمة الفقهاء الجامعين للشرائط، وكل ملك شيعي كان فقيهاً جامعاً للشرائط، أو كان مأذوناً من فقيه جامع للشرائط فهو بحق أصالة أو وكالة، وكل من فقد هذين الوصفين، فهو باطل، ونرى في تاريخ ملوك الشيعة الأقسام الثلاثة، بدون أن يكون فيهم اسم انتخاب ولو في يوم واحد إلى آخر ملوك القاجار في إيران.. ثم إن الانتخابات بجميع صورها باطلة ليست من الإسلام، أما انتخابات هذا اليوم فهي أشنع وأبشع، ولذا أفتى علماء حول مجلس إيران، بأنه ضلال وانحراف، وأرادوا تحريره، فقتل «الشيخ فضل الله النوري» و«السيد عبد الله البهبهاني» و«الشيخ الأخوند المولى محمد كاظم الخرساني» فقد كان قصدهم من «المشروطة» التي أقدموا عليها، أن يكون للملك جماعة من العلماء العدول، أقلهم خمسة، وبعض الناضجين حين ما يريد إنفاذ حكم من أحكام الإسلام، وتطبيقه على الأمة، وأرادوا بذلك إحياء سنة الرسول، وسيرة الخلفاء والملوك الأقدمين حيث كانت مجالسهم لاتخلو من علماء لإرشادهم سبيل الدين، وناضجين لإرشادهم سبيل الدنيا ـ بالنسبة إلى غير النبي والوصي ـ أما هما فاستشارتهم، كانت لجلب الخواطر، وإلا فهم أغنى عن ذلك.. وأفتى علماء العراق حول

وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ (٣٩) وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ (٤٠) وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا

مجلس الأمة، حين أراد «فيصل» فتحه بأمر الإنكليز، لهدم الإسلام، بأن «المنتخِب والمنتخَب كلاهما في النار» وقد لقوا جزاء فتياهم تشريداً وتسميماً وإهانة وهتكاً، فمن أراد اليوم إعادة «المجلس» أو «الانتخاب» أو «الديمقراطية» أو «الأحزاب» أو ما شابه ذلك، بزعم أنه خدمة للإسلام وخلاص للمسلمين، فليعلم ـ إن كان مخلصاً ـ أنه يبني من جديد لهدم الإسلام، في لباس الإسلام، وسيرى في الدنيا انقلاب الأمر عليه، وفي الآخرة الخسارة والنكال، فإن هذا أساس غربي بحت لايمت إلى الإسلام بصلة أصلاً، ومن كان شاكاً فليدرس الإسلام من جديد، لا على ضوء الأنظمة الغربية، وما ارتكز في ذهنه من سموم الأجواء التي نشرها الغرب وعملائه، بل على ضوء الكتاب والسنة، وفتوى الفقهاء، الذين هم أعرف الناس بالإسلام وبنظمه **﴿و مما رزقناهم﴾** من المال والعلم والجاه، وغيرها ـ حسب عموم الآية ـ وإن كان المنصرف خصوص المال **﴿ينفقون﴾** في سبيل الله.

[٤٠] **﴿و الذين إذا أصابهم البغي﴾** أي الظلم، بأن ظلمهم أحد **﴿هم ينتصرون﴾** بأن ينتقموا ممن تعدى عليهم، لئلا يصيبهم الذل، ولئلا يجرؤ الظالم على التمادي في غيه، إن رأى الباب أمامه مفتوحاً، وغير خاف أن هذا لا ينافي قوله «إذا ما غضبوا هم يغفرون» فلكل شيء مجاله.

[٤١] ثم بين سبحانه حد الانتصار لئلا يتجاوز المظلوم على مقدار ما ظلم انتقاماً وتشفياً **﴿و جزاء سيئة﴾** يوردها الظالم **﴿سيئة مثلها﴾** يردها المظلوم، وسميت سيئة، من باب المزاوجة، لكون الرد شبيه التعدي

فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤٢﴾ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ

في الشكل، ومنه قوله تعالى (فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ)[1] وقوله (تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلاَ أَعْلَمُ)[2] **﴿فمن عفا وأصلح﴾** بأن عفا عن المعتدي فيما كان ذلك ثواباً، لا عقاباً، بأن أذل نفسه، وجرأ المعتدي على التمادي في العدوان، وأصلح فيما بينه وبين الله، بأن كان عفوه لله سبحانه، لا لغاية دنيوية، أو أصلح بين عدوه ونفسه **﴿فأجره على الله﴾** فإنه يثيبه جزاء عفوه وإصلاحه **﴿إنه لا يحب الظالمين﴾** فليس ترغيبه في العفو، لأنه أخذ جانب الظالم، بل لأجل، أن بعض الناس يصلحهم العفو أكثر مما تصلحهم العقوبة، ولأنه موجب لعظيم مثوبة المظلوم.

[٤٢] **﴿ولمن انتصر﴾** لنفسه من ظالمه، بأن رد اعتدائه بالمثل **﴿بعد ظلمه﴾** أي بعد أن ظلمه الظالم **﴿فأولئك﴾** المنتصرون، وإنما جيء بالجمع، باعتبار معنى «من» وقد تقرر في الأدب أنه يجوز في من وما مراعاة اللفظ، والمعنى **﴿ما عليهم من سبيل﴾** أي من إثم وعقاب في الآخرة، لأنه أخذ حقه ولم يتعد.

[٤٣] **﴿إنما السبيل﴾** في عقاب الدنيا بواسطة السلطان وعقاب الآخرة **﴿على الذين يظلمون الناس﴾** ابتداءً **﴿ويبغون في الأرض﴾** أي

---

(١) البقرة: ١٩٥ .

(٢) المائدة: ١١٧ .

بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٣﴾ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٤﴾ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ

يفسدون في الأرض، وإنما جيء، بـ «في الأرض» لبيان أن كل بغي، إنما يظهر أثره في الأرض، وأن ظنه الظالم صغيراً موضعياً[1] ﴿**بغير الحق**﴾ فإن كل بغي بغير الحق وإنما جيء بهذا الوصف، لإظهار البشاعة، وتعليل «إنما السبيل» ﴿**أولئك**﴾ الباغون ﴿**لهم عذاب أليم**﴾ مؤلم موجع في الدنيا بالحد والتعزيز، وفي الآخرة بالنار والنكال.

[٤٤] ﴿**و لمن صبر**﴾ على الأذى ﴿**و غفر**﴾ أي عفى عن المؤذي ـ فيما كان الغفران خيراً ـ ﴿**إن ذلك**﴾ منه ﴿**لمن عزم الأمور**﴾ أي الأمور التي تحتاج إلى عزيمة قوية في النفس، وليس من الأمور التي تأتي عفوياً، حسب إرادة عادية، فإن ذلك بحاجة إلى شجاعة نفسية فائقة.

[٤٥] وبعد استعراض صورة للمؤمنين في دنياهم وآخرتهم، يأتي السياق لنقل حال الكافرين في النشأتين ﴿**و من يضلل الله**﴾ بأن يتركه وشأنه، بعد أن أراه الطريق فلم يسلكه، وهذا هو معنى الإضلال، كما سبق ﴿**فما له من ولي**﴾ يلي أموره، ويأخذ بيده ﴿**من بعده**﴾ أي من بعد الله سبحانه، إذ لا هادي إلا الله تعالى ﴿**و ترى**﴾ يا رسول الله أو أيها الرائي ﴿**الظالمين**﴾ الذين ظلموا أنفسهم بالكفر والعصيان، ﴿**لما رأوا العذاب**﴾ يوم القيامة ﴿**يقولون هل إلى مرد**﴾ أي رد إلى الدنيا، فإن

---

(١) العدالة الإسلامية للمؤلف.

مِّن سَبِيلٍ ﴿٤٥﴾ وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴿٤٦﴾

«مرد» مصدر ميمي ﴿ **من سبيل**﴾ تمنياً منهم للرجوع إلى الدنيا، حتى يعملوا صالحاً ـ بظنهم ـ .

[٤٦] ﴿**و تراهم**﴾ أي ترى الظالمين ﴿**يعرضون عليها**﴾ أي النار، والمعنى تعرض النار عليها، وإنما جيء هكذا، لأنهم يذهب بهم من عند النار أو من باب «القلب» كقوله «كما طينت بالفدن السياعا» ﴿**خاشعين**﴾ أي متواضعين ﴿**من الذل**﴾ الذي أخذهم حيث وجدوا مرارة النكال والحكم، عليهم بالعذاب والهوان ﴿**ينظرون**﴾ إذا أرادوا النظر إلى شيء ﴿**من طرف خفي**﴾ فإن الإنسان الذي لم يجرم ينظر إلى الإنسان والأشياء بكل عينه، أما المجرم فإنه يختلس النظر بخفاء، لئلا يراه أحد فيشتمه أو يؤذيه، أو يخجل منه، فإن الحياة غالية في العين ﴿**و قال الذين آمنوا**﴾ تعريضاً بهم وجواباً لما قال الظالمون لهم، في الحياة، بأنهم يخسرون بسبب الإيمان سعادتهم ومستقبلهم ﴿**إن الخاسرين**﴾ هم ﴿**الذين خسروا أنفسهم**﴾ حيث عذبوها وأوقعوها في النار ﴿**و أهليهم**﴾ حيث فارقوهم، سواء كانوا من أهل الجنة، أو من أهل النار ﴿**يوم القيامة**﴾ فإن هذا هو الخسارة الكبرى، لا ذهاب بعض المنافع الدنيوية، كما كان يقول الكفار للمؤمنين، في دار الدنيا ﴿**ألا**﴾ فليتنبه السامع ﴿**إن الظالمين في عذاب مقيم**﴾ لا يتحول عنهم أبداً، والمراد

وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ ﴿٤٧﴾ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۚ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ ﴿٤٨﴾

بالظالمين المعاندين من الكفار، فإنهم هم المخلدون.

[٤٧] ﴿**وما كان لهم**﴾ أي للظالمين ﴿**من أولياء**﴾ جمع ولي، أي أصدقاء وأحباء ﴿**ينصرونهم من دون الله**﴾ أي من عذاب الله، بأن يدفعوا عنهم عذابه ونكاله، أو أن «من دون الله» متعلق بـ «أولياء» أي لا ولي غير الله، ينصر ﴿**و من يضلل الله**﴾ بأن يتركه وشأنه، بعد أن أراه الطريق، فلم يهتد ﴿**فما له من سبيل**﴾ يوصله إلى المقصد، وهو السعادة، إذ السبيل الوحيد، هو سبيل الله، فإذا تركه الإنسان، لم يكن هناك سبيل آخر يوجب النجاة والخلاص.

[٤٨] ﴿**استجيبوا**﴾ أيها الناس، ولعل الإتيان من باب «الإستفعال» لفرض بيان أن الإجابة يلزم أن تكون من القلب بطلب وإرادة، لا مجرد إجابة لفظية، وعمل سطحي ﴿**لربكم**﴾ بالإيمان به، وإطاعة أوامره ﴿**من قبل أن يأتي يوم**﴾ هو يوم القيامة ﴿**لا مرد له**﴾ أي لا رجوع لذلك اليوم، بأن يتأخر عن موعده، حتى يجد العصاة فرصة لاستئناف العمل ﴿**من الله**﴾ إما بمعنى، إن الله لا يرده، أو أنه لا يرد على الله، بأنه يرده أحد خلافاً لإرادة الله ﴿**مالكم**﴾ أيها البشر ﴿**من ملجأ يومئذ**﴾ تلجئون إليه، وتقون أنفسكم بسببه عن عذاب ذلك اليوم ﴿**وما لكم من نكير**﴾ أي منكر ينصركم، أو إنكار: بمعنى أنكم لا تقدرون على الاستنكار

فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَآ أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا الْإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنسَانَ كَفُورٌ ﴿٤٩﴾

لشدة الهول والفزع، أو لما ترون من عدم الفائدة في إنكاره.

[٤٩] ﴿**فإن أعرضوا**﴾ يا رسول الله، ولم يؤمنوا ﴿**فـ**﴾ لا يهمك أمرهم، ولا تذهب نفسك عليهم حسرات، إذ ﴿**ما أرسلناك عليهم حفيظاً**﴾ أي مأموراً بحفظهم حتى يكون خروجهم خلاف مسئوليتك، وما كلفت به ﴿**إن عليك**﴾ أي ما عليك يا رسول الله ﴿**إلا البلاغ**﴾ فأنت مأمور بالتبليغ والإرشاد، وقد فعلت ذلك ﴿**و**﴾ هؤلاء بعداء عن الإيمان، لما جبلوا عليه من البطر حالة الرخاء والكفر حالة البلاء وكيف هؤلاء يخالفون حتى يبتلوا بالنار ـ مع هذا الطبع الرقيق الذي لا يتحمل نقمة ولا شدة ـ ؟ فـ ﴿**إنّا إذا أذقنا الإنسان**﴾ والمراد به هؤلاء، لا كل إنسان، وإنما جيء باللفظ العام، لأن ذلك هو الطبع الغالب ﴿**منا رحمة**﴾ أي أوصلنا إليه من طرفنا رحمة ﴿**فرح بها**﴾ أي بطر وتجاوز الحد، كما قال له قومه (لاَ تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الفَرِحِينَ)[1] ﴿**وإن تصبهم سيئة**﴾ أي صفة تسؤهم كالفقر والمرض والخوف، وما أشبه ﴿**بما قدمت أيديهم**﴾ أي كانت تلك السيئة جزاءً لبعض أعمالهم، والنسبة إلى «اليد» لأنها العضو الغالب في الإتيان بالأفعال، وإلا فالمراد كل معصية ﴿**فإن الإنسان كفور**﴾ يجزع من البلاء، وينسى النعماء.

---

(١) القصص: ٧٧ .

لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٥٠﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥١﴾

[٥٠] والنعم كلها من الله سبحانه، حتى أعظم النعم التي توجب امتداد الإنسان ـ وهي الذرية ـ فلم يبتعد الإنسان عن الله، وهو المنعم والمتفضل عليه؟ ﴿**لله ملك السماوات والأرض**﴾ فهو خالقهما ومالكهما، والمراد الظرف والمظروف معا ﴿**يخلق ما يشاء**﴾ فله الملك، وبيده الخلق، ومنه الإعطاء، والمنع ﴿**يهب**﴾ أي يعطي على وجه الهبة المجانية ﴿**لمن يشاء**﴾ من الناس ﴿**إناثاً**﴾ جمع أنثى، أي البنات، والمراد بالجمع الجنس ـ وقد سبق، أن كلا من الجمع والجنس، يخلف الآخر في المعنى ـ ﴿**و يهب لمن يشاء الذكور**﴾ جمع ذكر، أي البنين.

[٥١] ﴿**أو يزوجهم**﴾ أي يجمع لهم، يقول العرب: زوجت إبلي، أي جمعت بين كبارها وصغارها ﴿**ذكراناً وإناثاً**﴾ فيعطيهم من الجنسين، إما في بطن واحد، أو بطون متعددة ﴿**و يجعل من يشاء**﴾ من الرجال أو النساء ﴿**عقيماً**﴾ لا يصير له ولد، إما بضعف مني الرجل، أو ضعف رحم المرأة ﴿**إنه**﴾ سبحانه ﴿**عليم**﴾ بالمصالح ﴿**قدير**﴾ لما يشاء.

[٥٢] وإذ تقدم جملة من شؤون المعاد، والألوهية، جاء السياق لبيان بعض شؤون الرسالة، كما هي العادة في السور المكية، تبين من كل هذه

وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾ وَكَذَٰلِكَ

الأصول نتفاً وأطرافاً، وقد كان الكفار يطلبون من الرسول أن يروا الله يكلمهم وجهاً لوجه، حتى يصدقوا كما قالوا (لَوْلا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ)[1] فجاء الجواب ﴿**و ما كان لبشر**﴾ أي لا يمكن للبشر مهما كان عظمه وقدره ﴿**أن يكلمه الله**﴾ وجهاً لوجه، فإنه سبحانه لا يمكن رؤيته، إذ ليس جسماً، ولا جسمانياً، حتى يرى ﴿**إلا وحياً**﴾ بأن يلقي في قلبه إلقاءً، فإن أصل الوحي، هو الإلقاء الخفي بحيث لا يعرفه غير المخاطب ﴿**أو من وراء حجاب**﴾ بأن يتكلم الله معه، ولا يراه تعالى، فكان حجاباً فاصل بينهما، وهذا كناية عن عدم الرؤية ﴿**أو يرسل**﴾ سبحانه ﴿**رسولاً**﴾ أي ملكاً، ليكلم الإنسان عن الله سبحانه ﴿**فيوحي**﴾ بواسطة ذلك الملك أو يوحي الملك، ويلقي في قلب الرسول ﴿**بإذنه**﴾ أي بإذن الله تعالى ﴿**ما يشاء**﴾ من المعارف والأحكام، والإتيان بلفظ «بإذنه» لإفادة، أن كلاً من مجيء الملك، وتكلمه مع الرسول، بحاجة إلى الإذن والأمر ﴿**إنه**﴾ سبحانه ﴿**عليٌ**﴾ أي رفيع عن إدراك البشر، فلا يراه أحد ﴿**حكيم**﴾ في جميع أفعاله فلا يكلم أحداً إلا الرسول، أو ما أشبه، أما أن يكلم كل أحد، فليس ذلك من الحكمة لعدم قابلية مطلق البشر لكلام الله مباشرة.

[٥٣] ﴿**و كذلك**﴾ أي كما أوحينا إلى الأنبياء السابقين، أو بمعنى هكذا-

---

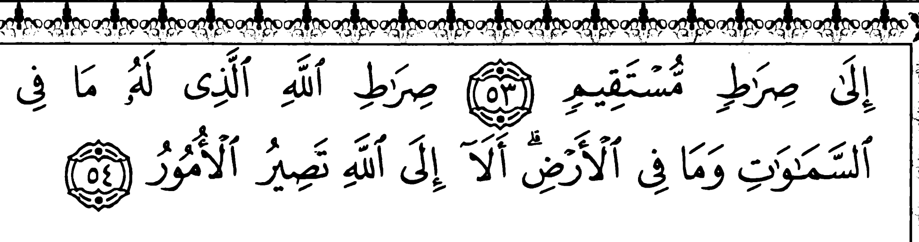
(١) البقرة: ١١٩ .

أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ

على تقريب تقدم بيانه ـ ﴿**أوحينا إليك**﴾ يا رسول الله ﴿**روحاً**﴾ والمراد به الشريعة، إذ هي روح الحياة السعيدة، فإن الإنسان بدون الشريعة، كالميت الذي لا يعقل، ولا يشعر، ولا يبصر، ولا يسمع، إذ هو خال عن الحقائق الكونية، ضال عن طريق الرشد ﴿**من أمرنا**﴾ أي ناشئاً تلك الروح من أمرنا وإرادتنا، فهو صادر عنا، فإن الإنسان، قد يعطي من نفسه، وقد يعطي من غيره، وما يعطي من النفس، أكثر خيراً وتكرمة، ولعل الإتيان، بـ «من أمرنا» لبيان ذلك ﴿**ما كنت تدري**﴾ يا رسول الله ﴿**ما الكتاب**﴾ قبل أن يوحى إليك ﴿**و لا الإيمان**﴾ قبل أن تتلقنه، ومن البديهي أن الرسول ﷺ قبل إلقاء الله إليه الكتاب والإيمان، لم يكن يعلمهما، وإنما الكلام في أن الآية ساكتة عن وقت ذلك، والظاهر أنه قبل خلق العالم، فهو حكاية عن ابتداء خلقة الرسول في العوالم العلوية، كما ورد «كنت نبياً، وآدم بين الماء والطين»[1] ﴿**و لكن**﴾ نحن الذين أعلمناك ﴿**جعلناه**﴾ أي جعلنا الكتاب والإيمان ـ باعتبار كل واحد منهما ـ ﴿**نوراً**﴾ لدروب الحياة المظلمة ﴿**نهدي به من نشاء**﴾ من الذين يقبلون الدعوة، فالمراد بالهداية: الألطاف الخاصة، أما إرشاد الطريق، فهو عام لكل أحد ﴿**من عبادنا**﴾ جمع عبد ﴿**و إنك**﴾ يا رسول الله ﴿**لتهدي**﴾ وترشد

---

(١) مفتاح الفلاح: ص٤١ .



الناس ﴿إلى صراط مستقيم﴾ لا التواء فيه، ولا انحراف، فكتابك نور، وأنت هاد، والدرب الذي تهدي إليه، صراط مستقيم موصل إلى السعادة.

[٥٤] ﴿صراط الله﴾ الذي قرره وجعله ﴿الذي له ما في السماوات وما في الأرض﴾ فله التكوين وله التشريع والمبدع المكون أعلم بما يصلح مما يفسد، ولذا فإن نظامه أفضل الأنظمة، وأصلحها للبشر ﴿ألا﴾ فليتنبه السامع ﴿إلى الله تصير الأمور﴾ فمنه البدء، وإليه الختام.



سورة الزخرف

مكية/ آياتها (٩٠)

سميت السورة بهذا الاسم لاشتمالها على لفظة «زخرف» وهي كسائر السور المكية بصدد بيان العقيدة، والاستدلال عليها وحيث ختمت سورة الشورى بذكر القرآن، ابتدأت هذه السورة بذلك.



[١] ﴿**بسم الله الرحمن الرحيم**﴾ ابتداء باسم الله، تيمناً، فإن الشعار يؤثر في الشيء تأثيراً خارجياً، لأن الإنسان يعامل بشعاره، وواقعياً فإن لكل من الرحمن والشيطان جنوداً، فإذا ذكرت الله وحده فرّت جنود الشياطين منهزمين، والرحمن الرحيم وصفان جيء بهما لأجل استمطار شآبيب الرحمة من ساحة القدس، فمن ذكر الله بوصف طالباً منه تعالى أن يتفضل عليه أعطاه كما قال (وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ)(١).

---

(١) غافر: ٦١ .

حمٓ ﴿٢﴾ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ﴿٣﴾ إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴿٤﴾ وَإِنَّهُۥ فِيٓ أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ لَدَيۡنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴿٥﴾

---

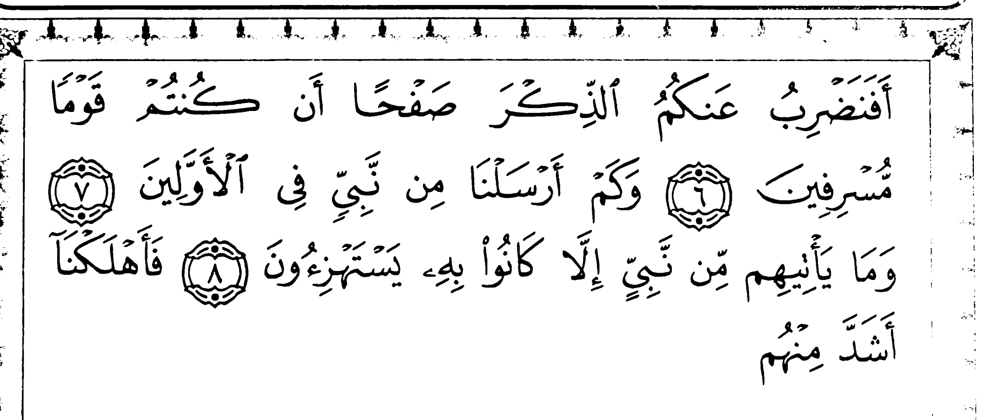
[٢] ﴿**حم**﴾ «حاء» و«ميم» وما أشبههما من سائر حروف الهجاء مادة هذا القرآن المعجز الذي لا يتمكن البشر من الإتيان بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً، أو رمز بين الله والرسول، أو غيرهما من سائر الأقوال.

[٣] ﴿**و الكتاب المبين**﴾ أي قسماً بهذا القرآن الواضح الذي يظهر الحق ويبينه.

[٤] ﴿**إنا جعلناه قرآناً عربياً**﴾ أي بلغة العرب، حين اختار منهم من يحمل هذه الرسالة، واختار محلهم منبثقاً لهذا الوحي الثمين ﴿**لعلكم تعقلون**﴾ وهذا هو المقسم به، أي أن الغاية من إنزال القرآن عربياً تعقلكم وتفهمكم للحقائق، يا معشر العرب.

[٥] ﴿**و إنه**﴾ هذا القرآن ﴿**في أم الكتاب**﴾ وهو اللوح المحفوظ، وإنما سمي بذلك لأنه أصل الكتب السماوية وغيرها، حيث إن كل شيء مدروج فيه على نحو الصواب والحكمة، فهو المرجع الوحيد الصحيح، كالأم التي هي أصل الإنسان، ومنها جاء وإليها يأوي ﴿**لدينا**﴾ أي الذي عندنا ﴿**لعلي**﴾ أي رفيع ذو قيمة ورتبة ﴿**حكيم**﴾ قد وضع الأشياء موضعها اللائق بها من تشريع وأخبار وبيان وغيرها، فإن الحكمة وضع الأشياء مواضعها اللائقة بها، ويسمى الكتاب حكيماً باعتبار اشتماله على الأشياء الحكيمة.

[٦] وإذا كان هذا القرآن بهذه المثابة، فهل ترفع اليد عنه بمجرد أن جماعة



كذبوا به وأسرفوا في الابتعاد عنه؟ ﴿أفنضرب عنكم﴾ يا معشر الناس ﴿الذكر﴾ أي القرآن ﴿صفحاً﴾ أي أنترك الوحي؟ وأصله من ضرب الحيوان على صفحة وجهه ليميل عن طريقه إلى ما يراد به، ثم استعمل في كل تحريف لشيء عن الطريق ﴿أن كنتم﴾ أي لأجل أنكم كنتم ﴿قوماً مسرفين﴾ تسرفون وتجاوزون في الكفر والعصيان؟ كلا! لايكون هذا، (فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْماً لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ)[1] بالإضافة إلى أنه إتمام الحجة، وتوضيح للمحجة.

[٧] و ليس هذا الأمر غريباً من هؤلاء فقد كانت عادة الأمم تكذيب الأنبياء ﴿و كم أرسلنا من نبي في الأولين﴾ في الأمم الماضية، و«كم» خبرية للتكثير.

[٨] ﴿و ما يأتيهم﴾ أي الأولين ﴿من نبي﴾ من: لتعميم النفي ﴿إلا كانوا به يستهزئون﴾ فإن الجهال إذا انقطعوا عن الحجة استهزءوا وتمسخروا حتى يغلبوا خصمهم بسبب انهيار أعصابه أمام الاستهزاء، فلا يتمكن من مواصلة الاحتجاج.

[٩] ﴿فأهلكنا﴾ بسبب الاستهزاء وعدم الإيمان ﴿أشد منهم﴾ أي من هو

(١) الأنعام: ٩٠ .

بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٩﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا

أشد من هؤلاء القوم ﴿**بطشاً**﴾ أي قوة ومنعة، فلا يغتر هؤلاء المشركون بالقوة والعدة، فإنها أمام إرادة الله سبحانه لا مجال لها ﴿**و مضى مثل الأولين**﴾ أي قد سلف في القرآن أمثال أولئك الأقوام الذين أهلكناهم، وقصصهم، فقد سبق شباهة أولئك الكفار السابقين بهؤلاء الكفار من قومك.

[١٠] وإذ قدم بعض الكلام حول الرسالة والقرآن يأتي الكلام حول التوحيد ﴿**و لئن سألتهم**﴾ أي سألت هؤلاء الكفار يا رسول الله ﴿**من خلق السماوات والأرض**﴾ هل هو الله أم الأصنام؟ لم يجدوا بدّاً من الاعتراف بالحقيقة، لأنهم لا يجدون سبيلاً إلى القول بكون الخلق للأصنام فـ ﴿**ليقولن خلقهن**﴾ والإتيان بضمير العاقل، أما من جهة تغليب من فيها عليها، أو لما قالوا من جواز الأمرين ـ من «هن» و«ها» في غير العاقل ـ ﴿**العزيز**﴾ الغالب في سلطانه ﴿**العليم**﴾ بكل شيء فإن هذا الخلق المدهش لا يمكن إلا أن يكون من صنع قادر عالم، والأصنام عاجزة جاهلة.

[١١] ﴿**الذي جعل لكم الأرض مهداً**﴾ أي محلاً للسكنى، فتستقرون فيها ـ وهذا من باب الالتفات المذكور في علم البلاغة ـ ﴿**و جعل لكم**﴾ أيها البشر ﴿**فيها**﴾ أي في الأرض ﴿**سبلاً**﴾ جمع سبيل وهو الطريق،

لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١١﴾ وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٢﴾ وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٣﴾ لِتَسْتَوُوا عَلَى

ليتمكن الإنسان من السير والسفر ﴿**لعلكم تهتدون**﴾ إلى خالقكم حيث ترون هذه الآثار الباهرة الدالة على عالم قدير حكيم.

[١٢] ﴿**و الذي نزّل من السماء ماءً**﴾ أي المطر، والمراد بالسماء جهة العلو ﴿**بقدر**﴾ فليس المطر ـ على ما يزعمه الغافل ـ يكون بكثرة لا قدر لها، فإن الله قد حسب ذلك حساباً دقيقاً، وأنزله بقدر الحاجة لا زائداً ولاناقصاً ﴿**فأنشرنا به**﴾ أي أحيينا بسبب المطر ﴿**بلدة ميتاً**﴾ أي جافة يابسة لا حركة فيها، كالميت الذي لا حراك له، والإحياء إنما هو بإخراج النبات والثمار، والمراد أرض البلدة التي في أطرافها، وإنما أضيف الإحياء إليها لأنها المنتفعة بالمطر ﴿**كذلك**﴾ أي رأيتم من إحياء الأرض بعد موتها ﴿**تخرجون**﴾ أنتم من القبور بعد الموت للنشر والقيامة.

[١٣] ﴿**و الذي خلق الأزواج كلها**﴾ أي الذكر والأنثى من الإنسان والحيوان والنبات والمعدن وغيرها، أو المراد بالأزواج الأصناف ﴿**و جعل لكم**﴾ أي لمنافعكم ﴿**من الفلك**﴾ أي السفن ﴿**و الأنعام**﴾ الإبل ﴿**ما تركبون**﴾ عليه في البحر والبر، وإنما قال من «الفلك» لأن بعض السفن ليست صالحة للركوب كما أن بعض الأنعام كالغنم مثلاً كذلك.

[١٤] ﴿**لتستووا**﴾ أي تركبوا باستواء بلا صعوبة التمايل والانحراف ﴿**على**

ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا۟ سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَـٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٤﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٥﴾ وَجَعَلُوا۟ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا ۚ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَكَفُورٌ

ظهوره﴾ أي ظهور ما جعل لكم من الفلك والأنعام، ويسمى محل الركوب ظهراً، باعتبار باطن السفينة والحيوان، الذي هو داخل فيهما لايمكن ولوجه أو الاستقرار فيه ﴿**ثم تذكروا**﴾ أي تتذكروا ويأتي إلى ذهنكم ﴿**نعمة ربكم**﴾ التي أنعم عليكم﴿ **إذا استويتم عليه**﴾ فتشكروه على تلك النعمة ﴿ **وتقولوا**﴾ في ذكركم ﴿**سبحان الذي سخر لنا هذا**﴾ أي أنزهه عن المثل والشريك والقبائح، «هذا» يعني المركب سفينة كانت أم حيواناً ﴿**وما كنا له**﴾ أي لهذا المركب ﴿**مقرنين**﴾ أي مطيقين مقارين له، فلولا تسخير الله إياه لنا، لم نتمكن من ركوبه، فإن الإقران الإطاقة يقال أقرنت لهذا البعير أي أطقته.

[١٥] ﴿**و إنا إلى ربنا لمنقلبون**﴾ أي راجعون، من انقلب، بمعنى تغيّر حاله من حال إلى حال، وهذا من باب تذكر الجنازة وسفر الآخرة، من المركب وسفر الدنيا ـ وذلك من تتمة الدعاء الذي يقال عند ركوب المركب ـ .

[١٦] ﴿**و**﴾ بعد هذه الآيات الكونية ﴿**جعلوا**﴾ أي جعل الكفار ﴿**له**﴾ تعالى ﴿**من عباده**﴾ وهم الملائكة والمسيح وعزيز ﴿**جزءاً**﴾ فقالوا إنهم أولاد الله، فإن الولد جزء من الوالد، لأنه خلق من دمه السائل في عروقه ﴿**إن الإنسان لكفور**﴾ أي كثير الكفر، فيكفر بالله تعالى في كل أمر،

مُّبِينٌ ﴿١٦﴾ أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ ﴿١٧﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٨﴾

في ذاته، في صفاته، في توحيده في الرسالة، في المعاد ﴿**مبين**﴾ أي بيّن الكفر ظاهره.

[١٧] ثم إن الكفار قالوا: الملائكة بنات الله فيأتي السياق لاستنكار قولهم هذا، بالإضافة إلى استنكار أصل اتخاذه ـ سبحانه ـ ولداً ﴿**أم اتخذ**﴾ أي هل اتخذ الله سبحانه ﴿**مما يخلق**﴾ من صنوف الخلق ﴿**بنات**﴾ بأن جعل الملائكة بناتاً له ﴿**وأصفاكم**﴾ أي أخلصكم ﴿**بالبنين**﴾؟ فلو كانت البنت مكروهة ـ كما في عرفكم ـ كيف تنسبون المكروه إليه، وتقولون إنا مختصون بالذكور؟ وهل هذا إلا تنزيل لقدر الله دون مرتبتكم.

[١٨] ﴿**وإذا بشر أحدهم**﴾ أي أحد هؤلاء الكفار الذين قالوا إن الملائكة بنات الله ﴿**بما ضرب للرحمن مثلاً**﴾ أي بما جعل شبهاً لله، فإن ولد كل شيء شبهه ونظيره، والمراد إذا بشر أحدهم بأن ولدت زوجته بنتاً له ﴿**ظل وجهه مسوداً**﴾ أي انقلب وجهه إلى السواد لكثرة الغم الذي يصيبه من هذه البشارة، فإن الإنسان إذا اغتاظ، توجه الدم إلى وجهه، وحيث إن الدم يضرب إلى السواد يظهر من تراكمه لون السواد، ولعل التعبير بـ «ظل» لبيان دوام الاسوداد في وجهه مدة أيام، لكثرة الحنق والغيظ ﴿**وهو كظيم**﴾ أي مملوء غضباً، كاظماً نفسه، لئلا يبدو منه ما ينافي شأنه.

أَوَمَن يُنَشَّؤُا۟ فِى ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَـٰدُ ٱلرَّحْمَـٰنِ إِنَـٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَـٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴿٢٠﴾

[١٩] فكيف يجعل هؤلاء الكفار البنت التي يكرهونها بهذا النحو من الكره لله سبحانه؟ ﴿أو﴾ الهمزة للاستفهام والواو للعطف أي هل هؤلاء الكفار يجعلون لله ﴿**من ينشأ في الحلية**﴾ أي يكبر ويتربى في الزينة، وهي البنت فإنها تزين بالملابس والذهب والفضة من صغرها حتى تكبر ﴿**وهو في الخصام**﴾ أي في المخاصمة والاحتجاج ﴿**غير مبين**﴾ غير متمكن من إظهار حجتها ودليلها، فإن المرأة حيث يغلب عليها جانب العاطفة لا تتمكن أن تقاوم الرجل الذي غلب عليه جانب العقل والاتزان، وإنما جيء بالضمائر مذكراً باعتبار «من» وقد جاز في «من» و«ما» مراعاة اللفظ والمعنى، والحاصل أنه كيف يجعل هؤلاء لله البنات الناعمة جسداً، العاجزة حجة، ويجعلون لأنفسهم البنين العاملين الأقوياء في الحجاج، وهل هذا إلا انتخاب الشيء الحقير ـ بنظرهم ـ لله تعالى، واختيار الرفيع لأنفسهم؟

[٢٠] ثم صرح سبحانه بذلك بقوله﴿**وجعلوا**﴾ أي هؤلاء الكفار ﴿**الملائكة الذين هم عباد الرحمن**﴾ كسائر العبيد ﴿**إناثاً**﴾ بأن زعموا أنهم بنات الله ﴿**أشهدوا خلقهم**﴾ أي هل حضر هؤلاء الكفار خلق الملائكة حتى رأوا بأنهم إناث؟ ﴿**ستكتب شهادتهم**﴾ بهذا الكذب الشائن، ولعل الإتيان بـ «السين» لما ورد من تأخير كتابة العصيان مدة، رجاء أن يتوب الإنسان، فلا تكتب السيئة في ديوانه ﴿**ويسألون**﴾ عن هذه الشهادة يوم القيامة من أين قالوها؟

وَقَالُواْ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢١﴾ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢٢﴾ بَلْ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ

---

[٢١] وقد كان الكفار يعبدون الملائكة **﴿و قالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم﴾** بأن يمنعنا عن عبادتهم، وقالوا ذلك في جواب المؤمنين الذين أعترضوا عليهم وكيف تعبدون الملائكة؟ **﴿مالهم بذلك﴾** بأن الله شاء عبادة الملائكة **﴿من علم﴾** فمن أين لهم أن يثبتوا أن الله شاء عبادتهم للملائكة؟ **﴿إن هم﴾** أي ما هم **﴿إلاّ يخرصون﴾** أي يكذبون في نسبة المشيئة إليه سبحانه.

[٢٢] **﴿أم آتيناهم﴾** أي هل أعطينا وأرسلنا إلى هؤلاء عبّاد الملائكة **﴿كتاباً﴾** فيه أن اعبدوهم ـ بأن لم يعلموا المشيئة عقلاً وإنما علموها نقلاً ـ **﴿من قبله﴾** أي من قبل هذا القرآن الناهي لهم عن ذلك **﴿فهم به﴾** أي بذلك الكتاب **﴿مستمسكون﴾** متمسكون آخذون به تبريراً لعبادتهم للملائكة؟

[٢٣] كلا! لا علم لهم ولا كتاب **﴿بل قالوا﴾** لتبرير موقفهم **﴿إنا وجدنا آباءنا على أمة﴾** أي على طريقة هي عبادة الملائكة **﴿وإنا على آثارهم﴾** وما بقي من تقاليدهم وعاداتهم **﴿مهتدون﴾** فالأمر لا يخرج عن تقليدٍ صرف.

[٢٤] وليس التقليد للآباء في الضلال والانحراف خاصاً بهؤلاء الكفار بل الكفار السابقون يقولون بمثل هذا القول في مقابل الأنبياء **﴿وكذلك﴾** أي كحال هؤلاء **﴿ما أرسلنا من قبلك﴾** يا رسول الله

فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٢٥﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٦﴾

﴿**في قرية**﴾ من القرى، والمراد بها المدينة ﴿**من نذير**﴾ أي رسول ينذرهم من الكفر والمعاصي ﴿**إلا قال مترفوها**﴾ أي المتنعمون فيها، من أترف بمعنى تنعم، والمراد به الرؤساء والكبراء، لأنهم دائماً يقابلون المصلحين بالإنكار والتخاصم ﴿**إنا وجدنا آباءنا على أمة**﴾ أي على طريقة وملة ﴿**وإنا على آثارهم مقتدون**﴾ نقتدي بهم، فلا نخالفهم في الطريقة باتباعكم أيها الأنبياء، وذلك لأن في اتباعهم إبقاء لكيانهم، بالإضافة إلى أن الألفة توجب تزين الأليف في النظر دون الجديد.

[٢٥] ﴿**قل**﴾ يا رسول الله لهم ﴿**أ**﴾ تبقون على طريقة آبائكم ﴿**ولو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم**﴾؟ يعني لو كان ما أدعوكم إليه أكثر رشداً وهداية من طريقة الآباء؟ ﴿**قالوا**﴾ في الجواب ﴿**إنا بما أرسلتم به**﴾ من الدين والشريعة ﴿**كافرون**﴾ سواء كان أهدى أم غيره.

[٢٦] ﴿**فانتقمنا منهم**﴾ أي من أولئك الذين تمردوا على طاعة الأنبياء عليهم السلام وتمسكوا بالتقاليد البالية ﴿**فانظر**﴾ يا رسول الله، أو أيها الناظر ﴿**كيف كانت عاقبة المكذبين**﴾ للأنبياء؟ وفي هذا تهديد لكفار مكة إن لم يؤمنوا كانت عاقبتهم كعاقبة أولئك، والمراد بالنظر: العلم والتفكير في أمرهم.

وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٧﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٨﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ

[٢٧] ثم يأتي السياق لنقل قطعة من قصة إبراهيمعليه السلام لشباهتها لقصة محمدصلى الله عليه وآله في أن قومه كانوا يعبدون الأصنام فأظهر التبرؤ منهم ﴿و﴾ اذكر يا رسول الله ﴿**إذ قال إبراهيم لأبيه**﴾ آزر، وكان عمه، وإنما اسم أبيه «تارخ» وأطلق عليه لفظ «الأب» احتراماً فإن الناس يسمون العم «أباً» والخالة «أماً» كما في قصة يوسفعليه السلام «ورفع أبويه» على ما ذكره جماعة، من أن المرأة كانت خالته لا أمه ﴿**و**﴾ كما قال لأبيه قال لـ ﴿**قومه**﴾ حين كانوا يعبدون الأصنام والكواكب ﴿**إنني براء**﴾ مصدر «برء» يطلق على المفرد والتثنية والجمع مذكراً ومؤنثاً بلفظ واحد، فهو من قبيل «زيد عدل» وإلا فالأصل «ذو براء» ﴿**مما تعبدون**﴾ من الأصنام.

[٢٨] وحيث إن العام شامل حتى الله سبحانه استثنى بقوله ﴿**إلا الذي فطرني**﴾ أي خلقني وأوجدني من العدم ﴿**فإنه سيهدين**﴾ أصله سيهديني حذف ضمير المتكلم تخفيفاً وتنسيقاً، وحيث إن الهداية شيء يحتاج إليها الإنسان في كل خطوة من خطوات الحياة، صح الإتيان بالفعل المستقبل، ولا ينافي ذلك وجودها في الإنسان سابقاً، ومن ذلك «اهدنا الصراط المستقيم».

[٢٩] ﴿**وجعلها**﴾ أي جعل إبراهيم كلمة التوحيد ـ المستفادة من قوله «إلا الذي فطرني» ـ ﴿**كلمة باقية في عقبه**﴾ أي في نسله وذريته بأن وصاهم بالتزامه والتمسك بها، كما قال سبحانه (وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ

لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٩﴾ بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿٣٠﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣١﴾

وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ)[1] ﴿**لعلهم يرجعون**﴾ كلما انحرفوا عن الطريق، بأن يتذكروا الوصية فيرجعوا إلى التوحيد فإن الإنسان ـ حسب المحيط ـ ينحرف فإذا تذكر وصية جده رجع وتاب.

[٣٠] ﴿**بل**﴾ لندع حديث إبراهيم إلى أحوال هؤلاء الكفار المعاصرين للرسول، الذين جاءهم الحق عياناً فقالوا إنه سحر ـ فإنّا لم نكتف بالنسبة إليهم بكلمة إبراهيم في إرشادهم، بل أرسلنا إليهم رسولاً آخر، ومع ذلك انحرفوا ـ ﴿**متعت هؤلاء**﴾ أي أنعمت عليهم بالصحة والنعمة وطول العمر ﴿**وآباءهم**﴾ إذ كل جيل يلاقي الجيل السابق ﴿**حتى جاءهم الحق**﴾ وهو القرآن أو الشريعة ﴿**ورسول مبين**﴾ أي ظاهر مبيّن للنهج، وهو محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

[٣١] ﴿**ولما جاءهم الحق**﴾ أي القرآن أو الشريعة أو الرسول ﴿**قالوا هذا سحر**﴾ ظاهر الآية يناسب كون المراد بالحق القرآن لأن غيره يحتاج إلى التأويل ﴿**وإنا به كافرون**﴾ فليس من عند الله تعالى، وإنما الذي جاء به ساحر يريد السيطرة والاستعلاء بسحره، وقد بين في هذه الآيات مختلف صنوف النعم والإرشاد على هؤلاء: تمتيعهم لأنفسهم، وإبقاء آبائهم، ووصية إبراهيم عليه السلام، ومجيء الرسول،

(١) البقرة: ١٣٣ .

وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣٢﴾

ومع ذلك لم يؤمنوا.

[٣٢] ﴿**وقالوا لولا**﴾ أي هلاَ ﴿**نزل هذا القرآن على رجل من القريتين**﴾ أي رجل من هذه القرية أو رجل من تلك ﴿**عظيم**﴾؟ صفة رجل، أي رجل عظيم من مكة أو الطائف. في تفسير الإمام أن رسول الله ﷺ كان قاعداً ذات يوم بفناء الكعبة إذ اجتمع جماعة من رؤساء قريش «إلى أن قال»: قال له عبد الله بن أبي أمية: لو أراد الله أن يبعث لنا رسولاً لبعث أجلّ من في ما بيننا مالاً وأحسنه حالاً؟ فهلا نزل هذا القرآن الذي تزعم أن الله أنزله عليك وأبعثك به رسولاً، على رجل من القريتين عظيم، إما الوليد بن المغيرة بمكة وإما عروة بن مسعود الثقفي بالطائف؟ فقال لهم رسول الله ﷺ: وأما قولك لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم، فإن الله ليس يستعظم مال الدنيا كما تستعظمه أنت ولا خطر له عنده كما له عندك، بل لو كانت الدنيا عنده تعدل جناح بعوضة، لما سقى كافراً به مخالفاً له شربة ماء، وليس قسمة الله إليك بل الله القاسم للرحمات والفاعل لما يشاء في عبيده وإمائه، وليس هو عز وجل ممن يخاف أحداً كما تخافه أنت لماله وحاله، فعرفته بالنبوة لذلك، ولا ممن يطمع في أحد في ماله أو في حاله كما تطمع فيخصه بالنبوة لذلك، ولا ممن يحب أحداً محبة الهوى كما تحب أنت فتقدم من لا يستحق التقديم وإنما معاملته بالعدل، فلا يؤثر لأفضل مراتب الدين وجلاله إلا الأفضل في طاعته والأجدّ في خدمته وكذلك لا يؤخر في مراتب الدين والجلالة إلا

﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ﴾

أشدهم تبطراً عن طاعته، وإذا كانت هذه صفته لم ينظر إلى مال ولا إلى حال بل هذا المال والحال من تفضله وليس لأحد من عباده عليه ضربة لازب، فلا يقال له إذا تفضلت بالمال على عبد فلا بد أن تتفضل عليه بالنبوة أيضاً؟ لأنه ليس لأحد إكراهه على خلاف مراده ولا إلزامه تفضلاً، لأنه تفضل قبله بنعمه، ألا ترى يا عبد الله كيف أغنى واحداً وقبّح صورته؟ وكيف حسّن صورة واحد وأفقره؟ وكيف شرّف واحداً وأفقره؟ وكيف أغنى واحداً ووضعه؟ ثم ليس لهذا الغني أن يقول هلاّ أضيف إلى يُسري جمال فلان؟ ولا للجميل أن يقول هلاّ أضيف إلى جمالي مال فلان؟ ولا للشريف أن يقول هلا أضيف إلى شرفي مال فلان؟ ولا للوضيع أن يقول هلا أضيف إلى صفتي شرف فلان؟ ولكن الحكم لله يقسم كيف يشاء ويفعل كما يشاء وهو حكيم في أفعاله، محمود في أعماله[١].

[٣٣] وأجابهم الله تعالى بقوله ﴿**أهم يقسمون رحمة ربك**﴾ أي النبوة، أي هل تقسيم النبوات بيد هؤلاء حتى ينتخبوا فلاناً للنبوة دون محمد ﷺ؟ كلا! فإن الله سبحانه لم يجعل بأيديهم قسمة أرزاقهم فكيف يعطي مقاليد النبوة بأيديهم؟ ﴿**نحن قسمنا بينهم معيشتهم**﴾ وهو ما يستعيشون به ﴿**في الحياة الدنيا**﴾ أي في هذه الحياة القريبة على حسب المصلحة والحكمة ﴿**ورفعنا بعضهم**﴾ أي بعض هؤلاء ﴿**فوق بعض**﴾ رزقاً وجاهاً وقوةً وفي سائر الشؤون ﴿**درجات**﴾ فلم نفوض

(١) تفسير الإمام العسكري: ص٥٠٦ .

لِّيَتَّخِذَ بَعۡضُهُم بَعۡضٗا سُخۡرِيّٗاۗ وَرَحۡمَتُ رَبِّكَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ (٣٢)

إليهم أمور نفسهم مع عدم أهميتها فكيف نفوض إليهم أعظم الأمور وهي النبوة؟ ﴿**ليتخذ**﴾ أي إنما جعلنا بعضهم فوق بعض لأن يستخدم ﴿**بعضهم بعضاً سخرياً**﴾ وهو الذي يسخّر في الحوائج ويستخدم في المهام، فإنه بذلك يتم نظام العالم ويستقيم، إذ لو كان الكل سادة من كان يعمل؟ ولو كان الكل أقوياء كثر التنازع والفناء، ولو كان الكل فقراء من كان يجلب الطعام والحوائج ليبيعها في وقتها عند الحاجة؟ ولو كان الكل أغنياء من كان يكنس ويطبخ ويخبز ويدير الأمور الصغيرة كالفلاحة والبناء وما أشبه؟ وقد أراد بعض السخفاء كـ «ماركس» اليهودي وأضرابه، أن يهدموا نظام الغنى والفقر، فلم يتمكنوا وغاية ما صنعوا أنهم أضافوا إلى الأغنياء مع غنائهم السلاح، فجعلوا الناس فقراء، والأغنياء بيدهم الحكم، لكي يتمكنوا من امتصاص دماء الفقراء بالمال والقوة معاً، بعد ما كان كل من هذين العاملين للاستعلاء والترفع في فئة، فكان الفقراء يجدون مناصاً من طغيان كلّ بالالتجاء إلى الآخر، ولقد كان نظامهم مغلوطاً إلى أبعد الحدود، ولذا نرى اليوم ـ وبعد نصف قرن من قيام دولتهم في الشرق ـ يستجدون الحنطة والرزق من بلاد الرأسماليين كل عام. . . ولقد منع الإسلام عن كل من الرأسمالية بالمعنى الغربي والشيوعية والاشتراكية، وإنما نظّم الأمور خير تنظيم، مما لا مجال هنا لتفصيله[1] ﴿**ورحمة ربك**﴾ يا رسول الله ﴿**خير مما يجمعون**﴾ من الأموال فكيف يمكن أن

---

(١) راجع الاقتصاد للشهيد السيد حسن الشيرازي.

﴿وَلَوْلَا أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٤﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٥﴾ وَزُخْرُفًا﴾

يترك الله الخير ـ بيدهم ـ والحال أنه لم يترك ما يجمعون بأيديهم؟ أو المراد أن النبوة خير من الأموال، فما عندك خير مما عند رجل من القريتين عظيم، الذين يرون تفضيلهما عليك.

[٣٤] إذ قيمة المال والزخرف في نظر الله سبحانه تافه جداً حتى أنه لو لم تكن مخافة انحياز الناس إلى الكفار لأسبل الله على الكفار الأموال والزخارف بكل ألوانها، فهل هذا المال الذي هكذا شأنه يكون ميزاناً لإعطاء النبوة وإرسال الرسول حتى يقول الكفار أنه «لولا نُزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم»؟ **﴿ولولا أن يكون الناس أمة واحدة﴾** أي لولا مخافة أن يجتمع الناس على الكفر فيكونوا جميعاً كفاراً، حيث يرون ان الدنيا للكفار والمؤمنين صفر اليد منها **﴿لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفاً﴾** جمع سقف **﴿من فضة﴾** بأن أكثرنا عليهم من الفضة حتى يصنعوا السقوف منها **﴿ومعارج﴾** من فضة، وهو جمع معراج أي السلم، أي كانت سلالم بيوتهم فضة **﴿عليها يظهرون﴾** أي على تلك المعارج يصعدون ويعلون، فإن الصاعد يظهر بما لا يظهر الذي في البيت.

[٣٥] **﴿ولبيوتهم أبواباً﴾** من فضة **﴿و﴾** لأنفسهم **﴿سرراً﴾** جمع سرير، من فضة **﴿عليها يتكئون﴾** عند الجلوس.

[٣٦] **﴿وزخرفاً﴾** أي جعلنا لهم في السقف والمعارج والأبواب والسرر،

وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَٱلْـَٔاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٧﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ

الزخرف، وهو الذهب، والمعنى أغرقناهم في الذهب والفضة حتى يكون كل شيء لهم منهما ﴿**وإن كل ذلك**﴾ من الفضة والذهب والدر وسائر أنواع التجمل والزينة ﴿**لما متاع الحياة الدنيا**﴾ «أن» نافية و«لما» بمعنى إلا، أي ما كل ذلك إلا متاع الحياة الدنيا، أي الحياة القريبة، التي يتمتع بها الإنسان في أيام قلائل ﴿**والآخرة**﴾ التي ﴿**عند ربك**﴾ قرباً شرفياً، لا مكانياً ﴿**للمتقين**﴾ الذين آمنوا وأطاعوا، فمن الضروري أن يحصل الإنسان على الآخرة لا على الدنيا الفانية التي لاقيمة لها.

[٣٧] وإذ تبين أن لا قيمة للماديات، فالكافر لا أهمية له بنظره سبحانه وإن كان ذا رئاسة أو مال، بل إن مستواه المعنوي لمنحط جداً حتى أنه دائم الملازمة للشيطان الذي يغويه، فهل مثل هذا صالح للنبوة؟ ﴿**ومن يعش**﴾ أي يعرض ويتعامى ﴿**عن ذكر الرحمن**﴾ أصله من «العشو» وهو ضعف البصر، فكأن الكافر ضعيف البصر، بالنسبة إلى الشريعة والدين ﴿**نقيض**﴾ أي نرسل ﴿**له**﴾ لذلك الإنسان ﴿**شيطاناً**﴾ يوسوس إليه ويؤذيه ويصده عن الحق ﴿**فهو**﴾ أي الشيطان ﴿**له**﴾ لذلك الإنسان ﴿**قرين**﴾ أي ملازم، وذلك لأنه لما أعرض عن الحق خلّى سبحانه بينه وبين الشياطين يفعلون به ما يشاءون، وهذا معنى «التقييض».

[٣٨] ﴿**وإنهم**﴾ أي الشياطين القرناء مع الكفار، وإنما جيء بالجمع، لأن المراد بـ «شيطاناً» الجنس، لا الواحد ﴿**ليصدونهم**﴾ أي يمنعون هؤلاء

عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحۡسَبُونَ أَنَّهُم مُّهۡتَدُونَ ﴿٣٨﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيۡتَ بَيۡنِي وَبَيۡنَكَ بُعۡدَ ٱلۡمَشۡرِقَيۡنِ فَبِئۡسَ ٱلۡقَرِينُ ﴿٣٩﴾ وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلۡيَوۡمَ إِذ ظَّلَمۡتُمۡ

الكفار ﴿**عن السبيل**﴾ طريق الله سبحانه بالوسوسة وإلقاء الشبهة ﴿**ويحسبون**﴾ هؤلاء الكفار ﴿**أنهم مهتدون**﴾ أي أنهم في سبيل الحق، حيث زين لهم كفرهم وعصيانهم، حتى زعموا أنهم على هدى، وأن المؤمنين على ضلالة، كما قال سبحانه (وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلاءِ لَضَالُّونَ)[1].

[٣٩] ويبقى الشيطان مع هذا الكافر ﴿**حتى**﴾ يوم القيامة فـ ﴿**إذا جاءنا**﴾ أي حضر للحساب والجزاء في يوم المحشر وظهر له جزاءه السيء ﴿**قال**﴾ مخاطبا للشيطان الذي كان يغويه في دار الدنيا، ويمنعه عن الاهتداء ﴿**يا ليت بيني وبينك**﴾ أيها الشيطان، بعداً مثل ﴿**بعد المشرقين**﴾ أي المشرق والمغرب، وغلب المشرق، لقاعدة تغليب الأشرف، أو الأقرب إلى القصد، ولذا يقال للشمس والقمر «شمسان» و«قمران» ﴿**فبئس القرين**﴾ كنت لي في الدنيا حيث أوصلتني إلى هذه الحالة، وهذا العقاب الأليم.

[٤٠] وإذا كان المقام محل توهم أن يخفف الشيطان المقارن للكافر ـ في الآخرة ـ بعض عذابه، كما هو المعتاد في الدنيا أن يخفف أحد القرينين بعض آلام الآخر، جاء الخطاب للكافر بقوله ﴿**ولن ينفعكم**﴾ أيها الكفار والشياطين القرناء لهم ﴿**اليوم**﴾ أي يوم القيامة ﴿**إذ ظلمتم**﴾

---

(١) المطففين: ٣٣.

أَنَّكُمْ فِي ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٤٠﴾ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤١﴾ فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤٢﴾ أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدْنَٰهُمْ

أنفسكم في الدنيا بالكفر والعصيان ﴿**أنكم في العذاب مشتركون**﴾ هذا فاعل «لن ينفعكم» أي لا يفيدكم اشتراككم في العذاب لتخفيفه عنكم بل لكل عذاب نفسه، بدون أن يحمل قرينه بعض عذابه.

[٤١] ثم جاء السياق ليسلي النبي صلى الله عليه وآله وسلم بالنسبة إلى هؤلاء الكفار الذين لايسمعون وعظه وإرشاده ببيان أن التقصير ليس منك، وإنما من الكافر نفسه حيث عاند حتى صار كالأصم الأعمى لا يسمع ولا يبصر ﴿**أفأنت**﴾ يا رسول الله، والاستفهام للإنكار ﴿**تسمع الصم**﴾ أي تقدر على إسماع من به صمم في أذنه، و«صم» جمع أصم ﴿**أو تهدي العمي**﴾ أي تقدر على إرشاد الأعمى بالكلام هو والأصم سواء من لا ينتفع بما يرى هو والأعمى سواء ﴿**ومن كان في ضلال مبين**﴾ أي ضلال ظاهر بين، وهذا في قبال أولئك فإن من ضل قلبه عن الحق وعاند يكون غير قابل للهداية، فهؤلاء لا ينتفعون بأبصارهم وأسماعهم وقلوبهم.

[٤٢] ولا بد أن ننتقم من هؤلاء الكفار سواء انتقمنا في حياتك أو بعد موتك ﴿**فإما**﴾ أصله «إن» الشرطية و«ما» الزائدة للتأكيد ﴿**نذهبن بك**﴾ يا رسول الله، أي نميتك قبل تعذيب هؤلاء الكفار ﴿**فإنا منهم منتقمون**﴾ بعدك.

[٤٣] ﴿**أو**﴾ إن أردنا أن ﴿**نرينك الذي وعدناهم**﴾ من العذاب والنكال، بأن

فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ﴿٤٣﴾ فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٤﴾ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ﴿٤٥﴾ وَسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا

نعذبهم في حياتك ﴿**فإنا عليهم مقتدرون**﴾ فإنهم لا يتمكنون من الفرار أو الانتصار علينا.

[٤٤] فما عليك يا رسول الله أمر هؤلاء، وإنما أنت منتدب إلى البلاغ باستمرار سواء قبل الناس أم لم يقبلوا ﴿**فاستمسك**﴾ يا رسول الله أي تمسك بشدة ﴿**بالذي أوحي إليك**﴾ من القرآن والشريعة﴿**إنك على صراط مستقيم**﴾ يوصل إلى السعادة بأقرب الخطوط.

[٤٥] ﴿**وإنه**﴾ أي الذي أوحي إليك من القرآن والشريعة ﴿**لذكر لك**﴾ أي مذكر لك ما أودع في فطرتك من الأصول﴿**ولقومك**﴾ أي العرب، أو من بعثت إليهم من جميع البشر، ولذا كان صلى الله عليه وآله يقول «اللهمّ اهد قومي فإنهم لا يعلمون»[1] حين كان يؤذيه الكفار ولو كانوا غير قومه، ويحتمل أن يكون المراد بالذكر «الشرف» أي أنه شرف باق لكم ﴿**وسوف تسألون**﴾ عنه يوم القيامة هل عملتم بما في هذا الذكر أم لا؟.

[٤٦] ﴿**واسأل**﴾ يا رسول الله ﴿**من أرسلنا من قبلك من رسلنا**﴾ كنوح وإبراهيم وموسى وعيسى وغيرهم عليهم السلام، وهذا مجاز يراد به الفحص عن مقالاتهم، كما يقال سل الأطباء عن هذا المرض، أي راجع كتبهم

(١) بحار الأنوار: ج٢٠ ص١١٧ .

أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٨﴾

﴿**أجعلنا من دون الرحمن**﴾ أي سواه ﴿**آلهة يعبدون**﴾؟ أي هل قرننا عبادة آلهة أخرى، وهذا الكلام لتقريع أهل الكتاب في المشركين الذين كانوا يزعمون أنهم متبعون للأنبياء ومع ذلك كانوا يشركون بالله زاعمين أن الله أباح لهم الشرك وقالوا: (لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلاَ آبَاؤُنَا)[1] وقالوا (هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ)[2] وهذا لا ينافي ماروي من أن الأنبياء جُمعوا للرسول ﷺ ليلة المعراج، وخوطب بهذا الخطاب هناك.

[٤٧] ثم يأتي السياق ليذكر نتفاً من قصة موسى عليه السلام، تسلية للرسول، حيث قابله القبط بما قابل المشركون الرسول ﷺ ﴿**ولقد أرسلنا موسى بآياتنا**﴾ أي مع آياتنا، وهي المعجزات الباهرة، من عصا، ويد، وجراد، ودم، وغيرها ﴿**إلى فرعون وملإه**﴾ أي الأشراف من قومه، وتسمى الأشراف ملأً لأنهم يملؤون الصدور رهبة والعيون هيبة، وذكر الملأ يغني عن ذكر سائر القبط، لأنهم تابعون دائماً، فلا يحسب حسابهم ﴿**فقال**﴾ موسى لهم ﴿**إني رسول رب العالمين**﴾ إليكم.

[٤٨] ﴿**فلما جاءهم**﴾ موسى عليه السلام ﴿**بآياتنا**﴾ أي مع المعاجز التي أعطيناها لتثبيت نبوته ﴿**إذا هم منها يضحكون**﴾ أي يستهزئون بالآيات، وهذه

---

(١) النحل: ٣٦.

(٢) يونس: ١٩.

وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ۖ وَأَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٩﴾ وَقَالُوا يَا أَيُّهَ السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴿٥٠﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ

حيلة العاجز يتخذها وسيلة لإخماد صوت خصمه القوي حيث لايتمكن من إبطال حجته.

[٤٩] ﴿**وما نريهم**﴾ أي ما أريناهم، وإنما جيء بالمستقبل لأنه حكاية حال ماضية ﴿**من آية**﴾ أي خارقة من الخوارق التسع ﴿**إلا هي أكبر من أختها**﴾ فما ترادف عليهم كان الثاني أكبر من الأول والثالث أكبر من الثاني وهكذا في الباقي أو انه عبارة عرفية لبيان كبر جميع الآيات، ولذا يقول القائل لي أولاد واحد منهم أحسن من الآخر - يريد وصول كل واحد إلى منتهى درجة الحسن - ﴿**وأخذناهم بالعذاب**﴾ فقد كانت بعض تلك الآيات عذاباً لهم، كالدم والقمل والضفادع ﴿**لعلهم يرجعون**﴾ عن كفرهم وضلالهم.

[٥٠] ﴿**وقالوا**﴾ أي قال فرعون وملأه لموسى، عندما نزل بهم العذاب ﴿**يا أيها الساحر ادع لنا**﴾ أي لأجل رفع عذابنا ﴿**ربك بما عهد عندك**﴾ فقد عهد الله إلى موسى أنهم إن أرسلوا معك بني إسرائيل بأن أطلقوا سراحهم من السجون والتسخير يكشف العذاب عنهم، كما سبق في بعض الآيات، أو أنهم لما ضاق بهم الخناق وعدوا أن يؤمنوا إذا كشف العذاب عنهم ﴿**إننا لمهتدون**﴾ إلى الإيمان أو إطلاقهم.

[٥١] وعلى أيّ فقد دعا موسى ربه وكشف الله عنهم العذاب ﴿**فلما كشفنا عنهم العذاب**﴾ كأن العذاب ستر عليهم، فإذا رفع، كشف عنهم

إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿٥١﴾ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِي مِن تَحْتِيٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥٢﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٣﴾ فَلَوْلَآ أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ

ليظهروا من تحته غير معذبين ﴿**إذا هم ينكثون**﴾ أي ينقضون العهد ويبقون على كفرهم، أو يبقون بني إسرائيل على إسارهم كالسابق.

[٥٢] ﴿**ونادى فرعون في قومه**﴾ حين رأى أن أمر موسى أخذ في العلو والظهور، فأراد الحطّ من قدر موسى وإظهار نفسه قوياً عظيماً لدى أهل مصر، لئلاّ يميلوا إلى موسى فجمعهم وخطبهم ﴿**قال يا قوم أليس لي ملك مصر**﴾؟ على نحو الاستفهام التقريري، أي أن لي هذا الملك الوسيع ﴿**وهذه الأنهار**﴾ كالنيل ونحوه﴿**تجري من تحتي**﴾أي من تحت أمري وسلطتي، فلي أرض وماء ﴿**أفلا تبصرون**﴾ هذا الملك العظيم؟.

[٥٣] ﴿**أم**﴾ تبصرون وتعلمون ﴿**أنا خير من هذا الذي هو مهين**﴾؟ يريد موسى عليه السلام، والمراد بالمهين الذليل الحقير، من هان بمعنى ذل وسهل أمره ﴿**ولا يكاد يبين**﴾ أي لا يكاد يفصح بكلامه، فقد كان موسى عليه السلام قبل النبوة يعقد لسانه إذا أراد الكلام، ولذا قال في دعائه «واحلل عقدة من لساني» وقد استجاب الله دعاءه فكان فصيحاً، لكن فرعون استغل جهل الناس بذلك، وأنهم كانوا قد عهدوه قبل النبوة غير مفصح، ولذا خدعهم بأنه بعد باق على حالته السابقة.

[٥٤] ﴿**فلولا ألقي عليه**﴾ أي على موسى ﴿**أسورة**﴾ جمع سوار وهو الحلية

مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٤﴾ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ﴿٥٥﴾ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَـٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٦﴾ فَجَعَلْنَـٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا

التي تلبس في اليد بين المرفق والزند ﴿**من ذهب**﴾؟ أي إن كان صادقاً فلماذا لا يلقي عليه ربه مقداراً من الذهب يثري ويغني ﴿**أو جاء معه الملائكة مقترنين**﴾ أي متتابعين يعينونه على أمره؟ وإذ لا ذهب يبقى ولا ملائكة معه فهو كاذب، وأي ربط بين النبوة وإلقاء الأسورة؟ أم أي حاجة إلى نزول الملائكة بعد تلك الآيات؟ وإنما أراد فرعون خداع الجماهير بهذه التلفيقات الباطلة.

[٥٥] ﴿**فاستخف**﴾ فرعون ﴿**قومه**﴾ بأن حسبهم خفيفي العقول يتمكن من إنهاضهم لنصره بمجرد خطاب ومغالطة، كما هي عادة الطغاة دائماً أمام الجماهير ﴿**فأطاعوه**﴾ فيما دعاهم إليه من رفض الإسلام واتباع موسى، والبقاء على الكفر والعصيان ﴿**إنهم كانوا قوماً فاسقين**﴾ أي خارجين عن طاعة الله تعالى، ولذا اتبعوا فرعون.

[٥٦] ﴿**فلما آسفونا**﴾ أي أغضبونا ببقائهم في الكفر والعناد، والله سبحانه لايغضب ـ كما يغضب الإنسان ـ بل المراد وصلوا في كفرهم وعصيانهم إلى حد من شأنه أن يغضب ﴿**انتقمنا منهم**﴾ جزاء كفرهم وإثمهم ﴿**فأغرقناهم**﴾ في البحر ﴿**أجمعين**﴾ ولم نبق واحداً منهم سالماً.

[٥٧] ﴿**فجعلناهم سلفاً**﴾ أي متقدمين إلى النار وعلى سائر الكفار ﴿**ومثلاً**﴾

﴿لِلْآخِرِينَ (٥٦) وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا

أي عبرة وموعظة يمثل بهم لأجل العظة والتذكير ﴿**للآخرين**﴾ الذين يجيئون بعدهم.

[٥٨] وبمناسبة الحديث عن قصة موسى عليه السلام يقدم على ذلك مقدمة وهي ما ذكره بعض المفسرين من أنه لما نزل قوله تعالى ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾[1] فرح بعض المشركين بأنهم وجدوا مأخذاً على الرسول، فجاء ابن الزبعرى وهو القائل:

لـعـبـت هـاشـم بـالـمـلـك فـلا
خـبـر جـاء ولا وحـي نـزل

وقال للرسول ألم يعبد المسيح وعزيز والملائكة؟ فقال الرسول بلى قد عُبدوا، فقال: فكيف يكون هؤلاء «حصب جهنم» كما ذكرت وأنت تثني عليهم؟ وإذا جعلتهم من أهل النار فنحن نرضى بأن نكون كالمسيح، فقال له النبي صلى الله عليه وآله وسلم: ويلك! ما أجهلك بلسان قومك؟ «ما» لما لا يعقل، فأفحم ابن الزبعرى وارتد خائباً، وفي قول آخر إن الرسول انتظر الوحي، فنزل ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَى أُوْلَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾[2] وقد أراد الله سبحانه من ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ﴾[3] الأصنام، لأن الخطاب موجه إلى المشركين، فكان قولهم للرسول صلى الله عليه وآله وسلم مغالطة وجدلاً، ولذا أوضحت الآية ذلك، وهناك روايات أخرى لا يهمنا التعرض لها ﴿**ولما ضرب ابن مريم مثلاً**﴾ أي لما ضرب ابن الزبعرى المثل بعيسى وأراد ان يجعله مثلاً لقوله «وما

(١) الأنبياء: ٩٩.
(٢) الأنبياء: ١٠٢.
(٣) الأنبياء: ٩٩.

إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٨﴾ وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٩﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٦٠﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم

تعبدون» ﴿**إذا قومك**﴾ يا رسول الله، والمراد بهم الكفار ﴿**منه**﴾ أي من هذا المثل ﴿**يصدون**﴾ أي يضجون ضجيج المجادلة، لظنهم أنهم غلبوك وأبطلوا أمرك.

[٥٩] ﴿**وقالوا**﴾ في جدالهم معك ﴿**أآلهتنا خير**﴾ من عيسى ﴿**أم هو**﴾ خير؟ فإذا كان عيسى في النار ـ كما تقول أنت يا محمد ـ فلتكن آلهتنا في النار أيضاً، فإنا راضون بمقام عيسى ﴿**ما ضربوه**﴾ أي لم يضرب هذا المثل ابن الزبعرى ﴿**لك**﴾ يا رسول الله ﴿**إلا جدلاً**﴾ فهم يريدون الجدل لاالحقيقة، كسائر المعاندين ﴿**بل هم قوم خصمون**﴾ أي يريدون الخصومة والجدل لدفع الحق بالباطل.

[٦٠] ثم يأتي السياق لبيان حال عيسى، بقول وسط بين إفراط النصارى وتفريط اليهود ﴿**إن هو**﴾ أي ما عيسى ﴿**إلا عبد أنعمنا عليه**﴾ بالنبوة، فليس إلهاً، ولا لغير رشده كاذباً ﴿**وجعلناه مثلاً لبني إسرائيل**﴾ أي مثلاً للدين والفضيلة، فإن القدوة يكون مثلاً به، ألا ترى أنك تمثل للرسالة بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم، وللزهد بالمقدّس الأردبيلي، وبالشقاوة بابن ملجم فإن الفرد الكامل في صفته يجعل مثلاً، وإنما كان مثلاً لبني إسرائيل لأنه عليه السلام بعث فيهم.

[٦١] ﴿**ولو نشاء**﴾ أيها الناس ﴿**لجعلنا منكم**﴾ أي بدلاً منكم معاشر بني آدم

مَلَٰٓئِكَةً فِي ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴿٦١﴾ وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦٢﴾ وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ

﴿**ملائكة في الأرض**﴾ فإن إفناءكم وجعل الملائكة مكانكم ﴿**يخلفون**﴾ ويكونون خلفكم في الأرض، أمر يسير علينا، فلا يظن الكفار أن الله غير قادر على إفنائهم أو أنه لا يجد أفضل منهم، ولذا يبقيهم.

[٦٢] ﴿**وإنه**﴾ أي أن عيسى ابن مريم عليه السلام ﴿**لعلم للساعة**﴾ أي علامة لقرب القيامة، فقد ورد في عدة أحاديث إن عيسى عليه السلام ينزل من السماء عند ظهور الحجة عليه السلام ويصلي به وكونه موجباً للعلم باقتراب الساعة ليس معناه أنه عليه السلام ينزل قرب الساعة حقيقة، بل هو من قبيل كون رسولنا صلى الله عليه وآله وسلم من علائم الساعة، ويحتمل أن يرجع ضمير «إنه» إلى نزول الملائكة، أي أن النزول وقت قيامة القيامة كما قال سبحانه (وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا)[1] و (وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ المَلائِكَةُ تَنزِيلاً)[2] والآية بعد ـ عندي ـ من المتشابهات، كما أنه لَم يظهر لي الربط التام بين آية (٦٠) وما قبلها والله العالم ﴿**فلا تمترن بها**﴾ لاتشكّون في الساعة، فإنها آتية لا محالة ﴿**واتبعون**﴾ فيما آمر وأنهي، وحذف «ياء» المتكلم للتخفيف ﴿**هذا**﴾ أي اتباعي وسلوك ديني ﴿**صراط مستقيم**﴾ موصل إلى السعادة الأبدية بأقصر خط وأسهل سلوك.

[٦٣] ﴿**ولا يصدنكم**﴾ أي لا يصرفنكم ﴿**الشيطان**﴾ بوساوسه عن طريق

---

(١) الحاقة: ١٨ .

(٢) الفرقان: ٢٦ .

إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٣﴾ وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٤﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ

الله، وصراطه المستقيم ﴿**إنه**﴾ أي الشيطان ﴿**لكم**﴾ أيها البشر ﴿**عدو مبين**﴾ ظاهر العداوة.

[٦٤] ﴿**ولما جاء عيسى**﴾ إلى اليهود ﴿**بالبينات**﴾ أي الأدلة الخارقة الواضحة كإحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص ﴿**قال**﴾ لهم ﴿**قد جئتكم**﴾ مرسلاً إليكم ﴿**بالحكمة**﴾ أي بالنبوة التي هي عرفان الشريعة وسائر الأمور المرتبطة بدين الناس ودنياهم، فإن الرسول وحده يعلم موضع كل شيء ويتمكن من وضع كل شيء موضعه، وقد سبق أن الحكمة عبارة عن وضع كل شيء في موضعه اللائق به ﴿**ولأبين لكم بعض الذي تختلفون فيه**﴾ فقد اختلف اليهود في كثير من شريعة موسى عليه السلام فجاء عيسى مبيناً لهم الحق في بعض تلك الاختلافات، وإنما قال «بعض» لأن كل الاختلافات الجزئية لا يسهل إعلام أهلها بالحق فيها وهذا يظهر إذا قاس الإنسان ذلك بالاختلافات في ذات نفسه، فإن الخطوط العامة للاختلافات يمكن بسهولة بيان الحق فيها أما الاختلافات بين كل فردين منتشرين هنا وهناك في بعض الأمور الدينية، فلا يسهل استيعابها، ولا يهم الداعي والمرشد بيان الحق فيها ﴿**فاتقوا الله**﴾ أيها اليهود، وخافوا عقابه في العصيان ﴿**وأطيعون**﴾ فيما آمركم وأنهاكم، وحذف «الياء» للتخفيف والتنسيق.

[٦٥] ﴿**إن الله هو ربي**﴾ فلست إلهاً ﴿**وربكم**﴾ فلا إله غيره، فقد كانت الوثنية تتحكم في بعض طوائف اليهود ﴿**فاعبدوه**﴾ وحده لا شريك له

هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦٥﴾ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٦٦﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ

﴿**هذا**﴾ الذي ذكرته من لزوم توحيد الله، واتقائه وإطاعة رسله ﴿**صراط مستقيم**﴾ يوصلكم إلى السعادة الأبدية، بلا انحراف أو تحوير.

[٦٦] وهل بقيت أمة عيسى على صفاء التوحيد كما أمر عيسى، وصرح به في كلامه؟ وهل بقوا أوفياء فيما حمّلهم من الشريعة؟ كلا! ﴿**فاختلف الأحزاب**﴾ أي الفئات التي اتبعت عيسى عليه السلام ﴿**من بينهم**﴾ أي من بين أولئك الذين أرشدهم عيسى وهداهم، فهناك من بقي يهودياً، ومن انحرف عن التوحيد فقال إن عيسى ثالث ثلاثة، ومن أدخل في الشريعة ما ليس منها أو أنقص منها، ومن حرّف الإنجيل كما شاء إلى غيرهم من الأحزاب المختلفة ﴿**فويل**﴾ كلمة تقال لبيان سوء الحال ﴿**للذين ظلموا**﴾ بالكفر والعصيان من هؤلاء ﴿**من عذاب يوم أليم**﴾ أي عذب يوم القيامة، المؤلم الموجع.

[٦٧] وإذ تقدم الكلام حول التوحيد، وحول الرسالة، يأتي السياق لبيان نتفٍ حول المعاد ـ كما هي القاعدة في بيان الأحوال الثلاثة، في القرآن الحكيم ـ ﴿**هل ينظرون**﴾ أي هل ينتظر هؤلاء الكفار ﴿**إلا الساعة**﴾؟ بمعنى ماذا ينتظرون بعد قيام الحجة عليهم، إلا أن تقوم عليهم القيامة، فيعذبون بكفرهم؟ وهذا تهديدٌ لهم، كما تقول لمن أمرته فعصى: هل تنتظر إلا العقوبة؟ يعني أنك بعصيانك يكون حالك كحال من ينتظر العقاب، وإلا فلماذا تعصي؟، والإتيان بلفظ

أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٧﴾ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٨﴾ يَـٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٩﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٧٠﴾

«ينظرون» لنكته هي أن المنتظر يأخذ في النظر إلى المحل المترقب، إذا قرب وقت المجيء، فكأن كل شيء تمّ بالنسبة إلى هؤلاء الكفار، وقد قرب وقت العذاب، فهم ينظرون إلى محلّه متى يأتيهم ﴿**أن تأتيهم بغتة**﴾ أي فجأة بلا سابق إنذار ﴿**وهم لا يشعرون**﴾ وقت مجيئه حتى يتوبوا ويستعدوا له.

[٦٨] ﴿**الأخلاء**﴾ جمع خليل، وهو الصديق، ﴿**يومئذ بعضهم لبعض عدو**﴾ لما يرى كل واحد منهم من العذاب لأجل تلك المصادقة ﴿**إلا المتقين**﴾ الذين آمنوا واتقوا الكفر والمعاصي، فإنهم لا يتعادون هناك، إذ لم يترتب على صداقتهم عذاب أو نكال، بل بالعكس من ذلك فإن التصادق في الله يوجب الثواب والأجر.

[٦٩] ويخاطب الله المتقين في ذلك بقوله﴿**يا عباد**﴾جمع عبد، وحذف الياء للتخفيف ﴿**لا خوف عليكم اليوم**﴾ من العقاب ﴿**ولا أنتم تحزنون**﴾ لفوات الثواب من أيديكم.

[٧٠] ثم وصف العباد، ليُعلم من هم؟ بقوله ﴿**الذين آمنوا**﴾ بالله ورسوله واليوم الآخر وما يلزم الإيمان به ﴿**بآياتنا**﴾ أي بحججنا وأدلتنا ﴿**وكانوا مسلمين**﴾ لأوامرنا، بأن صحت عقيدتهم، وحسن عملهم.

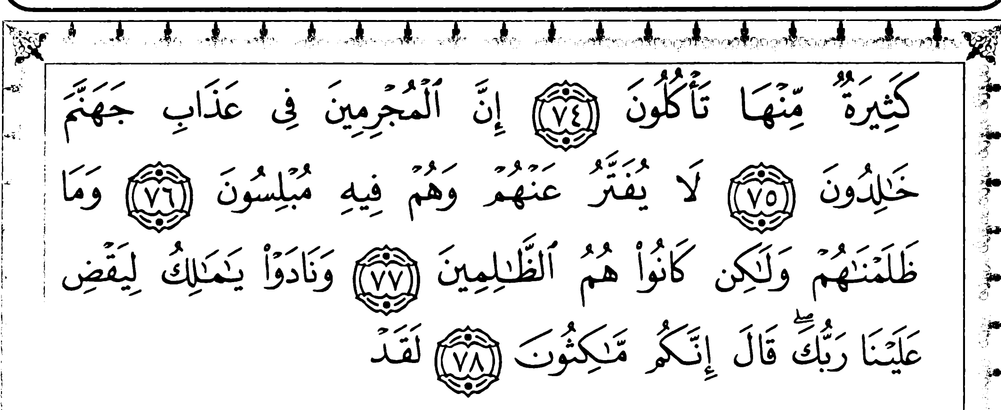
ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٧١﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ۖ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ۖ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٧٢﴾ وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٣﴾ لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ

[٧١] ﴿**ادخلوا الجنة أنتم وأزواجكم**﴾ المؤمنات ﴿**تحبرون**﴾ أي تسرون فيها سروراً يظهر على وجوهكم أثره، فإن الحبور هو السرور الذي يظهر أثره في الوجه.

[٧٢] ﴿**يطاف عليهم**﴾ أي يطوف عليهم الولدان المخلدون ومعنى الطواف أن يدور فيهم لإسقائهم وإطعامهم، كما يدور الساقي ﴿**بصحاف**﴾ جمع صحفة وهي الجام الذي يؤكل فيه الطعام ﴿**من ذهب**﴾ فيها أنواع الأطعمة ﴿**وأكواب**﴾ جمع كوب وهو ظرف يشرب فيه الماء ﴿**وفيها**﴾ أي في الجنة ﴿**ما تشتهيه الأنفس**﴾ من أنواع الملذات ﴿**وتلذ الأعين**﴾ بالنظر إليه ﴿**وانتم فيها خالدون**﴾ باقون أبد الآبدين بلا زوال أو تنقل.

[٧٣] ﴿**وتلك**﴾ التي وصفناها هي ﴿**الجنة التي أورثتموها بما كنتم تعملون**﴾ أي انتقلت إليكم، كالإرث الذي ينقل إلى الإنسان، وإنما أورثوا الجنة بسبب أعمالهم الصالحة في الدنيا، والظاهر أن هذا كلام يقال لأهل الجنة على سبيل التكريم لهم، وإنما جاء بلفظ «تلك» للبعيد دون «هذه» تنزيلاً للرفيع منزلةً، البعيد حسّاً ـ كما قالوا: في ذلك الكتاب ـ .

[٧٤] ﴿**لكم**﴾ أيها المتقون المسلمون ﴿**فيها**﴾ أي في الجنة ﴿**فاكهة**﴾ أي



ثمرة ﴿كثيرة﴾ بلا انقطاع أو قلة ﴿منها تأكلون﴾ لأنها لكثرتها لا تؤكل كلها، وإنما يؤكل «منها» أي بعضها.

[٧٥] وفي مقابل هؤلاء، الكفار والعصاة الذين أجرموا في الحياة ﴿**إن المجرمين في عذاب جهنم خالدون**﴾ وهذا لمن عاند الحق، وأما العاصي الذي تدركه الشفاعة فإنه يخرج من النار لا كالمعاند الذي ينتهي أمره.

[٧٦] ﴿**لا يفتر**﴾ من الفتور، بمعنى التخفيف، لا يخفف ﴿**عنهم**﴾ العذاب ﴿**وهم فيه**﴾ أي في العذاب ﴿**مبلسون**﴾ أي آيسون، وهذا من أعظم المصائب، إذ الراجي له راحة القلب ـ نوعاً ما ـ بينما أن الآيس منقطع، لا يرى إلا دوام العذاب، مما يزيده ألماً وحزناً.

[٧٧] ﴿**وما ظلمناهم**﴾ بتعذيبهم في النار ﴿**ولكن كانوا هم الظالمين**﴾ لأنفسهم حيث عملوا في الدنيا ما استحقوا به العقاب.

[٧٨] ﴿**ونادوا**﴾ أي أهل النار ﴿**يا مالك**﴾ وهو خازن جهنم ﴿**ليقض علينا ربك**﴾ أي اسأل ربك أن يميتنا نتخلص ونستريح من هذا العذاب ﴿**قال**﴾ مالك في جوابهم ﴿**إنكم ماكثون**﴾ أي باقون في النار فلا موت بعد هذا أبداً.

[٧٩] ثم يذكّرهم سبحانه ـ في الدنيا ـ بأنه أرشدهم ولكن لم يقبلوا ﴿**لقد**

جِئۡنَٰكُم بِٱلۡحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَكُمۡ لِلۡحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٩﴾ أَمۡ أَبۡرَمُوٓاْ أَمۡرٗا فَإِنَّا مُبۡرِمُونَ ﴿٨٠﴾ أَمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّا لَا نَسۡمَعُ سِرَّهُمۡ وَنَجۡوَىٰهُمۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيۡهِمۡ يَكۡتُبُونَ ﴿٨١﴾ قُلۡ إِن كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٞ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡعَٰبِدِينَ ﴿٨٢﴾

جئناكم بالحق﴾ أي أرسلنا إليكم ما هو حق من أمر الرسل والكتب والشرائع ﴿**ولكن أكثركم**﴾ معاشر الناس ﴿**للحق كارهون**﴾ لما ألفتم من الباطل فصعب عليكم مفارقته إلى العمل بالحق واتباعه.

[٨٠] ﴿**أم أبرموا أمراً**﴾؟ أي بل إن هؤلاء عوض اتباعهم للحق جعلوا يحيكون المؤامرات ضد الحق، من الإبرام، وهو الإحكام في العمل، والقتل ﴿**فإنا مبرمون**﴾ أي إنا محكمون أمرنا في إعلاء كلمتنا ومجازات هؤلاء.

[٨١] ﴿**أم يحسبون**﴾ أي بل يظن هؤلاء ـ حين يدبرون المكر والمؤامرة ـ ﴿**أنا لا نسمع سرهم ونجواهم**﴾ ما يضمرون في أنفسهم وما يتناجى بعضهم مع بعض ﴿**بلى**﴾ نسمع السر والنجوى، وإطلاق السماع على السر ـ المضمر في القلب ـ باعتبار الجوار للنجوى، وإلا فالسر يعلم، لا أنه يسمع ﴿**ورسلنا**﴾ أي الملائكة الحفظة ﴿**لديهم يكتبون**﴾ ما يسرون ويتناجون.

[٨٢] ولقد كان هؤلاء الكفار بمختلف أشكالهم يزعمون أن لله ولداً، أما المسيح أو الملائكة، أوعزير فجاء السياق لنفي الولد ﴿**قل**﴾ يا رسول الله لهؤلاء ﴿**إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين**﴾ لذلك، باعتبار أنه جزء من الإله، فهو إله يستحق العبادة، وإنما قال «أول العابدين» لأن

سُبۡحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبِّ ٱلۡعَرۡشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٣﴾ فَذَرۡهُمۡ يَخُوضُواْ وَيَلۡعَبُواْ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوۡمَهُمُ ٱلَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٨٤﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي فِي ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٞ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَٰهٞۚ وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٨٥﴾

الرسول حيث إنه أعرف الناس بالله وشؤونه لا بد وأن يكون أسرع الناس إلى عبادة ولد الله، لا يخفى ان الجملة الشرطية لا تنافي استحالة الطرفين ـ كما ذكروا ـ .

[٨٣] ﴿**سبحان رب السماوات والأرض**﴾ أي أنزه الله تنزيهاً عن هذا القول، فـ سبحان مصدر منصوب بفعل مقدر أي أسبح سبحان ﴿**رب العرش**﴾ جيء بهذا الوصف للدلالة على عظم مقامه سبحانه فكيف يمكن أن يتخذ ولداً ﴿**عما يصفون**﴾ أي يصف هؤلاء المشركون الله سبحانه به فيقولون «له ولد».

[٨٤] ﴿**فذرهم**﴾ أي دعهم يا رسول الله ﴿**يخوضوا**﴾ في باطلهم، وأصل الخوض هو الإرتماس في الماء، ويسمى المحدّث الذي غرق في الحديث خائضاً ـ تشبيهاً ـ ﴿**ويلعبوا**﴾ في الدنيا، فإن أعمالهم الدنيوية لعب ـ إذ هي مثله في عدم الفائدة والفناء بسرعة ـ ﴿**حتى يلاقوا يومهم الذي يوعدون**﴾ فيه بعذاب الأبد، وهو يوم القيامة، وهذا تهديد لهم.

[٨٥] ﴿**وهو**﴾ وحده إله الكون كله لا إله سواه ولداً كان أو شريكاً فهو ﴿**الذي في السماء**﴾ هو ﴿**إله**﴾ بلا شريك ﴿**وفي الأرض**﴾ هو ﴿**إله**﴾ بلا شريك، ﴿**وهو الحكيم**﴾ في جميع أفعاله، بمعنى أن كلاً من خلقه وتشريعه حسب الحكمة والصلاح ﴿**العليم**﴾ بمصالح عباده، وقد سبق

وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٦﴾ وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَـٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٧﴾

أن العلم والحكمة أمران فرب عالم غير حكيم ورب حكيم غير عالم، إذ الحكمة ملكة وضع الأشياء مواضعها وتلك تجتمع مع العلم كما يمكن أن توجد بدونه.

[٨٦] ﴿**وتبارك**﴾ أي دامت بركته، وإنمائه للخيرات ﴿**الذي له ملك السماوات والأرض وما بينهما**﴾ من ملك وإنسان وهواء وغيرها، فلا منازع له، ولا شريك ولا ولد﴿**وعنده علم الساعة**﴾ فهو وحده يعلم وقت قيام القيامة ﴿**وإليه ترجعون**﴾ أي إلى حسابه وجزائه ترجعون أنتم أيها البشر بعد الموت.

[٨٧] فهو وحده إله مالك خالق، لا شأن للأصنام في خلق أو ملك، أما من يعبدها بزعم أنها تشفع له فهو في غلط ﴿**و**﴾ ذلك لأنه ﴿**لا يملك**﴾ الأصنام ﴿**الذين يدعون**﴾ هؤلاء الكفار لهم ﴿**من دونه**﴾ أي من دون الله ـ وإنما جاء الاستثناء لأنهم كانوا يدعون الله أيضاً ـ ﴿**الشفاعة**﴾ وإنما جيء بضمير العاقل للأصنام لتنسيق الكلام بين الكفار وبين جوابهم فهم يعتبرون الأصنام عقلاء ﴿**إلا من شهد بالحق**﴾ وهم عيسى وعزير والملائكة، فإن الكفار كانوا يعبدونهم، ولهم الشفاعة في الآخرة، أنهم يشهدون بالحق، وأنهم ليسوا بآلهة، وإنما أنبياء وملائكة ﴿**وهم يعلمون**﴾ أنهم ليسوا بألهة، وهؤلاء لا يشفعون من جحد الحق وكفر

وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٨﴾ وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٩﴾ فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَٰمٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٠﴾

به، فلا ينتظر الكفار شفاعة الآلهة التي يعبدونها، فأصنامهم لا تشفع إطلاقاً، والأنبياء والملائكة يشفعون لغيرهم، لا لهم.

[٨٨] ومن عجيب الأمر أنهم يعبدون غير الله، مع أنهم معترفون بأن الله وحده خالقهم ﴿**ولئن سألتهم**﴾ أي سألت هؤلاء الكفار ـ يا رسول الله ـ ﴿**من خلقهم**﴾؟ وأخرجهم من العدم إلى الوجود ﴿**ليقولن**﴾ في جوابك ﴿**الله**﴾ خلقنا ﴿**فأنى يؤفكون**﴾ أي إلى أين يصرفون بعد هذا الاعتراف؟ والمعنى فكيف ينصرفون من عبادة الله إلى عبادة الأصنام؟.

[٨٩] ولا يجد الرسول أمام عناد هؤلاء إلا أن يشكو ربه منهم ﴿**وقيله**﴾ أي قول الرسول ﴿**يا رب إن هؤلاء قوم لا يؤمنون**﴾ بعد أن بلغتهم وأنذرتهم وقمت بواجب الإرشاد.

[٩٠] ﴿**فاصفح عنهم**﴾ يا رسول الله، أي أعرض عنهم، فإن المعرض يعطي صفحة وجهه للطرف بعدما كان مقبلاً عليه بمقدم وجهه ﴿**وقل**﴾ لهم ﴿**سلام**﴾ أصله أن الذاهب يدعو لمن بقي بالسلامة، ثم استعمل في كل معرض ومودة، تشبيهاً، وإن لم يكن قصده سلامتهم ﴿**فسوف يعلمون**﴾ في الدنيا حين ضنك عيشهم، أو عند الموت، أو في القيامة، بأنهم كانوا على خطأ، حين لم يقبلوا منك، واستمروا في كفرهم وعنادهم.



سورة الدخان

مكية/ آياتها (٦٠)

سميت السورة بهذا الاسم لاشتمالها على لفظة «الدخان» وهي كسائر السور المكية تعالج قضايا العقيدة، بالنسبة إلى التوحيد والرسالة والمعاد، ولما ختمت سورة الزخرف بالوعيد للكفار، ابتدأت هذه السورة ـ في أوائلها ـ بالعذاب.



[١] ﴿**بسم الله الرحمن الرحيم**﴾ شروع باسم الإله الذي له كل شيء، ويملك كل أمر، فلا أحق منه بالابتداء وجعله شعاراً، الرحمن الرحيم لعباده في الدنيا، ويرحم المؤمنين خاصة في الآخرة.

﴿حمٓ ﴿٢﴾ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ﴿٣﴾ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿٤﴾ فِيهَا يُفۡرَقُ كُلُّ أَمۡرٍ حَكِيمٍ ﴿٥﴾

[٢] ﴿**حم**﴾ «حاء» و«ميم» جنس هذا الكتاب المعجز الذي عجز الجن والإنس أن يأتوا بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً، أو رمز بين الله وبين الرسول، وهل ذلك تكرار لما سبق من مثل هذه اللفظة، أو لمدلولات مختلفة، وإن تماثلت الرموز؟ احتمالات، إلى غير ذلك من الأقوال في فواتح السور.

[٣] ﴿**والكتاب المبين**﴾ أي قسماً بهذا الكتاب ـ وهو القرآن ـ الظاهر، وقد مرّ أن الله سبحانه يحلف بمختلف صنوف خلقه، دلالة لعظمة كل خلق، وإن كان في النظر أمراً هيناً، نحو «والتين والزيتون».

[٤] ﴿**إنا أنزلناه**﴾ أي أنزلنا الكتاب الذي هو القرآن ﴿**في ليلة مباركة**﴾ ذات بركة ونماء، والمراد بها ليلة القدر، ومحتمل ليلة القدر أربع، التاسع عشر والواحدة والعشرين والثالث والعشرين من شهر رمضان المبارك وليلة النصف من شعبان، فقد نزل القرآن في ليلة القدر ـ جملة واحدة ـ إلى البيت المعمور في السماء، ثم نزل منجماً إلى الرسول ﷺ، مبتدأً بالسابع والعشرين من رجب يوم مبعث الرسول ﷺ حين نزلت سورة «اقرأ» ﴿**إنا كنا منذرين**﴾ للكفار والعصاة، بأنهم إن استمروا على كفرهم وعصيانهم عوقبوا في الآخرة بالعذاب والنار، وقوله «إنا . . .» هو المقسم به، لقوله «والكتاب المبين».

[٥] ﴿**فيها**﴾ أي في الليلة المباركة ﴿**يفرق**﴾ أي يبين ويميز ويفصل ﴿**كل أمر حكيم**﴾ أي كل أمر مقدر محكم مرتبط بهذا العالم، فإن التقديرات من العام إلى العام تجري في ليلة القدر من كل سنة، وقد ورد متواتر

أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٦﴾ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧﴾ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٨﴾ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِۦ

الأحاديث أن الملائكة ينزلون بتقديرات العام، إلى الإمام الموجود بعد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم[1] ففي دورنا هذا تنزل الملائكة في ليلة القدر على الإمام المهدي عليه السلام بتقديرات كل إنسان وكل أمة من العام إلى العام.

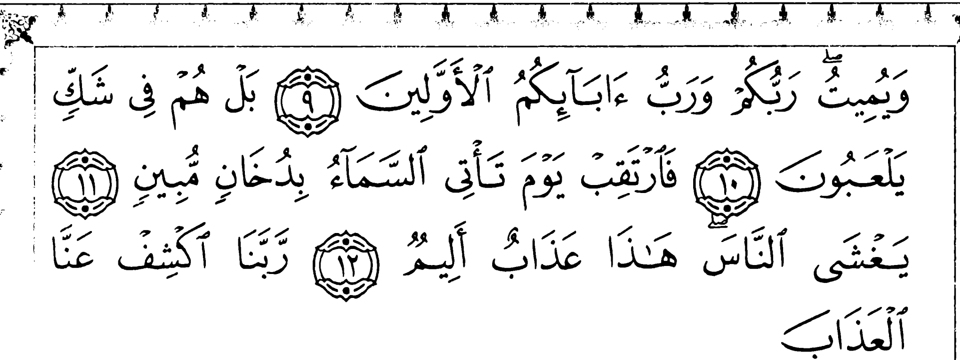
[٦] نأمر بذلك ﴿**أمراً من عندنا**﴾ فإننا نصدر الأوامر بالتقديرات ﴿**إنا كنا مرسلين**﴾ للرسل إلى الأمم، ولذا أرسلنا محمداً صلى الله عليه وآله وسلم إلى هذه الأمة، وزودناه بالكتاب المبين الذي أنزل في ليلة مباركة.

[٧] وإنما نرسل الرسل ﴿**رحمة من ربك**﴾ أي نرحم الناس رحمة بالإرسال، إذ الرسل يبيّنون للناس ما يصلحهم في دنياهم وأخراهم ﴿**إنه**﴾ تعالى ﴿**هو السميع**﴾ لما يتكلم به الناس ولكل صوت ﴿**العليم**﴾ بما يفعلون، فهو يعلم سر الناس ونجواهم، فليحذر الناس الذين أرسل إليهم أن يخالفوا الله سبحانه.

[٨] ﴿**ربّ السماوات والأرض**﴾ أي خالقها ومربيها ﴿**وما بينهما**﴾ من الإنسان والملك والجن والأشجار وغيرها ﴿**إن كنتم**﴾ أيها الناس ﴿**موقنين**﴾ أي ذوي يقين وعلم، لعلمتم بصحة هذا الخبر، وهذا في قبال من لا يبالي ولا يتبع الأمر ليتقين، والحاصل إن أردتم العلم برب الكون لعلمتم أن ربه هو الله.

[٩] ﴿**لا إله إلا هو**﴾ وحده لا شريك له ﴿**يحي**﴾ الأموات، كما يحي

(١) بحار الأنوار: ج٩٤ ص١٤ .



الأرض وغيرها ﴿ويميت﴾ الأحياء من إنسان وحيوان ونبات، ومن ظن أنه يميت أحداً بواسطة القتل فقد اشتبه، فإنه إنما يهيئ السبب كما يهيئ الزرّاع والوالد سبب الزرع والولد، أما الزرع والولد فمن الله سبحانه، هو ﴿ربكم﴾ خالقكم ومربيكم ﴿ورب آبائكم الأولين﴾ الذين سبقوكم، فهل يتمكن أحد أن يدعي أن المسيح أوالملائكة أو عزير أو الأصنام خلقوه؟ كلا!

[١٠] ﴿بل هم﴾ أي هؤلاء الكفار ﴿في شك﴾ من التوحيد ﴿يلعبون﴾ بالشريعة والدين، والمراد يفعلون فعل اللاعب، لأنهم لا يرون للدين قيمة ولا يدركون أنه مرتبط بمصيرهم في الحياة الدنيا والآخرة.

[١١] ﴿فارتقب﴾ أي انتظر يا رسول الله ﴿يوم تأتي السماء بدخان مبين﴾ فإن من أشراط الساعة أن يشمل العالم دخان مظلم يمكث أربعين يوماً، والمعنى أنهم إن لعبوا مقابل هذا الجد، وشكّوا مقابل هذا الأمر المتيقّن، فدعهم حتى يأتيهم العذاب، في يوم القيامة.

[١٢] ﴿يغشى﴾ أي يحيط ذلك الدخان بـ ﴿الناس﴾ وهو من أهوال القيامة ويقال لهم ﴿هذا﴾ الذين ترون وتترقبون ﴿عذاب أليم﴾ مؤلم وموجع لمن كفر وعصى.

[١٣] وهناك يقولون ﴿ربنا اكشف عنا العذاب﴾ أي ارفع عذاب الدخان

إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴿١٣﴾ أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿١٤﴾ ثُمَّ تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ﴿١٥﴾ إِنَّا كَاشِفُوا۟ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ ﴿١٦﴾

وسائر ما يترقبونه من أنواع العذاب ﴿**إنا مؤمنون**﴾ بما أرسلت وبمن أرسلت.

[١٤] ﴿**أنى لهم الذكرى**﴾ أي كيف يمكن أن يقبل هناك ـ في القيامة ـ تذكرهم واعترافهم وإيمانهم؟ ﴿**و**﴾ الحال أنهم وقت كانوا في الدنيا ﴿**قد جاءهم رسول مبين**﴾ ظاهر الصدق، والمراد به محمد ﷺ.

[١٥] ﴿**ثم تولوا عنه**﴾ وأعرضوا عن الإيمان به وبما يقول ﴿**وقالوا**﴾ في شأنه ﴿**معلَّم**﴾ يعلمه القرآن بعض الأعجميين ﴿**مجنون**﴾ فليس نبياً بل مجنون قد علّمه بعض الناس هذا القرآن، فيردده لا شعورياً لأطماع وغايات، والمعنى أنه لا يفيد هناك إيمانهم وقد فات أوان الإيمان حين كانوا في الدنيا.

[١٦] ألسنا ذكرنا أحوال هؤلاء في الآخرة؟ وألم يطلبوا كشف العذاب؟ فإنا نمهلهم في الدنيا قليلاً، لنرى ماذا يصنعون؟ وسمي كشفاً للعذاب مع أنهم لم يعذبوا بعد، للتشابه لفظاً، كقوله:

قالوا اقترح شيئاً نجد لك طبخه
قلت اطبخوا لي جبّة وقميصاً

﴿**إنا كاشفوا العذاب**﴾ الدخان وغيره، والمراد بالكشف: عدم تعذيبكم فيما بقي من أعماركم ﴿**قليلاً**﴾ في الأيام القلائل المستقبلة ما دمتم في الدنيا ﴿**إنكم عائدون**﴾ إلى الكفر والعصيان، فكيف قلتم: إنا

﴿يَوۡمَ نَبۡطِشُ ٱلۡبَطۡشَةَ ٱلۡكُبۡرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ۝١٧ وَلَقَدۡ فَتَنَّا قَبۡلَهُمۡ قَوۡمَ فِرۡعَوۡنَ وَجَآءَهُمۡ رَسُولٞ كَرِيمٌ ۝١٨ أَنۡ أَدُّوٓاْ إِلَيَّ عِبَادَ ٱللَّهِۖ﴾

مؤمنون، وها نحن نراكم عائدون في الكفر؟ وهذا من أبلغ أساليب الالتفات المذكور في علم البلاغة فكأنه صار ما أخبر سبحانه من الدخان، ثم طلبوا فأجيبوا، وهاهم عائدون إلى الكفر، ومن قبيله ما يحكى عن بعض الزهاد ـ عملاً ـ أنه كان يذهب إلى المقابر، فيستلقي في قبر كأنه ميت، ثم يفكر بالمحاسبة والعذاب والأهوال، فيقول «رب ارجعوني» ثم يجيب ـ كأنه نداء يأتيه من الأعلى ـ أرجعناك إلى الحياة، فيقوم ويرجع أهله شاكراً أن استجيب له، لأن يدرك ما فات منه.

[١٧] وليتذكر هؤلاء الكفار ﴿**يوم نبطش البطشة الكبرى**﴾ أصل البطش الأخذ الشديد باليد للتعذيب، والمراد نأخذ الناس لتعذيبهم، والبطشة الكبرى، هي الأخذ في يوم القيامة ﴿**إنا منتقمون**﴾ ننتقم من كل كافر وفاسق، و«يوم» منصوب بالمقدر، أوبـ «منتقمون».

[١٨] ﴿**ولقد فتنا**﴾ أي امتحنا، فإن الفتنة بمعنى الامتحان ﴿**قبلهم**﴾ أي قبل هؤلاء الكفار ﴿**قوم فرعون**﴾ أي فرعون وقومه، فإنه كثيراً ما يطلق «قوم فلان» أو «آل فلان» أو ما أشبه، ويراد به هو وقومه وآله ﴿**وجاءهم رسول كريم**﴾ ذو كرامة على الله سبحانه، وهو موسى عليه السلام.

[١٩] فقال لهم ﴿**أن أدوا**﴾ أي أعطوا، من الأداء، كما يقال «أدّ الأمانة» ﴿**إلي عباد الله**﴾ أي أطلقوا سراح بني إسرائيل الذين هم في أسركم، فقد كان

إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٩﴾ وَأَن لَّا تَعْلُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِنِّىٓ ءَاتِيكُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢٠﴾ وَإِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ﴿٢١﴾ وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ لِى فَٱعْتَزِلُونِ ﴿٢٢﴾ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ

بنو إسرائيل معذبين في سجون فرعون، وتحت اضطهاده، فقال له موسى أطلق سراحهم، وهذا كقوله (فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ)[1] ﴿**إني لكم**﴾ يا آل فرعون ﴿**رسول أمين**﴾ مؤتمن فيما أؤديه لا أخونكم ولا أخون الوحي، فما أقوله كله وحي بلا زيادة أو نقصان.

[٢٠] ﴿**وأن لا تعلوا على الله**﴾ أي لا تتجبّروا على الله بترك طاعته، فكأن الكافر والعاصي يرى نفسه فوق رتبة الله، ولذا لا يستعد أن يتبعه ويطيع أمره ﴿**إني آتيكم**﴾ يا آل فرعون ﴿**بسلطان مبين**﴾ أي حجة واضحة ودليل ظاهر وهي الأدلة التي أقامها على وجود الله وسائر صفاته والخوارق التي كان مزوداً بها.

[٢١] ولما دعاهم موسى عليه السلام توعدوه بالقتل والرجم ـ كما هي عادة الطغاة أمام المصلحين ـ فقال لهم موسى ﴿**وإني عذت**﴾ أي استجرت ولذت ﴿**بربي وربكم**﴾ بخالقي وخالقكم ﴿**أن ترجمون**﴾ أي ترجمونني بالحجارة، وحذف ياء المتكلم تخفيفاً وتنسيقاً.

[٢٢] ﴿**وإن لم تؤمنوا لي**﴾ أي لم تصدقوني فيما جئتكم به ﴿**فاعتزلون**﴾ أي اتركوني لا لي ولا علي.

[٢٣] ولما رأى موسى أن القوم مصرون على الكفر والضلال ﴿**فدعا ربه**﴾

---

(١) الأعراف: ١٠٦ .

أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمٌ مُّجۡرِمُونَ ﴿٢٣﴾ فَأَسۡرِ بِعِبَادِي لَيۡلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٢٤﴾ وَٱتۡرُكِ ٱلۡبَحۡرَ رَهۡوًاۖ إِنَّهُمۡ جُندٌ مُّغۡرَقُونَ ﴿٢٥﴾ كَمۡ تَرَكُواْ مِن جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ ﴿٢٦﴾

أي ناجى ربه قائلاً يا رب ﴿**أنّ هؤلاء قوم مجرمون**﴾ مصرون على الإجرام لا ينفع فيهم البلاغ.

[٢٤] فاستجاب الله دعائه في خلاصه من فرعون وقومه ﴿**فـ**﴾ أوحى إليه ﴿**أسر**﴾ يا موسى، والإسراء هو السير ليلاً ﴿**بعبادي**﴾ أي بني إسرائيل ﴿**ليلاً**﴾ وإنما أمروا بالخروج لئلا يعلم فرعون بهم فيأخذهم عاجلاً قبل الهروب والفرار ﴿**إنكم متبعون**﴾ أي أن فرعون سيتبعكم، وهذا إما تعليل قوله «ليلاً» أو مقدمة لبيان غرق فرعون وبشرى لهم، أو حث لهم على الإسراع، حتى لا يدركهم الطلب.

[٢٥] ﴿**واترك**﴾ يا موسى ﴿**البحر**﴾ الذي تعبرون منه ﴿**رهواً**﴾ أي ساكناً على حاله بعد أن خرجتم منه، بأن يبقى على حاله ذي طرق وجواد، حتى يطمع فرعون في عبوره فيغرق. وذلك لأن ضربه بالعصى بقصد إرجاعه إلى ما كان، كان بيد موسى، فأمره سبحانه أن لا يفعل ذلك ﴿**إنهم جند مغرقون**﴾ أي أن فرعون وقومه الذين يتبعونكم محكوم عليهم بالغرق جزاءً لكفرهم وعصيانهم.

[٢٦] وسار موسى واتبعه فرعون في البحر بجنوده ـ كما فُصّل سابقاً ـ فيأتي السياق ـ بعد ذلك ـ ليبن كيف أن غرقهم لم يؤثر شيئاً لا في الأرض ولا في السماء ﴿**كم تركوا**﴾ أي خلف فرعون وقومه، بعدهم ﴿**من جنات**﴾ جمع جنة وهي البستان، تسمى جنة لستر أرضها بالأشجار والنخيل ﴿**وعيون**﴾ جارية.

وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٧﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ ﴿٢٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴿٢٩﴾ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ ﴿٣٠﴾

[٢٧] ﴿**وزروع**﴾ جمع زرع وهو ما لا ساق له كالحنطة والشعير ﴿**ومقام كريم**﴾ أي مجالس ومنازل فاخرة، ذات كرامة ورفعة في الأنظار.

[٢٨] ﴿**ونعمة**﴾ بفتح النون، والغالب لغير العارف، أن يقرأها بكسر النون ﴿**كانوا فيها فاكهين**﴾ متنعمين متلذذين، كما يتنعم آكل الفاكهة.

[٢٩] ﴿**كذلك**﴾ أخرجناهم وأهلكناهم وبقيت دورهم ونعمهم بعدهم ﴿**وأورثناها**﴾ تلك النعم ﴿**قوماً آخرين**﴾ هم بنوا إسرائيل، حيث رجعوا إلى مصر وصاروا فيها ملوكاً وسادة.

[٣٠] ﴿**فما بكت عليهم**﴾ أي على آل فرعون ﴿**السماء والأرض**﴾ وهذا كناية عن أنه لم يتغير شيء في الكون بهلاكهم، وقد ورد أن السماء والأرض تبكيان لموت النبي والإمام والعالم والمؤمن[١]، وبطبيعة الحال أن البكاء من جنسهما المناسب بهما، وإن كان يحتمل البكاء حقيقة ـ وما ذلك على الله بعزيز ـ ﴿**وما كانوا منظرين**﴾ أي لما حكم عليهم بالعذاب، لم يمهلوا حتى يتوبوا، فلا يظن الكافر أنه إذا جاء العذاب يتمكن من التوبة والاستمهال ليصلح ما فات منه.

---

(١) هناك روايات حول بكاء السماء والأرض على النبي والإمام والمؤمن، عن أبي عبد الله عليه السلام في قوله تعالى: فما بكت عليهم السماء والأرض، قال: لم تبك السماء على أحد منذ قتل يحيى بن زكريا عليه السلام حتى قتل الحسين عليه السلام فبكت عليه «كامل الزيارات: ص٨٩»، وورد في مجمع البيان: ج٩ ص١٠٩ عن الرسول صلى الله عليه وآله بكاءهما على المؤمن.

وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿٣١﴾ مِن فِرْعَوْنَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٢﴾ وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم مِّنَ ٱلْءَايَٰتِ مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌا۟ مُّبِينٌ ﴿٣٤﴾

[٣١] ﴿**ولقد نجينا بني إسرائيل**﴾ المؤمنين بموسى ﴿**من العذاب المهين**﴾ عذاب فرعون الذي كان يهينهم ويذلهم، من قتل الأبناء واستحياء النساء.

[٣٢] ﴿**من فرعون**﴾ الذي كان يأمر بتعذيبهم ﴿**إنه كان عالياً**﴾ أي متجبراً متكبراً ﴿**من المسرفين**﴾ يسرف ويتجاوز الحد في الظلم والتعذيب.

[٣٣] ﴿**ولقد اخترناهم**﴾ أي اخترنا بني إسرائيل﴿**على علم**﴾أي على بصيرة منا باستحقاقهم، لا اختياراً اعتباطياً﴿**على العالمين**﴾ أي عوالم زمانهم، فإنهم كانوا مختارين على سائر الكفار في زمانهم، لأنهم كانوا مؤمنين، وغيرهم كانوا كفاراً، وهذا كما يقول: الشريف الفلاني أكبر أشراف العالم، يريد أشراف زمانه لا كلّ شريف كان أو سيكون.

[٣٤] ﴿**وآتيناهم**﴾ أي أعطيناهم، والنسبة إليهم باعتبار إعطاء موسى عليه السلام، كما يقول الملك: أعطيت القبيلة الفلانية كذا وكذا، فيما إذا أعطى رئيسها ﴿**من الآيات**﴾ الخارقة ﴿**ما فيه بلاء مبين**﴾ أي امتحان ظاهر، حتى يكون المؤمن على بصيرة، والكافر عن عناد يستحق العقاب الأليم، وهي مثل العصا واليد وفلق البحر، وتضليل الغمام، والمن والسلوى وغيرها.

[٣٥] وبعد التكلم عن التوحيد والرسالة ـ في بعض جوانبها ـ يأتي السياق

إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٥﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴿٣٦﴾ فَأْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٧﴾ أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَٰهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٣٨﴾

لذكر المعاد ﴿**إن هؤلاء**﴾ الكفار المعاصرون لك يا رسول الله﴿**ليقولون**﴾ منكرين للمعاد.

[٣٦] ﴿**إن هي**﴾ أي ما العاقبة ونهاية الأمر ﴿**إلا موتتنا الأولى**﴾ التي تزيل حياتنا ﴿**وما نحن بمنشرين**﴾ أي بمبعوثين، فليس للإنسان موتتان وحياتان، كما تقولون أنتم أيها المؤمنون، وإنما قالوا «الأولى» مع أنهم لا يعتقدون بموتة أخرى، لتوحيد السياق مع كلام المؤمنين الذين كانوا يحاجوهم.

[٣٧] ﴿**فأتوا**﴾ أيها المؤمنون المدّعون للبعث ﴿**بآبائنا**﴾ الذين ماتوا من قبلنا ﴿**إن كنتم صادقين**﴾ في مقالكم أن الإنسان يبعث بعد الموت، ولكن كلامهم تافه إلى أبعد الحدود، إن المؤمنين لم يدعوا أنهم يعيدون الأموات وإنما ادعوا إعادة الله لهم عند القيامة، فأي ربط بين الكلامين؟ ولذا لم يأت السياق لجوابه، فإن جواب المعاند السكوت.

[٣٨] ﴿**أهم خير**﴾ أي هل هؤلاء الكفار خير من حيث كثرة الأموال والجيوش والقوة ﴿**أم قوم تبع**﴾ وقد كان تبع ملكاً مؤمناً، وقومه كافرين، وكانوا كثيري الأموال والقوى ﴿**والذين من قبلهم**﴾ كعاد وثمود وقوم لوط وغيرهم؟ والجواب مقدّر، أي أن أولئك كانوا خيراً من هؤلاء، ومع ذلك ﴿**أهلكناهم**﴾ لما كفروا بالله وعصوا رسله لـ ﴿**إنهم كانوا مجرمين**﴾ وهذا تهديد لهؤلاء بأن مصيرهم مصير أولئك

وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٩﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾ إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤١﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِى مَوْلًى عَن

إن تمادوا في الكفر والطغيان.

[٣٩] **﴿وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما﴾** من صنوف الخلق **﴿لاعبين﴾** أي بلا غرض وغاية كما يفعل اللاعب، حتى نترك هؤلاء يلعبون، كما سبق (بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ)(١).

[٤٠] **﴿ما خلقناهما إلا بالحق﴾** لأجل غاية هي إطاعة البشر، كما قال تعالى في الحديث «خلقت الخلق لأجلك وخلقتك لأجلي» وفي القرآن الحكيم (وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ)(٢) **﴿ولكن أكثرهم﴾** أي أكثر الناس وهم الكفار **﴿لا يعلمون﴾** أن الخلق بالحق، بل يظنون أنه صدفة فلا غاية ولا غرض، ولكل امرئ ما يشاء أن يعمل.

[٤١] وإذا كان الخلق بالحق، قرر هناك يوم للحساب والجزاء ـ كما أن لأجل ذلك أيضاً نزلت الكتب وشرعت الشرائع ـ **﴿إن يوم الفصل﴾** وهو يوم القيامة الذي يفصل فيه بين المحق والمبطل، وبين أهل الجنة وأهل النار **﴿ميقاتهم﴾** أي وقت حساب الناس **﴿أجمعين﴾** بلا تخلف أحد منهم عن ذلك الموعد.

[٤٢] ثم وصف ذلك اليوم بأنه يوم عجيب لا يفيد فيه إلا رحم الله سبحانه التابع للإيمان والعمل الصالح **﴿يوم لا يغني مولى عن**

(١) الدخان: ١٠.
(٢) الذاريات: ٥٧.

مَّوْلًى شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٢﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٣﴾ إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٤﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٥﴾ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ ﴿٤٦﴾ كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٧﴾ خُذُوهُ

مولى شيئاً﴾ المراد بالمولى هنا الصاحب، سمي به لأنه يتولى شؤون صاحبه أي لاينفع صاحب لصاحبه، أصلاً **﴿ولا هم﴾** أي الناس **﴿ينصرون﴾** بأن ينصرهم أحد لإنقاذهم من عذاب الله، فيما استحقوا العذاب.

[٤٣] **﴿إلا من رحم الله﴾** أي تفضل عليه سبحانه بغفران ذنبه، وإدراكه الشفاعة، بعد أن كان قابلاً لذلك، بالإيمان الصحيح **﴿إنه﴾** سبحانه**﴿هو العزيز﴾**الغالب على أمره فلا يرد بأسه عن أحد استحقه **﴿الرحيم﴾** بالمؤمنين.

[٤٤] ثم بين سبحانه مقام كل من الفريقين هناك، فقال **﴿إن شجرة الزقوم﴾** وهي شجرة تعطي ثماراً بشعة مرة.

[٤٥] **﴿طعام الأثيم﴾** أي من كثرت آثامه ومعاصيه، فإن «أثيم» فعيل من «الإثم».

[٤٦] **﴿كالمهل﴾** وهو النحاس المذاب ـ أو ما أشبه ـ **﴿يغلي في البطون﴾** أي إذا أكله الأثيم غلى وفار في بطنه من شدة الحرارة.

[٤٧] **﴿كغلي الحميم﴾** أي مثل غلي الماء الحار الشديد الحرارة.

[٤٨] ثم يقال للزبانية الموكلين بالنار **﴿خذوه﴾** أي خذوا هذا الأثيم

فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٩﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٥٠﴾ إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ ﴿٥١﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥٢﴾

﴿**فاعتلوه**﴾ يقال «عتله» إذا دفعه بشدة وعنف، أي فادفعوه من أطراف النار ﴿**إلى سواء الجحيم**﴾ أي في وسط النار، حيث العذاب والألم أكثر، وسمي وسط الشيء سواء، لاستواء المسافة بينه وبين أطرافه المحيطة به.

[٤٩] ﴿**ثم صبوا فوق رأسه**﴾ للتعذيب والإهانة ﴿**من عذاب الحميم**﴾ أي الماء الحار الشديد الحرارة، فهو في وسط النار، وفي بطنه زقوم يغلي، وعلى رأسه يصب الماء الحار.

[٥٠] ويقال له لإذلاله في مقابل كبريائه في الدنيا ﴿**ذق**﴾ هذا العذاب ﴿**إنك أنت العزيز الكريم**﴾ فإن الكفار يقولون في الدنيا، بلسان حالهم، أو لفظاً، إننا أعزاء كرماء فكيف نتبع الدين؟ فيقال لهم هذا القول هناك على وجه السخرية والاستهزاء، وقد ورد أن أبا جهل قال للرسول ﷺ: ما بين جبليْها أعز ولا أكرم مني، فنزلت هذه الآية.

[٥١] ثم يقال لهم ﴿**إن هذا**﴾ العذاب والجزاء ﴿**ما كنتم**﴾ أيها الكفار ﴿**به تمترون**﴾ أي تشكون في دار الدنيا، فذوقوه الآن جزاءً لشككم وإصراركم على الكفر والعناد.

[٥٢] ولننظر إلى مقام المؤمنين الورعين هناك ﴿**إن المتقين**﴾ الذين اتقوا الكفر والمعاصي في دار الدنيا ﴿**في مقام أمين**﴾ أي في محل مأمون

فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٣﴾ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٥٤﴾ كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٥﴾ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ﴿٥٦﴾ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ

من العذاب والآلام.

[٥٣] ﴿**في جنات**﴾ أي بساتين ﴿**وعيون**﴾ أي أنهر جارية، أو عيون صافية، ومعنى «في» إنهم في محل فيه «عيون» و«أشجار».

[٥٤] ﴿**يلبسون من سندس**﴾ وهو الحرير الرقيق﴿**وإستبرق**﴾هو الحرير الخشن، ولكل فضل، فالأول ألين مساً، والثاني أكثر جمالاً في العين، في حال كونهم ﴿**متقابلين**﴾ يقابل بعضهم بعضاً في مجالسهم، يتحدثون هناك، ولا تأخذهم وحشة الانفراد.

[٥٥] ﴿**كذلك**﴾ حال أهل الجنة ﴿**وزوجناهم بحور**﴾ جمع «حوراء» وهي المرأة البيضاء الملائكيةالجميلة ﴿**عين**﴾ جمع عيناء، وهي من وسعت حدقتها، وذلك مما يزيد من جمال المرأة.

[٥٦] ﴿**يدعون فيها**﴾ أي يطلبون في الجنات ﴿**بكل**﴾ قسم من الـ ﴿**فاكهة**﴾ أي الثمرة ﴿**آمنين**﴾ أي في حال كونهم لا يخافون نفادها أو ضررها، أو المراد مطلق الأمان من كل مكروه، وكرر ذلك لأهميته.

[٥٧] ﴿**لا يذوقون فيها الموت**﴾ فهم خالدون في ذلك النعيم أبد الآبدين، وقد شبه الموت بالمعلومات، ولذا نسب إليه الذوق ﴿**إلا الموتة الأولى**﴾ استثناء منقطع، إذ الموتة الأولى إنما هي في دار الدنيا،

﴿وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ۝٥٧ فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ۝٥٨ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ۝٥٩ فَٱرْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ ۝٦٠﴾

والمعنى أن هؤلاء لا يلاقون الموت إلا في الدنيا، أما في الآخرة فلا موت لهم، وقد سبق وجه الاستثناءات المنقطعة عموماً، وأن الكلام المتقدم يفرض خالياً عن القيد، وذلك لتكثير الفائدة، فتنحل الجملتان إلى ثلاث جمل ﴿**ووقاهم**﴾ أي حفظهم الله سبحانه ﴿**عذاب الجحيم**﴾ فليس عدم موتهم من قبيل عدم موت أهل النار، الذي (يَأْتِيهِ المَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ)[1].

[٥٨] ﴿**فضلاً من ربك**﴾ أي يتفضّل سبحانه بهذه النعم على أهل الجنة فضلاً، إذ لا يستحق أحد على الله شيئاً ﴿**ذلك**﴾ الفضل ﴿**هو الفوز العظيم**﴾ أي الفلاح والظفر بالمطلوب الذي ليس شيء أعظم منه.

[٥٩] ﴿**فإنما يسرناه**﴾ أي سهلنا القرآن ﴿**بلسانك**﴾ العربي، يا رسول الله ﴿**لعلهم يتذكرون**﴾ ما أودع في فطرتهم من المبدأ والمعاد ليفوزوا بذلك الثواب وينجوا من تلك النار والعقاب.

[٦٠] ﴿**فارتقب**﴾ أي انتظر يا رسول الله هذا الوعد ﴿**إنهم**﴾ أي الكفار ﴿**مرتقبون**﴾ أي منتظرون، فإن كل واحد من الخصمين ينتظر ما يحل بالخصم الآخر، وهذا تهديد لهم، بأنهم سيلاقون جزاء أعمالهم كما تقول لمن تريد تهديده، «انتظر فإني منتظر معك» أي سترى ما يحل بك.

---

(١) إبراهيم: ١٨ .



سورة الجاثية

مكية آياتها/ (٣٨)

سميت السورة بهذا الاسم لاشتمالها على كلمة «جاثية» وهي كباقي السور المكية مشتملة على قضايا العقيدة بأصولها الثلاث ولما ختمت سورة الدخان بذكر القرآن، وإنه ميسّر بلسان الرسول، افتتحت هذه السورة بذلك.



[١] ﴿**بسم الله الرحمن الرحيم**﴾ نستعين بالله في أمورنا كلها، فالظرف متعلق بـ «نستعين» على بعض الأقوال، فإن الإنسان يحتاج إلى العون في كل خطوة من خطى الحياة، واسم الله أحق شيء يستعان به، الرحمن الرحيم، الذي له الرحمة المكررة ولعل التكرار، لإفادة أنه يرحم، ثم يرحم، بخلاف سائر الناس الذين إذا وجدوا أن من رحموه ليس أهلاً قطعوا الرحمة منه.

حمٓ ﴿٢﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٣﴾ إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤﴾ وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ

[٢] ﴿حم﴾ «حاء» و«ميم» وأشباههما من سائر حروف الهجاء هو مادة القرآن التي يتركب منها، وهي مادة لإلفاتكم معاشر العرب، فعدم إمكانكم الإتيان بمثله دليل قاطع على أنه تنزيل الله سبحانه، أو رمز بين الله والرسول، أو غيرهما من الأقوال.

[٣] ﴿تنزيل الكتاب من الله﴾ أي أن إنزال هذا الكتاب وهو القرآن إنما هو من الله لا من غيره، كما كان المشركون يفترون بنسبة القرآن إلى الرسول أو بعض الأعجميين، أو الشيطان ـ حيث يقولون أنه كهانة ـ ﴿العزيز﴾ في سلطانه فهو قادر على ما يشاء ﴿الحكيم﴾ يفعل الأشياء على وفق الصلاح فأنزل القرآن على طبق الصلاح والحكمة.

[٤] ﴿إن في السماوات والأرض لآيات﴾ دالة على وجود الله وسائر صفاته﴿للمؤمنين﴾ الذين يؤمنون بالله وإنما خصهم مع أن الآيات أعم، لأنهم هم المنتفعون بها، وأما غيرهم فهم معرضون، كما قال سبحانه (وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ)[١].

[٥] ﴿وفي خلقكم﴾ أيها البشر ﴿وما يبث﴾ الله أي ينشر ﴿من دابة﴾ بيان «ما» وهي كل حيوان، وإن كان الأصل فيها خاصاً، بما يدبّ على وجه الأرض ﴿آيات﴾ أي دلالات دالة على وجود الله وعلمه وقدرته

---

(١) يوسف: ١٠٦

لِّقَوۡمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥﴾ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزۡقٍ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوۡمٍ يَعۡقِلُونَ ﴿٦﴾

﴿لقوم يوقنون﴾ أي يريدون العلم واليقين، فإن الفعل يستعمل بمعنى الإرادة، كما أن الإرادة تستعمل بمعنى الفعل، وخصت الآيات بهم، لأنهم هم المنتفعون بها، وإنما قال في الموضعين «آيات» مما ظاهره وجود بعض الآيات، مع أن كل شيء آية، لأن المراد آيات عظام، ومن المعلوم أن العظام من الآيات بعضها.

[٦] **﴿و﴾** في **﴿اختلاف الليل والنهار﴾** بمجيء أحدهما مكان الآخر على نظام واحد بدون خلل واختلاف **﴿وما أنزل الله من السماء من رزق﴾** إما المراد مطلق الأرزاق وكونها من السماء، لأن تقديرها يكون هناك، أو المراد المطر الذي هو سبب الإنبات، ومنه يأتي الرزق، وهذا هو الأقرب بالنسبة إلى ما يأتي ـ وإن أمكن الاستخدام ـ وتسمية الماء رزقاً بعلاقة السبب والمسبب، مثل قوله:

إذا نزل السماء بأرض قوم
رعيناه وإن كانوا غضاباً

﴿فأحيا به﴾ أي بسبب ذلك الرزق الذي هو الماء **﴿الأرض بعد موتها﴾** جمودها واغبرارها، لاحراك فيها ولا نشاط **﴿و﴾** في **﴿تصريف الرياح﴾** بصرفها من هنا إلى هناك، شمالاً وجنوباً، شرقاً وغرباً **﴿آيات لقوم يعقلون﴾** أي دلالات لأهل العقل، أما غيرهم فإنهم يعملون عقولهم حتى يدركوا هذه الآيات الدالة على وجود الله وقدرته وسائر صفاته.

تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٧﴾ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٨﴾ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٩﴾

[٧] ﴿**تلك**﴾ التي تقدمت ﴿**آيات الله**﴾ أي دلالاته التي نصبها برهاناً على وجوده وسائر صفاته ﴿**نتلوها**﴾ أي نقرأها، والمراد الإيحاء بها، وتلاوة الملك للرسول ﷺ ﴿**عليك**﴾ يا رسول الله ﴿**بالحق**﴾ فليس ذلك بالباطل ﴿**فبأي حديث بعد**﴾ حديث ﴿**الله**﴾ الذي هو القرآن ﴿**وآياته**﴾ الدالة على وجوده وسائر صفاته ﴿**يؤمنون**﴾؟ أي أنهم إن لم يؤمنوا بآيات الله الكونية والشرعية، فبماذا يؤمنون؟ والمعنى أنه ليس شيء بهذا الوضوح والجلاء، فإن كان الإنسان يؤمن بشيء، كان اللازم أن يؤمن بالله وآياته.

[٨] ﴿**ويل**﴾ كلمة تقال عند إرادة بيان سوء الحال ﴿**لكل أفاك**﴾ صيغة مبالغة، بمعنى كثير الإفك أي الكذب ﴿**أثيم**﴾ أي كثير العصيان، وهو الذي يكذب بكل شيء مما جاء به الرسول والقرآن.

[٩] ثم يبين المراد من الأفاك الأثيم بقوله تعالى ﴿**يسمع آيات الله**﴾ أي آيات القرآن ﴿**تتلى عليه**﴾ وتقرأ عنده بقصد هدايته وإرشاده ﴿**ثم يصر مستكبراً**﴾ أي يقيم على كفره وتكبره عن الحق، والإتيان بـ «ثم» لبيان استبعاد الإصرار بعد سماع الآيات فقد كان الكبر بعيداً بعد تلاوة الآيات ﴿**كأن لم يسمعها**﴾ أي لم يسمع الآيات إذ لم يقبلها وبقي على ما كان سابقاً ﴿**فبشره**﴾ يا رسول الله ﴿**بعذاب أليم**﴾ مؤلم موجع، والإتيان بلفظ البشرى للاستهزاء.

وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا ۚ أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٠﴾ مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ ۖ وَلَا يُغْنِى عَنْهُم مَّا كَسَبُوا۟ شَيْـًٔا وَلَا مَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ هَـٰذَا هُدًى ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿١٢﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ

---

[١٠] **﴿وإذا علم﴾** ذلك الأفاك **﴿من آياتنا﴾** أي أدلتنا وحججنا الدالة على وجودنا وسائر صفاتنا **﴿شيئاً﴾** أي بعضاً **﴿اتخذها هزواً﴾** أي يستهزئ بها، كأن الآية آلة سخرية له **﴿أولئك﴾** الذين تلك صفاتهم **﴿لهم عذاب مهين﴾** يهينهم ويذلهم بالإضافة إلى الألم الذي فيه.

[١١] **﴿من ورائهم﴾** أي عقب هؤلاء، في الآخرة **﴿جهنم﴾** التي هي مقرهم **﴿ولا يغني عنهم ما كسبوا شيئاً﴾** أي لا يدفع عنهم من عذاب الله، ككسبهم للأموال والأولاد والجاه، شيئاً، بأن يخفف عنهم بعض العذاب **﴿ولا﴾** يغني عنهم **﴿ما اتخذوا من دون الله أولياء﴾** أي لايدفع عنهم بعض العذاب آلهتهم **﴿ولهم عذاب عظيم﴾** في النار.

[١٢] **﴿هذا﴾** القرآن الذي أنزلناه، والآيات التي أوضحناها **﴿هدى﴾** يهدي إلى الحق وصراط مستقيم **﴿والذين كفروا بآيات ربهم﴾** أي أدلته التي أقامها على توحيده وسائر صفاته، بعد مجيء الهداية **﴿لهم عذاب من رجز﴾** وهو أشد العذاب أي من هذا القسم منه **﴿أليم﴾** مؤلم موجع.

[١٣] ثم أخذ السياق في وصف بعض آيات الله سبحانه **﴿الله الذي سخر لكم البحر﴾** أي ذلّله لكم ليصلح لركوبكم عليه **﴿لتجري الفلك﴾** أي

فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٣﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٤﴾ قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغْفِرُوا۟ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ

السفن ﴿**فيه**﴾ أي في البحر ﴿**بأمره**﴾ تعالى، فتسخير البحر شيء، وإجراء الفلك شيء آخر، ولذا قال «بأمره» ﴿**ولتبتغوا من فضله**﴾ أي إن جريان الفلك لأسفاركم ولطلبكم التجارة ﴿**ولعلكم تشكرون**﴾ ولكي تشكروا نعمه سبحانه، فالتسخير لغايات ثلاث.

[١٤] ﴿**وسخر لكم**﴾ أيها البشر ﴿**ما في السماوات وما في الأرض**﴾ فإنهما تسيران وتعملان ليل نهار لنفع البشر، ومن جعلهما كذلك غير الله سبحانه؟ ﴿**جميعاً**﴾ صفة «ما» أي سخر كل شيء جميعاً ﴿**منه**﴾ أي من الله سبحانه فلا شريك له ولا صانع غيره ﴿**إن في ذلك**﴾ التسخير لما فيها لأجل نفع البشر ﴿**لآيات**﴾ لأن في كل شيء آية ودلالة ﴿**لقوم يتفكرون**﴾ في أوضاع الكون، وتخصيصهم بالذكر، لأنهم المنتفعون بهذه الآيات دون غيرهم فكأنها خلقت لهم فقط.

[١٥] ﴿**قل**﴾ يا رسول الله ﴿**للذين آمنوا**﴾ إذا نالكم من الكفار أذى اغفروا لهم لـ ﴿**يغفروا**﴾ ويصفحوا ﴿**للذين لا يرجون أيام الله**﴾ أيام الله هي الأيام التي يظهر فيها عقابه أو نعمائه، فإن الكفار لا يعترفون بالله، حتى يرجون أيامه، والمراد بذلك أن لا يكون المؤمنون في صدد الانتقام من الكافرين الذين يؤذونهم، وذلك خطة أخلاقية سياسية فإن المظلوم تهواه الأنفس فترجح كفته، وبذلك يكون قد ربح المعركة،

لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٥﴾ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُمْ

ولذا ينقل عن «غاندي» محرر الهند قوله «تعلمت من الحسين عليه السلام أن أكون مظلوماً لأنتصر»، والحاصل يتركوا مجازاتهم ليتولى الله ذلك عنهم ﴿**ليجزي**﴾ الله ﴿**قوماً**﴾ أي الكفار ﴿**بما كانوا يكسبون**﴾ فمعنى الغفران إيكال الجزاء إليه سبحانه كما يقول الحاكم للمظلوم اترك عقاب ظالمك لأجازيه أنا.

[١٦] ثم يبين سبحانه أن كل عامل يجزى بما عمل فالمؤمنون يجزون جزاء إيمانهم والكافرون يجزون جزاء كفرهم ﴿**من عمل صالحاً**﴾ المراد به كل عمل صالح ﴿**فلنفسه**﴾ إذ فائدته ترجع نحوه ﴿**ومن أساء**﴾ بأن عمل السيئ ﴿**فعليها**﴾ أي فضرر ذلك على نفسه ﴿**ثم إلى ربكم ترجعون**﴾ بعد الجزاء في الدنيا، هناك جزاء آخر في الآخرة، عند رجوع الناس إلى حساب الله وجزائه.

[١٧] ثم يأتي السياق لبيان أنه كيف يجزي من كفر بالنعمة في الدنيا، وأنه كيف يسلب عن الظالم النعمة لتعطى غيره مع بيان أن القيادة الإلهية انتقلت من بني إسرائيل إلى المسلمين، ليقودها الرسول صلى الله عليه وآله وسلم حسب شرعة السماء ﴿**ولقد آتينا**﴾ أي أعطينا ﴿**بني إسرائيل الكتاب**﴾ وهو التوراة، ﴿**والحكم**﴾ أي الحكومة فإن منصب الحكومة والسلطة على الناس خاص بالله سبحانه، ومن بعده لأنبيائه والأئمة حسب ما قرره تعالى، ومن بعدهم لنوابهم ووكلائهم ﴿**والنبوة**﴾ فكان فيهم الملوك والأنبياء ﴿**ورزقناهم**

مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٧﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ ۖ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٨﴾

من الطيبات﴾ حيث تفضلنا عليهم ببركات الأرض والسماء **﴿وفضلناهم على العالمين﴾** أي عالمي زمانهم، فإن كل جيل عالم، وكل قرن عالم، وهذا هو المتبادر من هذه الجملة ـ كما ذكرنا سابقاً ـ لاجميع العوالم من الأولين والآخرين، فلو قال أحد إن الدولة الفلانية أقوى الدول، كان المتبادر منه، الدول المعاصرة لها لا دول الملوك ماضياً ومستقبلاً إلى الأبد.

[١٨] **﴿وآتيناهم﴾** أي أعطيناهم **﴿بينات من الأمر﴾** أي دلالات وبراهين واضحات من أمر الدين والدنيا، فإن الدين والدنيا يحتاجان إلى مبيّن وموضّح لمسالكهما، والأنبياء دائماً يأتون بذلك، مثلاً يبينون أن الصوم جنة من النار، أن الحجامة وقاية من الأمراض **﴿فـ﴾** اختلفوا، وقابلوا الإحسان بالكفران، وقد كانوا هم الأمة الوحيدة الموجهة للعالم التي بيدها قيام الدين والدنيا۔ حتى أن عيسى عليه السلام كان شارحاً وموضحاً، لاناسخاً ـ و**﴿ما اختلفوا إلا من بعد ما جاءهم العلم﴾** بأن علموا الحق من الباطل ومع ذلك اختلفوا فيه **﴿بغياً﴾** أي حسداً وظلماً **﴿بينهم﴾** فحسد بعضهم بعضاً، فتركوا الحق إلى الباطل انتقاماً لذلك التمسك بالحق ـ كما نرى شبهه في زماننا هذا۔ **﴿إن ربك﴾** يا رسول الله **﴿يقضي بينهم﴾** أي بين المختلفين من بني إسرائيل **﴿يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون﴾** فمثلاً آمن بعضهم بعيسى ولم يؤمن بعضهم،

ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٠﴾ هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ

وصاد بعض في السبت، ولم يصد بعض وهكذا وإذ خرجت بنو إسرائيل عن صلاحية القيادة بسبب كفرهم واختلافهم انتهت القيادة إلى الرسول والمسلمين.

[١٩] ﴿**ثم**﴾ من بعد أولئك ﴿**جعلناك**﴾ يا رسول الله ﴿**على شريعة**﴾ أي على طريقة ﴿**من الأمر**﴾ أي أمر الدين والدنيا، بأن بينا لك طريقة خاصة لسعادة الإنسان في دنياه وآخرته ﴿**فاتبعها**﴾ أي اتبع يا رسول الله تلك الشريعة ﴿**ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون**﴾ الحق، فإن الناس يريدون من القائد ان يتّبع آراءهم، وهنا يأتي النهي عن ذلك، فإن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ليس كسائر القادة، وإنما له منهاج خاص من قبل الله سبحانه، يلزم عليه ان يطبقه ويعلنه للناس، وهذا ينافي اتباع أراء الأشخاص.

[٢٠] ﴿**إنهم**﴾ أي الذين لا يعلمون ﴿**لن يغنوا عنك**﴾ يا رسول الله ﴿**من الله شيئاً**﴾ أي لا يفيدونك في دفع ما يريد الله بك ـ إن اتبعت أهواءهم ـ ﴿**وإن الظالمين بعضهم أولياء بعض**﴾ أي أن الكفار بعضهم يوالي بعض وينصر الآخرين في معاداتك، فلا ينبغي لك أن تعتمد عليهم وتتبع أهواءهم ﴿**والله ولي المتقين**﴾ يلي أمورهم، فحسبك الله، عن هؤلاء.

[٢١] ﴿**هذا**﴾ القرآن الذي أنزل إليك ﴿**بصائر للناس**﴾ جمع بصيرة، فكما

وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٢١﴾ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢٢﴾ وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ

أن البصيرة في الإنسان كاشفه له طريق الفلاح، كذلك القرآن كاشف طريق السعادة، أي بينات تبصرهم أمورهم، فلا يحتاج الإنسان بعد القرآن إلى اتباع الأهواء ﴿**وهدى**﴾ أي هداية إلى الطريق ﴿**ورحمة**﴾ أي فضل وترحم، يرحمهم الله به إذ يريهم السعادة الأبدية ﴿**لقوم يوقنون**﴾ به ويعلمون انه الحق، وإنما خصهم، لأنهم المنتفعون أما غيرهم، فهم في ضلال ونقمة.

[٢٢] هنالك ظالمون يتبعون الأهواء، ومتقون يتبعون الشريعة، فهل هما متساويان؟ كلا، فإن البون بينهما شاسع ﴿**أم حسب**﴾ أي هل حسب وظن ﴿**الذين اجترحوا السيئات**﴾ أي اقترفوها وارتكبوها، والاجتراح الاكتساب ﴿**أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات**﴾؟ «أم» منقطعة فيها معنى الاستفهام الإنكاري، أي ليس كذلك ﴿**سواء محياهم ومماتهم**﴾ أي تستوي حياتهم وموتهم، والمحيى والممات مصدران ميميان ﴿**ساء ما يحكمون**﴾ بأن الطائفتين متساويتان، فحياة المؤمنين في سعة وراحة واطمئنان، وحياة الكافرين ضنك وتعب وقلق، وممات المؤمنين إلى الجنة والرضوان، وممات الكافرين إلى السخط والنيران.

[٢٣] وكيف يتساوى حال المؤمن والكافر ﴿**و**﴾ الحال أنه ﴿**خلق الله السماوات والأرض بالحق**﴾ ومن مقتضيات الحق أن يكون لكل عامل

وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٣﴾ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً

أجره، لا أن يتساوى المصلح والمفسد في الأجر؟ ﴿**ولتجزى**﴾ أي خلقهما لأن تجزى ﴿**كل نفس بما كسبت**﴾ من خير وشر ولو تساويا لم يترتب هذا الثمر على الخلق، بل لم يثب المحسن بالإحسان، ولم يجاز الكافر بالعصيان ﴿**وهم لا يظلمون**﴾ فلا ينقص من أجر المحسن شيء، ولا يزاد على عقاب المسيء شيء.

[٢٤] ﴿**أفرأيت**﴾ يا رسول الله ﴿**من اتخذ إلهه هواه**﴾ أي الشخص جعل مكان الإله الهوى، فكما يعبد المؤمنون الإله، يعبد ويتبع هو هواه وميول نفسه، وقد كان في الجاهليين من يعبد حجراً فإذا رأى حجراً أجمل منه رمى بالأول واتخذ الثاني إلهاً ﴿**وأضله الله على علم**﴾ أي تركه سبحانه، ليتيه في الضلالة على علم منه سبحانه باستحقاقه للترك، فإنه لما أعرض عن الهدى تركه تعالى وشأنه، ولم يكن ذلك عن جهل ـ تعالى عن ذلك ـ بل عن علم، لاستحقاقه الترك والخذلان ﴿**وختم**﴾ الله ﴿**على سمعه وقلبه**﴾ ومعنى الختم أن يكون كالشيء المختوم الذي لا يدخل فيه شيء والختم على السمع كناية عن عدم إشفاعه بما يسمعه، وعلى القلب كناية عن عدم وعى قلبه للحق، ونسبة الختم إليه سبحانه، لأنه خلق البشر بحيث إنهم لو انحرفوا عن الجادة، واستمروا في الانحراف اعتاد قلبهم ذلك، فلم يمل إلى الهدى، ويكون الضلال ملكة لهم، فلا يدخل في القلب هداية كالشيء المختوم ﴿**وجعل على بصره غشاوة**﴾ أي غطاء، لا يعتبر بالنظر، فهو

﴿فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٥﴾﴾

والأعمى سواء ﴿**فمن يهديه**﴾ أي يهدي هذا الشخص المتصف بتلك الصفات ﴿**من بعد الله**﴾؟ وهل هناك هاد إلا هو؟ والمعنى أنه إذا لم يهتد بهداية الله، فلا هداية عند غيره حتى يمكن أن يهتدي بها ﴿**أفلا تذكّرون**﴾؟ أصله «تتذكرون» على قاعدة باب «التفعل» والاستفهام إنكاري، أي لماذا لا تتعظون بهذه المواعظ؟

[٢٥] ﴿**وقالوا**﴾ أي قال المنكرون للبعث ﴿**ما هي إلا حياتنا الدنيا**﴾ أي ليست للبشر حياة إلا هذه الحياة القريبة، فلا حياة بعد الموت﴿**نموت ونحيا**﴾فحياتنا فيها نخرج من بطون الأمهات، وموتنا هو هذا الذي نشاهده، والفعلان باعتبار الجنس، أي نموت نحن ويحيا أولادنا، وهكذا، أو المراد كل فرد، وإنما أخر «نحيا» للتناسب مع «حياتنا الدنيا» في السجع، وقد تقرر في الأدب أن الواو لا يدل على الترتيب، قال ابن مالك:

واعطف بواو سابقاً أو لاحقاً
في الحكم أو مصاحباً موافقاً

﴿**وما يهلكنا**﴾ ويميتنا ﴿**إلا الدهر**﴾ أي مرور الزمان، فليس هناك إله يميت ﴿**وما لهم بذلك**﴾ الذي ذكروه من كون الحياة منحصرة في هذه، وإن المهلك هو الدهر ﴿**من علم**﴾ حتى يقولوا ذلك عن يقين ودراية ﴿**إن هم**﴾ أي ما هؤلاء القائلين ﴿**إلا يظنون**﴾ ظناً بذلك، من التقليد والتخمين، والتقدير «ما هم إلا ظانون».

وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٦﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾

[٢٦] ﴿**وإذا تتلى عليهم**﴾ أي على هؤلاء المنكرين للنشأة الأخرى الكافرين بالله ﴿**آياتنا**﴾ أي أدلتنا الدالة على وجودنا ووجود الدار الآخرة ﴿**بينات**﴾ أي في حال كون تلك الآيات ظاهرات واضحات ﴿**ما كان حجتهم**﴾ أي دليلهم في نفي الآخرة ﴿**إلا أن قالوا ائتوا**﴾ أيها المقرون بالمعاد ﴿**بآبائنا**﴾ الذين ماتوا من قبل ﴿**إن كنتم صادقين**﴾ في دعواكم إن البعث سيكون؟ وقد كان هذا الكلام تافهاً فأي ربط بين أن يكون شيء في المستقبل وبين أن يأتي به المدعي له حالاً أترى هل يصح أن يقول المنكر للصيف ـ وهو في الشتاء ـ ائتي أيها المقر بالصيف إن كنت صادقاً؟ فجوابه: أنا أقول بمجيء الصيف في وقته ولي دليل، كما أن جواب الدهرية: نحن نقول بالبعث ولنا أدلة، أما أن يأتي بالبعث حالاً بإحياء الأموات فلا ربط له بالكلام.

[٢٧] ﴿**قل**﴾ يا رسول الله لهؤلاء ـ. معرضاً عن جوابهم التافه ـ مبيناً لهم الحقيقة ﴿**الله يحييكم**﴾ بعد أن كنتم تراباً ميتاً، والمراد بذلك استمرار إحياء الله للبشر من القديم إلى المستقبل، ولذا جيء بالمستقبل ﴿**ثم يميتكم**﴾ بإزهاق أرواحكم ـ في مقابل قولهم: ما يهلكنا إلا الدهر ـ ﴿**ثم يجمعكم**﴾ للنشور، من القبور، منتهين في السير ﴿**إلى يوم القيامة**﴾ حين يحاسب الخلائق ﴿**لا ريب فيه**﴾ أي ليس محلاً للريب، وإن ارتاب فيه المبطلون ﴿**ولكن أكثر الناس لا يعلمون**﴾ لأنهم أعرضوا عن التعلم، فإن المعاد فيه جهتان، الإمكان، والوقوع، أما

وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٢٨﴾ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ۚ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾ هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم

الإمكان فمن قدر على الابتداء يقدر على الإعادة بالضرورة. . . وأما الوقوع، فقد أخبر الصادق بوقوعه، فلا بد أن يقع.

[٢٨] ﴿**ولله ملك السماوات والأرض**﴾ فأنتم أيها الناس تحت قدرته، ولا تظنوا إمكان الفرار ﴿**ويوم تقوم الساعة**﴾ أي القيامة ﴿**يومئذ يخسر المبطلون**﴾ أي الفاعلون للباطل، ومعنى خسارتهم هلاكهم.

[٢٩] ﴿**وترى**﴾ يا رسول الله، أو أيها الرائي، في يوم القيامة ﴿**كل أمة جاثية**﴾ من الجثو وهو التهيؤ للقيام، وذلك لأن الإنسان الخائف لايجلس جلسة الاطمئنان بل يرفع إلييه من الأرض حتى إذا نودي أو جاء الفزع قام فوراً بلا استبطاء، وهناك كل أمة منحازة عن أمة أخرى، جاثية على ركبتيها، أو المراد جثوهم بين يدي الحكام، كما يجثو المترافعان عند القاضي، ﴿**كل أمة تدعى إلى كتابها**﴾ المنزل على نبيها، ليكون الكتاب حكماً بينهم، هل عملوا على طبقه أم لا وذلك كما يقول أحد المتخاصمين للآخر: أدعوك إلى كتاب الله، فيقال لهم ﴿**اليوم تجزون ما كنتم تعملون**﴾ أي نفس الأعمال ـ بناء على تجسيمها ـ أو جزائها.

[٣٠] ﴿**هذا كتابنا**﴾ أي اللوح المحفوظ، أو ديوان الحفظة الذي سجّل فيه أعمالكم ﴿**ينطق عليكم**﴾ أي يبين لكم أيها الناس وسمي البيان نطقاً، للمشابهة في إبداء المخفي من العمل، كما أن النطق يبدي المخفي في

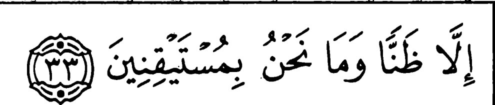
بِٱلۡحَقِّۚ إِنَّا كُنَّا نَسۡتَنسِخُ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٣٠﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدۡخِلُهُمۡ رَبُّهُمۡ فِي رَحۡمَتِهِۦۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡمُبِينُ ﴿٣١﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَفَلَمۡ تَكُنۡ ءَايَٰتِي تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡ وَكُنتُمۡ قَوۡمٗا مُّجۡرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيۡبَ فِيهَا قُلۡتُم مَّا نَدۡرِي مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ

القلب ﴿**بالحق**﴾ فلا يبين الباطل ﴿**إنا كنا نستنسخ**﴾ أي نكتب، والاستنساخ هو الأمر بالنسخ، أي نأمر الكتبة بنسخ أعمالكم ﴿**ما كنتم تعملون**﴾ في دار الدنيا.

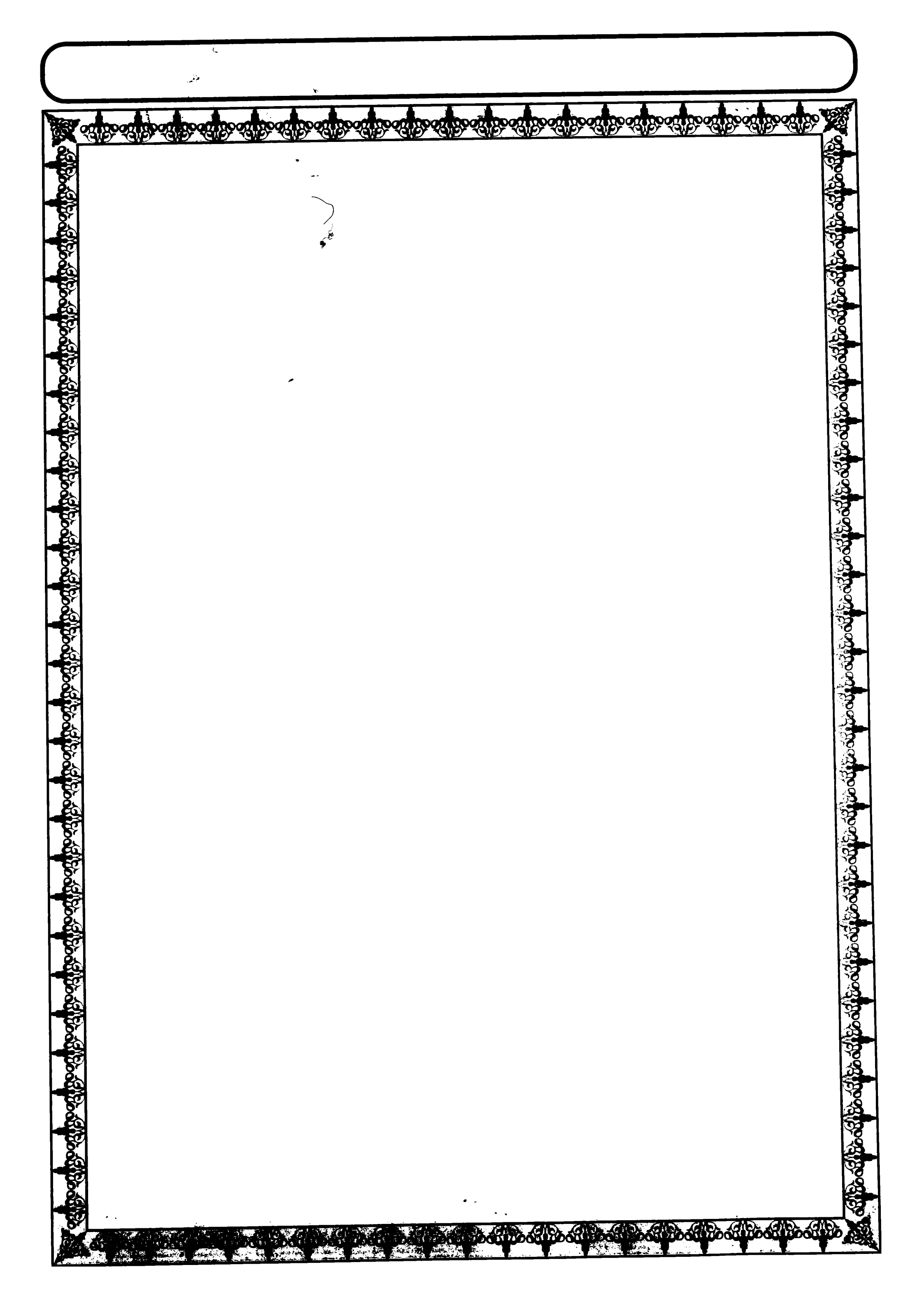
[٣١] ﴿**فأما الذين آمنوا**﴾ بما يجب الإيمان به ﴿**وعملوا الصالحات**﴾ أي الأعمال الصالحات ﴿**فيدخلهم ربهم في رحمته**﴾ أي جنته وثوابه وفضله ﴿**ذلك**﴾ الإدخال في الرحمة ﴿**هو الفوز**﴾ أي الفلاح ﴿**المبين**﴾ الظاهر.

[٣٢] ﴿**وأما الذين كفروا**﴾ فيقال لهم ﴿**أفلم تكن آياتي تتلى عليكم**﴾ يقرؤها عليكم الأنبياء والمرشدون ﴿**فاستكبرتم**﴾ أي تعاظمتم عن قبول الحق ﴿**وكنتم قوماً مجرمين**﴾ تعملون بالإجرام، كفراً وعصياناً؟ وهذا سؤال توبيخ وتقريع.

[٣٣] ﴿**و**﴾ كنتم في دار الدنيا ﴿**إذا قيل**﴾ لكم ﴿**إن وعد الله حق**﴾ فالبعث كائن لا محالة ﴿**والساعة**﴾ أي القيامة ﴿**لا ريب فيها**﴾ أي ليست محل الريب والشك ﴿**قلتم**﴾ في جواب المؤمنين ﴿**ما ندري ما الساعة**﴾ أي لا نعلم ما هي، تقولون ذلك على وجه الاستهزاء ﴿**إن نظن**﴾ أي ما



نظن بها ﴿**إلا ظناً**﴾ فليس لنا علم بها، و«الظن» في الأول استعمل في المعنى الأعم، وفي الثاني بمعناه الراجح المقابل للوهم ﴿**وما نحن بمستيقنين**﴾ أي لا يقين ولا علم لنا.

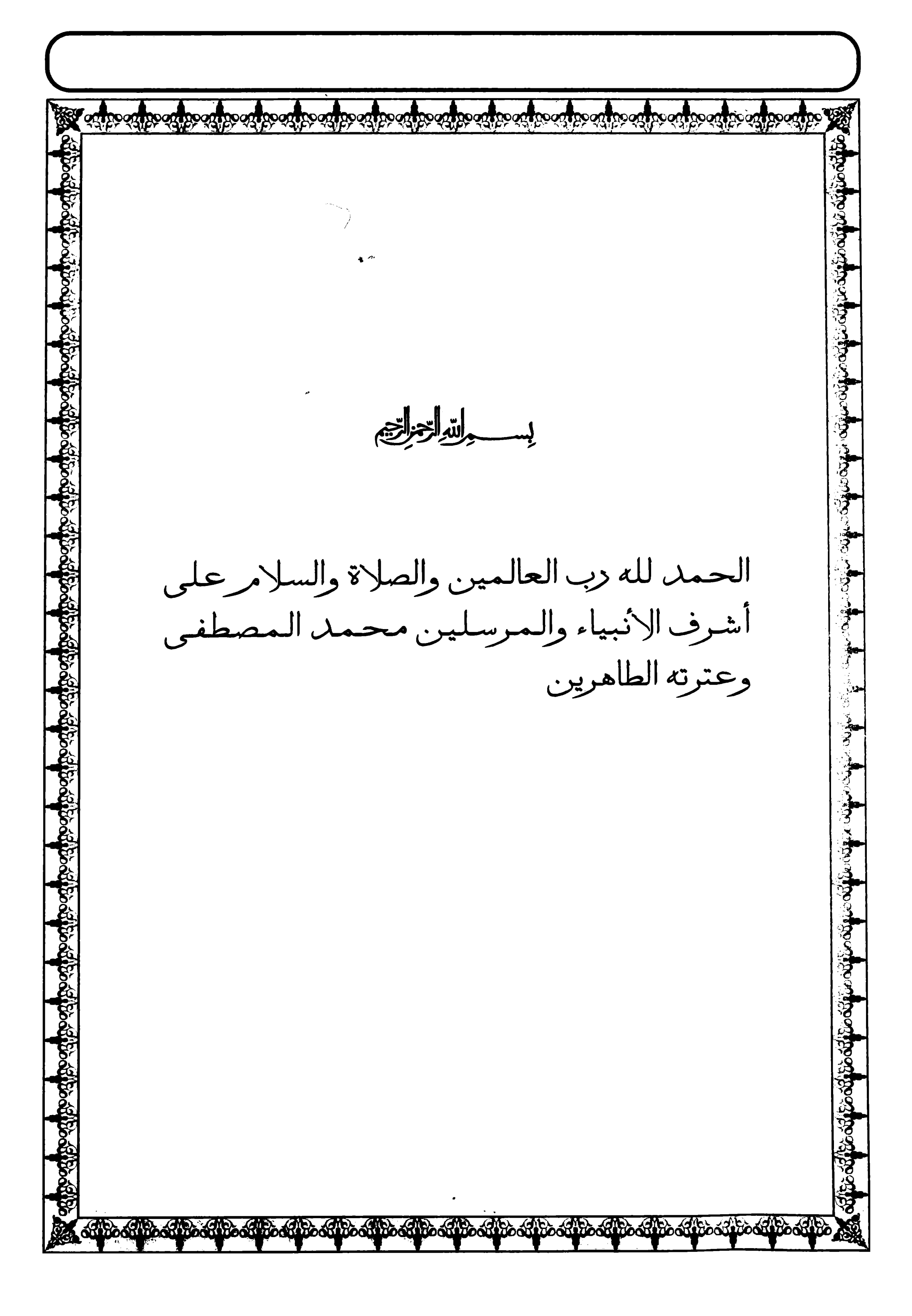




الجزء السادس والعشرون

من آية (٣٤) سورة الجاثية

إلى آية (٣١) سورة الذاريات



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين محمد المصطفى وعترته الطاهرين

وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٤﴾ وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٥﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَٰتِ

[٣٤] ﴿و﴾ هناك ﴿**بدا**﴾ أي ظهر ﴿**لهم سيئات ما عملوا**﴾ أي الجزاء الذي رتب على أعمالهم ﴿**وحاق**﴾ أي حلَّ وأحاط ﴿**بهم ما كانوا به يستهزءون**﴾ من العذاب، فإنهم إذا هددوا بالعذاب في دار الدنيا، استهزءوا به، وهناك يحل ذلك بهم.

[٣٥] ﴿**وقيل**﴾ لهم ﴿**اليوم ننساكم**﴾ أي نترككم هملاً كالمنسي، تلاقون العقاب والعذاب ﴿**كما نسيتم**﴾ وتركتم العمل ﴿**لقاء يومكم هذا**﴾ فكما تركتم الاستعداد لهذا اليوم نترككم في العذاب، والإتيان بلفظ نسى لأن المهمل إذا طال أمد إهماله صار نسياً منسياً، فالمعنى نترككم إلى أن تكونوا منسيين ﴿**ومأواكم**﴾ أي محلكم ومنزلكم ﴿**النار**﴾ فكما أحرقوا أعمارهم وطاقاتهم في الدنيا سوف يحرقون بالنار في الآخرة، فإن النيران المعنوية صارت نيران مادية ﴿**وما لكم من ناصرين**﴾ يخلصونكم من النار، فكما لم ينفعهم في الدنيا الذين كانوا يريدون خلاصهم من نيران عقائدهم وأعمالهم، كذلك لا ينفعهم هناك أي ناصر لأن الآخرة تبع للدنيا، وهي ثمرة للأعمال في الدنيا، فكما أن بذرة التفاح تعطي التفاح، وبذرة الحنظل تعطي الحنظل، كذلك العقائد والأعمال والصفات في الدنيا تعطي ثمرها في الآخرة.

[٣٦] أما أنهم كيف سلكوا في الدنيا هذا المسلك الذي أدّى بهم في الآخرة إلى النار فـ ﴿**ذلكم**﴾ ذلك المسلك الدنيوي، إنما كان أيها الكفار المخاطبون ـ فإن «كم» خطاب ـ ﴿**بـ**﴾ سبب ﴿**أنكم اتخذتم آيات**

ٱللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٣٦﴾

الله﴾ الآيات البشرية، كالأنبياء والأئمة والمرشدين، والآيات العقائدية، كالعقيدة بأصول الدين، والآيات الإحكامية، كأحكام الإسلام، فإنها كلها آيات، وعلامات الله، علامات تكوينية، وعلامات تشريعية

﴿هزواً﴾ آلة استهزاء، فكنتم تضحكون على أولياء الله، وعلى أحكامه، كما هو شأن الإنسان الجاهل والمتجاهل، وبذلك لم يرضخوا لأنبيائه وأوليائه سبحانه، ولا لأحكامه تعالى **﴿وغرتكم﴾** خدعتكم **﴿الحياة الدنيا﴾** القريبة فحسبتم أن لا حياة سواها، ولذا انسقتم مع الأهواء والمشتهيات التي أضرتكم، نتيجة عنادكم للحق **﴿فاليوم﴾** في الآخرة، فإن اليوم يطلق على النهار وحده، وعلى النهار والليل، وعلى القطعة من الزمان ولو كانت طويلة جداً، ولذا يقال: الدهر يومان يوم لك ويوم عليك **﴿لا يخرجون منها﴾** لا مخرج لهم، لبيان أنهم لا يقدرون بأنفسهم على الخروج، فالخروج إن كان فهو بواسطة الغير، ولا غير يخرجهم **﴿ولا هم يستعتبون﴾** لا يطلب منهم أن يعتبوا ربهم أي يرضوه، بالاستغفار والعمل الصالح، لأن الوقت قد فات، فإن وقت إرضاء الله هو دار الدنيا، وسبب أن الآخرة ليست محل الإرضاء: أن العقائد والأعمال في الدنيا أحالت الإنسان إلى قطعة خبث، كما تستحال البيضة إلى فرخ، فكما لا يمكن إرجاع الفرخ بيضة، كذلك لا يمكن إرجاع ما استحال خبيثاً إلى الحالة الدنيوية التي يمكن بها أن يعمل صالحاً ويعتقد صحيحاً، فإن في الدنيا

﴿فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾ وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾

الاستفراخ، وهذا لا ينافي قدرة الله على ذلك، إذ الله يخلق كل شيء ممكن، وهذا شيء ممكن خلقه سبحانه، وتفصيل المسألة في كتب الفلسفة.

[٣٧] وإذ بينا لكم مصير المطيع والعاصي ﴿فـ﴾ اصرفوا كل طاقاتكم في سبيل الإطاعة، والاجتناب عن المعصية، إذ ﴿لله﴾ وحده ﴿الحمد﴾ لأن كل خير منه، حتى أن الإنسان إذا عمل الخير، فإنه سبقه جعل الله له القدرة على الخير، فإنه هو ﴿رب السماوات﴾ ما في الجهات العليا ﴿ورب الأرض﴾ ما في الجهة السفلى، وإنما جعلت السماوات جمعاً والأرض مفرداً، لأن ما نسكنها أرض، وكل ما سوى ذلك فهو سماوات لأنها أعلى من هذه الأرض، أما جمع الأرض في الأدعية، وفي قوله سبحانه (وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ)[١] فلملاحظة النسبة ﴿رب العالمين﴾ كل عالم، عالم الجن، وعالم الملائكة، وعالم الإنسان، وعالم الحيوان، إلى غيرها، وحيث التداخل بين العوالم وبين السماوات والأرض، لم يأت بالواو في «رب العالمين» وجيء بالجمع العاقل باعتبار تغليب العاقل على غيره لأن العاقل أشرف.

[٣٨] إنه «الله» الذات المستجمع لجميع الكمالات و«رب» ويربي وينمي الأكوان ﴿وله الكبرياء﴾ لأنه أكبر من كل شيء، كبراً معنوياً، وأكبر من أن يوصف ﴿في السماوات والأرض﴾ فهو القاهر الذي ليس لشيء

(١) الطلاق: ١٣.

وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ (٣٨)

كبر وقهر مستقل، إن ما استفاده منه، فهو يستحق الحمد، لأنه الله، ولأنه رب، ولأن له الكبرياء وهو يستحق الحمد، لأنه كامل، ولأنه رب، ولأنه الكبير القاهر المشرف على كل شيء **﴿وهو العزيز﴾** الوحيد الذي غيره ذليل أمام عظمته (وَعَنَتِ الوُجُوهُ لِلْحَيِّ القَيُّومِ)[1] **﴿الحكيم﴾** وضع كل شيء حسب الحكمة في موضعه اللائق به.

(١) طه: ١١٢.

٤٦

سورة الأحقاف

مكية/ آياتها (٣٦)

سميت السورة بهذا الاسم لاشتمالها على لفظ «الأحقاف» وهي كسائر السور المكية مشتملة على قضايا العقيدة إلوهيةً ورسالة ومعاداً.

ولما ختمت سورة «الجاثية» بصفات الله سبحانه ابتدأت هذه السورة، بأن القرآن من تنزيل هذا الإله العظيم، ليكون الناس أقرب إلى قبوله لأنه منزل من عند الله سبحانه.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ (١)

[١] ﴿**بسم الله الرحمن الرحيم**﴾ باسم الله نبدأ، ليطابق ابتداءنا في اللفظ، الابتداء في الخلق، فكما أن الله سبحانه أول كل شيء، كذلك اسمه أول كل كلام، وهو مكرر الرحمة، يرحم بدءً وختاماً بمختلف أشكال الرحمة، ولعله لذا جيء بلفظي الرحمن والرحيم، فإن اختلاف اللفظ دليل على اختلاف المعنى، فالرحمن إشارة إلى نوع من الرحم، والرحيم إشارة إلى نوع آخر.

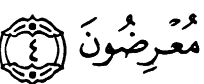
حمٓ ﴿٢﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٣﴾ مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ

[٢] ﴿حم﴾ رمز بين الله والرسول ﷺ والراسخين في العلم، ولعله يأتي زمان يدرك الناس هذا الكنز المعنوي، كما انه لا يمر زمان إلا ويدرك الناس كنوزاً كونية، فإن العلوم كلها قوانين وضعها الله في الكون، مثل قانون جاذبية الأرض وقانون أرخميدس في الماء وقانون الأطياف في النور وغيرها، وإذا كان رمزاً لم يلزم أن يعرفه الكل، فإن الرموز بين رؤساء الحكومات وكبار أعضاء الدولة في صلاح الناس، وإن كان كل الناس لا يعرفونها.

[٣] إن هذا القرآن هو ﴿تنزيل الكتاب﴾ وإنما قال «تنزيل» لأنه أنزل من فوق أي الفوق المعنوي لأن الله سبحانه أرفع من الكل، كما يقال في العرف أن الأمر صدر من الجهات العليا، يريدون جهة السلطان، وإن كان بيت السلطان تحت الجبل، والمأمور فوق الجبل مثلاً، إذ السلطان أعلى رتبة من السوقة والمأمورين ﴿من الله﴾ لا من الجن، بالكهانة، ولا من لسان أعجمي، ولا من نفس محمد ﷺ كما كانوا يرمون القرآن بكل ذلك ﴿العزيز﴾ فبعزته أرسل رسولاً وأنزل دستوراً، إذ لولا العزة لم يكن له ذلك ﴿الحكيم﴾ الحكمة وضع الأشياء موضعها؛ فإنزاله الكتاب إنما هو حسب الحكمة، لإصلاح الدين والدنيا، وقد كان الله قادراً على أن يخلق الكون مثل ما ينتهي إليه في آخر نقطة من الكمال، إلا أن هذا اللون من الخلق كان يتطلب بلسان الحال إفاضة الوجود والله فياض مطلق لا بخل فيه، ولذا خلق هذا اللون المتدرج في الصعود أيضاً.

[٤] ﴿ما خلقنا السماوات والأرض﴾ تقدم في آخر سورة الجاثية وجه جمع

وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَمَّآ أُنذِرُواْ مُعۡرِضُونَ ﴿٤﴾



السماوات وإفراد الأرض ﴿وما بينهما﴾ في كل خلل وفرج منهما، كالإنسان والملك ونحوهما، فالمخلوقات فيهما باعتبار، وبينهما باعتبار آخر ﴿إلا بالحق﴾ لا هزواً ولا لعباً، والمراد بالحق المطابق للصلاح، خلافاً للهزو الذي ليس مطابقاً للصلاح، لا يقال قدر من اللعب أيضاً مطابق للصلاح، ولذا أجاز يعقوب عليه السلام أن يلعب أولاده، لأنه يقال ذلك يصلح للإنسان المخلوق بهذه الكيفية الخاصة، الذي لا يقدر من العمل الجدّي المستمر فيحتاج إلى الترفيه، لا بالنسبة إلى الله الذي لا يتعب ولا يمسه لغوب ﴿و﴾ إلا إلى ﴿أجل﴾ زمان ﴿مسمى﴾ سمي عندنا إذا انتهى ذلك الأجل هلكت السماوات والأرض وما بينهما (كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ لَهُ)[1] فليس الخلق فوضى في المدة، كما يزعمه الجاهلون ثم إن الأجل له إطلاقات «القطعة من الزمان» مثل إن أجل زيد خمسون سنة، و«آخر الزمان» مثل إن أجل زيد إلى سنة ألف وأربعمائة من الهجرة وكلاهما محتمل في الآية الكريمة ﴿و﴾ مع ذلك ﴿الذين كفروا عما أنذروا﴾ من العقاب في الدنيا لمخالف قوانين الله، فكل من لم يعمل بالشريعة وجد ضنك العيش (وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً)[2] ومن العقاب في الآخرة بالنار والجحيم ﴿معرضون﴾ فلا يعملون بالأوامر، مع أن الخلق بالحق، وإن المدة قصيرة ذات أجل، وقد كان مقتضى العقل أن يعمل الذين كفروا بالإنذار، بعدما يشاهدون من حقيقة الخلق وبعدما

(١) القصص: ٨٩ .

(٢) طه: ١٢٥ .

﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٥﴾﴾

علموا من عدم البقاء السرمد، وإنما لكل شيء أجل.

[٥] ثم إنكم أيها الكفار، لا حجة لكم في كفركم فـ ﴿**قل**﴾ لهم يا رسول الله ﴿**أرأيتم**﴾ أي أخبروني أيها الكافرون عن حال ﴿**ما تدعون من دون الله**﴾ من الأصنام، سواء كان، شمساً، أو قمراً، أو بشراً، أو حجراً، أو غير ذلك ﴿**أروني ماذا خلقوا من الأرض**﴾ فهل خلقوا نباتاً أو حيواناً أوبحراً أو براً، أو غير ذلك، ولا يحق لهم أن يقولوا أن فرعون مثلاً خلق تلك المدينة إذ فرعون لم يخلق، وإنما فرعون جاء بالمعدات أي حركة عضلاته فقط، وإنما مادة البناء وصورته كلاهما لله سبحانه ولذا قال سبحانه (وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ)[١] ﴿**أم لهم شرك**﴾ شراكة ﴿**في**﴾ خلق ﴿**السماوات**﴾ وحيث رأيتم إنهم شركاء الله في خلق الأرض والسماوات فاتخذتموهم شركاء لله وكفرتم بوحدانيته وإذ ادعيتم الشراكة في الخلق ﴿**ائتوني بكتاب من قبل هذا**﴾ القرآن يؤيد اشتراك الأصنام في الخلق، إن كنتم تدعون أنكم على دين، كما كان بعضهم يدعي أنه على دين إبراهيم عليه السلام، أو دين عيسى عليه السلام، أو دين موسى عليه السلام، ومع ذلك كانوا يجعلون الأصنام أو المسيح، أو عزيراً، شركاء لله ﴿**أو أثارة**﴾ بقية ﴿**من علم**﴾ بأن يدل المنطق على صحة اعتقادكم بالآلهة الباطلة ﴿**إن كنتم صادقين**﴾ في دعواكم أن الأصنام

---

(١) الفرقان: ٣.

وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴿٦﴾

وغيرها شركاء لله سبحانه، وإذ لا دليل لكم من كتاب سابق، ولا من علم وبرهان، فاتركوا الأصنام وسائر المعبودات، واعبدوا إلهاً واحداً فقط، وإنما قال سبحانه «أثارة من علم» لأنهم كانوا جهالاً وهم أيضاً ما كانوا يدعون أنهم علماء، ولكن الجاهل قد يبقى له بعض العلم والمنطق عن أسلافه.

[٦] ﴿و﴾ هؤلاء الكفار الذين يتركون الله سبحانه ويدعون غير الله من الأوثان، سواء تركوا الله إطلاقاً، أو تركوا الله في الجملة، بأن أشركوا معه غيره، لا أحد أكثر ضلالاً منهم إذ ﴿**من أضل ممن يدعوا من دون الله من لا يستجيب له**﴾ فهو قد ترك السميع المجيب القادر على قضاء حوائجه واتخذ إلهه صنماً لا يجيبه ﴿**إلى يوم القيامة**﴾ ولو دعاه طول حياة الدنيا، وجعل يوم القيامة غاية مع أن الأصنام لا تجيبهم إلى الأبد وحتى بعد يوم القيامة، إنما هو لأجل أن هؤلاء يعترفون في يوم القيامة بضلال أنفسهم، ففي يوم القيامة لا دعوة من باب السالبة بانتفاء الموضوع، فلا دعوة للكفار حتى يطرح الكلام في أنه هل تجيبهم الأصنام أم لا، مثل قولهم لا كلمتك إلى أن تموت، فليس المراد أكلمك بعد الموت، بل المراد أن موضوع الكلام ينتفي ﴿**وهم**﴾ أي تلك الآلهة البشرية أو الحجرية أو الشمس والقمر ونحوها، وإنما جيء بلفظ العاقل، لأن بعض المعبودات عقلاء، أو لأن الكفار لما أنزلوها منزلة العقلاء بعبادتهم لها، جيء الكلام على منطقهم ﴿**عن دعائهم**﴾ أي دعاء الناس لتلك الأصنام ﴿**غافلون**﴾ لأنها جمادات فلا تشعر طلب الكفار منها، أو عباد مشغولون بأحوال أنفسهم، فالغفلة كناية عن عدم

وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَـٰفِرِينَ ﴿٧﴾ وَإِذَا

قضاء حاجة عبادها، فإذا قضوا حاجة لهم، فإنما في الحقيقة، ليست مرد الحاجة لتلك الأفراد بل لله سبحانه.

[٧] ﴿**وإذا حشر الناس**﴾ أي جمعوا يوم القيامة ﴿**كانوا**﴾ تلك الأصنام ﴿**لهم**﴾ للبشر الذين يعبدونها ﴿**أعداء**﴾ لأن الأصنام تضر عبادها، بإدخالهم النار، كما يفعل العدو بعدوه ﴿**وكانوا**﴾ تلك الأصنام ﴿**بعبادتهم**﴾ أي عبادة البشر لها ﴿**كافرين**﴾ فإن الله ينطق الأصنام ليظهروا تبريّهم من عبادها، أو كناية عن أنه لو كان لتلك الأصنام لسان لكفرت بعبادها، وقد قال الله تعالى في آية أخرى (إِن تَدْعُوَهُمْ لاَ يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ القِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ)(١) ولا مانع من نطق الجماد بقدرة الله تعالى، وفي الآيات والأخبار دلالة على ذلك كقوله سبحانه (قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ)(٢) وقوله سبحانه (فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا)(٣) وقوله عز من قال (فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ)(٤) وقوله سبحانه (يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا)(٥) إلى غير ذلك... وحاصل الآيتين الكريمتين أنه لا فائدة في عبادة هذه الأصنام وإنما تضر في الآخرة، عوض أن تنفع.

[٨] ﴿**و**﴾ هؤلاء الكفار اتخذوا الباطل، وتركوا الحق وعاندوه، أما اتخاذهم الباطل فلما سبق من عبادتهم الأصنام، وأما تركهم الحق فلأنهم ﴿**إذا**

---

(١) فاطر: ١٥.
(٢) فصلت: ١٢.
(٣) الأحزاب: ٧٣.
(٤) النازعات: ١٥.
(٥) الزلزلة: ٥.

تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٨﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا

تتلى عليهم آياتنا﴾ الدالة على التوحيد والرسالة والمعاد، في حال كونها **﴿بينات﴾** واضحات يفهمها كل عاقل **﴿قال الذين كفروا﴾** قالوا **﴿للحق﴾** الذي بيّنا لهم **﴿لما جاءهم﴾** واضحاً **﴿هذا سحر مبين﴾** أي واضح كونه سحراً، فجعلوا الحق الواضح، سحراً واضحاً، بسبب عنادهم، ثم إن الفرق بين السحر والمعجز: أولاً: أن العقل يميز بينهما، فهل أن للكون إلهاً عالماً قادراً سحر؟ وهل أن الصنم والبشر إله خالق؟

وثانياً: إن الإعجاز بدون أدوات، والسحر يأتي بأدوات. وثالثاً: إن الساحر لا يقدر على كل شيء بل على أشياء خاصة، بينما صاحب الإعجاز على كل شيء مقدور في ذاته.

[٩] إنهم كانوا يقولون أن الآيات سحر، وكانوا يقولون أن محمداً ﷺ مفتر على الله، لأنه يدعي أنه نبي من قبل الله، والحال أنه ليس بنبي **﴿أم يقولون افتراه﴾** «أم» بمعنى «بل» كأنه تعجب من دعواهم أن الرسول ﷺ مفتر **﴿قل﴾** في جوابهم يا رسول الله لا يمكن أن يفتري البشر على الله، إذ اللازم على الله أن يفضحه، فإن العقلاء يحتجون على المفترين بما لا يتمكن من رده فـ **﴿إن افتريته﴾** افتريت القرآن **﴿فلا تملكون لي من الله شيئاً﴾** يقال «يملك الوزير من الأمير» أي أن الأمير إذا أراد شيئاً ولم يرده الوزير يتمكن الوزير أن يصرف الأمير عن إرادته، لكن الإنسان لا يملك أن يصرف الله عن إرادته، وقد أراد

هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩﴾ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ

سبحانه فضح مدعي النبوة كذباً، لأنه سبحانه نصب الأدلة العقلية على خلافه، كما نصب الأدلة العقلية على فضح مدعي الطب كذباً، ومدعي الهندسة كذباً، لأن الأول لا يقدر على شفاء المرضى، والثاني لا يقدر على جعل الهندسة لبناء دار ونحوها، والرسول إن كان كاذباً فهل كان يقدر على جواب كل سؤال وحل كل مشكلة؟ فلو كان الرسول ﷺ كاذباً، لا يملك أحد أن يصرف الله عن إرادته في فضح الكاذب. . ثم هددهم الرسول ﷺ بقوله ﴿**هو أعلم بما تفيضون**﴾ تندفعون ﴿**فيه**﴾ من الشرك وتكذيب آياته والافتراء على رسوله، وسيجازيكم عليه ﴿**كفى به**﴾ أي بالله ﴿**شهيداً**﴾ شاهداً ﴿**بيني وبينكم**﴾ يشهد لي بالصدق، لأنه لم يفضحني، بالأدلة العقلية ويشهدكم بالانحراف بما قد نصب من الأدلة العقلية المبينة لبطلان المبطل ﴿**و**﴾ لا بأس لكم فإن تبتم تاب الله عليكم لأنه ﴿**هو الغفور**﴾ لعباده التائبين ﴿**الرحيم**﴾ بهم يتفضل عليهم من رحمته زيادة على غفران ذنوبهم.

[١٠] وقد كان كفار مكة يستدلون على عدم رسالة الرسول بأنه لو كان رسولاً لزم أن يأتيهم بكل آية يقترحونها من الإعجاز، عناداً فيهم وتضليلاً للسذج فـ ﴿**قل**﴾ يا رسول الله في جوابهم ﴿**ما كنت بدعاً**﴾ جديداً بديعاً ﴿**من الرسل**﴾ حتى أتاكم بكل ما تقترحونه من الآيات، فهل كانت الرسل تأتي بكل آية تقترحها عليهم أممهم؟ حتى يأتيكم بمثل أولئك الرسل، كلما تقترحون من الآيات، فإن كانت الحجة

وَمَآ أَدۡرِي مَا يُفۡعَلُ بِي وَلَا بِكُمۡۖ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ

كافية، فقد أتيتكم بالقرآن وبمعجزات أخر تكفي في إثبات النبوة، وإن كانت الحجة غير كافية، فالإتيان بالمعجزة أيضاً غير مفيدة لإقناعكم، أرأيت لو عالج الطبيب أعصى الأمراض، وتحدى الأطباء، فهل للأطباء أن يقولوا أنت لست بطبيب، وإلا فعالج مرضى آخرين؟ وإذا قالوا ذلك ألم يحمل كلامهم على العناد؟ ﴿و﴾ كذلك الكفار كانوا يقولون للرسول إن كنت رسولاً فقل لنا ما هو مصيرنا في الدنيا وما هو مصيرك؟ وأجابهم الرسول ﷺ ﴿**ما أدري ما يفعل بي ولا بكم**﴾ فإن علم الغيب تفصيلاً خاص بالله تعالى ﴿**إن اتبع إلا ما يوحى إلي**﴾ «إن» نافية أي ما أتبع في المجيء بالآيات، وفي الإخبار عن المغيبات، إلا كما يوحى إلي، وليس من الصلاح إجابة كل معاند بما يقترح، وإلا كان مهزلة، وكرروا قولهم أنه سحر، فماذا يفعل الرسول لمن يرد العناد؟ وقبل الرسول ﷺ جاءهم موسى بكل آية فقالوا (سِحْرَانِ تَظَاهَرَا)[1] كما انه ليس من الصلاح أن يخيرهم الرسول ﷺ بكل ما يريدون من المغيبات لأنه إن كان لإقناع المنصف فقد اقتنع بما رآه من إعجاز القرآن وغيره، وإن كان لإقناع المعاند، فالمعاند لا يقتنع ولو جاءهم الرسول بكل آية، أليس عيسى عليه السلام أخبرهم بما يأكلون وما يدخرون في بيوتهم ومع ذلك كفروا به؟ ﴿**وما أنا إلا نذير**﴾ منذر بأنّ من لم يسمع كلامي له حياة سيئة في الدنيا وفي الآخرة (وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي

---

(١) القصص: ٤٩ .

مُّبِينٌ ﴿١٠﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١١﴾

فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ القِيَامَةِ أَعْمَى)[١] ﴿**مبين**﴾ واضح كوني منذراً ورسولاً، فاللازم أن آتي إليكم بالقدر الذي يثبت أني منذر ورسول، لا أن آتي بالمقترحات العنادية لكم.

[١١] ﴿**قل**﴾ يا رسول الله لي شاهدان على صدقي، فكيف تكفرون أنتم، مما يسبب لكم أشد الوبال. الأول: الإعجاز. الثاني: تصديق أهل الكتاب الذين هم أهل خبرة لي، وذلك كما ادعى إنسان أنه طبيب ثم عالج الأمراض، وصدقه الأطباء، فهل يبقى هناك شك في كونه طبيباً؟ ومن أنكر كونه طبيباً أليس يكون معانداً؟ ﴿**أرأيتم**﴾ أخبروني ﴿**إن كان**﴾ القرآن ﴿**من عند الله**﴾ بدليل أنكم عاجزون عن الإتيان بمثله ﴿**و**﴾ الحال أنكم ﴿**كفرتم به**﴾ أليس ذلك يسبب الوبال لكم؟ ﴿**و**﴾ أرأيتم إن كان ﴿**شهد شاهد من بني إسرائيل**﴾ الذين هم أهل كتاب وخبرة كعبد الله بن سلام الذي كان من علماء بني إسرائيل وآمن برسول الله ﷺ ﴿**على مثله**﴾ أي مثل قولي أنه من عند الله ﴿**فآمن واستكبرتم**﴾ أنتم، أليس ذلك يسبب لكم الوبال؟ وقد حذف الجواب «لأنه كان من عند الله...» للتهويل، مثل قولك مهدداً لولدك، إن شربت الخمر؟ تريد أنه يلاقي عقوبة بسبب شربه ـ كما ذكروا في علم البلاغة ـ ثم ألمع سبحانه إلى الجواب بقوله ﴿**إن الله لا يهدي القوم الظالمين**﴾ الذين

---

(١) طه: ١٢٥.

وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ ۚ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُواْ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴿١٢﴾

ظلموا أنفسهم بالعناد، الله لا يوصلهم إلى مطلبهم، لأن الهداية قد تكون بمعنى إراءة الطريق نحو (وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا العَمَى عَلَى الهُدَى)[1] أي أريناهم الطريق، وقد تكون بمعنى الإيصال إلى المطلوب نحو (إِنَّكَ لاَ تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ)[2] أي لا توصلهم إلى المطلوب، وإلا فالهداية بإراءة الطريق كانت من شأن الرسول ﷺ . . وإذا لم يوصلهم الله إلى مطلبهم خسروا الدنيا والآخرة.

[١٢] ثم إن هؤلاء الكفار بالإضافة إلى كفرهم بالله، وبالرسول، وبالقرآن، أخذوا يستهزئون بالمؤمنين ﴿و﴾ ذلك بأن ﴿**قال الذين كفروا للذين آمنوا**﴾ أي قالوا عنهم، وكأنه جاء «باللام» مرة دلالة على أنهم قالوا في حضور المؤمنين وبـ «سبقوا» غائباً، مرة دلالة على أنهم قالوا في غيبة المؤمنين، للدلالة على أن الكفار كانوا يقولون ذلك في كل حال ﴿**لو كان**﴾ الإيمان والقرآن ﴿**خيراً ما سبقونا**﴾ أي لم يسبقنا المؤمنون بمحمد ﷺ، ﴿**إليه**﴾ إلى الإيمان والقرآن، وذلك لأننا أكثر عقلاً منهم، فلو كان خيراً لكنا نحن السابقين ﴿**و**﴾ سبب قولهم هذا هو أنهم ﴿**إذ لم يهتدوا به**﴾ ولم يسلكوا سبيل الهداية ﴿**فسيقولون**﴾ للترفيه عن أنفسهم إنه ليس بخير بل ﴿**هذا**﴾ القرآن وما جاءه الرسول ﴿**إفك**﴾ كذب ﴿**قديم**﴾ كما في آية أخرى (وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا)[3] فهم لم يقبلوا عناداً، واستهزؤوا بالمؤمنين، وقالوا إنه ليس بخير،

---

(١) فصلت: ١٨ .
(٢) القصص: ٥٧ .
(٣) الفرقان: ٦ .

وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾

وإنما هو كذب سابق، وكل قولهم وعملهم هراء وبدون حجة، وإنما هو كلام المستكبرين والمعاندين، فإن رمي كل حق بأنه ليس بخير، وأن المؤمنين به لا عقل لهم، وإنه إفك قديم، سهل، لكن الإتيان بالدليل على ذلك غير ممكن، ولذا قالوا في المثل «ما أسهل كيل التهم وأصعب إقامة الأدلة عليها».

[١٣] ﴿**و**﴾ كيف يكون هذا إفك والحال أن ﴿**من قبله**﴾ قبل القرآن ﴿**كتاب موسى**﴾ عليه السلام التوراة تشتمل على ما يشتمل عليه هذا القرآن، في حال كونه ﴿**إماماً**﴾ يقتدي به الناس، فهل من يقتدي بكتاب موسى عليه السلام لا عقل له؟ ﴿**ورحمة**﴾ لرحم البشر، والكذب ضد الرحم، فقولهم «ليس بخير» و«إفك» جوابهم أنه ككتاب موسى عليه السلام فهو «إمام» و «رحمة» ﴿**وهذا**﴾ القرآن ﴿**كتاب مصدق**﴾ لما في كتاب موسى عليه السلام من أصول الدين والأخلاق، ونحوهما ولكن مع فارق، فالتوراة كان لساناً عبرياً، والقرآن ﴿**لساناً عربياً**﴾ وإنما أنزل ﴿**لينذر الذين ظلموا**﴾ إنذاراً بخسران دينهم ودنياهم ﴿**و**﴾ ليكون ﴿**بشرى للمحسنين**﴾ للذين أحسنوا بالإيمان به وباتباعه، بأن لهم خير الدنيا والآخرة، أما أن القرآن لِمَ نزل على لغة العرب؟ فيرده أنه بأية لغة نزلت كان موضع هذا التساؤل؟ ولو قيل لماذا لم ينزل بكل لغة؟ فجوابه أن كونه بلغة واحدة أحسن لأنها تصبح لغة واحدة لكل البشر يتفاهمون بها بالإضافة إلى لغاتهم الخاصة بهم.

[١٤] وحيث عرفتم أيها المؤمنون خير ما تمسكتم به، وعرفتم بطلان حجج الكفار، فلا يستفزنكم أذاهم واستهزائهم لكم، وكونوا مستقيمين في

إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا

دينكم حتى تنالوا جزاء الاستقامة فـ ﴿**إن الذين قالوا ربنا الله**﴾ وتركوا الأصنام، بأن صحت عقيدتهم ﴿**ثم استقاموا**﴾ في اتباع أوامره سبحانه ﴿**فلا خوف عليهم**﴾ من مكروهٍ آتٍ ﴿**ولا هم يحزنون**﴾ لمكروه سابق، فإن الخوف من المكروه المرتقب، والحزن من المكروه الوارد الكائن الآن، أو الماضي، وذلك ليس بمعنى أن المؤمنين لا يصيبهم حزن وخوف، بل بمعنى «النسبية» فخوفهم وحزنهم، بالنسبة إلى خوف الكفار وحزنهم، قليلاً جداً بحيث يمكن سلب كونه خوفاً أو حزناً، لأنهما قليلان مؤقتان، ومقترنان بالبشارة بالأجر والثواب، بخلاف خوف الكفار وحزنهم.

[١٥] وإنما كان خوفهم وحزنهم مؤقتاً لأن ﴿**أولئك**﴾ المؤمنين ﴿**أصحاب الجنة**﴾ في الآخرة، فما يلاقونه من الأتعاب في الدنيا ينقضي بسرعة ﴿**خالدين فيها**﴾ أبداً ﴿**جزاء بما كانوا يعملون**﴾ والاعتقاد نوع من العمل أيضاً، لأنه عمل القلب، فلا يقال: لماذا لم يقل سبحانه: «.. بما كانوا يعتقدون ويعملون»؟.

[١٦] ﴿**و**﴾ كما أننا وصينا الإنسان بعدم الشرك وعبادة الله الذي هو منعم حقيقي عليه كذلك ﴿**وصينا الإنسان بوالديه**﴾ اللذان هما سبب وجوده فكل واحد منهما منعم مجازي على الإنسان، والوصية قول مؤكّد سواء كان في الحياة أو بعد الممات ﴿**إحساناً**﴾ أي أن يعمل الحسن، وقوله سبحانه «إحساناً» من باب المبالغة مثل «زيد عدل»

حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ

فيقدم لهما قطعة من الحسن، أي أحسن الأعمال، حتى كأن العمل ذات الحسن واللازم أن يخص الأم بزيادة الإحسان لزيادة أتعابها في سبيله ﴿**حملته أمه كرهاً**﴾ كارهة الحمل لمشقته في أغلب أوقات الحمل، بل وكثيراً ما في أوله أيضاً حيث الاضطرابات التي تطرأ على المرأة عند الحمل، وحيث الحزن النفسي من أتعاب الحمل والطلق وغير ذلك ﴿**ووضعته**﴾ حين الولادة ﴿**كرهاً**﴾ لمشقات الولادة فهي كارهة ﴿**وحمله وفصاله ثلاثون شهراً**﴾ فإن الحمل ستة أشهر على الأقل، والإرضاع سنتان فالمجموع ثلاثون شهراً، تعاني فيها الأم مشاكل جمة من جهة الولد، هذا بالإضافة إلى المشاكل في المستقبل التي تعانيها بسبب رعاية الولد وعنايتها به، أليس بعد هذه الأتعاب تستحق الأم الإحسان إليها من جانب الأولاد، وهنا ينقسم الأولاد إلى قسمين قسم يعمل بوصيتنا له في الإحسان إلى أبويه، وقسم لا يعمل، كما انقسم الناس أمام الله سبحانه إلى قسمين قسم مؤمن، وقسم كافر، فالقسم المطيع يكون حاله ﴿**حتى إذا بلغ أشده**﴾ استحكم قوته البدنية والعقلية، كأن يُشدّ من التبعثر، وبهذا البلوغ يتمكن عقله من الفهم على وجوب الإحسان إليهما، ويتمكن بدنه من القيام بخدمتهما ﴿**و**﴾ هذه الحالة تمتد حتى ﴿**بلغ أربعين سنة**﴾ حيث القوة البدنية تأخذ بالضعف، وحيث أن الغالب موت الأبوين قبل بلوغ الولد ذلك، فلا حاجة لهما إلى خدمة الولد ﴿**قال**﴾ الإنسان يا ﴿**رب أوزعني**﴾ ألهمني وخذ أمامي حتى لا أنحرف عن الجادة، فإن معنى وزعه: منعه ﴿**أن**

أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦﴾

أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي﴾ فإن قوة الشباب ذهبت احتاج الإنسان إلى الاستعانة بالله أكثر في التوفيق للشكر، ولأن حالة الحدة تأخذ مجراها إلى الإنسان فهو يكون أبعد من الشكر، لأن مشكلات الحياة تستفزه فيكون أقرب إلى الكفران، والشكر للنعمة التي كانت على الوالدين، نوع إطاعة لله وإحسان إليها ﴿و﴾ أوزعني ﴿**أن أعمل صالحاً ترضاه**﴾ فأريد منك يا رب أن توجه قلبي ولساني بالشكر، وجوارحي بالعمل الصالح ﴿و﴾ يا رب أدعوك أن ﴿**أصلح لي في ذريتي**﴾ اجعلهم صالحين، و«في» باعتبار أن الصلاح يقع فيهم، و«لي» باعتبار أن صلاح الذرية عائد إلى الوالدين، سمعة وثواباً، ولعل الإتيان بهذه الجملة هنا للدلالة على أن الإحسان إلى الأبوين يؤثر في إحسان الذرية للإنسان، فصلاح الإنسان يسبب صلاح الذرية، أما ما سلف مني من المخالفة فـ ﴿**إني تبت إليك**﴾ يا رب وأستغفرك عن ذلك ﴿**وإني من المسلمين**﴾ لك أعترف بذلك، ليكون الإنسان أقرب إلى التواضع، فالإنسان الحسن هو الذي عبد الله ولم يشرك به، وأحسن إلى والديه من حين بلوغ أشده إلى حين أربعين سنة، وحيث فقد الوالدين ببلوغ الأربعين دعا لهما، واعترف بفضلهما، وطلب من الله أن يعينه في المستقبل «حالة ضعفه» أن يشكره كما كان يشكره سابقاً، وطلب منه إصلاح ذريته. . وقد صبت هذه الحقيقة في هذا القالب البلاغي الرائع الذي يمشي بالإنسان من حين حمل الأم له إلى

أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُواْ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴿١٧﴾ وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِىٓ أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِى

حين بلوغه أربعين سنة، وإنما لم تختم الآية الإنسان، إلى حين الموت لبقاء فجوة في النفس، كما هي العادة في الألواح الجميلة، ليذهب الخيال كل مذهب.

[١٧] ﴿**أولئك**﴾ الأفراد الذين هذه صنعتهم من العبادة والشكر والدعاء ﴿**الذين نتقبل عنهم أحسن ما عملوا**﴾ أي بقبول أحسن، لا أن أعمالهم الأحسن فقط تقبل، فهو من باب «القلب» مثل: عرضت الناقة على الحوض ﴿**ونتجاوز عن سيئاتهم**﴾ فلا يجازون بها، فهم يكونون ﴿**في أصحاب الجنة**﴾ وقد وعدنا بذلك ﴿**وعد الصدق**﴾ لا خلف فيه بل صادق مطابق للواقع ﴿**الذي كانوا يوعدون**﴾ «الذي» صفة «وعد» فهؤلاء حسناتهم مقبولة وسيئاتهم مغفورة، ومقرهم الجنة.

[١٨] ﴿**و**﴾ بالعكس من هذا القسم من الإنسان المؤمن الشاكر لله ولوالديه القسم الثاني من الإنسان ﴿**الذي قال لوالديه**﴾ لما كبر وعقل ﴿**أف لكما**﴾ فهو كافر بهما، وكافر بعقيدتهما التي هي التوحيد، فقد جمع بين الكفرين، و«أف» كلمة «تضجر» و«إهانة للمخاطب» ﴿**أتعدانني**﴾ - من الوعد - ﴿**أن أخرج**﴾ بعد الموت، من قبري للحساب ﴿**و**﴾ الحال انه ﴿**قد خلت**﴾ مضت ﴿**القرون**﴾ والسنوات الكثيرة ﴿**من قبلي**﴾ فلم يرجع أحد من الأموات، وإنكار البعث مستلزم لإنكار الألوهية وإنكار

وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيْلَكَ ءَامِنْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٨﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿١٩﴾ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟

الرسالة ﴿**وهما يستغيثان الله**﴾ يطلبان من الله هدايته ويقولان له ﴿**ويلك**﴾ السوء لك إذا بقيت على هذه العقيدة ﴿**آمن**﴾ بالله، فهما يدعوان لإيمانه، ويطلبان منه الإيمان ﴿**إن وعد الله**﴾ بالبعث ﴿**حق**﴾ فلا تكفر به، ومجرد الاستبعاد وأنه لماذا لم يحشر السابقون، ليس دليلاً على العدم ﴿**فيقول ما هذا**﴾ الذي تقولانه من البعث ﴿**إلا أساطير الأولين**﴾ جمع أسطورة، وهي الخرافة، التي قالها السابقون بدون برهان ودليل.

[١٩] ﴿**أولئك**﴾ أمثال هؤلاء الذين كفروا بالله وبالبعث، ولم يشكروا والديهم فلم يطيعونهما ﴿**الذين حق**﴾ ثبت ﴿**عليهم القول**﴾ الذي قلناه ووعدنا به بأن من لم يؤمن جزاءه جهنم، فهم داخلون ﴿**في أمم**﴾ جماعات كافرة ﴿**قد خلت**﴾ مضت ﴿**من**﴾ السابقين ﴿**قبلهم من**﴾ كفرة ﴿**الجن والإنس**﴾ ولعل ذكر الجن لأجل التهويل ﴿**إنهم كانوا خاسرين**﴾ خسروا دنياهم وآخرتهم، و«إنهم» إما جملة مستأنفة تحسّريّة، وإما عطف بيان لـ «القول» فمعناه ثبت عليهم أنهم خاسرون.

[٢٠] ﴿**و**﴾ كما أن القسم المؤمن من الناس نوفيهم أعمالهم بإدخالهم الجنة كذلك هؤلاء الكافرين نوفيهم أعمالهم فـ ﴿**لكل**﴾ من القسمين ﴿**درجات مما عملوا**﴾ إذ الأشد إيماناً والأحسن عملاً درجته فوق ذي

وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٠﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا

الإيمان العادي والعمل الصالح العادي، وكذلك بالنسبة إلى الأكفر والكافر والأعصى والعاصي ﴿**وليوفيهم**﴾ الله ﴿**أعمالهم**﴾ التي منها عقائدهم، لأن العقيدة عمل العقل، ومعنى التوفية، إرجاعه إليهم وافياً، بدون زيادة أو نقيصة، ثم هل الجزاء نفس العمل أخذ صورة الآخرة، كما أن الدجاجة نفس البيضة، والشجرة نفس النواة، والولد نفس المني، - ولذا قال سبحانه «أعمالهم» - أو إن الجزاء جزاء العمل، مثل «دينار» يعطيه الإنسان أجرةً للبناء؟ احتمالان، وإن كان ظاهر الأدلة والمؤيدات النقلية والعقلية الأول ﴿**وهم لا يظلمون**﴾ فلا ينقص من حسنة المؤمن، ولا يزاد في سيئة الكافر.

[٢١] ثم إن القرآن مشى بالفريقين «عقيدتهم وعملهم» في الدنيا حتى أوصلهما إلى الآخرة، وقد رأينا المؤمن كيف أنه دخل الجنة فلننظر إلى الكافر وحاله يوم القيامة لنرى ﴿**ويوم يعرض الذين كفروا على النار**﴾ في حال كونهم واقفين على شفيرها، في ذل وهول عظيمين، فيقرأ عليهم وثيقة الإجرام، فيقال لهم ﴿**أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا**﴾ إن البدن والعقل والطاقات وسائر ما للإنسان مما يتمكن من التصرف فيه، طيب منحها الله له، لأجل إسعاده، لكن الكفار يصرفونها لأجل شقائهم، كمن أعطى ولده مالاً لأجل أن يكتسب به لتأمين مستقبله فصرفه في شرب الخمر والزنى والقمار مما أوجب أمراضه الجسدية والعقلية﴿**واستمتعتم بها**﴾بتلك الطيبات حتى نفذت ولذا ليس عندكم الآن شيء لراحتكم وسعادتكم، بل حصلتم بتلك

﴿فَٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ عَذَابَ ٱلۡهُونِ بِمَا كُنتُمۡ تَسۡتَكۡبِرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَبِمَا كُنتُمۡ تَفۡسُقُونَ ۝٢١ وَٱذۡكُرۡ أَخَا عَادٍ إِذۡ أَنذَرَ

الطيبات، هذه النار والعذاب لأنفسكم، إذن ﴿**فاليوم تجزون عذاب الهون**﴾ يؤلم جسدكم بالنار، وأنفسكم بالإهانة، لأنكم صرفتم جسدكم وأنفسكم في الملذات الضارة ﴿**بـ**﴾ سبب ﴿**ما كنتم تستكبرون في الأرض بغير الحق**﴾ فالهوان لذلك الاستكبار ﴿**وبـ**﴾ سبب ﴿**ما كنتم تفسقون**﴾ وتأتون بالمعاصي، فالنار لأجل تلك المعاصي الجسدية، والسرّ أن كل طاقة قابلة لأن تصرف في الفساد وقابلة لأن تصرف في الصلاح، فالنفط يمكن أن يصرف في طبخ الطعام، وفي إحراق الدار والأثاث، والماء يمكن أن يصرف في الزراعة والشرب والنظافة وفي غرق الإنسان به في بحر أو نهر أو نحوهما، إلى غير ذلك، والطاقات التي منحها الله للإنسان كذلك صالحة لصرفها في شراء الجنة والعزة الأبدية، وصالحة لصرفها في شراء النار والهوان الأبدي، وحيث صرفها الكافر في غير المصرف الصحيح كان جزاءه عذاب الهون، ولعل قوله سبحانه «بغير الحق» لأن إرادة الكبر قد تكون لأجل إصلاح الناس ومنع المفسدين عن الفساد، ولذا فالقيد إخراجي، لا توضيحي.

[٢٢] ﴿**و**﴾ ليعتبر هؤلاء الكفار بقصص التاريخ، حتى يعلموا أن جزاء تكذيب أنبياء الله، والانحراف عن منهجه سبحانه يوجب خسران الدنيا، أيضاً، بالإضافة إلى خسران الآخرة، التي ذكر في الآية المتقدمة فـ ﴿**اذكر**﴾ لهم يا رسول الله ﴿**أخا**﴾ قبيلة ﴿**عاد**﴾ القبيلة الكافرة بالله واليوم الآخر وأخوهم هو «هود» النبي عليه السلام ﴿**إذ أنذر**

قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢١﴾

قومه بالأحقاف﴾ جمع حقف، وهو رمل مستطيل مرتفع عن الأرض فيه انحناء، وكانت قبيلة عاد يسكنون في «اليمن» في أراض رملية، وكانت لهم مدن في تلك الأراضي **﴿وقد خلت﴾** أي مضت وسبقت **﴿النذر﴾** جمع نذير، أي الأنبياء **﴿من بين يديه﴾** قبل هود عليه السلام **﴿ومن خلفه﴾** بعد هود عليه السلام ـ هذه جملة معترضة ـ لإفادة أن النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ليس جديداً بل الأنبياء كانوا مستمرين، قبل هود وبعد هود، وكان هود أيضاً نبياً، وكلهم وصّوا أممهم **﴿ألا تعبدوا إلا الله﴾** فإن لم تعبدوا الله، أو عبدتم غير الله فـ **﴿إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم﴾** في هوله، يأخذكم ذلك العذاب في الدنيا قبل الآخرة، وهنا سؤال هو أنه لماذا عبادة غير الله، أو عدم عبادة الله، توجب العذاب، فهل الله يحتاج إلى العبادة حتى يعذب غير العابد؟ والجواب أن الله ليس محتاج، وإنما طبيعة عبادة غير الله تنتهي إلى العذاب، كطبيعة الحنظل التي تنتهي إلى المرارة، وطبيعة بيضة الحية التي تنتهي إلى السم، وهنا سؤال آخر: هو أنه هل هذه الطبيعة بجعل الله، أو خارجة عن إرادة الله، فإن كانت بجعله سبحانه فلماذا جعلوا هكذا؟ وإن كانت خارجة عن إرادته، فذلك مما دل العقل على بطلانه، إذ الله قادر على كل شيء؟ والجواب: هي بجعل الله، وإنما جعل سبحانه هكذا، لأن الماهيات تتطلب الفيض، وعدم الفيض بخل لا يليق بمقامه سبحانه، وتفصيل المسألة في الكتب الفلسفية الإسلامية.

﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَأۡفِكَنَا عَنۡ ءَالِهَتِنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ إِنَّمَا ٱلۡعِلۡمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا رَأَوۡهُ عَارِضٗا مُّسۡتَقۡبِلَ أَوۡدِيَتِهِمۡ قَالُواْ

---

[٢٣] ﴿**قالوا أجئتنا**﴾ يا هود ﴿**لتأفكنا**﴾ لتصرفنا ﴿**عن**﴾ عبادة ﴿**آلهتنا**﴾ فإنا لا نؤمن بك، فجوابهم لهود عليه السلام لم يكن تقليداً بحتاً، وضلالاً، بدون حجة وبرهان ـ كما هو شأن كل جاهل معاند ـ ﴿**فأتنا بما تعدنا**﴾ من العذاب على الشرك ﴿**إن كنت من الصادقين**﴾ في كلامك وقد قالوا ذلك له على سبيل الاستهزاء.

[٢٤] ﴿**قال**﴾ هود عليه السلام ﴿**إنما العلم**﴾ في وقت عذابكم ﴿**عند الله**﴾ فليس الأمر بيدي حتى أطلب الآن العذاب ﴿**و**﴾ أما أنا فشأني أن ﴿**أبلغكم ما أرسلت به**﴾ وقد فعلت ذلك ﴿**ولكني أراكم قوماً تجهلون**﴾ لأنكم تتركون الحجة التي أتيت بها إليكم وتأخذون بالعناد، ولا بد أن يأتي يوم ينزل عليكم العذاب حيث لا ينفع الندم.

[٢٥] حتى إذا بلغوا كل مبلغ من العتو وأخبرهم هود بوقت عذاب الله، وكانت بلادهم خصبة فأصابهم القحط، ولم ينفعهم ذلك أيضاً في رجوعهم، فلا الحجة أفادت، ولا أرضاهم الذي منّ الله به عليهم، ولا القحط الذي أصابهم، فاستحقوا العقاب ﴿**فلما رأوه**﴾ رأوا العذاب وكان ريحاً سوداء لاحت لهم من الأفق ﴿**عارضاً**﴾ أي شيئاً كالسحاب ذي المطر عرض في أفق السماء ﴿**مستقبل**﴾ متوجهة ﴿**أوديتهم**﴾ جمع وادي، الصحراء التي تسيل فيها السيول ﴿**قالوا**﴾ جهلاً منهم بحقيقة

هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُواْ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٦﴾ وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ

العارض ﴿**هذا عارض**﴾ سحاب ﴿**ممطرنا**﴾ فنخرج من القحط وأجابهم هود عليه السلام كلا ﴿**بل هو ما**﴾ العذاب الذي ﴿**استعجلتم به**﴾ طلبتموه وقلتم: فأتنا بما تعدنا، هي ﴿**ريح فيها عذاب أليم**﴾ مؤلم ولعل رياح نخوتهم تبدلت إلى رياح العذاب، كما أن أنهار فرعون التي كان يفتخر بها في قوله «وهذه الأنهار تجري من تحتي» وصارت سبباً لادعائه الألوهية، تجمعت فصارت سبباً لغرقه وهلاكه، فإن العذاب من جنس العصيان.

[٢٦] ﴿**تدمر**﴾ تهلك هذه الرياح ﴿**كل شيء**﴾ من المباني والأشجار والإنسان والحيوان ﴿**بأمر ربها**﴾ فلا يمكن أن يقف أمامها شيء ﴿**فـ**﴾ جاءتهم وأهلكتهم و﴿**أصبحوا لا يرى إلا مساكنهم**﴾ أما في المساكن ومن في المساكن فقد هلكت، فإذا حضر إنسان تلك البلاد لم يرَ إلا آثار بيوتهم، وإنما بقيت للعبرة ﴿**كذلك نجزي القوم المجرمين**﴾ وهل العذاب كان خارقاً أو كان عادياً؟ احتمالان: وعلى أي حال فالعذاب عذاب كيفما كان قال سبحانه (قُلْ هُوَ القَادِرُ عَلَى أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَاباً مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ)(1).

[٢٧] ﴿**ولقد مكناهم**﴾ أي قوم هود عليه السلام ﴿**فيما إن**﴾ قد ﴿**مكناكم فيه**﴾ من

---

(١) الأنعام: ٦٦.

وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٢٧﴾

القوى البدنية والعقلية، والإمكانات الكونية، فأنتم وإياهم سواء في إعطاء الله سبحانه نعمه ﴿**وجعلنا لهم سمعاً**﴾ يسمعون به آيات الله ﴿**وأبصاراً**﴾ يرون بها آثار الله ﴿**وأفئدة**﴾ يعرفون بها المعقولات ويميزون بها بين الحق والباطل، وقدم السمع، لأن السمع غالباً أكثر دركاً من البصر إنه يسمع الأخبار من الأزمنة والأمكنة البعيدة بخلاف البصر الذي لا يرى إلا في شعاع محدود، والأفئدة تتأخر في الإدراك عن السمع والبصر، لأنهما بابان إلى الفؤاد ﴿**فما أغنى عنهم**﴾ ما أفاد في الدفاع عنهم ﴿**سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم**﴾ لأنهم لم يستعملوها فيما يفيدهم، وإنما لم تنفعهم في إنقاذهم من العذاب ﴿**من شيء**﴾ من الإغناء أي ولو إغناءً قليلاً ﴿**إذ كانوا يجحدون**﴾ ينكرون ﴿**بـ**﴾ ما يرونه ويسمعونه ويفهمونه من ﴿**آيات الله**﴾ اللفظية، والكونية ﴿**وحاق**﴾ نزل﴿**بهم ما كانوا به يستهزءون**﴾ أي استهزائهم، فإن استهزاءهم صار عذاباً منزل بهم، وقد سبق أن عمل الإنسان كالبذر ينمو وينمو وينمو حتى يصل إلى ثمرة، فاحذروا أيها الناس أن ينزل بكم العذاب كما نزل بهم، فإنه بعد رسول الله ﷺ، وإن لم يكن عذاب خارق، لكن لا شك أنه تكون عذابات متناسبة والأعمال، فإن لكل انحراف آثار سيئة، كما هو واضح عقلاً ودل عليه الدليل الشرعي.

[٢٨] واعلموا يا أيها البشر أن العذاب لم يكن خاصاً بقوم هود بل كل

وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ الْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٢٨) فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٢٩)

مخالف لا بد وأن ينال عذابه ﴿**ولقد أهلكنا ما حولكم**﴾ ما في أطرافكم يا أهل مكة ﴿**من القرى**﴾ كقرى قوم هود، وقوم صالح، وقوم لوط، وغيرها ﴿**و**﴾ قد ﴿**صرفنا الآيات**﴾ التي تنبههم من الرخاء والبلاء والإعجاز، والتصريف جعل الشيء من حالة إلى حالة، فسبب التنبيه لهم صار عدة مرات ﴿**لعلهم يرجعون**﴾ لكنهم لم يرجعوا عن غيهم فأخذهم العذاب، حتى يروا جزاء أعمالهم، وحتى يعتبر بهم البشر الآتون بعدهم إنهم إذا خالفوا كان مصيرهم مصير أولئك.

[٢٩] ﴿**فـ**﴾ لو كانت تلك الأصنام آلهة، كما كان يزعم قوم هود عليه السلام ﴿**لولا**﴾ لماذا ﴿**نصرهم الذين**﴾ أي الأصنام، وجيء لهم بضمير العاقل، لأن عبادها كانوا يزعمون أن تلك الأصنام عقلاء ﴿**اتخذوا من دون الله قرباناً**﴾ أي يتقربون بهم إلى الله، حيث كان الكفار يقولون «هؤلاء شفعاؤنا عند الله» ﴿**آلهة**﴾ مفعول «اتخذوا» ﴿**بل ضلوا**﴾ وغابوا تلك الأصنام ﴿**عنهم**﴾ عن نصرة أولئك القوم ولذا لم ينصروهم ساعة نزول عذاب الله ﴿**وذلك**﴾ الأثر أي العذاب، عاقبة ﴿**إفكهم**﴾ وكذبهم، فإن الأصنام لم ينصروهم، بل هي تلك الأصنام صارت سبب بلائهم وعذابهم ﴿**و**﴾ ذلك سبب افترائهم وقوله سبحانه ﴿**ما كانوا يفترون**﴾ يؤول بالمصدر، أي افتراءهم، فـ «إفكهم» أي عدولهم

وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٣٠﴾ قَالُواْ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ

عن الحق، و«افتراءهم» أي لجوءهم إلى الباطل فإن كل مبطل له عملان انصرافه عن الحق، واتخاذه الباطل، لا يقال كل مؤمن يقتل كالأنبياء والحسين عليه السلام وغيرهم، أيضاً لا ينصرهم الله تعالى لإنقاذهم من أيدي الظلمة، لأنه يقال أولئك عذبوا بالعذاب السماوي ولو كانت آلهتهم مربوطة بالسماء لم يعذبوا، بخلاف الصالحين فإنهم قتلوا بأيدي الأشرار.

[٣٠] ﴿**و**﴾ كيف يكفر أهل مكة بك يا رسول الله، وقد تمت عليهم الحجة، وإنهم علموا بإيمان الجن بك، وقد علم الكفار إيمان الجن، بواسطة كهنتهم، وهذه حجة أخرى عليهم ﴿**إذ صرفنا إليك نفراً**﴾ وجهنا إليك جماعة ﴿**من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه**﴾ حضروا قراءة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم للقرآن ﴿**قالوا**﴾ قال بعضهم لبعض ﴿**أنصتوا**﴾ اسكتوا حتى نفهم القرآن فهماً كاملاً ﴿**فلما قضي**﴾ انتهى الرسول من قراءته ﴿**ولوا**﴾ رجعوا ﴿**إلى قومهم منذرين**﴾ لهم بأنهم إن لم يؤمنوا بالقرآن حاق بهم العذاب.

[٣١] ﴿**قالوا يا قومنا إنا سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى**﴾ عليه السلام ولعل أولئك الجن ما كانوا مؤمنين بعيسى عليه السلام، لأن في الجن، كما في الإنس أديان ومذاهب، أو لأن كتاب عيسى عليه السلام متمم لكتاب موسى أو لأن اليهود كانوا قريبين من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فيتمكن الكفار من الاستفسار منهم هل هناك جن مؤمنون، فذكر موسى عليه السلام من هذا الباب، في

مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣١﴾ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ

حال كون ذلك الكتاب ﴿**مصدقاً لما بين يديه**﴾ لما قبله من الكتب المنزلة ﴿**يهدي إلى الحق**﴾ الحق هو المطابقة للواقع ﴿**وإلى طريق مستقيم**﴾ فإن الوصول إلى الهدف «الحق» قد يكون بطريق مستقيم، وقد يكون بطريق غير مستقيم.

[٣٢] ﴿**يا قومنا أجيبوا داعي الله**﴾ الداعي الذي هو رسول الله ﷺ، والإضافة تشريفيّة ﴿**وآمنوا به**﴾ الإجابة أن يذهب الإنسان ليسمع كلام المنادي، والإيمان هو قبول كلامه، فإذا فعلتم ذلك ﴿**يغفر**﴾ الله ﴿**لكم من ذنوبكم**﴾ بعضها، لأن حقوق الناس لا تسقط بالإيمان، إلا بقدر خاص مذكور في الفقه، فإذا كان الكافر مديوناً لزيد في شراء دار وأنكر ذلك، وآمن لم يجبه الإسلام، إلى غير ذلك ﴿**ويجركم**﴾ يحفظكم ﴿**من عذاب أليم**﴾ مؤلم، في الدنيا وفي الآخرة إذ خلاف أوامر الله يوجب آلام الدنيا أيضاً.

[٣٣] ﴿**و**﴾ لا يظن ظان أنه يمكنه الهرب من عذاب الله، إذا لم يؤمن بالله فإنه ﴿**من لا يجب داعي الله**﴾ ولم يؤمن به ﴿**فليس بمعجز**﴾ لا يعجز الله بأن يهرب منه، ولا يتمكن الله عليه فإنه لا يمكن الفرار من حكومته ﴿**في الأرض**﴾ أي مكان من الأرض كأن شمله سلطان الله، فإن المجرم بالنسبة إلى الحكومة لا يعجزها في مدينة الحكومة،

وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٣﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٤﴾

وتعجز الحكومة في سائر الأرض، بخلاف المخالفين لله فإنهم لا يعجزون الله في أي مكان من الأرض ﴿و﴾ لا يظن المخالف لله، أن صنمه ينقذه من بأس الله إذ ﴿**ليس له**﴾ لذلك المخالف ﴿**من دونه**﴾ غير الله ﴿**أولياء**﴾ ينصرونه من بأسه سبحانه ﴿**أولئك**﴾ المخالفون لله ﴿**في ضلال مبين**﴾ واضح، لأنهم لا دليل لهم، ثم هم في معرض الهلاك والعذاب ـ وهذا كله كلام الجن ـ .

[٣٤] ثم إن هؤلاء الكفار، بالإضافة إلى أنه لا برهان لهم على كفرهم، في معرض خطر عذاب الآخرة، وإنكارهم للبعث لا يستند إلى حجة ودليل، فهم ينكرون الله أو يشركون به بدون دليل، وينكرون الرسول بدون دليل، وينكرون البعث بدون دليل ﴿**أولم يروا**﴾ ألا يعلموا ﴿**أن الله الذي خلق السماوات والأرض ولم يعي**﴾ لم يعجز ﴿**بخلقهن**﴾ حتى لا يقولوا انه خلق أولاً، لكنه عجز بعد ذلك فلا يقدر على الإعادة، والدليل على عدم العجز، التلازم بين الخلق واستمرار القدرة ﴿**بقادر على أن يحي الموتى**﴾ لأن الإعادة كالابتداء، فالقادر على بناء دار قادر على إعادتها بعد الخراب ـ مثلاً ـ ﴿**بلى**﴾ نعم ﴿**إنه**﴾ سبحانه ﴿**على كل شيء قدير**﴾ وهذه الجملة لتأكيد الكلام في قبال أن الكفار كانوا يؤكدون عدم البعث، لأنه ليس بممكن في نظرهم، ثم إن البعث

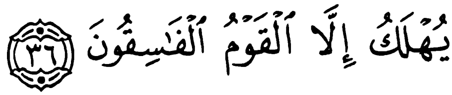
وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَاۚ قَالَ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٥﴾ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْۚ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ

يتوقف على علم الله بذوات الإنسان المبعثرة في الأرض وبقدرته على جمعها ثانياً، والله عالم قادر فلماذا الامتناع؟.

[٣٥] إن الكفار كانوا يقولون في الدنيا أن البعث والجنة والنار ليس بحق، لكنهم يعترفون في الآخرة بكل ذلك ﴿**ويوم يعرض الذين كفروا على النار**﴾ يؤتى بهم على شفير جهنم مثل «عرضت الناقة على الحوض» ويقال لهم ﴿**أليس هذا**﴾ الذي تشاهدونه من العذاب ﴿**بالحق**﴾؟ فهل هذا كذب كما كنتم تقولون في دار الدنيا؟ ﴿**قالوا بلى**﴾ إنه حق ﴿**وربنا**﴾ قسماً بالله، فهم يعترفون بالله، وبالبعث، حيث لا ينفعهم الاعتراف ﴿**قال**﴾ الملك لهم إذاً ﴿**فذوقوا العذاب**﴾ بكل أعضاء جسمكم ﴿**بـ**﴾ سبب ﴿**ما كنتم تكفرون**﴾ في الدنيا، وهذا إهانة وتوبيخ.

[٣٦] وإذا تممت عليهم الحجة يا رسول الله ولم ينفعهم ﴿**فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل**﴾ أولوا العزم هم الرسل الذين كانت عزيمتهم في الهداية والإرشاد والصبر على المحن أكثر من غيرهم، وهم كما في رواية نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد عليهم السلام ﴿**ولا تستعجل**﴾ بطلب العذاب ﴿**لهم**﴾ وذلك لأن بعضهم يؤمنون وفي أصلاب بعضهم مؤمنون، إذا عذبوا وماتوا، لم يخرج أولئك المؤمنون إلى الوجود، بالإضافة إلى أنه لا يهم بقائه طويلاً فـ ﴿**كأنهم يوم**

يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭ بَلَٰغٌۚ فَهَلْ


يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٣٦﴾

يرون ما يوعدون﴾ من العذاب **﴿لم يلبثوا إلا ساعة من نهار﴾** فإن الماضي مهما كان طويلاً لا يرى إلا قليلاً، أرأيت من عمّر مائة سنة إذا تكلم يقول ذهب عمرنا كأنه لمح بصر وقوله «نهار» كناية عن أنهم أبصروا لكنهم تعاموا، وهذا القرآن **﴿بلاغ﴾** لهم، وكفاية لمن أراد الرجوع إلى الحق، فإذا خرجوا عن الطاعة بعد البلاغ فإنهم يضرون أنفسهم **﴿فهل يهلك إلا القوم الفاسقون﴾**؟ والفسق هو الخروج عن الطاعة، ولذا يطلق حتى على الكفر.



سورة محمد

مدنية/ آياتها (٣٩)

سميت بهذا الاسم وبـ «القتال» لاشتمالها على كلا الاسمين، وهي كسائر السور المدنية تعالج قضايا الشريعة. ولما ختمت سورة الأحقاف بتهديد الكفار بعذاب الآخرة، افتتحت هذه السورة بتهديدهم بعذاب الدنيا وضلال أعمالهم، فلا تنفعهم في نجاتهم من أيدي المؤمنين.



[١] ﴿**بسم الله الرحمن الرحيم**﴾ نبتدئ باسمه تعالى، ليبارك لنا في أمورنا، فإن اسم الله بركة، توجب الثبات والدوام، فإنه وحده هو الدائم، فكلما ارتبط به كان له نسبية الدوام «الرحمن الرحيم» فإن الرحم إعطاء بدون استحقاق، والله يعطي الإنسان خلقه ووجوده بدون استحقاق، ثم يعطيه حوائجه بدون استحقاق أيضاً.

ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴿٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلْبَٰطِلَ

[٢] ﴿**الذين كفروا**﴾ بإنكار الله أو التشريك معه وإنكار أنبيائه وأوصيائهم وإنكار المعاد ﴿**وصدوا**﴾ منعوا ﴿**عن سبيل الله**﴾ عن طريقه بمنع الناس عن الهداية، فهم أجرموا مرة بكفرهم ومرة بمنع الآخرين عن الإيمان ﴿**أضل**﴾ الله أي أحبط ﴿**أعمالهم**﴾ التي كانوا يظنون أنها تنفعهم كالصدقة وإقراء الضيف ونحوهما.

[٣] ﴿**والذين آمنوا وعملوا الصالحات**﴾ أي الصفات الصالحة، فإن الإيمان بدون العمل الصالح لا ينجي كما أن العمل الصالح بدون الإيمان لا ينفع وحيث انه كان مورد توهم أن يقول أهل الكتاب نحن أيضاً مؤمنون عاملون بالصالحات، خصص تعالى بقوله ﴿**وآمنوا بما نزل على محمد**﴾ ﷺ ومن الواضح أن الإيمان بالقرآن يلازم الإيمان برسول الله ﷺ نفسه ﴿**وهو**﴾ أي ما أنزل على محمد ﷺ ﴿**الحق**﴾ النازل ﴿**من ربهم**﴾ من رب المؤمنين ﴿**كفّر**﴾ الله، أي ستر وأبطل ﴿**عنهم سيئاتهم**﴾ السابقة على إيمانهم ﴿**وأصلح**﴾ الله ﴿**بالهم**﴾ أي حالهم وشأنهم بأن وفقهم وهداهم لأن ينظموا أمورهم بحيث يكون حالهم في الدنيا والآخرة حسناً، فإن العمل بمنهاج الإسلام يصلح شؤون الإنسان.

[٤] ﴿**ذلك**﴾ الذي تقدم من ضلال أعمال الكفار، وكفران سيئات المؤمنين وإصلاح أمرهم ﴿**بـ**﴾ سبب ﴿**أن الذين كفروا اتبعوا الباطل**﴾ والباطل

وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ ﴿٤﴾ فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّواْ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَاۚ

كالمرض يبطل أثر الأطعمة الطيبة ويفسد الأعضاء الصحيحة ﴿**وأن الذين آمنوا اتبعوا الحق**﴾ والإنسان الصحيح الجسم حتى إذا أصاب جسمه مرض طفيف دفعه الجسم واستعاد صحته، فالسيئة مكفّرة في المؤمن ﴿**من ربهم**﴾ تأكيد لبطلان قولهم أن الرسول ﷺ جاء بالقرآن من عند نفسه ﴿**كذلك**﴾ الذي ذكر من أن الكفار اتبعوا الباطل، وأن المؤمنين اتبعوا الحق ﴿**يضرب الله للناس أمثالهم**﴾ أي الأمثال النافعة لهم، فالحق مثل المؤمن والباطل مثل الكافر.

[٥] وإذ ظهر أن الكفار معاندون ﴿**فإذا لقيتم**﴾ أيها المؤمنون ﴿**الذين كفروا**﴾ في حالة الحرب ﴿**فضرب الرقاب**﴾ اضربوا رقابهم ضرباً واقتلوهم ﴿**حتى إذا أثخنتموهم**﴾ أي أكثرتم من قتلهم والجرح فيهم، حتى استسلموا، يقال فلان مثخن أي ثقيل للحمل الذي عليه، وجماعة الكفار إذا كثر فيهم القتل والجرح، يكونون كالإنسان الثقيل الذي لا يتمكن من الحركة والقتال ﴿**فشدوا الوثاق**﴾ الوثاق ما يوثق به من الحبل ونحوه أي شدوهم بالوثاق، كناية عن أسرهم، وبعد ذلك ﴿**فإما**﴾ تمنون عليهم ﴿**منّاً بعد**﴾ بإطلاق سراحهم بدون أخذ الفدية ﴿**وإما**﴾ تفدون وتأخذون منهم ﴿**فداء**﴾ مقابل إطلاق سراحهم، وإنما تفعلون ذلك ﴿**حتى تضع الحرب أوزارها**﴾ الوزر الثقل، أي أثقالها،

ذَٰلِكَ ۖ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿٥﴾ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٦﴾ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴿٧﴾

فإن للحرب أثقالاً كالسلاح ونحوها، وإضافتها إلى الحرب مجازية، وظاهر الآية أن المراد بالإثخان وشد الوثاق إنما هو لأجل انتهاء الحرب، وكأنه جواب سؤال مقدر هو لماذا قتل الناس ولماذا أسرهم؟ والجواب حتى لا تكون حرباً ﴿**ذلك**﴾ الذي ذكرناه هو التكليف ﴿**ولو يشاء الله لانتصر منهم**﴾ لغلب المسلمين على الكفار بدون القتال، لأنه سبحانه قادر على كل شيء ﴿**ولكن**﴾ لم يستأصل الكفار ولم يبدهم ﴿**ليبلوا بعضكم ببعض**﴾ يمتحن المؤمنين بقتالهم فيثيبهم الجنة، والكافرين بقتالهم للمؤمنين فيجزيهم بالنار ﴿**والذين قتلوا في سبيل الله**﴾ فلا تظنوا أنه تلف وذهب، كما هو ظن الذين لا يعتقدون باليوم الآخر، ولذا يفرون من الجهاد ﴿**فلن يضل**﴾ الله، ولن يضيع ﴿**أعمالهم**﴾ الصالحة، فهم أحياء ويرون جزاء أعمالهم الحسنة.

[٦] ﴿**سيهديهم**﴾ الله، إلى الجنة، وإنما جاء «بالسين» لأن الجنة بعد البرزخ ﴿**ويصلح بالهم**﴾ أي شأنهم في البرزخ، فإنهم أحياء عند ربهم يرزقون.

[٧] ﴿**ويدخلهم الجنة**﴾ في حال كونه سبحانه ﴿**عرفها لهم**﴾ قبل ذلك، ومن المعلوم أن ترقب الخير يوجب سرور النفس.

[٨] ولا يظن المؤمنون أنهم إذا حضروا القتال بالأهبة والاستعداد يتركهم

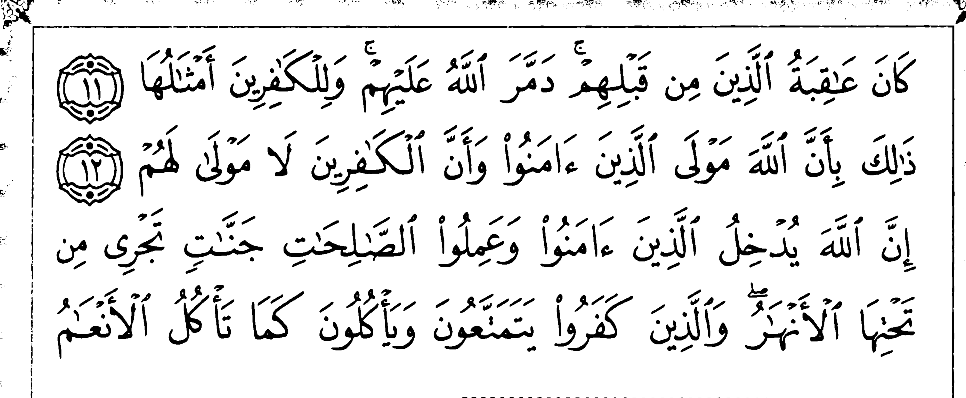
يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعۡسٗا لَّهُمۡ وَأَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ ﴿٩﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحۡبَطَ أَعۡمَٰلَهُمۡ ﴿١٠﴾ أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ

الله، حتى يتغلب عليهم الكفار بل ﴿**يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله**﴾ بنصرة دينه ونبيه ونصرة ما جاء به النبي ﷺ ﴿**ينصركم**﴾ الله على عدوكم ﴿**ويثبت أقدامكم**﴾ كالإنسان الواقف على أرض صلبة، لا إن الله ينصركم أولاً، ثم يترككم وشأنكم بل يبقى معكم يرشدكم في سبيل الحياة، ولا يخفى أن «نصرة الله» غيبي، وبالأسباب الظاهرة أيضاً وهي أن الإنسان إذا علم أنه مع الله استبسل في القتال وارتفعت معنوياته، مما توجب نصرته على الكفار الفاقدين للمعنويات.

[٩] ﴿**والذين كفروا فتعساً**﴾ انحطاطاً ﴿**لهم**﴾ أي فينحطون انحطاطاً، في الدنيا بالمغلوبية ﴿**و**﴾ في الآخرة بأنه سبحانه ﴿**أضل أعمالهم**﴾ الصالحة، فلا يثابون عليها.

[١٠] و ﴿**ذلك**﴾ التعس ﴿**بـ**﴾ سبب ﴿**أنهم**﴾ الكافرين ﴿**كرهوا ما أنزل الله**﴾ تكبراً وعناداً بعد أن تبين لهم أنه الحق ﴿**فأحبط**﴾ الله أبطل ﴿**أعمالهم**﴾ الصالحة، فلا لهم دنيا سعيدة والتي تعبوا لأجلها، ولا لهم آخرة مريحة حيث كفروا بها.

[١١] ثم اللازم على هؤلاء الكفار، إن لم يقبلوا بالحجة والدليل، أن يخافوا سوء العاقبة كما عاقبنا الكفار من الأمم السابقة ﴿**أفلم يسيروا في الأرض**﴾ يسافروا إلى اليمن وإلى الشام وإلى غيرهما ﴿**فينظروا كيف**



كان عاقبة الذين من قبلهم﴾ من الأمم الذين كذبوا أنبياء الله عليهم السلام فقد ﴿دمر الله عليهم﴾ أبادهم وأفناهم، وآثارهم موجودة، كما في اليمن من آثار قوم عاد، وفي قرب الشام من آثار قوم لوط، إلى غيرهما من سائر الآثار للأمم البائدة، ولو لم يكونوا بائدين، لبقيت مدنهم وأحفادهم، لكنهم سادوا، فعصوا، فبادوا ﴿وللكافرين﴾ بك يا رسول الله ﴿أمثالها﴾ أمثال تلك العقابات التي أنزلت بالأمم السابقة.

[١٢] وإنما نصر الله المؤمنين وأباد الكافرين ﴿ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا﴾ وليّهم ﴿وأن الكافرين لا مولى لهم﴾ حتى يدفع عنهم العذاب، بل المولى الحقيقي لهم وهو الله عدوهم ومعذبهم.

[١٣] وحيث ﴿إن الله﴾ مولى المؤمنين فإنه ﴿يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات﴾ الجنة الحديقة سميت جنة لاستتار أرضها بالأشجار ﴿تجري من تحتها الأنهار﴾ أي من تحت أشجارها، وهذا جزاء إيمانهم وعملهم الصالح ﴿و﴾ أما ﴿الذين كفروا﴾ فلا عقيدة لهم ولا عمل صالح بل ﴿يتمتعون﴾ في الدنيا بلا ملاحظة الهدف وبدون جعل دنياهم وسيلة أخرتهم فإن المؤمن يتزود والكافر يتمتع ﴿ويأكلون كما تأكل الأنعام﴾ بلا ملاحظة قبل الأكل ولا ملاحظة بعد الأكل، فإنهم يأكلون ما يحصلونه من حلال أو حرام ولا يلاحظون في أكلهم هدف

وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴿١٣﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِىَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَٰهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴿١٤﴾ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم ﴿١٥﴾

الطاعة والعبادة، تشبيهاً بالأنعام التي لا تلاحظ شيئاً بخلاف العاقل الذي يلاحظ ألا يكون المال سرقة ونحوها قبلاً وألا يكون ضاراً بعد الأكل ﴿**و**﴾ حيث أنهم لم يلاحظوا الهدف فـ ﴿**النار مثوى لهم**﴾ أي مرجعهم ومنزلهم.

[١٤] ﴿**و**﴾ إذا ترى يا رسول الله أن أهل مكة أخرجوك بأن أجبروك على الهروب فلا تحزن فإنا سننتقم منهم إذ ﴿**كأين**﴾ أي كثير ﴿**من قرية**﴾ مدينة، فإن القرية تطلق على كل مدينة ﴿**هي أشد قوة من قريتك**﴾ من حيث المال والسلاح والرجال والعمران ﴿**التي أخرجتك أهلكناهم**﴾ بأنواع العذاب لما أخرجوا أنبيائهم وعتوا عن أمرنا ﴿**فلا ناصر لهم**﴾ حين أخرجوا أنبيائهم، حتى يدفع عنهم العذاب.

[١٥] كما أن اللازم ألا يغتم المؤمنين الذين أخرجهم أهل مكة فإنهم على بينة من ربهم وهذا أكبر تسلي لهم ﴿**أفمن كان على بينة**﴾ حجة واضحة في عقيدته وفي سلوكه ﴿**من ربه**﴾ فإن الحجة إذا كانت من قبله سبحانه كانت قطعية الفائدة والصحة ﴿**كمن زين له سوء عمله**﴾ زينه الشيطان والهوى له، وإن كان عقله يدل على بطلانه مثل كفار مكة الذين أخرجوا المؤمنين ﴿**واتبعوا أهواءهم**﴾؟ ليس يتساوى هذا بذاك فلا يحزن المؤمنون لما أصابهم بعد أن علموا أنهم على حق وأن أعدائهم على باطل.

مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن

[١٦] إنهم أخرجوا الرسول والمؤمنين من مكة، لكن الله أعد لهم المدينة المنورة في الدنيا، والجنة في الآخرة والجنة خير من منازلهم في مكة ﴿**مثل الجنة التي وعد المتقون**﴾ مثل مدينة ليست أمثال مدن الدنيا، فإن مدن الدنيا لا يوجد فيها الشيء المطلوب، وإن وجد فيها فهو قليل أو فاسد أما الجنة فإن ﴿**فيها أنهار من ماء غير آسن**﴾ غير متغير الطعم والريح، وفيه تعريض بمكة حيث أن مياهها قليلة وآسنة لأنها تبقى في الحباب والأحواض فتتغير! وهذا وما بعده شبه تسلية للمؤمنين الذين أخرجوا من مكة ﴿**وأنهار من لبن لم يتغير طعمه**﴾ بخلاف لبن الدنيا فإنه إذا بقي تغير طعمه ﴿**وأنهار من خمر لذة**﴾ لذيذة ﴿**للشاربين**﴾ لا فيها سوء مذاق ولا فيها سكر بحيث تنغض لذة الشارب بخلاف خمر الدنيا.

﴿**وأنهار من عسل مصفى**﴾ لا يخلطه الشمع وفضلات النحل ﴿**ولهم**﴾ للمؤمنين ﴿**فيها**﴾ في الجنة ﴿**من كل الثمرات**﴾ لا كمكة لا ثمار فيها، وحيث أن المؤمنين حرموا من ما كان عندهم في مكة من الماء والشراب والعسل واللبن والثمار القليلة، ولم يحرموا من زوجاتهم بل كن معهم، لم يذكر في الآية الكريمة الحور ﴿**و**﴾ ما ذكر مما لهم في الجنة بدل عما حرموه، ثم أن المؤمنين حرموا عطف وحنان الكفار الذين كانوا يعطفون عليهم قبل الإسلام، إذ صاروا لهم أعداء، عوض الله لهم عن ذلك برضاه وعطفه فقال سبحانه مبشراً لهم ﴿**مغفرة من**

رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِي ٱلنَّارِ وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴿١٥﴾ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُواْ مِنْ عِندِكَ قَالُواْ لِلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ

ربهم﴾ وهذه لذة معنوية حيث يعلمون أن الله غفر لهم ورضي عنهم، فهل هذه النعم التي حصل عليها المؤمنون تتساوى مع ما حصل عليها الكفار من النار والماء الحار؟ وهل هؤلاء المؤمنون **﴿كمن هو خالد في النار﴾** لهم حرق النار، وحزن أنهم يعلمون أنهم خالدون **﴿و﴾** إذا عطشوا وطلبوا الماء **﴿سقوا ماءً حميماً﴾** أي حاراً **﴿فقطع﴾** ذلك الماء من فرط الحرارة **﴿أمعاءهم﴾**؟ والآية، وإن كان مساقها في المؤمنين والكافرين من أهل مكة، كما ذكرنا، إلى أنها عامة لكل مؤمن وكافر ـ كما هو واضح ـ.

[١٧] **﴿و﴾** إذا تبين أهوال الكفار في الآخرة فليعلم المنافقون الذين ظاهرهم معك يا رسول الله وباطنهم على خلافك، أنهم أيضاً لهم مصير الكفار، وعلامتهم أنهم لا يعون كلامك ولا يهتمون بأمرك فإن **﴿منهم من يستمع إليك﴾** بعد أن يحضر مجلسك في ضمن المؤمنين، لكن ليس قلبه عندك **﴿حتى إذا خرجوا من عندك قالوا للذين أوتوا العلم﴾** من المؤمنين، حيث أن المؤمنين وعوا كلامك وتعلموا أوامرك **﴿ماذا قال﴾** النبي صلى الله عليه وآله وسلم **﴿آنفاً﴾** أي قبل قليل في أول وقت يقرب منا، من استأنف الشيء إذا ابتدأ به، كأنه عند أنفه **﴿أولئك﴾** المنافقون الذين هذه صفتهم هم **﴿الذين طبع الله على قلوبهم﴾** فإنهم بعنادهم حصلوا

وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُمۡ ﴿١٧﴾ وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدٗى وَءَاتَىٰهُمۡ تَقۡوَىٰهُمۡ ﴿١٨﴾ فَهَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأۡتِيَهُم بَغۡتَةٗۖ فَقَدۡ جَآءَ أَشۡرَاطُهَاۚ

على حالة في قلوبهم، تمنعهم عن وعي كلام الرسول، فصارت ملكة لهم، والنسبة إلى الله، لأن الله سبحانه جعل هذه الملكة عقيب تكرار اللامبالاة، كما جعل العدالة عقيب تكرار الكف عن المحرمات ﴿**واتبعوا أهواءهم**﴾ في الباطل ولم يتبعوا الحق، فهؤلاء المنافقون حالهم حال الكفار الذين تقدم أنهم اتبعوا أهوائهم فهم مثلهم في العقاب، وإيمانهم الظاهري لا ينفعهم.

[١٨] ﴿**و**﴾ بالعكس من المنافقين الذين يزدادون غياً، إذ كل مرة ينصرفون عن كلام الرسول وأوامره تزداد غشاوة قلوبهم سمكاً، كما في سائر الملكات التي تتقوى بالتكرار والممارسة ﴿**الذين اهتدوا**﴾ حقيقة من المؤمنين ﴿**زادهم**﴾ الله ﴿**هدى**﴾ بكلمات الرسول ﷺ إذ تتقوى ملكة الإيمان في قلوبهم ﴿**وآتاهم**﴾ أعطاهم الله ﴿**تقواهم**﴾ اللائقة بهم، إذ ترفع درجات التقوى في نفس الإنسان المؤمن حتى تصل إلى غايتها الممكنة.

[١٩] فليرجع المنافقون عن غيهم قبل مجيء يوم القيامة وإلا ندموا على ما فعلوا إذا رأوا العذاب ﴿**فهل ينظرون**﴾ أي المنافقون إلى شيء ﴿**إلا الساعة**﴾ كناية عن أنهم لا يؤمنون حقيقة ولو جاءهم كل آية ﴿**أن تأتيهم بغتة**﴾ أي فجأة بدون استعداد سابق، لكن إذا كان المنافقون ينتظرون الساعة، ﴿**فـ**﴾ ليعلموا أنها قريبة إذ ﴿**قد جاء أشراطها**﴾ علاماتها التي منها بعثة الرسول ﷺ، وانشقاق القمر، فالمدة من زمان الرسول ﷺ

فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ ﴿١٩﴾ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ

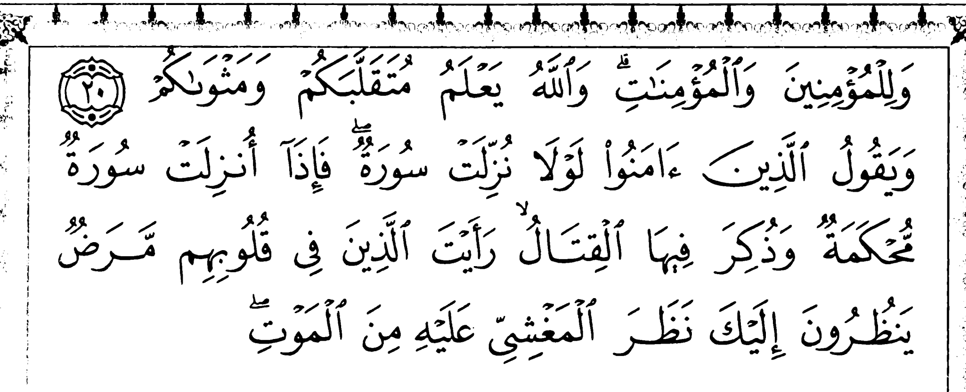
إلى الساعة، أقرب من المدة بين آدم عليه السلام والساعة، أو موسى عليه السلام والساعة وهكذا ﴿**فأنى لهم**﴾ للمنافقين ﴿**إذا جاءتهم ذكراهم**﴾ أي ما ذكّروا به، والمراد بذكراهم الساعة، وقوله سبحانه «فأنى» جواب «فهل» أي إن كان ينظر المنافقون إلى الساعة حتى يؤمنوا:

فأولاً: جاءتهم علاماتها فاللازم أن يؤمنوا

وثانياً: ما هي فائدة مجيء الساعة إذ حين ذاك لا يقبل الإيمان، وقوله سبحانه «فأنى» للامتناع، أي ليس لهم حين قيام الساعة، أن يؤمنوا.

[٢٠] وإذا علمت يا رسول الله سعادة المؤمنين وشقاوة الكافرين والمنافقين ﴿**فاعلم أنه لا إله إلاّ الله**﴾ أثبت على علمك، لأن العلم فياض إلى الإنسان آناً بعد آن، كما أن النور فياض من الشمس آناً بعد آن، فبإمكان الإنسان أن يبقى على علمه وبإمكانه أن يترك علمه ويعمل عمل غير العالم ﴿**واستغفر لذنبك**﴾ أكمل النفس بالاستغفار فإن العلائق المادية الضرورية، حيث لا يمكن رفعها، كان لا بد من التواضع أمام الله، بالاستغفار، حتى يحوز على الكمال الممكن، مثلاً إن العاري الذي لا ملابس له، إذا جاءه إنسان اعتذر من عريه والاعتذار ليس لأنه فعل خطأً بل لأجل التواضع أمام ذلك الإنسان وهذا النحو من التواضع يزده جاهاً عند الزائر، وهذا هو سبب استغفار الأنبياء والأئمة عليهم السلام.

أما العبادات الخاصة في كلام الإمامين أمير المؤمنين



والسجادعليه السلام وغيرهماعليهم السلام فإنها كنايات ومجازات تشبيهاً للنواقص الضرورية بالنواقص الحقيقية ﴿و﴾ استغفر ﴿**للمؤمنين والمؤمنات**﴾ بطلب غفران الله لهم ﴿**والله يعلم متقلبكم**﴾ تقلبكم في كافة أحوالكم ﴿**ومثواكم**﴾ حين ترجعون إلى بيوتكم للمنام والاستراحة، فاللازم أن تخشوه وتستغفروه لأنه معكم دائماً، فهو سبحانه جدير بأن تعتقدوا به، كما في «واعلم. . .» وأن تستغفروه كما في «واستغفر. .».

[٢١] وإذ تبين أن الله هو الإله الوحيد الواجب إنفاذ أمره وطلب الغفران منه، فاللازم إطاعته في الذهاب إلى الجهاد، بالإضافة إلى أن المؤمنين هم طلبوا من الرسولصلى الله عليه وآله وسلم الجهاد ووعدوا أن يجاهدوا إذا أمروا به ﴿و﴾ قد كان ﴿**يقول الذين آمنوا لولا**﴾ أي هلا «تحريض وطلب» ﴿**نزلت سورة**﴾ تأمرنا بالجهاد ﴿**فإذا أنزلت سورة محكمة**﴾ مبينة لا لبس ولا تشابه فيها ـ فلا تكون محلاً للعذر بالتأويل ـ ﴿**وذكر فيها القتال**﴾ بأن كان فيها أمراً بالحرب ﴿**رأيت الذين في قلوبهم مرض**﴾ من المنافقين ومرض القلب هنا انطباعه على خلاف الأوامر والفرار من الطاعة ﴿**ينظرون إليك**﴾ يا رسول الله ﴿**نظر المغشي عليه**﴾ فإن من غُشي عليه ﴿**من**﴾ جهة قرب ﴿**الموت**﴾ إليه تدور عينه في حالة بهت، ثم يشخص بصره إلى ناحية لا يتمكن من حركتها، وهكذا حال الجبناء

فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢١﴾ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴿٢٢﴾ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٣﴾

عند شدة الخوف ومثل هؤلاء ﴿فـ﴾ الموت ﴿**أولى لهم**﴾ من الحياة، وهذا دعاء عليهم بالهلاك.

[٢٢] إن المنافقين قالوا قبل نزول سورة القتال ﴿**طاعة**﴾ أي نحن مطيعون ﴿**وقول معروف**﴾ أي كان قولهم قولاً معروفاً، حول الجهاد ﴿**فإذا عزم الأمر**﴾ أي صار الجهاد عزماً وجدّاً بنزول السورة في شأنه، انسحب المنافقون عن الميدان، فعصوا عوض الطاعة، وأخذوا يتكلمون بما لا يليق بإنسان مؤمن أن يتكلم بمثله عوض «قول معروف» كانوا يتكلمون به سابقاً، وهذه الآية تفسير للآية السابقة «ويقول الذين. . .» «فإذا نزلت. . .» ﴿**فلو صدقوا الله**﴾ فيما زعموا من الحرص على الجهاد، بأن أطاعوا عند نزول حكم القتال ﴿**لكان**﴾ الصدق ﴿**خيراً لهم**﴾ في دينهم ودنياهم.

[٢٣] وحيث أنهم هربوا من القتال، أخذوا يغيّبون أنفسهم في القرى وغيرها لئلا يكونوا بحضور المؤمنين وأخذوا يفسدون بالطعن في الرسول وفي أرحامهم المؤمنين الملتفين حوله ليبرروا موقفهم في الابتعاد عن الرسول وعن المؤمنين، كما هو شأن كل منافق يبتعد عن القيادة ويخالف الإطاعة ﴿**فهل عسيتم**﴾ هل يتوقع منكم إلا هذا، فإن «عسى» بمعنى الاحتمال القريب الوقوع ﴿**إن توليتم**﴾ عن الجهاد ﴿**أن تفسدوا في الأرض**﴾ بالطعن في الرسول ﷺ والمؤمنين ﴿**وتقطعوا أرحامكم**﴾ الذين التفوا حول الرسول وأطاعوا أوامره،

أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴿٢٤﴾ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ

وهذه الصفة تنطبق على كل من يتولى عن القيادة الإسلامية الصحيحة في كل زمان ومكان.

[٢٤] ﴿**أولئك**﴾ الذين تلك صفاتهم ـ وإن كانوا مؤمنين حسب الظاهر ـ هم ﴿**الذين لعنهم الله**﴾ فأبعدهم عن كل خير، بسبب انحرافهم عن جادة الإيمان ﴿**فأصمهم**﴾ الله عن استماع الحق ﴿**وأعمى أبصارهم**﴾ عن رؤية الحق ونسبة الفعلين إلى الله، بينما أنه بأنفسهم صموا أسماعهم وغمضوا أعينهم عن الحق، من جهة أن الله تركهم وشأنهم، كما يقال أفسد الوالد ولده، إذ تركه وشأنه حتى فسد.

[٢٥] ﴿**أفلا يتدبرون**﴾ هؤلاء المنافقون ﴿**القرآن**﴾ ليفهموا أن الله جازى المخالفين من الأمم السابقة بعقاب الدنيا وعذاب الآخرة، لعلهم يردعون عن غيّهم ﴿**أم على قلوب**﴾ قلوبهم ﴿**أقفالها**﴾ فلا يمكنهم التدبر؟ أي يقدرون فلا يتدبرون، أم لا يقدرون؟ وهذه عبارة بلاغية تقال في مورد كناية عن أن الطرف معاند لا ينفع معه الوعظ والإرشاد، كما يقال «لمن سقط في البئر» هل غمضت عينيك أم أنت أعمى؟ ولعل تنكير القلوب لأجل إفادة ابتعادها حتى كأنها نكرة، وإضافة الأقفال إليها، لبيان أن للقلوب أقفال خاصة، هي التعامي والعناد، مما يسبب عدم نفاذ العلم والفضيلة فيها.

[٢٦] وليعلم هؤلاء المنافقون الذين يفرون من القتال، أن الشيطان صار قائدهم، بعد أن كانوا تحت سلطان الله الخالق العظيم، فهم انساقوا وراء عدوهم ﴿**إن الذين**

ٱرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٦﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ كَرِهُوا۟ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٧﴾

ارتدوا﴾ رجعوا **﴿على أدبارهم﴾** بدل أن يسيروا إلى الأمام، رجعوا قهقرى من طرف الدبر إلى الخلف **﴿من بعد ما تبين﴾** ظهر **﴿لهم الهدى﴾** وعرفوا الحق **﴿الشيطان سول لهم﴾** سهل لهم ركوب الآثام، من السول بمعنى الاسترخاء **﴿وأملى لهم﴾** أي قرر عليهم، كالذي يملي على الآخر الشيء ليكتبه، فالشيطان أولاً جعلهم رخواً، ثم قرر لهم أن يخرجوا عن الطاعة.

[٢٧] وإنما تمكن الشيطان من الأخذ بقيادهم، لأنهم انحرفوا عن طاعة الرسول إلى طاعة الكفار وحيث بدلوا قيادة الله إلى قيادة الشيطان تمكن الشيطان منهم **﴿ذلك﴾** التمكن من الشيطان من قيادهم **﴿بـ﴾** سبب **﴿أنهم قالوا لـ﴾** الكفار **﴿لذين كرهوا ما نزل الله﴾** إذ الكفار كرهوا القرآن والرسول **﴿سنطيعكم في بعض الأمر﴾** كما هو شأن المنافقين دائماً، إنهم يميلون قليلاً إلى جانب الأعداء، وهذا الميل القليل ينتهي بهم إلى الميل الكثير، ثم تبديل القيادة من الإيمان إلى الكفر، وفي هذا تنبيه على أنه لا ينبغي للمؤمن أن يميل قليلاً، وإلا انحرفوا، كما قال الله سبحانه (ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاؤُوا السُّوأَى أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ)[1] **﴿والله يعلم إسرارهم﴾** السر الذي ناجوا به

---

(١) الروم: ١١ .

فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ ﴿٢٨﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٢٩﴾

الكفار أولاً حتى حصل الانحراف أخيراً، وفي هذا تهديدهم وتنبيه للآخرين أن لا يتخذوا الكفار أولياء، إذ الكافر بالآخرة يحرّف المسلم.

[٢٨] هذا حالهم في الدنيا فضيحة وانحراف ﴿**فكيف**﴾ بهم في الآخرة ﴿**إذا توفتهم الملائكة**﴾ آخذين أرواحهم في حال كون الملائكة ﴿**يضربون وجوههم وأدبارهم**﴾ ضرب الوجه لتوجههم إلى الكفار وضرب الدبر لاستدبارهم الحق والمؤمنين.

[٢٩] وإنما صار ﴿**ذلك**﴾ حالهم عند الموت ﴿**بـ**﴾ سبب ﴿**أنهم اتبعوا ما أسخط الله**﴾ من ترك أوامره ﴿**وكرهوا رضوانه**﴾ كرهوا رضى الله ﴿**فأحبط**﴾ أبطل الله ﴿**أعمالهم**﴾ الصالحة والتسلسل الطبيعي، أنهم اتبعوا ما أسخط الله فذهبوا إلى المنافقين، فارتدوا، فخربت دنياهم وآخرتهم، وأسلوب القرآن، كأسلوب الكون في جمع المختلف، حيث كان القصد جمال الكون، فماء إلى جنب شجر، إلى جنب حيوان إلى آخره، وكذلك فعل الله سبحانه في كتابه التكويني وذلك لشحذ الذهن، وقد ذكرنا طرفاً من ذلك في كتاب «حول القرآن الحكيم».

[٣٠] ثم ليعلم هؤلاء المنافقون أن نفاقهم لحفظ ماء وجههم عند كلا الجانبين يعود عليهم بأكبر الضرر حيث إن الكفار لا يعتمدون عليهم،

أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَـٰنَهُمْ ﴿٣٠﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَـٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَـٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَـٰلَكُمْ ﴿٣١﴾

كما هو واضح، والمؤمنون يعرفون ضمائرهم فيسلبون اعتمادهم أيضاً، فيبقون مكروهين من الجانبين ﴿**أم حسب**﴾ بل زعم ﴿**الذين في قلوبهم مرض**﴾ مرض النفاق ﴿**أن لن يخرج الله أضغانهم**﴾ أحقادهم، نحو الرسول ونحو المؤمنين، كلا ليس كذلك بل تظهر أحقادهم، كما قال الإمام علي عليه السلام: «ما نوى امرء شيئاً إلا ظهر في فلتات لسانه وصفحات وجهه»[1].

[٣١] ﴿**ولو نشاء لأريناكهم**﴾ رؤية العين بأن ينزل جبرائيل ويقول إنهم فلان وفلان، لكن الله على الأغلب يترك الأمور مع الأنبياء على طبيعة الحياة، من دون إعجاز، ليتخذهم الناس أسوة، لئلا يقول الناس أنهم قدروا على إدارة الأمور من جهة الوحي والغيب، ولا نتمكن نحن مثلهم فيتقاعسوا عن العمل ﴿**فلعرفتهم بسيماهم**﴾ سيما الإنسان ملامح وجهه، لكنا لا نشاء ذلك، لما تقدم ثم ابتدأ سبحانه بقوله ﴿**ولتعرفنهم في لحن القول**﴾ أي أن فلتات ألسنتهم تدلّك عليهم واللحن هو الإمالة، فإن المنافق يميل بكلامه، حيث إن قلبه لا يرضى أن يتكلم حسب موازين الإيمان ﴿**والله يعلم أعمالكم**﴾ أعمال المؤمنين والمنافقين فاللازم مراقبته سبحانه، وهذا تهديد للمنافق بأنه بالإضافة إلى أنه يُفضح في الدنيا، فهو يجزى بالجزاء في الآخرة، لأن الله يعلم عمله.

---

(١) بحار الأنوار: ج٧٢ ص٢٠٤ .

وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّوا۟ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَىٰ

[٣٢] ثم لا يظن المؤمنون أنهم بمعزل عن الاختبار، وإن الاختبار أسقط المنافقين، وأظهر طيب جوهر المؤمنين، وانتهى كل شيء ـ كما يزعم ذلك من نجح في الامتحان الأول غالباً ـ ﴿**ولنبلونكم**﴾ أي نمتحنكم أيها المؤمنون ﴿**حتى نعلم المجاهدين منكم**﴾ من غير المجاهدين، إذ لا يكفي الامتحان الأول بالإيمان في ترك الإنسان وشأنه، وقوله «حتى نعلم» أي يقع علمنا على الخارج، أي يصل العلم إلى مرتبة الفعلية بعد أن كان الله عالم لكل ذلك من قبل ﴿**والصابرين**﴾ إذ من الممكن الشروع في الجهاد، لكن لا يصبر عليه المجاهد ﴿**و**﴾ حتى ﴿**نبلوا أخباركم**﴾ أي نمتحن أخباركم، فإنه كما يمتحن الإنسان بالجهاد ونحوه، يمتحن خبره هل أن من يصل إليه خبر المجاهد وغير المجاهد، يتبع المجاهد أو غير المجاهد، وامتحان الخبر كناية عن امتحان من يصل إليه الخبر، مجازاً.

[٣٣] ثم إن الكفار والمنافقين يظنون أنهم يضرون الله وينفعون أنفسهم، والحال أنهم لا يضرونه بل يضرون أنفسهم بحبط أعمالهم ﴿**إن الذين كفروا**﴾ ظاهراً وباطناً، أو باطناً فقط كالمنافق ﴿**وصدوا**﴾ منعوا الناس ﴿**عن سبيل الله**﴾ بأن جعلوا الناس في الطرق المنحرفة، حيث الناس ـ إذا كانوا هم بأنفسهم ـ مشوا في سبيل الله المستقيم ﴿**وشاقوا الرسول**﴾ هم في شق «أي طرف» والرسول في شق ﴿**من بعد ما تبين لهم**﴾ ظهر ﴿**الهدى**﴾ إذ قبل إتمام الحجة عليهم لا يحبط أعمالهم الصالحة

لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ (٣٣) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ (٣٤) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ (٣٥)

﴿**لن يضروا الله شيئاً**﴾ بكفرهم وصدهم ﴿**وسيحبط**﴾ الله ﴿**أعمالهم**﴾ يبطلها فلا يعطيهم جزاءً حسناً لصدقتهم وعتقهم وإقرائهم الضيف ونحو ذلك، فهم ضروا أنفسهم ولم يضروا الله، بينما كانوا يزعمون أنهم ينفعون أنفسهم ويضرون الله.

[٣٤] فـ ﴿**يا أيها الذين آمنوا**﴾ إذا علمتم أن المخالفة تعود بالضرر على المخالف ﴿**أطيعوا الله**﴾ في أوامر القرآن ﴿**وأطيعوا الرسول**﴾ فيما يأمر ﴿**ولا تبطلوا أعمالكم**﴾ الصالحة بسبب العصيان فإن العصيان يحبط العمل الصالح.

[٣٥] وليعلم الكفار أن باب التوبة لهم مفتوح، فإذا رجعوا إلى الإيمان والطاعة، غفر الله لهم ﴿**إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله ثم**﴾ آمنوا وعملوا صالحاً أعطوا جزاء إيمانهم وكل عمل صالح سبق إيمانهم أو لحقه، أما إذا ﴿**ماتوا وهم كفار فلن يغفر الله لهم**﴾ لأنه لا ينفع الإيمان والندم بعد الموت وقد ذكرنا سابقاً أن العناد على الكفر يوجب تبدل الجوهر إلى الناري الذي لا يبدله بعد الموت إلى الجوهر النوري، ولذا لا غفران لمن مات بكفر، أو رأى الموت بعينه، كما ذكره سبحانه بقوله (وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ)[1].

(١) النساء: ١٩.

فَلَا تَهِنُوا۟ وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٦﴾ إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ ﴿٣٧﴾

[٣٦] وإذا علمتم أيها المؤمنون أن الله معكم، وضد الكافرين ﴿**فلا تهنوا**﴾ لا تضعفوا عن القتال ﴿**و**﴾ لا ﴿**تدعوا إلى السلم**﴾ المسالمة مع الكفار خوفاً منهم، بخلاف ما إذا كانت الدعوة إلى السلم لمصلحة قلة المسلمين أو نحو ذلك أو كما قال سبحانه وإن جنحوا للسلم فاجنح لها ﴿**و**﴾ الحال ﴿**أنتم الأعلون**﴾ جمع أعلى، فإن المسلم أعلى حجة، وأعلى قوة، لأن إيمانه يجعله أعلى من جهة المعنويات وهي مهمة جداً في الانتصار ﴿**والله معكم**﴾ ينصركم ويثبت أقدامكم ﴿**ولن يتركم**﴾ أي لن يضيع منكم ﴿**أعمالكم**﴾ فأنتم أعلى منطقاً ونفساً، والله معكم، وترجون جزاءً حسناً، وبهذه الجهات الثلاث لا ضعف في المسلمين ويجب أن يعلموها حتى لا يهنوا ولا يدعوا إلى السلم.

[٣٧] وإن كان الفرار من الجهاد، لأجل حب الحياة فاعلموا ﴿**إنما الحياة الدنيا لعب**﴾ لا حقيقة لها كما لا حقيقة للّعب فإن الشيء الذي يلعب به الصبيان شبيه بالأمور الواقعية، وكذلك الحياة الدنيا بالنسبة إلى الآخرة ﴿**ولهو**﴾ يلهي الإنسان ويصرفه عن الأهداف الحقيقية، التي هي رضى الله والجنة ﴿**وإن تؤمنوا**﴾ بالله ﴿**وتتقوا**﴾ بترك اللهو واللعب ﴿**يؤتكم**﴾ الله ﴿**أجوركم**﴾ اللائقة بكم، فإن الأجر اللائق بعمل الإنسان، هو رضى الله والجنة ﴿**و**﴾ لا تخافوا من الإيمان والتقوى، حيث يزعم بعض الناس أنه لو آمن يجب عليه أن يدفع ماله في سبيل الله، كلا ليس كذلك ﴿**لا يسألكم**﴾ الله ﴿**أموالكم**﴾ كلها،

إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُواْ وَيُخْرِجْ أَضْغَـٰنَكُمْ ﴿٣٨﴾ هَـٰٓأَنتُمْ هَـٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ

بل شيئاً يسيراً منها كالخمس والزكاة وهي لمنفعتكم أيضاً.

[٣٨] وإنما لا يسأل الله كل أموالكم «أي غير الضرورية لكم» مع أن سؤال كل الأموال أولى لما فيه من توسعة رقعة الإسلام ومن إنقاذ الناس من براثن المستكبرين؟ لأنه ﴿**إن يسألكموها**﴾ أي كل الأموال ﴿**فيحفكم**﴾ فيبالغ في الطلب، فإن الإحفاء بمعنى المبالغة ﴿**تبخلوا**﴾ عن عطاء الكل ﴿**ويخرج**﴾ الطلب ﴿**أضغانكم**﴾ أحقاد صدوركم، وليس المراد أن الضغن كامن فيظهر، بل هو من قبيل إخراج النبات أي أوجده، والحاصل أن طلب كل المال، وإن كانت فيه مصلحة إلا أنه تركه سبحانه، لأن أضراره أكثر من منافعه فهو من قبيل «لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك».

[٣٩] وإذ مهد الجو، بذكر أن الحياة زائلة فلا ينبغي للإنسان أن يتعلق بها، وأن الله لا يريد كل أموالكم صار المجال لإظهار وجوب دفع بعض المال، وليس ذلك لأمر شخصي، بل لإقامة حكم الله وفي سبيل الله ﴿**ها**﴾ للتنبيه ﴿**أنتم**﴾ أيها المؤمنون ﴿**هؤلاء**﴾ أي هم الذين ـ والإتيان بهذه العبارة لجلب الانتباه أكثر فأكثر ـ ﴿**تدعون**﴾ يدعوكم الله، ولعل الإتيان بالمجهول، لئلا يكون رده من البخلاء رداً على الله مباشرة؟ إذ قال «يدعوكم الله» ﴿**لتنفقوا في سبيل الله**﴾ للغزو ولمصالح المسلمين ولسد عوز المحتاجين ﴿**فمنكم من يبخل**﴾ فلا يعطي أو يعطي أقل من الحق الواجب عليه ﴿**و**﴾ اعلموا أن ﴿**من يبخل فإنما يبخل عن نفسه**﴾

﴿وَٱللَّهُ ٱلْغَنِيُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ۚ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم ﴾ (٣٩)

لأن ضرر البخل عائد عليه، فكان البخل عن النفس من قبيل «منع عن نفسه الخير» وإنما يعود ضرر البخل إلى الإنسان نفسه، لأن مجتمع البخلاء لا ينمو وإذا لم ينمو المجتمع تضرر الجميع، بما فيهم البخيل نفسه ﴿**و**﴾ لا يزعم أحد أن الله إنما يطلب المال لأنه فقير، وأن الذين يطلب منهم أغنياء؟ فـ ﴿**الله**﴾ هو ﴿**الغني**﴾، إنه يملك كل الكون، ويملك ان يخلق كل شيء بإرادته، فهل مثله فقير؟ ﴿**وأنتم الفقراء**﴾ حتى أنكم تحتاجون في استمرار حياتكم إليه تعالى، وهل مثل هذا الإنسان يسمى غنياً؟ بل إنما يطلب منكم المال ليمتحنكم، وليعود نفعه إليكم ﴿**وإن تتولوا**﴾ فلا تنفقون ﴿**يستبدل**﴾ الله بكم ﴿**قوماً غيركم**﴾ يقيمهم مقامكم، فإن الخير يلتف حوله الناس، وإنما المهم أن يكون الإنسان من أهل الخير ﴿**ثم لا يكونوا أمثالكم**﴾ في المخالفة لأوامره سبحانه، ومن الطبيعي أن تأتي الأجيال اللاحقة لتعتبر بنواقص الأجيال السابقة فيكملوها فلا يكونوا أمثال أولئك السابقين.



سورة الفتح

مدنية: آياتها (٣٠)

سميت السورة بهذا الاسم لاشتمالها على كلمة «الفتح» وهي كسائر السور المدنية مشتملة على أحكام الشريعة ولما ختمت سورة محمد ﷺ بقضايا الجهاد بالنفس والمال، افتتحت هذه السورة بثمرة تلك المجاهدات، حيث فتح الله على نبيه مكة المكرمة، ببركة جهاده وجهاد المجاهدين من أصحابه.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿١﴾

[١] ﴿**بسم الله الرحمن الرحيم**﴾ الذي يمنح كل خير، والذي منه فتح مكة «الرحمن الرحيم» بعباده، ولذا يمنحهم ما فيه صلاحهم برحمته الواسعة.

إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢﴾

[٢] **﴿إنا فتحنا لك﴾** يا رسول الله **﴿فتحاً مبيناً﴾** واضحاً، قالوا نزلت بعد أن رجع رسول الله ﷺ من الحديبية، والمراد أنه سيفتح له، فنُزل المضارع المحقق الوقوع منزلة الماضي، لأنه في كونه يقيناً مثل المستقبل، أو المراد أن الحديبية فتح، لأنها كانت سبب الفتح ومفتتحه.

[٣] وإنما فتحنا لك **﴿ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك﴾** على الفتح **﴿وما تأخر﴾** أي أن الفتح سبب لغفران كل الذنوب، والمراد به، إما ذنوبه ﷺ عند الكفار، فإنه كان عاقاً قاطعاً للرحم عندهم وقد قتل رجالهم وسبّ آلهتهم قبل الفتح وبعد الفتح، فإذا سُلط عليهم، غمضوا عن ذنوبه، كما هي العادة أن الإنسان إذا تسلط غفر الناس ما يزعمون له من ذنوب، وإما المراد بالذنوب، ما ذكروا من ذنوب الأنبياء، من أنها تعد ذنوباً بالنظر إلى الكمال الواقعي يمنعه الاضطرار إلى المأكل والمشرب وما أشبه، فهو نوع من التواضع، يرفع النقص الذي أُلجيء إليه اضطراراً، وإما المراد ذنوب الأمة فإن ذنب الأتباع يعد ذنب الرئيس ـ عرفاً ـ فالجهاد تكميل للمضطر إليه، أو سبب غفران ذنب الأمة **﴿و﴾** لـ **﴿يتم نعمته عليك﴾** بإعلاء الإسلام وضم السيطرة إلى النبوة **﴿و﴾** لـ **﴿يهديك صراطاً مستقيماً﴾** فإن الهداية تتلاحق آناً بعد آن، وفي حالة بعد حالة، مثلها مثل الحياة، ومثل ماء النهر، فكل خطوة بعدها إما هداية أو ضلال، لأنه إن مشى مستقيماً ـ بعد تلك الخطوة ـ فهو هداية وإلا كان ضلالاً، والفتح سبب الهداية، لأنه ﷺ

وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصۡرًا عَزِيزًا ﴿٤﴾ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لِيَزۡدَادُوٓاْ إِيمَٰنٗا مَّعَ إِيمَٰنِهِمۡۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴿٥﴾

يمشي في البلد المفتوح بسيرة حسنة وهي هداية جديدة.

[٤] ﴿و﴾ لـ ﴿ينصرك الله﴾ فإن الفتح سبب النصرة «وإن كان نفس الفتح أيضاً نصرة» ﴿نصراً عزيزاً﴾ فيه عزة ومنعة فالفتح صار سبباً لأربعة أمور، غفران الذنب، وتمام النعمة، والهداية الجديدة، والنصرة العزيزة.

[٥] وليشكر المؤمنون نعمة الفتح فإن الله ﴿هو الذي أنزل السكينة﴾ الصفة الموجبة للسكون والطمأنينة ﴿في قلوب المؤمنين﴾ فإن تهيئة الإنسان للمقدمات توجب إفاضة الله للنتائج، كما أن تهيئة الزارع للزرع توجب إفاضة الله النبات، ولما استعد المؤمنون للإطاعة بقتال الأعداء، ذهب منهم الخوف والاضطراب وصارت لهم الطمأنينة، مما أوجبت فتحهم السريع ﴿ليزدادوا إيماناً﴾ جديداً ﴿مع إيمانهم﴾ القديم، فإن سكون القلب يوجب التفكر حسناً ورؤية الأشياء كما هي الواقع، فيرون فضل الله عليهم وبذلك يزدادون إيماناً ﴿و﴾ لا يزعم المؤمنون أنهم، بدون فضل الله تمكنوا من الفتح، بل كان معهم جند الله، مثل إلقاء الرعب في قلوب الكافرين، وإنزال السكينة في قلوب المؤمنين، إذ ﴿لله جنود السماوات والأرض﴾ الجنود المادية والمعنوية ﴿وكان الله عليماً﴾ يعلم كيف ينصر المسلمين على الكافرين ﴿حكيماً﴾ يضع الأشياء موضعها فلما أن هيّأ المسلمون أنفسهم للقتال، كانت الحكمة تقتضي نصرتهم، كما أن الأب الحكيم يمدّ ولده بالمال كلما رأى حسن طاعته له.

لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٦﴾ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ

[٦] وإنما فعل سبحانه ما فعل من النصرة للمؤمنين، بعد أن أطاعوا أوامره ﴿لـ﴾ يزيد ثوابهم فـ ﴿**يدخل المؤمنين والمؤمنات**﴾ لأنهن أيضاً كنّ مجاهدات ﴿**جنات تجري من تحتها الأنهار**﴾ أي من تحت أشجارها، في حال كونهم ﴿**خالدين فيها**﴾ أبداً ﴿**ويكفر عنهم سيئاتهم**﴾ أي يغطيها ويزيلها، فإن الجهاد سبب غفران الذنب، كما هو سبب رفع الدرجة في الجنة، فالمراد بإدخالهم الجنة في أثر الجهاد، الجنة الرفيعة التي لولا الجهاد لم يستحقوها ﴿**وكان ذلك عند الله فوزاً عظيماً**﴾ لأنه منتهى رغبة الإنسان، أن يكون في لذة دائمة، ولعل ذكر «عند الله» للإفادة بأنهم في نعمة معنوية أيضاً، لأنهم يلتذون بأنهم قرب الله سبحانه، قرباً معنوياً.

[٧] ﴿**ويعذب**﴾ عطف على «يدخل» أي أن الله نصر المؤمنين لأمرين: الأول: لأجل رفعة درجات المؤمنين في الآخرة. والثاني: ليزيد عذاب ﴿**المنافقين والمنافقات**﴾ لأنهم بنفاقهم في باب هذه النصرة زاد عذابهم في الآخرة ﴿**والمشركين والمشركات**﴾ لأنهم ببقائهم على الشرك ومحاربتهم للرسول زاد عذابهم ﴿**الظانين بالله ظن السوء**﴾ حيث كانوا يظنون أن الله لا ينصر رسوله، وأنه كذب سبحانه مع رسوله في ما وعده من النصرة ﴿**عليهم**﴾ على أولئك المنافقين والكفار ﴿**دائرة السوء**﴾ أي ما كانوا يظنونه من عدم النصرة، حتى يسوء

وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٧﴾ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٨﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٩﴾

المؤمنون، دائر عليهم وحائق بهم، وسميت دائرة، من دوران الفلك، فقد دارت دائرة سيئة بالنسبة إليهم، وقوله سبحانه «عليهم. .» إما إخبار أو ادعاء عليهم ﴿**وغضب الله عليهم**﴾ قطعهم عن رحمته ﴿**ولعنهم**﴾ أبعدهم عن كل خير، وذلك لأن الله تعالى لا يتغير حاله، ولا يعروه غضب ونحوه كما قرر في علم أصول الدين ﴿**وأعد لهم جهنم وساءت مصيراً**﴾ أي أن جهنم موضع سوء يصيرون إليه بعد موتهم.

[٨] ﴿**و**﴾ يؤكد سبحانه للمؤمنين وجوب إقدامهم في الحروب لأجل الإسلام، كرر سبحانه ﴿**لله جنود السماوات والأرض**﴾ فالحر والبرد والمطر والريح من جنوده في السماء، والرعب في القلب والتشتت للشمل ونحوهما من جنوده في الأرض، إلى غيرهما من جنوده الكثيرة ﴿**وكان الله عزيزاً**﴾ يقدر أن يفعل ما يريد لعزته ﴿**حكيماً**﴾ يضع الأشياء موضعها، فإذا نصر المؤمنون دينه، نصرهم.

[٩] ولما ذكر شيء من صفاته سبحانه، ذكر بعض صفات رسوله، القائد للمؤمنين ليعلم المؤمنون أن قائدهم صالح لقيادتهم إلى خير الدنيا وسعادة الآخرة ﴿**إنا أرسلناك**﴾ يا رسول الله ﴿**شاهداً**﴾ على الناس لتشهد على المؤمن بالإيمان وعلى الكافر بالكفر وعلى المنافق بالنفاق ﴿**ومبشراً**﴾ تبشر المؤمنين بخير الدنيا والآخرة ﴿**ونذيراً**﴾ تنذر الكافرين والمنافقين بشر الدنيا والآخرة.

لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿١٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ

[١٠] وإنما أرسلنا الرسول ﴿**لتؤمنوا بالله ورسوله**﴾ لأنه الدال إلى الله وإلى رسوله ﴿**وتعزروه**﴾ تقووه بالنصرة وذلك بتقوية دينه ونصرة أحكامه ﴿**وتوقروه**﴾ تعظموه ﴿**وتسبحوه**﴾ تنزهوه عن الشريك وعن المناقص ﴿**بكرةً**﴾ صباحاً ﴿**وأصيلاً**﴾ عصراً.

[١١] وإذ عرف المسلمون الرسول ﷺ حق المعرفة فاللازم أن يعرفوا أن بيعتهم له لازمة عليهم، لأن بيعته بيعة لله تعالى، فإذا نكث الإنسان بيعته، فبالإضافة إلى أنه خان الله ورسوله، كان ضاراً لنفسه، إذ فائدة البيعة تعود إلى نفس المؤمن ﴿**إن الذين يبايعونك**﴾ يا رسول الله ﴿**إنما يبايعون الله**﴾ إذ الرسول ﷺ ممثل لله تعالى ﴿**يد الله فوق أيديهم**﴾ فقد كان أسلوب البيعة أن الرسول ﷺ يرفع يده ممدودة باطنها إلى الأرض وظاهرها إلى السماء، فيأتي المبايع فيمر باطن كفه بكف الرسول مبتدأً من رأس الخنصر منتهياً إلى رأس إبهام الرسول ﷺ، هذه هي كيفية البيعة، وهي رمز أن البائع قد باع كل شيء له من نفس ومال وغيرهما، للرسول ﷺ قال سبحانه (إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ)[١] وإتيان الصيغة بباب المفاعلة، لأنه باع ما عنده ليأخذ بقدره من الجنة، فالبيع من الطرفين، وإذا أراد شخص نقض البيعة مع أمير أو ما أشبه، كان يمر بيده من رأس الإبهام

---

(١) التوبة: ١١١ .

فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١﴾ سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ

إلى رأس الخنصر، وكما يستفاد من روايتين ذكرهما الفيض «رحمه الله» في الصافي، ويد الله كناية، مثل بيت الله وناقة الله ﴿**فمن نكث**﴾ نقض البيعة ﴿**فإنما ينكث**﴾ بما يعود ضرره ﴿**على نفسه**﴾ لأنه إذا لم يتبع سبيل الله اتبع السبل المنحرفة التي في سلوكها الضلال والعذاب ﴿**ومن أوفى**﴾ أي وفى، كلاهما بمعنى واحد كما قال سبحانه (أَوْفُوا بِالْعُقُودِ)[١] وهل فائدة باب الأفعال الدلالة على كمال الوفاء تأكيداً له ﴿**بما**﴾ أي بالذي ﴿**عاهد عليه الله فسيؤتيه**﴾ الله في الدنيا والآخرة ﴿**أجراً عظيماً**﴾ والسين لأجل أن الحصول على الفوائد الدنيوية لا يكون إلا متأخراً، وقد ورد أن هذه الآية نزلت في بيعة الرضوان عام الحديبية، وقد كان تخلف عن رسول الله في سفره إليها قبائل أسلم وجهينة ومزينة وغفار وغيرهم فإنهم بعد أن استنفرهم الرسول ﷺ اعتلّوا بالشغل بأموالهم وأهليهم، فنزلت فيهم هذه الآية[٢].

[١٢] ﴿**سيقول لك**﴾ يا رسول الله ﴿**المخلفون**﴾ كأن ضعف إيمانهم سبب مخالفتهم، ولذا جيء بصيغة المفعول، مثل «ألقى السحرة ساجدين» بصيغة المجهول ﴿**من الأعراب**﴾ وهم أهل البادية، ولا يسمى أهل

---

(١) المائدة: ٢ .

(٢) راجع مجمع البيان: ج٩ ص١٩٠ .

شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَاۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢاۚ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١١﴾

المدن أعراباً، وإنما يسمون عرباً **﴿شغلتنا أموالنا وأهلونا﴾** عن السفر معك يا رسول الله **﴿فاستغفر لنا﴾** اطلب الغفران من الله على تخلفنا، فإنهم تخلفوا خوفاً، ولما رجع الرسول ﷺ منتصراً ندموا وجاءوا يعتذرون، لكن كلامهم في اعتذارهم، أولاً، وفي طلب استغفاره ﷺ لهم ثانياً، كان كذباً **﴿يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم﴾** فعدم نفرهم أولاً: كان خوفاً، وطلب استغفارهم ثانياً: كان لأجل أن يمحوا عن أنفسهم وصمة العار التي لحقت بهم عند المؤمنين **﴿قل﴾** يا رسول الله ﷺ لهم **﴿فمن يملك لكم من الله شيئاً﴾** هل هناك من يقدر على منع نفوذ قضاء الله فيكم **﴿إن أراد بكم ضراً﴾** بالقتل وإغارة قبيلة على قبيلة أو ما أشبه ذلك فأنتم كان فراركم خوفاً، بينما لا ينفع الفرار من بأس الله إن كان مقدراً أن ينزل بكم **﴿أو أراد بكم نفعاً﴾** والآن أنتم جئتم معتذرين لتحصلوا من اعتذاركم على نفع المستقبل من الجاه عند المؤمنين والغنيمة في المستقبل، بينما النفع بيد الله، لا أن اعتذاركم يجر إليكم نفعاً، والحاصل أنهم كانت أعمالهم وعدم نفرهم، واعتذارهم، تابعة لخوفهم ورجائهم، بينما الضرر والنفع بيد الله، لا بحسب أعمالهم **﴿بل كان الله بما تعملون خبيراً﴾** فعلم سبب تخلفكم وسبب اعتذاركم «على خلاف ما أظهرتم».

بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٣﴾ وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٤﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ

---

[١٣] ثم بين الله سبحانه كذبهم في دعواهم «شغلتنا أموالنا وأهلونا» بقوله ﴿**بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهليهم أبداً**﴾ لأن كفار مكة يقتلونهم ﴿**وزين ذلك**﴾ الظن ﴿**في قلوبكم**﴾ فإن الإنسان يرتاب أولاً ثم يشك ثم يظن، ثم يقوى ظنه إلى حد أنه الذي يزين له فيصرفه عن العمل بخلاف ذلك ﴿**و**﴾ قد كان الظن باطلاً إذ ﴿**ظننتم ظن السوء**﴾ لم يكن يستحق أن يزين في قلوبكم، إذ ما كنتم تعلمون من خطط النبي صلى الله عليه وآله وسلم الحكيمة، ومن نصرة الله له كان ينبغي أن يصرفكم عن ظنكم ﴿**وكنتم**﴾ بانصرافكم عن النصر مع الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ﴿**قوماً بوراً**﴾ جمع بائر، أي هالكين، هلكت دنياكم لأنكم فضحتم، وآخرتكم لما أعده الله لكم من العقاب.

[١٤] لقد كنتم قوماً بوراً في الدنيا كما وضح ذلك للجميع ﴿**و**﴾ أما أنكم بور في الآخرة فلوضوح أن ﴿**من لم يؤمن بالله ورسوله**﴾ كما ظهر ذلك من تخلفكم عن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم في الساعة الحرجة ﴿**فإنا اعتدنا**﴾ هيئنا ﴿**للكافرين سعيراً**﴾ ناراً تستعر.

[١٥] ﴿**و**﴾ الله سبحانه قادر على عذابهم إذ ﴿**لله ملك السماوات والأرض**﴾ لا يتمكن الهروب عن إرادته ولكن إذا رجع هؤلاء إلى التوبة والطاعة فلعله سبحانه يغفر لهم إذ هو تعالى ﴿**يغفر لمن يشاء**

وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٥﴾ سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ۖ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا ۖ

ويعذب من يشاء﴾ وليست مشيئته اعتباطية بل تابعة لعمل الإنسان فيشاء غفران التائب وعذاب المصر **﴿وكان الله غفوراً﴾** يستر ذنب التائب **﴿رحيماً﴾** يرحمه بأن يبدل سيئاته حسنات.

[١٦] وإذ بين سبحانه أن عذرهم كان كذباً، أراد أن يبين أن طلبهم للتوبة والاستغفار أيضاً كذب **﴿سيقول المخلفون﴾** الذين تخلفوا عن النصر مع الرسول إلى الحديبية **﴿إذا انطلقتم إلى﴾** حرب جديد مما فيه **﴿مغانم﴾** جمع مغنم بمعنى الغنيمة **﴿لتأخذوها ذرونا﴾** أي دعونا **﴿نتبعكم﴾** فحيث كان الخوف من أهل مكة لم يسافروا مع الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، أما حيث حرب طفيفة، يريدون الكون معكم ليحصلوا على الغنائم **﴿يريدون أن يبدلوا كلام الله﴾** فإن المسلمين استعدوا لقتال أهل مكة في الحديبية ليعلوا الإسلام، لكن كان رأيهم خطأ، إذ ما كان بالإمكان فتح مكة، مع علم أهلها أن الرسول يريد محاربتهم، بل أراد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم فتحها في حالة غفلتهم لئلا تراق دماء، وكان كما أراد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم من الصلح، ولما ثقل على المسلمين، حيث لم يحاربوا ولم يحصلوا على مغانم من أهل مكة، وعدهم الله أن يعوضهم عن مغانم مكة بمغانم خيبر، فكانت مغانم خيبر لأهل الحديبية ـ حسب وعد الله سبحانه ـ فإذا تبع المخلفون المسلمين في فتح خيبر كان ذلك تبديلاً لكلام الله تعالى، ولذا فـ **﴿قل﴾** يا رسول الله للمخلفين **﴿لن تتبعونا﴾** إنشاء في صورة إخبار، لبيان أنه محقق

كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ ۖ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ۖ فَإِن تُطِيعُوا۟

الوقوع ﴿**كذلكم**﴾ أي هكذا و«كم» أداة خطاب ﴿**قال الله من قبل**﴾ أي من قبل أن نتهيأ لخيبر، وهو في الحديبية ﴿**فسيقولون**﴾ أي المخلفون ﴿**بل تحسدوننا**﴾ أن نشارككم في الغنائم، وهذا نفي لكلام المؤمنين حيث قالوا للمخلفين «إن الله وعد الغنائم لأهل حديبية» ﴿**بل**﴾ ليس كما يقول المخلفون إذ أنهم ﴿**كانوا لا يفقهون إلا قليلاً**﴾ فهم لا يفهموا حتى موازين الدنيا، فإن من عليه الغرم فله الغنم، لا أن يكون الخوف والصعوبة للمؤمنين، ثم يشاركهم المخلفون في الغنائم.

[١٧] ﴿**قل**﴾ يا رسول الله ﴿**للمخلفين من الأعراب**﴾ كرر ذكرهم بهذا الاسم مبالغة في ذمهم وإشعاراً بشناعة تخلفهم ﴿**ستدعون إلى**﴾ قتال ﴿**قوم أولي بأس شديد**﴾ حيث يكون فيه الخوف والغنم معاً، فإنكم حيث لم تتحملوا خوف الحديبية لا تأخذون من غنائم خيبر. أما في المستقبل لنا حرب مع قوم أولي بأس شديد، كأهل مكة «حين نريد فتحها» و«كحرب حنين» و«كحرب الطائف» وغيرها، فلكم أن تأتوا معنا لتنالوا قسطكم من صعوبة الحرب، وقسطكم من غنائمها ﴿**تقاتلونهم أو يسلمون**﴾ فإما القتال حتى النصر، أو أن يسلموا بدون قتال، ولعله إشارة إلى أن أهل مكة استسلموا بدون قتال، وأن أهل حنين قوتلوا إلى أن انتصر المسلمون ﴿**فإن تطيعوا**﴾ باستجابة الذهاب

يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا ۖ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٧﴾ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ۖ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا



مع المسلمين إلى قتال هؤلاء ﴿**يؤتكم الله أجراً حسناً**﴾ بتوسعة التجارة مع أهل مكة، وبالغنائم في حنين بالإضافة إلى ثواب الله في الآخرة ﴿**وإن تتولوا**﴾ ولم تحضروا القتال ﴿**كما توليتم من قبل**﴾ في الحديبية ﴿**يعذبكم عذاباً أليماً**﴾ مؤلماً لتضاعف جرمكم، بإصراركم على مخالفة الرسول ﷺ.

[١٨] نعم لا يجب حضور الجهاد على الكل فالمتخلف في الحديبية وفي غير الحديبية لا يشمله التهديد والوعيد فـ ﴿**ليس على الأعمى حرج**﴾ أي لا نشتد عليه بإلزامه حضور الحرب ﴿**ولا على الأعرج حرج**﴾ لأنه لا يتمكن من اللحاق بالمجاهدين الماشين، ولا يقدر على ركوب الفرس، لعدم وصول رجله إلى الركاب ﴿**ولا على المريض حرج**﴾ إذا كان مرضه يمنعه من السير ﴿**و**﴾ إذا أطعتم أيها المخلفون، في المستقبل إذا دعاكم الرسول ﷺ إلى الحرب فإن ﴿**من يطع الله ورسوله يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار**﴾ فلا يذوق حر الصحراء، لأنه في جنة، ولا عطش شح الماء، لأنه عند الأنهار الجارية ﴿**ومن يتول**﴾ منكم ﴿**يعذبه**﴾ الله ﴿**عذاباً أليماً**﴾ مؤلماً، وقد كرر سبحانه التهديد ليكون أبلغ في التخويف وليهيئ نفوسهم لقبول الأوامر.

لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٩﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٢٠﴾

[١٩] ثم جاء الكلام لينقل قصة الحديبية لتكون بشارة للمؤمنين الذين شهدوا الحديبية، وتعريضاً بالمتخلفين لزيادة تحذيرهم عن التخلف ثانية فقال سبحانه **﴿لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة﴾** كانت في الحديبية شجرة جلس رسول الله ﷺ تحتها، وأخذ البيعة من المسلمين الذين كانوا معه لمحاربة قريش، حين أشيع بأنهم قتلوا رسول النبي ﷺ إليهم، وهذه البيعة سميت ببيعة الرضوان، لقوله تعالى «لقد رضي الله» والمراد برضي زيادة الرضا، لأن الله كان راضياً عنهم قبل ذلك، أو رضاه ببيعتهم **﴿فعلم﴾** الله بسبب بيعتهم **﴿ما في قلوبهم﴾** من الإيمان والإخلاص، والمراد رفع علمه سبحانه على المعلوم حين وُجد المعلوم في الخارج، فالمراد ظهر ما في قلوبهم، وهذا الظهور كان معلوماً لله تعالى، وعلى هذا «فالفاء» في فعلم، للترتيب الكلامي لا الترتيب الخارجي **﴿فأنزل﴾** الله جزاءً لبيعتهم **﴿السكينة﴾** سكون النفس **﴿عليهم وأثابهم﴾** وأعطاهم ثواباً لذلك **﴿فتحاً قريباً﴾** هو فتحهم لخيبر بعد انصرافهم من الحديبية.

[٢٠] **﴿و﴾** أثابهم **﴿مغانم﴾** غنائم **﴿كثيرة يأخذونها﴾** من خيبر **﴿وكان الله عزيزاً﴾** غالباً على أمره **﴿حكيماً﴾** يفعل الأشياء حسب المصلحة والحكمة، فحركة الرسول ﷺ إلى الحديبية، أفادت طغى القبائل في أهل مكة حيث منعوا عن الحرم، كما فتحت الطريق أمام فتح مكة حيث أن نقض المشركين للعهد أعطى الزمام بيد الرسول ﷺ ليهاجم

وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢١﴾ وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا ۚ

مكة دفاعاً، وكذلك كرس ـ منعهم عن الحج ـ نفوسهم إلى التصميم على فتح خيبر.

[٢١] ﴿**وعدكم الله**﴾ أيها المسلمون ﴿**مغانم كثيرة تأخذونها**﴾ وهي المغانم التي حصل ويحصل عليها المسلمون منذ الحديبية إلى يوم القيامة ﴿**فعجل لكم هذه**﴾ مغانم خيبر ﴿**وكف أيدي الناس عنكم**﴾ أيدي أهل خيبر فلم يقدروا على محاربتكم، إذ أنهم ذهلوا وسقط في أيديهم فلم يحاربوا بقدر قواهم الواقعية ﴿**ولتكون**﴾ هذه الغنائم، وكف أيدي الناس ﴿**آية**﴾ علامة ﴿**للمؤمنين**﴾ فظهر صدق الرسول ﷺ حيث أخبرهم قبل خيبر أنهم سيغلبون ويغنمون غنائم كثيرة، والظاهر أن «لتكون» عطف على مقدر يفهم من الكلام السابق فكأنه قال «عجل الغنيمة وكف الأعداء» لتنتفعوا مادياً، ولتكون آية لتنتفعوا معنوياً ﴿**ويهديكم صراطاً مستقيماً**﴾ عطف على «لتكون» إذ المعونة المادية والمعنوية تزيد الإنسان صلابة للاستقامة في الطريق، فقد تقدم أن كل خطوة في الحياة، إما مستقيمة أو منحرفة.

[٢٢] ﴿**وأخرى**﴾ عطف على «هذه» أي عجل لكم غنائم خيبر وادخر لكم غنائم أخرى هي غنائم هوازن ﴿**لم تقدروا**﴾ بعد ﴿**عليها**﴾ لأنه لم تقع حرب هوازن بعد ﴿**قد أحاط الله بها**﴾ أي استولى عليها بالعلم والقدرة

وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٢﴾ وَلَوْ قَـٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَـٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٣﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ

مثل الدائرة المحيطة بالشيء حيث لا يقدر ذلك الشيء التخلص من تلك الدائرة ﴿**وكان الله على كل شيء قديراً**﴾ فسيرشدكم على كيفية التسلط على تلك الغنائم، وهذا إما إخبار بالغيب أو أن الرسول ﷺ كان يعرفه بتجسس تجمع المشركين للقضاء على المسلمين، فإن للحرب أرصاداً في الغالب.

[٢٣] إن الرسول ﷺ صالح في الحديبية، وحارب مع أهل خيبر، وقد اجتمع لمناصرة خيبر حلفاؤهم، لكنهم لما رأوا قوة الرسول انهزموا ﴿**ولو قاتلكم الذين كفروا**﴾ من حلفاء خيبر ﴿**لولوا الأدبار**﴾ وانهزموا وانكسروا في القتال، وذلك لوضوح أنه لو انهزمت القوة الأقوى لانهزمت القوة الأضعف ﴿**ثم لا يجدون**﴾ أولئك الحلفاء ﴿**ولياً**﴾ يلي أمورهم بالتوسط إلى رسول الله ﷺ وإعطائهم المعلومات ونحوها كما يفعل أولياء كل جماعة بهم ﴿**ولا نصيراً**﴾ ينصرهم في حربهم مع الرسول.

[٢٤] هذه هي ﴿**سنة الله**﴾ طريقته حيث ينصر أوليائه على أعدائه، ويعطي الأولياء غنائم الأعداء ﴿**التي قد خلت**﴾ مضت ﴿**من قبل**﴾ في سائر الأنبياء عليهم السلام، وإن قلت فكيف كان يقتل الكفار الأنبياء، قلت كانوا يتسلطون عليهم حيث لا يكون للنبي جماعة مدافعة، أما إذا كانت فسنة الله نصرة الأنبياء، لا يقال إذاً لا فرق بين الأنبياء عليهم السلام وبين غيرهم، لأنه يقال الفرق إن الأنبياء ينتصرون ولو بدون مكافئة القوى بخلاف

وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٤﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٥﴾ هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟

غير الأنبياء عليهم السلام. إن قلت وكذلك بعض الأمم الضعيفة تغلب على الأمم القوية قلت: إذا أخذت الغلبة بالمعنى المادي أي تبديل أناس في الحكم بأناس آخرين فقط بدون تغيير النظام فهي موجودة في أي فئة قليلة مصممة تغلب فئة كثيرة غير مصممة، أما إذا أخذت بالمعنى المادي والمعنوي فتلك خاصة بأهل الله تعالى ﴿**ولن تجد لسنة الله تبديلاً**﴾ إذ إن قوانين الله في الحياة لا تتغير، فهي جارية إلى زوال الحياة عن الأرض.

[٢٥] ثم بين سبحانه فلسفة الصلح في الحديبية، ولتوضيح أن النصرة كانت هناك للمؤمنين ـ حسب سنة الله ـ وإنما يقاتل الرسول صلى الله عليه وآله وسلم لا لخوف الانهزام بل لمصلحة أخرى ﴿**وهو**﴾ الله سبحانه ﴿**الذي كف**﴾ منع ﴿**أيديهم**﴾ أيدي الكفار ﴿**عنكم**﴾ فلم يتجرءوا على قتالكم ﴿**وأيديكم عنهم**﴾ فقبلتم الصلح وتركتم الحرب ﴿**ببطن مكة**﴾ مركز العداوة للرسول صلى الله عليه وآله وسلم فلم تقع الحرب في بطن مكة ﴿**من بعد أن أظفركم عليهم**﴾ فبعد أن كانوا يغزونكم في المدينة طلبوا منكم الصلح في الحديبية وهذا ظفر معنوي ﴿**وكان الله بما تعملون بصيراً**﴾ حيث أطعتم الرسول بعدم الحرب، مع أن رأيكم كان الحرب، وكنتم ترون عدم الحرب انهزاماً.

[٢٦] وقد كان أهل مكة مستحقين للحرب لأنهم ﴿**هم الذين كفروا**﴾ بالله

وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ

ورسوله ﴿**وصدوكم**﴾ منعوكم ﴿**عن**﴾ زيارة ﴿**المسجد الحرام**﴾ حيث كان المسلمون يريدون العمرة ﴿**و**﴾ منعوا عن ﴿**الهدي**﴾ الإبل التي ساقها المسلمون لعمرتهم ﴿**معكوفاً**﴾ من عكف إذا حبس لأن الإبل كان محبوسا على الهدي لينحر بعد قضاء العمرة، فقد منع المشركون ﴿**أن يبلغ**﴾ الهدي ﴿**محله**﴾ المكان الذي ينحر فيه بمكة، وبهذا قد استحقوا القتال مرة لكفرهم، ومرة لصدهم عن المسجد، ومرة لمنعهم الهدي، ومع ذلك فقد كف الله تعالى أيديكم عنهم ﴿**ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات**﴾ في مكة مختلطين بالكفار ﴿**لم تعلموهم**﴾ بأشخاصهم، لتتجنبوا قتالهم عند قتالكم مع المشركين ﴿**أن تطؤهم**﴾ بدل اشتمال من «رجال مؤمنون. . .» أي لولا خوف سحقكم «ووطئكم» في حالة حرب المشركين، لرجال ونساء مسلمين ﴿**فـ**﴾ إذا وطأتموهم ﴿**تصيبكم منهم**﴾ من جهة أولئك المسحوقين ﴿**معرة**﴾ أي مكروه إذ يحزن المسلم أن يقتل المسلم، إذا وقع القتل اشتباهاً، بالإضافة إلى تعيير المشركين للمسلمين بأنهم قتلوا حتى إخوانهم في الدين، إلى غير ذلك ﴿**بغير علم**﴾ منكم المسلم من غير المسلم، فقوله «لم تعلموهم» لبيان أنهم لا يعرفون أولئك المسلمين، وقوله «بغير علم» لبيان أن سحقهم بغير علم، فلا تكرار، وجواب «لولا» محذوف لدلالة الكلام عليه، أي لولا خوف سحقكم للمؤمنين المجهولين، لما كف الله أيديكم عن المشركين، وإنما كنا نجيز لكم

﴿لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٦﴾ إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾

في حرب أهل مكة لولا خوف سحق المؤمنين ﴿**ليدخل الله في رحمته من يشاء**﴾ من الذين يحاربون، فظاهر «ليدخل» أنه تعليل للجواب المحذوف، ففي الآية معلولان «الحرب» و«الكف» وعلتان «الإدخال في الرحمة للأول» و«خوف السحق للثاني» لكن لما كان الثاني أهم، رجحه سبحانه على الأول، ثم أكد سبحانه أن الكف عن الحرب كان لخوف سحق المؤمنين بقوله ﴿**لو تزيلوا**﴾ تفرقوا وتميز المسلم عن الكافر ـ في أهل مكة ـ ﴿**لعذبنا الذين كفروا منهم**﴾ من أهل مكة ـ في قبال الذين آمنوا منهم ـ ﴿**عذاباً أليماً**﴾ مؤلماً، بالقتل والأسر وغنيمة الأموال.

[٢٧] وقد كان كف الله أيديكم عنهم وحتى لا تقع الحرب ﴿**إذ**﴾ في زمان ﴿**جعل الذين كفروا**﴾ من أهل مكة ﴿**في قلوبهم الحمية**﴾ أي الكبر والأنفة ﴿**حمية الجاهلية**﴾ فإن «الحمية» مشتقة الحمى، وقد تستعمل لحمية الخير، وقد تستعمل لحمية الشر، ولذا بينه سبحانه، بأنها كانت حمية الجاهلية، إذ الجاهل يحمي عن الباطل، وذلك لأنه بعد أن تقرر الصلح بين الرسول ﷺ وبين رسول المشركين «في الحديبية» قال الرسول ﷺ لعلي عليه السلام: اكتب بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما صالح عليه محمد رسول الله أهل مكة... فقال سهيل بن عمر «رسول المشركين» بل اكتب «باسمك اللهم» ـ وذلك لأنهم كانوا يكرهون اسم الرحمن لجهلهم ـ ولا تكتب رسول الله، لأنا لو عرفناه

فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٧﴾

رسولاً ما حاربناه... فأمر الرسول صلى الله عليه وآله علياً عليه السلام أن يكتب كما قال سهيل، ولولا مسامحة الرسول صلى الله عليه وآله لاشتعلت نار الحرب(1) ﴿**ف**﴾ قد جعل رسول المشركين في قلبه حمية الجاهلية لكن ﴿**أنزل الله سكينته**﴾ سكونه ﴿**على رسوله وعلى المؤمنين**﴾ فلم يصروا على كيفية كتابة كتاب الصلح ﴿**وألزمهم كلمة التقوى**﴾ فجنحوا إلى الخوف من الله في أن لا ينساقوا وراء الكبر فتقع الحرب، ويسحق المؤمنون المجهولون الذين كانوا بمكة، و«السكينة» هي حلم الرسول صلى الله عليه وآله والمؤمنون، في حال قدرتهم على الحرب والمراد بالكلمة «الشعار» فإن المؤمنين جعلوا شعارهم التقوى، فكلما وقعت مشكلة، التفوا حول هذا الشعار ﴿**وكانوا**﴾ الرسول والمؤمنون ﴿**أحق بها**﴾ من المشركين، لأن المؤمن أحق بتجنيب المزالق من غير المؤمن ﴿**و**﴾ كانوا ﴿**أهلها**﴾ أهل التقوى، من قبيل قولنا: أهل الرجل أحق باتباع الرجل ﴿**وكان الله بكل شيء عليماً**﴾ يعلم ما يفعله المؤمنون من جهة تقواهم، فيثيبهم عليه، كما يعلم ما يفعله الكفار من جهة حميتهم فيعاقبهم عليه.

[٢٨] كان الرسول صلى الله عليه وآله قبل خروجه إلى الحديبية رأى في المنام أنه والمؤمنين معه دخلوا المسجد الحرام، فنقل رؤياه للمؤمنين، ولما

(١) راجع وقعة صفين: ص٥٠٩ .

لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ

قبلﷺ الصلح في الحديبية ولم يدخل المسجد الحرام، تساءل المؤمنون عن مدى صحة الرؤيا، وهل كانت أضغاث أحلام؟ وإذا كانت صادقة فلماذا لم تتحقق؟ وأجاب الرسولﷺ أن الرؤيا صحيحة وأنهم يدخلون المسجد، ولكن ما ظنه المسلمون من أن تحقق الرؤيا يكون في هذه السنة «سنة الحديبية» كان غير صحيح فـ ﴿**لقد صدق الله رسوله الرؤيا**﴾ فكان ما أراه الله في المنام صدق ﴿**بالحق**﴾ الصدق هو مطابقة الخبر للواقع، والحق هو مطابقة الواقع للخبر، وقد يجتمعان للتأكيد، أو المراد أن ما أراه تعالى لهﷺ كان صدقاً «يقع في المستقبل» متلبساً «بالحق» أي بالغرض الصحيح والحكمة البالغة، فأنتم أيها المؤمنون ﴿**لتدخلن المسجد الحرام**﴾ مؤكداً «باللام» و«نون الثقيلة» ﴿**إن شاء الله**﴾ إن شاء الله إما كلمة تبرك، فليس لها معنى الشرط، أو هي مثل لفظ «لعل» الذي يستعمله القرآن الحكيم المراد به أن الكلام محل «لعل» أو محل «إن شاء الله» وإن كان سبحانه لا يرجو شيئاً ولا شك له حتى يعلق على المشيئة، فهو كاستعمال الأمر بقصد التهديد أو ما أشبه، وكذلك في كل إنشاء وإخبار، قد يستعملان بقصد آخر، في حال كونهم ﴿**آمنين**﴾ عن محاربة الكفار لكم، وفي حال كونكم ﴿**محلقين رؤوسكم ومقصرين**﴾ من أظفاركم وغيرهما، والظاهر أن المراد أن قسماً محلق وقسماً مقصر ﴿**لا تخافون**﴾ بعد ذلك، فالآمن حين الدخول، وعدم الخوف بعد ذلك ﴿**ف**﴾ لمجرد الترتيب في الكلام ﴿**علم**﴾ الله

مَا لَمْ تَعْلَمُواْ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٨﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٩﴾

﴿**ما لم تعلموا**﴾ من كون المصلحة تأخير دخول المسجد الحرام، وقد تقدم أن المصلحة ظهرت بعد ذلك ﴿**فجعل من دون ذلك**﴾ من قبل دخولكم المسجد الحرام ﴿**فتحاً قريباً**﴾ هو فتح خيبر، وبذلك قوي الإسلام واطمأن المسلمون بالنصر والغنائم، إلى أن تيسر وقت فتح مكة، تصديقاً لرؤيا الرسول ﷺ.

[٢٩] وكيف زعم بعض المسلمين في الحديبية أنهم انهزموا، حتى قال قائلهم ما شككت في نبوة محمد ﷺ مثل شكي يوم الحديبية والحال أن الله ﴿**هو الذي أرسل رسوله بالهدى**﴾ يصحبه الهدى، لهداية الناس إلى الحياة السعيدة في الدنيا والآخرة ﴿**ودين الحق**﴾ الدين هي الطريقة، والحق هو الواقع «لأن لكل شيء واقعاً صحيحاً» فالدين الحق هو الطريقة، والهدى عبارة عن الهداية إليه، كما يقال هديته إلى الطريق، والنبي ﷺ جاء بأن يهدي الناس، وكأن معه خريطة دين الحق، وإنما أرسله الله سبحانه ﴿**ليظهره**﴾ ليغلبه ﴿**على الدين كله**﴾ كل الأديان، سواء كانت سماوية منسوخة أو غير سماوية ﴿**وكفى بالله شهيداً**﴾ فالله يشهد بأنه رسوله وأن ما أتى به هو الدين الحق، وشهادته سبحانه عبارة عن جعله تعالى الفطرة البشرية موافقة له، وجعل الحجة له، أو المراد جعل المعجزة المصدقة للرسول ﷺ معه، ثم إنه كما يحق لمخترع الطائرة أن يقول ستعم الطائرة كل البلاد، وسينسخ السفر بالدواب «لأنه يعلم ذلك بالمقايسة بين المركوبين، وبفهم طبيعة البشر المائلة إلى

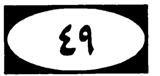
مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ

الراحة» كذلك ظهور الإسلام على الأديان كلها، شيء موافق للمنطق، بعد فهم طبيعة الإنسان المائلة إلى الأخذ بالمنهج الصحيح، وفهم طبيعة الإسلام ومقايسته بسائر الأديان ليظهر أنه الألأم بطبيعة الإنسان.

[٣٠] وإذ تقدم الكلام عن الرسول ﷺ، وعن المؤمنين به وعن المنافقين ذكر الله تعالى صفاتهم الظاهرة ليعرف بها المؤمن عن المنافق ﴿**محمد رسول الله**﴾ ظاهر الآية أنه مبتدأ وخبر ﴿**والذين معه**﴾ من المؤمنين ﴿**أشداء على الكفار**﴾ لأن الكافر مبدأه فاسد مفسد فإذا لم يؤخذ بالشدة لإيقافه عند حده فسد وأفسد، لكن المراد بالشدة الشدة العقلائية «كما هو المتبادر منه» لا الشدة بمعنى القساوة والإفراط ﴿**رحماء بينهم**﴾ يرحم بعضهم بعضاً، فإن أرواحهم تتلاقى بالإيمان، مما يوجب رحم بعضهم بعضاً ﴿**تراهم**﴾ أيها الرائي ﴿**ركعاً سجداً**﴾ لكثرة صلاتهم ﴿**يبتغون**﴾ أي يلتمسون بكثرة الصلاة ﴿**فضلاً**﴾ وزيادة ﴿**من الله**﴾ ثواباً ﴿**ورضواناً**﴾ يطلبون مرضاته فهؤلاء ﴿**سيماهم**﴾ علامة إيمانهم ﴿**في وجوههم من أثر السجود**﴾ كالسمة التي تحدث في جباههم من كثرة سجودهم، فهذه ثلاث صفات لهم، صفة مع الأعداء، وصفة مع المؤمنين، وصفة مع الله ﴿**ذلك**﴾ الوصف الذي ذكر لهم ﴿**مثلهم**﴾ أي وصفهم ﴿**في التوراة**﴾ المنزلة على موسى عليه السلام ﴿**ومثلهم في الإنجيل**﴾ المنزلة على عيسى عليه السلام فقد وصف المؤمنون في الكتابين، بالأوصاف الثلاثة المتقدمة، ثم بين سبحانه حالة نموهم

كَزَرۡعٍ أَخۡرَجَ شَطۡـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسۡتَغۡلَظَ فَٱسۡتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَٰتِ مِنۡهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمَۢا ﴿٣٠﴾

وتكاثرهم، من جراء تلك الأوصاف الثلاثة السابقة، فهم ﴿**كزرع أخرج شطأه**﴾ أي فراخه ﴿**فآزره**﴾ فقواه، أي قوى الزرع فراخه، إذ الفراخ يقوي قليلاً قليلاً ﴿**فاستغلظ**﴾ ذلك الزرع أي صار من الدقة إلى الغلظة ﴿**فاستوى**﴾ واستقام ذلك الزرع بعد الغلظة ﴿**على سوقه**﴾ جمع ساق، فإنه كان في بدو أمره، بدون فراخ، وبدون غلظة الساق، وبدون الاستقامة، فإذا هبت به ريح أمالته وربما قلعته ﴿**يعجب**﴾ ذلك الزرع ﴿**الزراع**﴾ من منظره وفراخه وغلظته وقوته وكذلك بدأ المؤمنون قليلين، ثم أفرخوا فألحقوا بأنفسهم أناساً آخرين، فهم كالفراخ بالنسبة إلى المؤمنين الأولين، وبذلك حصل مؤازرة السابقين للاحقين، وبذلك صار الأولون أقوياء كأنهم استغلظوا، لأن من وجد الأعوان يقوى، وحينذاك قاموا بأنفسهم أشداء، لا تخوفهم رياح الكفر، ولا يمثل بهم أعاصير الباطل ﴿**ليغيظ بهم الكفار**﴾ اللام للعاقبة، مثل فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً وحزناً، أي كان عاقبة كونهم كالزرع الكذائي غيظ الكفار، ولعل الإتيان بهذه الصفة «غيظ الكافرين» لأجل بيان أنهم لغيظهم يكيدون للمؤمنين، مما يعطي المؤمنين تبرير قتالهم واستئصال شأفتهم، وبذلك «يظهره على الدين كله» ﴿**وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم**﴾ إشارة إلى أن كل هذه الكثرة التي التفت حول الرسول ﷺ مما هم كالزرع، ليسوا من أصحاب الجنة بل المؤمنون منهم فقط كذلك ﴿**مغفرة**﴾ غفراناً لذنوبهم ﴿**وأجراً عظيماً**﴾ في الآخرة، فدنيا المؤمنين كزرع كذا، وآخرتهم غفران وأجر.



سورة الحجرات

مدنية/آياتها (١٩)

سميت السورة بهذا الاسم لاشتمالها على كلمة «الحجرات» وهي كباقي السور المدنية مشتملة على قضايا الشريعة. ولما ختمت سورة الفتح بصفة النبي ﷺ والمؤمنين معه ابتدأت هذه السورة ببعض وظائف المؤمنين اتجاه رسول الله ﷺ.



[١] ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ نستعين في أمورنا كلها بالله، ليكون الله عوناً لنا وليكون اسمه شعارنا، ولنوحي إلى أنفسنا أن نلتف حوله سبحانه، لينقذنا من مشاكلنا، وليمنح لنا ما نحتاجه في ديننا ودنيانا وآخرتنا، فهو الرحمن الرحيم في الدنيا والآخرة.

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ

---

[٢] ﴿**يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا**﴾ أي لا تتقدموا، كما يقال مقدمة الجيش لمن تقدم منهم ولعل المجيء من باب التفعيل، من باب أن النفس تقدم الإنسان، ولذا يأتي أحياناً بصيغة المجهول ـ في مثل هذه الأفعال ـ قال تعالى (فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ)(١) لأن نفسهم أجبرتهم على السجود ﴿**بين يدي الله ورسوله**﴾ كناية عن عدم سبق الإنسان بأن يحكم بحكم قبل أن يكون الله أنزله وقبل أن يكون الرسول ﷺ بيّنه، وإلا فليس لله سبحانه يد، وإنما هو من باب تشبيه المعقول بالمحسوس، ولا يبعد أن يكون لفظ «لا تقدموا» يشمل حتى في تقدم المشي أمام رسول الله ﷺ ﴿**واتقوا الله**﴾ خافوا منه فلا تخالفوا أوامره ونواهيه ﴿**إن الله سميع**﴾ لأقوالكم ﴿**عليم**﴾ بأعمالكم، وعن تفسير القمي أن وفد بني تميم إذا قدموا على رسول الله ﷺ وقفوا على باب حجرته فنادوا يا محمد ﷺ أخرج إلينا وكانوا إذا خرج رسول الله ﷺ تقدموه في المشي وكانوا إذا كلموه رفعوا أصواتهم فوق صوته، يقولون يا محمد ما تقول في كذا؟ كما يكلم بعضهم بعضاً فأنزل هذه الآيات(٢).

[٣] ﴿**يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي**﴾ فلا تكن

---

(١) الشعراء: ٤٧.

(٢) تفسير القمي: ج٢ ص٣١٨.

وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٤﴾

درجة رفع صوتكم أكثر من درجة رفع النبي صوته، مثلاً يصل صوت النبي إلى ذراع ويصل صوتكم إلى ذراعين بل اللازم أن يكون صوتكم أخفض من صوته أو مساويا له ﴿**ولا تجهروا له**﴾ للنبي ﷺ وكأنه جيء بـ «له» لبيان أن إجهارهم كان لأجله ﷺ حتى يسمع كلامهم - بزعمهم - ﴿**بالقول**﴾ عند التكلم ﴿**كجهر بعضكم لبعض**﴾ عندما يكلم بعضكم بعضاً فإذا كان ﷺ ساكتاً فأردتم أن تكلموه تكلموا بأدب وخضوع وخفض صوت، لا كما يكلم بعضكم بعضاً من الجهر ورفع الصوت الخارجين عن أدب التكلم مع الكبار، وإنما لا تفعلوا ذلك لـ ﴿**أن**﴾ لا ﴿**تحبط أعمالكم**﴾ فإن سوء الأدب مع الرسول يوجب حبط العمل ﴿**وأنتم لا تشعرون**﴾ أنها محبطة.

[٤] ﴿**إن الذين يغضون أصواتهم**﴾ يخفضونها ولا يرفعونها، بقدر صوت رسول الله ﷺ، ولا أكثر من صوته، سواء كان ﷺ في حال التكلم، أو كان ساكتاً ﴿**عند رسول الله**﴾ سواء تكلموا معه ﷺ أو مع إنسان آخر من الذين عنده ﴿**أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى**﴾ جرّبها لها ومرّنها عليها، أي ظهرت تقوى قلوبهم لأن أعمال الجوارح تابعة للقلب ﴿**لهم مغفرة**﴾ غفران لذنوبهم لتأدبهم بهذا الأدب الرفيع عند الرسول ﷺ ﴿**وأجر عظيم**﴾ ثواب جزيل،

إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٥﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُواْ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦﴾

فلهم جزاءان محو الذنب ورفع الدرجة.

[٥] ﴿**إن الذين ينادونك**﴾ يا رسول الله ﴿**من وراء الحجرات**﴾ من خلف حجراته ﷺ فقد كان لكل امرأة له حجرة خاصة بها ﴿**أكثرهم لا يعقلون**﴾ إذ العقل يقتضي حسن الأدب فلا ينادي الشخص الإنسان الكبير من وراء الحجرة، بل إما أن يدق الباب دقاً خفيفاً، أو أن يشير بكلام يدل على أنه حضر لحاجة، أو أن يصبر حتى يخرج الإنسان الرفيع بنفسه وإنما قال «أكثرهم» مع أن كل من فعل ذلك لا يعقل، تأدباً، حتى يمكن أن يزعم أن من فعل ذلك أنه ليس داخلاً في «أكثرهم» فلا يتأذى، وهذا باب من أبواب البلاغة، حيث يفهم المتكلم، من فعل السيئ، قبح فعله، مع تجنب أن يؤذيه.

[٦] ﴿**ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيراً لهم**﴾ من الاستعجال والنداء ﴿**والله غفور**﴾ لمن تأدب بعد ذلك وسمع الأمر ﴿**رحيم**﴾ يعطي للمتأدب الأجر والثواب، وهذه الآيات لم ينته فحواها، بل الأدب يقتضي كل ذلك مع الكبار، فإن كل آيات القرآن تنفع الإنسان عبرة أو حكماً، حتى آية النجوى التي نسخت في زمن الرسول ﷺ أفادت طبيعة الإنسان وأنها بخيلة لا تصرف المال وإن فاته الخير بسبب صرف المال، حتى يعلم الإنسان أن اللازم عليه محاربة شحه، إلى غير ذلك من الآيات التي يظهر منها ابتداءً أنها خاصة، ثم إن الجهر عند الرسول ﷺ والإنسان الرفيع الشأن لا يكون مذموماً إذا كان

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمًۢا بِجَهَـٰلَةٍ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَـٰدِمِينَ ۝٧﴾

بأمره، كما إذا أمر بالمناداة، وهكذا إذا أمر بنحو المناداة كما ورد أنهﷺ أمرهم برفع أصواتهم في تلبية الحج، حين أمره جبرائيلعليه السلام «بالعج والثج» أي رفع الصوت، وذبح الهدى[1].

[٧] وحيث ذكر سبحانه أدب المؤمنين مع رسول اللهﷺ ذكر تكليف بعضهم اتجاه بعض **﴿يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبإٍ﴾** بخبر **﴿فتبينوا﴾** فتعرفوا وتفحصوا هل صدق في خبره أم لا، فإن ظهر أنه كان صادقاً رتبوا الأثر عليه وإلا فاتركوا خبره، وإنما أمرنا بالتبيّن لـ **﴿أن﴾** لا **﴿تصيبوا قوماً﴾** بمكروه من جراء خبر ذلك الفاسق **﴿بجهالة﴾** بجهل منكم بالواقع، اعتماداً على خبر ذلك الفاسق **﴿فتصبحوا﴾** تكونوا **﴿على ما فعلتم﴾** من الأخذ بخبر ذلك الفاسق وترتيب الأثر عليه **﴿نادمين﴾** فإن النبيﷺ بعث وليد بن عقبة لجمع صدقات بني المصطلق وكان بينه وبينهم عداوة، فلما سمعوا بمجيئه استقبلوه، فظن أنهم يريدون قتاله، ولم يتحقق في الأمر، وإنما رجع إلى رسول اللهﷺ، وقال إنهم ارتدوا ومنعوا الزكاة، فأظهر الرسول الاهتمام بقتالهم، فنزلت الآية الكريمة، هكذا في بعض الروايات غير النقية السند، وفي بعض الروايات الأخر، أنها نزلت في بعض أزواج النبيﷺ حين اتهمت ماريا بالزنى، والظاهر أنه لا منافاة بين الأمرين، لأن الآية عامة تشمل كل ما كان كذلك، فهما مصداقان، ويمكن نزولها مرتين، كما في بعض الآيات حيث نزلت مرتين، حالها

---

(١) وسائل الشيعة: ج١٢ ص٣٧٨ .

وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ

حال ما إذا رأيت إنساناً يظلم فتقول له «إن الله يأمر بالعدل. . .» وإذا رأيت آخر يظلم، تقرأ له نفس الآية، ثم لا يقال كيف أرسل الرسول ﷺ الفاسق لجمع الصدقات؟ ثم كيف همّ بقتالهم مع أن العقلاء لا يعتمدوا على خبر الفاسق، والجواب أن فسقه لم يكن ظاهراً قبل ذلك، بل أظهره القرآن، والرسول أظهر إرادة القتال، لا إنه أراد أن يقاتل واقعاً وكثيراً ما كان الرسول ﷺ يظهر شيئاً لمصلحة، وإن كان لا يريده واقعاً، وقد كان إظهار الرسول ﷺ لأن بعض الصحابة أشار إليه بحرب بني المصطلق كما ورد في التفاسير[1].

[٨] ولذا قال سبحانه ﴿**واعلموا**﴾ أيها المسلمون ﴿**أن فيكم رسول الله**﴾ فلا تسيئوا الأدب معه، بالكذب عليه، كما كذب الوليد، ولا تشيروا عليه بما تشتهون، كما أشرتم إليه بحرب بني المصطلق، فإنه ﷺ ﴿**لو يطيعكم في كثير من الأمر**﴾ من الأمور التي تشيرون عليه بها، فـ «الأمر» اسم جنس ﴿**لعنتم**﴾ لوقعتم في العنت، لأن كل أحد يأتي إليه، ويقول له ما يرى هو من نظرته الخاصة، بينما الرسول لا يعمل إلا بما يصلح العموم، كما هو شأن الكبراء حيث يلاحظون المصلحة العامة، وإلا فهذا يقول ضد ذلك، وذلك يقول ضد هذا، وكل يريد تنفيذ الرسول ﷺ ما يشير به إليه، ومن المعلوم أن ذلك يوجب مشقة المسلمين، لأن معنى سماع الرسول ﷺ كلامهم، أن يطرد هذا ويعاقب هذا، وهلم جرا، ثم بين سبحانه، أن ترك إطاعة الرسول ﷺ

---

(١) راجع مجمع البيان: ج٩ ص٢٢٠ .

وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ﴿٨﴾ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ

للمؤمنين الذين يشيرون إليه ﷺ بآرائهم، لا يسبب لأولئك المؤمنين كراهية للإيمان أو للرسول ﷺ، فإن العادة عند الناس أن كبراءهم إذا لم يقضوا حوائجهم كرهوهم، بل أحياناً صاروا ضد أولئك الكبراء، لكن المؤمنين ليسوا كذلك، فليس التفافكم أيها المؤمنون حول الرسول، لإطاعته لكم ولأخذه بأقوالكم **﴿ولكن الله حبب إليكم الإيمان﴾** وصرتم تحبون الإيمان حتى صرتم تحبون الرسول، وإن لم يأخذ بنصائحكم وإرشاداتكم **﴿وزينه في قلوبكم﴾** قد يكون الشيء محبوباً لكنه غير مزين، كولد الإنسان القبيح المنظر، وقد يكون محبوباً وجميلاً، كولده الجميل، وهكذا الإيمان محبوب وجميل، وذلك حيث خلق الله فطرة الإنسان، بحيث يحب المحبوب ويرى جمال الجميل، ولذا نسب الفعلين «حبب. . . وزين» إلى نفسه تعالى **﴿وكره إليكم الكفر﴾** جعله مكروها **﴿والفسوق﴾** أي الكذب، وقرينة «إن جاءكم فاسق» وأصل الفسوق الخروج، ويسمى الفاسق فاسقاً لخروجه عن الطاعة **﴿والعصيان﴾** كل معصية و**﴿أولئك﴾** الذين يحبون الإيمان ويكرهون الكفر والعصيان **﴿هم الراشدون﴾** لهم رشد عقلي، حيث يحبون الجميل، ويكرهون القبيح.

[٩] حبب الله إليهم الإيمان، وكره إليهم الكفر والعصيان **﴿فضلاً من الله﴾** زيادة على أصل خلقتهم وإعطائهم النعم المادية، وإنما تفضل الله ذلك عليهم، دون الكافرين والعصاة، لأنهم تهيئوا لاستماع كلام الله

وَنِعۡمَةٗۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴿٩﴾ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱقۡتَتَلُواْ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَاۖ فَإِنۢ بَغَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا عَلَى ٱلۡأُخۡرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِۚ فَإِن فَآءَتۡ

وسلكوا طريق العقل والفكر ﴿**ونعمة**﴾ الإعطاء فضل، والمعطي - بصيغة المفعول - نعمة، تسبب أن ينعم بال الإنسان ﴿**والله عليم**﴾ بأحوال الملتفين حول رسول الله ﷺ ولذا جعل بعضهم بحيث حبب إليهم الإيمان وكره إليهم الكفر والعصيان ﴿**حكيم**﴾ يضع الأشياء موضعها ويعطي كل ذي حق حقه.

[١٠] وحيث كان الانسياق وراء قول الوليد يوجب اقتتال المؤمنين، بعضهم مع بعض، لكن الله عصم رسوله، فلم تقع مثل هذه الحرب، كأن الكلام محل سؤال أنه إذا وقعت مثل هذه الحرب فماذا هو التكليف؟ وقد أجاب القرآن عن ذلك بقوله ﴿**وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا**﴾ الجمع باعتبار المعنى، فإن كل طائفة تتكون من جماعة من الأفراد ﴿**فأصلحوا**﴾ أيها المسلمون الخارجون عن المعركة ﴿**بينهما**﴾ بالنصيحة والدعوة إلى الكف عن القتال والتصالح فيما بينهما ﴿**فإن**﴾ لم تقبل إحداهما النصح بل﴿**بغت**﴾ من البغي بمعنى الظلم والتعدي ﴿**إحداهما على الأخرى**﴾ وهذا هو الغالب أن تكون إحداهما باغية ظالمة، فإن قوله «فإن بغت» ليس المراد به أنه ليس من أول النزاع باطل وحق، إذ لا يعقل حقان متقاتلان، بل الجاهل منهما ببطلانه، يظهر له جهله في الأثناء، ويعلم أنه باغ ﴿**فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء**﴾ ترجع ﴿**إلى أمر الله**﴾ بالكف عن القتال والرجوع إلى الوحدة الإسلامية ﴿**فإن فاءت**﴾ وتركت القتال واستعدت لأن تقبل حكم

﴿فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿١٠﴾ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١١﴾﴾

الإسلام في العداء الذي وقع بينها وبين الطائفة الأخرى ﴿**فأصلحوا**﴾ أيها المؤمنون الخارجون عن المعركة ﴿**بينهما بالعدل**﴾ فإن الإصلاح يمكن أن يكون بالجور، بأن تقبل الطائفة الأضعف بما يوجب هضم بعض حقها ﴿**وأقسطوا إن الله يحب المقسطين**﴾ الذين يحكمون بالقسط وقد ورد في بعض التفاسير أن الآية نزلت في قتال حدث بين الأوس والخزرج بالسعف والنعال، وكان ذلك في عهد رسول الله ﷺ فأصلح بين الجانبين[1]، ولا يخفى أن ما ورد في تأويل الآية بقتال الإمام في البصرة، لا يدل على إيمان من حاربه، إلا بالمعنى العام للإيمان، إذ كثير ما يطلق الإيمان على الظاهري منه.

[١١] ﴿**إنما المؤمنون إخوة**﴾ في الإيمان فكما أن الأخ النسبي يحنو على أخيه كذلك المؤمن يحنو على المؤمن ﴿**فأصلحوا**﴾ أيها المؤمنون ﴿**بين أخويكم**﴾ إذا حدث بينهما شقاق وشجار ﴿**واتقوا الله**﴾ خافوه فلا تنازعوا، وإن تنازع اثنان منكم فلا تتركوهما أعداء بل أصلحوا بينهما ﴿**لعلكم ترحمون**﴾ فإن المتقي لا يعلم هل يموت على التقوى وهل يبقى على التقوى في مستقبل عمره، فكونه مرحوماً ليس مقطوعاً به، بل لعله يرحم.

[١٢] وإذ كان المؤمنون إخوة، فاللازم عليهم أن لا يفعل البعض ما يسيء

---

(١) مجمع البيان: ج٩ ص٢٢٠ .

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ

إلى البعض الآخر ﴿**يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم**﴾ رجال من رجال ﴿**عسى أن يكونوا**﴾ أولئك الذين سخر منهم ﴿**خيراً منهم**﴾ من الساخرين، وعسى بمعنى لعل، وهذه العلة لتأكيد النهي، وإلا فالسخرية محرمة عقلاً وشرعاً، حتى بالنسبة إلى المساوي والأدون ﴿**ولا**﴾ تسخر ﴿**نساء من نساء عسى**﴾ لعل ﴿**أن يكن**﴾ تلك المسخر منهن ﴿**خيراً منهن**﴾ من الساخرات وفي الصافي عن القمي أنها نزلت في عائشة وحفصة حيث كانتا تسخران من صفية وتقولان لها يا بنت اليهودية فشكتهما إلى رسول الله ﷺ فقال لها ﷺ: قولي لهما أبي هارون نبي الله وعمي موسى كليم الله وزوجي محمد ﷺ رسول الله، ولما قالت لهما ذلك، قالتا: علمك هذا رسول الله[1] ﴿**ولا تلمزوا**﴾ لا تعيبوا باللسان أو بالإشارة ﴿**أنفسكم**﴾ لأن عيب الآخرين، من المؤمنين عيب على النفس، لأن المؤمنين وحدة واحدة، كما قال تعالى (وَلاَ تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ)[2] ﴿**ولا تنابزوا بالألقاب**﴾ التنابز باب المفاعلة من النبز بمعنى أن يجعل كل واحد منهما للآخر لقباً سيئاً، والنبز حرام، وإنما جاء بلفظ التنابز للدلالة على أن النبز لا بد وأن ينتهي إلى المنابزة ﴿**بئس الاسم**﴾ أي العلامة لأنه مشتق من الوسم ﴿**الفسوق**﴾ الخروج عن طاعة الله، بأن كانت علامة المؤمن الفسوق

---

(١) تفسير القمي: ج٢ ص٣٢١ .

(٢) النساء: ٣٠ .

بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ

﴿**بعد الإيمان**﴾ بعد أن آمن وصار شعاره واسمه «المؤمن» ثم يصبح شعاره واسمه «الفاسق» لأنه فعَل ما نهى الله عنه ﴿**ومن لم يتب**﴾ عن ما ارتكبه من المعصية ﴿**فأولئك هم الظالمون**﴾ لأنفسهم حيث أنهم عصوا ثم لم يتوبوا، أما من تاب بعد عصيانه فلا يستحق أن يسمى ظالماً.

[١٣] وبعد أن نهى المسلمون من التقاتل، نهوا عن الاستهزاء واللمز والنبز، ومن الواضح أن كل مرتبة متأخرة أنزل من المرتبة السابقة، ولذا جاء السياق لينهي عن الأنزل من تلك أيضاً وهو سوء الظن، فقال سبحانه ﴿**يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن**﴾ أي الظن السيئ وإنما قال كثيراً لأنه لا بد وأن يوجد في الكثير من الظن السيئ الظن المحرم، بخلاف قليل الظن فإنه بما لا يكون فيه المحرم، بالإضافة إلى أن قليل الظن ليس تحت اختيار الإنسان فإنه حالة نفسية قد تأتي بدون الاختيار فلا يمكن النهي عنه، أما كثير الظن فإنه تحت الاختيار إذ الكثرة لا تحصل إلا بالتتبع والانسياق وراء الإنكار، وإنما نقول اجتنبوا كثيراً من الظن لـ ﴿**إن بعض الظن إثم**﴾ وقد قرر في علم أصول الفقه وجوب الاجتناب من أطراف الشبهة المحصورة فإذا كان بعض الظن إثماً وجب الاجتناب من الأطراف المحتملة لذلك، والظن السيئ إما حرام بنفسه، وإما حرّم لأنه مقدمة للعمل المحرم، إذ الذي يظن سوءً غالباً ما يرتب الأثر العملي على ظنه السيئ ﴿**ولا تجسسوا**﴾ لا تبحثوا عن عورات

وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُۚ وَاتَّقُوا اللَّهَۚ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٣﴾ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُواۚ

المسلمين وأمورهم الخفية ﴿**ولا يغتب بعضكم بعضاً**﴾ والغيبة هي ذكرك أخاك بما يكره، ولو بالإشارة ﴿**أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً**﴾ فالغيبة بمنزلة أكل لحم الأخ الميت في شدة قبحه وكراهته، ولعل التشبيه من باب أن للأخ ذاتاً وذكراً فكما أن قطع قطعة من لحمه ولوكها في الفم قبيح كذلك قطع قطعة من ذكره «عرضه» ولوكها في الفم كذلك، وقد جعل كونه غائباً مثل كونه ميتاً في عدم شعور كليهما بما يصنع بلحمه وبذكره ﴿**فكرهتموه**﴾ فكما كرهتم أكل لحمه اكرهوا أكل عرضه ﴿**واتقوا الله**﴾ خافوه في عصيانه، وإذا اتقيتم الله وتبتم عما سلف منكم فـ ﴿**إن الله تواب**﴾ كثير قبول التوبة ﴿**رحيم**﴾ يرحم العباد فلا يعاقبهم بعد توبتهم.

[١٤] وحيث أن المعاصي السابقة الذكر تنشأ من رؤية الإنسان نفسه أرفع من غيره، بيّن سبحانه أن لا رفعة لأحد على أحد إلا بالتقوى، وإذا حصلت التقوى امتنع الإنسان عن تلك المعاصي ﴿**يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى**﴾ آدم وحواء عليهما السلام أو أب وأم كل فرد، فلا تفاضل في أصل الخلقة ﴿**وجعلناكم شعوباً**﴾ تجتمعون تحت عنوان واحد، كاللغة والمدنية واللون ونحوها ﴿**وقبائل**﴾ تجتمعون في أب تتشعب القبيلة وتنحدر منه، وهذان أيضاً لا يوجبان التفاضل، وإنما جعلناكم شعوباً وقبائل ﴿**لتعارفوا**﴾ لأجل أن يتعرف بعضكم على

إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٤﴾ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ

بعض بسبب القبيلة، أو بسبب أنه من الشعب الفلاني ﴿**إن أكرمكم عند الله أتقاكم**﴾ أكثركم تقوى فمن أراد الرفعة عند الله فليجدّ في أن يكون أكثر تقوى من الآخرين، وكلما زاد الإنسان تقوى زاد كفاءة، منتهى الأمر أن الكفاءة عند أهل الدنيا، عبارة عن الكفاءات الدنيوية فقط، وعند الله هي الكفاءات الدنيوية بالإضافة إلى الكفاءات الأخروية، لأن الإسلام دنيا وآخرة ﴿**إن الله عليم**﴾ بكل أموركم ﴿**خبير**﴾ والخبير فوق العليم، لأنه عبارة عن العلم والتجربة، فالذي تعلم الطب ولم يجرب لا يسمى خبيراً، بخلاف ما إذا جرب، والمراد به في الله سبحانه أنه في غاية العلم والإدراك، فمن أطاعه علم ذلك وجزاه ومن عصاه علم ذلك وأخزاه.

[١٥] وإذ تقدم شرائط الإيمان، بالانتهاء عن كل معاصي الله تعالى، حتى من مثل الظن الباطني، ذكر سبحانه أن الذي لم يشتمل على هذه الشرائط لا يحق له أن يقول آمنت ﴿**قالت الأعراب**﴾ هم أهل البادية ـ كما تقدم الكلام في ذلك ـ ﴿**آمنا**﴾ بك يا رسول الله وبما جئت به ﴿**قل لم تؤمنوا**﴾ لعدم توفر شرائط الإيمان فيكم ﴿**ولكن قولوا أسلمنا**﴾ فإن الإسلام هو الانقياد والدخول في السلم وإظهار الشهادتين، وهذه كانت موجودة في الأعراب ﴿**ولما**﴾ وبعد لم ﴿**يدخل الإيمان في قلوبكم**﴾ لأنه إذا دخل القلب حصلت الطاعة بجميع أوامر الإسلام، ولا يخفى أنه قد يطلق الإيمان ويراد به

وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٥﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٦﴾ قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ

الإسلام، وقد يطلق على الأخص من الإسلام ﴿**وإن تطيعوا الله ورسوله**﴾ في كل أمر ونهي ﴿**لا يلتكم**﴾ لا ينقصكم ﴿**من أعمالكم شيئاً**﴾ بل يعطي أجوركم كاملة ﴿**إن الله غفور**﴾ لسابق الذنوب ﴿**رحيم**﴾ بعباده يتفضل عليهم زيادة على غفران ذنوبهم، وقوله «لا يلتكم» تشويق للأعراب أن يؤمنوا زيادة على إسلامهم.

[١٦] وإنما لم يدخل الإيمان في قلوب الأعراب بعد، لأن المؤمن الصادق هو الذي كانت له صفات خاصة مما لا تتوفر في هؤلاء الأعراب فـ ﴿**إنما المؤمنون**﴾ هم ﴿**الذين آمنوا بالله ورسوله**﴾ إيماناً من عمق قلوبهم ﴿**ثم لم يرتابوا**﴾ لم يشكوا في صدق الرسول ﷺ ﴿**وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله**﴾ لإعلاء كلمة الله ولإنقاذ المستضعفين من براثن المستنكرين، وكان الإنقاذ لأجل أمر الله ﴿**أولئك هم الصادقون**﴾ الذين صدقوا في دعواهم الإيمان، وإنما قال سبحانه «ثم لم يرتابوا» لأن كثيراً ممن أسلموا كانوا يشكون حين ما كان الرسول ﷺ يأمرهم بأمر لا يلائم أذواقهم.

[١٧] وإذا كان لكم إيمان صادق فالله يعلم ذلك، بدون أن تقولوا بأفواهكم آمنتم فلا حاجة إلى قولكم، بل اللازم واقع الإيمان ﴿**قل**﴾ لهم يا رسول الله ﴿**أتعلمون الله بدينكم**﴾؟ أي تخبرونه بقولكم: آمنا؟ وهذا

﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٨﴾ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾

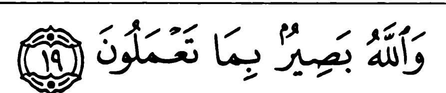
استفهام إنكاري **﴿والله يعلم ما في السماوات وما في الأرض﴾** فهل من يعلم كل شيء يخفى عليه إيمانكم -إن كان لكم إيمان- حتى يحتاج إلى إخباركم بأنكم آمنتم؟ **﴿والله بكل شيء عليم﴾** وهذا أعم من «يعلم. . .» لأن الأول يشمل الموجودات فقط، وهذا يشمل حتى غير الموجودات، قال بعض المفسرين روي أنه لما نزلت الآية المتقدمة جاءوا وحلفوا أنهم مؤمنون معتقدون فنزلت هذه الآية(١).

[١٨] وإذا كان اللازم أن لا يتفوه الإنسان بأنه مؤمن، لأن الله لا يحتاج إلى ذلك بل هو عليم بكل شيء، فمن اللازم المؤكد أن لا يمنّ الإنسان بإيمانه **﴿يمنون عليك﴾** يا رسول الله **﴿أن أسلموا﴾** فيعدون إسلامهم عليك منّة **﴿قل لا تمنوا علي إسلامكم﴾** فأنتم الذين انتفعتم بإسلامكم، لا أنا **﴿بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان﴾** لأنه أكبر إعطاء من الله للإنسان حيث يبصر بسببه طريقه في الدنيا ويسعد به في الآخرة، ومعنى المنة أنه أحسن إليه **﴿إن كنتم صادقين﴾** في ادعاء الإيمان، وإلا فعدم منة الله، من باب السالبة بانتفاء الموضوع.

[١٩] **﴿إن الله يعلم غيب السماوات والأرض﴾** ما غاب عن الحواس فيهما

---

(١) مجمع البيان: ج٩ ص٢٣٢ .



فكيف يخفى عليه إيمانكم؟ وكيف يخفى عليه صدقكم وكذبكم في الإيمان؟ ﴿**والله بصير بما تعملون**﴾ فهو يرى قلوبكم التي فيها الإيمان والتي ليس فيها الإيمان، ويرى أعمال جوارحكم التي تأتون بها حسب إيمانكم أو حسب عدم إيمانكم، فلا يخفى عليه سركم ولا علنكم.



سورة (ق)

مكية/آياتها (٤٦)

سميت السورة بهذا الاسم لاشتمالها على هذا اللفظ : «ق» وهي كباقي السور المكية مشتملة على قضايا العقيدة ولما ختمت سورة الحجرات بأحوال المنافقين وأشباههم، افتتحت هذه السورة بأحوال الكافرين.



[١] ﴿**بسم الله الرحمن الرحيم**﴾ الذي من تمسك به كان من الناجين ومن انحرف عنه بكفر أو نفاق كان من الهالكين «الرحمن الرحيم» الذي يرحم تفضلاً في إيجاد الإنسان، ثم يرحم في إعطائه ما يحتاج إليه من الأمور المادية والمعنوية.

قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ﴿٢﴾ بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَـٰفِرُونَ هَـٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٣﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا

[٢] ﴿ق﴾ ورد عن الصادق عليه السلام أن «ق» هو الجبل المحيط بالأرض وخضرة السماء منه وبه يمسك الله الأرض أن تميد بأهلها[1]. أقول: إن الأمواج المحيطة بالأرض مما يشملها الهواء، سميت بالجبل، لأنها مثله في الارتفاع والشموخ، ومن المعلوم أن تراكم الذرات في هذا الجو السيّال يسبب لوناً خاصاً، هو لون السماء، ولولا هذا الغلاف الجوي لهلك الإنسان، لما تكون الأرض معرضاً لتساقط الأحجار، ملايين الأحجار من الجو ـ كما ثبت في العلم الحديث ـ وقد تقدم الكلام في فواتح السور وفي إعرابها ﴿**والقرآن**﴾ قسماً بالقرآن ﴿**المجيد**﴾ ذي المجد أي العظمة والشرف، وجواب القسم محذوف أي قسماً بالقرآن المجيد، أنه حق، بقرينة ما بعده ـ وهناك احتمالات أخر مذكورة في التفاسير.

[٣] ﴿**بل عجبوا**﴾ الكفار ﴿ **أن جاءهم منذر**﴾ هو الرسول الذي ينذرهم من عاقبة كفرهم﴿**منهم**﴾من جنسهم لا من جنس الملائكة والجن، والمراد بالمنذر هو رسول الله صلى الله عليه وآله ﴿**فقال الكافرون هذا**﴾كون النبي منذراً من قبل الله تعالى﴿**شيء عجيب**﴾هو الشيء الذي لم يألفه الإنسان ولم يتوقعه.

[٤] وحيث كان أنذرهم بالعاقبة السيئة بعد الموت قال الكفار ـ بصدد بيان تعجبهم ـ ﴿**أإذا متنا وكنا تراباً** ﴾لأن الميت بعد زمان من موته يتحول إلى تراب، أنرجع أحياءً، كما يقول الرسول صلى الله عليه وآله؟ وقد حذف جواب

---

(١) بحار الأنوار: ج٨٩ ص٣٧٣ .

ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ﴿٤﴾ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ ۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ ﴿٥﴾ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ﴿٦﴾

«إذا» لوضوحه ﴿ذلك﴾ الذي يقوله محمد ﷺ، من الرجوع أحياء ﴿رجع بعيد﴾ يبعد في نظرنا أن يكون له حقيقة.

[٥] ولماذا بعيد هل لأنا لا نقدر على الإعادة؟ وجوابه: أن الذي يقدر على الابتداء يقدر على الإعادة أو لأن أجزائه تنتشر في الأرض، ولا نتعرف أين سقطت تلك الأجزاء؟ وجوابه ﴿**قد علمنا ما تنقص الأرض منهم**﴾ ما تأكل من أجسادهم إذا ماتوا، فإذا علمنا ما تأكل الأرض من لحومهم وعظامهم وسائر أجزائهم، مع أن أكل الأرض شيء لا يراه حتى من ينظر، فكيف لا نعرف أجزاءهم المبعثرة بعد تحولها إلى تراب ﴿**وعندنا كتاب حفيظ**﴾ يحفظ كل شيء، وهو اللوح المحفوظ، ومن المعلوم أنه سبحانه لا يحتاج إلى الكتاب، وإنما ذكر ذلك لتقريب أذهان الكفار، وفي ذلك الكتاب يحفظ خصوصيات الإنسان الحي، والأجزاء المبعثرة من الميت فإذا أريد بعث الميت أعيد بدون زيادة ولا نقيصة، بتلك الخصوصيات والمزايا التي كانت له حال الحياة.

[٦] ﴿**بل**﴾ إنهم زادوا على التعجب، بأن كذبوا بالحق، فلم يقفوا على الشك والتردد، مع أنهم لا حجة لهم في هذا التكذيب لأنهم في أمر مضطرب فقد ﴿**كذبوا بالحق لما جاءهم**﴾ وهو الرسول والقرآن، وما جاء به الرسول من العقيدة والشريعة، وتكذيبهم بدون دليل أفظع من تعجبهم السابق ـ ولذا قال سبحانه «بل» ﴿**فهم في أمر مريج**﴾ مضطرب

أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٧﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٨﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٩﴾

فتارة يقولون أنه ﷺ شاعر، وتارة كاهن وتارة مسحور، وتارة ساحر، وتارة يعلمه بشر، وذلك يدل على أنهم لا يستندون إلى حجة.

[٧] ﴿**أفلم ينظروا**﴾ حين كفروا بالله، وبقدرته على البعث ﴿**إلى السماء فوقهم**﴾ ألا يدل ذلك على الإله العليم والقدير؟ وهل من علمه وقدرته إلى هذا الحد ألا يقدر على البعث؟ ﴿**كيف بنيناها**﴾؟ فإن نظام تسيير الكواكب الدقيق من أغرب البناءات ﴿**وزيناها**﴾ بالكواكب ﴿**وما لها من فروج**﴾ فرجة خالية عن النظام، والدليل على عدم الفرجة، أن الكواكب تسير بانتظام معين على طول الزمان، ولو كان مكان في السماء بدون نظام كان الكوكب إذا وصل إليه سبّب اضطرابه، ولكن هذا ما ليس بموجود.

[٨] ﴿**والأرض مددناها**﴾ بسطناها، فهي مدورة لا مثل الإبرة والهرم وما أشبه مما ليس قابلاً للسكنى ﴿**وألقينا فيها رواسي**﴾ جمع راسية، وهي الجبل، أي الجبال الثابتة، والإلقاء بمعنى الخلق من قبيل قولهم «ضيق فم الركية» فليس المراد الإلقاء بعد خلق الأرض، ولولا الجبال لتفتت الأرض في دورانها السريع ﴿**وأنبتنا فيها من كل زوج**﴾ من كل صنف ﴿**بهيج**﴾ يبتهج به الإنسان ويفرح عند النظر إليه، لحسنه وجماله.

[٩] وإنما فعلنا كل ذلك ﴿**تبصرة**﴾ ليتبصر به ﴿**وذكرى**﴾ وليتذكر به ﴿**لكل عبد منيب**﴾ راجع إلى ربه عن غفلته مفكر في بدائع خلقه، والفرق بين

وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴿١٠﴾ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١١﴾ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ﴿١٢﴾

التبصرة والتذكرة، أن الأولى لمن لا يعرف فيكون ما خلق سبب عرفانه، والثانية لمن عرف ونسي فيكون ما خلق سبب تذكرته.

[١٠] ﴿**ونزلنا من السماء ماءً**﴾ المطر ﴿**مباركاً**﴾ كثير البركة، والبركة من «برك» بمعنى ثبت ودام فإن ماء السماء دائم لأنه يختزن في فجاج الأرض فيكون عيوناً وأنهاراً، فينتفع به الإنسان طول حياته ﴿**فأنبتنا به**﴾ بماء السماء ﴿**جنات**﴾ بساتين للجمال والانتفاع بمختلف الإنتفاعات ﴿**وحب الحصيد**﴾ حب الزرع الذي من شأنه أن يحصد، كالحنطة والشعير وغيرهما.

[١١] ﴿**و**﴾ أنبتنا به ﴿**النخل باسقات**﴾ أي طوالاً، والمراد بالنخل جنسه، ولذا جاءت صفته جمعاً ﴿**لها طلع نضيد**﴾ منضود بعضه فوق بعض، والطلع وعاء الثمر.

[١٢] أنبتناها ﴿**رزقاً للعباد**﴾ والرزق يشمل الرؤية أيضاً، لأن كل ما يعطيه الله للإنسان مما يتمتع بمنظره أو بشمه أو بأكله أو بلبسه أو غير ذلك، فهو رزق، والمراد بالعباد أعم من الإنسان والحيوان، لأن كل ذي روح عبد لله ﴿**وأحيينا به**﴾ بذلك الماء الذي أنزلناه من السماء ﴿**بلدةً ميتاً**﴾ أرضاً ميتة لا زرع فيها ولا ما يتبع الزرع من الإنسان والحيوان، وحياة الأرض تحركها والتحرك عليها، وسمى الأرض بلدة، مجازاً بالمشارفة لأن الماء يجعل الأرض بلداً ﴿**كذلك**﴾ كما أخرجنا من السماء الماء ومن الأرض النبات ﴿**الخروج**﴾ تخرجون انتم من قبوركم عند بعثكم.

كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٣﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ ﴿١٤﴾ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٥﴾ أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ

---

[١٣] وإن كذبك هؤلاء الكفار، يا رسول الله، فلا تغتم، فإنا سوف نجازي المكذبين ﴿**كذبت قبلهم**﴾ قبل كفار مكة ﴿**قوم نوح وأصحاب الرس**﴾ الذين رسوا نبيهم في الأرض وأقبروه حياً، وكانت مدنهم بين إيران وروسيا، وكانوا على نهر يسمى إلى اليوم بنهر «أرس» وتفصيل القصة مذكورة في قصص الأنبياء وفي التفاسير كتفسير الصافي في سورة الفرقان[١] ﴿**وثمود**﴾ قوم صالح عليه السلام.

[١٤] ﴿**وعاد**﴾ هم قوم هود عليه السلام ﴿**و**﴾ قوم ﴿**فرعون**﴾ فإنه قد يطلق اسم الكبير على كل قومه ﴿**وإخوان لوط**﴾ عليه السلام ولعل التعبير بالإخوان لأجل التفنن البلاغي، كما أن الظاهر أنه لأجله، اختلف التعبير بقوم وأصحاب، وذكر فرعون، إلى غير ذلك.

[١٥] ﴿**وأصحاب الأيكة**﴾ الغيضة وهم قوم شعيب عليه السلام ﴿**وقوم تبع**﴾ وحيث سبق تفاصيل قصص هؤلاء لم نكررها ﴿**كل**﴾ كل هؤلاء ﴿**كذب الرسل**﴾ المرسلة إليهم ﴿**فحق**﴾ فثبت وحل ﴿**وعيد**﴾ وعيدي عليهم بالعذاب، وفي هذا تسلية للرسول صلى الله عليه وآله وسلم وتهديد لهم.

[١٦] ﴿**أفعيينا**﴾ هل عجزنا ﴿**بالخلق الأول**﴾ أي هل أصابنا العجز بعد أن خلقنا الخلق أولاً، وفي بعض التفاسير أفعجزنا عن الإبداء حتى نعجز عن الإعادة؟[٢] لكن المتبادر من الآية ما ذكرناه ﴿**بل هم**﴾ لا ينكرون

---

(١) تفسير القمي: ج٤ ص١٣ . (٢) مجمع البيان: ج٩ ص٢٣٩ .

فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٧﴾ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٨﴾

أنا لم نعجز عن الخلق الأول وإنما ينكرون البعث لأنهم ﴿**في لبس**﴾ واشتباه والتباس ﴿**من خلق جديد**﴾ فليس إنكاراً للسابق وإنما شكاً بالنسبة إلى اللاحق، ويحتمل أن يراد بـ «لبس» أي لباس، لأن خلايا الإنسان تتبدل كل آن فهم على طول الزمان في خلق جديد فمن يعرف كونه يبعث كل آن كيف ينكر البعث في الآخرة.

[١٧] إننا نعلم أن الإنسان ينساق وراء وساوس نفسه في البعث، مع أن اللازم أن ينساق وراء الدليل والبرهان ﴿**ولقد خلقنا الإنسان**﴾ فمنا البدء ومنا الإعادة ﴿**ونعلم ما توسوس به نفسه**﴾ من إنكار البعث وغيره ﴿**و**﴾ كيف لا نعلم وساوس نفسه والحال أنا ﴿**نحن أقرب إليه من حبل الوريد**﴾ الوريدان هما العرقان المكتنفان بصفحتي العنق في مقدمه، وإضافة الحبل إليه للبيان، أي الحبل الذي هو وريد، ومعنى قربه سبحانه قربه علماً واطلاعاً، فإن الله لا مكان له، ولعل ذكر حبل الوريد، لأنه مربوط بالقلب وبالمخ فهو وسط بينهما، ولا أقرب منه إلى الإنسان، الذي إنسانيته بمخه وقلبه.

[١٨] نحن أقرب ﴿**إذ**﴾ في الزمان الذي ﴿**يتلقى**﴾ يأخذ ويسجل ﴿**المتلقيان**﴾ الملكان الموكلان بالإنسان لحفظ أعماله وأفكاره، فالمراد أنه غني عن الملكين لأنه أقرب إلى الإنسان منهما، إلا أنه تعالى حيث جعل الدنيا دار الأسباب، جعلها سبباً لحفظ الأعمال، كما جعل عزرائيل سبباً لقبض الأرواح ﴿**عن اليمين وعن الشمال قعيد**﴾

مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٩﴾ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿٢٠﴾ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ ﴿٢١﴾

فإن أحدهما في طرف اليمين والآخر في طرف الشمال، ملازم للإنسان كالقاعد إلى جنبه.

[١٩] ﴿**ما يلفظ**﴾ الإنسان ﴿**من قول**﴾ وذكر اللفظ من باب المثال، وإلا فكل عمل للإنسان بل وكل فكر له مراقب، ﴿**إلا لديه رقيب**﴾ يراقبه ويحفظه، وهو الملكان، وحيث أنه أراد جنس الرقيب لم يأت بصيغة التثنية ﴿**عتيد**﴾ مهيأ حاضر لا يشتبه.

[٢٠] ﴿**و**﴾ هكذا تستمر رقابة الملكين للإنسان إلى أن ﴿**جاءت سكرة الموت**﴾ إليه فإن للموت سكرة تغطي عقله كالسكران ﴿**بالحق**﴾ بالذي قاله الأنبياء من حقائق الآخرة، والتي كان ينكرها الكفار، فيرونها معاينة عند موتهم، ويقال لهم حينذاك و﴿**ذلك**﴾ المجيء ﴿**ما كنت**﴾ أيها الإنسان ﴿**منه تحيد**﴾ تفيء، فالآن قد وصلت إليك حيث لا ينفعك الندم والتوبة.

[٢١] وبعد ذلك ﴿**ونفخ في الصور**﴾ فكما أنه إذا أريد جمع الناس نفخوا في الأبواق إعلاماً لهم حتى يجتمعوا كذلك إذا أراد جمع الخلائق وإحيائهم للبعث، ولعله سمي صوراً لخروج صور الناس منه، كما ورد في الحديث، أن للصور ثقباً بعدد الخلائق، فتخرج النفوس منها عند البعث ﴿**ذلك**﴾ اليوم ﴿**يوم**﴾ تحقق ﴿**الوعيد**﴾ الذي وعدناه في الدنيا، فقد كنا وعدنا المؤمن بالثواب والكافر بالعقاب، وفي هذا اليوم يرون ذلك.

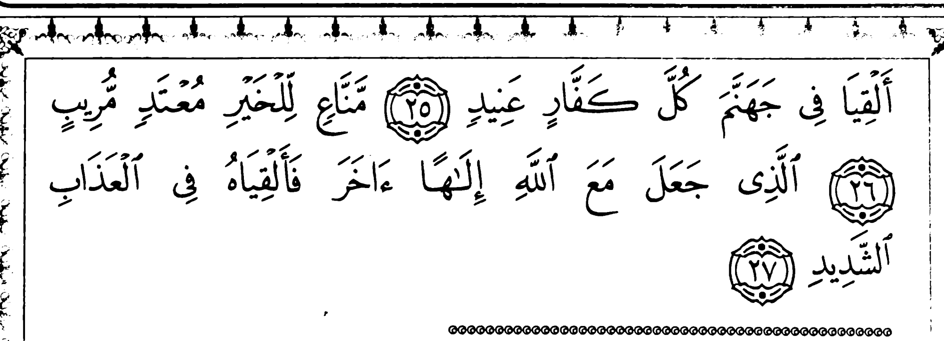
﴿وَجَآءَتۡ كُلُّ نَفۡسٖ مَّعَهَا سَآئِقٞ وَشَهِيدٞ ٢٢ لَّقَدۡ كُنتَ فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا فَكَشَفۡنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلۡيَوۡمَ حَدِيدٞ ٢٣ وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ ٢٤﴾

[٢٢] ﴿**وجاءت كل نفس معها سائق**﴾ يسوقها إلى محشرها ﴿**وشهيد**﴾ يشهد عليها بما عملت في الدنيا، والظاهر أن المراد جنس الشهيد، فيشمل «المتلقيان» الذي سبق.

[٢٣] ويقال له حينذاك ﴿**لقد كنت في غفلة**﴾ فعدم الاستعداد الكامل لهذا اليوم جهلاً أو عناداً غفلة ﴿**من هذا**﴾ اليوم فلم تستعد له ﴿**فكشفنا**﴾ الآن ﴿**عنك غطاءك**﴾ الذي كان مانعاً عن رؤية الآخرة والاعتقاد بها ﴿**فبصرك اليوم حديد**﴾ نافذ إلى الآخرة يراها بعد أن كان عليه غطاء يمنع عن رؤيتها، ولا يبعد أن تكون الدنيا والآخرة متداخلتين تداخل العطر والماء في الورد لا يحس بالآخرة المنهمك في المحسوسات، وقد ذكرنا ذلك في كتاب «حول القرآن الحكيم».

[٢٤] ﴿**وقال**﴾ حينذاك ﴿**قرينه**﴾ الملك الشاهد عليه الذي كان قرينه في دار الدنيا وشاهداً على أعماله ﴿**هذا**﴾ دفتر عمله ﴿**ما لدي**﴾ مما سجلته عليه ﴿**عتيد**﴾ مهيأ لا يحتاج إلى حساب جديد، مثل دفاتر التجار التي لا تحتاج إلى جمع الأرقام والأجناس، بل مهيأ حاضر.

[٢٥] ثم يخاطب السائق والشهيد، من قبل الله تعالى ويمكن أن يكون المراد من «قرينه» الشيطان المقترن معه، يقول هذا الكافر الذي عندي مهيأ للنار، يقوله على سبيل الاستهزاء به وهذا المعنى أنسب إلى السياق في ما يأتي من حكم «قرينه» كما أن المعنى الأول أنسب إلى



ظاهر الآية مع الغض عما يأتي والله العالم، ﴿ألقيا في جهنم كل كفار﴾ «إنما أتى بصيغة المبالغة» ولم يقل كافر، دلالة على أن كل كافر كفار، لأن استمراره في الكفر أوجب شدة كفره ﴿عنيد﴾ معاند للحق، لأن غير المعاند الذي كفر عن جهل ليس مقامه جهنم، وفي دعاء الكميل «أن تخلد فيها المعاندين» وإلا فلو كان غير معاند يمتحن يوم القيامة، كما ورد في جملة من الروايات الواردة في من كان في الفترة بين الرسل وطفل الكافر والمجنون إلى غير ذلك.

[٢٦] ﴿مناع للخير﴾ كما هي صفة الكفار العنيد، يمنع عن إسلام أحد وعن أن يوصل أحد إلى المسلمين بخير، والخير جنس شامل لكل خير ﴿معتد﴾ متعدّ عن حدّه، وهي صفة ثانية ملازمة للكفار العنيد ﴿مريب﴾ كثير الريب والشك وهذه صفة ثالثة له إذ المعاند دائماً في ريب ووسواس، كما يظهر ذلك لمن راقب أحوال المعاندين، فإن كبرياء المعاند الذي يلازمه يجعله يشك دائماً في أصدقائه وأصحابه لئلاّ يميلوا إلى الحق، وهكذا هو شأن كل مستكبر ومستعلي.

[٢٧] ﴿الذي جعل مع الله إلهاً آخر﴾ بيان للكفار، ويشمل ما إذا كان ملحداً لا يعترف بالله، لأن معبوده مهما كان «حتى إذا كان هواه» فهو إليه مجعول مع الله وما إذا كان مشركاً، لأنه أشرك بالله غيره ﴿فألقياه﴾ أيها الشاهد والسائق ﴿في العذاب الشديد﴾ شدته، لأجل شدة كفره وعناده، وتكرار «ألقيا» للدلالة على استحقاقه، حتى لا يتوهم متوهم

قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٢٨﴾ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ ﴿٢٩﴾ مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ

أنه ليس بمستحق، كما تقول أضرب زيداً أضربه، فإن الثاني لإفادة قطعية استحقاقه.

[٢٨] وهنا يأخذ الكافر والشيطان القرين له في التنازع الكافر يقول للشيطان أنت كنت سبب ضلالي والشيطان يرد عليه بأنك كنت ضالاً بنفسك وإنما أنا أعنتك فقط ﴿**قال قرينه**﴾ الشيطان المقترن معه كما قال سبحانه (نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ)[1] لوضوح أن الجنس يميل مع جنسه ﴿**ربنا ما أطغيته**﴾ أنه ما سببت طغيانه، فلا تعذبني عذاب من أضل غيره ﴿**ولكن كان**﴾ الكافر بنفسه ﴿**في ضلال بعيد**﴾ أي بعيد عن الحق، لأن الضال إذا كان قريباً من الجادة رُجي أن يهتدي إليها، أما الضال البعيد عن الجادة، فلا يرجى هدايته، فهناك مخاصمة بين الشيطان والكافر كلّ يلقي اللوم على الآخر.

[٢٩] ويجيبهم الله، بأنه لا تنفع الخصومة، وإنما لكلٍّ قسطه من العذاب ﴿**قال**﴾ الله ﴿**لا تختصموا لدي**﴾ في موقف الحساب، فإنه لا فائدة فيها ﴿**وقد قدمت إليكم**﴾ في كتبي المنزلة وعلى لسان أنبيائي المرسلين ﴿**بالوعيد**﴾ وأن من عصى كان جزاءه جهنم، وكلاكما عاصيان، ولا حجة لكما.

[٣٠] ﴿**ما يبدل القول لدي**﴾ فلا يقع الخلف في وعيدي بإدخال الكافر

---

(١) الزخرف: ٣٧ .

وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّـٰمٍ لِّلۡعَبِيدِ (٣٠) يَوۡمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمۡتَلَأۡتِ وَتَقُولُ هَلۡ مِن مَّزِيدٍ (٣١)

المعاند النار، وكذلك بإدخال الشيطان الذي أغواه، أما إدخال المذنب من المؤمنين الجنة بالشفاعة ونحوها، فلَيس من تبديل القول، لأن عذابه مشروط بعدم الشفاعة ونحوها، فإذا انتفى الشرط انتفى المشروط ﴿**وما أنا بظلام للعبيد**﴾ فليس عذابي إياكما ظلماً وإنما قال «ظلام» لأن العذاب إذا كان ظلماً كان ظلماً فظيعاً لكثرة العذاب واستمراره، ويمكن أن تكون الصيغة للنسبة، لا للمبالغة، كما قال ابن مالك:

ومع فاعل وفعال فعل
في نسب أغنى عن اليا فقبل.

[٣١] كل هذه الكلمات مع الملك ومع الشيطان وبين الشيطان والكافر يكون ﴿**يوم نقول لجهنم هل امتلأت**﴾؟ والظاهر أن السؤال حقيقي، فإن لكل شيء حالة تعقّل وإدراك مع الله، كما يظهر من متواتر الآيات والروايات، وأيده العلم الحديث، وإن كانت إدراكاتها تتفاوت، ويكون إدراك الإنسان فوق كل إدراك فلا يقال أن العقل خاص بالإنسان، إذ ينقض ذلك بالحيوان الذي له إدراك ولا عقل له، والظاهر أن سؤال جهنم، إنما هو لبيان جوابها الموجب لهول الكفار أكثر فأكثر، فإنه فرق بين أن تقول للمجرمين لي «حية» تلدغكم جميعاً، وأن تسأل الحية، وتجيب هي، فإنه أشد هولاً للمجرم ﴿**وتقول هل من مزيد**﴾؟ «مزيد» مصدر ميمي بمعنى الزيادة، أي أن لي متسعاً يتسع لكل زيادة، وهذا لأجل التهويل، فإنه فرق بين أن تلقي المجرم في نار مساحتها

وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣٢﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٣﴾ مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٤﴾

عشرة أذرع، أو في نار مساحتها ألف ذراع فإن الكثرة تلقي في النفس رهبة، وإن كانت نتيجة الاحتراق واحدة «ويحتمل في الآية معنى آخر مذكور في التفاسير».

[٣٢] وحيث عرفنا أحوال الكافر وعاقبته في دخوله النار، فلنعرف أحوال المؤمنين ودخولهم الجنة ﴿**وأزلفت الجنة**﴾ قربت إليهم، إما من باب «القرب» أي قربوا إلى الجنة، أو أنه حقيقة يؤتى بالجنة إلى قرب المحشر ﴿**للمتقين**﴾ في قبال إلقاء الكفار في النار، في حال كونها ﴿**غير بعيد**﴾ وحيث أن الإنسان لا يذهب إلى العذاب فإنه يلقى فيه أما النعيم فإن الإنسان يذهب إليه ولذا لم يقل «دخل الجنة» بل جاء بما ظاهره التدرج إلى دخولها.

[٣٣] ويقال للمتقين بعدما يرون الجنة ﴿**هذا ما توعدون**﴾ ما كنتم وعدتم به في دار الدنيا ﴿**لكل أواب**﴾ من آب بمعنى رجع، أي كثير الرجوع إلى الله بالتوبة والتذكر، فإنه لحظة غفلةٍ عن الله ـ ولو بالاشتغال بالمباحات ـ بعد عن قربه سبحانه ﴿**حفيظ**﴾ يحفظ حدود الله سبحانه، فجهنم للكافر العنيد، والجنة للأواب الحفيظ.

[٣٤] والأواب الحفيظ هو ﴿**من خشي الرحمن بالغيب**﴾ فمع أنه يعلم أن الله رحمن مع ذلك يخشاه، وإن كان المؤمنون الذين يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر غائبين عنه، فلا يترك العصيان خوفاً من الإنسان، وإنما خوفاً من الله الغائب عنه ﴿**وجاء**﴾ إلى المحشر ﴿**بقلب منيب**﴾ من أناب بمعنى تاب، وليس «منيب» و«خشي» تكراراً، إذ قد

ٱدۡخُلُوهَا بِسَلَٰمٍۖ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡخُلُودِ ﴿٣٥﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيۡنَا مَزِيدٌ ﴿٣٦﴾ وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّن قَرۡنٍ هُمۡ أَشَدُّ مِنۡهُم بَطۡشًا

يخشى الإنسان من شيء لكنه لا يرعوي ولا يترك ما يخشى منه، فهو «يخشى» وقلبه «منيب» و«يحفظ» حدود الله، و«كثير التوبة: أواب» فهي أربع صفات في قبال «الكافر العنيد المناع المريب».

[٣٥] فإذا جاءوها قيل لهم **﴿ادخلوها﴾** ادخلوا الجنة **﴿بسلام﴾** مع سلامة، إذ ربما يدخل الإنسان المكان الحسن لكن مع صعوبة وعذاب، أو المراد «سلموا إذا دخلتموها» أو المراد سلام الملائكة لهم **﴿ذلك﴾** اليوم **﴿يوم الخلود﴾** بخلاف أيام الدنيا فإنها ليست للخلود، أما الجنة فإن الإنسان إذا دخلها خلد إلى الأبد.

[٣٦] **﴿لهم ما يشاءون فيها﴾** من أنواع النعم، ولا يشتهي الإنسان هناك القبائح، فلا يقال هل تكون هناك حرب أو نحوها مما قد يشتهيها الإنسان في الجنة **﴿ولدينا مزيد﴾** زيادة على ما يشتهون، مما لا يخطر ببالهم وقد ورد أن في الجنة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

[٣٧] وإذ قد علم أن للكفار النار وللمتقين الجنة، فليعلم هؤلاء الكفار الذين لا يؤمنون بك يا رسول الله أن لهم عقاباً في الدنيا أيضاً، فقد عاقبنا الكفار السابقين الذين كذبوا أنبياءهم **﴿وكم﴾** للتكثير **﴿أهلكنا قبلهم﴾** قبل هؤلاء الكفار **﴿من قرن﴾** أهل قرن، والقرن جزء خاص من الزمان، وأطلق على أهل القرن بعلاقة الحال والمحل، مثل «واسأل القرية» **﴿هم﴾** أولئك القرون **﴿أشد منهم﴾** من قومك يا رسول الله **﴿بطشاً﴾** قوة وإفساداً، لأن البطش الأخذ بشدة مثل قوم عاد وثمود

فَنَقَّبُواْ فِى ٱلْبِلَـٰدِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴿٣٧﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٨﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا

وغيرهما، وحيث كانوا أكثر بطشاً وقوة ﴿**فنقبوا في البلاد**﴾ كأن دخولهم في البلاد تنقيب، لأنهم كانوا يفحصون عن مواضع الثروة والنزهة، كالمنقب الذي يخرق ويثقب الأرض طلباً للمال والكنز، فإن قوتهم وبطشهم صار سبباً لذلك ولذلك جاء «بالفاء» ف ﴿**هل**﴾ كان لهم مع شدة البطش والتنقيب في البلاد ﴿**من محيص**﴾ مهرب وخلاص لهم من الله حين أراد إهلاكهم.

[٣٨] ﴿**إن في ذلك**﴾ الذي ذكرناه من التخويف بعذاب الله في الدنيا والآخرة لمن كفر ﴿**لذكرى**﴾ تذكرة، وذلك لأن الإنسان بفطرته يعلم كل ذلك، وإنما يكون بيان القرآن تذكرة لمن نسيه أو تناسى عنه ﴿**لمن كان له قلب**﴾ أي قلب واع، فإن من لا وعي لقلبه، مثل من لا قلب له ﴿**أو ألقى السمع**﴾ أي استمع ﴿**وهو شهيد**﴾ حاضر الذهن ليفهم ما يقال له ويستمع إليه، فقد يكون للإنسان قلب مهيأ، وقد لا يكون له قلب مهيأ لكنه يستمع بانتباه وبذلك يهيئ قلبه، وفي كلتا الحالتين، يكون ما ذكرناه تذكرة له، فقد تكون الأرض بنفسها صالحة للزرع، وقد لا تكون لكنها تقبل الإصلاح، فتصلح ثم تزرع، ف «من كان له قلب» كالأول و«أو ألقى. . .» كالثاني.

[٣٩] أما وكيف أن هؤلاء الكفار ينكرون البعث وهم يرون خلقنا السابق، ويعلمون أنا لم نتعب لأجله، ودليل عدم التعب استمرارنا في الخلق وفي إدارة الكون ﴿**ولقد خلقنا السماوات والأرض وما بينهما**﴾ من

فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٩﴾ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ﴿٤٠﴾

صنوف الخلائق ﴿في ستة أيام﴾ اليوم قطعة من الزمان، وإن كان خمسين ألف سنة كما في قوله سبحانه (فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ)(١) وقد دلت بعض التجارب العلمية على أن اكتمال خلق السماوات والأرض بهذه الصورة الحالية، استوعب ستة مليارات «كل مليار ألف مليون» من السنوات «سنة بتقديرنا الحاضر» والعلم عند الله ﴿وما مسنا﴾ حتى مجرد المس «وهو ما لا يدخل في الأعماق» ﴿من لغوب﴾ من تعب وإعياء، وقد زعم اليهود أن الله تعالى بدأ الخلق يوم الأحد وانتهى في يوم الجمعة واستراح يوم السبت واستلقى على العرش.

[٤٠] ﴿فاصبر﴾ يا رسول الله ﴿على ما يقولون﴾ من التكذيب بالتوحيد وبالرسالة وبالبعث ﴿وسبح بحمد ربك﴾ نزه الله عما لا يليق، مصاحباً تنزيهك بتحميده مما يليق بعظمته، فالحمد ذكر الحسن، والتسبيح التنزيه عن الشيء، و«الباء» للمصاحبة، وتقديم التنزيه، لوضوح أن الأرض لا تزرع إلا بعد تنظيفها والقلب لا يكون مبعث الخير، إلا بعد تنزيهه عن الصفات السيئة، وكذلك جاءت كلمة التوحيد فأولاً «لا إله» نفي الشرك ثم «إلا الله» والسرّ أن العدم مقدم على الوجود دائماً، وعلى هذا جرى قوله «وسبح..» ﴿قبل طلوع الشمس﴾ حيث يبتدئ يوم جديد بنعمة جديدة ﴿وقبل الغروب﴾ حيث انتهى اليوم بسلام

---

(١) المعارج: ٥.

وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ وَأَدۡبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ﴿٤١﴾ وَٱسۡتَمِعۡ يَوۡمَ يُنَادِ ٱلۡمُنَادِ مِن مَّكَانٖ قَرِيبٖ ﴿٤٢﴾ يَوۡمَ يَسۡمَعُونَ ٱلصَّيۡحَةَ بِٱلۡحَقِّۚ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡخُرُوجِ ﴿٤٣﴾ إِنَّا نَحۡنُ نُحۡيِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيۡنَا ٱلۡمَصِيرُ ﴿٤٤﴾

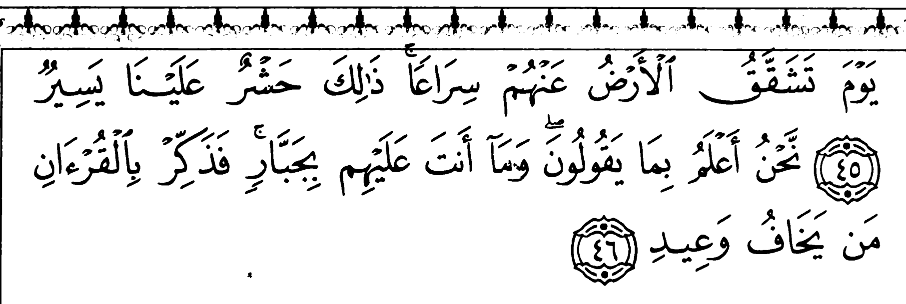
ورحمة وذلك ما يستحق الشكر.

[٤١] ﴿**ومن الليل**﴾ بعض الليل ﴿**فسبحه**﴾ شكراً لمجيء الليل الموجب لراحة الإنسان ﴿**و**﴾ سبحه ﴿**أدبار السجود**﴾ بعد كل صلاة شكراً لأن وفقك لطاعته وعبادته، وقد تفسر الإتيان بالصلوات الخمس والظاهر أنه من باب المصداق.

[٤٢] ثم رجع السياق إلى قصة البعث، حيث أن الكلام كان فيها ﴿**واستمع**﴾ يا رسول الله ﴿**يوم ينادِ المنادِ**﴾ للبعث فإن إسرافيل ينفخ في الصور فيبعث الأموات ﴿**من مكان قريب**﴾ بحيث يصل نداءه إلى الكل على حد سواء، فليس النداء قريباً إلى بعض بعيداً عن بعض، كما هي العادة في الدنيا حيث أن النداء من مكان قريب بالنسبة إلى بعض وبعيد بالنسبة إلى آخرين.

[٤٣] ﴿**يوم يسمعون الصيحة**﴾ يسمع هؤلاء المنكرون كما يسمعه سائر الناس ﴿**بالحق**﴾ فإن الصيحة مقترنة بالحق، وليست دعوة باطلة ﴿**ذلك يوم الخروج**﴾ من القبور للبعث، ففي الآية الأولى أنت تسمع يا رسول الله، وفي الثانية هم يسمعون، فيظهر صدقك، ويظهر خسرانهم، وفيهما بشارة للداعي وإنذار للمدعو.

[٤٤] أفلا يرون ﴿**إنا نحن نحيي ونميت**﴾؟ فلماذا ينكرون البعث؟ ﴿**وإلينا المصير**﴾ مصدر، أي الصيرورة والرجوع بعد الموت.



[٤٥] وذلك المصير يكون في ﴿يوم تشقق الأرض عنهم﴾ تنشق قبورهم فيخرجون منها ﴿سراعاً﴾ أي مسرعين لما يصيبهم من الهول والوحشة ﴿ذلك﴾ الإخراج ﴿حشر﴾ جمع للناس للبعث ﴿علينا يسير﴾ سهل.

[٤٦] ﴿نحن أعلم بما يقولون﴾ من تكذيبك فلا تهتم لقولهم فإنا سنجازيهم ﴿وما أنت عليهم بجبار﴾ تجبرهم على الإيمان، فإنما أنت داع تدعوهم، فإذا لم يستجيبوا فلك أجرك بدعوتهم، وعليهم وزرهم بعدم الإجابة ﴿فذكر بالقرآن﴾ فالقرآن آلة التذكير ﴿من يخاف وعيد﴾ فإنه هو الذي ينتفع به أما من لا يخاف من الوعيد، فإنه وإن وجب تذكيره، لكنه حيث لا ينتفع به فكأنه لم يُذكّر أصلاً.



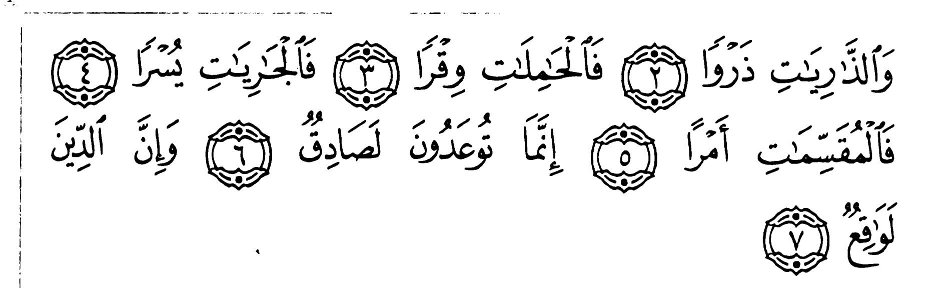
سورة الذاريات

مكية/آياتها (٦١)

سميت السورة بهذا الاسم لاشتمالها على كلمة «الذاريات» وهي كباقي السور المكية مشتملة على قضايا العقيدة بأصولها الثلاثة ولما ختمت سورة «ق» بذكر الآخرة والبعث افتتحت هذه السورة بذلك، بعد القسم بعدة أمور.



[١] ﴿**بسم الله الرحمن الرحيم**﴾ باسم الإله نبدأ السورة، لإفادة أنا تحت هذا الاسم نعمل أعمالنا، ونكرر اسمه المشتق من مادة «رحم» ليكرر رحمته علينا.



[٢] ﴿والذاريات﴾ الواو للقسم أي قسماً بالذاريات، وهي الرياح التي تذر التراب وغيره ﴿ذرواً﴾ مفعول مطلق للتأكيد.

[٣] ﴿فـ﴾ لمجرد الترتيب الكلامي أو لأن ﴿الحاملات﴾ الأشياء التي تحمل ﴿وقراً﴾ أي حملاً ثقيلاً سواء كانت تلك الحاملات التي تحمل الأمطار أو السفن التي تحمل الإنسان وغيره أو نحوهما، تسير بسبب الذاريات.

[٤] ﴿فـ﴾ السفن أو السحب ﴿الجاريات﴾ التي تجري في الماء أو الهواء ﴿يسراً﴾ بيسر وسهولة.

[٥] ﴿فالمقسمات أمراً﴾ قسماً بالملائكة التي خلقها الله وجعلها تقسم أمور الكون فتجري أمور الكون تحت نظرها.

[٦] ﴿إن ما توعدون﴾ من البعث بعد الموت ﴿لصادق﴾ وضع اسم الفاعل موضع المصدر أي صدق، لا بد من وقوعه، وهذا هو جواب القسم، والمناسبة هو أن من خلق الرياح، والمياه، وقرر لكل شيء قانوناً صالحاً له، كتقرير قانون سير الأشياء المحملة بالأثقال بكل يسر، ومن خلق الملائكة، وجعل بأيديهم تقسيم أمور الكون على نحو الصلاح والحكمة، لقادر على إعادة الأموات إلى الحياة، «فإن الأشياء تعرف بأمثالها».

[٧] ﴿وإن الدين﴾ الجزاء ﴿لواقع﴾ قطعاً فيجزي كل إنسان بما عمل إن خيراً فخير وإن شراً فشر.

﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ ۝٨ إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ۝٩ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ۝١٠ قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ ۝١١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى غَمْرَةٍ سَاهُونَ ۝١٢﴾

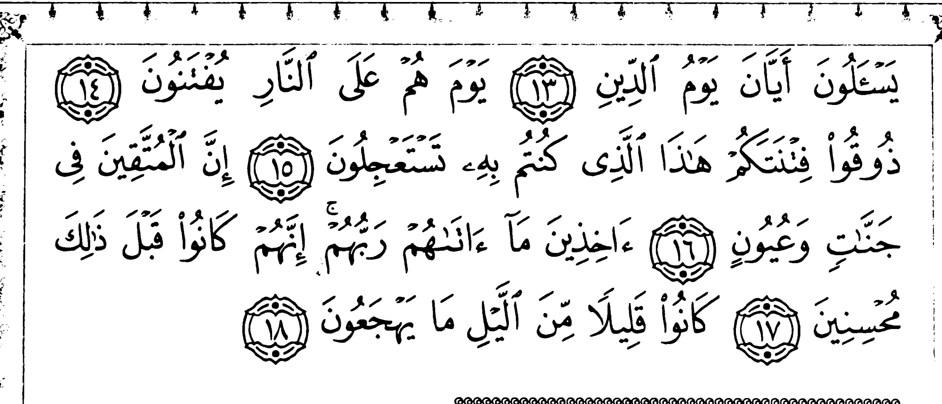
[٨] ﴿**والسماء**﴾ أي قسماً بالسماء ﴿**ذات الحبك**﴾ جمع حباك على نحو: مثل جمع مثال، وهو الطريق الحسن فإن في السماء طرقاً، للنيازك وللملائكة ولمسير الشمس والقمر والكواكب ونزول المطر إلى غير ذلك، والحلف هكذا لمناسبة قوله تعالى.

[٩] ﴿**إنكم**﴾ أيها البشر ﴿**لفي قول مختلف**﴾، واختلاف قولهم واضح، وإنما احتيج إلى الحلف لبيان أنهم إنما يصدرون في حكمهم على الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بأنه شاعر وكاهن ومجنون وغير ذلك، لا عن دليل وبرهان بل عن الهوى، وإلا لم يختلفوا فيه، فهو على حد أن يقول «قسماً بالسماء أنتم لستم على شيء في تكذيب الرسول».

[١٠] ﴿**يؤفك**﴾ يصرف ﴿**عنه**﴾ أي عن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ﴿**من أفك**﴾ أي من صرف عن الحق، أو أن الضمير في «عنه» عائد إلى «الدين» أي عن البعث والجزاء.

[١١] ﴿**قتل**﴾ دعاء عليهم بالقتل، أي أن يقتلهم الله ﴿**الخراصون**﴾ الخراص الذي يخمِّن بدون علم، كناية عن أن المنكِر للرسول، أو القيامة، خراصون لا علم لهم بالنفي وإنما يخمنون تخميناً.

[١٢] ﴿**الذين هم في غمرة**﴾ في ضلال وجهل يغمرهم، كالماء الذي يغمر الإنسان ويستوعبه، كأن الجهل والضلال شملهم من رأسهم إلى أرجلهم ﴿**ساهون**﴾ غافلون عما أمروا به.



[١٣] ﴿يسألون﴾ على سبيل الإنكار ﴿أيان﴾ وقت وزمان ﴿يوم الدين﴾ أي يوم الجزاء؟

[١٤] والجواب عن سؤالهم، أنه يكون ﴿يوم هم على النار يفتنون﴾ يحرقون ويعذبون.

[١٥] ويقال لهم هناك ﴿ذوقوا فتنتكم﴾ عذابكم الذي هيأتموه لأنفسكم في الدنيا بإنكاركم لله والرسول والبعث ﴿هذا الذي كنتم به تستعجلون﴾ فقد كان الكفار يقولون إن كان هناك عذاب فائتنا به يا محمد، وهذه الآية تهددهم بأنهم سيصلون إليه.

[١٦] هذا حال المكذبين، أما حال المصدقين ﴿إن المتقين في جنات وعيون﴾ فإنهم يذهبون في العيون للسياحة مقابل أولئك الذين كذبوا حيث أنهم في النار والعذاب.

[١٧] ﴿آخذين﴾ قابلين ﴿ما آتاهم﴾ أعطاهم ﴿ربهم﴾ من العطاء والنعيم، بكل رضىً وسرور، في مقابل الكفار الذين يصب فوقهم العذاب بكل كره منهم، لـ ﴿إنهم كانوا قبل ذلك﴾ في الدنيا ﴿محسنين﴾ زرعوا في الدنيا الإحسان فأخذوا ثماره في الآخرة الجنان.

[١٨] وكان من وصفهم في الدين أنهم ﴿كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون﴾

وَبِٱلۡأَسۡحَارِ هُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ ﴿١٩﴾ وَفِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ ﴿٢٠﴾ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ ءَايَٰتٞ لِّلۡمُوقِنِينَ ﴿٢١﴾ وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ

الهجوع النوم، أي قليلاً من الليل ينامون، فـ «ما» زائدة، أو المراد قليلاً من الليل لا ينامون، ف «ما» نافية.

[١٩] ﴿**وبالأسحار**﴾ أي في الأسحار، والسحر هو الثلث الأخير من الليل ﴿**هم يستغفرون**﴾ يطلبون الغفران من الله، ولفظ «هم» لإفادة الحصر، أي أنهم هم الذين يستغفرون حقيقة، دون سواهم، فإن استغفاره صوري لا يخرج عن عمق القلب.

[٢٠] ﴿**وفي أموالهم حق**﴾ نصيب حقَّ عليهم وثبت ﴿**للسائل**﴾ الذي يسأل ﴿**والمحروم**﴾ الذي لا يسأل، فإن سأل السائل أعطوه وإن لم يسأل المحروم ابتدأوا بإعطائه.

[٢١] ثم رجع السياق إلى ما كان بصدده من الأصول الثلاثة الألوهية والرسالة والمعاد، وحيث كان الكلام السابق حول المعاد، والاستدلال له جاء الكلام الآن حول الألوهية ﴿**وفي الأرض آيات**﴾ دلالات على وجود الله وصفاته.

وفـــي كـــل شـــيء لـــه آيـــة
تـــدل عـــلى أنـــه واحـــد

﴿**للموقنين**﴾ الذين سلكوا طريق الاستدلال «اليقين» لا الذين سلكوا طريق الأهواء والظنون

[٢٢] ﴿**وفي أنفسكم**﴾ آيات تدل على وجوده وصفاته تعالى فإن كل جزء من أجزاء الجسم، وكل صفة من صفات النفس دليل ساطع على وجود

أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾

الله وعلمه وقدرته وغير ذلك ﴿**أفلا تبصرون**﴾ هذه الآيات؟ حتى ترجعوا إلى الله وتعترفوا به وبصفاته؟

[٢٣] ثم إن رزقكم ومقدراتكم أيضاً دليل آخر على وجود الله تعالى ﴿**وفي السماء رزقكم**﴾ إن المطر ينزل من السماء ويسبب لكم الرزق من الحبوب ولحوم البهائم وغير ذلك مما تأكلون وتلبسون وغيرهما أفليس ذلك دليلاً على الله وصفاته؟ وإلا فلو لم يكن إله فمن ذا الذي أنزل المطر؟ ﴿**و**﴾ في السماء ﴿**ما توعدون**﴾ فإن كل ما يصيب الإنسان من صحة ومرض وغيرهما خارج عن إرادته أليس ذلك دليلاً على أنه يأتي من جهة الله؟ والمراد بالسماء جهة العلو، والإنسان وعد بمقدراته إما لفظاً على لسان الأنبياء وإما عرفه فطرةً، وكلاهما وعد له.

[٢٤] ثم لتأكيد ما تقدم من المعاد والألوهية ـ بعد الاستدلال لهما بما ذكر في الآيات السابقة ـ حلف سبحانه ﴿**فـ**﴾ قال ﴿**ورب السماء والأرض إنه**﴾ ما ذكرناه ﴿**لحق**﴾ مطابق للواقع ﴿**مثل ما أنكم تنطقون**﴾ أي مثل نطقكم فكما لا شك لكم في أنكم تنطقون ينبغي أن لا تشكوا في حقيقة الألوهية والمعاد ولعل المجيء «بالنطق» لأنهم كانوا يريدون إبطال الحق بنطقهم وقولهم وتكذيبهم، فقابلتهم الآية «بالنطق» للإثبات، والمقابلة اللفظية نوع من البلاغة.

[٢٥] ثم ذكر سبحانه هلاك قوم لوط عليه السلام إنذاراً لكفار قريش، بأنهم إن لم يؤمنوا أصابهم العذاب، وذكر مقدمة ذلك مجيء الرسل الذين كانوا مكلفين بعذابهم، إلى قرى لوط من طريق مرورهم على إبراهيم عليه السلام

هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٥﴾ إِذْ دَخَلُواْ عَلَيْهِ فَقَالُواْ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٦﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٧﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٨﴾

﴿**هل أتاك**﴾ جاءك وأخبرت به يا رسول الله ﴿**حديث**﴾ قصة ﴿**ضيف إبراهيم المكرمين**﴾ فإنهم كانوا ملائكة ولذا كانوا مكرمين، كما قال تعالى (بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ)(١).

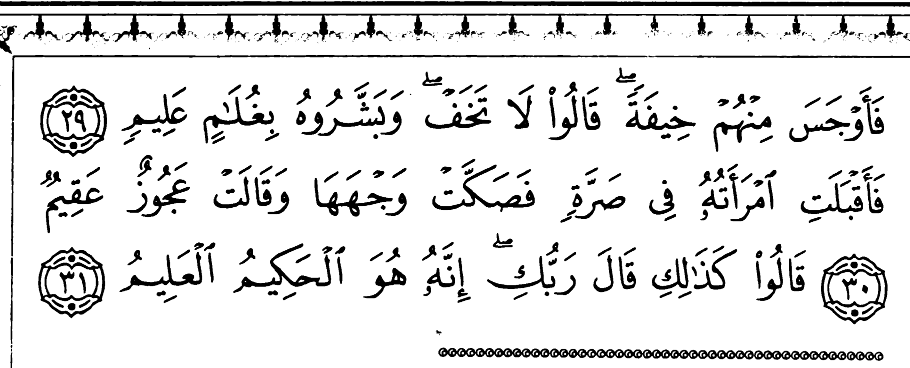
[٢٦] ﴿**إذ دخلوا عليه**﴾ على إبراهيم عليه السلام في داره ﴿**فقالوا**﴾ له ﴿**سلاماً**﴾ أي نسلم عليك سلاماً ﴿**قال**﴾ إبراهيم عليه السلام في جوابهم ﴿**سلام**﴾ لعل عدوله إلى الرفع لقصد الثبات ـ حيث أن الجملة إسمية ـ وهي تدل على الثبات، حتى تكون تحيته أكثر من تحيتهم، وقال إبراهيم عليه السلام في نفسه لما رأى الملائكة ﴿**قوم منكرون**﴾ لأنه ما كان رآهم في بلده قبل ذلك، أو أنه قال ذلك يريد به أن يعرّفوا أنفسهم فهو مثل «من أنتم؟».

[٢٧] ﴿**فراغ**﴾ ذهب إبراهيم عليه السلام ﴿**إلى أهله**﴾ بتسلل وخفية ليحضر لهم طعاماً فإن من أدب الضيافة أن يتسلل الضيف لإحضار الطعام، والتسلل لأجل أن لا يمنعه الضيف عن الإحضار ﴿**فجاء**﴾ إليهم ﴿**بعجل سمين**﴾ مطبوخ، واختار السمين من بقره لأنه أدب أن يحسن الإنسان الضيافة.

[٢٨] ﴿**فقربه إليهم**﴾ ليأكلوا لكنهم أبوا عن الأكل فـ ﴿**قال**﴾ لهم ﴿**ألا تأكلون**﴾؟ لكنهم لم يأكلوا أيضاً.

---

(١) الأنبياء: ٢٧.



[٢٩] ﴿فأوجس﴾ أضمر عليه السلام في نفسه ﴿منهم﴾ من عدم أكلهم ﴿خيفة﴾ لظنه أنهم جاءوا لشر، فإن الضيف إذا لم يأكل ظهر منه قصد الشر عرفاً ﴿قالوا لا تخف﴾ إنا ملائكة، والملائكة لا تأكل ﴿وبشروه بغلام﴾ تلده زوجته سارة بعد أن كانت عقيماً لا تلد وقد كبرت بما لم يعتد ولادة مثلها ﴿عليم﴾ من صفته الذكاء والعلم.

[٣٠] ولما سمعت سارة بخبر الولادة ﴿فأقبلت امرأته في صرة﴾ في صياح من الصرير بمعنى الصوت ﴿فصكت﴾ أي لطمت ﴿وجهها﴾ فعل المتعجب، لتعجبها بأنها كيف تلد ﴿وقالت﴾ هل تلد ﴿عجوز عقيم﴾؟ حتى تبشروني بغلام.

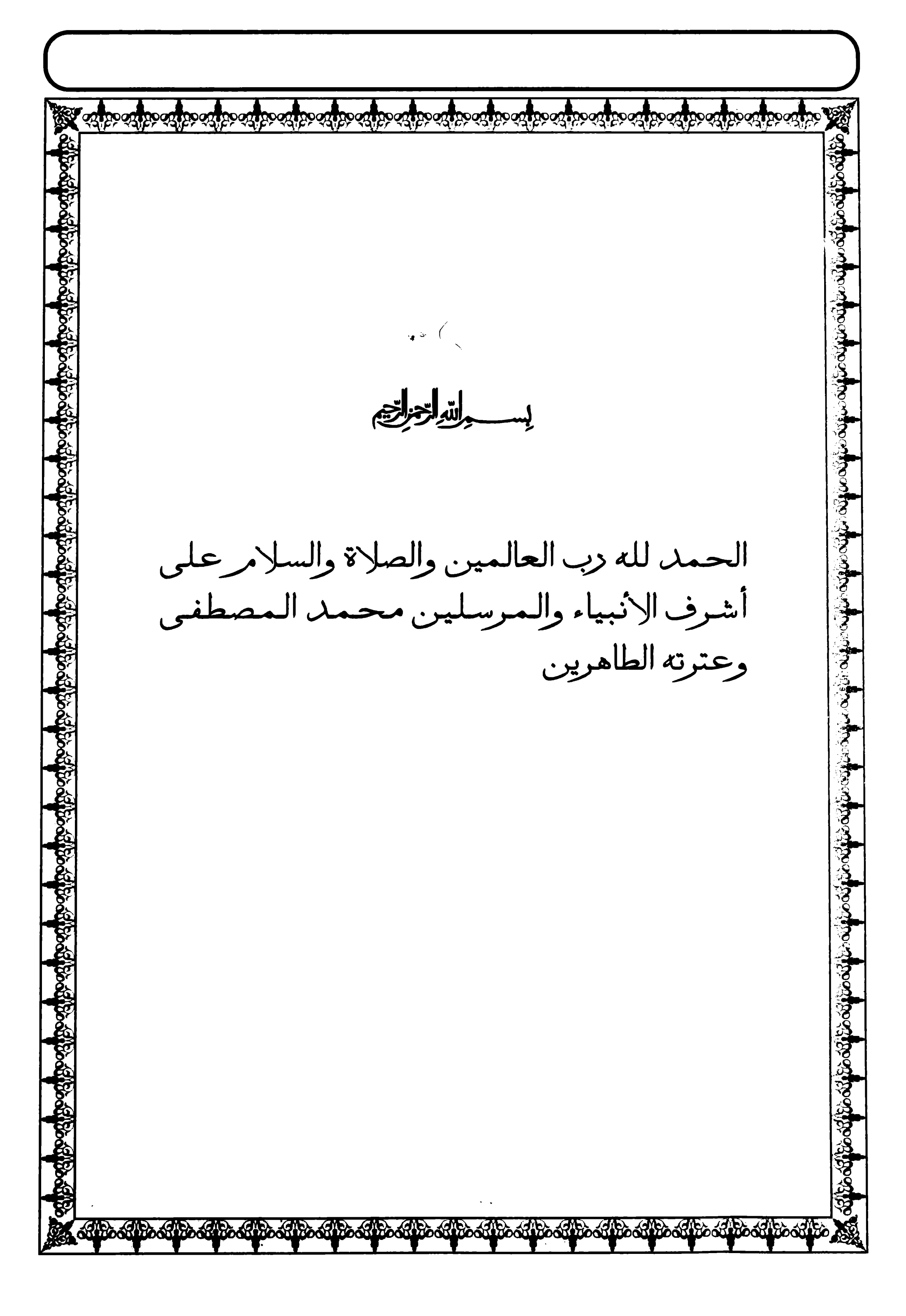
[٣١] ﴿قالوا﴾ الملائكة ﴿كذلك﴾ كما قلنا ﴿قال ربك﴾ و«ك» خطاب لها ﴿إنه هو الحكيم العليم﴾ فيكون قوله حقاً وفعله محكماً.



الجزء السابع والعشرون

من آية (٣٢) سورة الذاريات

إلى آية (٣٠) سورة الحديد



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين محمد المصطفى وعترته الطاهرين

قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣٢﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٣﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٤﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٦﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٧﴾

[٣٢] ﴿**قال**﴾ إبراهيم عليه السلام للملائكة ﴿**فما خطبكم**﴾ أي فما شأنكم وما طلبكم ولماذا جئتم ﴿**أيها المرسلون**﴾؟ فإن الملائكة رسل الله تعالى.

[٣٣] ﴿**قالوا إنا أرسلنا**﴾ أرسلنا الله تعالى ﴿**إلى قوم مجرمين**﴾ يعنون قوم لوط.

[٣٤] ﴿**لـ**﴾ أجل أن ﴿**نرسل عليهم حجارة من طين**﴾ يطبخ حتى يكون في صلابة الحصاة، ويسمى بالسجيل معرب «سَنكِ كَل».

[٣٥] ﴿**مسومة**﴾ معلّمة ﴿**عند ربك**﴾ فكما يهيئ رئيس الدولة لكل نوع من الإجرام نوعاً من العقوبة كذلك الله هيأ لكل نوع جريمة نوع عقاب في الدنيا وفي الآخرة، والعذاب من جنس العمل كما أن الدجاجة من جنس البيضة ﴿**للمسرفين**﴾ الذين أسرفوا في العصيان، وقد ذكرنا في كتاب «حول القرآن الحكيم» مناسبة بعض العقوبات لبعض الإجرامات، المذكورة في القرآن الحكيم، ثم جاء القرآن بأسلوب الالتفات، فقال:

[٣٦] ﴿**فأخرجنا من كان فيها**﴾ في قرى قوم لوط ﴿**من المؤمنين**﴾ بالله ورسله وأحكامه.

[٣٧] ﴿**فما وجدنا فيها**﴾ في تلك القرى ﴿**غير بيت من المسلمين**﴾ هو بيت

وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٣٨﴾ وَفِى مُوسَىٰٓ إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٩﴾ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٤٠﴾ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ

لوط عليه السلام، وقد كانت زوجته أيضاً مع الكفار، ولما خرج لوط وأهل بيته إلا زوجته، وابتعدوا عن المدينة، نزل على القرى العذاب.

[٣٨] ﴿**وتركنا فيها**﴾ في قرى لوط التي دمرت ﴿**آية**﴾ علامة وهي الآثار الباقية التي يراها الناس حين يمرون بتلك الأرض، والبحر الميت قرب الأردن ـ إلى الآن ـ من آثار تلك القرى ﴿**للذين يخافون العذاب الأليم**﴾ المؤلم وحيث إن الذي يخاف يعتبر دون غيره، خصص سبحانه الآية «بالذين يخافون» وإلا فكونه آية يراها الكل.

[٣٩] ﴿**وفي موسى**﴾ عطف على «وفي الأرض آيات» أي أن في موسى عليه السلام آيات، والظرف على سبيل المجاز، إذ الآيات في مجموع القصة ﴿**إذ أرسلناه إلى فرعون بسلطان مبين**﴾ بحجة واضحة تدل على صدقه في دعواه النبوة، والمراد بها معاجزه عليه السلام.

[٤٠] ﴿**فتولى**﴾ فأعرض فرعون ﴿**بركنه**﴾ كأن إعراضه بسبب ما كان يتقوى به من جنوده وملكه، فموسى عليه السلام اعتمد على الحجة، وفرعون اعتمد على القوة ﴿**وقال**﴾ فرعون إن موسى عليه السلام ﴿**ساحر**﴾ إن كان عاقلاً فيما يفعل ﴿**أو مجنون**﴾ إن كان لا يعقل، فإن قسماً من المجانين الذين دخلت فيهم الأرواح الشريرة يفعلون الخوارق.

[٤١] ﴿**فأخذناه وجنوده**﴾ الذين كانوا معتمد فرعون في تكذيبه لموسى عليه السلام ﴿**فنبذناهم**﴾ طرحناهم طرح إهانة ﴿**في اليم**﴾ في البحر فغرقوا جميعاً

وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿٤١﴾ وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴿٤٢﴾ مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ ﴿٤٣﴾ وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾ فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ

﴿**وهو مليم**﴾ آت بما يلام عليه، فقد كان تكذيبه لموسى لبقاء سلطته وسمعته، والغرق ذهب بالسلطة، وانفضاحه ذهب بالسمعة فصار الناس يلومونه ويلعنونه.

[٤٢] ﴿**وفي عاد**﴾ عطف على «وفي الأرض آيات» أي آيات في قوم عاد، الذين أرسل إليهم هود عليه السلام ﴿**إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم**﴾ سميت عقيماً، لأنها لم تكن تلد خيراً، كما هي عادة الرياح إذ هي تولد السحاب والمطر وتنقل ما تلقح الثمار والأزهار، بل ولدت شراً.

[٤٣] ﴿**ما تذر**﴾ ما تترك ﴿**من شيء أتت عليه**﴾ تلك الريح ﴿**إلا جعلته كالرميم**﴾ الرميم ما تفتت من حجر أو نبات أو غيرهما، وإنما كانت آيات، لأن كل أثر من تلك الريح آية وعلامة لصدق رسل الله، وعقاب من خالف الرسل.

[٤٤] ﴿**وفي ثمود**﴾ عطف على «وفي الأرض آيات» وثمود هم قوم صالح عليه السلام ﴿**إذ قيل لهم**﴾ قال لهم نبيهم صالح عليه السلام ﴿**تمتعوا**﴾ ابقوا في دوركم ﴿**حتى حين**﴾ حتى زمان مقرر وهو ثلاثة أيام، أمهلهم ثلاثة أيام لعلهم يتوبون.

[٤٥] لكنهم لم يتوبوا مع أنهم رأوا آثار العذاب ﴿**فعتوا**﴾ استكبروا ﴿**عن أمر ربهم**﴾ بالإيمان والهداية ﴿**فأخذتهم الصاعقة**﴾ بعد ثلاثة أيام ـ كما

وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٤٥﴾ فَمَا اسْتَطَاعُوا مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنتَصِرِينَ ﴿٤٦﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٤٧﴾ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ

وعدهم نبيهم ـ والصاعقة هي ما تصعق الإنسان وتميته فجأة ﴿**وهم ينظرون**﴾ ولا يقدرون على دفعها، وفي قوله سبحانه «وهم ينظرون» دلالة على ضعفهم، حيث كانوا يظنون أنهم أقوياء وبسبب هذا الظن كانوا يستكبرون، ودلالة على تألمهم إذ لو كانت أخذتهم في حالة النوم مثلاً لم يتألموا مثل هذا التألم.

[٤٦] ﴿**فما استطاعوا من قيام**﴾ أن يقوموا من كبوتهم، فلم يكونوا كالمرضى الذين يتمكنون من شفاء أنفسهم، وفي هذا تنبيه إلى أن عذاب الله إذا جاءهم لم يكن له علاج، إلا بالرجوع إليه سبحانه ﴿**وما كانوا منتصرين**﴾ لم ينصرهم أحد، فلا يقوم أمام أمر الله، لا قوة ذاتية، ولا نصرة خارجية.

[٤٧] ﴿**و**﴾ أهلكنا ﴿**قوم نوح**﴾ وإنما لم يعطفه، للتفنن الذي هو مقتضى البلاغة ﴿**من قبل**﴾ هؤلاء الذين ذكروا ﴿**إنهم كانوا قوماً فاسقين**﴾ خارجين عن طاعة الله سبحانه، ولذا أغرقناهم بالطوفان أليس في كل هذه العقوبات دلالة لكفار قريش على سوء مصير المكذب؟

[٤٨] ثم ألا يستدل هؤلاء على وجود الله وعلمه وقدرته بما يشاهدون من آثار عظمته؟ ﴿**والسماء بنيناها**﴾ فإن جعل الأنجم وجعل النظام في الكون، من أجل الأبنية ـ لوضوح أن البناء ليس خاصاً بالبناء الحجري ونحوه ـ ﴿**بأييدٍ**﴾ بقوة من آد، يئيد، فإن قوة المبنى وإتقانه تدل على

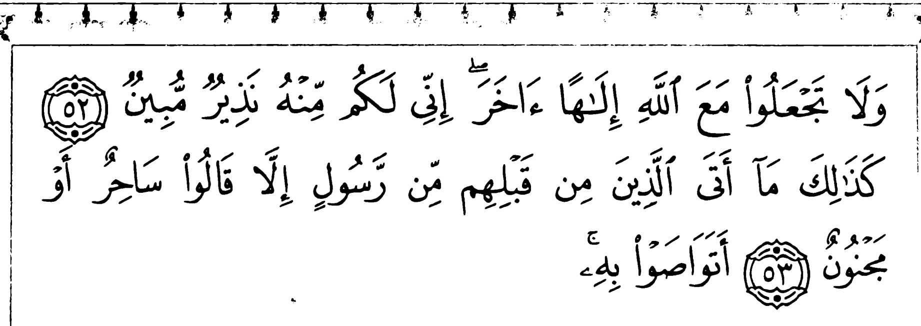
وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٨﴾ وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ ﴿٤٩﴾ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥١﴾

قوة الباني، وقوة بنائه، ثم إنا لم نستنفد قوانا في بناء ما يشاهدون ﴿**وإنا لموسعون**﴾ السماء، وقد دل علم الفلك الحديث على أن الكون في توسع دائم.

[٤٩] ﴿**والأرض فرشناها**﴾ جعلناها فراشاً لتستقروا عليها وتنتفعوا بها ﴿**فنعم الماهدون**﴾ نحن الذين مهدنا لكم الأرض.

[٥٠] ﴿**ومن كل شيء خلقنا زوجين**﴾ من أصناف الحيوان وأصناف النبات وحتى أصناف الماء حلو ومالح وشبهه كالسماء والأرض والليل والنهار إلى غير ذلك ﴿**لعلكم تذكرون**﴾ فعلنا كل ذلك من خلق السماء والأرض والأزواج لأجل أن تتذكروا فتعرفوا الخالق وتعبدوه، ثم إنه لا منافاة بين تعدد الغاية فالخلق لأجل تطلبها الفيض والله فياض مطلق ولأجل تذكر الإنسان كما إذا سافر الإنسان لأجل صحة مزاجه ولأجل تنزهه.

[٥١] وإذ عرفتم الله وعلمتم أنه يثيب المطيع ويعاقب العاصي ﴿**ففروا إلى الله**﴾ فكما أن من يطارده الأسد يفر، كذلك من طاردته الذنوب لزم عليه أن يفر بالأعمال الصالحة، وسرعة الإتيان بها بمثابة الفرار، إلى ثواب الله وطاعته ﴿**إني لكم منه**﴾ أي من قبل الله ﴿**نذير**﴾ أنذركم إن بقيتم في الكفر والعصيان تلحقكم نتائج سيئاتكم ﴿**مبين**﴾ واضح لوضوح الأدلة التي تدل على نبوته صلى الله عليه وآله وسلم.



[٥٢] ﴿ولا تجعلوا مع الله إلهاً آخر﴾ كما كان المشركون يجعلون ذلك ﴿إني لكم منه﴾ من قبل الله ﴿نذير مبين﴾ فاللازم أمران: الأول: توحيد الإله. والثاني: عدم عصيانه، ولعل وجه تقديم الثاني، في الآيتين إن الاشتغال بالمعاصي يحجب الإنسان عن الإيمان بالوحدانية، كما قال تعالى (ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاؤُوا السُّوأَى أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ)[1] كما أن وجه تكرار آخر الآية بشكل واحد لعله للتنبيه على أن الإنذار على المعاصي مثل الإنذار على المشرك، كما قال تعالى (لاَ يَنفَعُ نَفْساً إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْراً)[2].

[٥٣] إنهم مع إنذارك لهم إنذاراً واضحاً ينسبونك إلى أنك ساحر أو مجنون و﴿كذلك﴾ أي أن الأمر مثل ذلك ﴿ما أتى الذين من قبلهم﴾ من الأمم ﴿من رسول﴾ من عند الله ﴿إلا قالوا ساحر أو مجنون﴾ بعضهم قالوا ساحر وبعضهم قالوا مجنون، أو كما تقدم في تفسير آية «وقال ساحر أو مجنون».

[٥٤] ﴿أتواصوا به﴾ أي أن الأولين والآخرين الذين رمى كلهم أنبياءهم بالسحر والجنون هل أوصى بعضهم بعضاً بأن ينسبوا الأنبياء إلى مثل هذه النسبة؟ كلا، إذ لا ربط بين الأمم مع اختلاف زمانهم وتباعد

(١) الروم: ١١

(٢) الأنعام: ١٥٩ .

﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٤﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ ﴿٥٥﴾ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٧﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٨﴾﴾

بلادهم ﴿**بل هم**﴾ الأولون والآخرون الكافرون بالأنبياء ﴿**قوم طاغون**﴾ فمشاركتهم في الطغيان أوجبت أن يرموا الأنبياء بما يكون مقتضى الطغيان والعتو على الله سبحانه، بعد أن فقدوا الحجة في رد برهان الأنبياء.

[٥٥] ﴿**فتول**﴾ فاعرض ﴿**عنهم**﴾ ولا تجادلهم بعد أن كررت عليهم الدعوة فأبوا إلا العناد ﴿**فما أنت بملوم**﴾ على إعراضك بعد أن جهدت في البلاغ فلم ينفع معهم.

[٥٦] ﴿**و**﴾ لكن خذ طريقك في الإرشاد العام فـ ﴿**ذكر**﴾ الناس حسب قدرتك ﴿**فإن الذكرى تنفع المؤمنين**﴾ فإنهم يزدادون بها بصيرة، أو المراد بالمؤمنين الذين لهم نفوس طيبة تقبل الحق، فاستعمل «المؤمن» فيمن له طبيعة إيمانية.

[٥٧] ﴿**و**﴾ إذا نفعت الذكرى المؤمنين عملوا بما هو غاية الخلقة إذ ﴿**ما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون**﴾ ويطيعون، وإذا أطاعوا كملوا هم، لا أن الله استفاد منهم شيئاً.

[٥٨] ﴿**ما أريد منهم من رزق**﴾ من مال كما يريد السادة من العبيد أن يعملوا لأجل جلب المال للسادة حتى يرتزق به السيد في اشتراء دار ولباس ومركب وما أشبه «فإن كل ذلك رزق» ﴿**وما أريد أن يطعمون**﴾ أن

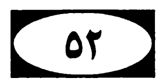
إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٩﴾ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَـٰبِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ ﴿٦٠﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٦١﴾

يطعموني يهيئوا لي طعاماً، كما يفعله الطباخ للسيد.

[٥٩] ﴿**إن الله هو الرزاق**﴾ لكل من يحتاج إلى الرزق من بشر وحيوان وغيرهما، فكيف يخلقهم لأن يرزقوه؟ ﴿**ذو القوة المتين**﴾ الشديد، لامثل قوى الملوك لا متانة لها ولذا تؤول إلى الضعف والانحلال والعدم، وإذا كان سبحانه له القوة المتين فلا حاجة له في الطعام كي يتقوى به كما أن الإنسان كذلك يتقوى بالطعام.

[٦٠] وإذا أبلغت في الإنذار ولم يقبلوا ﴿**فـ**﴾ لا تغتم إذ إنا سوف نعاقبهم فـ ﴿**إن للذين ظلموا**﴾ بالتكذيب لك ﴿**ذنوباً**﴾ نصيباً من العذاب ﴿**مثل ذنوب أصحابهم**﴾ مثل نصيب نظائرهم من الأمم السابقة، وهذا تشبيه حيث إن أصل «الذنوب» الدلو العظيم المملوء ماءً، وجيء به للإشارة إلى كثرة ذنوبهم ﴿**فلا يستعجلون**﴾ العذاب لأنه سيأتيهم لا محالة.

[٦١] ﴿**فويل للذين كفروا**﴾ سوء لهم ﴿**من يومهم الذي يوعدون**﴾ أي يوم القيامة، و«من» أي من ناحية ذلك اليوم.



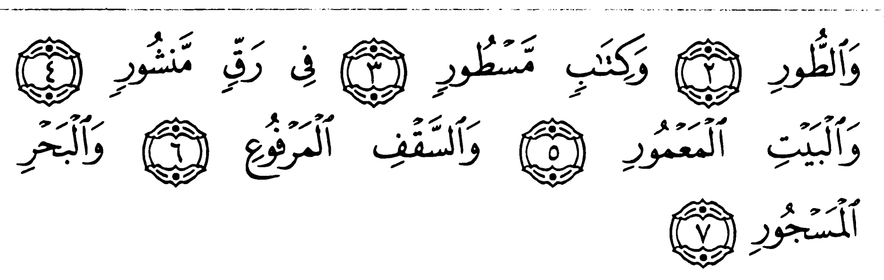
سورة الطور

مكية/آياتها (٥٠)

سميت السورة بهذا الاسم لاشتمالها على كلمة «الطور» وهي كسائر السور المكية مشتملة على قضايا العقيدة بأصولها الثلاث ولما ختمت سورة الذاريات بعذاب الكفار ابتدأت هذه السورة بذلك، بعد تأكيد عذابهم، بجملة من الأيمان.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ (١)

[١] ﴿**بسم الله الرحمن الرحيم**﴾ شروع في السورة مصاحباً باسم الله، لكي نتعلم أن كل شروع لابد وأن يقترن باسمه، لأنه شكر للنعمة أن يتذكر الإنسان خالقه ورازقه عند كل ابتداء، إذ لولا لطفه، لم يكن الإنسان قادراً على العمل «الرحمن الرحيم» الذي يرحم كل شيء يعطيه الوجود، ثم يرحمه بتربيته والسير به في مراحل الكمال فهو سبحانه يرحمه إيجاداً ويرحمه إبقاءً.



[٢] ﴿والطور﴾ قسماً بطور سيناء الذي تكلم موسى عليه السلام مع ربه من فوقه، قال جمع من المفسرين أنه جبل بمدين.

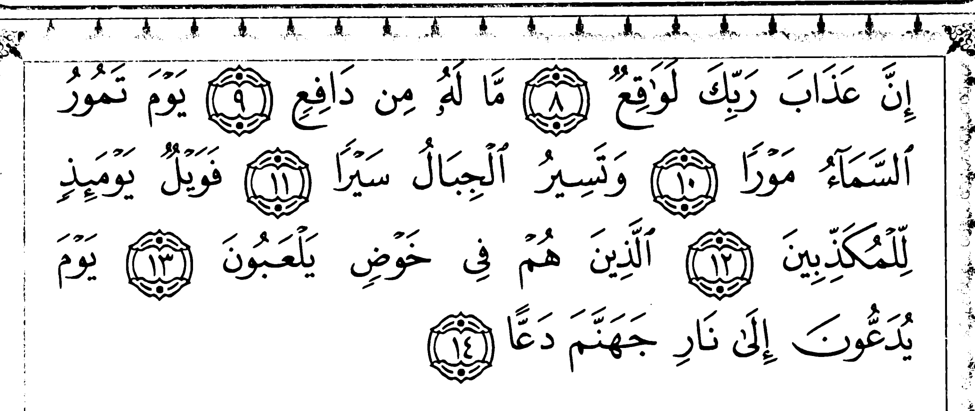
[٣] ﴿و﴾ قسماً بـ ﴿كتاب مسطور﴾ إما المراد أي كتاب، فالطور مرفوع مكاناً، والكتاب مرفوع معنىً، فالمراد القسم بكل رفيع، مادي أو معنوي، أو المراد كتاب خاص، مثل التوراة والإنجيل والقرآن، ولايبعد إرادة الإنجيل باعتبار أنه سبحانه وتعالى حلف بشيء لموسى عليه السلام، وبشيء لعيسى عليه السلام وبشيء لمحمد صلى الله عليه وآله «وهو البيت المعمور».

[٤] ذلك الكتاب ﴿في رق﴾ أي جلد رقيق ﴿منشور﴾ نشر لقراءته، ولعل القصد من الصفات إفادة وضوحه، فالكتابة مسطورة، لا مندمجة بعضها في بعض، وهي في ورق قد نشر، يقرأه كل إنسان، فالكتابة جمعت بين الارتفاع معنى الظهور، كما أن الطور جمع بين الارتفاع مادة الظهور.

[٥] ﴿و﴾ قسماً بـ ﴿البيت المعمور﴾ الكعبة المعظمة، أو الضراح في السماء الرابعة أو السابعة.

[٦] ﴿و﴾ قسماً بـ ﴿السقف المرفوع﴾ السماء، لأنه سقف يمنع وصول أحجار النيازك إلى الأرض، والمراد به بعض طبقات السماء.

[٧] ﴿و﴾ قسماً بـ ﴿البحر المسجور﴾ الذي له أمواج كشعل النيران، أو



المراد به حين ينقلب نيراناً، كما في أهوال القيامة.

[٨] ﴿**إن عذاب ربك**﴾ على الكفار ﴿**لواقع**﴾ قطعاً.

[٩] ﴿**ما له**﴾ ليس للعذاب ﴿**من دافع**﴾ يدفعه عن الكفار، فكأن الإنسان يسرح بخياله إلى السماء، والجبل، والبحر، وبيت مرتفع في وسطها، وكتاب نشر في أحوال الكون، «كتاب تكويني إلى جانبه كتاب تشريعي» ألا يدل كل ذلك على عظيم القدرة؟ إذاً فلا بد وأن يذوقوا العذاب.

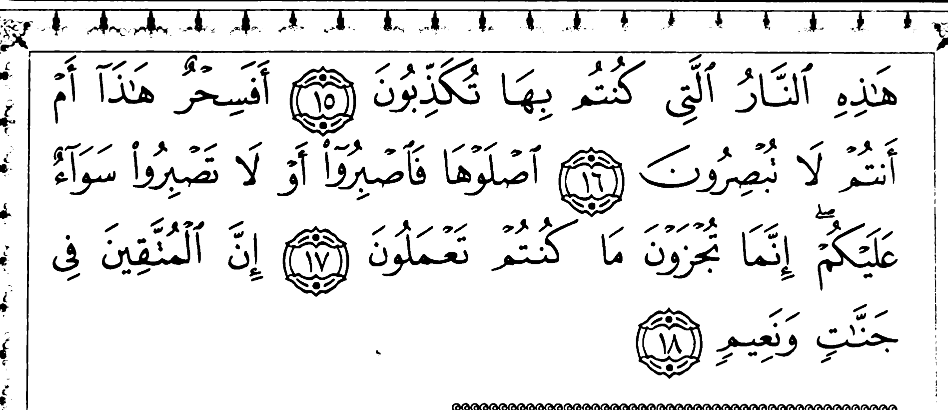
[١٠] وإنما يقع العذاب ﴿**يوم تمور**﴾ تضطرب ﴿**السماء موراً**﴾ لأن النظام الكوني ينهدم فتضطرب الكواكب.

[١١] ﴿**وتسير الجبال**﴾ كالسحاب السائر ﴿**سيراً**﴾ مفعول مطلق للتأكيد.

[١٢] ﴿**فويل**﴾ وسوء ﴿**يومئذ**﴾ في هذا اليوم ﴿**للمكذبين**﴾ بالله وبرسوله وبالمعاد.

[١٣] ﴿**الذين هم في خوض**﴾ يخوضون في الكفر والعصيان ﴿**يلعبون**﴾ فإن عمل من لا يفكر في العاقبة لعب إذ لا هدف حقيقي له، وإن تصور أن له هدفاً.

[١٤] وذلك في ﴿**يوم يدعون**﴾ الدعُّ الدفع العنيف ﴿**إلى نار جهنم دعّاً**﴾



مفعول مطلق لتأكيد العنف في سوقهم إلى جهنم.

[١٥] ويقال لهم ﴿**هذه النار التي كنتم بها تكذبون**﴾ وكنتم تقولون أن ما جاء به محمد ﷺ سحر لا أصل له.

[١٦] ﴿**أفسحر هذا**﴾ الذي ترونه في النار؟ يقال لهم ذلك تبكيتاً ﴿**أم أنتم لا تبصرون**﴾ أن هذه نار؟ كما كنتم تقولون في الدنيا، إنا لا نراك (وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ)[١].

[١٧] ﴿**اصلوها**﴾ ذوقوا النار ﴿**فاصبروا أو لا تصبروا**﴾ بأن تجزعوا ﴿**سواء عليكم**﴾ أي الصبر وعدمه، فأيهما لا يخفف من عذابكم ﴿**إنما تجزون ما كنتم تعملون**﴾ ظاهره نفس عملكم إذ قد ذكرنا في بعض السور أن نفس العمل صار جزاءً كما أن نفس البيضة والنواة تصير فرخاً وشجرة، ومن الواضح أن في مثل هذا المقام لا فرق بين الصبر والجزع ولعل هذا الكلام للكفار، جزاء لما كانوا يقولونه للأنبياء إنهم لا يقبلون كلامهم في كل الأحوال، فجزاؤهم النار في كل الأحوال.

[١٨] وفي مقابل هؤلاء المكذبين المصدقون فـ ﴿**إن المتقين في جنات ونعيم**﴾ النعمة الباطنية «الجنة الظاهرية» كما أن الكفار في ألم النار

---

(١) فصلت: ٦.

فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٩﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ ۖ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٢١﴾

وألم التوبيخ والاستهزاء، كما في «أفسحر؟ فاصبروا...».

[١٩] ﴿**فاكهين**﴾ متلذذين ﴿**بما آتاهم**﴾ أعطاهم ﴿**ربهم**﴾ من النعم ﴿**ووقاهم ربهم عذاب الجحيم**﴾ أي حفظهم من ذلك العذاب، إشارة إلى أنهم وإن استحقوا العذاب لبعض معاصيهم إلا أن الله يغفر لهم ويحفظهم من ذلك العذاب لطفاً وتفضلاً.

[٢٠] ويقال لهم ﴿**كلوا واشربوا هنيئاً**﴾ الهنيء الذي لا تنغيص فيه لا من جهة الفم ولا من جهة الحلق عند الازدراء ولا من جهة العاقبة فلا أثر سيئ له ﴿**بـ**﴾ سبب ﴿**ما كنتم تعملون**﴾ من العقيدة الصحيحة، والأعمال الصحيحة، فإن العقيدة نوع عمل للقلب حيث بنى على شيء معين.

[٢١] في حال كونهم ﴿**متكئين على سرر**﴾ جمع سرير ﴿**مصفوفة**﴾ قد اصطفت ففيه جمال للمنظر بالإضافة إلى كونه راحة للجسم ﴿**وزوجناهم بحور عين**﴾ جمع حوراء واسعة العين وبيضاء الجسم فنظافة في الأبدان والأخلاق، وعيناء واسعة العين بما يزيدها جمالاً، وقد وردت في الروايات تزويج النساء أيضاً برجال الدنيا، ولعل عدم ذكر النساء وزواجهن من باب البلاغة، لأنه من غير المستحسن لدى العرف أن يقال للمرأة نزوجك، بخلاف أن يقال للرجل.

[٢٢] ثم إن أولاد المؤمنين الذين لا يستحقون بأعمالهم مراتب آبائهم في

وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلۡحَقۡنَا بِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَمَآ أَلَتۡنَٰهُم مِّنۡ عَمَلِهِم مِّن شَيۡءٖۚ كُلُّ ٱمۡرِيِٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٞ ﴿٢١﴾ وَأَمۡدَدۡنَٰهُم بِفَٰكِهَةٖ وَلَحۡمٖ مِّمَّا يَشۡتَهُونَ ﴿٢٢﴾

الجنة، يلحقون بآبائهم لتقدير إيمان الآباء ﴿**والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان**﴾ بأن لم يكونوا كفرة ﴿**ألحقنا بهم ذريتهم**﴾ حتى ينعم الآباء بمؤانسة الأولاد، فمرة يشتغلون بالحور العين، وتارة بالذرية، وفي ذلك قرة أعينهم ﴿**وما ألتناهم**﴾ أي ما نقصنا الآباء ﴿**من عملهم من شيء**﴾ فلم نعطي للأبناء من حق الآباء بل أعطينا الأبناء زيادة على حق الآباء ﴿**كل امرئ بما كسب رهين**﴾ كأن نفس الإنسان مرهونة بالعمل الصالح فإذا أعطى الله العامل استرجع نفسه فصار حراً، وإلا بقي أسيراً في جهنم، لأنه لم يقدم ما يفك به نفسه، كما أن صاحب الدار الذي رهنها لأنه لم يقدم مال المرتهن لم يتمكن من استرداد داره، ولعل قوله سبحانه «كل امرئ. . .» لدفع توهم أنه إذا أعطى الذرية ما لا يستحقون فقد حصلوا الثواب بغير عمل؟ والجواب كلا، إن الذرية كانوا مؤمنين فاستحقوا الجنة بذلك، ولكن الله تفضل عليهم بالمزيد جزاءً للآباء فدرجتهم بين جزاء لهم وجزاء لآبائهم، أو يقال إن كلا من الآباء والذرية استحق نفس الدرجة الرفيعة واستحق الجمع بينها، فالآية إخبار عن الواقع، ولا إعطاء لما لا يستحق ولو إعطاء تفضلاً.

[٢٣] ﴿**وأمددناهم**﴾ استمررنا في إمدادهم، فليس كالضيافات في الدنيا التي يؤتى إلى الضيف بالمأكول والمشروب أول ما يجيء فقط، فإذا جلس ساعة مثلاً، لا يؤتى إليه مرة أخرى بهما ﴿**بفاكهة ولحم مما يشتهون**﴾

يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأۡسٗا لَّا لَغۡوٞ فِيهَا وَلَا تَأۡثِيمٞ ﴿٢٤﴾ وَيَطُوفُ عَلَيۡهِمۡ غِلۡمَانٞ لَّهُمۡ كَأَنَّهُمۡ لُؤۡلُؤٞ مَّكۡنُونٞ ﴿٢٥﴾ وَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٦﴾ قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبۡلُ فِيٓ أَهۡلِنَا مُشۡفِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٨﴾

والللحم شامل للطير والسمك وسائر اللحوم.

[٢٤] ﴿**يتنازعون**﴾ على سبيل المزاح والمفاكهة ﴿**فيها**﴾ في الجنة ﴿**كأساً**﴾ فيها خمر ﴿**لا لغو فيها**﴾ لا يتكلمون إذا شربوها باللغو ﴿**ولا تأثيم**﴾ من ما يفعله شاربو الخمر في الدنيا من السب والضرب والجرح وأحياناً التعدي على الأعراض وغيرها، فإنه لا فساد في الآخرة.

[٢٥] ﴿**ويطوف عليهم**﴾ يمر بهم مروراً متواصلاً، لإعطائهم الكأس والفاكهة وقضاء حوائجهم ﴿**غلمان**﴾ جمع غلام ﴿**لهم كأنهم**﴾ في بياضهم وجمالهم ﴿**لؤلؤ مكنون**﴾ محفوظ في مكان نظيف بحيث لم يكن ظاهراً حتى يغير بريقه الهواء والوسخ.

[٢٦] ﴿**وأقبل بعضهم**﴾ من أهل الجنة ﴿**على بعض يتساءلون**﴾ هذا يسأل ذاك وذاك يسأل هذا عن أحوالهم في الدنيا وما استحقوا به هذه الدرجات؟

[٢٧] ﴿**قالوا**﴾ المسؤولون ﴿**إنا كنا قبل**﴾ في دار الدنيا حيث كنا ﴿**في أهلنا مشفقين**﴾ خائفين من العذاب، إذ من لا خوف له لا يعمل صالحاً ـ إلا في الأندر من النادر ـ.

[٢٨] ﴿**فمنّ الله علينا**﴾ بغفران ذنوبنا ﴿**ووقانا**﴾ حفظنا ﴿**عذاب السموم**﴾

إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٩﴾ فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٣٠﴾ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣١﴾ قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ

النار النافذة في المسام وثقب الجسد.

[٢٩] ﴿**إنا كنا من قبل**﴾ في دار الدنيا ﴿**ندعوه**﴾ ندعو الله سبحانه ولا ندعو غيره ﴿**إنه**﴾ سبحانه ﴿**هو البر**﴾ المحسن ﴿**الرحيم**﴾، ولذا أحسن إلينا ورحمنا، رحمنا فلم يعذبنا بذنوبنا، وأحسن إلينا بإعطائنا أزيد من استحقاقنا.

[٣٠] ﴿**فذكر**﴾ يا رسول الله الناس بالعقائد الصحيحة ولا يمنعك من الاستمرار في التذكير سبهم لك واتهامهم إياك بأنك كاهن أو مجنون ﴿**فما أنت بنعمة ربك**﴾ بسبب إنعامه الذي أعطاك تعالى ﴿**بكاهن**﴾ متصل بالجن يخبره بعض الأخبار الغائبة عن الحواس ﴿**ولا مجنون**﴾ دخل فيه الجان فأخذ يتكلم ببعض المغيبات ـ كما كانوا يتهمون الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بهذين الأمرين ـ .

[٣١] ﴿**أم يقولون**﴾ بل يقولون أن محمداً صلى الله عليه وآله وسلم ﴿**شاعر**﴾ إذا رأوا عدم قبول الناس افترائهم الأول «إنه كاهن أو مجنون». ﴿**نتربص به**﴾ أي نصبر وننتظر ﴿**ريب المنون**﴾ أي ما يقلق النفوس من حوادث الدهر، فإذا احتفت به المشاكل انقلع عن دعواه النبوة، أو المراد بالمنون الموت.

[٣٢] ﴿**قل**﴾ لهم يا رسول الله ﴿**تربصوا**﴾ انتظروا ﴿**فإني معكم من**

ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣٢﴾ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٣٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٤﴾ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٦﴾

المتربصين﴾ فكما أنكم تنتظرون هلاكي وعدم نجاحي، فإني أنتظر نجاحي وتقدم دعوتي، أو أنتظر موتكم، وسوف نرى العاقبة لمن؟.

[٣٣] **﴿أم تأمرهم أحلامهم﴾** عقولهم **﴿بهذا﴾** التناقض في أقوالهم فمرة يقولون شاعر، وأخرى كاهن وثالثة مجنون، فهل أمثال هذه الكلمات تصدر من العقلاء؟ **﴿أم هم قوم طاغون﴾** يعرفون الحق، وإنما يقولون الباطل لطغيانهم على الحق، وعنادهم في الأمر.

[٣٤] **﴿أم يقولون تقوله﴾** أي اختلق الرسول ﷺ القرآن من تلقاء نفسه بدون أن ينزل عليه وحي **﴿بل﴾** هم يعلمون وإنما لأنهم **﴿لا يؤمنون﴾** يرمون القرآن بهذه الأمور حتى يجعلوا لأنفسهم عذراً في عدم إيمانهم.

[٣٥] وإذا كان تقوّل من الرسول **﴿فليأتوا بحديث﴾** شيء جديد **﴿مثله﴾** مثل القرآن **﴿إن كانوا صادقين﴾** في قولهم «تقوله» إذ لو كان القرآن كلام البشر لتمكن بلغائهم أن يأتوا بمثله، فعدم تمكنهم بأجمعهم من الإتيان بمثل القرآن دليل عدم كون القرآن من كلام البشر.

[٣٦] **﴿أم خلقوا من غير شيء﴾** خالق لهم ولذا لا يذعنون بالخالق ولايسمعون كلامه **﴿أم هم الخالقون﴾** خلقوا أنفسهم؟ وحيث لا هذا

أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٧﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ ۖ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٩﴾

ولا هذا كان لا بد من إذعانهم للخالق، فلماذا يكفرون به ويجعلون له شريكاً؟

[٣٧] ﴿**أم خلقوا السماوات والأرض**﴾ فهم شركاء لله، والشريك لا يخضع لشريكه، ﴿**بل**﴾ ليس كل ذلك وهم يعلمون أنهم عبيد مربوبون وإنما ﴿**لا يوقنون**﴾ فإن الانسياق وراء البرهان ـ دون الأهواء والتقاليد ـ لايكون إلا لمن أراد التيقّن، فنفي الإيقان عنهم باعتبار نفي آثاره، كما يقال: لا عين لفلان إذ لم يستعمل عينه حتى سقط في بئر، ويقال لا عقل له، إذا لم يستعمل عقله.

[٣٨] ﴿**أم عندهم خزائن ربك**﴾ فلا يرون أنفسهم بحاجة إلى الله، ولذا لايؤمنون به ولا برسوله ولا بكتابه؟ ﴿**أم هم المصيطرون**﴾ على الخزائن، وإن تكن لهم فسيطرتهم على الخزائن توجب أن يزعموا غنائهم عن الإيمان؟

[٣٩] ﴿**أم لهم سلم**﴾ مرقاة يصعدون بسببها إلى السماء ﴿**يستمعون فيه**﴾ إلى الوحي فلا يحتاجون إلى الرسول صلى الله عليه وآله وسلم لأنهم كالرسول يعرفون أمور السماء ﴿**فـ**﴾ إذا زعموا ذلك، وقالوه عناداً ﴿**ليأت مستمعهم**﴾ من ادعى الاستماع ﴿**بسلطان**﴾ حجة ﴿**مبين**﴾ واضحة على صدقه، كأن يخبر عن الآتي، كما يأتي النبي صلى الله عليه وآله وسلم بأخبار الغيب، ولا يخفى أن في هذا احتجاج على منكر الله، وعلى من جعل له شريكاً، وعلى من

أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿٤٠﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤١﴾ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ ﴿٤٣﴾

أنكر الرسول أو القرآن، وعلى من أنكر البعث، بأسلوب بلاغي رائع، وباحتجاجات عقلية، وعرفية يفهمها كل إنسان وإن لم يكن من أهل الخبرة والدقة.

[٤٠] ﴿**أم له البنات**﴾ فقد كان جمع من كفار قريش يقولون إن الملائكة بنات الله ﴿**ولكم البنون**﴾ البنون خاص بكم؟ وبأي دليل تقولون هذا القول؟.

[٤١] ﴿**أم تسألهم**﴾ يا رسول الله ﴿**أجراً**﴾ على الرسالة ﴿**فهم من مغرم**﴾ التزام غرم ﴿**مثقلون**﴾ يحملون الثقل، ولذا لا يؤمنون بك فراراً من إعطاء المال، وحيث لا تسألهم أجراً والدليل معك فلماذا لا يؤمنون؟

[٤٢] ﴿**أم عندهم**﴾ علم ﴿**الغيب فهم يكتبون**﴾ ما أخذوه عن الغيب وبذلك علموا كذبك ولذا لا يؤمنون بك؟

[٤٣] ﴿**أم يريدون كيداً**﴾ بك، لا حجة لهم، ولا عندهم الغيب، وإنما يكيدون بك ليتخلصوا منك حتى لا تدعوهم إلى الهدى، استثقالاً عن الحق، لكن فليعلموا أنهم لا يقدرون على الكيد بك، وإنما كيدهم على أنفسهم ﴿**فالذين كفروا هم المكيدون**﴾ يعود وبال كيدهم عليهم، كما قال (وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ المَاكِرِينَ)[١] .

---

(١) آل عمران: ٥٥ .

أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٤﴾ وَإِن يَرَوْا۟ كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا يَقُولُوا۟ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴿٤٥﴾ فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٦﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِى عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٧﴾

[٤٤] ﴿**أم لهم إله غير الله**﴾ ولذا يشركون مع الله إلهاً غيره؟ ﴿**سبحان الله**﴾ الله منزه ﴿**عما يشركون**﴾ إذ لا شريك له، كما دلّ على ذلك العقل، بالإضافة إلى أنهم لا دليل لهم على الشرك، وفي هذه الآيات تفنيد لمزاعم الكفار، والجامع بينها إنها كانت مزاعم باطلة رائجة بينهم.

[٤٥] وقد كان الكفار يتحدون الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بأنه إن كان صادقاً، فليسقط عليهم قطعة من السماء لإهلاكهم، مثل تحدي كل جاهل معاند، وقد أجابهم القرآن بأنهم حتى إن رأوا ذلك عاندوا الحق، كما هو شأن كل معاند ﴿**وإن يروا كسفاً**﴾ قطعة ﴿**من السماء**﴾ كأحجار الجو، أو ما يزعمه سماءً، ﴿**ساقطاً يقولوا**﴾ من فرط عنادهم وطغيانهم، هذا ﴿**سحاب مركوم**﴾ تراكم وتجمع بعضه على بعض، فلا فائدة في إتيانك يا رسول الله بهذه المعجزة.

[٤٦] ﴿**فذرهم**﴾ فاتركهم بعدما رأيت من عنادهم ﴿**حتى يلاقوا يومهم الذي فيه يصعقون**﴾ يموتون بأيديكم، أو موتة طبيعية، حتى يروا جزاءهم هناك.

[٤٧] ﴿**يوم لا يغني عنهم كيدهم شيئاً**﴾ في رد العذاب فإن عذاب الآخرة ليس كمشاكل الدنيا يمكن ردها بالكيد والأساليب الدنيوية ﴿**ولا هم ينصرون**﴾ كما ينصر بعضهم البعض في الدنيا، فإن الآخرة ليس فيها

وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٨﴾ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ۖ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٩﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ﴿٥٠﴾

ناصر ينصر من أراد الله عذابه.

[٤٨] ﴿**وإن للذين ظلموا**﴾ من هؤلاء الكفار، جيء بهذا اللفظ، للدلالة على اقتران الكفر بالظلم غالباً، بل الكفر من أعظم الظلم بنفس الكافر ﴿**عذاباً دون ذلك**﴾ قبل عذاب الآخرة، وهو ما يشاهدونه في الدنيا من ثمرات أعمالهم، فإن الظلم لا يثمر إلا العذاب ﴿**ولكن أكثرهم لا يعلمون**﴾ ذلك، والحاصل أن كفرهم يعود عليهم بعذاب الدنيا وعذاب الآخرة.

[٤٩] ﴿**واصبر لحكم ربك**﴾ الحكم الذي أعطاك، فإن الرسول كان حاكماً من قبل الله ﴿**فإنك بأعيننا**﴾ أي تحت حفظنا ورعايتنا، والإتيان بجمع العين، لبيان أنهم إن كانوا جماعة ضدك، فإن أعيناً أيضاً تراقبك لحفظك ولئلا يمسوك بسوء ﴿**وسبح بحمد ربك**﴾ نزهه مع إثبات صفات الكمال له ـ كما تقدم مثله ـ ﴿**حين تقوم**﴾ في أول النهار واشكره على أن مضى ليلك بسلام.

[٥٠] ﴿**و**﴾ سبحه ﴿**من الليل**﴾ بعض الليل حين يدخل الليل على أن مضى نهارك بسلام ﴿**و**﴾ سبحه ﴿**إدبار النجوم**﴾ إذا أدبرت النجوم، بعد منتصف الليل حين تأخذ النجوم في النزول من نصف السماء، فإن الإنسان يستيقظ عند ذاك، غالباً ويفكر في عظمة الله، ويلقي سكون الليل في نفسه رهبة وخشوعاً أمام خالق الكون وجاعل الظلمات والنور.



سورة النجم

مكية ـ مدنية/آياتها (٦٣)

سميت السورة بهذا الاسم لاشتمالها على لفظ «النجم» وهي كسائر السور المكية مشتملة على قضايا العقيدة، كما أن بعض آياتها التي نزلت بالمدينة تعالج قضايا العمل ـ على ما يظهر من نفس السورة من أنها مكية مدنية، وعلى ما قاله جمع من المفسرين ـ ولما اختتمت سورة الطور بما يفيد تكذيب الكفار لرسول الله ﷺ، ابتدأت هذه السورة بتفنيد مزاعمهم في كذبه ﷺ، وإنه ﷺ صادق وليس بكاذب ولا ضال.



[١] ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ نشرع باسم الله، فإن الذات الشريفة تؤثر في شرافة إمداداتها، كما أن الذات غير الشريفة تؤثر في عدم شرافة إمداداتها، لذا يحب الإنسان حتى أسم محبوبه ويكره حتى أسم مكروهه، الله المستجمع لجميع صفات الكمال، الرحمن بعباده بدءاً، والرحيم بهم استمراراً.

وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿٢﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ وَمَا غَوَىٰ ﴿٣﴾ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ﴿٤﴾ إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٌ يُوحَىٰ ﴿٥﴾ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلۡقُوَىٰ ﴿٦﴾

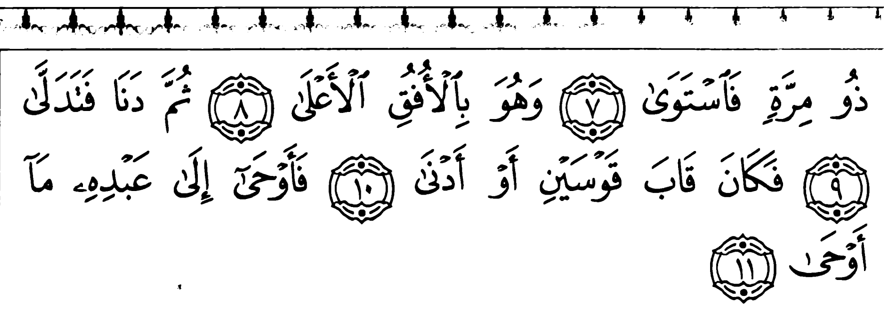
[٢] ﴿**والنجم**﴾ قسماً بالنجم، والمنصرف جنس النجم ﴿**إذا هوى**﴾ نحو المغيب، من وسط السماء، أومن الأفق.

[٣] ﴿**ما ضل صاحبكم**﴾ ما عدل هو عن الطريق المستقيم، ولعل وجه القسم بالنجم، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم نجم معنوي في كل أحواله، كما أن النجم نجم حتى في حال هويه، ﴿**وما غوى**﴾ الناس في دعوته إلى الله، بل هو مهتد في نفسه ودعوته للناس دعوة إلى الرشد.

[٤] ﴿**وما ينطق عن الهوى**﴾ عن هوى النفس وميوله الشخصية كما كان الكافرون يقولون «تقوّله».

[٥] ﴿**إن**﴾ ما ﴿**هو**﴾ الذي نطق به من القرآن وسائر إخباره عن الله تعالى ﴿**إلا وحي يوحى**﴾ إليه من جانب الله وهل الوحي وقتي، أو مستمر وإنما جهاز الاستقبال وقتي مثله مثل نور الشمس المستمرة منذ أن خلقت، وإنما إذا وجدت زجاجة مقعرة أخذته وأحرقت به ما ينعكس إليه النور منها، فحالة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم الخاصة تأخذ الوحي المناسب في الوقت المناسب، احتمالان: وإن كان ظاهر الأدلة الأول.

[٦] ﴿**علّمه**﴾ أي علم الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بالوحي ﴿**شديد القوى**﴾ جبرئيل، فإن للملك قوى كما للإنسان قوى، وقوى الملك شديدة، مثلاً علمه كثير، ولا ينسى، وقدرته كثيرة ولا تضعف إلى غير ذلك، وظاهر الآية بسياق الآيات الآتية أن المراد به جبرئيل عليه السلام.



[٧] ﴿ذو مرة﴾ ذو قوه، وأصل المرة خلط في العروق، كالصفراء والسوداء، وسمي مرة لقوة البدن به، ثم استعملت في أصل القوة، فكأنه قال مرة «قواه شديدة» ومرة «قوى بمجموعة» أو المراد بذي مرة حصانة في عقله ورأيه فالأول: لقواه المادية. والثاني: لقوته العقلية، ﴿فـ﴾ لما أراد أن ينزل الوحي على الرسول ﷺ ﴿استوى﴾ استولى على الأرض لإتيان الوحي.

[٨] ﴿وهو﴾ جبرئيل عليه السلام ﴿بالأفق الأعلى﴾ مكانه في أعالي السماوات.

[٩] ﴿ثم دنا﴾ جبرئيل إلى الرسول ﷺ ﴿فتدلى﴾ في الهواء، تدلي الدلو في البئر، وأصل التدلي استرسال مع تعلق، ولعل هذا التعبير باعتبار تعلق جبرئيل عليه السلام بالأعلى تعلقاً.

[١٠] ﴿فكان﴾ جبرئيل من محمد ﷺ ﴿قاب قوسين﴾ فإن قوسين إذا التصقت إحداهما بالأخرى يكون عرضهما مقدار ذراعين لأن «قاب» كل قوس مقدار ذراع تقريباً، و«القاب» عبارة عن الفاصل بين رأسي القوس الواحد، والمراد من هذه الآية ـ حسب الظاهر ـ إن قرب جبرئيل من رسول الله ﷺ كان بقدر ذراعين ﴿أو أدنى﴾ ولعله كان يقترب ويبتعد، كما هي عادة كل متكلمَين.

[١١] ﴿فأوحى﴾ الله في هذه الحالة ﴿إلى عبده﴾ الرسول ﷺ ﴿ما أوحى﴾ ما أراد وحيه، أو المراد، بـ«أوحى» جبرئيل، مثل (قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ

مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١٢﴾ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٣﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٥﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٦﴾

المَوْتِ)[1] أما الضمير في عبده راجع إلى الله سبحانه، وفي تفسير الآية ذكر مصاديق وتأويلات لا تنافي ظاهرها الذي ذكرناه.

[١٢] ﴿**ما كذب الفؤاد**﴾ فؤاد رسول الله ﷺ ﴿**ما رأى**﴾ من جبرئيل وسمع من الوحي، إذ قد يكذب الفؤاد الحواس، كأن يرى الإنسان الشمس والقمر صغيرين، أو ماء البحر أسود، لكن القلب يقول ليس كما رأيت، فالرسول ﷺ رأى جبرئيل بعينه وعرف صدق رؤيته بقلبه.

[١٣] ﴿**أفتمارونه**﴾ أي أيها الكفار هل تجادلون محمد ﷺ ﴿**على ما يرى**﴾ ما رآه فتقولون له: قد اشتبهت ولم يكن جبرئيل؟ ولعل الإتيان بـ «يرى» بصيغة المستقبل، لاستمرار علم الرسول ﷺ إلى وقت الكلام، بأن ما رآه كان صدقاً، لا خيالاً.

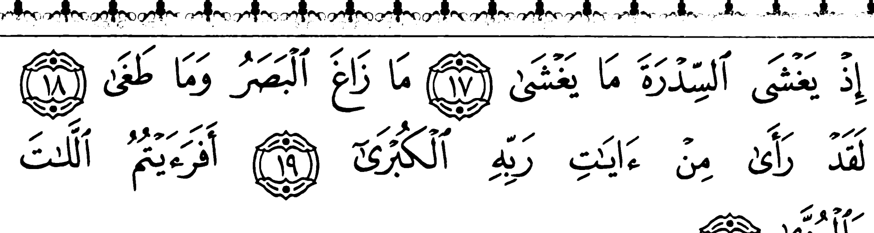
[١٤] وهل يمكن أن يكون الرسول ﷺ قد اشتبه ﴿**و**﴾ الحال أن الرسول ﷺ ﴿**لقد رآه**﴾ رأى جبرئيل ﴿**نزلة أخرى**﴾ حين نزل بالوحي إليه مرة ثانية، والاشتباه لا يمكن مرتين.

[١٥] وكانت رؤيته ﷺ الثانية لجبرئيل عليه السلام ﴿**عند سدرة المنتهى**﴾ «المنتهى» مضاف إليه، لعل المراد انتهاء عالم الدنيا إلى هناك بقرينة.

[١٦] ﴿**عندها**﴾ أي عند تلك السدرة ﴿**جنة المأوى**﴾ التي يأوي إليها

---

(١) السجدة: ١٢.



المؤمنون الصالحون.

[١٧] ﴿إذ يغشى السدرة﴾ غشيه بمعنى أحاط به واستولى عليه﴿ مايغشى﴾ مما لا يعلمه إلا الله تعالى ولعلها باعتبار كونها الحدّ الفاصل بين عالم الدنيا وعالم الآخرة، يكون مهبط الأملاك من الجنة إلى السماوات والأرض، ومصعد أرواح المؤمنين والملائكة الصاعدة من الأرضين والسماوات إلى طرف الجنة.

[١٨] ولا يقول الكفار لعلّه اشتبه الرسول ﷺ هذه المرة أيضاً، لأنه ﴿ما زاغ﴾ لم يمل ﴿البصر﴾ بصر رسول الله، بأن رأى غير جبرئيل فزعم ﴿وما طغى﴾ بأن لم يكن شيء فيزعمه شيئاً كما في من يرى السراب فيزعمه شيئاً وهو ليس بشيء، ثم لا يخفى أن رؤية الرسول ﷺ لجبرئيل مرتين، إنما يراد به أنه رآه بصورته الواقعية، كما ورد بذلك النص والتفاسير[١]، وإما بغير صورته الواقعية، كصورة «دحية» فقد رآه ﷺ مرات عديدة.

[١٩] و﴿لقد رأى﴾ الرسول ﷺ عند سدرة المنتهى ﴿من آيات ربه الكبرى﴾ أي الآيات العظام التي كانت حول شجرة السدرة.

[٢٠] هل الله وما شاهده الرسول ﷺ من آيات الله، يقاس بما أنتم عاكفون عليها من الأصنام؟ ﴿أفرأيتم اللات والعزّى﴾ وهما صنمان كان

(١) الاحتجاج: ج١ ص٢٤٣ .

وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢١﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢٢﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٣﴾ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ

يعبدهما قريش.

[٢١] ﴿ومناة﴾ الصنم ﴿الثالثة الأخرى﴾ ولعلها أخرى في المرتبة عندهم؟

أقول: وحذف الجواب لزيادة الاستهجان، فهو كما يقال «لزيد مليون دينار» ثم يقال أرأيتم كم لعمرو من الدنانير؟ «فيما كان له ثلاثة دنانير مثلاً» فإن قوله: أرأيت، يراد به الاستهجان، وبيان عدم المقايسة بين الأمرين.

[٢٢] ثم استهجن القرآن كلاماً أخرا للمشركين، وهو قولهم أن الملائكة بنات الله فقال ﴿ألكم الذكر وله﴾ سبحانه ﴿الأنثى﴾ فقد كانوا يزعمون بأنهم مخصصون بالأولاد الذكور، ولا ولد ذكر لله تعالى، ويحتمل أن يراد أنكم تكرهون الإناث، فكيف جعلتم الأصنام الثلاثة «وكانوا يزعمون أنهم إناث» شركاء الله تعالى.

[٢٣] ﴿تلك﴾ القسمة بينكم فـ « لكم الذكر» وبين الله «وله الأنثى» ﴿إذاً﴾ إذا كان كما زعمتم ﴿قسمة ضيزى﴾ جائرة، من ضاز يضيز، إذا جار.

[٢٤] ﴿إن هي﴾ ما تلك الأصنام الثلاثة ﴿إلا أسماء﴾ أي تسميتها بالألوهية إسم مجرد لا حقيقة تحت هذا الاسم فـ «هي» محل، أطلق، وأريد به «الحال» لأن «الاسم» حال، و«الصنم» محل ﴿سميتموها﴾ مجرد تسمية ﴿أنتم وآباؤكم﴾ من قبل، وإلا فهل الأصنام آلهة؟ ﴿ما أنزل الله بها من سلطان﴾ من حجة وبرهان، وإنما هوى أنفسهم مع تلك

إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٤﴾ أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٥﴾ فَلِلَّهِ ٱلْءَاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ ﴿٢٦﴾ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا

الأصنام ثم ظنوا أنها آلهة، فلا دليل من العقل ولا من الشرع عليها ﴿إن﴾ ما ﴿يتبعون إلا الظن﴾ بأنها آلهة ﴿وما تهوى الأنفس﴾ ما تشتهيه أنفسهم ﴿ولقد جاءهم من ربهم الهدى﴾ الرسول والكتاب المطابقان للعقل والفطرة فتركوهما واتبعوا أهواءهم الباطلة في القول بأن الأصنام آلهة.

[٢٥] ﴿أم للإنسان ما تمنى﴾ استفهام إنكاري أي ليس للإنسان ما يتمناه، فهؤلاء يتمنون صحة عقيدتهم ويتمنون أن تشفع الأصنام لهم، لكن هذا التمني لا يتحقق.

[٢٦] ﴿فلله الآخرة والأولى﴾ بيده كل شيء فهو الإله وهو الشفيع (قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعاً)[١].

[٢٧] إنهم يرجون الشفاعة من الأصنام بينما الملائكة لا تقدر على الشفاعة إلا بعد إذن الله ﴿وكم من ملك في السماوات﴾ فهو مع كونه ملكاً، ومع كونه في السماوات قريباً من رحمة الله ﴿لا تغني﴾ لا تفيد ﴿شفاعتهم شيئاً﴾ أي أنهم على تقدير أن يشفعوا لا تفيد شفاعتهم و«كم» لا مفهوم له، حتى يكون هناك «ملك» تغني شفاعته، ولعل الإتيان به لإفادة أنه إذا كان كثير من الملائكة كذلك، فكيف بالأصنام؟ ولا حاجة في إسقاط الأصنام

---

(١) الزمر: ٤٥.

إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ أَن يَأۡذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرۡضَىٰٓ ﴿٢٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ تَسۡمِيَةَ ٱلۡأُنثَىٰ ﴿٢٨﴾ وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٍۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغۡنِي مِنَ ٱلۡحَقِّ شَيۡـٔٗا ﴿٢٩﴾ فَأَعۡرِضۡ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكۡرِنَا وَلَمۡ يُرِدۡ إِلَّا ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ﴿٣٠﴾

عن الشفاعة القول بأن «كل الملائكة كذلك» ﴿**إلا من بعد أن يأذن الله**﴾ في الشفاعة ﴿**لمن يشاء**﴾ من الملائكة أن يشفع ومن الناس أن يشفع له ﴿**ويرضى**﴾ ويراه أهلاً لذلك: شافعاً ومشفوعاً، والرضا وإن كان قبل الإذن إلا أن ملاحظة رؤوس الآي أورث تأخيره،

[٢٨] ﴿**إن**﴾ الكفار ﴿**الذين لا يؤمنون بالآخرة**﴾ وذلك يلازم عدم إيمانهم بما جاء عن الله ﴿**ليسمون الملائكة تسمية الأنثى**﴾ فإنهم حيث قالوا الملائكة بنات الله سموا كل ملك بنتاً.

[٢٩] ﴿**و**﴾ الحال ﴿**مالهم به**﴾ بما يقولون ﴿**من علم**﴾ أي لا علم لهم بأن الملائكة أنثى ﴿**إن**﴾ ما ﴿**يتبعون إلا الظن**﴾ فإنهم يظنون أن الملائكة بنات ﴿**وإن الظن لا يغني**﴾ لا يفيد ﴿**من الحق شيئاً**﴾ إذ لا برهان للظن، وما لا برهان له ليس مطابقاً للواقع، فإن كل مطابق للواقع له برهان.

[٣٠] ﴿**فأعرض**﴾ يا رسول الله ﴿**عن من تولى عن ذكرنا**﴾ إذ لا يفيد معه التذكير! لأنه معاند ﴿**ولم يرد إلا الحياة الدنيا**﴾ فكل سعيه وعمله للدنيا،

ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿٣١﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى ﴿٣٢﴾ ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ

ولا يعتقد بالآخرة حتى يعمل لها، فهو منكر للتوحيد، ومنكر للمعاد.

[٣١] ﴿**ذلك**﴾ انحصار فكرهم في الدنيا، من دون نفوذ علمهم إلى المبدأ ولا إلى المعاد ﴿**مبلغهم من العلم**﴾ قدر بلوغ علمهم فهو علم ضيّق محدود منحرف، فلا تتعب نفسك يا رسول الله مع هؤلاء فإن الله يعلم حالهم وسوف يجازيهم ﴿**إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله**﴾ أي أنفذ علماً فيعلم خصوصياتهم وكل دقائقهم ﴿**وهو أعلم بمن اهتدى**﴾ فيجازي كلاً حسب عقيدته وعمله.

[٣٢] ﴿**ولله ما**﴾ أي الذي ﴿**في السماوات وما**﴾ أي الذي ﴿**في الأرض**﴾ أي كل شيء فيهما ملكاً وخلقاً ﴿**ليجزي**﴾ الله ﴿**الذين أساءوا بما عملوا**﴾ والعمل يشمل عمل القلب أيضاً لأن الاعتقاد عقد القلب على شيء خاص، و«اللام» للعاقبة، لا للعلّة، مثله، مثل (لِيكونَ لهم عَدُوّاً)[١] ﴿**ويجزي الذين أحسنوا بـ**﴾ المثوبة ﴿**الحسنى**﴾ في الدنيا والآخرة.

[٣٣] ومن هم الذين أحسنوا؟ هم ﴿**الذين يجتنبون كبائر الإثم**﴾ الآثام الكبيرة والتي منها الكفر والشرك وعدم الإيمان بالرسول وبما جاء به الرسول وعدم الإيمان بالمعاد ﴿**والفواحش**﴾ التي إثمها يتعدى إلى

---

(١) القصص: ٩ .

﴿إِلَّا ٱللَّمَمَۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلۡمَغۡفِرَةِۚ هُوَ أَعۡلَمُ بِكُمۡ إِذۡ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ وَإِذۡ أَنتُمۡ أَجِنَّةٞ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡۖ فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ٣٣﴾

الآخرين، من فحش إذا تعدى عمله الآثم إلى الآخرين **﴿إلا اللمم﴾** أي الذي يلمّ بالإنسان ويرد عليه مما لا علاج من وروده غالباً، وهي الصغائر وهي الصغائر مثل كلمة نابية، أو ضحكة غير جائزة أو نظرة محرمة أو ما شابه ذلك، والاستثناء منقطع لدفع توهم أن كل عصيان كبيرة، حيث إنها معصية لإله عظيم **﴿إن ربك واسع المغفرة﴾** فيغفر للّمم قطعاً، بعد أن كان يغفر لكثير من الكبائر لمن يشاء **﴿هو أعلم بكم﴾** حتى من أنفسكم فمن عمل صالحاً يعرفه ومن عمل فاسداً يعرفه **﴿إذ أنشأكم من الأرض﴾** فإن علمه شامل لزمان تكوينكم من الأرض حيث إن الإنسان تراب ثم ينقلب، نباتاً، ثم ينقلب حيواناً ثم النبات والحيوان ينقلب إلى طعام يأكله الأبوان فيصير دماً ثم منياً **﴿وإذ أنتم أجنة﴾** جمع جنين **﴿في بطون أمهاتكم﴾** وهذه أول مرحلة إنسانية، فيعلم بكم من ذلك الحين إلى اليوم **﴿فلا تزكوا أنفسكم﴾** لايغرنكم أعمالكم الصالحة، كما يقع فيه بعض المؤمنين غير المتأدبين، فيزكي نفسه إنه صام وصلى وأنفق وفعل الخير، فإنه غرور يوجب سقوط النفس عن الرفعة عند الله وعند الناس **﴿هو﴾** سبحانه **﴿أعلم بمن اتقى﴾** فعلى المؤمن، لا يكون مفرّطاً بعمل الفواحش، ولا مفرطاً يزكي نفسه، فإن التزكية للنفس قبيح، ولله أقبح لأنه أعلم بالإنسان من حال كونه تراباً إلى حال تقيّاً، حتى من نفسه.

[٣٤] وإذا عرفنا أحوال المتقين الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا

أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ ﴿٣٤﴾ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ ﴿٣٥﴾ أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ ﴿٣٦﴾ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٧﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٨﴾

اللمم فلنعرف أحوال غيرهم ﴿**أفرأيت**﴾ في قبال ذلك المتقي ﴿**الذي تولى**﴾ عن الحق وأعرض عنه وإن آمن به.

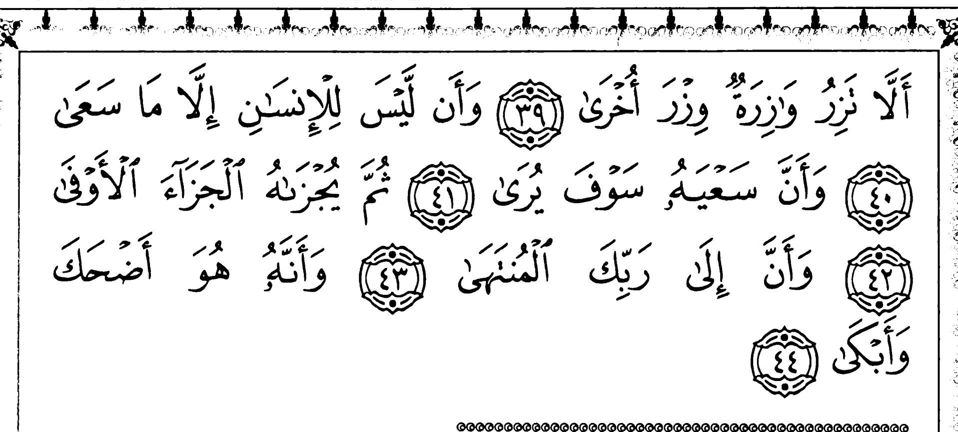
[٣٥] ﴿**وأعطى**﴾ مالاً ﴿**قليلاً**﴾ كما هو شأن كثير من الناس حيث يظهرون الإيمان لكنهم لا يلتزمون بموازينه، وبالأخص لا يدفعون المال المفروض عليهم إطلاقاً أو يعطون شيئاً قليلاً ﴿**وأكدى**﴾ أي قطع العطاء وأمسك يده عن الإنفاق، لغلبة حالة البخل عليه، ومن طبيعة أمثال هؤلاء الناس، أنهم يلقون تبعة ذنوبهم على غيرهم، فإذا قلت له لماذا تعصي؟ قال ذنب المبلغين الذين لا يبلغون كاملاً، ثم أن الله يغفر لي، وما أشبه من الكلمات المتعارفة عند البخلاء والعصاة، وفي التفاسير أنّ الآيات نزلت في عثمان في قصة[١]، ومن المعلوم أنه من باب المصداق.

[٣٦] ﴿**أعنده علم الغيب**﴾؟ فيعلم أن إنفاقه قد كفاه في حصول منزلة له عند الله، ويعلم أن غيره يتحمل إثم أعماله؟ ﴿**فهو يرى**﴾ الغيب ويعلم به؟

[٣٧] ﴿**أم لم ينبّأ**﴾ ألم يخبر ﴿**بما في صحف موسى**﴾.

[٣٨] ﴿**و**﴾ بما في صحف ﴿**إبراهيم الذي وفّى**﴾ كان وفيّاً بكلّ ما تعهد من قبل الله سبحانه، و«وفّى» بالتشديد مبالغة في الوفاء «وفيه تعريض أن هذا المؤمن الذي أعطى قليلاً... إلى آخره» لم يوفي بما شرط على

(١) مجمع البيان: ج٩ ص٢٩٨.



نفسه من الإطاعة في كل الأوامر.

[٣٩] ﴿**ألاّ تزر**﴾ لا تحمل ﴿**وازرة**﴾ نفس حاملة ﴿**وزر**﴾ حمل نفس ﴿**أخرى**﴾ فكل إنسان ذنبه على نفسه، لاكما زعم هذا البخيل من أن ذنبه على غيره.

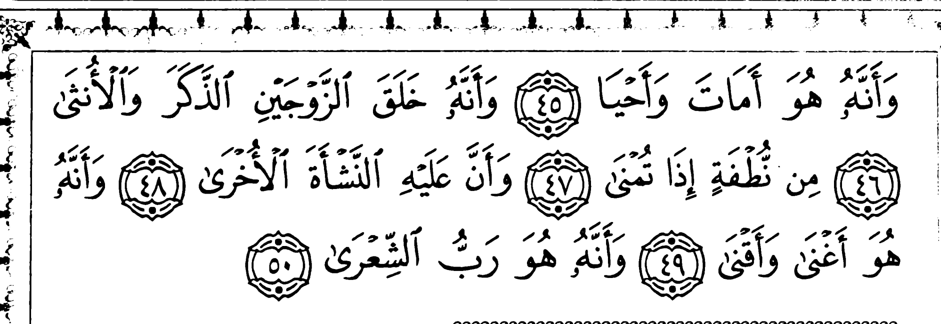
[٤٠] ﴿**وأن ليس للإنسان إلاّ ما سعى**﴾؟ فلِمَ يزعم أن إعطائه القليل كاف عن الإعطاء الذي أُمر به فكما لا يؤخذ أحد بذنب الغير كذلك لا يثاب أحد بأكثر مما عمل.

[٤١] ﴿**وأن سعيه سوف يرى**﴾ يراه بنفسه بدار الدنيا جزاءً بالمدح أو بغير ذلك، فإن الدنيا قبل الآخرة دار المكافآت «ولا يجتني الجاني من الشوك العنب».

[٤٢] ﴿**ثم يجزاه**﴾ أي يجزي العبد سعيه ﴿**الجزاء الأوفى**﴾ الأوفر وذلك في الآخرة.

[٤٣] وليعلم الناس أن الله هو مبدأ الأشياء وكل الأشياء تنتهي إليه وكل الأمور بيده، ولذا يجب عليهم شكره، وطاعته، كما يجب عليهم أن يخافوا من عقابه وعذابه ﴿**وأن إلى ربك المنتهى**﴾ انتهاء كل شيء، ومعنى «إلى» إلى جزائه وثوابه وعقابه.

[٤٤] ﴿**وأنه هو**﴾ سبحانه ﴿**أضحك وأبكى**﴾ فقد خلق في الإنسان قوتهما


وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٥﴾ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٦﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٧﴾ وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ ﴿٤٨﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ ﴿٥٠﴾

كما خلق وقدر ما يسبب البكاء والضحك، والضحك والبكاء ليس خاصاً بالإنسان بل كل شيء له ضحك وبكاء، قال الشاعر:

إن فصل الربيع فصل جميل
تضحك الأرض من بكاء السماء

ذهب حيثما ذهبنا ودرٌّ
حيث درنا وفضة في الفضاء

[٤٥] ﴿**وأنه هو**﴾ سبحانه ﴿**أمات وأحيا**﴾ حتى أنه إذا قتل الإنسان إنسانا فإن روحه بيد الله، ولذا لا يموت الإنسان في جهنم.

[٤٦] ﴿**وأنه خلق الزوجين**﴾ من كل شيء ﴿**الذكر والأنثى**﴾ وعدم ذكر الخنثى إما لشذوذه، أو لأنه في الحقيقة إما ذكر أو أنثى.

[٤٧] خلقهما ﴿**من نطفة**﴾ هي الماء القليل ﴿**إذا تمنى**﴾ تُدفق في الرحم.

[٤٨] ﴿**وأن عليه**﴾ سبحانه ﴿**النشأة**﴾ الإنشاء بعد الموت ﴿**الأخرى**﴾ فكما بدأ يقدر على الإعادة.

[٤٩] ﴿**وأنه هو أغنى**﴾ الأغنياء بخلق وسائل الغنى ﴿**وأقنى**﴾ أعطى المال الذي يدّخر للقنية أي الإبقاء، فالمال المتحرك الموجب للغنى، والمال الثابت كلاهما من عنده تعالى.

[٥٠] ﴿**وأنه هو**﴾ تعالى ﴿**رب الشعرى**﴾ نجم في السماء يطلع آخر الليل،

﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهۡلَكَ عَادًا ٱلۡأُولَىٰ (٥١) وَثَمُودَاْ فَمَآ أَبۡقَىٰ (٥٢) وَقَوۡمَ نُوحٖ مِّن قَبۡلُۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ هُمۡ أَظۡلَمَ وَأَطۡغَىٰ (٥٣) وَٱلۡمُؤۡتَفِكَةَ أَهۡوَىٰ (٥٤) فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ (٥٥) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ (٥٦)﴾

كان جماعة من العرب يعبدونه.

[٥١] ﴿**وأنه أهلك عاداً**﴾ أي قبيلة عاد ﴿**الأولى**﴾ قوم هود عليه السلام وهناك عاد ثانية عاد إرم ذات العماد.

[٥٢] ﴿**و**﴾ أهلك ﴿**ثموداً**﴾ قوم صالح ﴿**فما أبقى**﴾ أحداً من الفريقين، حيث عصوا وعتوا وكان جزاؤهم العذاب.

[٥٣] ﴿**و**﴾ أهلك ﴿**قوم نوح من قبل**﴾ قبل عاد وثمود ﴿**إنهم كانوا هم أظلم**﴾ أكثر ظلماً ﴿**وأطغى**﴾ أكثر طغياناً فقد ورد أنهم كانوا يضربون نوحاً عليه السلام حتى يبقى ليس به حراك، فهم ظالمون لأنفسهم طاغون على غيرهم وقد دعاهم ألف سنة إلا خمسين عاماً فلم ينفع فيهم.

[٥٤] ﴿**والمؤتفكة**﴾ وهي قرى قوم لوط عليه السلام التي ائتفكت بأهلها أي انقلبت ﴿**أهوى**﴾ بها وقلّبها بعد أن رفعها.

[٥٥] ﴿**فغشاها**﴾ أحاط بتلك القرى من العذاب ﴿**ما غشى**﴾ الشيء الذي غشاها من أصناف العذاب الذي لا يوصف.

[٥٦] وبعد كل هذه العذابات التي تعلم بها، مما أصاب العصاة ﴿**فبأي آلاء**﴾ نعم ﴿**ربك**﴾ يا أيها الإنسان ﴿**تتمارى**﴾ تتشكك، أليس وجود الأنبياء نعمة؟ أليس إنزال الكتب نعمة، أليس إرشاد العقل إلى الصحيح والباطل نعمة؟ وهل شك في هذه النعم التي من أخذ بمقتضاها سعد، ومن ترك مقتضاها شقي وعذب، حتى إنك تشك

هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ﴿٥٧﴾ أَزِفَتِ ٱلْـَٔازِفَةُ ﴿٥٨﴾ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿٥٩﴾ أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٦٠﴾

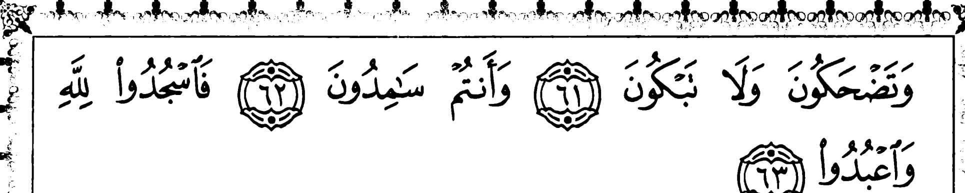
وتعصي وتترك الأوامر.

[٥٧] ﴿**هذا**﴾ القرآن ﴿**نذير**﴾ ينذركم من عذاب الله لمن عصي ﴿**من النذر الأولى**﴾ من جنس الإنذارات السابقة التي بعثنا بها إلى الأمم السابقين، ومن المحتمل أن يكون المراد بهذا الرسول ﷺ فهو نذير من جنس المنذرين «الرسل» السابقين.

[٥٨] لقد ﴿**أزفت**﴾ قربت ﴿**الآزفة**﴾ القيامة التي هي قريبة إلى كل من جاء إلى دار الدنيا، فإن الإنسان خلق جسمه الذي هو من التراب، قبل مئات الألوف من السنوات، وقد خلق الله الأرواح قبل الأجساد بألفي عام، فإذا جاء إلى دار الدنيا فقد قرب موته، وإذا مات الإنسان قامت قيامته، أو المراد القيامة الحقيقية، لأن أكثر عمر الدنيا قد انقضى ـ كما دل على ذلك الآثار والعلم الحديث ـ .

[٥٩] ﴿**ليس لها**﴾ للآزفة ﴿**من دون الله**﴾ أحد غير الله ﴿**كاشفة**﴾ نفس قادرة على كشفها والإتيان بها، فإن القيامة شيء مخفي، فإذا أقامها الله سبحانه فقد كشفها، والمراد الكناية عن أن القيامة بيد الله تعالى.

[٦٠] إذن فاللازم على هؤلاء من خوف عقاب الدنيا ـ كما في الآيات السابقة ـ ومن خوف عقاب الآخرة ـ كما في هاتين الآيتين ـ أن يؤمنوا ويخافوا ويعملوا صالحاً، ولكنهم سادرون في غيّهم ﴿**أفمن هذا الحديث**﴾ حديث التوحيد والنبوة والمعاد مما جاء به النبي ﷺ ﴿**تعجبون**﴾؟ وقد كان اللازم أن لا تعجبوا، لأنه قد قامت الحجة عليه.



[٦١] ﴿**وتضحكون**﴾ استهزاءً ﴿**ولا تبكون**﴾ ندماً وحزناً على ما سلف منكم من الكفر والآثام، وحزناً على ما يأتي من عقاب الدنيا والآخرة.

[٦٢] ﴿**وأنتم سامدون**﴾ لاهون وهذه الاستفهامات إستنكارية.

[٦٣] ﴿**فاسجدوا لله واعبدوا**﴾ اخضعوا له بالسجود والعبادة إن كنتم أردتم الخلاص والنجاة، وهذه السجدة واجبة، ولعله فلسفة وجوبها كوجوب السجدات الثلاث الأخر واستحباب غيرها من السجدات تلوين الطاعة، كما لُوّن سائر الطاعات من صلاة وصيام وحج واعتكاف فكل واحد بشكل، ولكل واحد أجزاء بأشكال، وذلك طبقاً للكون الذي هو أشكال وألوان والله العالم بحقائق أوامره وأحكامه.



سورة القمر

مكية /آياتها (٥٦)

سميت السورة بهذا الاسم لاشتمالها على كلمة «القمر» وهي كسائر السور المكية تتعرض لقضايا العقيدة بأصولها الثلاثة. وحيث تقدم في آخر سورة النجم «أزفت الآزفة» ابتدأت هذه السورة بذلك أيضاً.



[١] ﴿**بسم الله الرحمن الرحيم**﴾ نبدأ باسم الله ليكون اسمه الكريم عوناً لنا على الإتمام، إذ التوفيق للإتمام لا يكون إلا بيده سبحانه، وهو الرحمن الذي يرحمنا بالتوفيق الرحيم الذي يرحمنا مرة أخرى بإدامة التوفيق.

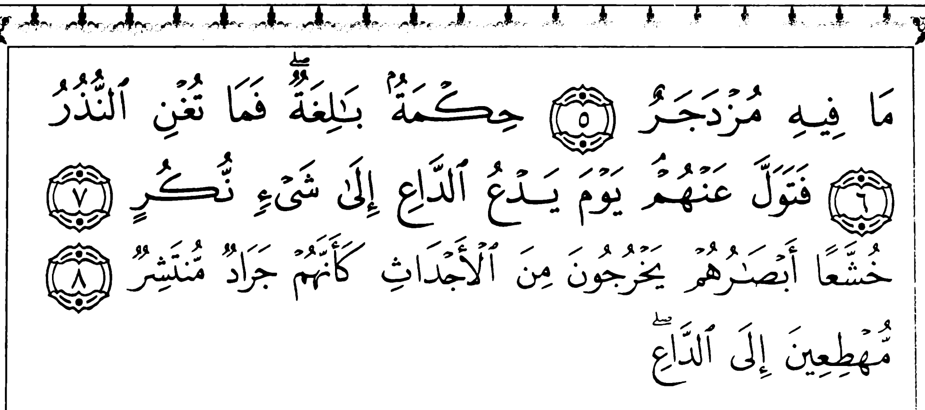
ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴿٢﴾ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴿٣﴾ وَكَذَّبُوا۟ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٤﴾ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ

[٢] ﴿**اقتربت الساعة**﴾ القيامة، وفيها احتمالان كما تقدم في آخر السورة السابقة في «أزفت الآزفة» أو المراد أنه ليس بعد رسول الله ﷺ إلا الساعة، فقد انتهت نبوات السماء به ﷺ ﴿**وانشق القمر**﴾ الذي هو من علامات اقتراب الساعة، وقد كان ذلك معجزة لرسول الله ﷺ في قصة طويلة، وقد نقل كتاب «الإسلام يتحدى» ذكر بعض التواريخ الغابرة رؤية الناس لهذا الانشقاق، كما ذكرت بعض الجرائد الكويتية ـ بعد نزول الغربيين على القمر ـ رؤيتهم مكان الانشقاق كأنه صار نصفين ثم التحم ـ مع أنهم مسيحيون لا يؤمنون بنبوة محمد ﷺ ـ .

[٣] ﴿**وإن يروا**﴾ هؤلاء الكفار المعاندون ﴿**آية**﴾ معجزة تدل على صدق الرسول ﷺ ﴿**يعرضوا**﴾ عنها ولا يقبلونها ﴿**ويقولوا**﴾ إن ما يأتي به محمد ﷺ من الآيات ﴿**سحر مستمر**﴾ فهو يأتي بالسحر على سبيل الاستمرار.

[٤] ﴿**وكذبوا**﴾ بالحق لما جاءهم ﴿**واتبعوا أهواءهم**﴾ ما قرر عليهم الهوى والميل النفساني، لاما قرره عليهم عقلهم ﴿**وكل أمر مستقر**﴾ وكل أمر لا بد وأن ينتهي إلى محل استقراره، وهذا تهديد لهم، أي أن تكذيبهم لابد وأن ينتهي إلى عاقبة سيئة لهم.

[٥] ﴿**ولقد جاءهم من الأنباء**﴾ أي الأخبار بالله وبالآخرة، وبجزاء المحسن



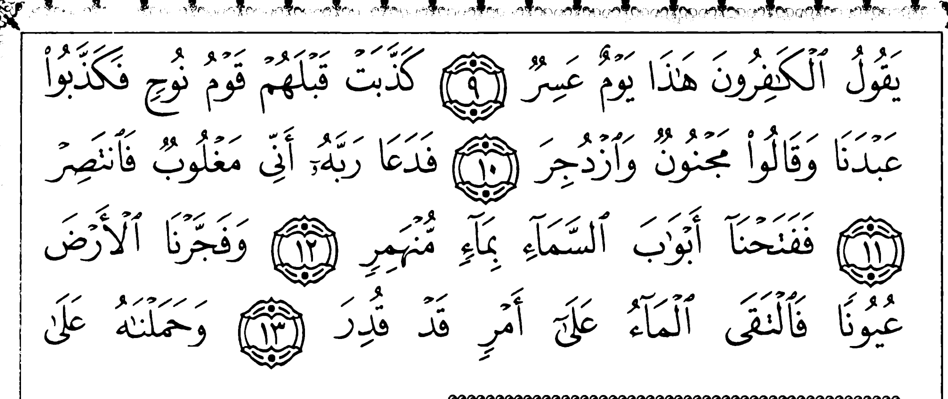
حسناً والمسيء سيئاً ﴿**ما فيه**﴾ كفاية و﴿**مزدجر**﴾ ازدجار، مصدر ميمي، فلو أنهم كانوا من أهل العقل والحكمة لكفاهم ما ذكرنا لهم من الوعيد ازدجاراً.

[٦] ذلك الذي قلناه لهم من الأنباء ﴿**حكمة بالغة**﴾ بلغتهم، وقد كانت حكمة بوضع الشيء في موضعه ولكن ﴿**فما تغنِ**﴾ ما تفيد ﴿**النذر**﴾ الإنذارات، بالنسبة إلى من يتعامى عنها.

[٧] ﴿**فتول**﴾ أعرض يا رسول الله ﴿**عنهم**﴾ من بعد أن أبلغت وأنذرت، ولم يقبلوا، لأن الإنذار لا ينفع فيهم فما أهول ما ينتظرهم من العذاب في ﴿**يوم يدع الداع**﴾ الداعي الذي يدعوهم عند البعث، ليقوموا للحساب ﴿**إلى شيء نكر**﴾ منكر فظيع، وإنما كان منكراً، لأن الإنسان لم يألفه ولم يشاهده.

[٨] ﴿**خشعاً**﴾ جمع خاشع بمعنى الذليل ﴿**أبصارهم**﴾ فإن خشوع النفس يظهر من خشوع العين ﴿**يخرجون**﴾ في أثر النداء ﴿**من الأجداث**﴾ جمع جدث، بمعنى القبور ﴿**كأنهم جراد منتشر**﴾ في الكثرة والتموّج وعدم النظام وانتشارهم في كل مكان.

[٩] ﴿**مهطعين**﴾ مسرعين ﴿**إلى الداع**﴾ إلى الذي يدعوهم إلى الحساب -


يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴿٩﴾ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ ﴿١٠﴾ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴿١١﴾ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١٢﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٣﴾ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ

ويوم ذلك كلهم مطيعون - ﴿**يقول الكافرون هذا يوم عسر**﴾ أي عسير صعب.

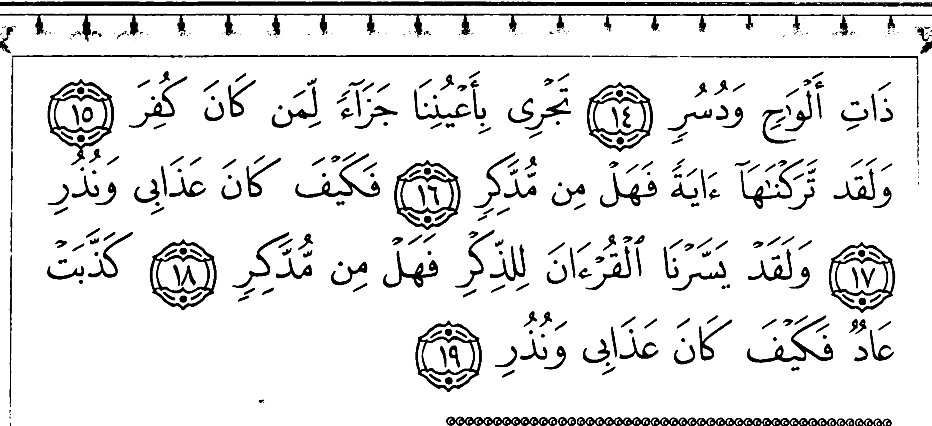
[١٠] وهؤلاء الكفار بالإضافة إلى أنه ينتظرهم عذاب الآخرة، كذلك مثلهم مثل الأقوام السابقة الذين كفروا بالأنبياء وبما جاءوا به فأخذهم عذاب الدنيا فقد ﴿**كذبت قبلهم**﴾ قبل قومك يا رسول الله ﴿**قوم نوح ف**ـ﴾ قد بغوا وطغوا و﴿**كذبوا عبدنا**﴾ نوحاً عليه السلام ﴿**وقالوا**﴾ إنه ﴿**مجنون**﴾ كما يقول الكفار بالنسبة لك يا رسول الله ﴿**وازدجر**﴾ زجر نوح عليه السلام عن التبليغ بأنواع الأذية، لكن نوحاً عليه السلام استقام ولم ينصرف عن تبليغ الرسالة.

[١١] ﴿**فدعا**﴾ نوح عليه السلام ﴿**ربه أني مغلوب**﴾ قد غلب علي الكفار بقوتهم المادية ﴿**فانتصر**﴾ فانصرني يا رب عليهم.

[١٢] وقد استجبنا دعاءه ﴿**ففتحنا أبواب السماء**﴾ مواضع نزول المطر ﴿**بماء منهمر**﴾ انهمر وتساقط بكثرة، كأنه أفواه القرب.

[١٣] ﴿**وفجرنا الأرض عيوناً**﴾ حتى كأنها لها عيون ﴿**فالتقى الماء**﴾ ماء السماء وماء الأرض ﴿**على أمر**﴾ هو إغراق قوم نوح عليه السلام ﴿**قد قدر**﴾ قدّره الله سبحانه وحكم به.

[١٤] ﴿**وحملناه**﴾ أركبنا نوحاً عليه السلام ومن معه من المؤمنين ﴿**على**﴾ سفينة



﴿ذات ألواح﴾ أخشاب عريضة، جمع «لوح» ﴿ودسر﴾ المسامير، فإنه جمع «دسار» بمعنى المسمار.

[١٥] ﴿تجري﴾ السفينة بالمياه المحيطة بالأرض ﴿بأعيننا﴾ تحت نظرنا ورعايتنا، والجمع باعتبار أن كل حركة تحتاج إلى عين ترعاها من الغرق والهلاك، وقد فعلنا ذلك بنوح عليه السلام ﴿جزاءً﴾ حسناً منا ﴿لمن كان كُفر﴾ لنوحٍ الذي كفر به قومه.

[١٦] ﴿ولقد تركناها﴾ أبقينا خبر نوح وقومه ﴿آية﴾ علامة يعتبر بها العقلاء ﴿فهل من مدّكر﴾ هل هناك من يعتبر بالقصة؟ المبلغ يعتبر به فلا يهمه تكذيب الناس، والناس يعتبرون فلا يكذبون المبلغين لأن عاقبتهم تكون سيئة.

[١٧] ﴿فكيف كان عذابي﴾ للمكذبين ﴿ونذر﴾ إنذاراتي لهم، ألم تكن عاقبة المكذبين العذاب كما وعدتهم؟

[١٨] وهل يريدون أوضح بياناً من هذا الذي ذكرناه وخوفناهم به؟ ﴿ولقد يسرنا﴾ سهّلنا ﴿القرآن للذكر﴾ ليتذكر به الناس ﴿فهل من مدّكر﴾ من يتذكر ويتعظ؟ استفهام تحريضي، و«مدّكر» من «ادّكر» أصله «تذكّر».

[١٩] وبعد قوم نوح عليه السلام ﴿كذبت عاد﴾ قبيلة عاد وهم قوم هود عليه السلام، فعذبناهم بتكذيبهم ﴿فكيف كان عذابي ونذر﴾؟ أليس في تكرار

إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِى يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿٢٠﴾ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴿٢١﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٢٣﴾

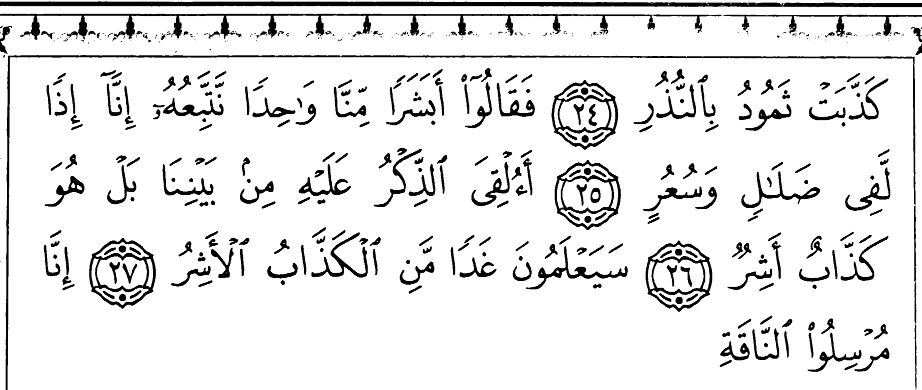
العذاب لكل قوم كذبوا، وعظاً لكفار قريش؟ فليس لهم أن يقولوا أن عذاب قوم نوح كان من القضايا الاتفاقية.

[٢٠] ﴿**إنا أرسلنا عليهم**﴾ على عاد ﴿**ريحاً صرصراً**﴾ باردة شديدة البرد ﴿**في يوم نحس**﴾ شؤم عليهم ﴿**مستمر**﴾ استمر العذاب عليهم في ذلك اليوم حتى أهلكهم.

[٢١] ﴿**تنزع**﴾ تقلع تلك الريح ﴿**الناس**﴾ قوم عاد، من أماكنهم في الغرف وغيرها وكانت تفتح الأبواب وتخرج الناس إلى الساحات وترفعهم عن الأرض ثم تضربهم بها، وكانت تقلع رؤوسهم عن أجسادهم فبقيت أجسادهم ﴿**كأنهم أعجاز**﴾ أصول ﴿**نخل منقعر**﴾ منقلع عن مغارسه، ولعلهم كانوا يلوون على أنفسهم من شدة الألم ولأن يجمعوا أنفسهم في قبال الريح، ولذا شبهوا بأعجاز النخل.

[٢٢] ﴿**فكيف كان عذابي ونذر**﴾؟ لعل وجه التكرار لأجل أن مثل هذا العذاب لا يمكن أن يحمل على أنه طبيعي، وإن أمكن ذلك في الغرق.

[٢٣] ﴿**ولقد يسرنا القرآن للذكر**﴾ فلم نجعله كالكتب الفلسفية التي لايفهمها الإنسان إلا بصعوبة بالغة ﴿**فهل من مدّكر**﴾؟ من يتذكر فلا يعصي حتى لايعذب كما عذب الأمم السابقة.



[٢٤] ﴿كذبت﴾ قبيلة ﴿ثمود﴾ قوم صالح عليه السلام ﴿بالنذر﴾ جمع نذير أي الأنبياء إذ تكذيب نبي واحد هو تكذيب لكل الأنبياء.

[٢٥] ﴿فقالوا أبشراً منا﴾ من جنسنا أومن قبيلتنا، لأن صالح كان من قبيلتهم ﴿واحداً﴾ لا تبع له ﴿نتبعه﴾ ونقبل كلامه؟ هذا لا يكون ﴿إنا إذاً﴾ إذا اتبعنا بشراً واحداً ﴿لفي ضلال﴾ عن طريقة آبائنا ﴿وسعر﴾ جمع سعير، أي نحرق بناره، كما يقال فلان أحرق نفسه أي سبّب ضياع نفسه وماله ومستقبله، إنهم ما كانوا يقتنعون بالبرهان، بل كانوا يريدون أن يكون الهادي لهم من جنس أعلى كالملائكة لا «منا» أو لهم جماعة وسطوة وشوكة مثل أن يكون ملكاً أو رئيس عشيرة.

[٢٦] ﴿أألقي الذكر﴾ الكتاب والوحي ﴿عليه من بيننا﴾؟ فلماذا لم يلق الوحي إلى من هو أكثر منه مالاً أو شخصية؟ ﴿بل هو﴾ صالح عليه السلام ﴿كذاب﴾ كثير الكذب في نسبة الوحي إلى نفسه ﴿أشر﴾ حمله بطره على الترفع علينا بادعائه النبوة، فإن المترفعين لما يعتادون الإشارة إلى الناس بالاستهزاء والسوء، اشتق من مادة الإشارة، الأشر بهذا المعنى.

[٢٧] ﴿سيعلمون غداً﴾ حين ينزل عليهم العذاب ﴿من﴾ هو ﴿الكذاب الأشر﴾ هل هم الذين أكثروا من الكذب أم صالح النبي عليه السلام؟.

[٢٨] ﴿إنا﴾ أي الله سبحانه ﴿مرسلوا الناقة﴾ مخرجوها من الجبل وباعثوها

فِتۡنَةٗ لَّهُمۡ فَٱرۡتَقِبۡهُمۡ وَٱصۡطَبِرۡ ﴿٢٨﴾ وَنَبِّئۡهُمۡ أَنَّ ٱلۡمَآءَ قِسۡمَةُۢ بَيۡنَهُمۡۖ كُلُّ شِرۡبٖ مُّحۡتَضَرٞ ﴿٢٩﴾ فَنَادَوۡاْ صَاحِبَهُمۡ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٣٠﴾ فَكَيۡفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣١﴾ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ فَكَانُواْ كَهَشِيمِ ٱلۡمُحۡتَظِرِ ﴿٣٢﴾

إليهم معجزة لصالح عليه السلام ﴿**فتنة**﴾ اختباراً وامتحاناً ﴿**لهم**﴾ هل يؤمنون بالإعجاز أم لا؟ ﴿**فارتقبهم**﴾ أي انتظرهم وراقبهم هل يؤمنون أم لا؟ ﴿**واصطبر**﴾ عليهم بالاستمرار في التبليغ وعدم الدعاء عليهم مع إيذائهم لك.

[٢٩] ﴿**ونبئهم**﴾ أخبرهم ﴿**أن الماء**﴾ الذي كان يجري نهراً عندهم ﴿**قسمة بينهم**﴾ مقسوم للناقة يوم ولهم يوم، فإذا شربت الناقة في يومها كل ماء النهر أعطتهم عوضه حليباً ﴿**كل شرب**﴾ شرب الحصة من الماء ﴿**محتضر**﴾ يحضره صاحبه ولا حق لأحدهما في الماء في يوم الآخر.

[٣٠] ﴿**فنادوا**﴾ ثمود ﴿**صاحبهم**﴾ وهو قدار الذي كان من شرارهم ﴿**فتعاطى**﴾ أخذ الناقة، ولعل باب التفاعل من جهة أن قدار وجماعة منهم أخذوا زمام الناقة حتى ألجؤوها إلى مكان يمكن عقرها ﴿**فعقر**﴾ قدار الناقة أي جرحها وقتلها.

[٣١] ﴿**فكيف كان عذابي ونذر**﴾؟ هل تركت عذابهم لما خالفوا وكذبوا أم أخذتهم بالعذاب؟.

[٣٢] ﴿**إنا أرسلنا عليهم صيحة واحدة**﴾ صاح بهم جبرائيل عليه السلام فانخلعت بذلك قلوبهم ﴿**فكانوا كهشيم المحتظر**﴾ كالحشيش اليابس الذي يجمعه صاحب الماشية في الشتاء في حظيرته، ولعل وجه التشبيه، أنه

وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٣٣﴾ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍۭ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٤﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٍۖ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ ﴿٣٥﴾ نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَاۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى مَن شَكَرَ ﴿٣٦﴾

تقطعت أيديهم وأرجلهم وتكوّمت الأبدان والأيدي والأرجل في مكان، كما يتكوّم الهشيم المتكسر المجتمع.

[٣٣] ﴿**ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدّكر**﴾ لا يقال في القرآن متشابهات، لأنه يقال عامة القرآن ميسرة وبعض الآيات المتشابهات لايضر بالعموم من حيث العموم.

[٣٤] ﴿**كذبت قوم لوط بالنذر**﴾ فلم يقبلوا إنذار لوط عليه السلام وتكذيب لوط تكذيب لسائر الأنبياء.

[٣٥] ﴿**إنا**﴾ جزاءً لتكذيبهم ﴿**أرسلنا عليهم حاصباً**﴾ ريحاً ترميهم بالحجارة يقال حصبه أي رماه بالحجارة ﴿**إلا آل لوط**﴾ لوط وأهل بيته المؤمنين «باستثناء زوجته فإنها أصابها ما أصاب القوم لأنها كانت كافرة مثلهم» ﴿**نجيناهم بسحر**﴾ في آخر الليل.

[٣٦] وإنما نجيناهم ﴿**نعمة**﴾ لهم ﴿**من عندنا**﴾ إذ كان من الممكن إماتتهم في ذلك الحال، بدون عذاب، كما يموت كل خير في زمان ما ﴿**كذلك**﴾ هكذا، كما جزينا آل لوط عليه السلام ﴿**نجزي من شكر**﴾ نعمتنا عليه، بالإيمان والطاعة، والمراد الشكر القلبي والشكر العملي.

[٣٧] وقد قدم سبحانه عذابهم على ذكر بلاغ لوط لهم، لبيان أن العذاب

وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْاْ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُواْ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٨﴾ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣٩﴾ فَذُوقُواْ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٤٠﴾

يأخذ المعتدين بسرعة حتى كأن بقاءهم في الحياة لمحة عين ﴿**ولقد أنذرهم**﴾ لوط عليه السلام ﴿**بطشتنا**﴾ أخذنا الشديد بالعذاب لمن خالف أوامرنا ﴿**فتماروا**﴾ فتشككوا من المماراة أي المجادلة ﴿**بالنذر**﴾ وأخذوا يجادلون بالباطل حول صدق لوط.

[٣٨] ﴿**و**﴾ لم يقتنعوا بتكذيبه والاستمرار في فحشائهم، بل أضافوا على ذلك أنهم ﴿**لقد راودوه عن ضيفه**﴾ المراودة، الرواح والمجيء، فقد جاء آل لوط ضيوف، فأراد قومه أن يلوطوا بهم، وكان أولئك الضيوف هم الملائكة ﴿**فطمسنا أعينهم**﴾ فمسحناها وسويناها بسائر الوجه حتى عميت عيونهم وشوهت خلقتهم ﴿**فـ**﴾ قلنا لهم ﴿**ذوقوا عذابي ونذر**﴾ أي ذوقوا عاقبة إنذاري لكم، أو المراد كأن لسان الحال يقول لهم «ذوقوا. . .».

[٣٩] ﴿**ولقد صبحهم بكرة عذاب**﴾ دخل العذاب عليهم في الصباح الباكر، والبكرة أول الصبح، ودخول العذاب في ذلك الوقت أنكر، لأنهم يرجون خير النهار فإذا بهم يجدون انهدام الآمال بالعذاب ﴿**مستقر**﴾ فلم يكن عذاباً عابراً، بل عذاب استقر بهم حتى أهلكهم.

[٤٠] ﴿**فذوقوا عذابي ونذر**﴾ وفائدة التكرار تكرار التذكير ومن الواضح أنه قد يؤثر التكرار مالاً يؤثر غيره، وذلك لاستيعاب الذهن له، ولذا إذا أراد الإنسان أن يحفظ شيئاً كرره مرات.

وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٤١﴾ وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ ﴿٤٢﴾ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٤٣﴾ أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُو۟لَٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٤٤﴾

[٤١] ﴿**ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدّكر**﴾ لا يقال غير العرب لايستفيدون من القرآن، لأنه يقال، قصد الإسلام توحيد لغة الناس، لأجل تفاهم عام ولأجل إرساء دعائم حكومة واحدة ـ بما فيها من الفوائد الجمة ـ ومثل ذلك يوجب يسر القرآن للكل.

[٤٢] ﴿**ولقد جاء آل فرعون**﴾ آل فلان يستعمل له ولآله، أي فرعون وآله ﴿**النذر**﴾ المنذرون مثل موسى وهارون ومؤمن آل فرعون، ولعل أنبياء آخرين أيضاً كانوا، لمل ورد في الأحاديث أن موسى عليه السلام حج مع سبعين نبياً.

[٤٣] ﴿**كذبوا بآياتنا**﴾ الكثيرة ﴿**كلها**﴾ كاليد والعصا والقمل والضفادع والدم وغيرها، ولعل المجيء بدون «الواو» لإفادة فورية التكذيب بلا تروٍّ ﴿**فأخذناهم**﴾ بالغرق ﴿**أخذ عزيز**﴾ له العزة والغلبة ﴿**مقتدر**﴾ له القدرة، لأن القدرة قد تكون مع الذلة عند الناس، وقد تكون مع العزة.

[٤٤] ﴿**أكفاركم**﴾ يا معشر قريش ﴿**خير من أولئكم**﴾ من أولئك الكفار للأمم السابقة حتى نترككم مع تكذيبكم، وقد سمعتم كيف أخذنا أولئك الكفار؟ ﴿**أم لكم براءة في الزبر**﴾ في الكتب، بأن كنا أعطيناكم عهداً في كتب الأنبياء أن لا نهلككم؟ وإذ لا ذاك، ولا هذا، فاللازم أن

أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٥﴾ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿٤٦﴾ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٧﴾ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٨﴾ يَوْمَ

تخافوا من بطشنا وأن نفعل بكم ما فعلنا بتلك الأمم الكافرة.

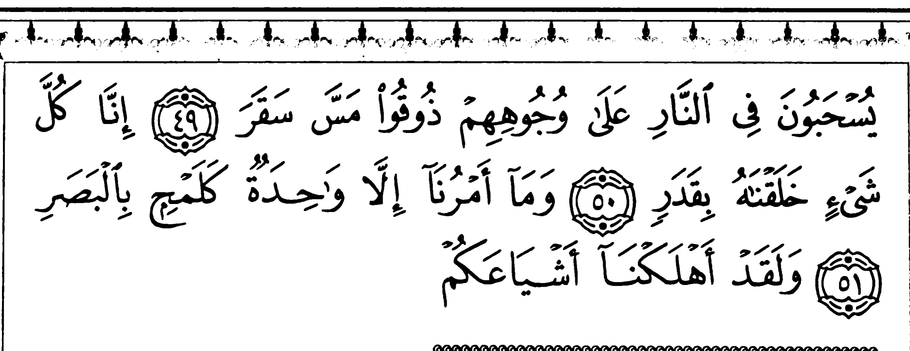
[٤٥] ﴿أم يقولون﴾ هؤلاء الكفار ﴿نحن جميع﴾ مجتمع ﴿منتصر﴾ ننتصر ونتغلب على من أراد بنا هلاكاً؟ وهل يمكن التغلب على إرادة الله؟.

[٤٦] ﴿سيهزم الجمع﴾ سيهزمون إذا جاءهم عذاب الله ولا يفيدهم جمعهم ﴿ويولون الدبر﴾ فلا يقفون وجهاً لوجه أمام العذاب، بل يعطون العذاب قفاهم ويفرون، فلا يفيدهم جمعهم.

[٤٧] هذا إذا أرسلنا عليهم العذاب في الدنيا ﴿بل الساعة﴾ القيامة ﴿موعدهم﴾ موعد عقوبتهم الحقيقية وعذابهم الأصلي ﴿والساعة أدهى﴾ أشد عذاباً لهم من عذاب الدنيا﴿وأمر﴾ أكثر مرارة في مذاقهم، والداهية الأمر المنكر الذي لا يهتدي الإنسان لدوائه.

[٤٨] ﴿إن المجرمين﴾ بالإضافة إلى عذابهم في الدنيا والآخرة، هم ﴿في ضلال﴾ عن الحق، وهذا ما يولد لهم نوعاً من المشاكل المادية، لأن غير طريق الحق فيه مشاكل وأتعاب ﴿وسعر﴾ جمع سعير، لأنهم يستعرون نفسياً بما يرتطمون فيه من المشاكل فهم في قلق نفسي واضطراب وعدم سكينة، فإن الاطمئنان النفسي للمؤمنين فقط، أو المراد ضلال الدنيا وسعير الآخرة.

[٤٩] ﴿يوم﴾ بيان لموعدهم في الساعة، أو ما بينه بقوله «سعر»

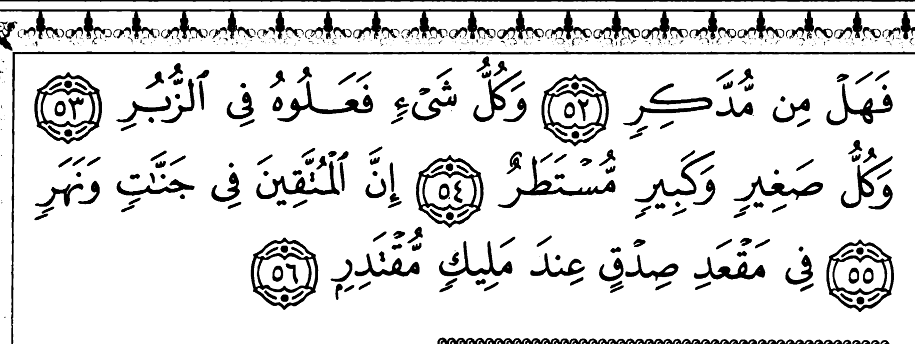


﴿يسحبون﴾ يجرون ﴿في النار على وجوههم﴾ فإنهم لما لم تخضع وجوههم للحق، جوزوا بإذلال وجوههم في النار، ويقال لهم زيادة في إهانتهم من جهة الشماتة ﴿ذوقوا مس سقر﴾ مسّه، أي أصابه، وسقر علم على جهنم.

[٥٠] وحيث إن الكفار كانوا يقولون: ائتنا بعذاب الله إن كنت صادقا، أجابهم القرآن ﴿إنا كل شيء خلقناه﴾ أي جعلناه ﴿بقدر﴾ بتقدير خاص، فيوم القيامة، وعذاب هؤلاء، يأتي في الوقت المقدر لهما، ولا نقدم العذاب حسب طلبهم فكما أن كل بذرة تعطي ثمراً، فللثمرة بين زرعها وبين إثمارها زمان مقدر، كذلك كل عمل إلى أن يعطي ثمره وجزاءه له وقت مقدر خاص.

[٥١] لكن إذا حان الوقت المقدر، فلا تراجع فيه ولا بطء فيه ﴿وما أمرنا﴾ بعذابهم أو بغير ذلك ﴿إلا واحدة﴾ فلا حاجة للتكرار في الأمر، كما لاتراجع منه إذا أمرنا وهو ﴿كلمح بالبصر﴾ حركة البصر، في السرعة فلا يحتاج إلى مقدمات فيجب أن يعرف هؤلاء الكفار أنه إذا حان عذابهم لاتراجع فيه، كما أنه لا يأخذهم تدريجياً ليفكروا في الخلاص بل يأخذهم بغتة.

[٥٢] ﴿ولقد أهلكنا أشياعكم﴾ أشباهكم من الأمم، وقد عرفتم كيف لم نتراجع حين أردنا عذابهم وكيف لم نتدرج في عذابهم بل أخذناهم



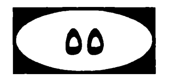
دفعة واحدة ﴿فهل من مدّكر﴾ مدّكر يتذكر، حتى يرجع عن غيه؟.

[٥٣] ولم ننس حتى أصغر شيء فعلوه فعاقبناهم بكل ما ارتكبوا من جرائم ﴿وكل شيء فعلوه﴾ مكتوب ﴿في الزبر﴾ كتبه الحفظة.

[٥٤] ﴿وكل صغير وكبير﴾ من أعمالهم، كما هو كذلك في كل أعمال البشر ﴿مستطر﴾ مسطور مكتوب.

[٥٥] ﴿إن المتقين في جنات ونهر﴾ جمع نهر بسكون الهاء، ولعل المراد انهم يسبحون في أنهار الجنة، والظرف مجاز.

[٥٦] ﴿في مقعد صدق﴾ في مكان لا كذب فيه، بخلاف الدنيا، فإن مكان الدنيا باعتبار أن ظاهره الراحة وواقعه التعب، كذب ﴿عند مليك﴾ ملك، ومليك أكثر دلالة على استقرار ملكه، لأنه صفة مشبهة كشريف ﴿مقتدر﴾ له القدرة على تنفيذ ما وعد من عذاب العاصين ونعيم المطيعين.



سورة الرحمن

مكية أو مدنية/آياتها (٧٩)

سميت السورة بهذا الاسم لاشتمالها على كلمة «الرحمن» وقد اختلفوا في كونها مكية أو مدنية لكنها أشبه بالسور المدنية لمعالجتها قضايا العقيدة، لا الشريعة. ولما ختمت سورة القمر بذكر الله سبحانه نعمه للإنسان في الآخرة، ابتدأت هذه السورة بذكره سبحانه، ونعمه للإنسان في الدنيا.



[١] ﴿**بسم الله الرحمن الرحيم**﴾ نقرن أعمالنا بذكر أسمه تعالى، شعاراً لنا بأنا من أتباع الله والمطيعين لأوامره، كما نرجو أن يرحمنا في مستقبل دنيانا وآخرتنا، كما في ماضي أمرنا، بالخلق أولاً، وإعطائنا سائر النعم ثانياً.

﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝٢ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۝٣ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ۝٤ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ ۝٥ ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ ۝٦ وَٱلنَّجۡمُ وَٱلشَّجَرُ يَسۡجُدَانِ ۝٧ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا﴾

[٢] ﴿**الرحمن**﴾ لأنه رحمن «فإن تعليق الأمر على الصفة يفيد العلية».

[٣] ﴿**علّم القرآن**﴾ إذ لولا رحمه لم يعلم القرآن وترك البشر في دياجير الظلام.

[٤] ﴿**خلق الإنسان**﴾ أخّر الخلق، عن التعليم مع أنه مقدم على التعليم زماناً، للدلالة على جلالة العلم حتى أنه لولا العلم لكان خلق الإنسان قليل الفائدة.

[٥] ﴿**علّمه البيان**﴾ بأن يتكلم ويظهر ما في ضميره.

[٦] وإذ ذكّر القرآن الإنسان بالنعم التي تدل على علم الله وقدرته ودقة حكمه، جاء الدور للتنبيه على أنه لا مكان للعبثية والإعتباط في الخلق ﴿**الشمس والقمر بحسبان**﴾ قد خلقا ويجريان بحساب معلوم مقدر بلا زيادة ولا نقيصة.

[٧] ﴿**والنجم**﴾ الموجود في السماء، والذي ينجم أي يظهر في الأفق ﴿**والشجر**﴾ الذي ينجم أي يظهر من الأرض ﴿**يسجدان**﴾ خاضعان لله سبحانه، ويسجد ليس بمعنى المستقبل، بل بمعنى الحال أي دائماً، أو المراد سجودهما، إذ لكل شيء معرفة بالله ونوع خضوع له، وفي جملة من التفاسير، إن المراد بالنجم النبات الذي لا ساق له، في مقابل الشجر الذي له ساق.

[٨] ﴿**والسماء رفعها**﴾ الله سبحانه، سواء أريد به المدارات أو الجزئيات،

وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ﴿٨﴾ أَلَّا تَطْغَوْاْ فِى ٱلْمِيزَانِ ﴿٩﴾ وَأَقِيمُواْ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُواْ ٱلْمِيزَانَ ﴿١٠﴾ وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ﴿١١﴾ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ ﴿١٢﴾ وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ

أو الأنجم ﴿ووضع﴾ أي جعل وإنما أتى بهذا اللفظ، ليجعل المقابلة بين الرفع والوضع ﴿الميزان﴾ ليوفي كل ذي حق حقه، ففي القضايا التكوينية عدل وحساب دقيق، وكذلك جعل سبحانه للتعامل بين الناس عدلاً وحساباً.

[٩] وإنما وضع الميزان لـ ﴿ألاّ تطغوا﴾ وتجوروا ﴿في الميزان﴾ في وزن الأشياء إذ لو لم يكن الميزان الذي به توزن الأشياء لحصل الجور في وزن الأشياء.

[١٠] لكن قسماً من الناس أيضاً يجورون مع وجود الميزان، بالاحتيال والتطفيف ولذا قال الله سبحانه ﴿وأقيموا الوزن بالقسط﴾ بالعدل ﴿ولا تخسروا الميزان﴾ أي لا تنقصوه، والمراد ما في الميزان بعلاقة الحال والمحل.

[١١] ﴿و﴾ إذا تقدم ذكر السماء فلنذكر ما يقابل نعمة السماء من نعمة الأرض فإن ﴿الأرض وضعها﴾ الله ﴿للأنام﴾ لفائدتهم أحياءً وأمواتاً.

[١٢] ﴿فيها فاكهة﴾ إما الثمار أو كل ما يتفكه به ﴿والنخل ذات الأكمام﴾ الكم وعاء التمر، و«ذات» باعتبار جنس النخل.

[١٣] ﴿والحب﴾ كالحنطة والشعير ﴿ذو العصف﴾ ورق الزرع، سمي به

وَٱلرَّيۡحَانُ ﴿١٣﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٤﴾ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِن صَلۡصَٰلٖ كَٱلۡفَخَّارِ ﴿١٥﴾ وَخَلَقَ ٱلۡجَآنَّ مِن مَّارِجٖ مِّن نَّارٖ ﴿١٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٧﴾ رَبُّ ٱلۡمَشۡرِقَيۡنِ وَرَبُّ ٱلۡمَغۡرِبَيۡنِ ﴿١٨﴾

لأنه يعصف به أي يتحرك، ومنه «العاصفة» بمعنى الريح الشديدة ﴿**والريحان**﴾ ما يستشم به من الأوراد ونحوها.

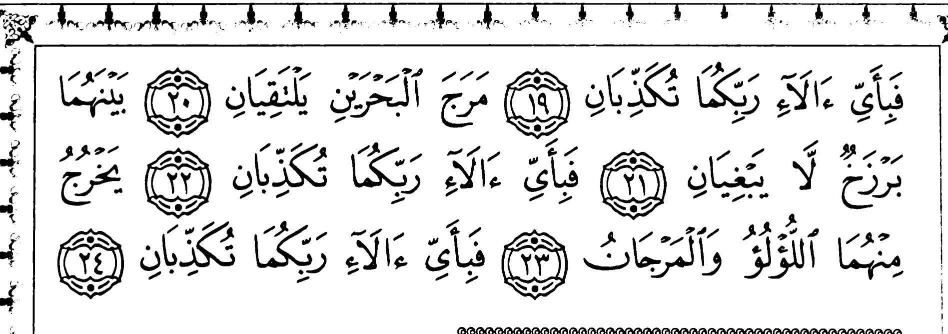
[١٤] ﴿**فبأي آلاء**﴾ جمع «إلى» بمعنى النعمة ﴿**ربكما**﴾ أيها الجن والإنس، بقرينة «للأنام» و«أيها الثقلان» ﴿**تكذبان**﴾ فإن تكذيبهم برب النعمة وإنكارهم له، كفران للنعمة وتكذيب لربط النعمة برب النعمة، وتكرار التذكير بهذه الآية «فبأي آلاء..» في مقابل كثرة تكذيبهم برب النعمة.

[١٥] ﴿**خلق**﴾ الله ﴿**الإنسان من صلصال**﴾ الطين اليابس الذي له صلصلة، أي صوت ﴿**كالفخار**﴾ الخزف فإن الله جعل التراب طيناً ولما بقي مدة صار كالحمأ المسنون، ثم يبس وصار صلصالاً، كما في آيات متعددة.

[١٦] ﴿**وخلق الجان**﴾ أبا الجن، أو كل جني، فكما أن أصل كل فرد منا التراب، كذلك أصل كل جني النار ﴿**من مارج**﴾ صاف من الدخان ﴿**من نار**﴾ أي نار مارجة، ويسمى مارجاً من مرج بمعنى اضطرب.

[١٧] ﴿**فبأي آلاء ربكما تكذبان**﴾؟ هل تكذبون بنعمة الخلق؟ ومن خلقكم إذن؟.

[١٨] الله هو ﴿**رب المشرقين**﴾ مشرق الصيف ومشرق الشتاء ﴿**ورب المغربين**﴾



مغربهما.

[١٩] ﴿**فبأي آلاء ربكما تكذبان**﴾؟ وهل هناك رب آخر جعل المشرق والمغرب؟ ومن هو إذن؟

[٢٠] ﴿**مرج البحرين**﴾ خلط بين بحر عذب وبحر مالح ﴿**يلتقيان**﴾ فإن تحت الأرض قطعة من الماء المالح في البحار، والعذب في العيون والمخازن الخلقية، وهما متجاوران، وهذا في بطن ذاك وبالعكس.

[٢١] ﴿**بينهما برزخ**﴾ حاجز ﴿**لا يبغيان**﴾ فلا العذب يدخل في المالح، ولا العكس، وذلك لقانون خلقه الله في المائين، مما لا يقبل أحدهما الاختلاط بالآخر، وإنما كل ماء يجذب إلى نفسه أجزاء ما من جنسه، وقد ذكروا تفصيل ذلك في علم الفيزياء.

[٢٢] ﴿**فبأي آلاء ربكما تكذبان**﴾؟ فهل خلق المائين غير الله؟ وهل جعل هذا القانون فيهما غير الله؟

[٢٣] ﴿**يخرج منهما اللؤلؤ**﴾ الدر الذي في الصدف ﴿**والمرجان**﴾ شجرة تنبت تحت الماء.

[٢٤] ﴿**فبأي آلاء ربكما تكذبان**﴾؟ فهل خلق اللؤلؤ والمرجان من غيره تعالى؟ ومن هو إذاً؟

وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ ﴿٢٥﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٦﴾ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٧﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَـٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٨﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٩﴾

[٢٥] ﴿**وله**﴾ سبحانه ﴿**الجوار**﴾ جمع جارية أي السفينة، وكونها له لأنه خلق مواردها، ووهب الإنسان عقلاً لصنعها وجعل في الماء قانوناً «كشفه أرخميدس» لأجل أن لا تغرق في الماء ﴿**المنشآت**﴾ التي أنشأها وأوجدها الإنسان بفكر وهبه الله له ﴿**في البحر كالأعلام**﴾ جمع علم وهو الجبل الطويل، فكيف أنها لا تغرق في الماء؟.

[٢٦] ﴿**فبأي آلاء ربكما تكذبان**﴾؟ هل خلق المواد، وإعطاء الإنسان قدرة الإنشاء، أو جعل قانون أرخميدس في الماء، لغير الله؟، ومن يجرؤ أن يقول ذلك؟

[٢٧] هكذا أنشأناكم، وهيأنا مصالحكم، ثم بعد ذلك ﴿**كل من عليها**﴾ أي على الأرض ﴿**فان**﴾ يفنى ويهلك.

[٢٨] ﴿**ويبقى وجه ربك**﴾ ذات ربك، والإنسان يقال له وجه، فيقال «نحتاج إلى وجوه جديدة» أو «فلان وجه كريم» وذلك، لأنه محل التوجه، فيطلق على الكل من باب إطلاق الجزء على الكل، كما ذكروه في أقسام المجاز ﴿**ذو الجلال**﴾ فهو أجل من أن يفنى ﴿**والإكرام**﴾ الذي أكرم بالخلق ثم يكرم بالإعادة. والأول: صفة جلال. والثاني: صفة جمال.

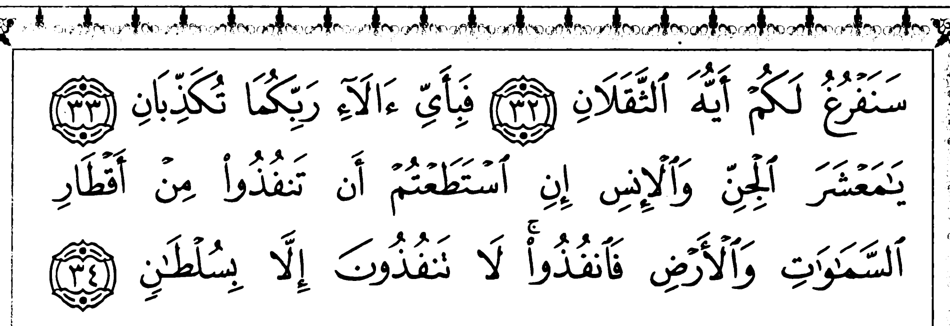
[٢٩] ﴿**فبأي آلاء ربكما تكذبان**﴾؟ فهل تكذبون بأن الله يفني زيداً وعمرواً وبكراً؟ وكل واحد من فناءاته نعمة، نعمة على المؤمن لأنه ينجيه إلى

يَسْئَلُهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴿٣٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣١﴾

دار كرامته، وعلى غير المؤمن لأنه لا يزداد عصياناً ببقائه في دار الدنيا.

[٣٠] فهو الخالق، وهو مهيء كل نعمة، وهو المغني، ثم هو المسؤول لكل حاجة، في كل الكون ﴿**يسأله**﴾ يطلب الحوائج منه ﴿**من في السماوات**﴾ من الملائكة وغيرهم ﴿**والأرض**﴾ من الإنسان والجن وغيرهما، وليس الله كالإنسان الذي يجعل القانون ثم لا يغيره ولا يبدله، فلا شأن له في التصرف بعد وضعه القانون بل ﴿**كل يوم هو**﴾ سبحانه ﴿**في شأن**﴾ فإذا قدر الفقر ثم سأله إنسان أن يغنيه أغناه، وهكذا، فهو يتصرف في الكون في كل آن، لا يقال ما هي الحاجة إلى ذلك وقد كان بقدرته سبحانه أن يكون كصاحب معمل يشغل معمله لحظة، ثم يتركه طيلة حركته، فيخلق الله الكون لحظة، ثم لا يعمل شيئاً؟ لأنه يقال المحال لا يقع تحت قدرة الله تعالى فإن الأشياء عدم بدون استمرار عناية الله بها مثل أن النور عدم بدون إفاضة الشمس دائماً له، ومثال المعمل غير صحيح، لأن صاحب المعمل لا يأتي إلا بالمعدّ أي بحركة أعضائه وجوارحه في اللحظة الأولى أما دوران المعمل فهو حسب قانون جعله الله في الكون فالله قائم على دوران المعمل لا إنه يدوره بنفسه كما أن من يضغط على جهاز الكهرباء أتى بالمعدّ وانتهى فالإنارة المستمرة إنما هي حسب قانون الله في جريان تيار الكهرباء، وهذا بحث طويل مربوط بالفلسفة.

[٣١] ﴿**فبأي آلاء ربكما تكذبان**﴾؟ أليس الله يستمر في إعطاء الكون الحياة



والبقاء الجديد؟ وأليس كل ذلك آلاءً ونعماً.

[٣٢] ﴿سنفرغ لكم﴾ سنتجرد عن شؤون الدنيا لأجل حسابكم يوم القيامة ـ إذ لا دنيا حينئذ ـ ﴿أيها الثقلان﴾ الجن والإنس، والظاهر أنه تهديد، وكناية على أنه لا عمل إلا حسابكم، فيكون الحساب دقيقاً جداً، فهو مثل قول الرجل لمن يريد تهديده، سأفرغ لك، أي لا يكون لي شغل إلا الإيقاع بك.

[٣٣] ﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾؟ لا تكذبوا بآلاء الله حتى لا تقعوا في العذاب يوم القيامة وأهوالها.

[٣٤] إن ذلك التفرغ لشأنكم إنما يكون في يوم لا مفر لأحد من سلطان الله، فيقال للثقلين ﴿يا معشر الجن والإنس﴾ يا أيتها الجماعة ﴿إن استطعتم أن تنفذوا﴾ أن تهربوا من ثُقَب الكون ﴿من أقطار﴾ جمع قطر بمعنى الناحية ﴿السماوات والأرض﴾ لأن أقطارها في ذلك اليوم مسدودة ﴿فانفذوا﴾ واهربوا لكن هيهات أن تتمكنوا من ذلك ﴿لا تنفذون﴾ لاتقدرون من النفوذ والهرب ﴿إلا بسلطان﴾ بحجة واضحة تأتون بها على أنكم عملتم في الدنيا حسناً، فيعطى لكم جواز التخلص من الحساب إلى سعة الجنة.

أقول: ربما فسر هذه الآية بعض العلماء بعدم إمكان الذهاب إلى أجواء السماء وأعماق الأرض إلا بسلطان العلم.

فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٥﴾ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٧﴾ فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ ﴿٣٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٩﴾

---

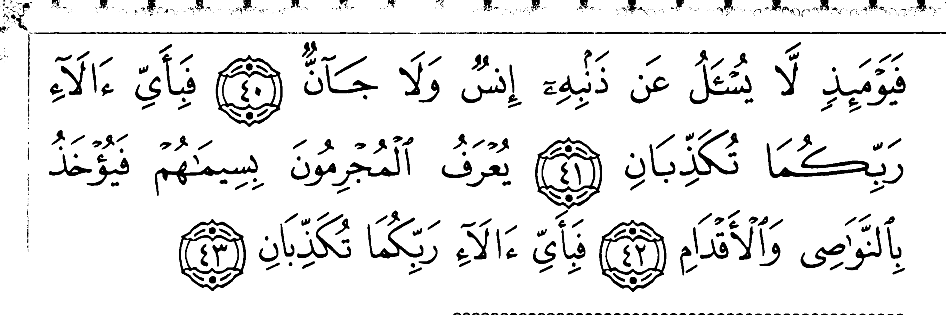
[٣٥] ﴿**فبأي آلاء ربكما تكذبان**﴾؟ فكما أن الدنيا نعمة، كذلك الحساب نعمة، فإن مثله مثل الامتحان الذي يعطي كل ذي حق حقه، فهل تكذبان بنعم الحساب التي توجب وصول كل ذي حق إلى حقه؟

[٣٦] في ذلك اليوم ﴿**يرسل عليكما**﴾ أيها الجن والإنس ﴿**شواظ**﴾ اللهب الخالص، أو ذرات النار المتطايرة ﴿**من نار ونحاس**﴾ مذاب حتى يتأذى بهما الكفرة والعصاة ﴿**فلا تنتصران**﴾ لا أحد ينصركم من بأس الله، فآمنوا واعملوا حتى لا يصيبكم مثل هذا العذاب.

[٣٧] ﴿**فبأي آلاء ربكما تكذبان**﴾ لا تكذبوا بالآلاء حتى لا يشملكم مثل هذا العذاب.

[٣٨] ﴿**فإذا انشقت السماء**﴾ بأن كان في نظر الناظر كأن فيها خلل وفرج، كما أن يوم الحساب ينظر الناس إلى السماء كأن فيها فرج من أثر وجود الغيم في بعضها وعدم وجوده في بعضها ﴿**فكانت**﴾ السماء ﴿**وردة**﴾ يظهر في فرجها أثار العذاب الأحمر، لأن النار حمراء ﴿**كالدهان**﴾ كالدهن أي عذاب سيال كالدهن أحمر كالنار، وجواب «إذا» لا يسأل، كما يأتي.

[٣٩] ﴿**فبأي آلاء ربكما تكذبان**﴾؟ لا تكذبا حتى لا تبتليا بأهوال هذا اليوم.



[٤٠] ﴿**فيومئذ**﴾ تكرار لقوله سبحانه «فإذا» للتأكيد ﴿**لا يسأل عن ذنبه**﴾ عن ذنب أحد، إلا نفسه، وجيء بضمير مفرد، لإفادة أن كل إنسان هو المسؤول عن نفسه فلا يتوهم أنه يمكنه الفرار وإلقاء الأجوبة على عاتق الغير، كما أن الكبراء في الدنيا يفعلون كذلك، يلقون أجوبة الأسئلة المحرجة على عاتق غيرهم ﴿**إنس ولا جان**﴾ فكل إنس يجيب عن نفسه وكل جني يجيب عن نفسه.

[٤١] ﴿**فبأي آلاء ربكما تكذبان**﴾؟ هل تكذبان؟ وتخلّفان هذه المشكلة التي لا مفر منها وراء ظهوركم.

[٤٢] إنه بالإضافة إلى أنهم يسألون في موطن من مواطن القيامة عن أعمالهم، إنهم يعرفون من ألوانهم ﴿**يعرف المجرمون بسيماهم**﴾ ووجوههم السود وأجسامهم الزرق، فإن أجسامهم تكون كجسم من لفحه برد شديد، وكآبتهم الظاهرة (يومَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ)[١] «زرقاء» (وَوُجُوهٌ يَومئِذٍ باسِرَةٌ)[٢] وإنما لم يذكر الصالحون، لأن المقام لتهديد الكفار والعصاة ﴿**فيؤخذ**﴾ كل مجرم ﴿**بالنواصي والأقدام**﴾ ظاهر الآية أنهم يجمع الملائكة بين ناصيتهم وأقدامهم لإلقائهم في جهنم.

[٤٣] ﴿**فبأي آلاء ربكما تكذبان**﴾؟ لا تكذبوا حتى لا تقعوا في أمثال هذا العذاب الجسمي والإهانة النفسية.

---

(١) آل عمران: ١٠٧. (٢) القيامة: ٢٥.

هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٤٤﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴿٤٥﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٦﴾ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٨﴾

[٤٤] ويقال لهم حينذاك ﴿**هذه جهنم التي**﴾ كان ﴿**يكذب بها المجرمون**﴾ في دار الدنيا فكانوا يقولون لا جنة ولا نار، أرأيتم كيف وصلتم إليها، ولم ينفعكم تكذيبكم بها في الخلاص منها.

[٤٥] والمجرمون في حركة دائمة فيها بين شدة العذاب والعطش وبين شرب الماء الذي هو في غاية الحرارة ﴿**يطوفون**﴾ المجرمون، والطواف هو الذهاب والمجيء ﴿**بينها**﴾ بين نيرانها ﴿**وبين**﴾ ماء ﴿**حميم**﴾ حار ﴿**آن**﴾ من شدة الحرارة قد انتهى حره إلى آخر درجة.

[٤٦] ﴿**فبأي آلاء ربكما تكذبان**﴾؟ فهل لكم طاقة بهذا العذاب حتى تكفروا، وتبتلوا به؟.

[٤٧] هذا حال المجرمين والمكذبين ﴿**ولمن خاف مقام ربه**﴾ موقف ربه، أي يوم الحساب وإضافة «مقام» إلى «الرب» لبيان اختصاص الحكم هناك لله سبحانه، لا إن المراد «قيام الله» كما ربما توهم، أي خاف الله في الدنيا فآمن وعمل صالحاً ﴿**جنتان**﴾ جنة لجزاء عمله، وأخرى زيادة وتفضلاً، كما قال تعالى (لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ)[١] وقوله (كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل)[٢].

[٤٨] ﴿**فبأي آلاء ربكما تكذبان**﴾؟ لا تكذبوا بالآلاء حتى تنالوا هذا

---

(١) يونس: ٢٧.

(٢) الحديد: ٢٩.

ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ﴿٤٩﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٠﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٥١﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٢﴾ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴿٥٣﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٤﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا

الثواب العظيم.

[٤٩] ﴿**ذواتا أفنان**﴾ كل جنة ذات ألوان من النعيم والثمار والحور والقصور.

[٥٠] ﴿**فبأي آلاء ربكما تكذبان**﴾؟ لا تكذبوا حتى تنالوا هذا النعيم ذا الأفنان.

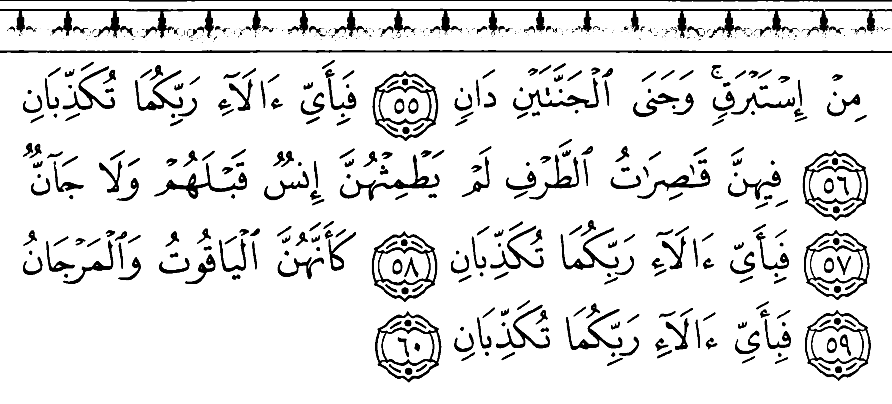
[٥١] ﴿**فيهما عينان تجريان**﴾ في كل جنة عين، لها صفاء العين، وجمالها، ومنظر النهر الجاري.

[٥٢] ﴿**فبأي آلاء ربكما تكذبان**﴾؟ فبينما كان ينبغي أن يكون وراء كل مخوف وكل نعمة تصديق، هؤلاء يكذبون، وسيجزون جزاء تكذيبهم.

[٥٣] ﴿**فيهما من كل فاكهة زوجان**﴾ صنفان شتوي وصيفي أو غريب ومألوف، أو كبير وصغير، أو رطب ويابس، إلى غير ذلك، كل ذلك للتفنن ومزيد النعمة.

[٥٤] ﴿**فبأي آلاء ربكما تكذبان**﴾ بنعمه الظاهرة أو بنعمه الباطنة؟ وهل نعمه قابلة للتكذيب؟

[٥٥] وهؤلاء أصحاب هذا النعيم تراهم في حال كونهم ﴿**متكئين**﴾ بحالة راحة واسترخاء ﴿**على فرش**﴾ جمع فراش ﴿**بطائنها**﴾ البطانة مقابل



الظهارة ﴿من استبرق﴾ من ديباج ثخين، يسبب الراحة، فليس فراش ظاهر فقط، حتى لا يستريح الإنسان عليه ﴿وجنى الجنتين﴾ أي الذي يجنى منهما وهو الثمر ﴿دان﴾ متهدل على رؤوسهم يتمكن القاعد والنائم أن يناله بسهولة.

[٥٦] ﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾؟ هل تكذبان بآلائه في الآخرة.

[٥٧] ﴿فيهن﴾ في تلك الفرش نساء ﴿قاصرات الطرف﴾ مقصورة أبصارهن على أزواجهن لا يردن غيرهم ﴿لم يطمثهن﴾ لم يمسهن، لا بالجماع ولا بغير الجماع ﴿إنس قبلهم﴾ قبل أهل الجنة ﴿ولا جان﴾ فزوجة الإنس لم يمسها إنس وزوجة الجن لم يمسها جن.

[٥٨] ﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾؟ بآلائه التي تؤكل وتشرب أم بآلائه من جنس الزواج والاستمتاعات.

[٥٩] ﴿كأنهن﴾ كأن تلك النساء ﴿الياقوت﴾ في حمرة الشفاه والوجنات ﴿والمرجان﴾ في بياض الجسم والبشرة.

[٦٠] ﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾ فمن خلق مثل هذا الجمال الذي رأيتموه في الدنيا، في الجملة، وسيراه المؤمنون في الآخرة في كماله الرائع؟.

[٦١] ثم أن كل هذا الجزاء لمن أحسن في الدنيا بالإيمان والعمل الصالح

هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦١﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٢﴾ وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٣﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٤﴾ مُدْهَآمَّتَانِ ﴿٦٥﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٦﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴿٦٧﴾

و﴿**هل جزاء الإحسان**﴾ أي إحسان المؤمنين ﴿**إلا الإحسان**﴾ إليهم في الآخرة بالثواب والنعيم؟ فإن البذرة تثمر الثمرة التي هي من جنسها.

[٦٢] ﴿**فبأي آلاء ربكما تكذبان**﴾؟ فهل هناك تكذيب بأن الإحسان يولّد الإحسان؟.

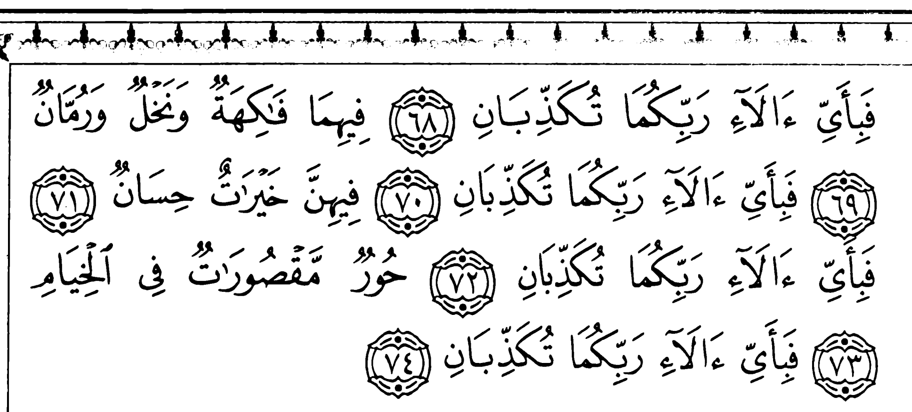
[٦٣] النعم التي ذكرناها إنما هي للسابقين المقربين ﴿**ومن دونهما**﴾ أدون وأنزل من الجنتين المذكورتين ﴿**جنتان**﴾ والظاهر أنهما لمن دون المقربين في الأعمال، أي باقي المؤمنين.

[٦٤] ﴿**فبأي آلاء ربكما تكذبان**﴾ فهل يتساوى الأكثر طاعة والأقل طاعة؟ الأكثر طاعة في جنتين رفيعتين، والأقل طاعة في جنتين أقل درجة، فهل يكذب الإنسان بمثل هذا؟

[٦٥] ﴿**مدهامتان**﴾ من «دهم» بمعنى السواد أي أن الجنتين خضراوتان تضربان إلى السواد من شدة الخضرة، فلا يبس لهما.

[٦٦] ﴿**فبأي آلاء ربكما تكذبان**﴾ هل تكذب بجمال ونضارة ما يمنحه الله للمطيعين الذين أكرمهم بإسكانهم دار كرامته؟

[٦٧] ﴿**فيهما عينان نضاختان**﴾ فوارتان، لا كمثل الجنتين السابقتين حيث العيون الجارية التي هي أجمل من مجرد النضاخة.



[٦٨] ﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾ أليس في قدرة الله أن يجعل العين تنضخ؟

[٦٩] ﴿فيهما فاكهة﴾ من بعض أقسام الفواكه ﴿ونخل﴾ للتمر ﴿ورمان﴾ وهذا أقل مما في الجنتين السابقتين حيث فيهما من كل فاكهة زوجين.

[٧٠] ﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾ ألا يقدر سبحانه أن يعطي المؤمن أمثال هذا النعيم.

[٧١] ﴿فيهن خيرات حسان﴾ نساءهن خير من كل ناحية مثل «زيد عدل» «حسان» الوجوه وهن أقل من الحور القاصرات الطرف، فالسابقات كأنهن اللؤلؤ والمرجان.

[٧٢] ﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾ فإن الله قادر على أن يجعل المرأة خيراً محضاً وحسنة الوجه.

[٧٣] ﴿حور﴾ جمع حوراء، كما تقدم وهن البيضاوات جسماً ﴿مقصورات﴾ محفوظات مخدرات ﴿في الخيام﴾ فأهل هاتين الجنتين ليس لهم قصور مثل أصحاب الجنتين السابقتين بل لهم خيام كخيام أهل البادية.

[٧٤] ﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾ أليست هذه النعمة مما يجب أن يشكر عليها، عوض أن يكفر بها المكذبون؟

لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٧٥﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٦﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ ﴿٧٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٨﴾ تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٧٩﴾

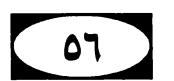
[٧٥] ﴿**لم يطمثهن**﴾ لم يجامعهن ﴿**إنس قبلهم ولا جان**﴾ فهن باكرات.

[٧٦] ﴿**فبأي آلاء ربكما تكذبان**﴾ أليس الله بقادر على مثل ذلك.

[٧٧] في حال كون أصحاب هاتين الجنتين ﴿**متكئين على رفرف**﴾ جمع رفرفة وهي الوسادة ﴿**خضر**﴾ خضراوات ﴿**وعبقري**﴾ كل ثوب موشى يقال له عبقري، ولعل على تلك الوسائد أثواب جميلة موشاة ﴿**حسان**﴾ تلك الرفرف والعبقري كلها حسناوات وهذه أقل مرتبة من فرش بطائنها من استبرق.

[٧٨] ﴿**فبأي آلاء ربكما تكذبان**﴾ أليس مثل هذا جزاء الصالحين وإن كانوا بدرجة ثانية من الصلاح؟

[٧٩] ﴿**تبارك**﴾ من برك بمعنى الدوام والثبات ﴿**اسم ربك**﴾ ودوام الاسم كاشف عن دوام المسمى، وفيه تلميح بالعظمة حيث لم يقل «تبارك ربك» ﴿**ذي الجلال**﴾ أجل من الصفات السيئة التي لا تليق به ﴿**والإكرام**﴾ فليس الله جليلاً وجميلاً لنفسه بل يكرم غيره، وفيه تلميح إلى صفات الكمال، إذ فاقد الشيء لا يعطيه فلو لم يكن كريماً لم يتمكن من إكرام غيره، والإكرام بأصل الخلق والإيجاد، ثم بالقيام بشؤون الخلق، ثم بجزائهم جزاءً حسناً.



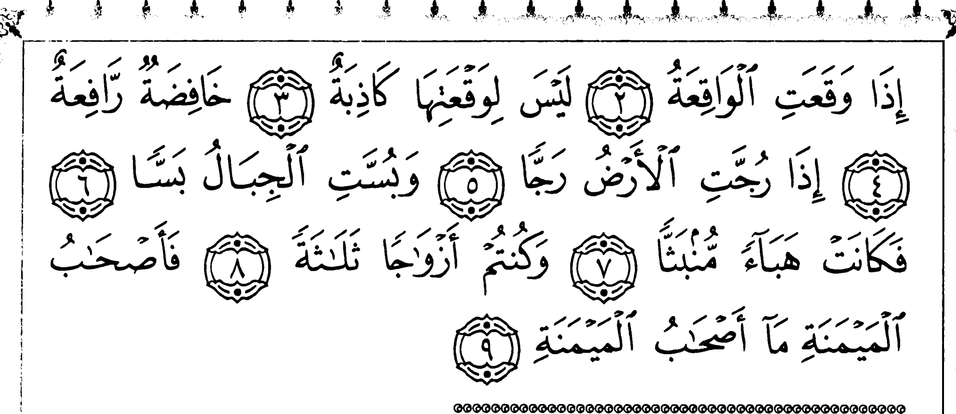
سورة الواقعة

مكية/آياتها (٩٧)

سميت السورة بهذا الاسم لاشتمالها على كلمة «الواقعة» وهي كسائر السور المكية تعالج قضايا العقيدة، وربما يقال إن بعض آياتها مدنية. ولما كان الكلام في آخر سورة الرحمن عن «المبدأ» ابتدأت هذه السورة بذكر «المعاد» وهما أساسان من الأسس الثلاث للعقيدة «بإضافة الرسالة».



[١] ﴿**بسم الله الرحمن الرحيم**﴾ نبدأ باسم الإله الذي إذا ذكر اسمه كان فيما اقترن به بركة وثبات ودوام، فهو الذات الثابت الذي لا زوال له ولا اضمحلال، الرحمن بخلقه كل ما في الكون، الرحيم الذي يرحم خلقه بالعناية والرعاية، وليس كمن يبدأ بالخير ثم يقطع خيره.



[٢] ﴿**إذا وقعت الواقعة**﴾ إذا حدثت القيامة وجاءت وسميت بالواقعة لتحقق وقوعها.

[٣] ﴿**ليس لوقعتها**﴾ نفس ﴿**كاذبة**﴾ فكلٌّ يصدق في ذلك اليوم صحته، وإن كان جماعة ينكرونه في الدنيا، وهذا كما يقال إذا وقعت في السجن تصدق كلامي بأن ما تعمله الآن ليس من صلاحك.

[٤] وهذه الواقعة ﴿**خافضة**﴾ تخفض وتنزل بالكفار والعصاة اللذين كانوا في الدنيا، بنظر الناس في رفعة وسمو ﴿**رافعة**﴾ ترفع المؤمنين المطيعين اللذين كانوا في دار الدنيا، بنظر الناس في ذل وهوان.

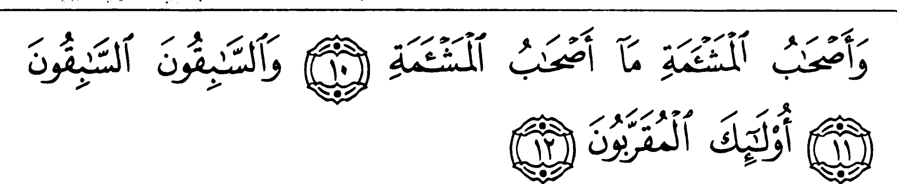
[٥] ويكون ذلك فيما ﴿**إذا رجت الأرض رجّاً**﴾ تحركت تحركاً شديداً بالزلازل التي هي من علائم الساعة.

[٦] ﴿**و بست الجبال**﴾ فتتت وتحركت ﴿**بسّاً**﴾ مفعول مطلق لبيان شدة التفتت والحركة.

[٧] ﴿**فكانت هباءً**﴾ الهباء الذي يرى من الذرات في شعاع الشمس إذا دخل الشعاع في كوّة في غرفة مظلمة ﴿**منبثّاً**﴾ منتشراً.

[٨] ﴿**و كنتم**﴾ أيها البشر ﴿**أزواجاً**﴾ أصنافاً ﴿**ثلاثة**﴾ المقربون وأصحاب اليمين، وأصحاب الشمال.

[٩] ﴿**ف**﴾ صنف ﴿**أصحاب الميمنة**﴾ أصحاب اليُمن ﴿**ما أصحاب الميمنة**﴾



ما أعظم حالهم إذ هم في خير سعادة وبركة.

[١٠] ﴿و﴾ صنف ﴿أصحاب المشأمة﴾ أصحاب الشؤم وهم أهل النار ﴿ما أصحاب المشأمة﴾ ما أعظم حالهم في العذاب، مثل (فَغَشِيَهُم مِّنَ اليَمِّ مَا غَشِيَهُمْ)(١).

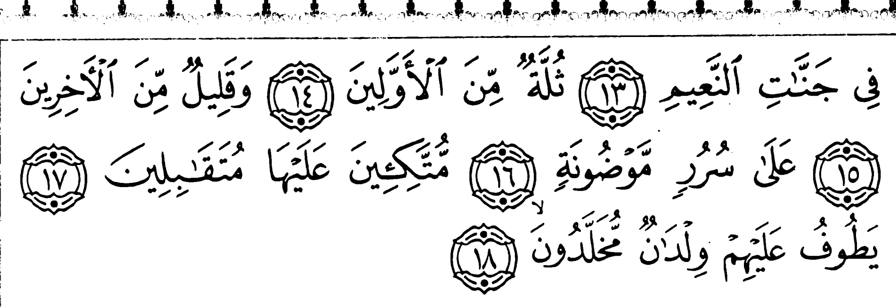
[١١] ﴿و﴾ صنف ﴿السابقون﴾ ولا حاجة إلى ذكر التهويل في حالهم، كالصنفين السابقين فإنهم معروفون بأنهم ﴿السابقون﴾ يسبقون إلى الجنة بغير حساب.

[١٢] ﴿أولئك المقربون﴾ إلى رضوان الله سبحانه، مما لم يلحقهم أحد من المؤمنين، وهم الأنبياء والأوصياء والأولياء.

لا يقال إن صفاء جوهر الأنبياء والأوصياء سبب إطاعتهم، فأية فضيلة لهم ولو كان غيرهم خلق صافي الجوهر لكان كذلك؟ لأنه يقال بالإضافة إلى أن خلق عدم صافي الجوهر يوجب نقصاً في الخلق، وبخلاً عن الفيض، وكلاهما تمتنع على الله، أنهم إنما صفى جوهرهم لأنهم أجابوا بالطاعة في عالم الذر، بما لم يجب غيرهم بمثلهم فلو فرض تساويهم مع غيرهم، لكنهم أجابوا بالطاعة، فصفي جوهرهم، فكان ذلك جزاء العمل لا اعتباطاً، ولذا ورد في دعاء الندبة «بعد أن شرطت عليهم الزهد في درجات هذه الدنيا الدنية وزخرفها وزبرجها فشرطوا ذلك وعلمت منهم الوفاء، فقبلتهم

---

(١) طه: ٧٩.



وقربتهم»[(١)] والبحث طويل مكانه كتب الفلسفة الإسلامية.

[١٣] والمقربون ﴿**في جنات النعيم**﴾ التي ملأت نعمة وفيرة بحيث لا مكان للشر فيها.

[١٤] ﴿**ثلة**﴾ أي جماعة كثيرة ﴿**من الأولين**﴾ الأمم السابقة من لدن آدم عليه السلام إلى محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وذلك لأن الأنبياء والأوصياء كانوا في هذه الفترة.

[١٥] ﴿**وقليل من الآخرين**﴾ كمحمد صلى الله عليه وآله وسلم وأهل بيته ومن إليهم وهم أقل عدداً من السابقين، كما هو واضح.

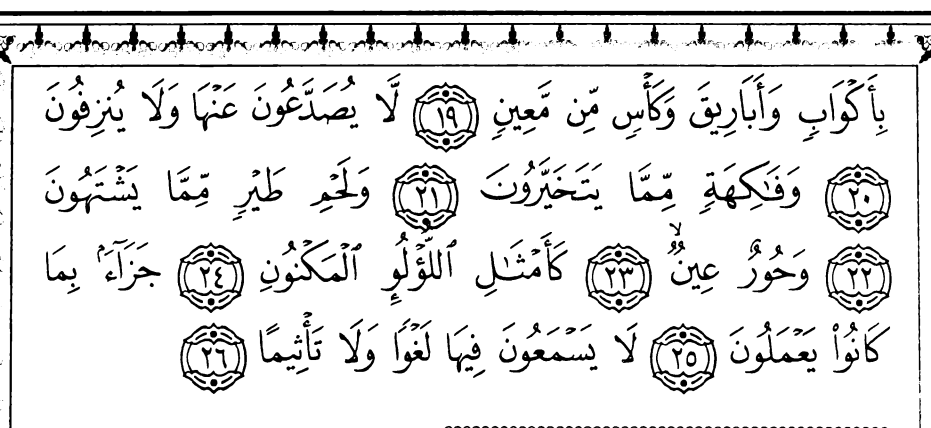
[١٦] وهم ﴿**على سرر**﴾ جمع سرير ﴿**موضونة**﴾ أي منسوجة بالذهب واللؤلؤ.

[١٧] ﴿**متكئين عليها**﴾ في حالة راحة واسترخاء ﴿**متقابلين**﴾ بعضهم مقابل بعض للتحدث ومزيد السرور.

[١٨] ﴿**يطوف عليهم**﴾ الطواف الذهاب والمجيء، ولذا يقال طاف بالبيت، ولا يلزم الدور ولذا يقال طاف بالصفا والمروة ﴿**ولدان**﴾ أولاد كالخدم، فالحور خادمات، والولدان خدم ﴿**مخلدون**﴾ باقون دائماً على هيئتهم لايهرمون ولا يموتون.

---

(١) مفاتيح الجنان: ث٦٠٧ .



[١٩] ﴿**بأكواب**﴾ جمع كوب إناء لا عروة له ولا خرطوم ﴿**وأباريق**﴾ جمع إبريق ما له عروة وإبريق ﴿**وكأس من معين**﴾ الماء المعين وهو الزلال العذب الطعم، ولعل المراد به الخمر بقرينة الآية الآتية.

[٢٠] ﴿**لا يصدّعون عنها**﴾ لا يأخذهم الصداع، وهو وجع الرأس كما أن من يشرب الخمر في الدنيا يأخذه الصداع ﴿**ولا ينزفون**﴾ لا يسكرون، لأن من سكر فقد «نزف» أي سال عقله وخرج من رأسه.

[٢١] ﴿**و**﴾ يطوف عليهم الولدان بـ ﴿**فاكهة مما يتخيرون**﴾ يختارون.

[٢٢] ﴿**و**﴾ بـ ﴿**لحم طير مما يشتهون**﴾ يريدون.

[٢٣] ﴿**وحور عين**﴾ عطف على «ولدان» أي يطوف عليهم حور عين، وكأن ذلك كناية عن تهيؤ الفراش لهم في كل وقت.

[٢٤] وهن ﴿**كأمثال اللؤلؤ المكنون**﴾ في الصفاء والنضارة فإن اللؤلؤ إذا لم يُكنَّ ولم يحفظ قلَّ صفاؤه.

[٢٥] يعطي أهل الجنة كل ذلك ﴿**جزاء بما كانوا يعملون**﴾ أعمالهم التي عملوها في الدنيا.

[٢٦] ﴿**لا يسمعون فيها**﴾ في الجنة ﴿**لغواً**﴾ أي كلاماً لغواً ﴿**ولا تأثيماً**﴾ نسبة إلى الإثم، فإن الأنبياء عليهم السلام والأولياء كانوا في الدنيا يسمعون

إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا ﴿٢٧﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٨﴾ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٣٠﴾ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣١﴾ وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣٢﴾ وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٣﴾

اللغو من أقوامهم وينسبونهم إلى الإثم فيقال لهم، إنهم آثمون لتركهم أديان قومهم واتخاذهم ديناً جديداً، لكن في الجنة لا شيء من هذين فقد ذهبت الأتعاب وصاروا في راحة ورفاه.

[٢٧] ﴿**إلا**﴾ استثناء منقطع ﴿**قيلاً**﴾ قولاً ﴿**سلاماً سلاماً**﴾ هذا يدخل عليهم ويسلم، وذاك يدخل ويسلم، وهكذا.

[٢٨] ﴿**و**﴾ الصنف الثاني ﴿**أصحاب اليمين**﴾ الذين هم دون المقربين مرتبة، وهم المؤمنون الصالحون ﴿**ما أصحاب اليمين**﴾ لا يتكلم حولهم من السعادة والرفاه الذين هم فيهما.

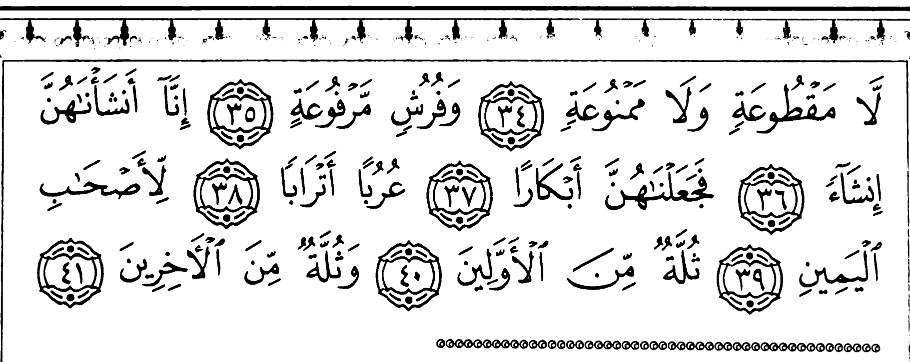
[٢٩] هم يعيشون في جنان نضرة ﴿**في سدر**﴾ النبق ﴿**مخضود**﴾ قد خضد شوكه فلا شوك فيه.

[٣٠] ﴿**وطلح**﴾ شجر الموز ﴿**منضود**﴾ قد نضد ورتب ثمره بعضه فوق بعض.

[٣١] ﴿**وظل**﴾ لا شمس فيها تؤذيهم ﴿**ممدود**﴾ لا يزول كما يزول ظل الدنيا وتنسخه الشمس.

[٣٢] ﴿**وماء مسكوب**﴾ دائم السكب، لا ينقطع حتى يحتاجون إلى عناء تحصيله.

[٣٣] ﴿**وفاكهة كثيرة**﴾ وافرة مستمرة.



[٣٤] ﴿لا مقطوعة﴾ كما في فواكه الدنيا حيث تكون في فصل دون فصل ﴿ولا ممنوعة﴾ لا يمنع عن أخذها أحد، فهي مباحة لكل أهل الجنة.

[٣٥] ﴿وفرش مرفوعة﴾ نساء مرفوعات في الأخلاق والجمال كما يقال فلان إنسان رفيع، وعبر عن النساء الحوريات بالفراش لافتراش الأزواج لهن.

[٣٦] ﴿إنا أنشأناهن﴾ ابتدأنا خلقهن ﴿إنشاءً﴾ بدون ولادة، كما في نساء الدنيا.

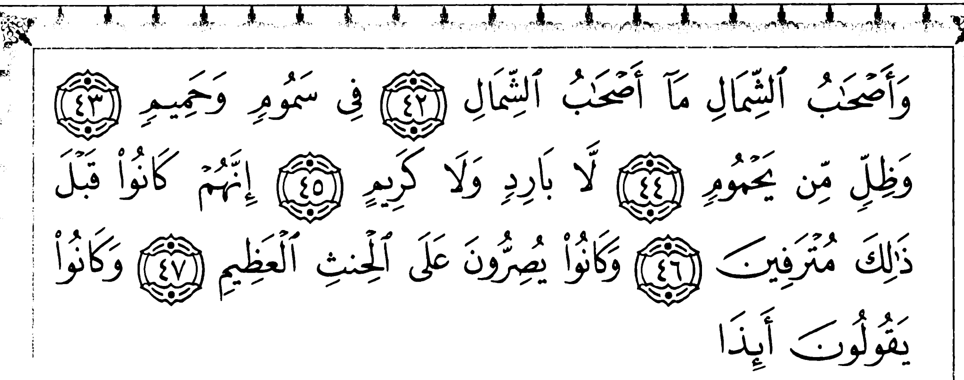
[٣٧] ﴿فجعلناهن أبكاراً﴾ دائمات البكارة ليتلذذ الأزواج بهن أكثر، وكذلك هن يتلذذن أكثر، لأنه لا وجع لهن، ولا صعوبة لأزواجهن في افتضاضهن.

[٣٨] ﴿عرباً﴾ جمع عروب بمعنى المحبة للزوج ﴿أتراباً﴾ جمع ترب بمعنى المتساويات مع أزواجهن في السن، لا الصغيرة التي يرى الزوج منها عنتاً ولا الكبيرة التي يكرهها زوجها لكبر سنها.

[٣٩] كل ذلك النعيم ﴿لأصحاب اليمين﴾ الذين يؤخذ بهم ذات اليمين إلى الجنة وهم المؤمنون من الأمم.

[٤٠] ﴿ثلة من الأولين﴾ جماعة كثيرة من الأمم السابقة.

[٤١] ﴿وثلة من الآخرين﴾ من أمة رسول الله صلى الله عليه وآله.



[٤٢] ﴿**وأصحاب الشمال**﴾ وهم الصنف الثالث من البشر والذين يؤخذ بهم ذات الشمال إلى النار ﴿**ما أصحاب الشمال**﴾ فهم في أهوال كثيرة، حتى لا يمكن أن يتصور أحوالهم.

[٤٣] ﴿**في سموم**﴾ نيران تنفذ إلى مسام الجلد ﴿**وحميم**﴾ ماء متناه في الحرارة.

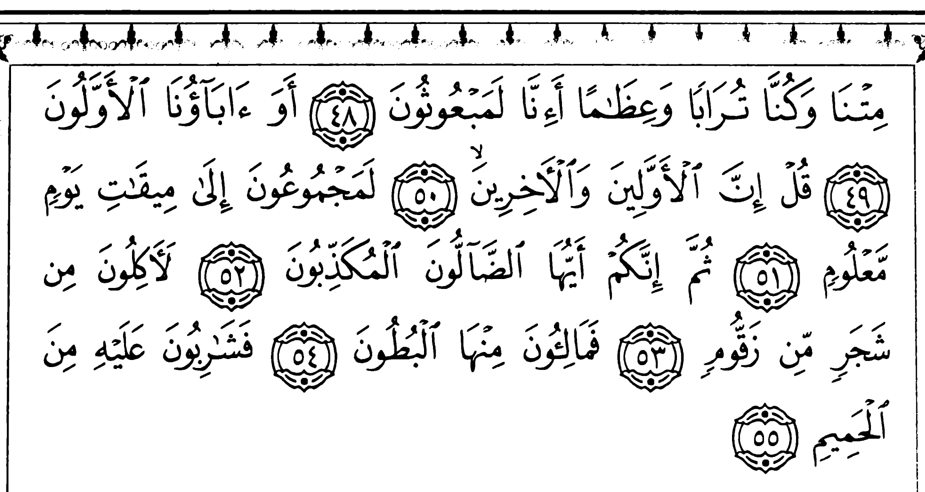
[٤٤] ﴿**وظل من يحموم**﴾ دخان أسود فهم في النار ذات دخان لا يرون مكاناً.

[٤٥] ﴿**لا بارد**﴾ كسائر الظلال ﴿**ولا كريم**﴾ ولا نافع كما في دخان الدنيا إذ قد يمنع الدخان حر الشمس ونحوها.

[٤٦] ولماذا يذوقون هذا العذاب المؤلم؟ لـ ﴿**إنهم كانوا قبل ذلك**﴾ في دار الدنيا ﴿**مترفين**﴾ يعيشون في الترف وهو الانهماك في الملذات والشهوات.

[٤٧] ﴿**وكانوا يصرون على الحنث**﴾ لعهد الله أي نقضه ﴿**العظيم**﴾ وهو الشرك، لأن الله أخذ الميثاق من كل البشر بأن يؤمنوا به، ثم هؤلاء حنثوا عهد الله.

[٤٨] وبالإضافة إلى إنكارهم المبدأ ﴿**وكانوا يقولون أئذا**﴾ الهمزة للاستفهام



مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٨﴾ أَوَ ءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ
﴿٤٩﴾ قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿٥٠﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ
مَّعْلُومٍ ﴿٥١﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ﴿٥٢﴾ لَءَاكِلُونَ مِن
شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٣﴾ فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٥٤﴾ فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ
ٱلْحَمِيمِ ﴿٥٥﴾

الإنكاري ﴿**متنا وكنا تراباً**﴾ لحومنا ﴿**وعظاماً**﴾ ظهرت عظامنا ﴿**أإنا لمبعوثون**﴾ ليوم القيامة؟ فأنكروا المعاد أيضاً.

[٤٩] ﴿**أو**﴾ وهل ﴿**آباؤنا الأولون**﴾ الذين صاروا تراباً يبعثون؟ «فالهمزة» للاستفهام و«الواو» للعطف على ضمير «مبعوثون».

[٥٠] ﴿**قل**﴾ يا رسول الله ﷺ لهم نعم يبعث الجميع ﴿**إن الأولين والآخرين**﴾ كلهم أجمع.

[٥١] ﴿**لمجموعون**﴾ تحت التراب ﴿**إلى ميقات**﴾ وقت ﴿**يوم معلوم**﴾ هو يوم القيامة، حيث يُبعث كلهم مرة واحدة.

[٥٢] ﴿**ثم**﴾ بعد البعث ﴿**إنكم أيها الضالون**﴾ عن طريق الثواب ﴿**المكذبون**﴾ بالله وبرسوله وبالمعاد.

[٥٣] ﴿**لآكلون من شجر من زقوم**﴾ وهو شيء في غاية المرارة.

[٥٤] ﴿**فمالئون**﴾ تملؤون ﴿**منها**﴾ من تلك الثمرة المرة ﴿**البطون**﴾ فإنهم لشدة جوعهم يأكلون منها إلى حد الامتلاء.

[٥٥] ثم يعطشون أشد العطش ﴿**فشاربون عليه**﴾ على الزقوم ﴿**من**﴾ الماء ﴿**الحميم**﴾ الذي هو غاية في الحرارة.

فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ ﴿٥٦﴾ هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٥٧﴾ نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴿٥٨﴾ أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٩﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٦٠﴾ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦١﴾

[٥٦] ﴿**فشاربون**﴾ تكرار الفاء لبيان أنهم يشربون ويشربون ﴿**شرب الهيم**﴾ مثل شرب الإبل العطشان الذي هو في غاية العطش فإن الإبل الذي به «الهيام» وهو داء الاستسقاء، يشرب من الماء الشيء الكثير جداً، وهيم جمع أهيم وهيماء.

[٥٧] ﴿**هذا نزلهم**﴾ النزل ما يعد للضيف ﴿**يوم الدين**﴾ في يوم القيامة.

[٥٨] وهذا جزاء تكذيبكم ﴿**نحن خلقناكم فلولا تصدقون**﴾ فلماذا لم تصدقوا بمن خلقكم، ولا برسله، ولا بما أخبر من بعثه؟.

[٥٩] وكيف تكذبون بالله وأنتم ترون أن كل ما حولكم هو من خلق الله؟ ﴿**أفرأيتم ما تمنون**﴾ ما تقذفونه في الأرحام من النطف.

[٦٠] ﴿**أأنتم تخلقونه**﴾ تجعلونه بشراً سوياً ﴿**أم نحن الخالقون**﴾ وإذا اعترفتم بأنكم لاتخلقونه فلِمَ تكذبون بخالقه؟.

[٦١] ثم الموت الذي يأتيكم بغير إرادة منكم فهل أنتم سبب الموت أو الله؟ وإذا كان الله هو المقدر للموت فلماذا تكفرون به ﴿**نحن قدرنا بينكم الموت**﴾ فكل إنسان يموت حسب تقدير الله وإرادته ﴿**وما نحن بمسبوقين**﴾ بمغلوبين تشبيه بأن يسبق إنسان إنساناً فلا يقدر المسبوق اللحاق بالسابق.

عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٣﴾ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٤﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٥﴾ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٦﴾

[٦٢] ﴿**على أن نبدل أمثالكم**﴾ بأن نذهب بكم ونأتي غيركم ـ من مثلكم ـ مكانكم ﴿**وننشئكم**﴾ نخلقكم خلقاً جديداً ﴿**فيما**﴾ أي في صورة ﴿**لا تعلمون**﴾ لا تعلمونها كأن نجعلكم قردة أو خنازير أو غير ذلك.

[٦٣] ﴿**و لقد علمتم النشأة الأولى**﴾ كيف أنشأناكم ﴿**فلولا تذكرون**﴾ فلماذا لا تتذكرون أن من يقدر على الإنشاء أولاً يقدر على الإنشاء ثانياً؟ فكيف تنكرون البعث؟.

[٦٤] ثم ليس خلقكم أنتم من الله فقط بل كل شيء هو من خلق الله ﴿**أفرأيتم ما تحرثون**﴾ تبذرون حبّه لأجل الزراعة والثمر.

[٦٥] ﴿**أأنتم تزرعونه**﴾ تنبتونه ﴿**أم نحن الزارعون**﴾؟ ولا أحد يقدر أن يقول إنه هو الزارع للنبات كما أنه لا أحد يقدر أن يقول إن الزارع له هو الطبيعة، فهل الطبيعة الجاهلة العاجزة تقدر على مثل هذا الشيء، وإذا صدق الإنسان أن الله هو الزارع الذي يجعل من الأرض الميتة نباتاً حياً، سهل عنده أن يصدق أن الله قادر على إعادة الإنسان بعد موته.

[٦٦] ﴿**لو نشاء لجعلناه حطاماً**﴾ هشيماً متحطماً عوض أن ننمي النبات حتى نجعله شجرة ذات ثمرة ﴿**فـ**﴾ إذا فعلناه هشيماً لـ ﴿**ظلتم تفكهون**﴾

إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٧﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٨﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٩﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٧٠﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧١﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧٢﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٣﴾

تتكلمون في مجالسكم، من جهة التعجب والندم على ما أنفقتم في الأرض لأجل الزرع، والمراد أنكم لا تقدرون أمام قدرة الله بجعله النبات هشيماً إلا التكلم فقط.

[٦٧] ﴿**إنا لمغرمون**﴾ ملزمون بغرامة ما أنفقنا.

[٦٨] ﴿**بل**﴾ تقولون بالإضافة إلى غرامة ما أنفقنا ﴿**نحن**﴾ قوم ﴿**محرومون**﴾ حُرمنا من رزقنا.

[٦٩] ﴿**أفرأيتم الماء الذي تشربون**﴾ هو ماء عذب صالح للشرب.

[٧٠] ﴿**أأنتم أنزلتموه من المزن**﴾ من السحاب ﴿**أم نحن المنزلون**﴾ بقدرتنا؟ وهل هناك أحد يقول أنا أنزلت الماء؟.

[٧١] ﴿**لو نشاء جعلناه أجاجاً**﴾ مالحاً يمجّه الطبع ﴿**فلولا تشكرون**﴾ أمثال هذه النعم التي هي ضرورية لحياتكم، ولو إنا ما أعطيناها لكم، لم يكن لكم علاج في تحصيلها، إلا التفكّر والتحسّر.

[٧٢] ﴿**أفرأيتم النار التي تورون**﴾ تخرجونها من الخشب ونحوه.

[٧٣] ﴿**أأنتم أنشأتم شجرتها**﴾ خلقتم شجرتها ﴿**أم نحن المنشئون**﴾؟ وهل هناك أحد يقول إنه أنشأ شجرتها.

نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٤﴾ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿٧٥﴾ فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ﴿٧٦﴾ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٧﴾

[٧٤] ﴿**نحن جعلناها**﴾ النار ﴿**تذكرة**﴾ تذكركم بنعمة الله، وبنار الآخرة، حتى تشكروه سبحانه على هذه النعمة، وتخافوا من عذاب يوم القيامة ﴿**ومتاعاً**﴾ منفعة يتمتع بها الإنسان في طبخه وتدفئته وقضاء سائر حوائجه المحتاجة إلى النار ﴿**للمقوين**﴾ يقال أقويت منذ أيام أي لم آكل طعاماً فالمقوين هم الذين يحتاجون إلى الطعام، ولعله من حمل الضد على الضد، حيث إن خالي البطن لا يقوى فحمل على من «يقوى» بأكله الطعام.

[٧٥] وإذ عرفت كثرة نعم الله عليك ﴿**فسبح باسم ربك**﴾ نزهه عما لا يليق به، والباء في «باسم» مثل اللام في «سبح لله» للتقوية ﴿**العظيم**﴾ صفة الرب.

[٧٦] وحيث فرغ عن إثبات الألوهية جاء دور إثبات الرسالة، وذلك بسبب بيان أن القرآن من عند الله سبحانه ﴿**فلا أقسم**﴾ هذا صيغة تشير إلى الحلف، ليكون للكلام قوة الحلف، مع عدم الحلف احتراماً للمحلف به، فـ «لا» نافية ﴿**بمواقع النجوم**﴾ إذ القوة الهائلة التي تحفظ النجوم الكبار، والتي بعضها ستون مليون مرّة أكبر من الشمس، الشمس التي هي اكبر من الأرض بأكثر من مليون مرة، إن تلك القوة من العظمة مما ينبغي أن يحلف بها.

[٧٧] ﴿**وإنه لقسم لو تعلمون**﴾ لعلمتم أنه ﴿**عظيم**﴾ بل خارج عظمته من

إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ (٧٨) فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ (٧٩) لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ (٨٠) تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ (٨١) أَفَبِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَنتُم مُّدۡهِنُونَ (٨٢)

طوق فهم البشر وإدراكهم.

[٧٨] ﴿**إنه**﴾ الشيء المنزل على رسول الله ﷺ ﴿**لقرآن كريم**﴾ له كرامة الوحي وهو يكفي لإصلاح المعاش والمعاد.

[٧٩] ﴿**في كتاب مكنون**﴾ مكتوب في لوح محفوظ عند الله أنزله الله على رسوله لهداية البشر إلى يوم القيامة.

[٨٠] ﴿**لا يمسه**﴾ لا يمس ذلك الكتاب المكنون ﴿**إلا المطهرون**﴾ من الملائكة فإذا كان شأنه هناك في العالم الأعلى مثل هذا الشأن، فاللازم تقديره حق قدره في هذا العالم، وهذا حسب ظاهر الآية، وما ورد في تفسيرها بطون أو تأويل أو ما أشبه(١)، ولا منافاة بين الجميع، كما ذكرناه في كتاب «حول القرآن الحكيم»(٢).

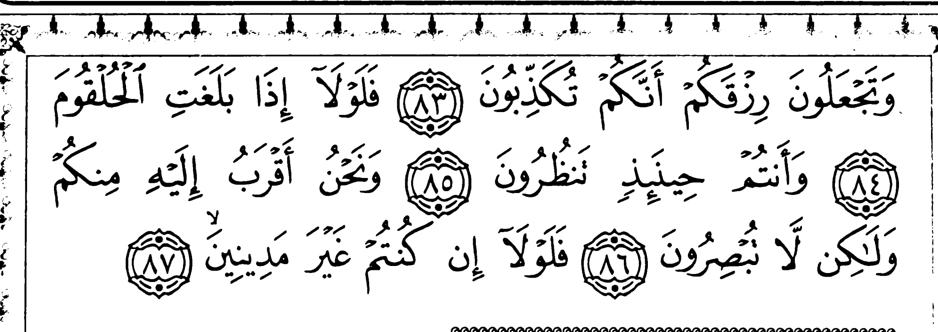
[٨١] وهو ﴿**تنزيل**﴾ أي منزل، فهو من قبيل «زيد عدل» ﴿**من رب العالمين**﴾ أنزله لصالح الكون إلى الأبد.

[٨٢] ﴿**أفبهذا الحديث**﴾ الشيء الحادث الذي هو القرآن ﴿**أنتم مدهنون**﴾ متهاونون؟ كمن يدهن في الأمر أي يلين جانبه تهاوناً، وأصله استعمال الدهن للين الجسم.

---

(١) راجع بحار الأنوار: ج٧٧ ص٢٥٥ .

(٢) موسوعة الفقه: ج٩٨ .



[٨٣] ﴿وتجعلون رزقكم﴾ أي سبب رزقكم، أطلق عليها الرزق بعلاقة السبب والمسبب ﴿أنكم تكذبون﴾ تكذيبكم لهذا القرآن الموصوف بالصفات السابقة، لأنهم كانوا يرون أن استمرار رزقهم إنما هو بالتجافي عن القرآن والتكذيب له، كما يقال «جعل فلان رزقه الزنى» أي جعله ممر رزقه.

[٨٤] نعم سترون جزاء تكذيبكم عندما يأتيكم الموت ولا علاج لكم في دفعه ﴿فلولا﴾ فهلاّ ﴿إذا بلغت﴾ النفس ﴿الحلقوم﴾ لأن النفس تخرج من الرجل إلى الحلقوم، ثم إلى الرأس، وذكر الحلقوم من جهة شعور الإنسان بالموت مع بقاء مشاعره في الرأس مدركاً لهول الموت.

[٨٥] ﴿وأنتم﴾ أيها الحاضرون حول المحتضر ﴿حينئذ﴾ حين وصلت روحه إلى الحلقوم ﴿تنظرون﴾ وهو وأنتم في غاية إلى عدم موته، ورجوعه إلى الحياة.

[٨٦] ﴿ونحن أقرب إليه منكم﴾ لأن علمنا وقدرتنا نافذتان إلى أعماقه، وأنتم لستم كذلك ﴿ولكن لا تبصرون﴾ أنتم قربنا.

[٨٧] ﴿فلولا﴾ تكرار، لأجل ارتباط الجواب بـ «لولا إذا بلغت. . .» ﴿إن كنتم غير مدينين﴾ غير مربوبين من دان السلطان الرعية إذا ساسهم.

تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٨٨﴾ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٩﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٩٠﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩١﴾ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٢﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٣﴾

---

[٨٨] ﴿**ترجعونها**﴾ ترجعون النفس إلى كل الجسد، كما كان سابقاً ﴿**إن كنتم صادقين**﴾ في إنكاركم لله وقدرته، فإذا لم يكن إله ـ كما زعمتم ـ ولم يكن أمر الكون بيده، فلماذا لا تقدرون أنتم على إنجاز أحب شيء إلى قلوبكم من إرجاع الروح إلى ميتكم العزيز، أليس كل ذلك دليلاً على وجود إله قدير بيده كل شيء.

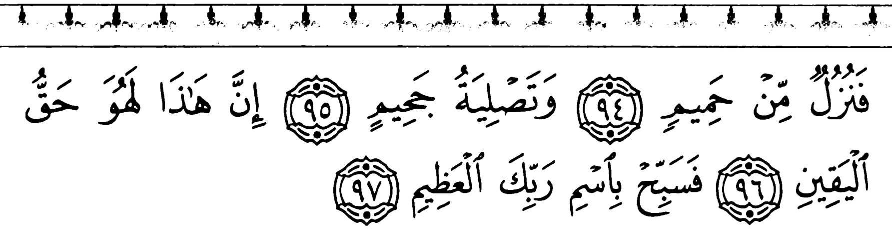
[٨٩] ثم يبين الله سبحانه مصير هذا المحتضر ﴿**فأما إن كان من المقربين**﴾ وهو القسم الأول من «الأزواج الثلاثة» المذكورين في أول السورة.

[٩٠] ﴿**فروح**﴾ فله راحة ﴿**وريحان**﴾ الريحان المشموم كناية عن حضور مشتهياته الطيبة ﴿**وجنة نعيم**﴾ جنة ذات نعمة.

[٩١] ﴿**وأما إن كان من أصحاب اليمين**﴾ وهو القسم الثاني من أهل الجنة لكنهم دون المقربين.

[٩٢] ﴿**فسلام لك**﴾ يا صاحب اليمين، سلامة لك في آخرتك وأنت تكون ﴿**من**﴾ جملة ﴿**أصحاب اليمين**﴾ كما يقال «السلام عليك من شهيد في سبيل الله» فإن «من» بيان لـ «كاف» الخطاب.

[٩٣] ﴿**وأما إن كان**﴾ المحتضر ﴿**من المكذبين**﴾ بالله ورسوله والمعاد ﴿**الضالين**﴾ عن طريق الهداية، «هم أصحاب الشمال» فهو ضال في



نفسه مكذب للحق.

[٩٤] ﴿فنزل﴾ هو ما يعد للضيف ﴿من حميم﴾ من ماء حار شديد الحرارة.

[٩٥] ﴿وتصلية﴾ يقال صلاه إذا أوصله ﴿جحيم﴾ هي من أسماء جهنم.

[٩٦] ﴿إن هذا﴾ الذي ذكرناه من جزاء الأقسام الثلاثة ﴿لهو حق اليقين﴾ الحق المطابق للواقع، الذي هو يقيني أي من شأنه ذلك وإن أنكره كثير، مثل «لا ريب فيه» أي ليس هو محل الريب وإن ارتاب فيه الكثير، وهذا أحد الأقسام الثلاثة التي ينقسم اليقين إليها.

فالأول: علم اليقين، كما إذا علمت بأن النار حارة.

والثاني: حق اليقين، كما إذا رأيت النار.

والثالث: عين اليقين، كما إذا أدخلت يدك في النار وذقت حرارتها.

[٩٧] وإذا علمت بما تقدم ﴿فسبح﴾ يا رسول الله ﴿باسم ربك﴾ نزهه عما لايليق به ﴿العظيم﴾ صفة الرب، وقد تقدم بعض الكلام فيه في آية شبيهة بها، فباعتبار أن التسبيح للذات يأتي بلا حرف جر، وباعتبار أن التسبيح ملصق بالاسم يتعدى بالباء، وباعتبار أن التسبيح لله يتعدى باللام.



سورة الحديد

مدنية/آياتها (٣٠)

سميت السورة بهذا الاسم لاشتمالها على كلمة «الحديد» وهي كسائر السور المدنية مشتملة على قضايا الشريعة. ولما ختمت سورة الواقعة بتسبيح الله ابتدأت هذه السور بذلك أيضاً.



[١] ﴿**بسم الله الرحمن الرحيم**﴾ نبدأ باسم الله فإنه المبدأ حقيقة، ونبدأ باسمه ليطابق الكلام الواقع وهو الرحمن بالكل يخلقهم من العدم إلى الوجود برحمته، ورحيم بالكل يعطي كل مخلوق حسب ما يستحق مما ينميه ويكمله.

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢) لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٣) هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ

[٢] **﴿سبح لله﴾** نزهه عما لا يليق به، وقد تقدم في آخر الواقعة، وجه تعدي التسبيح باللام **﴿ما في السماوات والأرض﴾** قد سبق وجه جمع السماوات وإفراد الأرض، وتسبيح كل شئ إما بلسانه، وإن كنا لا نفهم ألسنة غير الإنسان من المخلوقات، وإما بدلالته على علم الله وقدرته وصفاته وغير ذلك، إذ حتى الشعرة الواحدة دليل على الذات وعلى كل الصفات العقلية الثابتة عقلاً له سبحانه **﴿وهو﴾** تعالى **﴿العزيز﴾** له العزّة والرفعة وعزّة ماسواه إنما تكون به تعالى **﴿الحكيم﴾** يضع الأشياء موضعها، ولحكمته خلق الكون، ولعزته سبح له كل ما في الكون.

[٣] **﴿له ملك السماوات والأرض﴾** بل هو وحده المالك الحقيقي، أما سواه فملكه استعارة ومجاز **﴿يحيي﴾** التراب إلى النبات والحيوان والإنسان، كما يحيي الإنسان والحيوان بعد موتهما **﴿ويميت﴾** الثلاثة بعد حياتها في دار الدنيا، كما يميت الحيوانات على الأكثر في الآخرة، حتى أن الكافر إذا رأى ذلك قال: (يا لَيْتَنِي كنتُ تُراباً)[١] **﴿وهو﴾** سبحانه **﴿على كل شيء قدير﴾** بشرط أن يكون لذلك الشيء أهلية تعليق القدرة، كما بُحث حول ذلك في كتب الفلسفة الإسلامية.

[٤] **﴿هو الأول﴾** قبل كل شيء **﴿والآخر﴾** بعد كل شيء، ولا منافات لعدم انتهاء الجنة والنار إذ يصدق البعدية بالنسبة إلى الحال الحاضرة، فإن الكل يهلك إلى وجهه **﴿والظاهر﴾** بآثاره لدى كل ذي عقل **﴿والباطن﴾**

---

(١) النبأ: ٤١ .

وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٤﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٥﴾

الخفي بحقيقته لا يعلم حقيقته إلا هو تعالى ﴿**وهو بكل شيء عليم**﴾ يعلم كل شيء، كما أنه يقدر على كل شيء ـ كما تقدم في الآية السابقة ـ.

[٥] ﴿**هو الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام**﴾ اليوم قطعة من الزمان ولعل المراد ستة مليارات من السنوات فقد ثبت في بعض تحقيقات العلم الحديث خلقهما في مثل هذه المدة ﴿**ثم استوى على العرش**﴾ استولى على عرش الإرادة إذ قبل ذلك كان من باب السالبة بانتفاء الموضوع، فالاستواء على العرش كناية عن التصرف في الكون، فهو مثل قول الشاعر:

رأيت الوليد بن اليزيد مباركاً
شديداً بأعباء الخلافة كاهله

هذا «الاستيلاء» من ناحية القدرة أما من ناحية العلم فإنه سبحانه ﴿**يعلم ما يلج**﴾ يدخل ﴿**في الأرض**﴾ كالبذر والميت ﴿**و ما يخرج منها**﴾ كالنبات والحيوان الذي يخلق تحت الأرض ثم يخرج منها ﴿**وما ينزل من السماء**﴾ كالمطر ﴿**وما يعرج فيها**﴾ يصعد إليها كالدخان والأبخرة ﴿**وهو معكم**﴾ علماً وقدرة إذ علمه نافذ فينا وقدرته محيطة بنا ﴿**أينما كنتم**﴾ في بر أو بحر في نور أم ظلام في عراء أو بناء ﴿**والله بما تعملون بصير**﴾ يراكم، والبصر غير العلم كما هو واضح فإن علمنا

لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٦﴾ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ۚ وَهُوَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٧﴾ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ

بالشيء ولا نراه، غير أن نعلم به ونراه، أما كيفية رؤية الله فهي مجهولة مثل كيفية علمه وسائر الأمور المرتبطة بذاته تعالى.

[٦] ﴿**له ملك السماوات والأرض**﴾ أعاد ذكره لأن الآية السابقة كانت كالاستدلال لذلك، بخلاف ما ذكره سبحانه أولاً، حيث إنه لم يتقدم له استدلال ـ في هذه السورة ـ ﴿**وإلى الله ترجع الأمور**﴾ فإذا أراد الإنسان شيئاً فإن قدره سبحانه صار وإلا لم يصر كما أن الموظفين إذا أرادوا شيئاً أرجع إلى الرئيس إن قبله صار وإلا لم يصر، وهذا كناية عن أن الإرادة النهائية له تعالى.

[٧] ﴿**يولج**﴾ يدخل الله ﴿**الليل في النهار**﴾ أي يأخذ الليل مكان النهار، إذا طال الليل، أو المراد أن عموداً من الظلام يدخل في ضوء النهار ثم ينتشر الظلام إلى أن يأخذ الأفق، فإن من يلاحظ الكرة الأرضية والشمس يعلم أن ظل الأرض كالعامود الذي يخترق نور الشمس ﴿**ويولج النهار في الليل**﴾ فيه الاحتمالان السابقان، ولذا يرى نور النهار أول الفجر كالخيط في طرف المشرق، ثم يتوسع حتى يشمل النور الأفق ﴿**وهو**﴾ سبحانه ﴿**عليم بذات الصدور**﴾ «الذات» الحقيقة، وكأنه كناية عما في الصدور، لابد وأن يكون محيطاً به عالماً بما فيه.

[٨] ﴿**آمنوا بالله ورسوله**﴾ أيها الكفار، أو عمّقوا إيمانكم أيها المؤمنون ﴿**وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين**﴾ استخلفكم وجعلكم خلفاء لمن

فِيهِ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَأَنفَقُواْ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٨﴾ وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُواْ بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ

قبلكم ﴿فيه﴾ في ذلك المال، إذ كان المال لغيرنا ثم صار لنا وهكذا جيلاً بعد جيل كل جيل خليفة سابقه، كناية عن أن المال ليس لكم، وإنما كان لغيركم ثم يكون من بعدكم لغيركم أيضاً ﴿فـ﴾ إن ﴿**الذين آمنوا منكم وأنفقوا**﴾ من أموالهم ﴿**لهم أجر كبير**﴾ في الدنيا بالرفاه والسعادة وفي الآخرة بجنة عرضها السماوات والأرض.

[٩] ﴿**ومالكم**﴾ أيّ شئ لكم إذن ﴿**لا تؤمنون بالله**﴾؟ فهل لكم فائدة من عدم إيمانكم ﴿**و**﴾ الحال إن ﴿**الرسول يدعوكم لتؤمنوا بربكم**﴾ ويقيم لكم الحجج والآيات ﴿**وقد أخذ**﴾ الله ﴿**ميثاقكم**﴾ عهدكم الغليظ في عالم الذر، وأودع فيكم الفطرة التي تدل على صحة ما جاء به الرسول إذ يجد كل إنسان في نفسه قبول الحق وليس هذا إلا أن شيئاً مودع فيه يلجؤه إلى الاعتراف باطناً سواء اعترف ظاهراً أم لا ﴿**إن كنتم مؤمنين**﴾ لشيء ما، فإن تنبيه الرسول ودلالة العقول من أقوى موجبات الإيمان، وهذا مثل ما يقال «إن كنت تفهم فافهم أن الشيء الفلاني ينفعك».

[١٠] و﴿**هو**﴾ الله ﴿**الذي ينزل على عبده**﴾ محمداً ﷺ ﴿**آيات بينات**﴾ واضحات ﴿**ليخرجكم**﴾ أيها البشر ﴿**من الظلمات**﴾ ظلمات الكفر والجهل ﴿**إلى النور**﴾ نور الإيمان والعلم، فإن الكفر والجهل يسببان عدم رؤية الإنسان للحقائق، كما أن الظلام يسبب عدم رؤية الإنسان

وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُواْۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١﴾

للأشياء ﴿**وإن الله**﴾ الواو للحال، أو العطف ﴿**بكم**﴾ أيها البشر ﴿**لرؤوف**﴾ الرأفة يقال للعطف قبل ظهوره أو دقة الرحمة ﴿**رحيم**﴾ عطف يظهر أثره أو مطلق الرحمة.

[١١] ﴿**وما لكم ألاّ تنفقوا**﴾ أيّ شيء لكم من عدم إنفاقكم ﴿**في سبيل الله**﴾ في طريقه المؤدية إلى رضوانه ﴿**و لله ميراث السماوات والأرض**﴾ وإذا لم تنفقوا يبقى المال وتموتون، ولم تستفيدوا منه في تحصيل الدرجات العالية، فإن كل من في السماوات ومن في الأرض يموتون وتبقى أموالهم وما كان في أيديهم لله وحده ﴿**لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح**﴾ فتح مكة ﴿**وقاتل**﴾ قبل الفتح، حيث الإسلام غريب وبحاجة شديدة إلى المقاتلين وإلى المال، ومن أنفق وقاتل بعد فتح مكة حيث أعز الله الإسلام، وذهب الخوف من المسلمين، وكثرت الغنائم، وحذف هذا الشق لوضوحه ﴿**أولئك**﴾ المنفقون المقاتلون قبل الفتح ﴿**أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد**﴾ الفتح ﴿**وقاتلوا**﴾ بعد الفتح ﴿**و كلاً**﴾ من المنفق والمقاتل قبلاً، وبعداً ﴿**وعد الله الحسنى**﴾ أي المثوبة الحسنى وهذا الكلام لئلاّ يُزعم تساويهما لا لبيان تبرير المتقاعس قبلاً، إذ المتقاعس له وزر ﴿**والله بما تعملون خبير**﴾

مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١٢﴾ يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ

فيجازيكم حسب أعمالكم.

[١٢] ثم إن الذي يعطي ماله في سبيل الله فهو قرض يسترجع أكثر منه في دنياه وآخرته، أما الآخرة فالمثوبة، وأما الدنيا فلأن الإنفاق يوجب تقدم الاجتماع، والاجتماع المتقدم يرتفع أفراده أكثر، وبذلك يكون مالهم أكثر، ولذا قال سبحانه (وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ)[1] ﴿**من ذا**﴾ الشخص ﴿**الذي يقرض الله قرضاً حسناً**﴾ مقابل القرض السيئ الذي لا إخلاص له أو كان لأجل تحصيل الربا بالزيادة ﴿**فيضاعفه**﴾ الله ﴿**له**﴾ لأن الله يجعل كل حسنة أضعافاً ثم يردها على صاحبها ﴿**وله أجر كريم**﴾ فإن الأجر لأصل القرض «بالإضافة إلى ما يضاف إليه من الزيادة» كريم في نفسه يرجع إلى صاحبه مع الإكرام له.

[١٣] وتلك المضاعفة والأجر إنما هو في ﴿**يوم**﴾ القيامة حيث ﴿**ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم**﴾ مثلاً نورهم عمود له امتداد ميل، فإذا تحركوا تحرك النور، فكأنه يسعى ﴿**بين أيديهم وبأيمانهم**﴾ فإن لهم نوراً من هذين الجانبين، ولعل ما كان من بين أيديهم للمقربين، وما كان بأيمانهم لأصحاب اليمين، ليكون علامة لمنزلتهم، أو لأن صحائفهم تعطى من طرف اليمين من الأمام، ويقال لهم ﴿**بشراكم**﴾ بشارة لكم ﴿**اليوم جنات تجري من تحتها الأنهار**﴾ من

---

(١) البقرة: ٢٧٧ .

خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿١٣﴾ يَوۡمَ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱنظُرُونَا نَقۡتَبِسۡ مِن نُّورِكُمۡ قِيلَ ٱرۡجِعُواْ وَرَآءَكُمۡ فَٱلۡتَمِسُواْ نُورٗا فَضُرِبَ بَيۡنَهُم بِسُورٖ لَّهُۥ بَابُۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحۡمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلۡعَذَابُ ﴿١٤﴾

تحت أشجارها، في حال كونهم ﴿**خالدين فيها**﴾ أبداً ﴿**ذلك هو الفوز**﴾ النجاح ﴿**العظيم**﴾ الذي ليس مثله فوز.

[١٤] وذلك في ﴿**يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا**﴾ وهم يعيشون في ظلام شديد ﴿**انظرونا**﴾ انظروا إلينا حيث يتوجه عمود نوركم إلى جانبنا لـ ﴿**نقتبس من نوركم**﴾ حتى نرى طريقنا ونتعرف إلى أوضاع بدننا، لأن الإنسان في الظلام لا يرى طريقه، ولا يتعرف على أوضاع جسده، وإنما ذكرت الآية المنافقين، ولم تذكر الكفار، لأن الكفار في مكان آخر، وإنما يحشر جميع من كان ظاهره الإيمان في مكان واحد، ثم يُميّزون ﴿**قيل**﴾ لهم في جوابهم ﴿**ارجعوا وراءكم**﴾ إلى الدنيا ﴿**فالتمسوا**﴾ فحصّلوا هناك ﴿**نوراً**﴾ كناية عن أن النور إنما يحصل في الدنيا لا في الآخرة.

﴿**فضرب بينهم**﴾ بين المؤمنين والمنافقين ﴿**بسور**﴾ بحائط يكون فاصلاً بينهما ﴿**له باب**﴾ لمرور الملائكة أو لأجل أن يميز المؤمن من المنافق، حيث كانا قبلاً مختلطين فمن كان في طرف المؤمنين من المنافقين أخرج من الباب إلى المنافقين، وبالعكس ﴿**باطنه**﴾ حيث المؤمنون ﴿**فيه الرحمة**﴾ وسمي باطناً لأنه المكان الأحسن المحفوظ كباطن حائط الدار ﴿**وظاهره**﴾ طرف المنافقين ﴿**من قبله**﴾ من جهته ﴿**العذاب**﴾.

يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَـٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿١٥﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ ۖ هِىَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦﴾

[١٥] وحين ذاك ﴿**ينادونهم**﴾ ينادي المنافقون المؤمنين ﴿**ألم نكن معكم**﴾ في دار الدنيا نعمل الأعمال الصالحة معاً فكيف صرتم أنتم في رحمة ونحن في العذاب؟ ﴿**قالوا**﴾ المؤمنون ﴿**بلى**﴾ كنتم معنا في الظاهر ﴿**ولكنكم فتنتم أنفسكم**﴾ أي حرفتم أنفسكم عن الحق بسبب نفاقكم وعصيانكم ﴿**وتربصتم**﴾ في إطاعة أوامر الله، فلم تسارعوا إليها كما سارع المؤمنون فإن من عادة المنافق أن لا يدخل في جهاد ولا خير، وإنما يقول: دعنا نرى ماذا تكون العاقبة ﴿**وارتبتم**﴾ شككتم في الدين ﴿**و غرتكم**﴾ خدعتكم ﴿**الأماني**﴾ جمع أمنية، مثل «أغاني جمع أغنية» فإن المنافق لا يجاهد رجاء أن لا يصادف بأذى، ولا ينفق رجاء أن يزيد تجارته، ولا يحضر الخير رجاء أن يقدم عمله الدنيوي وهكذا ﴿**حتى جاء أمر الله**﴾ تقدم دينه ولم يكن لكم نصيب في ذلك ﴿**وغركم بالله**﴾ خدعكم بالاستهانة بأمر الله ﴿**الغرور**﴾ الشيطان الذي هو كثير الخدعة.

[١٦] ﴿**فاليوم**﴾ في يوم الحساب ﴿**لا يؤخذ منكم فدية**﴾ فداء في مقابل أن تخلصوا من نار جهنم ﴿**و لا من الذين كفروا**﴾ إذ في الآخرة لا ينفع إلا الإيمان والعمل الصالح ﴿**مأواكم النار**﴾ محلكم الذي تأوون إليه نار جهنم ﴿**هي مولاكم**﴾ أولى بكم ﴿**و بئس المصير**﴾ إنه مصير سيء.

أَلَمۡ يَأۡنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخۡشَعَ قُلُوبُهُمۡ لِذِكۡرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلۡحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلُ فَطَالَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَمَدُ فَقَسَتۡ قُلُوبُهُمۡۖ وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ ﴿١٧﴾ ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ

---

[١٧] وإذا عرف الفرق بين المؤمن حقيقة والمؤمن صورة «المنافق واقعاً» فـ ﴿**ألم يأن**﴾ ألم يصل الآن أي الوقت ﴿**للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله**﴾ فتكون قلوبهم مصدقة لما لفظوا بألسنتهم من الشهادتين ﴿**و**﴾ لـ ﴿**ما نزل من الحق**﴾ فيقبلوا قلباً كلما جاء به الرسول ﷺ، ثم إذا آمنتم أيها المنافقون قلباً، وأنتم أيها المؤمنون ظاهراً وباطناً، اعلموا إن من شرط الإيمان المنجي البقاء على الإيمان وعدم الانحراف ﴿**و لا يكونوا**﴾ أولئك المؤمنون ﴿**كالذين أوتوا الكتاب من قبل**﴾ كتاب موسى عليه السلام وغيره من الأنبياء ﴿**فطال عليهم الأمد**﴾ الزمن ﴿**فقست قلوبهم**﴾ لم تكن لها شفافية ولين قلوب المعاصرين للأنبياء، في عصر الرسالة، حيث كانوا يخضعون لأوامر الله سبحانه، لما لهم من لين وطهارة وشفافية ﴿**وكثير منهم فاسقون**﴾ خرجوا عن الطاعة، فالباقي منهم قسى قلبه، وغير الباقي خرج عن الطريق.

[١٨] لكن الله لا يترك دينه بين ذاك وهذا بل إنه كما يحيي الأرض بعد اليباب يحيي الدين بعد الاندراس ﴿**اعلموا أن الله يحيي الأرض بعد موتها**﴾ بسبب المطر، وكيفية تحديد الله للأمم، أن الأمة السابقة تأخذها النخوة والغرور فلا تعمل صحيحاً بل تأخذ في عمل الباطل، وأمة جديدة صفت أذهانها عن الرواسب والأنانيات تأخذ في العمل

قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقْرَضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١٩﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ

ولذا تأخذ مكان الأمة السابقة، وقد جعل الإسلام الشورى في الحكم وكون رئيس الدولة المجتهد العادل المخالف لهواه المطيع لأمر مولاه ضامناً لبقاء الإسلام غصناً طرياً ﴿**قد بينا لكم الآيات**﴾ الدلالات الواضحات على صحة ما نقول ﴿**لعلكم تعقلون**﴾ تفهمون ما نقول وتعملون بموجبه.

[١٩] وحيث كان الكلام قبلاً في إعطاء المال في سبيل الله رجع الكلام إليه فقال سبحانه ﴿**إن المصدقين والمصدقات**﴾ أصله «تصدق» أي أعطى الصدقة ﴿**و**﴾ الذين ﴿**أقرضوا الله قرضاً حسناً**﴾ وإنما سميت الصدقة صدقة، لأنها تصديق لله في ما يقول فالمعنى إن الذي صدق الله في إعطاء المال، وقد جعله قرضاً حسناً ﴿**يضاعف لهم**﴾ عند رد ما أعطوا ﴿**ولهم أجر كريم**﴾ وقد تقدم تفسير الآية، فلا حاجة إلى التكرار.

[٢٠] نعم إنه لا ينفع مجرد إعطاء الصدقة إذا لم يكن كامل الإيمان ولذا قال سبحانه ﴿**والذين آمنوا بالله ورسله**﴾ فشرط القبول الإيمان بالله والرسول وإعطاء الصدقة قرضاً حسناً بإخلاص وبدون ربا ﴿**أولئك هم الصديقون**﴾ لكثرة تصديقهم لأنهم صدقوا بالله وبكل أنبيائه وبما وعد من إعطائهم المال، إلى غير ذلك ﴿**والشهداء عند ربهم**﴾ لأن الله يجعلهم شهداء على غيرهم، في الآخرة، إذ الإنسان العادل المعتدل

لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (٢٠) اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا

في سلوكه يكون شاهداً على غيره ﴿**لهم**﴾ لهؤلاء المؤمنين المصدقين ﴿**أجرهم**﴾ أجر الصديقين ﴿**ونورهم**﴾ ونور الصديقين ﴿**و**﴾ بالعكس منهم ﴿**الذين كفروا وكذبوا بآياتنا**﴾ فلم يؤمنوا ولم يعملوا صالحاً ﴿**أولئك أصحاب الجحيم**﴾ لا أجر حسن لهم، ولا نور لهم، بل يعيشون في حر النار وظلام الدخان.

[٢١] ﴿**اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب**﴾ فهي صورة للآخرة الحقيقية، مثل ملاعب الأطفال التي هي صورة للأشياء الحقيقية في الدنيا ﴿**ولهو**﴾ تلهي الإنسان عن الواقع الذي هو الآخرة ﴿**وزينة**﴾ مظهر لا واقع له كما يتزين الإنسان ببعض المظاهر التي لا تغير من الواقع شيئاً ﴿**وتفاخر بينكم**﴾ يفتخر إنسان على إنسان ثان وبالعكس وهي حالة بدائية يتصف بها الأطفال ﴿**وتكاثر في الأموال والأولاد**﴾ حيث كل ما يريد أن يكون أكثر من الأخر مالاً وولداً بينما لا يفيد أيهما له فائدة حقيقية، ثم كل ذلك إلى الزوال والفناء ﴿**كمثل غيث**﴾ مطر ﴿**أعجب الكفار**﴾ الزراع ﴿**نباته**﴾ قد أعجبوا بها وفرحوا بما لا دوام له ولا بقاء ﴿**ثم يهيج**﴾ هيجاناً إلى الفساد ﴿**فتراه مصفراً**﴾ قد ذهب رونقه وجماله ﴿**ثم يكون حطاماً**﴾ يابساً متكسراً فالدنيا في نضارتها الخلابة ثم سرعة زوالها مثل

وَفِي ٱلْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿٢١﴾ سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ

النبات السريع الزوال هذا حال زينة الدنيا، في الدنيا ﴿**وفي الآخرة عذاب شديد و**﴾ في قبال أهل الدنيا المغترين بها، الذين مثل دنياهم ما تقدم أهل الآخرة الذين لهم ﴿**مغفرة من الله ورضوان**﴾ غفران لذنوبهم ورضى الله لهم الذي هو أعظم شيء لأنه نعمة روحية، والنعمة الروحية أفضل من النعمة الجسدية ﴿**وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور**﴾ لمن أقبل إليها ولم يطلب بها الآخرة الباقية، فإنها تغر الإنسان عن منافعه الواقعية.

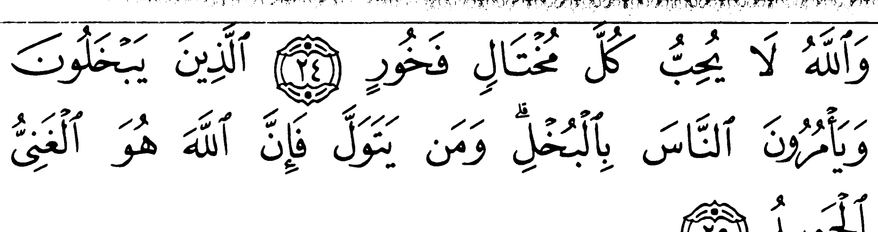
[٢٢] وإذا عرف الإنسان حال الدنيا وحال الآخرة فليسرع إلى تحصيل الآخرة ﴿**سابقوا**﴾ من المسابقة تحريض لطلب الآخرة بكل سرعة ممكنة، كما يفعل المسابق في الدنيا ﴿**إلى مغفرة من ربكم**﴾ أسباب الغفران ﴿**وجنة عرضها**﴾ سعتها ﴿**كعرض السماء والأرض**﴾ كسعتهما والفضاء وسيع جداً حتى أن كل السماء والأرض في جنبه كحبة أرز في صحراء غير متناهية ﴿**أعدت**﴾ هُيأت تلك الجنة ﴿**للذين آمنوا بالله ورسله**﴾ فليتشوق إليها كل عاقل ﴿**ذلك**﴾ إعطاء الجنة للمؤمنين ﴿**فضل الله**﴾ لأنه ليس بواجب عليه سبحانه إعطاء الجنة للمطيع ﴿**يؤتيه من يشاء**﴾ ومشيئته تابعة للصلاح الذي لا يكون إلا للمؤمن العامل بالصالحات ﴿**والله**

ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٢﴾ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٣﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ

ذو الفضل العظيم﴾ الذي لا يعرف مدى فضله وسعة رحمته إلا هو.

[٢٣] وحيث ذكر سبحانه وجوب القتال والإنفاق وشوق المطيعين بالجنان وأنذر المخالفين بالعقاب جاء دور بيان أن ما يصيب الإنسان عامة «والتي منها ما يصيبه حال الحرب من الموت والجرح وما أشبه» مثبوت عند الله ولا يضيع أجره **﴿ما أصاب من مصيبة في الأرض﴾** كالجرب وأكل الجراد المزارع **﴿ولا﴾** حرف عطف **﴿في أنفسكم﴾** كالمرض والجرح **﴿إلا﴾** مكتوبة **﴿في كتاب﴾** ثابتة في علمنا، ولعل المراد بالكتاب اللوح المحفوظ **﴿من قبل أن نبرأها﴾** برأه بمعنى خلقه **﴿إن ذلك﴾** كناية في كتاب من قبل تكونه **﴿على الله يسير﴾** لأنه سبحانه عالم بما كان وبما يكون وبما هو كائن إلى الأبد، والإشكال بأنه إذا كان سبحانه عالماً لا يمكن تخلفه، واضح الجواب: لأن العلم ليس بعلة، كما أنك إذا علمت بطلوع الشمس غداً لا تكون علة لطلوعها.

[٢٤] وقد ذكرنا ذلك لكم بأنه ثابت في الكتاب **﴿لكيلا تأسوا﴾** لا تحزنوا **﴿على ما فاتكم﴾** من نعم الدنيا، وقد ذكر سبحانه تبعاً لذلك «وإن لم يكن الكلام منصباً عليه» قوله **﴿و﴾** لكي **﴿لا تفرحوا بما آتاكم﴾** أعطاكم من نعيم، فإن من علِمَ أن كل شيء يصيبه من خير وشر مقدر



كائن، لايحزن حزناً متزايداً ولا يفرح فرحاً متزايداً، لأن شدة الحزن والفرح، لمحزن ولمفرح فجائي، والعلم يرفع الفجائية ألا ترى أن من يعلم أن غداً يموت ولده لا يحزن مثل حزن من لا يعلم بذلك بل يفاجأ به، إلى غير ذلك ثم المراد «عدم الحزن المخرج للإنسان إلى الجزع» و «عدم الفرح المخرج للإنسان إلى البطر» ﴿**والله لايحب كلّ مختال**﴾ من اختال بمعنى تكبّر ﴿**فخور**﴾ كثير الفخر، فإن من فرح فرحاً متزايداً بالنعمة، ولم يخف عواقبها أخذ في الكبر والافتخار على الناس.

[٢٥] ومن هو المختال الفخور؟ هم ﴿**الذين يبخلون**﴾ عن الإنفاق فإن الذين يفرحون الفرح المطغي ممن لا يؤمن بأن المال جاءه بكتابة من الله، وإنه زائل وله حساب دقيق «للتلازم بين العلم بالكتابة وبين التواضع والإنفاق، كالتلازم بين عدم هذا العلم وبين التكبر والبخل».

﴿**ويأمرون الناس بالبخل**﴾ إذ البخلاء يريدون بخل الناس حتى لاتقع اللائمة عليهم ﴿**ومن يتول**﴾ عن أوامر الله سبحانه فلا ينفق ﴿**فـ**﴾ ليعلم أن الله أمر بالإنفاق لمصلحته هو لا لأن الله بحاجة إلى المال و﴿**إن الله هو الغني**﴾ إذ غنى ما سوى الله مجازي ﴿**الحميد**﴾ فلا يحتاج إلى الإنفاق ليكثر المؤمنين حتى يحمدوه، فإنه المحمود بالذات سواء حمده أحد أولا.

لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ

[٢٦] ومن كونه غنياً حميداً يتبين أن إرساله الرسل والأحكام ليس لأجل حاجته وإنما لأجل الناس أنفسهم ﴿**لقد أرسلنا رسلنا بالبينات**﴾ بالأدلة البينة الواضحة ﴿**وأنزلنا معهم الكتاب**﴾ جنس الكتب السماوية ﴿**و**﴾ أنزلنا ﴿**الميزان**﴾ ومعنى إنزاله تقريره، وحيث إنه من مكان رفيع معنىً، صح «أنزلنا» كما يقال هذه الأمور من فوق إذا كانت من الرئيس، والمراد كل ميزان للحق والباطل، سواء كانت موازين للأخلاق أو المعاملات أو المعاشرات أو الموازين الحديدية ونحوها، لأن كل الموازين العلمية والعملية إنما قررها الله سبحانه، ﴿**ليقوم الناس بالقسط**﴾ أي بالعدل، فلا يظلم أحد أحداً، فالكتاب لبيان الحكم، والميزان لتطبيق ذلك الحكم على المجتمع، ومن يخالف؟ فله الحديد ﴿**وأنزلنا الحديد**﴾ إنزاله باعتبار تقديره في السماء ﴿**فيه بأس شديد**﴾ بالقتل والقصاص ونحوهما ﴿**و**﴾ فيه ﴿**منافع للناس**﴾ لأن كثيراً من الحاجات تكون بسبب الحديد ﴿**وليعلم الله**﴾ عطف على فيه بأس، أي أنزلنا الحديد للبأس والمنفعة والامتحان ﴿**من ينصره و**﴾ ينصر ﴿**رسله**﴾ إذ استعمال الأسلحة الحديدية في مجاهدة الكفار نصرة لله ولرسله ﴿**بالغيب**﴾ في حال كون الله، أو الرسول غائباً عنهم إذ الناس لا يرون الله، وكثيراً لا يرون الرسول، ومع ذلك يجاهدون، ومعنى «ليعلم الله» أي ليتحقق علمه في الخارج، لكن ليس طلب الله للنصرة عن

إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٦﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ ۖ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٢٧﴾ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ ۖ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ

احتياج فـ ﴿**إن الله قوي**﴾ على إهلاك من يريد ﴿**عزيز**﴾ لا يحتاج إلى أحد، وإنما أمر بالجهاد لينتفع الناس بالجهاد في دنياهم وآخرتهم.

[٢٧] ثم ذكر سبحانه بعض أفراد الرسل ﴿**ولقد أرسلنا نوحاً وإبراهيم وجعلنا في ذريتهما النبوة**﴾ فقد كان بعض ذريتهما أنبياء ﴿**والكتاب**﴾ أعطينا بعضهم كتباً جديدة ﴿**فمنهم**﴾ من ذريتهما ﴿**مهتد**﴾ اهتدى بالأنبياء ﴿**وكثير منهم**﴾ أي من أولئك الذرية ﴿**فاسقون**﴾ خارجون عن طاعة الله سبحانه.

[٢٨] ﴿**ثم**﴾ بعد نوح وإبراهيم عليهما السلام ﴿**قفينا**﴾ أتبعنا ﴿**على آثارهم**﴾ آثار ذينك النبيين وذريتهما ﴿**برسلنا**﴾ أرسلنا رسولاً بعد رسول ﴿**وقفينا**﴾ أتبعنا ﴿**بعيسى ابن مريم**﴾ رسلاً أيضاً ولعل عدم ذكر موسى عليه السلام أن الكلام في الأول والوسط والآخر فنوح أول «نبي» وإبراهيم وسط كذلك، وعيسى آخر قبل نبي الإسلام صلى الله عليه وآله وسلم ﴿**وآتيناه**﴾ أعطيناه ﴿**الإنجيل**﴾ فلماذا ينكر النصارى الرسول وقرآنه أليس أرسل لهم رسولاً وأعطوا كتاباً؟ ﴿**وجعلنا في قلوب الذين اتبعوه**﴾ اتباعاً حقيقياً

رَأۡفَةٗ وَرَحۡمَةٗ وَرَهۡبَانِيَّةً ٱبۡتَدَعُوهَا مَا كَتَبۡنَٰهَا عَلَيۡهِمۡ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ رِضۡوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوۡهَا حَقَّ رِعَايَتِهَاۖ فَـَٔاتَيۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۡهُمۡ أَجۡرَهُمۡۖ وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ ﴿٢٨﴾

لا من حرّف دينه وغيّر كتابه ﴿**رأفة**﴾ صفة داخل القلب ﴿**ورحمة**﴾ صفة داخل القلب إذا ظهرت في الخارج ﴿**ورهبانية**﴾ مشتقة من رهبة بمعنى ما يظهر من العبادة على الجوارح من آثار رهبة القلب، ورهبان جمع راهب ﴿**ابتدعوها**﴾ بدعة حسنة أي طبقوا أمر الله بالرهبة على كيفية خاصة فإن للإنسان أن يطبق الكلي على بعض أفراده، مثل أن يطبق قوله ﷺ «الوقوف على حسب ما وقفها أهلها» على بناء المدرسة الدينية، فهي مجعولة باعتبار جعل الله الكلي، ومبتدعة باعتبار الفرد، ولذا لا منافات بين قوله تعالى «جعلنا» وبين قوله «ابتدعوها» ﴿**ما كتبناها**﴾ الرهبانية ﴿**عليهم**﴾ بالصيغة الخاصة ﴿**إلا ابتغاء رضوان الله**﴾ فإنهم لما ابتدعوها كتبناها عليهم بالصيغة الخاصة لأجل طلب رضى الله، فهي مجعولة بالكلية، مبتدعة بالصيغة الخاصة، مكتوبة بعد ذلك لأجل رضى الله ﴿**فما رعوها حق رعايتها**﴾ لأن الرؤوف الرحيم الراهب يجب عليه التصديق بما جاء من عند الله، لكنهم بكفرهم بمحمد ﷺ، وباختلافهم قبل ذلك، وجعلهم الإله ثالث ثلاثة، وبتحريفهم الإنجيل، وبغشوتهم على الناس، تركوا رعاية تلك الأوصاف ﴿**فآتينا**﴾ أعطينا ﴿**الذين آمنوا منهم**﴾ أي بقوا على إيمانهم، لأن للإنسان في كل يوم إيماناً جديداً ﴿**أجرهم**﴾ الذي يستحقون بسبب بقائهم على إيمانهم ﴿**وكثير منهم فاسقون**﴾ خارجون عن طاعة الله.

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٩﴾ لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَـٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّن فَضْلِ

---

[٢٩] ﴿**يا أيها الذين آمنوا**﴾ بألسنتهم ﴿**اتقوا الله**﴾ في أعمالكم ﴿**وآمنوا برسوله**﴾ بمحمد ﷺ إيماناً صادقاً لا يشوبه النفاق، إذا آمنتم بالرسول إيماناً صادقاً ﴿**يؤتكم**﴾ يعطكم الله ﴿**كفلين**﴾ أي نصيبين ﴿**من رحمته**﴾ نصيباً لأجل إيمانكم بالله، ونصيبا لأجل إيمانكم برسوله والمراد أيها المؤمنون بعيسى عليه السلام آمنوا بمحمد ﷺ فيعطيكم الله رحمة لأجل إيمانكم بعيسى عليه السلام ورحمة لأجل إيمانكم بمحمد ﷺ ﴿**ويجعل لكم نوراً تمشون به**﴾ بين الناس فإن الإنسان المحكّم عقله والمتبع لله ورسوله يكون له نور يعرف به الحق من الباطل فيحكمه الناس في أمورهم ويستشيرون منه في أعمالهم كمن عنده المصباح في الليل المظلم حيث يستنير الناس بنور مصباحه ﴿**ويغفر**﴾ الله ﴿**لكم**﴾ ذنوبكم ﴿**والله غفور**﴾ كثير الغفران ﴿**رحيم**﴾ بعباده فيغفر ذنوبهم، ويعطيهم الجنة من رحمته.

[٣٠] يقال في العرف «إن المطلب كذا، حتى لا يعلم زيد» أي أتركه حتى لايعلم، إذا كان إنساناً معانداً لا يريد العلم، والظاهر من الآية هو هذا، أي أن من آمن بالله والرسول له كفلان ونور وغفران ﴿**لئلا يعلم أهل الكتاب**﴾ أي اتركهم حتى لايعلموا، وإنما يتركون لأنهم معاندون، فيبتدئ قوله سبحانه ﴿**أن لا يقدرون على شيء من فضل**

ٱللَّهِۙ وَأَنَّ ٱلۡفَضۡلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ 

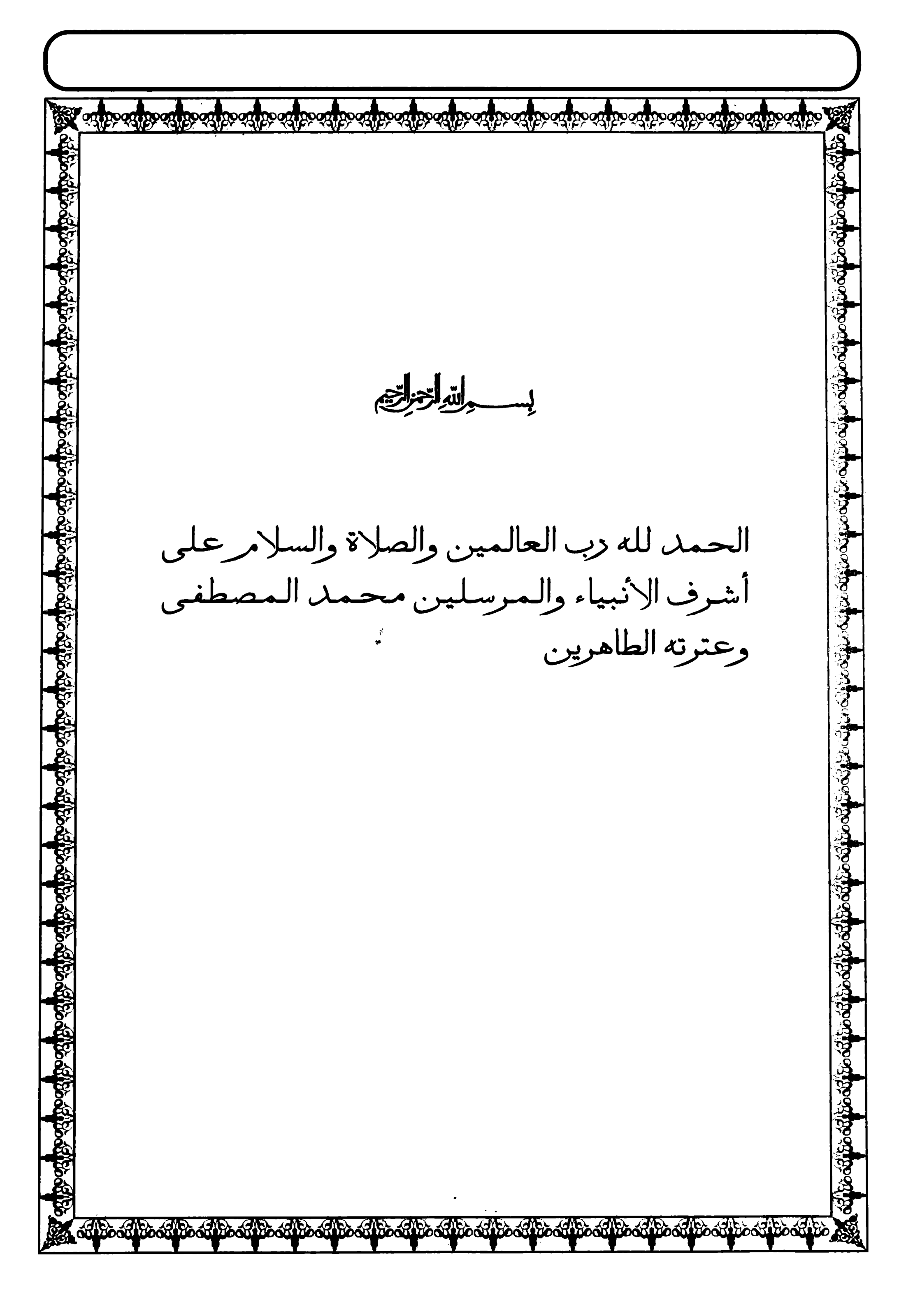
الله﴾ أن مخففة من الثقيلة، واسمه ضمير محذوف، أي أنهم لا يقدرون على إعطاء أو منع شيء من فضل الله، فلا يقدرون على منع فضله «بالكفيلين والنور والغفران» عن المسلمين، كما لا يقدرون على منح مثل هذا الفضل لأنفسهم و«أن لا يقدرون» عطف على «لئلا يعلم» أي أنهم لا يعلمون الحق، ولا يقدرون على صرف الأجر **﴿وأن الفضل بيد الله﴾** وهذا تأكيد لبيان أنهم «لا يقدرون على شيء من فضل الله» **﴿يؤتيه﴾** يعطي الله ذلك الفضل لـ **﴿من يشاء﴾** ممن اتبع أوامره **﴿والله ذو الفضل العظيم﴾** نسأله سبحانه أن يمنحنا من ذلك الفضل وهو المستعان.



الجزء الثامن والعشرون

من آية (١) سورة المجادلة

إلى آية (١٣) سورة التحريم



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين محمد المصطفى وعترته الطاهرين



سُورة المجَادلة

مدنية/ آياتها (٢٣)

سميت السورة بهذا الاسم لاشتمالها على فعل هذا الباب. وهو قوله «تجادلك» وهي كسائر السور المدنية مشتملة على النظام إلى جنب بيان العقيدة وحيث ختمت سورة الحديد ببيان فضله سبحانه افتتحت هذه السورة بذكر مصداق من مصاديق فضله، وذلك تلبية الله لرغبة المرأة التي جاءت الرسول تجادل في زوجها، بأن جعل لها مخرجاً من تلك المشكلة التي وقعت فيها، ببيان حكم الظهار.



[١] ﴿بسم الله الرّحمن الرّحيم﴾ نبتدئ باسم الإله المستحق لجميع المحامد وأنواع التعظيم، ففي الابتداء باسمه أداء لحقه في التقديم، وإتيان بمقتضى عظمته، الرحمن الرحيم الذي يتفضل بالرحم على كل شيء، وعلى كل أحد، فهو «يعطي من سأله» و «يعطي من لم يسأله ومن لم يعرفه، تحنناً منه ورحمة».

قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢﴾

[٢] ﴿**قد سمع الله قول**﴾ المرأة ﴿**التي تجادلك**﴾ أي تراجعك وتتكلم معك يا رسول الله ﴿**في**﴾ أمر ﴿**زوجها**﴾ واسم المرأة «خولة» واسم زوجها «أوس» ﴿**وتشتكي إلى الله**﴾ حالها وما نزل من المكروه ﴿**والله يسمع تحاوركما**﴾ أي تخاطبكما أنتما يا رسول الله، ويا أيتها المرأة ﴿**إن الله سميع**﴾ يسمع الكلام ﴿**بصير**﴾ يبصر الأحوال، فانتما باطلاعه سبحانه استماعاً وإبصاراً، قال في المجمع ـ بتلخيص ـ: نزلت الآيات في امرأة من الأنصار من خزرج. واسمها «خولة» وزوجها «أوس» وذلك أنها كانت حسنة الجسم فرآها زوجها ساجدة في صلاتها، فلما انصرفت أرادها، فأبت عليه، فغضب عليها، وكان امرءاً فيه سرعة ولمم، فقال لها: أنت عليّ كظهر أمي، ثم ندم على ما قال، وكان الظهار من طلاق أهل الجاهلية، فقال لها: ما أظنكِ إلا وقد حرمتِ عليّ، فقالت: لاتقل ذلك وأتِ رسول الله ﷺ فاسأله؟

فقال: إني أجد أني أستحي من أن أسأله عن هذا. قالت: فدعني أسأله؟ فقال: سليه فأتت النبي ﷺ فقالت: يا رسول الله إن زوجي أوس بن الصامت تزوجني وأنا شابة غنية ذات مال وأهل حتى إذا أكل مالي وأفنى شبابي، وتفرق أهلي وكبر سني ظاهر مني، وقد ندم فهل من شيء يجمعني وإياه فتنعشني به؟ فقال: ما أراكِ إلا حرمت عليه ـ أراد ﷺ الحرمة الموقتة التي تحل بالكفارة ـ فقالت: يا رسول الله والذي أنزل عليك الكتاب ما ذكر طلاقاً، وأنه أبو ولدي وأحب الناس إلي؟ فقال ﷺ: **ما أراك إلا حرمت عليه، ولم أؤمر في شأنك بشيء**

﴿ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمۡۖ إِنۡ

فجعلت تراجع رسول اللهﷺ، وإذا قال لها رسول اللهﷺ حرمت عليه هتفت وقالت: اشكو إلى الله فاقتي وحاجتي وشدة حالي، اللّهمّ فأنزل على لسان نبيك، وكان هذا أول ظهار في الإسلام. وقالت: انظر في أمري جعلني الله فداك.

فنزل على الرسولﷺ الوحي، ثم قالﷺ: ادعي زوجك فتلا عليه رسول اللهﷺ «قد سمع الله» إلى تمام الآيات، فقالﷺ: هل تستطيع أن تعتق رقبة؟ قال: إذاً يذهب مالي كله والرقبة غالية وأني قليل المال فقالﷺ: هل تستطيع أن تصوم شهرين متتابعين؟ فقال: والله يا رسول الله إني إذا لم آكل ثلاث مرات كلّ بصري وخشيت أن تعشى عيني، قال: فهل تستطيع أن تطعم ستين مسكيناً؟ قال: لا والله إلا أن تعينني على ذلك يا رسول الله، فقالﷺ: إني معينك بخمسة عشر صاعاً وإني داع لك بالبركة، فأعانهﷺ بذلك[1].

[٣] ثم بين سبحانه ذم «الظهار» بقوله ﴿**الذين يظاهرون منكم**﴾ أيها المؤمنون ﴿**من نسائهم**﴾ أي يقولون لهن: «أنت كظهر أمي» فإن هذا اللفظ كان طلاقاً في الجاهلية، ومعناه: أنه كما يحرم علي ظهر الأم، كذلك تحرمين أيتها الزوجة علي، وقد أقر الإسلام كون هذا اللفظ محرّماً للزوجة، إذا اجتمع فيه شروط الطلاق، من كونه بمحضر العدلين وما أشبه، إلا أنه حرم الطلاق بهذا النحو وجعل الرجوع فيه الكفارة ﴿**ما هنّ**﴾ أي لسن الزوجات، المقول فيهن هذا القول ﴿**أمهاتهم**﴾ فإن مجرد اللفظ لا يجعل من الزوجة أماً ﴿**إن**

(١) مجمع البيان: ج٩ ص٤٠٨.

أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔى وَلَدْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا۟ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ۚ

أمهاتهم﴾ أي أمهات هؤلاء المظاهرين **﴿إلا﴾** النساء **﴿اللائي﴾** جمع التي **﴿ولدنهم﴾** فلا أمومة حقيقية بين المظاهِر والمظاهَر منها **﴿وإنهم ليقولون منكراً من القول﴾** فإن تشبيه الزوجة بالأم قول منكر، فلا شرعية لهذا القول، وكل شيء لايكون له حقيقة ولا شرعية فهو باطل **﴿وزوراً﴾** أي كذباً، فإن المظاهِر إذا جعل ظهر امرأته كظهر أمه، ولم يكن بحقيقة كان كذباً، لكن لاييأس القائل من عفو الله وفضله فإن أبواب التوبة مفتوحة **﴿وإنّ الله لعفو﴾** كثير العفو عن العصاة **﴿غفور﴾** لذنوبهم. وأما الفرق أن العفو هو عدم العقاب، وذلك لايلازم الستر بحيث لا يكون ذنبه ظاهراً، كما نرى أن الحكومات قد تعفوا عن مجرم لكن جرمه مذكور ثابت في الدفتر، أما الغفران فهو الستر للمعصية، حتى تمحى عن ديوانه سبحانه.

[٤] ثم جاء السياق ليبين حكم الظهار وما يترتب عليه **﴿والذين يظاهرون من نسائهم﴾** المظاهرة مشتقة من «الظهر» والإتيان بـ «من» لأن الظهر يبتدأ من جانب المرأة **﴿ثم يعودون لما قالوا﴾** بأن يريدون الرجوع إلى النساء ونقض كلامهم السابق المقتضي للتحريم **﴿فـ﴾** اللازم عليهم لحلية الوطي ورجوع الزوجة كما كانت **﴿تحرير رقبة﴾** أي يجعل عبداً مملوكاً حراً بالعتق، وإنما قيل له رقبة بعلاقة الجزء والكل **﴿من قبل أن يتماسا﴾** أي يمس أحد الزوجين الآخر، وهو كناية عن الجماع، فإن الجماع لايحل قبل التحرير

ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٤﴾ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ۖ فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ۚ ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ وَتِلْكَ

﴿**ذلكم**﴾ ذا إشارة إلى التحرير و«كم» خطاب، أي أن وجوب التحرير عليكم مما ﴿**توعظون به**﴾ والوعظ هو التحرير عن عملٍ يوجب العقاب، فإن ترك التحرير والمماسة موجب للعقاب لأنه عصيان ﴿**والله بما تعملون**﴾ من المماسة بدون الكفارة أو بعدها ﴿**خبير**﴾ عالم مطلع، فلا تفعلوا ما يوجب عليكم عقاباً.

[٥] ﴿**فمن**﴾ ظاهر من زوجته وأراد العود و ﴿**لم يجد**﴾ أي لم يتمكن من عتق رقبة إما لعدم وجود المال لاشترائه، أو لعدم وجود أصل العبد ـ كما في زماننا ـ ﴿**فـ**﴾ كفارته ﴿**صيام شهرين متتابعين**﴾ التتابع هو التوالي ومجيء الواحد بعقب الآخر، أي أن يصوم شهرين بلا فصل إفطار يوم بين أيام الشهرين ﴿**من قبل أن يتماسا**﴾ أي يجامعا الرجل والمرأة ﴿**فمن**﴾ ظاهر و ﴿**لم يستطع**﴾ العتق ولا الصيام وأراد الرجوع ﴿**فـ**﴾ عليه ﴿**إطعام ستين مسكيناً**﴾ أي فقيراً بأن يشبع بطنهم أو يعطي لكل واحد ثلاثة أرباع من الحنطة ـ مثلاً ـ ﴿**ذلك**﴾ الحكم بالكفارة للمظاهِر المريد للعود إنما شرع ﴿**لتؤمنوا بالله ورسوله**﴾ أي ليرسخ الإيمان في قلوبكم فإن رسوخ الإيمان إنما هو بتتابع الأعمال والتكاليف، فإن التكاليف توقظ القلب وتقوي الملكة فيه، وحيث إن الإيمان كسائر الصفات شيء تدريجي يحدث آناً بعد آن، صح الإتيان بالفعل باعتبار المستقبل، كقوله «اهدنا الصراط» وقد تقدم تفصيله ﴿**وتلك**﴾ الكفارات

حُدُودُ ٱللَّهِ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ كُبِتُوا۟ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ وَقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٦﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ

﴿**حدود الله**﴾ أي هي الحدود للإيمان التي قررها الله سبحانه، فلا يسمح للمؤمن الخروج منها، بالعصيان، كما لا يسمح للإنسان أن يخرج من حدود المدينة نحو الأعداء ﴿**وللكافرين**﴾ بحدود الله المنكرين لها ﴿**عذاب أليم**﴾ مؤلم موجع.

[٦] ﴿**إن الذين يحادون الله**﴾ حاده بمعنى خالفه ﴿**ورسوله**﴾ بأن لا يمتثلون أوامرهما ﴿**كبتوا**﴾ أي أذلوا وأخزوا، من الكبت بمعنى الإذلال ﴿**كما كبت الذين من قبلهم**﴾ من الكفار والمشركين، وإذلالهم بنصرة الإسلام عليهم في الدنيا، وعذابهم في الآخرة ﴿**وقد أنزلنا آيات**﴾ أي علائم وأدلة ﴿**بينات**﴾ واضحات ظاهرات، على أصول العقيدة، وأحكام الشريعة، فلا عذر للشخص أن يقول لم أعرف ولم أدر ﴿**وللكافرين**﴾ بالآيات ﴿**عذاب مهين**﴾ يهينهم ويذلهم.

[٧] والعذاب المهين إنما هو في ﴿**يوم يبعثهم الله**﴾ أي يحييهم ويحشرهم ﴿**جميعاً**﴾ فلا يُترك منهم أحد، ولا مفر لأحد من بأسه سبحانه ﴿**فينبئهم**﴾ أي يخبرهم الله ﴿**بما عملوا**﴾ إخباراً لأجل العذاب، فإن المجرم يعد جرمه أولاً ثم يعاقب لئلا يقول عذبت ظلماً ﴿**أحصاه الله**﴾ أي عدده سبحانه في كتابه وحفظه ﴿**ونسوه**﴾ فإن الغالب إن الإنسان ينسى أعماله التي عمل بها ﴿**والله على كل

شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٧﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ

شيء شهيد﴾ أي شاهد حاضر، فيعرف كل ما يصدر من الإنسان، ويأمر الملائكة بتثبيته، ليجازي به يوم القيامة.

[٨] ﴿**ألم تر**﴾ أي ألم تدرك، فإن الرؤية قد تكون بالعين، وقد تكون بالقلب، والمخاطب هو الرسول أو كل من يتأتى منه العلم ﴿**أن الله يعلم ما في السماوات وما في الأرض**﴾ لا يغيب عنه شيء من الأشياء؟ فكيف لايعلم أعمال الجاحدين والكافرين؟ والاستفهام تقريري، وهو بمثابة الدليل لقوله «ينبئهم بما عملوا» و «الله على كل شيء شهيد» ثم أكد عموم علمه سبحانه بأنه شامل حتى للأسرار التي يفضي بها الإنسان إلى إنسان سرّاً وفي إخفات ﴿**ما يكون من نجوى**﴾ «من» زائدة لعموم النفي، و «النجوى» هو الحديث السري يدور بين اثنين أو أكثر في منأى من الناس ﴿**ثلاثة**﴾ أي ثلاثة أشخاص ﴿**إلا هو**﴾ سبحانه ﴿**رابعهم**﴾ يسمع ما يقولون.

﴿**ولا**﴾ نجوى ﴿**خمسة**﴾ أشخاص ﴿**إلا هو سادسهم**﴾ يسمع كلامهم ﴿**ولا أدنى من ذلك**﴾ بأن يكون المتناجين اثنين ﴿**ولا أكثر**﴾ بأن يكونوا أكثر من خمسة ﴿**إلا هو**﴾ سبحانه ﴿**معهم**﴾ بالعلم والاطلاع ﴿**أين ما كانوا**﴾ من بقاع الأرض، وغيرها ﴿**ثم ينبئهم**﴾ أي يخبرهم ﴿**بما عملوا**﴾ في الدنيا ﴿**يوم القيامة**﴾ ليجازيهم عليه فإن

إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ ﴿٨﴾ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُواْ عَنِ ٱلنَّجۡوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُواْ عَنۡهُ وَيَتَنَٰجَوۡنَ بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَمَعۡصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوۡكَ بِمَا لَمۡ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ

الثواب والعقاب بعد الإخبار تكريماً للمثاب، وإهانة للمعاقب، ﴿**إن الله بكل شيء عليم**﴾ يعلم الأشياء كلها فلا يخفى عليه شيء.

[٩] ﴿**ألم تر**﴾ يا رسول الله ﴿**إلى الذين نهوا عن النجوى**﴾ قال ابن عباس: إنها نزلت في اليهود والمنافقين كانوا يتناجون فيما بينهم وينظرون إلى المؤمنين ويتغامزون بأعينهم فإذا رأى المؤمنون نجواهم قالوا: ما نراهم إلا وقد بلغهم عن أقربائنا وإخواننا الذين خرجوا في السرايا قتل أو مصيبة أو هزيمة، فكان ذلك يحزنهم فشكوا إلى الرسول صلى الله عليه وآله وسلم فنهى الرسول عن النجوى فلم ينتهوا عن ذلك، فأنزل سبحانه هذه الآية[١] ﴿**ثم يعودون لما نهوا عنه**﴾ غير مبالين بالنهي.

﴿**ويتناجون**﴾ فيما بينهم ﴿**بالإثم**﴾ فيكنّ بعضهم لبعض آثامة ﴿**والعدوان**﴾ أي التعدي على الناس والتعدي عن الحق ﴿**ومعصية الرسول**﴾ بأن كان بعضهم يوصي بعضاً بعصيان الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ﴿**وإذا جاءوك**﴾ هؤلاء المتناجون بالباطل ﴿**حيوك**﴾ يا رسول الله ﴿**بما لم يحيك به الله**﴾ أي تحية ظاهرها مليح وباطنها قبيح، فقد كان اليهود يقولون للرسول عوض التحية «السام عليك» والسام هو الموت، يخفون ذلك موهمين أنهم قالوا «السَّلام عليك» وقد كان فريق آخر يقول في تحيته «أنعم صباحاً، وأنعم مساءً» وهي تحية أهل الجاهلية،

---

(١) مجمع البيان: ج٩ ص٤١٣ .

وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا تَنَٰجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَٰجَوْا۟ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَٰجَوْا۟ بِٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٠﴾

فنهاهم الرسول ﷺ عن ذلك وقال «قد أبدلنا الله بخير من ذلك تحية أهل الجنة السَّلام عليكم» والاستفهام في قوله «ألم تر» للإنكار، أي لماذا يفعل هؤلاء هكذا ﴿**ويقولون**﴾ هؤلاء اليهود والمنافقون ﴿**في أنفسهم**﴾ أي بعضهم لبعض أو خلجاناً في صدورهم ﴿**لولا يعذبنا الله بما نقول**﴾ أي لو كان محمد ﷺ نبياً حقاً، فهلا ينزل الله علينا العذاب؟ أليس ذلك دليل على أنه ليس بنبي؟ ويأتي الجواب لاستفهامهم التعنتي هذا ﴿**حسبهم**﴾ أي كافيهم عقوبة ﴿**جهنم**﴾ التي ﴿**يصلونها**﴾ أي يدخلونها يوم القيامة ﴿**فبئس المصير**﴾ أي المرجع والمحل لسكناهم، أما عدم تعذيب الله فلأنه لا يعذب الله في الدنيا كل عاص، وإلا ما ترك على ظهرها من دابة.

[١٠] ﴿**يا أيها الذين آمنوا إذا تناجيتم**﴾ بعضكم مع بعض ﴿**فلا تتناجوا بالإثم والعدوان ومعصية الرسول**﴾ أي لاتفعلوا كفعل المنافقين واليهود ـ كما سبق ـ ﴿**وتناجوا بالبر**﴾ أي بأفعال الخير، كأن يناجي أحدهم الآخر بأن ينفق في سبيل الله ﴿**والتقوى**﴾ كأن يناجيه في ترك معصية أو فعل طاعة مما يتقي به عن عذاب الله ﴿**واتقوا الله**﴾ أي خافوا عقابه ﴿**الذي إليه تحشرون**﴾ أي إلى حسابه وجزائه تنتقلون بعد المبعث والحياة الآخرة.

إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُواْ فِى ٱلْمَجَٰلِسِ

[١١] ﴿**إنما النجوى**﴾ الذي يتعاطاه الكفار والمنافقون ﴿**من**﴾ أعمال ﴿**الشيطان**﴾ وإيحاءاته، وإنما يوحي إلى أوليائه بذلك ﴿**ليحزن الذين آمنوا**﴾ بأن يظنوا أن المتناجين ينقلون فيما بينهم خبراً محزناً، أو يدبرون مؤامرة، أو يستهزئون بالمؤمنين أو ما أشبه ﴿**وليس**﴾ نجواهم ﴿**بضارهم**﴾ أي لا يضر المؤمنين ﴿**شيئاً**﴾ فإن النجوى ليس إلا عملاً باطلاً لغواً ﴿**إلا بإذن الله**﴾ فإن الله مطّلع على نجواهم، فإن اقتضت حكمته أن لا يحول بينهم وبين ما دبروا من المكر، كان يضرهم، أما إذا لم يرد الله سبحانه ضرر المؤمنين حال بينهم وبين ما يدبرون بالنجوى، فاللازم أن يتوجه المؤمنون إلى الله بالضراعة ليدفع كيد الكفار والمنافقين عنهم ﴿**وعلى الله فليتوكل المؤمنون**﴾ بأن يكلوا أمرهم إليه سبحانه، فإنه نعم الحفيظ.

[١٢] وإذا فرغ السياق من بيان أدب من آداب المجالس، بذكر بعض الأمور المرتبطة بالنجوى، بمناسبة تحدث المرأة مع الرسول حول الظهار، الذي كان حواراً في المجلس ومما يحدث في المجالس، جاء السياق ليبين أدباً آخر من آداب المجالس فقال سبحانه:

﴿**يا أيها الذين آمنوا إذا قيل لكم**﴾ والقائل أيّ شخص كان ﴿**تفسحوا**﴾ أي اتسعوا ﴿**في المجالس**﴾ بأن تجمعوا أنفسكم في

فَٱفۡسَحُواْ يَفۡسَحِ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ

الجلوس، حتى يتسع المكان لشخص آخر ﴿**فافسحوا**﴾ ووسعوا المكان ﴿**يفسح الله لكم**﴾ أي يوسع الله لكم الأمر، أو يوسع الله لكم منازلكم في الجنة، فقد ورد أن المسلمين كانوا يتنافسون على المجلس في محضر رسول الله ﷺ فإذا رأوا من جاءهم مقبلاً ضنوا بمجلسهم عند رسول الله ﷺ أن يفسح بعضهم لبعض ﴿**وإذا قيل**﴾ لكم ﴿**انشزوا**﴾ أي قوموا عن أماكنكم ليجلس غيركم، من «نشز» بمعنى ارتفع ﴿**فانشزوا**﴾ أي فقوموا، قالوا وكان سبب نزول هذا أن الرسول ﷺ كان يكرم أهل بدر، وذات يوم والناس آخذون مكانهم حول الرسول ﷺ ورد بعض أهل بدر فلم يفسح الجالسون لهم مكان، فقال الرسول ﷺ لبعض الجالسين قوموا حتى يجلس أهل بدر، فقاموا لكن الكراهية بدت في وجوههم واستغل المنافقون ذلك فقالوا لمن أقيم: أهكذا عدل الرسول ﷺ حيث يقيمكم ليجلس غيركم ذلك المكان؟ فنزل ذلك[١].

﴿**يرفع الله الذين آمنوا منكم**﴾ إيماناً صحيحاً من الأعماق ﴿**والذين أوتوا العلم درجات**﴾ في الدنيا وفي الجنة، فهذا الامتثال للرسول بالقيام حسب أمره موجب لرفعتكم في الدنيا والآخرة، وفيه تناسب حسن بين قيامهم من المجالس، ورفعة درجتهم، والدرجات إنما هي بحسب مراتب الإيمان والعلم، ﴿**والله بما تعملون**

(١) مجمع البيان: ج٩ ص٤١٧ .

خَبِيرٌ ﴿١٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً

خبير﴾ أي عالم مطلع فيجازيكم حسب أعمالكم.

[١٣] وبعد ذلك جاء السياق لبيان أدب آخر من آداب مجلس الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وفيه تلميح إلى أن ذلك أدب عام، فقد سبق منا أن أمثال هذه الآيات إنما أتي بها للإلماع إلى الخطوط العامة في الأحكام والآداب، وإن لم يكن لها مصاديق خارجية بعد موت الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ومن يرتبط بتلك الآيات مباشرة ﴿**يا أيها الذين آمنوا إذا ناجيتم الرسول**﴾ أي أردتم الإسرار في أذنه، فإن الفعل يأتي بمعنى الإرادة كهذه الآية، كما أن الإرادة تأتي بمعنى الفعل كقوله (إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً)(١) و(يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ)(٢) وما أشبه ذلك ﴿**فقدموا بين يدي نجواكم**﴾ أي أمام النجوى ﴿**صدقة**﴾ فقد كان الأشراف ـ في زعمهم ـ يأتون إلى الرسول يناجونه بالترهات، إظهاراً لفضلهم ـ كما جرت عادة أمثالهم إلى هذا اليوم ـ يريدون إراءة الناس ان الرسول صلى الله عليه وآله وسلم يسمع لقولهم ويرعاهم فجاءت هذه الآية رادعة لهم، وفيه الأمر بتعظيم الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وإنفاع الفقراء، والنهي عن الإفراط في السؤال، والميز بين المخلص والمنافق، ومحب الآخرة ومحب الدنيا، فلما سمعوا بهذه الآية انتهوا، باستثناء الإمام أمير المؤمنين عليه السلام، فصرف ديناراً عشرة دراهم، وأخذ يعطي درهماً للفقير ويناجي، ودرهماً آخر ويناجي، وهكذا حتى أنفق العشرة(٣).

---

(١) الأحزاب: ٣٤.

(٢) البقرة: ١٨٦.

(٣) راجع بحار الأنوار: ج٣٥ ص٣٧٨.

ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ ۚ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٣﴾ أَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ ۚ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ

﴿**ذلك**﴾ أي إعطاء الصدقة قبل النجوى ﴿**خير لكم**﴾ لأن فيه تحصيل الثواب، وأداء الواجب، والدلالة على السخاء، وتعظيم الرسول ﷺ ﴿**وأطهر**﴾ لأن التصدق يطهّر النفس من الرذيلة والشح ﴿**فإن لم تجدوا**﴾ ما تتصدقون به قبل النجوى ﴿**فإن الله غفور**﴾ يستر عليكم ترك ذلك ﴿**رحيم**﴾ بكم فلا يكلّفكم التصدق بل يجوّز لكم النجوى بدون الصدقة، وستره سبحانه إنما هو بعدم إيجابه التصدق، حتى يأثم المناجي بدون التصدق، فلا يقال: لا مجال لقوله «غفور» في المقام، إذ الغفران عن الذنب ولا ذنب في المقام؟ ولما نزلت هذه الآية لم يتقدم أحد من النجوى إلا الإمام كما سبق، فأنزل الله سبحانه رفع الحكم بقوله:

[١٤] ﴿**أأشفقتم**﴾ أي هل خفتم من الفقر أيها المسلمون ﴿**أن تقدموا بين يدي نجواكم**﴾ للرسول ﷺ ﴿**صدقات**﴾؟ وكان الإتيان بالجمع باعتبار كون «النجوى» جنساً شاملاً لأفراد متعددة، فلكل فرد صدقة، وهذا استفهام توبيخي، بأنه كيف تركتم هذه الفضيلة للخوف من الفقر مع العلم أن الصدقة لم تكن محددة، فكان يكفي القليل منها ﴿**فإذ لم تفعلوا**﴾ أي لم تتصدقوا، وتركتم النجوى بخلاً من الإنفاق ﴿**وتاب الله عليكم**﴾ بأن عفى تقصيركم في هذه الفضيلة ﴿**فـ**﴾ اعملوا بسائر أحكام الإسلام فقد رفع عنكم هذا الحكم فلا مانع بعد ذلك من النجوى بدون الصدقة ﴿**أقيموا الصَّلاة**﴾ بالإتيان بها بحدودها ﴿**وآتوا الزكاة**﴾ أي

وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿١٤﴾ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوۡاْ قَوۡمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مَّا هُم مِّنكُمۡ وَلَا مِنۡهُمۡ

أعطوها ﴿وأطيعوا الله ورسوله﴾ في سائر أوامرهما ﴿والله خبير بما تعملون﴾ فأنتم بعينه وتحت اطلاعه، فلا تعملوا ما يخالف أوامره حتى تستحقوا العقاب.

قال الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: إن في كتاب الله لآية ما عمل بها أحد قبلي ولا يعمل بها أحد بعدي «يا أيها الذين آمنوا إذا ناجيتم الرسول» كان لي دينار فبعته بعشرة دراهم فكلما أردت أن أناجي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قدمت درهماً(١)، أقول: قوله «ءأشفقتم» لا ينافي عدم وجود النسخ في القرآن، لأن الظاهر كون الأمر بتقديم الصدقة في الآية السابقة، كان امتحانياً من قبيل رؤيا إبراهيم عليه السلام، ولإظهار فضيلة الإمام عليه السلام ـ كذا يقول المنكرون للنسخ ـ.

[١٥] وبمناسبة ما تقدم من النجوى، أتى السياق ليبين احترام السر وأنه لايجوز إظهاره للأعداء ﴿ألم تر﴾ يا رسول الله، أو أيها الرائي ﴿إلى الذين تولوا﴾ بالصداقة والوداد ﴿قوماً﴾ من الكفار ﴿غضب الله عليهم﴾ قال في المجمع: والمراد به قوم من المنافقين كانوا يوالون اليهود ويفشون إليهم أسرار المؤمنين(٢) ﴿ما هم﴾ أي ليس هؤلاء المنافقين ﴿منكم﴾ أيها المؤمنون ﴿ولا منهم﴾ أي من الكفار، بل

---

(١) بحار الأنوار: ج١٧ ص٢٩ .

(٢) مجمع البيان: ج٩ ص٤١٩ .

وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٥﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًاۖ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ ٱتَّخَذُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧﴾ لَّن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔاۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ

مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ﴿و﴾ إذا قيل لهم لم تنافقوا ﴿**يحلفون**﴾ لتبرئة ساحة أنفسهم ﴿**على الكذب**﴾ بأنا لا نساير الكفار ولا ننافق ﴿**وهم يعلمون**﴾ أنهم كاذبون في قولهم وأنهم منافقون.

[١٦] ﴿**أعد الله**﴾ أي هيأ الله ﴿**لهم**﴾ أي لهؤلاء المنافقين ﴿**عذاباً شديداً**﴾ في الدنيا بالخزي والفضيحة وفي الآخرة بالنار والنكال ﴿**إنهم ساء ما كانوا يعملون**﴾ من النفاق وموالاة أعداء الله تعالى.

[١٧] ﴿**اتخذوا**﴾ هؤلاء المنافقون الذين حلفوا لكم ﴿**أيمانهم**﴾ جمع يمين وهي الحلف ﴿**جنة**﴾ أي سترة وترساً يدفعون بها عن نفوسهم التهمة والظنة إذا ظهر منهم النفاق ﴿**فصدوا**﴾ أنفسهم، والناس الضعاف الإيمان ﴿**عن سبيل الله**﴾ أي الطريق الموصل إلى مرضاته ﴿**فلهم عذاب مهين**﴾ يذلهم ويهينهم جزاءً على نفاقهم.

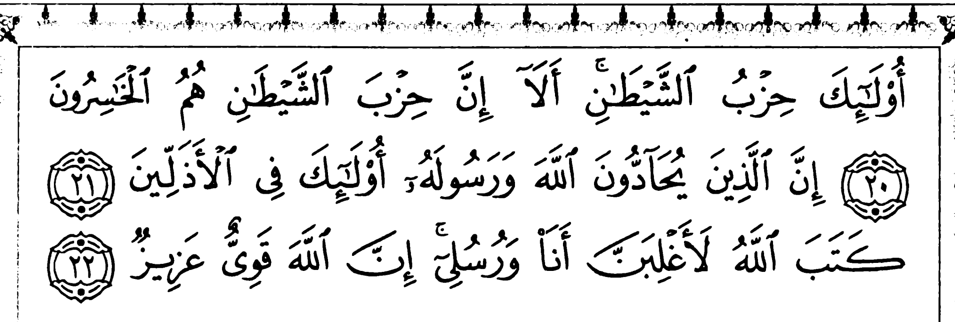
[١٨] ﴿**لن تغني عنهم**﴾ أي لا تفيد هؤلاء المنافقين في دفع عذاب الله عنهم ﴿**أموالهم**﴾ التي جمعوها ﴿**ولا أولادهم**﴾ الذين خلفوهم ﴿**من الله**﴾ أي من بأس الله ونكاله ﴿**شيئاً**﴾ فلا تدفعان عنهم ولو بعض العذاب ﴿**أولئك**﴾ المنافقون ﴿**أصحاب النار**﴾ الملازمون لها، كالصاحب الذي يلازم صاحبه ﴿**هم**

فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٨﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿١٩﴾ اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ

فيها خالدون﴾ إلى الأبد، وقد روي أن الآيات نزلت في منافق كان يجالس اليهود ويأخذ عنهم نفاقاً، فلما اطلع الرسول(صلى الله عليه وآله) على أمره نهاه، فقال للرسول(صلى الله عليه وآله) انه يأخذ عنهم صفته(صلى الله عليه وآله) الموجودة في التوراة، وحلف على ذلك كذباً وتغطية لأمره، لكن الوحي فضحه وفشى أمره.

[١٩] هم أصحاب النار في **﴿يوم يبعثهم الله﴾** أي هؤلاء المنافقين يحييهم بعد الممات للحساب والجزاء **﴿جميعاً﴾** بغير أن يترك منهم أحداً وهذا التأكيد لئلا يحتمل أحد أنه يترك، كما هو الشأن في الدنيا إذ يترك بعض القوم ـ جهلاً أو نسياناً ـ في الدعوات العامة وما أشبهها **﴿فيحلفون له﴾** أي الله سبحانه، بأنهم كانوا مؤمنين في دار الدنيا **﴿كما يحلفون لكم﴾** في الحال ظانين أن الله لا يعلم أمرهم، وينطلي عليه كذبهم بمجرد الحلف **﴿ويحسبون﴾** أي يظنون **﴿أنهم على شيء﴾** بأن أيمانهم الكاذبة تروج هنا، كما كانت تروج في الدنيا لدى المؤمنين **﴿ألا إنهم هم الكاذبون﴾** في كلامهم ويمينهم فلا تروج الأيمان المكذوبة هناك، بل يعرفون بالكذب والدجل.

[٢٠] **﴿استحوذ عليهم﴾** على هؤلاء المنافقين **﴿الشيطان﴾** أي استولى عليهم، والاستحواذ هو الاستيلاء، من «حاذ» بمعنى «حاز» كالذي يحوز شيئاً لنفسه ويختاره لشخصه **﴿فأنساهم ذكر الله﴾** حتى أنهم



لايذكرونه سبحانه حتى يخافوا منه، فينقلعوا عن النفاق والعصيان ﴿أولئك﴾ المنافقون ﴿حزب الشيطان﴾ جماعته وأتباعه ﴿ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون﴾ الذين خسروا دنياهم وآخرتهم، فإن الدنيا تزول، ولهم في الآخرة النار.

[٢١] ثم انتقل السياق من المنافقين، إلى كل مخالف لله ورسوله ﴿ان الذين يحادون الله﴾ أي يتجاوزون حدوده بالمخالفة ﴿ورسوله﴾ فيما جاء من الأحكام ﴿أولئك في الأذلين﴾ فلا أحد أذل منهم في الدنيا والآخرة، وكأن الأذلون فرقة سابقة على الإسلام، فهؤلاء المحادون في زمن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم أو بعده داخلون في أولئك، وكأن هؤلاء أكثر ذلاً وهواناً من العصاة من المؤمنين، وبهذا الاعتبار عبر عنهم بالأذل، أو أنهم أذل من الكافر غير المحادد.

[٢٢] وهل يظن هؤلاء المحادون أن عملهم يثمر لهم نجاحاً، أو للإسلام هبوطاً؟ كلا! فقد ﴿كتب الله﴾ في اللوح المحفوظ وقرر ﴿لأغلبن أنا ورسلي﴾ على كل محاد ومخالف، وقد جرب العالم صدق هذه المقالة، فالآخذون بزمام العالم حتى في هذا اليوم المظلم هم الرسل كموسى عليه السلام وعيسى عليه السلام ومحمد صلى الله عليه وآله وسلم، ولهم من الأتباع أكثر من نصف أهل العالم، ومناهجهم سارية ـ قليلاً أو كثيراً ـ في كل العالم ﴿إن الله قوي﴾ على نصر أنبيائه ﴿عزيز﴾ غالب في سلطانه، فلا يتمكن أحد على أن يغلبه أو يغلب رسله، وقد روي أن المسلمين لما

لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ

رأوا ما يفتح الله عليهم من القرى قالوا: ليفتحن الله علينا الروم وفارس فقال المنافقون: أتظنون أن فارساً والروم كبعض القرى التي غلبتم عليها؟ فأنزل الله هذه الآية[1].

[٢٣] ثم جاء السياق ليبين وظيفة المسلم أمام الكافر، وأنه يلزم عليه أن لايواد الكافر مهما كان، خلافاً لأولئك المنافقين الذين كانوا يوادون الكافرين ﴿**لا تجد**﴾ يا رسول الله، أو أيها المسلم ﴿**قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر**﴾ إيماناً صحيحاً ﴿**يوادون**﴾ الموادة المحابة، من باب «المفاعلة» ﴿**من حاد الله**﴾ أي خالف الله ﴿**ورسوله**﴾ بترك أوامرهما والكفر بهما، والمعنى: انه لا تجتمع موالاة الكفار مع الايمان، فمن والاهم فليس بمؤمن، وان أظهر الإيمان ﴿**ولو كانوا**﴾ أي كان الذين يحادون الله ورسوله ﴿**آباءهم**﴾، أي آباء المؤمنين ﴿**أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم**﴾ بأن قربت قرابتهم، فإن الكفر يقطع قرابة المؤمن بالكفار وإن بقي رجحان بعض أقسام الصلة، إذا كان الكافر أباً أو أماً أوما أشبه، كما قال سبحانه، (وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَى أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلاَ تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفاً)[2] ﴿**أولئك**﴾ الذين لا يوادون الكفار ﴿**كتب**﴾ الله أي أثبت ﴿**في قلوبهم**

---

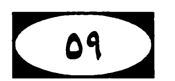
(١) مجمع البيان: ج٩ ص٤٢١.

(٢) لقمان: ١٦.

ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٢٣﴾

الإيمان﴾ بالألطاف الخفية بهم حيث رآهم في طريق الحق.

﴿وأيدهم﴾ أي قوّاهم الله سبحانه **﴿بروح منه﴾** أي بروح من عنده تعالى، فإن المؤمن الصامد توجد فيه روح قوية توجب التزام أحكام الله سبحانه، حتى أن أقوى أسباب الكفر لاتتمكن من زحزحته **﴿ويدخلهم﴾** الله في الآخرة **﴿جنات تجرى من تحتها﴾** أي من تحت أشجارها وقصورها **﴿الأنهار﴾** من عسل وخمر ولبن وماء حال كونهم **﴿خالدين﴾** أي دائمين باقين **﴿فيها﴾** أي في تلك الجنات **﴿رضي الله عنهم﴾** حيث علم فيهم الإيمان الراسخ والعمل الصالح **﴿ورضوا عنه﴾** بما منحهم من الفضل والإيمان في الدنيا والجنان في الآخرة **﴿أولئك﴾** المتصفون بتلك الصفات **﴿حزب الله﴾** جماعته وأتباعه ـ في مقابل حزب الشيطان ـ **﴿ألا﴾** فلينتبه السامع **﴿إنّ حزب الله هم المفلحون﴾** الذين فازوا وظفروا بخير الدنيا وسعادة الآخرة، قالوا نزلت هذه الآية في «حاطب» حيث كاتب أهل مكة يخبرهم بإقبال الرسول ﷺ نحوهم للفتح، بعد ما كان الرسول ﷺ نهى أصحابه أن يفشوا الخبر، فلما عوتب في ذلك، اعتذر بأن أهله في مكة فأراد أن يكون له يد على أهلها، حتى لو كانت الدائرة على المسلمين راعى أهل مكة يده عندهم، فلا يؤذوا زوجته وأهله.



سُورة الحشر

مدنية/ آياتها (٢٥)

سميت السورة بهذا الاسم لاشتمالها على لفظة «الحشر» وهي كسائر السور المدنية تشتمل على النظام بالإضافة إلى قضايا العقيدة وحيث ختمت سورة المجادلة بذكر حزبي الرحمن والشيطان افتتحت هذه السورة بذكر غلبة حزب الرحمن على حزب الشيطان.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿١﴾

[١] ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ باسم الإله نبتدئ السورة، لتكون معلّمة بعلامة الإيمان ويكون تعليماً للمسلمين: بلزوم أن يبدأوا أعمالهم باسمه سبحانه، الرحمن الرحيم الذي خلقه، بالخلقة أولاً، واللطف والتربية والعناية ثانياً.

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِۚ

[٢] ﴿سبح لله﴾ أي نزهه سبحانه عن النقائص، ويجوز في سبح تعديه بلا واسطة نحو «سبحه» وتعديه مع الواسطة نحو «سبح له» باعتبار أن التسبيح له لا لغيره ﴿ما في السماوات وما في الأرض﴾ والمراد الظرف والمظروف، والمراد بالتسبيح إما التكويني بأن كل شيء يدل على وجود الإله وسائر صفاته، دلالة الأثر على المؤثر، أو التسبيح بألسنتها التي لا نفقهها، كما قال:

كل شيء في الكون يشعر لكن
منع الناس عن شعور المشاعر

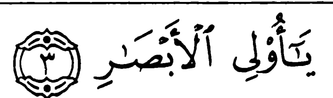
﴿وهو العزيز﴾ الغالب في سلطانه ﴿الحكيم﴾ يفعل الأشياء حسب الحكمة والصلاح.

[٣] ﴿هو﴾ الله سبحانه ﴿الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب﴾ كل أهل الكتاب كفار، لكن منهم من آمن بالرسول، فخرج عن الكفر، ومنهم من لم يؤمن فيقال له «كفر» إما باعتبار استمراره في الكفر من قبيل «اهدنا»، أو باعتبار أنه كان إلى قبل بعثة الرسول مؤمناً ـ إذ كان تكليفه هو دينه ـ فإذ جاء الرسول ولم يؤمن صار كافراً والمراد بهم هنا يهود «بني النضير» ﴿من ديارهم﴾ بأن سلط المؤمنين عليهم وأيدهم، حتى يتمكنوا من إخراجهم ﴿لأول الحشر﴾ الحشر هو الجمع من مكان

مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُواْ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُواْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُواْ

إلى مكان آخر ـ ولعل المراد لأول مرة في إخراج اليهود من المدينة بصورة جماعية ـ ثم بعد ذلك أخرج غيرهم، حتى لا يبقى في جزيرة العرب اليهود إطلاقاً، فإنهم أهل مؤامرة ودسائس، فأراد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم إخلاء البلاد منهم ومن كيدهم، لئلا يدبروا المؤامرات على الدين الجديد.

﴿**ما ظننتم**﴾ أيها المسلمون ﴿**أن يخرجوا**﴾ أي اليهود بهذه السرعة لما كنتم تعلمون من شدة بطشهم وشوكتهم ﴿**وظنوا**﴾ أي اليهود ﴿**أنهم مانعتهم**﴾ أي تمنعهم من المسلمين ﴿**حصونهم**﴾ جمع حصن وهي القلعة التي يتحصن فيها الإنسان خوفاً من العدو المهاجم ﴿**من**﴾ بأس ﴿**الله**﴾ بأنه سبحانه إذا أراد بهم شيئاً وقفت حصونهم أمام إرادته ﴿**فأتاهم الله**﴾ أي جاءهم أمر الله بالخراب لقلاعهم، والتشريد لهم ﴿**من حيث لم يحتسبوا**﴾ أي لم يظنوا أنهم يمكن أن يؤتوا من تلك الجهة بأن ألقى الرعب في قلوبهم وأرخى قواهم، وكسر شوكتهم ومنعتهم ﴿**وقذف**﴾ أي ألقى الله سبحانه ﴿**في قلوبهم الرعب**﴾ أي الخوف، فإنهم لما رأوا كثرة شوكة المسلمين انهارت قواهم، وأول الهزيمة هو: الرعب وخور القوى وانهيار الأعصاب ﴿**يخربون**﴾ أي أولئك اليهود ﴿**بيوتهم بأيديهم**﴾ فقد كانوا يهدمون بيوتهم لئلا ينتفع بها المؤمنون ﴿**وأيدي المؤمنين**﴾ فقد كان المؤمنون يخربون بيوتهم ليصلوا إليهم ويهزموهم ﴿**فاعتبروا**﴾ واتعظوا



﴿يا أولي الأبصار﴾ أي أصحاب العقول، بأن الله سبحانه إذا حاده جماعة كيف يهزمهم ويغلب عليهم، حتى أنهم بأنفسهم يهدمون بيوتهم التي هي أعز ما يكون لديهم، والمراد بالاعتبار النظر في الأمور ليرى الإنسان بها أموراً أخر لها ارتباط وثيق بها.

وقد ذكر المفسرون أن هذه الآيات نزلت في «بني النضير» وتفصيل قصتهم على ما في «قادة الإسلام»[1]: قتل أحد أصحاب الرسول نفرين ممن كانا في عهد الإسلام، وكان قتله لهما اشتباهاً، فأراد النبي ﷺ أن يستقرض ديتهما من بني النضير، وهم يهود قرب المدينة، عددهم زهاء الألف، فأظهروا قبول إقراض الدية، ودعوا الرسول ﷺ إلى داخل الحصن.

لكن الرسول ﷺ أبى واتكأ على جدار الحصن، وهناك نزل عليه جبرئيل وأخبره بأنهم عازمون على الغدر به، وتبين الرسول ﷺ ذلك من حركاتهم، حيث إنهم تآمروا بينهم أن يذهب أحدهم على سطح الجدار الذي كان الرسول ﷺ متكئاً عليه فيلقي على رأس الرسول ﷺ حجراً حتى يقضي على حياته الشريفة.

قفل الرسول راجعاً إلى المدينة، قبل أن يأخذ القرض، وأرسل رسولاً إلى بني النضير إذ نقضتم ميثاقكم وأردتم الغدر، فاخرجوا من بلادي ولقد أمهلتكم عشرة أيام، وحينذاك لم يجدوا مناصاً عن الخروج إلا أن بعض المنافقين وعدهم النصر، ونهاهم عن الخروج، فلم يخرجوا، وأخبروا النبي ﷺ إنهم لن يخرجوا فليفعل

---

(١) للمؤلف.

﴿وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ ﴿٤﴾﴾

الرسول ﷺ ما بدا له وعزموا على القتال، فخرج الرسول ﷺ مع جمع من أصحابه، ورايته بيد الإمام أمير المؤمنين عليه السلام وحاصروا حصونهم وأخذوا يحتلون بيوتهم، فكانت اليهود تنسحب من دار إلى دار، وكلما انسحبت هدّمت البناء الذي في معرض الاحتلال واستماتوا، فأراد الرسول ﷺ قطع آمالهم عن أراضيهم، فأمر بقطع نخيلهم. يئس اليهود عن النجدة، وأرسلوا إلى النبي ﷺ رسولاً يطلبون منه أن يسمح لهم بالخروج جميعاً، فأذن لهم الرسول ﷺ، بشرط أن لا يحملوا أكثر مما تحمِله إبلهم فقط، لكنهم لم يقبلوا، وبقوا مستميتين، ولما ضيق عليهم الحصار قبلوا شرط الرسول ﷺ، لكن الرسول جزاهم عن عنادهم، فلم يسمح لهم بحمل شيء من أموالهم، وإنما أذن لهم بالخروج بدون حمل أثقالهم، فقبلوا الشرط وخرجوا وحدهم، وخلوا أموالهم كلها للإسلام، فقسم الأموال بين المهاجرين الأولين، وأعطى منها لنفرين من الأنصار، وبجلاء بني النضير استراح المسلمون من عدو لدودٍ لهم، كان يكيد لاجتثاث الإسلام من جذوره.

[٤] ﴿**ولولا أن كتب الله**﴾ أي حكم الله ﴿**عليهم**﴾ أي على بني النضير ﴿**الجلاء**﴾ أي الانتقال من ديارهم، والجلاء عن أوطانهم ﴿**لعذّبهم في الدنيا**﴾ بأن أمر الرسول بقتلهم وإهلاكهم كما أنه سبحانه فعل ذلك ببني قريظة ﴿**ولهم في الآخرة عذاب النار**﴾ لما تمادوا في كفرهم وعصيانهم.

ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۖ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٥﴾ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿٦﴾

[٥] ﴿**ذلك**﴾ الإخراج لهم عن ديارهم، وإعداد النار لهم في الآخرة ﴿بـ﴾ سبب ﴿**أنهم شاقوا الله**﴾ أي عادوه ﴿و﴾ حاربوا ﴿**رسوله ومن يشاق الله**﴾ بالمخالفة والمحاربة ﴿**فإن الله شديد العقاب**﴾ أي فليستعد للعقاب الشديد، لأنه تعالى «أرحم الراحمين في موضع العفو والرحمة، وأشد المعاقبين في موضع النكال والنقمة».

[٦] ﴿**ما قطعتم**﴾ أيها المسلمون ﴿**من لينة**﴾ أي نخلة كريمة من أنواع النخيل، وإنما سمي لينة للين ثمره، وتقبل سعفه للتصنيع ﴿**أو تركتموها قائمة على أصولها**﴾ أي جذوعها بأن لم تقطعوها ـ فقد قطع المسلمون بعض النخيل لبني النضير وتركوا بعضها قائمة ـ ﴿**فبإذن الله**﴾ فقد تحرج المسلمون عن هذا العمل، بأنه إن لزم القطع فكان ما أبقوا غير جائز، وإن لزم الإبقاء كان ما قطعوا غير جائز، ولذا جاء البيان ليبرر موقفهم ويطمئن قلوبهم، فإن ما احتيج إلى قطعه في الحرب والتنكيل قطع، وما لم يحتج إلى قطعه أبقي، ﴿**وليخزي**﴾ أي يذل الله ﴿**الفاسقين**﴾ أي أولئك اليهود بهذا القطع والإبقاء، فما قطع أورث فيهم حسرة كيف قطع المسلمون ما غرسوه وربوه، وما أبقي أورث فيهم حسرة كيف أبقي حتى ينتفع المسلمون به؟

[٧] ثم يأتي السياق ليبين أحكام الغنيمة التي غنموها في إجلاء بني النضير، بأنها خاصة للرسول ﷺ وأقربائه لأن المسلمين لم يتعبوا لأجلها

وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡهُمۡ فَمَآ أَوۡجَفۡتُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ خَيۡلٖ وَلَا رِكَابٖ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٧﴾

وذلك بخلاف الغنيمة التي تعب المسلمون في تحصيلها، فإنها تقسم خمسة أقسام أربعة منها للمسلمين، وواحدة منها للرسول وأقربائه، وإنما خصص القسم الأول بالرسول وآله، لأنهم لما منعوا من الزكاة احتاجوا إلى سد نفقاتهم وذلك إنما هو بالفيء والخمس، ولأنه لا بد وأن يكون للرسول ﷺ حصة زائدة ليتمكن من إدارة شؤون المسلمين المرتبطة بأمور الدولة ـ كما تخصص لرؤساء الحكومات ـ اليوم ـ حصة معينة من الخزينة لسد نفقاتهم المرتبطة بالشؤون العامة ـ **﴿وما أفاء الله﴾** الفيء هو الغنيمة، وأصله بمعنى الرجوع، وإنما سميت الغنيمة فيئاً، لبيان أنها كانت بيد الكفار غصباً، فرجعت إلى أصحابها الشرعيين وهم المؤمنون الذين خلق الله لهم كل شيء **﴿على رسوله منهم﴾** أي من بني النضير **﴿فما أوجفتم﴾** أيها المسلمون، و «ما» نافية، والإيجاف تسيير الخيل والركاب من وجف يجف، بمعنى تحرك باضطراب، إذ الفتح بالقهر يلازم الاضطراب في الحركة **﴿عليه﴾** أي على ذلك الفيء **﴿من خيل﴾** هي الفرس **﴿ولا ركاب﴾** هي الإبل، أي أنكم لم تحصلوا على تلك الغنيمة بسبب الفتح بخيل أو إبل حتى يكون لكم ذلك الفيء.

﴿ولكن الله يسلط رسله على من يشاء﴾ من الكفار بإيقاع الرعب في قلوبهم حتى يفتح الرسول ﷺ مدنهم بلا حرب ولا تعب **﴿والله على كل شيء قدير﴾** فيتمكن من تسليط الرسل على الكفار بلا حرب.

﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ﴾

[٨] وإذا تمهدت هذه المقدمة ـ وهي أن المسلمين إن لم يتعبوا على هذا الفيء ـ جاء السياق ليذكر حكمه، وانه ليس لهم، وإنما هو للرسول وآله ﴿**ما أفاء الله**﴾ أي ما أرجع الله سبحانه ﴿**على رسوله من**﴾ أموال ﴿**أهل القرى**﴾ الكافرة التي حصل الرسول عليها بدون حرب ﴿**فلله**﴾ تعالى ـ تشريفاً للرسول ـ وإلا فكل شيء له سبحانه ﴿**وللرسول**﴾ بتمليك الله إياه ﴿**ولذي القربى**﴾ أي أهل بيت رسول الله وقرابته، والمراد بهم الأئمة الطاهرون عليهم السلام.

﴿**واليتامى**﴾ جمع يتيم وهو من مات أبوه ﴿**والمساكين**﴾ جمع مسكين وهو الفقير الذي أسكنه الفقر من الحركة ﴿**وابن السبيل**﴾ وهو المنقطع في سفره الذي لا يعرف من أمره شيء، ولذا ينسب إلى الطريق. وقد ثبت أن المراد بهؤلاء السادة من آل الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، ثم بين سبحانه الحكمة في جعل الفيء هكذا بقوله: ﴿**كي لا يكون**﴾ الفيء ﴿**دولة**﴾ وهي اسم للشيء الذي يتداوله القوم فيما بينهم يكون لهذا مرة ولهذا مرة ﴿**بين الأغنياء منكم**﴾ حتى لا يعمل في الفيء ما كان يعمل في الجاهلية، فقد كان إذا وقع غزو أخذ الرؤساء الأموال، ومن المعلوم أن الرؤساء يتداولون المال بينهم بالضيافة والزواج لأبناء بعضهم من بنات بعض، واستقبال بعضهم لبعض وهكذا مما يوجب نقل المال من هذا الرئيس إلى ذاك الرئيس فيبقى الفقراء محرومون، وهذه العلّة أي قوله «لكي» مع العلة السابقة وهي «فما أوجفتم» يتمّان

وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿٨﴾

المطلوب، إذ لا يخلو أمر الفيء بين أن يكون للرؤساء، كالجاهلية، أو للمسلمين كالغنائم، أو للرسول وآله، وإذ قد نفي الأول لأنه يوجب احتكار المال بين الأغنياء، والثاني لأن المسلمين لم يتعبوا في تحصيله حتى يستحقوا شيئاً، لم يبق إلاّ الثالث.

ثم لما كان هذا الحكم شاقّاً عليهم نزل قوله: ﴿**وما آتاكم الرسول**﴾ أي أعطاكم من الأحكام ﴿**فخذوه**﴾ أي تمسكوا به واعملوا بفحواه ﴿**وما نهاكم عنه**﴾ وبين لكم حرمته ﴿**فانتهوا**﴾ عنه ولا ترتكبوه ﴿**واتقوا الله**﴾ أي خافوا عقابه فلا تخالفوه ﴿**إن الله شديد العقاب**﴾ لمن ترك أوامره وخالفه. قال في المجمع ـ ناقلاً ـ إن الآية نزلت في رؤساء المسلمين قالوا له: يا رسول الله خذ صفيك والربع ودعنا والباقي فهكذا كنا نفعل في الجاهلية وأنشدوه

لك المرباع منها والصفايا
وحكمك والنشيطة والفضول

فنزلت الآية فقالت الصحابة سمعاً وطاعة لأمر الله وأمر رسوله(١).

[٩] ثم بين سبحانه وصف الطوائف الأربع من آل الرسول صلى الله عليه وآله الذين خصص بهم الفيء ـ الذي لم يوجف عليه بخيل ولا ركاب ـ وليس ما يأتي من الوصف إلا كحكمة للتشريع حال نزول الآيات لا إنها أوصاف مشروطة دائماً.

(١) مجمع البيان: ج٩ ص٤٣٢ .

لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿٩﴾ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُو الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ

﴿**للفقراء**﴾ بدل لقوله «لذي القربى. .» أو «واليتامى. .» وهذا هو الأوفق بما ثبت من أن الإمام الذي يأخذ الفيء لا يشترط فيه الفقر ـ إلا أن يكون حكمه حال النزول، كما ذكرنا ـ فلا تخصيص ﴿**المهاجرين**﴾ الذين هاجروا من مكة إلى المدينة ﴿**الذين أخرجوا من ديارهم**﴾ أخرجهم الكفار ظلماً وعدواناً ﴿**وأموالهم**﴾ إذ خلفوا أموالهم وراء ظهرهم ﴿**يبتغون**﴾ أي يطلبون هؤلاء المهاجرون ﴿**فضلاً من الله**﴾ بأن يتفضل سبحانه عليهم عوض ما خلفوه وراءهم من الديار والأموال ﴿**ورضواناً**﴾ بأن يرضى عنهم ﴿**وينصرون الله**﴾ أي ينصرون دينه سبحانه ﴿**ورسوله**﴾ بالجهاد بين يديه لإعلاء كلمة الإسلام ﴿**أولئك**﴾ المتصفون بتلك الصفات ﴿**هم الصادقون**﴾ الذين صدقوا في إيمانهم حيث أتوا بمقتضيات الإيمان.

[١٠] وإذ جرى مدح المهاجرين، جاء السياق ليمدح الأنصار، بقوله ﴿**والذين تبوؤا الدار**﴾ يعني المدينة، وهي دار الهجرة، ومعنى «تبوؤا» اتخذوها منزلاً، ومبوءاً، من «باء» بمعنى رجع ويسمى المنزل مبوءاً لأن الإنسان كلما خرج رجع إليه ﴿**والإيمان**﴾ أي تبوؤا الإيمان، فهو كالمنزل الذي يتخذه الإنسان محل استراحة ورجوع، فكلما نزل به أمر رجع إلى الإيمان يستلهمه العلاج والخلاص، أو أن التقدير «آثروا الإيمان» ﴿**من قبلهم**﴾ أي قبل هجرة المهاجرين إلى المدينة، فإن أهل المدينة آمنوا قبل هجرة المهاجرين

يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا

﴿**يحبون من هاجر إليهم**﴾ من مكة وسائر القرى الكافرة ـ وهذا هو خبر «الذين» ـ والمعنى كما أن للمهاجرين المدح بما تقدم، للأنصار المدح بأنهم يحبون المهاجرين ﴿**ولا يجدون**﴾ أي هؤلاء الأنصار ﴿**في صدورهم حاجة مما أوتوا**﴾ أي لا يحسدون المهاجرين من جهة ما آتاهم الرسول ﷺ من غنائم بني النضير، ﴿**ويؤثرون على أنفسهم**﴾ أي يقدمون المهاجرين في الإسكان والإحسان، على أنفسهم ﴿**ولو كان بهم**﴾ أي بهؤلاء الأنصار ﴿**خصاصة**﴾ أي احتياج وفقر، فإنهم يرجحون المهاجرين على حاجة أنفسهم، ومثل هذا الإنسان أعظم ثواباً ممن ينفق وهو غني.

﴿**ومن يوق شح نفسه**﴾ أي من يحفظ بلطف الله سبحانه، من بخل النفس، بأن لا تغلبه نفسه فتبخل ﴿**فأولئك هم المفلحون**﴾ أي الفائزون بالدرجات الرفيعة.

[١١] وإذ فرغ السياق عن المهاجرين والأنصار، جاء ليمدح التابعين لهم بإحسان إلى يوم القيامة بقوله ﴿**والذين جاءوا من بعدهم يقولون**﴾ بأن أسلموا من بعد المهاجرين والأنصار، قولهم هذا ـ مما يدل على رسوخ الإيمان فيهم ـ ﴿**ربنا اغفر لنا**﴾ ذنوبنا ﴿**و**﴾ اغفر ﴿**لإخواننا**

ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ

الذين سبقونا بالإيمان﴾ من المهاجرين والأنصار وغيرهم **﴿ولا تجعل في قلوبنا غلاً﴾** أي حقداً وغشّاً وعداوة **﴿للذين آمنوا﴾** من مضى منهم أو من عاصرناهم وإنما قال «لا تجعل» لبيان أن اللطف منه سبحانه، حتى إذا لم يلطف بإنسان كان معرضاً للغل، والمعنى لا تتركنا على أحوالنا، حتى يستولي علينا الشيطان والنفس، فتكون أنفسنا معرضاً للغل **﴿ربنا إنك رؤوف﴾** بعبادك **﴿رحيم﴾** بهم، وهذا تعليم للمؤمنين كيف ينبغي أن يكونوا تجاه من سبقهم، وتجاه سائر المؤمنين المعاصرين لهم.

[١٢] وإذا سبق مدح المؤمنين وبيان صفاتهم، جاء السياق ليظهر طرفاً من أحوال المنافقين بقوله: **﴿ألم تر﴾** يا رسول الله، أو أيها الرائي، والاستفهام للتعجب والاستنكار **﴿إلى الذين نافقوا﴾** بأن أظهروا الإيمان وأبطنوا الكفر **﴿يقولون لإخوانهم﴾** في الكفر **﴿الذين كفروا من أهل الكتاب﴾** أي كفروا بالرسول ﷺ، والمراد بهم يهود بني النضير **﴿لئن أخرجتم﴾** أي أخرجكم الرسول من دياركم وبلادكم **﴿لنخرجن معكم﴾** موافقة لكم، فلا نبقى في بلادنا، **﴿ولا نطيع فيكم﴾** أي في أمر قتالكم **﴿أحداً﴾** يعنون الرسول ﷺ **﴿أبداً﴾** فإذا أمرنا بقتالكم لانقاتلكم **﴿وإن قوتلتم﴾** بأن قاتلكم الرسول والمسلمون **﴿لننصرنكم﴾**

وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٢﴾ لَئِنْ أُخْرِجُوا۟ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا۟ لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٣﴾ لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِى صُدُورِهِم

أي نكون في جهتكم ضد الرسول والمسلمين ﴿**والله يشهد إنهم**﴾ أي هؤلاء المنافقين ﴿**لكاذبون**﴾ في أقوالهم، فلا يخرجون مع بني النضير ولا يقاتلون معهم فقد قالوا: إن عبد الله بن أبي كان يحرض اليهود على الاستماتة وقتال الرسول ويمنيهم بهذه المواعيد الكاذبة، وكان كما قال الله سبحانه كذب حين أتى وقت العمل.

[١٣] ﴿**لئن أخرجوا**﴾ أي أخرج النبي صلى الله عليه وآله وسلم بني النضير ﴿**لا يخرجون**﴾ أي هؤلاء المنافقون ﴿**معهم**﴾ تشاركاً معهم في الفرار والتخلص ﴿**ولئن قوتلوا**﴾ أي قاتلهم المسلمون ﴿**لا ينصرونهم**﴾ كما زعموا ﴿**ولئن نصروهم**﴾ على فرض مستحيل ﴿**ليولن الأدبار**﴾ أي ينهزمون عن مقابلة الرسول والمسلمين ويسلمون بني النضير طعمة سائغة لحراب المسلمين ﴿**ثم**﴾ اليهود ﴿**لا ينصرون**﴾ على فرض أنهم بقوا معهم ولم يولوا الأدبار، لأن المنافقين أذل من أن يتمكنوا من المقاومة أمام الرسول وكتائب المسلمين المجاهدة.

[١٤] ثم يأتي السياق ليبين أن المنافقين خائفون مَن المسلمين أشد الخوف فكيف يتمكنون من نصرة اليهود في قبال المسلمين؟ ﴿**لأنتم**﴾ أيها المسلمون ﴿**أشد رهبةً**﴾ أي خوفاً ﴿**في صدورهم**﴾ أي صدور هؤلاء المنافقين، أو اليهود، وإنما قال «في صدورهم» لأن الصدر مكان

مِّنَ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَفۡقَهُونَ ﴿١٤﴾ لَا يُقَٰتِلُونَكُمۡ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرٗى مُّحَصَّنَةٍ أَوۡ مِن وَرَآءِ جُدُرِۭۚ بَأۡسُهُم بَيۡنَهُمۡ شَدِيدٞۚ تَحۡسَبُهُمۡ جَمِيعٗا وَقُلُوبُهُمۡ شَتَّىٰۚ

القلب والقلب مبعث النفس التي تحمل الخوف والاطمئنان ﴿**من الله**﴾ فهم لا يخافون من الله قدر ما يخافون منكم، لأنهم يرونكم ولا يرون الله سبحانه، ولم يتمكن الإيمان في قلوبهم حتى يخافونه، ﴿**ذلك**﴾ أي شدّة خوفهم منكم ﴿**بـ**﴾ سبب ﴿**أنهم قوم لا يفقهون**﴾ أي لايعقلون ولا يعرفون عظمته سبحانه، ومن لم يعرف الملك لم يهبه.

[١٥] ثم بين سبحانه أن قتال اليهود للمسلمين ليس مثل سائر الحروب، فإنهم لشدة خوفهم من المسلمين واختلاف الكلمة فيما بينهم لا جرأة لهم على المقاتلة السافرة، وذلك مما يشجع المسلمين على القتال ﴿**لا يقاتلونكم**﴾ أيها المسلمون، هؤلاء اليهود ﴿**جميعاً**﴾ أي في حال اجتماعهم ـ وذلك لبيان شدة ضعفهم حتى أن جميعهم لا يتمكنون من القتال إلا بالكيفية الآتية ـ أو المراد بضمير الفاعل: اليهود والمنافقون، وجميعاً لتأكيد ذلك ﴿**إلا في قرى محصنة**﴾ أي لا يبرزون لحربكم إلا وهم متحصنون بالقرى ذوات الحصون والامتناع ﴿**أو من وراء جدر**﴾ جمع جدار، يرمونكم بالنبل والحجارة وما أشبه.

﴿**بأسهم بينهم شديد**﴾ يعني أن عداوة بعضهم لبعض شديدة، فلا ائتلاف بينهم ولا اتحاد، حتى تتفق قلوبهم ويشجعوا في مقاتلتكم ﴿**تحسبهم**﴾ أي تظنهم يا رسول الله، أو أيها الرائي ﴿**جميعاً**﴾ أي متفقين متراصين ﴿**و**﴾ الحال ليسوا كذلك بل ﴿**قلوبهم شتى**﴾ جمع

ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿١٥﴾ كَمَثَلِ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٦﴾

شتيت كمرضى ومريض، والشتيت هو المتفرق، أي أن قلوبهم متفرقة ﴿**ذلك**﴾ الذي ذكر في وصفهم ﴿بـ﴾ سبب ﴿**أنهم قوم لا يعقلون**﴾ ما فيه الرشد مما فيه الغي، ومن لا يعقل يكون بما ذكر له من الصفة، وهذه الصفات في اليهود إنما تولدت من منهجين ينهجون عليهما الأول: ـ زعمهم بأنهم شعب الله المختار. والثاني: تكالبهم على المادة، فإن الاتفاق وسائر الفضائل إنما تتولد من التواضع وتحكيم الروحيات في الأمور، فإذا زعم كل إنسان أنه فاضل لم يرضخ لغيره مما يسبب التشتيت، وإذا اتجه الإنسان نحو المادة لم تهذب نفسه حتى ينبع منها الخير والفضيلة، ولذا نرى عبر التاريخ، اليهود بين معتد، وبين مطارد، إن صار لهم شيء اعتدوا ثم جاء من يطاردهم، وهكذا دواليك، وقد رأينا في عصرنا قصة اعتدائهم في «ألمانيا» ومطاردة «هتلر» لهم.. ثم اعتدائهم في المسلمين، وأخذت السحب تتجمع هنا وهناك لمطاردتهم.

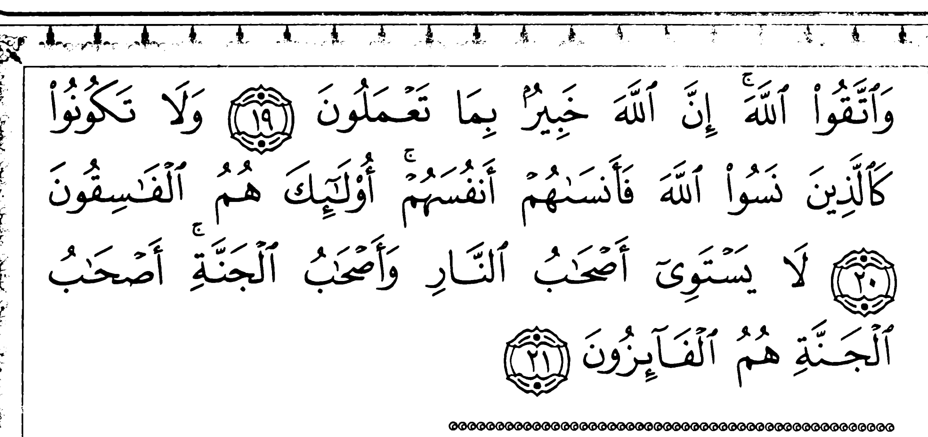
[١٦] ومثل بني النضير ﴿**كمثل الذين من قبلهم قريباً**﴾ وهم بنو قينقاع الذين نقضوا عهد الرسول فأمرهم ﷺ بالخروج ﴿**ذاقوا وبال أمرهم**﴾ أي عاقبة عملهم السيئة، و ﴿**لهم عذاب أليم**﴾ أي مؤلم موجع في الآخرة، وقد كان عبد الله بن أُبَيّ المنافق وعدهم النصر، فلم ينصرهم، كما غر بني النضير وخذلهم حين التحموا بجيش المسلمين.

كَمَثَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ إِذۡ قَالَ لِلۡإِنسَٰنِ ٱكۡفُرۡ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّنكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٧﴾ فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِي ٱلنَّارِ خَٰلِدَيۡنِ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ

[١٧] فكان مثله ﴿**كمثل الشيطان**﴾ في تغريره ثم خذلانه وتسليمه إلى عذاب الله ﴿**إذ قال للإنسان اكفر**﴾ بأن وسوس إليه وزين الكفر في نظره حتى أطاعه فكفر ﴿**فلما كفر**﴾ وخالف الله سبحانه بما استحق به عذابه ﴿**قال**﴾ الشيطان ﴿**إني بريء منك**﴾ أيها الكافر لا أنصرك ولا أخلصك من عذاب الله ﴿**إني أخاف الله رب العالمين**﴾ وهل الخائف يتمكن من نصرة غيره؟ وكذلك ابن أُبَيّ غرّ بني النضير وبني قينقاع حتى حاربا الرسول، فلم ينصرهما بل خذلهما.

[١٨] ﴿**فكان عاقبتهما**﴾ أي عاقبة الشيطان والإنسان الذي غرّه فكفر، ﴿**أنهما في النار**﴾ حال كونهما ﴿**خالدين فيها**﴾ أي استحقا النار ولقيا العذاب، ذاك بإغرائه، وهذا بكفره ﴿**وذلك**﴾ العقاب ﴿**جزاء الظالمين**﴾ الذين ظلموا أنفسهم بالكفر اغتراراً بكلام الشيطان.

[١٩] ﴿**يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله**﴾ أي خافوا عقابه، فلا تتركوا أوامره، وتخصيص الخطاب بالمؤمنين لأنهم المنتفعون به وإلا فالتقوى تجب على كل أحد ﴿**ولتنظر نفس**﴾ أي لينظر كل إنسان ويفكر في ﴿**ما قدمت لغد**﴾ أي ليوم القيامة، هل أنه قدم الصالح أو الفاسد، الثواب



أو العقاب بمعنى لزوم تقديم الشيء الحسن وإن كل عمل يعمله الإنسان فإنما يراه غداً ﴿**واتقوا الله**﴾ فلا تخالفوا أوامره وزواجره ﴿**إن الله خبير بما تعملون**﴾ مطلع على أعمالكم فيجازيكم غداً عليها.

[٢٠] ﴿**ولا تكونوا**﴾ يا أيها المؤمنون ﴿**كالذين نسوا الله**﴾ بأن آمنوا ثم نسوا الله فخالفوه، كأهل الكتاب، وليس المراد نسيانهم له حقيقة، بل أعم من ذلك وممن ترك الأوامر، فإن العالم التارك كالناسي في عدم الامتثال ﴿**فأنساهم**﴾ الله ﴿**أنفسهم**﴾ أي جعلهم الله ناسين حتى أنهم لم يعملوا لنجاتها وخلاصها كالإنسان الذي ينسى نفسه فلا يهتم بشأنها ﴿**أولئك**﴾ الذين تلك صفتهم ﴿**هم الفاسقون**﴾ الخارجون عن طاعة الله تعالى.

[٢١] وهل يتساوى هؤلاء الذين يدخلون النار جزاءً لكفرهم وعصيانهم مع الذين يدخلون الجنة جزاءً لإيمانهم وعملهم الصالح؟ كلا ﴿**لا يستوي أصحاب النار**﴾ الملازمون لها ﴿**وأصحاب الجنة**﴾ الدائمون فيها ﴿**أصحاب الجنة هم الفائزون**﴾ الذين فازوا بالثواب والنجاة.

[٢٢] وكيف لا يخشع الكفار للقرآن حتى يؤمنوا بما جاء به، والحال أن القرآن لو نزل على جبل لخشع؟ فما يخشع له الجبل الجامد، كيف

﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ﴾

لايخشع له القلب القاسي (فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً)[1] **﴿لو أنزلنا هذا القرآن على جبل﴾** بأن كان الجبل هو المخاطب بالقرآن الموظف للعمل به **﴿لرأيته﴾** أي رأيت يا رسول الله، أو أيها الرائي، ذلك الجبل **﴿خاشعاً﴾** خاضعاً خائفاً **﴿متصدعاً﴾** أي منشقاً **﴿من خشية الله﴾** وخوفه، وهذا إما على نحو الحقيقة باعتبار أن للجماد إدراكاً وان كنا لانعرف كيفية إدراكه، كما قال سبحانه (يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ)[2] وقال (قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ)[3] وقال (وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ)[4] وقال (وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا)[5] وإما على المجاز كناية عن قوة ما في القرآن من النفوذ والمضي حتى إن الجبل ـ مع عظمته ـ لو عقل لخشع وتصدع، فكيف لا يخشع الإنسان؟ **﴿وتلك الأمثال نضربها للناس﴾** أي هذا المثل وما أشبهه نبينها للناس، وهذا مثل لشدة نفوذ القرآن ومضيه، لتقريب عظمة القرآن إلى الأذهان **﴿لعلهم يتفكرون﴾** أي لكي يتفكروا فيما ضرب له المثل، فإن المثل يقرب الذهن إلى الممثَّل له، فيكون مجال التفكير فيه أوسع.

[٢٣] ثم أتى السياق لبيان جملة من صفات الله سبحانه، لبيان خضوع الوجود كله له تعالى كما أن الجبل يخضع لكلامه **﴿هو الله الذي لا إله إلا هو﴾**

---

(١) البقرة: ٧٥ .

(٢) سبأ: ١١ .

(٣) فصلت: ١٢ .

(٤) الإسراء: ٤٥ .

(٥) الأحزاب: ٧٣ .

عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِۖ هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلۡمُؤۡمِنُ ٱلۡمُهَيۡمِنُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡجَبَّارُ

أي لا متصرف في الكون ولا معبود بالحق إلا هو وحده بلا شريك **﴿عالم الغيب والشهادة﴾** فيعلم كل شيء سواء كان غائباً عن الحواس كالملَك والجن وما أشبههما، أو تشهده الحاسة وتدركه كالمرئيات والمسموعات وما إليهما. وعن الباقر عليه السلام انه قال: الغيب ما لم يكن والشهادة ما كان **﴿هو الرحمن﴾** المتفضل على جميع خلقه **﴿الرحيم﴾** المتفضل على المؤمنين، فاطلاعه اطلاع رحمن رحيم لا إطلاع قسي غليظ شديد.

[٢٤] **﴿هو الله الذي لا إله إلا هو﴾** والتكرار يفيد التركيز في مقابل عبّاد الأوثان والطبيعيين ومن إليهم **﴿الملك﴾** السيد المطاع المالك للكون **﴿القدوس﴾** المنزه من كل نقص وعيب وآفة وقبيح، من القدس وهو الطهارة والنزاهة **﴿السلام﴾** الذي سلم الكون منه تعالى، فليس كالملوك المفسدين للعباد والبلاد، أو المعنى انه السالم من الآفات، حتى كأنه قطعة من السلام من باب «زيد عدل».

﴿المؤمن﴾ الذي سلم خلقه من ظلمه، أو واهب الإيمان، أو بمعنى أن له تعلقاً بالخلق كما أن للمؤمن تعلقاً بالخالق، فإن أصل الإيمان التعلّق بشيء **﴿المهيمن﴾** المسيطر على الكون، من الهيمنة بمعنى السيطرة **﴿العزيز﴾** الغالب في سلطانه أو هو ما قل وجوده وكثر نفعه، والله أظهر المصاديق لذلك، لتفرده واحتياج الكون إليه **﴿الجبار﴾** الذي يجبر الكسر، أو الذي يقهر غيره، فإن الكون كله

ٱلْمُتَكَبِّرُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٤﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٥﴾

مقهور له مسيّر بإرادته ﴿**المتكبر**﴾ الذي تكبر وتعالى عن كل ما يوجب نقصاً وحاجة ﴿**سبحان الله**﴾ أنزهه تنزيهاً ﴿**عما يشركون**﴾ عما يشرك به المشركون من الأصنام والأوثان.

[٢٥] ﴿**هو الله**﴾ المستجمع لجميع صفات الكمال - لأن الله علم لذاك الذات المستجمع - ﴿**الخالق**﴾ الذي قدّر كل شيء ﴿**البارئ**﴾ الذي نفذ التقدير بالإيجاد ﴿**المصور**﴾ الذي صور كل موجود بصورة خاصة، فإن الشيء يحتاج إلى التقدير والتصميم قبل الإيجاد - وهو الخلق - ثم إلى إخراج ذلك المقدر إلى الوجود - وهو البرء - ثم إلى تصوير ذلك الموجود بصورة خاصة - وهو التصوير - ﴿**له**﴾ تعالى ﴿**الأسماء الحسنى**﴾ فهو العالم، لا الجاهل القادر لا العاجز الكريم لا البخيل، وهكذا فله كل اسم حسن ﴿**يسبح له ما في السماوات والأرض**﴾ ينزهه كل شيء عن النقائص والقبائح، تنزيهاً تكوينياً، أو حسب إدراكها - كما تقدم - ﴿**وهو العزيز**﴾ في سلطانه ﴿**الحكيم**﴾ في أفعاله فلا يفعل شيئاً عبثاً، بل حسب الحكمة والصلاح.



سُورة الممتحنة

مدنية /آياتها (١٤)

سميت السورة بهذا الاسم لاشتمالها على فعل من هذه المادة وهو قوله «فامتحنوهن». وهي كسائر السور المدنية مشتملة على النظام بالإِضافة إلى قضايا العقيدة والإيمان. وإذ ختِمت سورة الحشر بصفاته سبحانه الموجبة لأن لا يتخذ الإنسان غيره تعالى ملكاً وإلهاً وسيداً، ابتدأت هذه السورة بتحريم اتخاذ أعداء الله، أولياءَ. وقد نزلت هذه الآيات في «حاطب ابن أبي بلتعة» وكان سبب ذلك أن «حاطباً» كان قد أسلم وهاجر إلى المدينة وكان عياله بمكه؛ فكانت قريش تخاف أن يغزوهم رسول الله ﷺ فصاروا إلى عيال حاطب وسألوهم أن يكتبوا إلى حاطب يسألوه خبر الرسول ﷺ وهل يريد أن يغزو مكة؟ فكتبوا إلى حاطب يسألوه عن ذلك؟ فكتب إليهم حاطب أن رسول الله ﷺ يريد ذلك ـ وذلك حين عزم الرسول على فتح مكة ـ ودفع الكتاب إلى امرأة تسمى صفية، فوضعته في قرونها، وذهبت نحو مكة، فنزل جبرائيل عليه السلام على رسول الله ﷺ وأخبره بذلك، فبعث رسول الله ﷺ أمير المؤمنين عليه السلام والزبير بن العوام في طلبها، فلحقاها، فقال لها أمير المؤمنين عليه السلام: أين الكتاب؟ فقالت: ما معي شيء، ففتشوها

فلم يجدوا معها شيئاً، فقال الزبير: ما نرى معها شيئاً، فقال أمير المؤمنين عليه السلام: والله ما كذبنا على رسول الله، ولا كذب رسول الله على جبرائيل، ولا كذب جبرائيل على الله جل ثناؤه.

والله إن لم تظهري الكتاب، لأذهبن برأسك إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقالت: تنح يا علي عني حتى أخرجه ـ حيث علمت أن الإمام يفعل ذلك لو لم تعطه الكتاب ـ فأخرجت الكتاب من قرونها فأخذه أمير المؤمنين عليه السلام وجاء به إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال رسول الله: يا حاطب ما هذا؟ فقال حاطب: والله يا رسول الله ما نافقت ولا غيرت ولا بدلت وإني أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله حقاً، ولكن أهلي وعيالي كتبوا إلي بحسن صنع قريش إليهم فأحببت أن أجازي قريشاً بحسن معاشرتهم، فقام عمر وأراد أن يضرب عنق حاطب مستأذناً رسول الله في ذلك، لكن حاطباً توجه إلى الرسول يستصرخه، فعفى عنه الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وأمر عمر بالكف عنه فنزلت الآيات[1]، تحذيراً للمسلمين أن يكرر منهم مثل ذلك.



[١] ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ نبتدئ باسم الإله الذي له ما في الكون المستحق لجميع المحامد ـ فإن الله علم على هذا الذات ـ وهل هناك أحق بتقديم اسمه من اسم الله تعالى؟ وذكر الاسم دون أن يقال «بالله» للاحترام حتى أن اللازم أن يشرع بذكر الاسم، لا بذكر نفس الذات، الرحمن الرحيم الذي رحمته وسعت كل شيء، وله رحمة خاصة بالمؤمنين، كما قالوا في لفظ «الرحيم» أنه خاص بعباده المؤمنين.

---

(١) بحار الأنوار: ج٢١ ص١١٢ .

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَـٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى ۚ تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ ۚ

[٢] ﴿**يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي**﴾ الذي يعاديني بالكفر والعصيان ﴿**وعدوكم**﴾ الذي يعاديكم بالاستهزاء والمحاربة وسائر أنواع العداوة ﴿**أولياء**﴾ توالونهم وتنصروهم، جمع «ولي» في حال كونكم ﴿**تلقون إليهم بالمودة**﴾ أي تبذلون لهم ودكم وحبكم، عمل المحب لمحبه، كما فعل «حاطب» بأهل مكة الذين هم أعداء الله وأعداء المسلمين ﴿**وقد كفروا**﴾ أولئك الأعداء ﴿**بما جاءكم من الحق**﴾ الإسلام والقرآن والرسول، وهم ﴿**يخرجون الرسول وإياكم**﴾ عن بلادهم ـ كما فعل كفار مكة ـ والإخراج إنما كان لـ ﴿**أن تؤمنوا**﴾ أي لإيمانكم ﴿**بالله ربكم**﴾ وهل يوالي الإنسان مثل هذا العدو؟

﴿**إن كنتم خرجتم**﴾ أيها المؤمنون من بلادكم ﴿**جهاداً في سبيلي**﴾ أي لأجل الجهاد في سبيل الله ﴿**وابتغاء مرضاتي**﴾ أي طلباً لرضاي والمعنى أن غرضكم من الخروج والهجرة الجهاد وطلب رضا الله، فلا توادوا عدو الله وعدوكم ـ أهل مكة ـ ﴿**تسرون إليهم بالمودة**﴾ أي تعلمونهم في السر بينكم وبينهم مودة وحب ﴿**و**﴾ هل يخفى عملكم هذا على الله؟ كلا فـ ﴿**أنا أعلم**﴾ من كل أحد ﴿**بما أخفيتم وما أعلنتم**﴾ أي بخفايا أموركم وظواهرها فلا يغيب عليَّ

وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١﴾ إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا۟ لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ ﴿٢﴾ لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ

شيء، وسأجازيكم عليها ﴿**ومن يفعله**﴾ أي يفعل الإسرار بالمودة ﴿**منكم**﴾ أيها المؤمنون ﴿**فقد ضل سواء السبيل**﴾ أي عدل عن طريق الحق إلى المهلكة، وسواء الطريق: وسطه.

[٣] ﴿**إن يثقفوكم**﴾ أي إن يصادف كفار مكة لكم أيها المؤمنون في الحرب ﴿**يكونوا لكم أعداء**﴾ يبادرونكم بالمحاربة، فعل العدو بعدوه، وهذا لنفي ما زعمه حاطب من أنهم أحباؤه، فتأتي الآية لتبين إن إظهار حبهم له ولعائلته إظهار مكذوب لا حقيقة له ﴿**ويبسطوا إليكم**﴾ أيها المؤمنون ﴿**أيديهم**﴾ بالضرب والقتل ﴿**وألسنتهم**﴾ بالسب والقذف ﴿**بالسوء**﴾ أي بما يسيئوكم، فلا يتركون وسيلة من وسائل الإساءة إلا عملوها بالنسبة إليكم ﴿**وودوا**﴾ أي أحب هؤلاء الكفار ﴿**لو تكفرون**﴾ أنتم بالله كما كفروا هم، فلا يسبب أهلاككم مودّة أمثال هؤلاء الكفار فإنه:

[٤] ﴿**لن تنفعكم**﴾ أيها المؤمنون ﴿**أرحامكم**﴾ أي قراباتكم ﴿**ولا أولادكم**﴾ والمعنى لا يحملنكم التحفظ على القرابة والأولاد على مخالفة الله والرسول وموادة الكفار، كما فعل حاطب حيث أراد التحفظ على أهله بمكة فخالف الرسول بأن كتب إلى الكفار، يعلمهم بقصد الرسول ﷺ فتح مكة ﴿**يوم القيامة يفصل**﴾ الله ﴿**بينكم**﴾ فيدخل أهل

وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾ قَدۡ كَانَتۡ لَكُمۡ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذۡ قَالُواْ لِقَوۡمِهِمۡ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمۡ وَمِمَّا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرۡنَا بِكُمۡ وَبَدَا بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةُ وَٱلۡبَغۡضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥٓ إِلَّا قَوۡلَ إِبۡرَٰهِيمَ

الإيمان الجنة ويدخل أهل الكفر والعصيان النار، فلا تفعلوا ما تستحقون به النيران ﴿**والله بما تعملون بصير**﴾ يبصركم ويرى أعمالكم، فلا تفعلوا ما تستحقون به سخطه وعقابه.

[٥] ﴿**قد كانت لكم**﴾ أيها المؤمنون ﴿**أسوة حسنة**﴾ أي اقتداء حسن، الأسوة هي القدوة وهو اسم لما يؤتسى ويقتدى به ﴿**في إبراهيم**﴾ الخليل عليه السلام ﴿**والذين**﴾ آمنوا ﴿**معه**﴾ أي فاقتدوا بهم أيها المؤمنون في مقاطعة الكفار ﴿**إذ قالوا لقومهم**﴾ الكافرين ﴿**إنّا برآء منكم**﴾ جمع بريء، فلا نواليكم ﴿**ومما تعبدون من دون الله**﴾ أي ومن أصنامكم التي تعبدونها، والمعنى لا علاقة لنا بها، بل نظهر انها باطلة ليست بآلهة، فعل العدو بعدوه، وإن لم تكن معاداة حقيقية بين الإنسان وبين الجماد ﴿**كفرنا بكم**﴾ أي قالوا لقومهم جحدنا طريقتكم، أو خطاب للأصنام، والإتيان بلفظ العاقل لتوحيد سياق كلام المؤمنين مع كلام الكافرين فإنهم كانوا يزعمون العقل والإدراك للأصنام ﴿**وبدا**﴾ أي ظهر ﴿**بيننا وبينكم**﴾ أيها القوم الكافرين ﴿**العداوة والبغضاء**﴾ وهو أشد العداوة الموجبة لكون العداء في الباطن، من «بغض» ﴿**أبداً**﴾ أي إلى الأبد مادمتم أنتم على الكفر ﴿**حتى تؤمنوا بالله وحده**﴾ وتخلعوا عبادة الأصنام ﴿**إلا قول إبراهيم**﴾ أي اقتدوا بإبراهيم، إلا في هذا القول ـ

لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍۖ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٥﴾ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦﴾

الذي قال لأبيه وذلك كان قبل نهي الله سبحانه ـ ﴿**لأبيه**﴾ أي عمه آزر ﴿**لأستغفرن لك**﴾ أي أطلب غفران الله لك، وكان ذلك لموعدة وعده إياه، فلما تبيّن له أنه عدوّ لله تبرأ منه، فلا ينبغي للمسلم أن يقتدي بذلك، بأن يستغفر للكافر ويحتمل أن الاستثناء من قوله «إنا برآء منكم» أي قالوا للكفار إنّا أعداء لكم، إلا إبراهيم وعد عمه بالاستغفار قبل أن يتبين أنه عدو لله، ثم قال إبراهيم لعمه ﴿**وما أملك لك**﴾ يا عم ﴿**من الله من شيء**﴾ فإذا أراد بك شيئاً لم أملك أن أرد العقاب عنك، ثم قال إبراهيم والمؤمنون به ﴿**ربنا عليك توكلنا**﴾ فقد وكلنا أمورنا إليك ﴿**وإليك أنبنا**﴾ الإنابة هي الرجوع أي رجعنا إليك في أمورنا، فإن الإنسان باعتبار أنه مخلوق لله تعالى كأنه جاء من عنده، فهو إذا أطاع كان بمنزله الراجع إليه سبحانه، تشبيهاً للمعقول بالمحسوس ﴿**وإليك المصير**﴾ أي ان منتهى أمورنا إليك، ونعود في يوم القيامة إلى حسابك وجزائك.

[٦] ﴿**ربنا لا تجعلنا فتنةً للذين كفروا**﴾ أي لا تجعلنا امتحاناً لهم فإن الكافر يمتحن بالكفر وبإيذاء المؤمنين وبالعصيان، وإذا وقع المؤمن مورد امتحان الكافر، أوذي وقد لا يطيق ذلك، أو المراد لا تسلطهم علينا فيفتنونا بعذاب لا نتحمله ﴿**واغفر لنا**﴾ أي استر علينا وامح سيئاتنا ﴿**ربنا إنك أنت العزيز**﴾ الذي لا يغلب القاهر في سلطانه ﴿**الحكيم**﴾ الذي يفعل كل شيء حسب الصلاح والحكمة، ولعل حكاية هذه

لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ ۚ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٧﴾ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً ۚ وَٱللَّهُ قَدِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ

الجمل لتعليم المسلمين كيف يدعون الله سبحانه.

[٧] ﴿**لقد كان لكم**﴾ أيها المؤمنون في عصر الرسالة ﴿**فيهم أسوة حسنة**﴾ «في» بمعنى النسبة، أي بالنسبة إلى إبراهيم ومن آمن معه اقتداء حسن، فهم خير مقتدى لكم في أعمالكم، ومقاطعتهم للكفار وإنما كرر ذلك لما رتب عليه بقوله ﴿**لمن كان يرجو الله واليوم الآخر**﴾ أي أن هذه الأسوة والاقتداء إنما هي للذي يرجو ثواب الله سبحانه «ليعتقد بالجزاء والحساب في الآخرة» أما المنكر لذلك فلا معنى لاقتدائه بمن اعتقد بالله وهذا للإشارة إلى التلازم بين الإيمان وبين الاقتداء ﴿**ومن يتول**﴾ أي يعرض عن هذا الاقتداء، فلم يقتد بإبراهيم، بل اتخذ من الكفار أولياء ﴿**فإن الله هو الغني**﴾ الذي لا يحتاج إلى أحد وإلى عمل ﴿**الحميد**﴾ المحمود بذاته فلا يحتاج إلى طاعة المطيع وحمد الحامد، والمعنى: أن الذي يعرض يضر نفسه، ولا يضر الله سبحانه لغناه المطلق.

[٨] وإذا تريدون أيها المؤمنون موادة أهل مكة لما بينكم من الصلات النسبية والسوابق فلعله سبحانه يهيئ وسائل هدايتهم حتى لا يكون محظور في موادتهم ﴿**عسى الله**﴾ أي لعله سبحانه ﴿**أن يجعل بينكم**﴾ أيها المؤمنون ﴿**وبين الذين عاديتم**﴾ أي اتخذتموهم أعداء ﴿**منهم**﴾ أي من أهل مكة ﴿**مودة**﴾ بسبب الإسلام ﴿**والله قدير**﴾ على ذلك ﴿**والله**

غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٨﴾ لَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ

غفور﴾ لما سلف منكم من موادتهم في حال كفرهم **﴿رحيم﴾** يتفضل عليكم بالرحمة بالإضافة إلى الغفران والعفو.

[٩] وإذا كان المفهوم من الآيات السابقة ما يشمل تحريم موادة كل كافر استثنى السياق من ذلك بقوله **﴿لا ينهاكم﴾** أيها المؤمنون **﴿الله عن﴾** موادة **﴿الذين لم يقاتلوكم في﴾** أمر **﴿الدين﴾** أي من جهة أنكم متدينون بالإسلام **﴿ولم يخرجوكم من دياركم﴾** بأن كان كافراً مسالماً **﴿أن تبروهم﴾** بدل اشتمال عن قوله «عن الذين» أي لا ينهاكم الله عن بر هؤلاء **﴿وتقسطوا إليهم﴾** أي تعدلوا فيما بينكم وبينهم، بأن تبادلوا الحب والوداد قيل ان المسلمين استأمروا النبي ﷺ في أنْ يبروا أقرباءهم من المشركين[1] وقيل ان قتيلة بنت عبد العزيز قدمت مشركة على بنتها أسماء بهدايا فلم تقبلها ولم تأذن لها بالدخول، فنزلت هذه الآية **﴿إن الله يحب المقسطين﴾** أي الذين يعدلون في أمورهم.

[١٠] **﴿إنما ينهاكم الله﴾** أيها المؤمنون **﴿عن﴾** موادة **﴿الذين قاتلوكم في الدين﴾** فقاتلوكم من جهة أنكم متدينون **﴿وأخرجوكم من دياركم﴾** منازلكم، في مكة وغيرها **﴿وظاهروا على إخراجكم﴾** أي تعاون

(١) مجمع البيان: ج٩ ص٤٥٠ .

أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ لَا هُنَّ

بعضهم مع بعض في تشريدكم من بلادكم ﴿**أن تولوهم**﴾ أي ينهاكم الله عن توليهم واتخاذهم أولياء وهذا بدل اشتمال عن قوله: «الذين قاتلوكم» ﴿**ومن يتولهم**﴾ أي يتخذهم أولياء وأحباء ﴿**فأولئك هم الظالمون**﴾ الذين ظلموا أنفسهم بالعصيان لله والرسول.

[١١] وبمناسبة الحديث عن موادة الكفار يأتي السياق ليذكر بعض أحكام النساء مما له رابطة بالكلام ﴿**يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات**﴾ من دار الكفر إلى دار الإسلام ﴿**فامتحنوهن**﴾ أي اختبروهن حتى تعرفوا صدق إيمانهن وهجرتهن. في الصافي عن القمي قال: إذا لحقت امرأة من المشركين بالمسلمين تمتحن بأن تحلف بالله أنه لم يحملها على اللحوق بالمسلمين بغض لزوجها الكافر ولا حب لأحد من المسلمين وإنما حملها على ذلك الإسلام، فإذا حلفت على ذلك قبل إسلامها[١].

و ﴿**الله أعلم بإيمانهن**﴾ منكم فليس عليكم إلا الإيمان والعمل حسب ذلك ﴿**فإن علمتموهن مؤمنات**﴾ أي صادقات في إيمانهن من الحلف وسائر العلامات والإمارات ﴿**فلا ترجعوهن إلى الكفار**﴾ أي إلى بلاد الكفار ﴿**لا هن**﴾ أي المؤمنات

(١) تفسير القمي: ج٢ ص٣٦٢ .

حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُوا۟ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُوا۟ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ

﴿**حل**﴾ أي حلال ﴿**لهم**﴾ فإن الكافر لايحق له مس المسلمة ﴿**ولا هم يحلون لهن**﴾ فإنهم يصبحون كالأجانب بالنسبة إلى المؤمنات ﴿**وآتوهم**﴾ أي اعطوا الكفار ـ الأزواج ـ أيها المؤمنون، حين حبستم نساءهم عن الرجوع إليهم ﴿**ما أنفقوا**﴾ على المرأة من المهر فإن الزوجة تردّ على زوجها صداقها الذي أعطاها ثم يتزوجها المسلم ﴿**ولا جناح عليكم**﴾ أي لا حرج عليكم أيها المؤمنون ﴿**أن تنكحوهن**﴾ فإن إسلامهن أبطل عقدهن السابق بالكافر ـ على تفصيل مذكور في الفقه ـ.

﴿**إذا آتيتموهن أجورهن**﴾ أي أعطيتم النساء مهورهن، بمعنى أن الحلّية متوقفة على العقد والمهر ﴿**ولا تمسكوا بعصم الكوافر**﴾ أي لاتعقدوا أيها المسلمون على الكافرة، فإن الإمساك هو الأخذ، وعصم جمع عصمة وسمي العقد عصمة لأنه به يعصم كل من الزوجين عن الفجور، والكوافر جمع كافرة، وكما لا يجوز الابتداء على عقد الكافرة كذلك لايجوز البقاء على العقد فيما لو أسلم الرجل، وبقيت المرأة كافرة ـ على تفصيل مذكور في الفقه[1] ـ وجاءت هذه الجملة بمناسة نكاح المسلمة بالكافر، يعني كما لايجوز نكاح المسلمة للكافر كذلك لا يجوز نكاح المسلم للكافرة

---

(١) موسوعة الفقه: ج٦٥، كتاب النكاح جزء٤ .

وَسْئَلُواْ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْئَلُواْ مَآ أَنفَقُواْ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١﴾ وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَٰجِكُمْ إِلَى ٱلْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ

﴿و﴾ إذا لحقت منكم ـ أيها المسلمون ـ امرأة بدار الكفر، بأن كفرت وارتدت وذهبت إلى الكفار ﴿اسألوا﴾ واطلبوا من الكفار ﴿ما أنفقتم﴾ عليها من المهر ﴿وليسألوا﴾ أي الكفار ﴿ما أنفقوا﴾ من المهر على امرأة كافرة أسلمت والتحقت بكم ـ لقاعدة التقابل بين الفئتين ـ فهم يطالبون مهر نسائهم إذا أسلمن والتحقن بكم وأنتم تطالبون مهر نسائكم إذا كفرن والتحقن بهم.

﴿ذلكم﴾ «ذا» إشارة إلى ما تقدم من الأحكام و «كم» خطاب للمؤمنين ﴿حكم الله﴾ الذي قرره ﴿يحكم بينكم﴾ أيها المسلمون والكافرون ﴿والله عليم﴾ بالأحكام وما يصلح للبشر ﴿حكيم﴾ فيما يأمر وينهي. فليست هذه الأحكام إلا حسب الصلاح والحكمة، قالوا وقد كان من بنود صلح الحديبية أن الرجال يردون كل إلى المحل الذي فر منه، فإذا جاء رجل من الكفار إلى المسلمين ردوه، وكذا بالعكس ولم يكن ذكر للنساء في بنود الصلح وإذ تم الصلح وكتبوا الكتاب جاءت «سبيعة بنت الحرث» مسلمة إلى الرسول صلى الله عليه وآله فجاء زوجها في طلبها وكان كافراً فقال يا محمد صلى الله عليه وآله اردد علي امرأتي فنزلت هذه الآية[١].

[١٢] ﴿وإن فاتكم﴾ أيها المؤمنون ﴿شيء من أزواجكم﴾ أي أحد من نسائكم ﴿إلى الكفار﴾ بأن لحقن بهم مرتدات ﴿فعاقبتم﴾ أي غزوتم

(١) بحار الأنوار: ج٢٠ ص٣٣٧.

فَـَٔاتُواْ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَٰجُهُم مِّثْلَ مَآ أَنفَقُواْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾

وأصبتم من الكفار عقبى ـ وهي الغنيمة ـ وامتنع الكافر أن يعطيكم مهر زوجتكم التي لحقت بهم ﴿**فآتوا**﴾ أي اعطوا أيها المؤمنون ﴿**الذين ذهبت أزواجهم**﴾ أي المؤمنين ارتدت زوجاتهم وفرت إلى الكفار ﴿**مثل ما أنفقوا**﴾ من المهور عليهن. والحاصل أن الزوجة إذا فرت ولم يقبل الكفار أن يدفعوا مهرها إلى زوجها المسلم أعطى الإمام مهرها لزوجها من الغنيمة التي حصلت من المعاقبة ﴿**واتقوا الله**﴾ أي خافوا عقابه فلا تخالفوا أمره بأن تمنعوا الزوج المسلم عن المهر إذا فرت زوجته ولم يبذل الكفار مهرها ﴿**الذي أنتم به مؤمنون**﴾ فإن من مقتضيات الإيمان التقوى.

روي في الجوامع أنه لما نزلت الآية المتقدمة أدى المؤمنون ما أمروا به من نفقات المشركين على نسائهم وأبى المشركون أن يردوا شيئاً من مهور الكوافر إلى أزواجهن المسلمين فنزلت هذه الآية[١]. قال القمي: وكان سبب ذلك أن عمر بن الخطاب كانت عنده فاطمة بنت أبي أمية بن المغيرة فكرهت الهجرة معه وأقامت مع المشركين فنكحها معاوية بن أبي سيفان فأمر الله رسوله أن يعطي عمر مثل صداقها[٢]. وروي عن الصادق والباقر عليهما السلام أنهما سئلا ما معنى العقوبة ها هنا؟ قالا: إن الذي ذهبت امرأته فعاقب على امرأة أخرى غيرها يعني تزوجها فإذا هو تزوج امرأة أخرى غيرها فعلى الإمام أن

---

(١) راجع بحار الأنوار: ج٢٠ ص٣٣٩.

(٢) تفسير القمي: ج٢ ص٣٦٣.

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ

يعطي له مهر امرأته الذاهبة[١]. أقول: فعلى هذا فمعنى «عاقبتم» تزوجتم بأخرى عقيبها، كما أنه لا يبعد أن يكون القيد سواء كان بالمعنى السابق أو هذا المعنى من باب القيد الغالب لا أن له خصوصية فإنّ على الإمام إعطاء المهر للمسلم الفارّة زوجته سواء أراد التزويج أم لا وسواء غنموا أم لا. والله أعلم.

[١٣] ﴿**يا أيها النبي إذا جاءك المؤمنات**﴾ أي النساء اللائي يردن الإيمان فهو من باب مجاز المشارفة نحو «من قتل قتيلاً فله سلبه» ﴿**يبايعنك**﴾ أي يردن بيعتك وقد كان ترتيب بيعة النساء ان يضع الرسول صلى الله عليه وآله وسلم يده في ظرف من الماء فيخرجها ثم تأتي النساء فيضعن أيديهن في ذلك ومعنى البيعة أن المبايع يبيع كل شيء له لله والرسول، كما قال سبحانه (إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم)[٢] ﴿**على**﴾ شرط ﴿**أن لا يشركن بالله**﴾ بأن يوحدنه ولا يتخذن معه شريكاً ﴿**شيئاً**﴾ أي أيّ نوع من أنواع الشريك كان ﴿**ولا يسرقن**﴾ لا من أزواجهن ولا من غير أزواجهن ﴿**ولا يزنين**﴾ بالرجال الأجانب سواء كنّ ذوات بعل أم لا ﴿**ولا يقتلن أولادهن**﴾ لا بالإسقاط ولا بالوأد ولا بسائر أقسام القتل ﴿**ولا يأتين ببهتان يفترينه**﴾ أي بكذب يكذبنه في مولود يوجد لديهن

---

(١) تهذيب الأحكام: ج٦ ص٣١٣ .

(٢) التوبة: ١١١ .

بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٣﴾

﴿**بين أيديهن وأرجلهن**﴾ أي لا يلحقن بأزواجهن غير أولادهم بأن يزنين فيلدن من الزنى ثم ينسبنه إلى أزواجهن! فإن المولود إنما يلد بين الرجلين ويرتضع بين اليدين، وهذا غير النهي عن الزنى ـ الذي سبق ـ.

وقال بعض: إن المرأة في الجاهلية كانت تلتقط المولود ثم تنسبه إلى الزوج فنهين عن ذلك[١] ﴿**ولا يعصينك**﴾ يا رسول الله ﴿**في معروف**﴾ قال الإمام الصادق عليه السلام: هو ما فرض الله عليهن من الصلاة والزكاة وما أمرهن به من خير[٢]، أقول: وكان الإتيان بقوله: «في معروف» مع أن الرسول لايأمر إلا بالمعروف، التنبيه على أن الرسول شأنه الأمر بالمعروف ترغيباً لهن للعمل بأوامره ﴿**فبايعهن**﴾ أي اقبل بيعتهن ولهن الجنة والثواب على مثل هذه البيعة ﴿**واستغفر لهن الله**﴾ أي اطلب من الله غفران ذنوبهن السالفات ﴿**إن الله غفور**﴾ يغفر الذنب ﴿**رحيم**﴾ يتفضل بالإضافة على الغفران، بالرحمة والفضل.

روي إن النبي صلى الله عليه وآله وسلم بايعهن وكان على الصفا، وكان عمر أسفل منه وهند بنت عتبة زوجة أبي سفيان متنقبة متنكرة مع النساء خوفاً من أن يعرفها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فقال صلى الله عليه وآله وسلم: أبايعكن على أن لا تشركن بالله شيئاً، فقالت هند: إنك لتأخذ علينا أمراً ما رأيناك أخذته على الرجال، وذلك أنه صلى الله عليه وآله وسلم بايع الرجال يؤمئذ على الإسلام والجهاد فقط.. فقال: ولا تسرقن فقالت هند: إن أبا سفيان رجل ممسك وإني

---

(١) بحار الأنوار: ج٢١ ص٩٧ .

(٢) بحار الأنوار: ج٧٩ ص٧٦ .

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ ﴿١٤﴾﴾

أصبت من ماله هنات فلا أدري أيحل لي أم لا؟ فقال أبو سفيان: ما أصبت من مالي فيما مضى وفيما غبر فهو لك حلال فضحك رسول الله ﷺ وعرفها.

فقال ﷺ: ولا تقتلن أولادكن فقالت هند: ربيناهم صغاراً وقتلتموهم كباراً وأنتم وهم أعلم، وكان ابنها حنظلة بن أبي سفيان قتله علي بن أبي طالب عليه السلام يوم بدر، فضحك عمر حتى استلقى وتبسم النبي ﷺ ولما قال: لا تأتين ببهتان، فقالت هند: والله إن البهتان قبيح وما تأمرنا إلا بالرشد ومكارم الأخلاق، ولما قال ولا يعصينك في معروف فقالت هند: ما جلسنا مجلسنا هذا وفي أنفسنا أن نعصيك في كل شيء[1].

[١٤] وأخيراً يأتي السياق ليعود إلى ما استبدئ به من تحريم موادة الكفار الذي لأجله نزلت السورة **﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتولوا قوماً﴾** من الكفار **﴿غضب الله عليهم﴾**، فقد روي أنها نزلت في بعض فقراء المسلمين كانوا يواصلون اليهود ليصيبوا من ثمارهم، ومعنى التولي الموادة والمحابة واتخاذهم أولياء **﴿قد يئسوا من الآخرة﴾** فإنهم منكرون لها **﴿كما يئس الكفار من أصحاب القبور﴾** بأن يرجعوا إلى الدنيا، فهم والكفار سواء في عدم الاعتقاد بالآخرة، وان أظهر أولئك الاعتقاد بها كذباً وتدليساً.

(١) مستدرك الوسائل: ج١٤ ص٢٧٩ .



سورة الصف

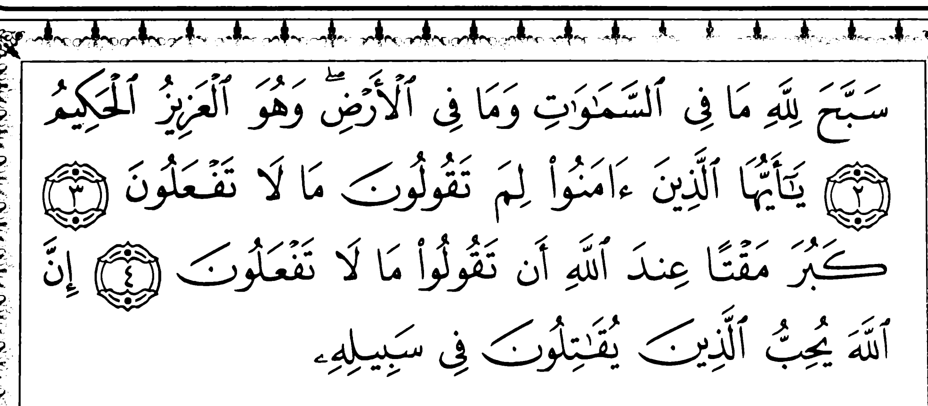
مدنية/آياتها (١٥)

سميت بهذا الاسم لاشتمالها على لفظة «الصف» وهي كسائر السور المدنية مشتملة على النظام كاشتمالها على العقيدة.

ولما ختمت سورة الممتحنة بقطع موالاة الكفار ابتدأت هذه السورة بلزوم قتالهم.



[١] ﴿**بسم الله الرحمن الرحيم**﴾ نستعين باسم الإله الذي له ما في السموات والأرض، وهل هناك أحق بالاستعانة منه؟ إنه «الله» الذي بيده كل شيء، الذي يعين من استعان به، الرحمن الرحيم، الذي يتفضل بالرحمة وتكميل الناقص، فهو خير من يستعان به.



[٢] ﴿**سبح لله ما في السماوات وما في الأرض**﴾ والمراد الأعم من الظرف والمظروف، وإنما كرر هذه الآية في أول السورة السابقة وهذه السورة تأكيداً وتركيزاً في الذهن، فإن تسبيح الكون ـ سواء كان بالمعنى التكويني أو الإدراكي ـ شيء غريب عن الأذهان يحتاج إلى التركيز والترسيخ ﴿**وهو العزيز**﴾ الغالب في سلطانه ﴿**الحكيم**﴾ الذي يفعل الأشياء حسب الصلاح والحكمة، وهي وضع كل شيء موضعه.

[٣] وقد كان قسم من المؤمنين يقولون إذا لقينا العدو لا نفر ونرجع عنهم، حتى إذا كان يوم أحد فروا فنزلت ﴿**يا أيها الذين آمنوا لِمَ تقولون ما لا تفعلون**﴾؟ استفهام إنكاري فإن القول بدون الفعل أقبح من السكوت مع عدم الفعل، كما أن الفعل بدون القول أحسن من الفعل بعد القول ـ إذا لم يكن لتشجيع أو نحو ذلك من العناوين ـ قالوا: الناس في الخير على أربعة أقسام: قائل فاعل، وقائل غير فاعل، وغير قائل غير فاعل، وغير قائل فاعل، والأحسن الأخير، والأقبح الثاني والأول خير من الثالث.

[٤] ﴿**كبر مقتاً عند الله**﴾ أي كبر من حيث المقت والغضب عنده سبحانه ﴿**أن تقولوا ما لا تفعلون**﴾.

[٥] ﴿**إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله**﴾ لإعلاء كلمته وسبيل رضوانه

صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَـٰنٌ مَّرْصُوصٌ ﴿٥﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَـٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِى وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ ۖ فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ

في حال كونهم مصطفين ﴿**صفاً**﴾ بلا تبعثر أو تفرق ﴿**كأنهم بنيان مرصوص**﴾ كأنهم في شدة ثباتهم بناء قد رصّ، أي أحكم بناؤه يقال رصصت البناء أي أحكمته. روي إن المسلمين قالوا: لو علمنا أحب الأعمال إلى الله تعالى لبذلنا فيه أموالنا وأنفسنا فأنزل الله «إن الله يحب الذين» الآية فلما كان يوم أُحد وتولوا أنزل الله سبحانه «لم تقولون»؟

[٦] ثم جاء السياق ليحذر المسلمين أن يكونوا كأصحاب موسى عليه السلام يؤذونه بعد أن علموا أنه نبي من عند الله تعالى، فإن ترك القتال إيذاء للرسول ومخالفة لأمره ﴿**و**﴾ اذكر يا رسول الله ﴿**إذ قال موسى لقومه**﴾ بني إسرائيل الذين آمنوا به ﴿**يا قوم لم تؤذونني**﴾ بأفعالكم كعبادة العجل، وأقوالكم كقولهم (فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا)[1] ﴿**وقد تعلمون أني رسول الله**﴾ «قد» للتحقيق، وإن كان الأكثر في فعل المضارع أن يكون للتقريب، ولعل النكتة فيه أن احتمال كونه رسولاً كاف في كفهم عن أذاه ﴿**إليكم**﴾ بعثني إليكم لهدايتكم.

لكن القوم تمادوا في إيذائه عليه السلام ﴿**فلما زاغوا**﴾ أي مالوا عن الحق بالاستمرار في أذاه كما هو طبيعة اليهود ﴿**أزاغ الله قلوبهم**﴾ أي تركهم وشأنهم ومنع عنهم الألطاف الخفية حتى مالت قلوبهم، ونسبة

---

(١) المائدة: ٢٥ .

وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٦﴾ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ

الزيغ إليه سبحانه، لأنه إذا ترك الإنسان جذبته الأهواء الموجبة للزيغ ﴿**والله لا يهدي القوم الفاسقين**﴾ فمن خرج عن طاعة الله بعد الدليل والبرهان تركه سبحانه وشأنه ولم يلطف به الألطاف الخفية.

[٧] وهكذا فعل اليهود بعيسى بن مريم عليه السلام آذوه بعد ما جاءهم بالبينات ﴿**و**﴾ اذكر يا رسول الله ﴿**إذ قال عيسى ابن مريم**﴾ والإصرار في القرآن على إضافة عيسى بمريم عليها السلام لنفي كونه ابن الله ﴿**يا بني إسرائيل**﴾ والمراد بهم اليهود ﴿**إني رسول الله إليكم**﴾ بعثني لهدايتكم وإرشادكم في حال كوني ﴿**مصدقاً لما بين يدي**﴾ أي ما تقدمني، فإن الشيء الذي أمام الإنسان هو بين يديه ـ مجازاً ـ ﴿**من التوراة**﴾ التي جاء بها موسى عليه السلام.

﴿**ومبشراً برسول**﴾ أي أبشركم برسول من عند الله تعالى ﴿**يأتي من بعدي اسمه أحمد**﴾ يعني نبينا محمد صلى الله عليه وآله ـ وقد ذكر الشيخ محمد صادق فخر الإسلام، في كتابه أنيس الأعلام ـ وهو ممن كان مسيحياً فأسلم ـ قصة طويلة حول هذا الأمر وأن اسم الرسول «فارقليطا» المفسر بأحمد وهي في كتابهم ـ وهذه هي عادة الأنبياء عليهم السلام يصدقون السابقين ويبشرون باللاحقين لأنهم أخوة من عند الله لبيان منهج واحد، وإنما الفروق في المزايا والخصوصيات التابعة للظروف ﴿**فلما جاءهم**﴾ عيسى، أو لما جاءهم الرسول ـ أحمد ـ ﴿**بالبينات**﴾ أي

قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨﴾ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ

الأدلة الواضحات ﴿**قالوا هذا سحر مبين**﴾ أي سحر ظاهر ولم يؤمنوا، فإن كان الضمير راجعاً إلى عيسى، كان ردفاً لتكذيب اليهود لموسى، وإن كان راجعاً إلى الرسول ﷺ كانت الآيات في صدد بيان الرسالات الثلاث، وإن أهل الملتين السابقتين كيف استقبلوا الرسول ﷺ المبشر به لديهم.

[٨] ﴿**ومن أظلم**﴾ أي أيّ شخص أكثر ظلماً ﴿**ممن افترى على الله الكذب**﴾ أي اختلق الكذب على الله، وقال لكلامه إنه سحر ولرسوله إنه ساحر كاذب، ﴿**وهو يُدعى إلى الإسلام**﴾ الذي فيه سعادته في الدنيا والآخرة ﴿**والله لا يهدي**﴾ بالألطاف الخفية ﴿**القوم الظالمين**﴾ الذين ظلموا أنفسهم بالكفر والعناد بعدما رأوا النور والهدى، ودلهم على الطريق فلم يسلكوه.

[٩] ﴿**يريدون**﴾ هؤلاء الكفار المعاصرون لك يا رسول الله ﴿**ليطفئوا نور الله**﴾ وهو رسوله ومنهاجه ﴿**بأفواههم**﴾ وإنما سمي نوراً لأنه ينير دروب الحياة المظلمة بمناهج تسبب السعادة والوصول إلى الهدف، كمن معه المصباح في الليلة المظلمة حيث لا يصطدم بشيء بل يسلك السبيل حتى يصل إلى المطلوب، وإنما قال «بأفواههم» لأنهم ظنوا أنهم يتمكنون من إطفاء نور الإسلام، بالتكذيب والتهريج.

﴿**والله متم نوره**﴾ أي مظهر دينه، فإن النور إذا أطفئ لم يتم

وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٩﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿١٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١١﴾

امتداده في الزمان، أمّا إذا لم يطفأ استمر وامتد وتم ﴿**ولو كره الكافرون**﴾ من بقاء نور الله وإضاءته للعالم.

[١٠] ﴿**هو**﴾ الله سبحانه ﴿**الذي أرسل رسوله**﴾ محمداً ﷺ ﴿**بالهدى**﴾ أي مع الهداية للبشرية إلى السعادة الأبدية ﴿**و**﴾ بـ ﴿**دين الحق**﴾ وهو دين الإسلام ﴿**ليظهره**﴾ أي أن الإرسال كان لأجل إظهار هذا الدين ﴿**على الدين كله**﴾ أي على كل الأديان، فإن «الدين» جنس ولذا جيء له بـ «كله» فإن الإسلام يغلب الأديان كلها على نحوين: الأول بالحجة والدليل، وهذا موجود منذ زمن الرسول ﷺ، والثاني بالغلبة والسيطرة وهذه تكون في زمن الإمام الحجة عليه السلام.

فقد سئل الإمام أمير المؤمنين عليه السلام عن هذه الآية وأنه هل ظهر الإسلام؟ قال عليه السلام: كلا فوالذي نفسي بيده حتى لا تبقى قرية إلا وينادى فيها بشهادة أن لا إله إلا الله بكرة وعشياً[1] ﴿**ولو كره المشركون**﴾ الذين أشركوا بالله، فإنه يعلو على رغم أنوفهم.

[١١] ﴿**يا أيها الذين آمنوا**﴾ إنما خص المؤمنين بالخطاب، مع أنه أعم، لأنهم المنتفعون بالخطاب العاملون به دون سواهم ﴿**هل أدلكم**﴾ أي هل تريدون أن أهديكم وأرشدكم ﴿**على تجارة تنجيكم من عذاب أليم**﴾ على نحو الاستفهام الطلبي.

---

(١) تأويل الآيات: ص٦٦٣ .

تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿١٢﴾ يَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡ وَيُدۡخِلۡكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ

[١٢] ثم بين تلك التجارة، التي لها أربح الأثمان، وهل شيء أنفع من نجاة الإنسان من عذاب مؤلم موجع؟ **﴿تؤمنون بالله﴾** بأن تعتقدوا به إلهاً واحداً **﴿ورسوله﴾** بأن تصدقوه فيما جاء به، والمراد إيماناً باقياً راسخاً ـ فلا ينافي ذلك كونهم مؤمنين، كقوله (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا)[١] ـ **﴿وتجاهدون في سبيل الله﴾** أي تتعبون أنفسكم بالمشاق التي منها الحرب لأجل إعلاء كلمة الله **﴿بأموالكم﴾** بأن تبذلوها لأجله تعالى **﴿وأنفسكم﴾** بأن ترخصوها في أوامره، حتى إذا استلزمت إزهاق أنفسكم وقتلكم في سبيله **﴿ذلكم﴾** «ذا» إشارة و «كم» خطاب، أي ما ذكر من الإيمان والجهاد ـ باعتبار كل واحد ـ **﴿خير لكم﴾** من الشرك الذي مصيره النار والعقاب **﴿إن كنتم تعلمون﴾** والمعنى إن كنتم عالمين لعلمتم أن الإيمان والجهاد خير وأنفع من الكفر والكسالة.

[١٣] وإذا فعلتم ذلك **﴿يغفر﴾** الله **﴿لكم ذنوبكم﴾** السالفة **﴿ويدخلكم﴾** الله تعالى **﴿جنات تجري من تحتها﴾** أي من تحت قصورها وأشجارها **﴿الأنهار﴾** من عسل وماء ولبن وخمر **﴿و﴾** يدخلكم في تلك الجنات **﴿مساكن طيبة﴾** جمع مسكن وهو المنزل، سمي بذلك لأنه محل سكون الإنسان **﴿في جنات عدن﴾** يقال عدن بالمكان إذا أقام فيه، أي

---

(١) النساء: ١٣٧ .

ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَأُخۡرَىٰ تُحِبُّونَهَاۖ نَصۡرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتۡحٌ قَرِيبٌۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ لِلۡحَوَارِيِّـۧنَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِۖ

في جنات أنتم دائمون فيها خالدين لا خروج لكم عنها ﴿**ذلك**﴾ الغفران للذنب والدخول في الجنات ﴿**الفوز**﴾ والظفر بالمطلوب والسعادة ﴿**العظيم**﴾ الذي ليس فوقه سعادة وفلاح.

[١٤] ﴿**و**﴾ لكم مضافاً إلى نعمة الفوز بالجنان، نعمة ﴿**أخرى**﴾ إذا آمنتم وجاهدتم ﴿**تحبونها**﴾ وهي نعمة دنيوية ﴿**نصر**﴾ لكم على الكفار ﴿**من**﴾ طرف ﴿**الله**﴾ سبحانه، لأنه ينصركم على الأعداء، وإن كانت قواكم المادية أقل منهم ﴿**وفتح قريب**﴾ لبلادهم، وقد كان كما أقام سبحانه فقد فتحوا مكة وفارس والروم وكثير من أماكن المشركين والكفار في مدة وجيزة ﴿**وبشر**﴾ يا رسول الله ﴿**المؤمنين**﴾ بهذين الثوابين، إن صدقوا في الإيمان وقاموا بواجب الجهاد.

[١٥] ﴿**يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله**﴾ أي أعوانه الملازمين لخدمته بإقامة دينه، في مقابل المؤمن الذي لا يهيئ نفسه للنصرة، وإنما يعمل ببعض الأمور الدينية ﴿**كما قال عيسى ابن مريم**﴾ أي أنصروه نصرة مثل ما طلب المسيح من تلامذته ﴿**للحواريين**﴾ وهم أصفياؤه وتلاميذه ﴿**من أنصاری إلى الله**﴾ أي في السير إلى رضوان الله وثوابه، سيراً مستقيماً، يكون معي في تعاليمي؟ ﴿**قال الحواريون نحن أنصار الله**﴾ والخطاب إما كان خاصاً لهم وأجاب الجميع بالموافقة، أو كان عاماً،

فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌۖ فَأَيَّدۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمۡ فَأَصۡبَحُواْ ظَٰهِرِينَ ﴿١٥﴾

وإنما قال «للحواريين» باعتبار أنهم الفئة الموجهة في خطابه عليه السلام للجماهير ﴿**فآمنت طائفة من بني إسرائيل**﴾ إيماناً صحيحاً وهم الحواريون ومن إليهم ﴿**وكفرت طائفة**﴾ بأن لم تؤمن بعيسى أو آمنت ثم انحرفت كالمثلثة ونحوهم ﴿**فأيدنا الذين آمنوا**﴾ أي قويناهم ﴿**على عدوهم**﴾ الكافرين ﴿**فأصبحوا**﴾ أي المؤمنون به ﴿**ظاهرين**﴾ غالبين بالحجة على الكافرين، أو غالبين بالعدد والقوة على أولئك، وكما أيدنا النصارى الحقيقيين على اليهود والمزيفين من النصارى كذلك نؤيد الإسلام الصحيح على الأديان الأخرى، والإسلام المنحرف، وإنما يسمى الغالب ظاهراً لأنه يظهر وغيره يخفى.



سُورة الجمعة

مدنية/ آياتها(١٢)

سميت السورة بهذا الاسم لاشتمالها على لفظة «الجمعة» وهي كسائر السور المدنية مشتملة على النظام بالإضافة إلى اشتمالها على العقيدة، ولما ختمت سورة الصف بتأييد المؤمنين بعيسى عليه السلام افتتحت هذه السورة بالإرسال في الأميين.



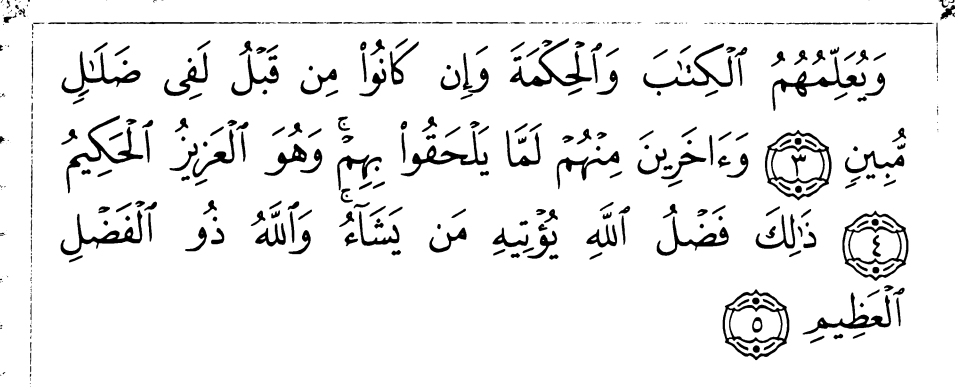
[١] ﴿**بسم الله الرحمن الرحيم**﴾ ابتداء باسم الإله الذي له كل شيء، وإنما يبدأ باسم من له كل شيء استحقاقاً واستعطافاً، فمن له كل شيء هو الأحق بالتنويه، ومن بيده كل شيء هو الأحق والأولى بالاستعطاف. الرحمن الرحيم الذي يرحم العباد بالفضل، فإن الرحمة هي الفضل على من فيه نقص بتكميل ذلك النقص.

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْمَلِكِ ٱلْقُدُّوسِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ﴾

[٢] ﴿**يسبح لله**﴾ أي ينزه الله من النقائص، تنزيهاً إما تكوينياً، لأن في كل شيء له آية دالة على أنه خالق عالم قدير، وإما بلسان تفقهه ﴿**ما في السماوات وما في الأرض**﴾ السماء وما فيها، والأرض وما فيها فإن الظرف قد يطلق على الإثنين، كما أن المظروف قد يطلق على الإثنين ﴿**الملك**﴾ السلطان على الكون بقول مطلق، فإن سلطة ما عداه تعالى مجازية ﴿**القدوس**﴾ المنزه عن كل نقص، من قدس بمعنى تنزه ﴿**العزيز**﴾ الغالب في سلطانه ﴿**الحكيم**﴾ الذي يفعل الأشياء بالحكمة والصلاح.

[٣] ﴿**هو**﴾ الله تعالى ﴿**الذي بعث**﴾ أي أرسل ﴿**في الأميين**﴾ الأمي منسوب إلى الأم والمراد بهم العرب، سموا بذلك إما لأنهم من أهل «أم القرى» أي مكة المكرمة ـ المسماة بذلك لأن القرى دحيت من تحتها ـ وإما لأن الغالب منهم لم يكونوا يعرفون القراءة والكتابة فهم ـ في جهلهم ـ كالذي خلق من الأم لا يعرف شيئاً، والبعث في الأميين لا يلازم أن يكون لهم وحدهم، حتى تدل الآية على خصوص نبوته ﷺ ﴿**رسولاً**﴾ لأجل هدايتهم ﴿**منهم**﴾ أي من أنفسهم ومن أهل بلدهم.

﴿**يتلو**﴾ أي يقرأ ﴿**عليهم**﴾ أي على أولئك الأميين ﴿**آياته**﴾ أدلّته، أو آيات القرآن ﴿**ويزكيهم**﴾ أي يطهرهم تطهيراً علمياً، فإن المعلم الرقيب يطهر تلاميذه من أدران القلوب والجوارح بحفظهم عن الرذائل



والأعمال المنكرة ﴿ويعلمهم الكتاب﴾ أحكامه وشرائعه ﴿والحكمة﴾ بأن يعرفوا وضع الأشياء مواضعها، فإن الحكمة هي وضع الشيء موضعه ﴿وإن كانوا﴾ هؤلاء الأميون ﴿من قبل﴾ أي قبل أن يأتيهم الرسول ﴿لفي ضلال مبين﴾ أي في انحراف ظاهر، فلا عقائد صحيحة ولا أعمال صالحة ولا عادات طيبة، ولا أخلاق فاضلة، يعني أنه يوصلهم إلى أرقى مراقي الكمال، وإن كانوا قبل ذلك في أبعد متاهات الضلالة.

[٤] ﴿و﴾ يعلّم ﴿آخرين منهم﴾ أي من أولئك الأميين، ممن يأتي بعدهم إلى يوم القيامة، وكونهم منهم إما باعتبار أنهم من نسلهم أو باعتبار أنهم بالإيمان يكونون من جنس أولئك ﴿لما يلحقوا بهم﴾ «لمّا» لما لم يقع وينتظر وقوعه، أي لم يلحقوا ـ بعد ـ بهم، مع أنه ينتظر لحوقهم ﴿وهو العزيز﴾ الغالب في سلطانه فيتمكن من الهداية للآخرين ﴿الحكيم﴾ الذي يضع الأشياء مواضعها.

[٥] ﴿ذلك﴾ أي الإرسال، بالنسبة إلى المرسل بأن جعله نبياً، أو بالنسبة إلى المرسل إليهم بأن شرفهم بأن هداهم ﴿فضل الله﴾ لطفه ورحمته ﴿يؤتيه﴾ أي يعطيه ﴿من يشاء﴾ من عباده لكن المعلوم أن الله لا يعطي شيئاً إلا حسب الحكمة، بمن كان صالحاً للإعطاء ﴿والله ذو الفضل العظيم﴾ الذي فضله أعظم من فضل كل ذي فضل، وإعطاء كل معطي.

مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارَۢاۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٦﴾ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ إِن

[٦] ثم نبّه السياق المسلمين بوجوب التمسك بالشريعة حتى لا يكونوا كاليهود الذين تركوا العمل بالتوراة، بعد ما تمسكوا بها في زمن موسى عليه السلام ﴿**مثل الذين حملوا التوراة**﴾ أي حمّلهم الله التوراة، وكأن الوجه في التعبير بـ «حملوا» إفادة أنهم إنما تمسكوا بها بكل صعوبة وتحميل لابالطوع والرغبة ﴿**ثم لم يحملوها**﴾ بأن تركوا العمل بها باختيار، ولذا جاء الفعل هنا من باب المجرد، والمراد بـ «لم يحملوها» رفضوها وتركوا أحكامها ﴿**كمثل الحمار يحمل أسفاراً**﴾ جمع سِفر وهو الكتاب، والحمار الذي يحمل الكتب على ظهره لايستفيد منها، واليهود مثل ذلك فإنهم مع كون التوراة بين أظهرهم لايستفيدون منها ولا يعملون بأحكامها فمن تمسك بالقرآن ظاهراً ولم يعمل به كان مثله كذلك، ﴿**بئس**﴾ المثل ﴿**مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله**﴾ والمراد بهم اليهود الذين كذبوا بالتوراة ـ تكذيباً عملياً ـ أو كذبوا بآيات الله في القرآن، والمعنى بئس القوم قوم هذا مثلهم، فإن المثل السيئ لا يكون إلا للشخص السيئ، ﴿**والله لا يهدي**﴾ بالألطاف الخفية ﴿**القوم الظالمين**﴾ الذين ظلموا أنفسهم بالكفر والعصيان، بعد أن هداهم إلى الطريق فلم يسلكوه.

[٧] وقد كان اليهود يزعمون أنهم أولياء الله ـ بعد تركهم العمل بالتوراة ـ ويأتي السياق ليفند زعمهم هذا ﴿**قل**﴾ يا رسول الله لهؤلاء اليهود ﴿**يا أيها الذين هادوا**﴾ أي سُمّوا يهوداً، وتهودوا ﴿**إن**

زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٧﴾ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨﴾ قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ

زعمتم أنكم أولياء لله﴾ وأنكم شعب الله المختار **﴿من دون الناس﴾** وأن سائر الناس لايحبهم الله، وليسوا بأولياء الله **﴿فتمنوا الموت إن كنتم صادقين﴾** في زعمكم، فإن الولي لا يخاف من الموت إذ يعلم بعلو حاله هناك.

[٨] **﴿ولا يتمنونه﴾** أي لا يتمنى اليهود الموت **﴿أبداً﴾** أي إلى الأبد **﴿بـ﴾** سبب ما عملوا من كفرهم وعصيانهم وأن أحوالهم في الآخرة سيئة من **﴿ما قدمت أيديهم﴾** ونسبة التقديم إلى اليد باعتبار أن اليد هي الأكثر عملاً، من باب علاقة الجزء والكل **﴿والله عليم بالظالمين﴾** عالم بأحوالهم وسيجازيهم على ظلمهم، وهذا تهديد لليهود.

[٩] وهل ينفع عدم تمنيهم الموت وفرارهم منه؟ **﴿قل﴾** يا رسول الله لهم **﴿إن الموت الذي تفرون منه﴾** بتوفير أسباب الصحة لأنفسكم، وعدم حضوركم في مواضع الخطر خوفاً من الموت **﴿فإنه ملاقيكم﴾** يلقاكم وينزل بكم لا محالة **﴿ثم﴾** بعد الموت **﴿تردون﴾** أي ترجعون، فإن الإنسان حيث صدر عن إرادة الله سبحانه، كان ذهابه إلى حسابه وجزائه، شبيهاً بالرد والرجوع إليه **﴿إلى عالم الغيب﴾** أي ما غاب عن الحواس **﴿والشهادة﴾** أي ما ظهر للحواس وشهدها، أي حضرها الشخص، والمراد أنه تعالى يعلم السر والعلانية

فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ

﴿فينبئكم﴾ أي يخبركم ـ إخبار الذي يريد الجزاء ـ **﴿بما كنتم تعملون﴾** من الأعمال الحسنة أو القبيحة.

[١٠] وإذا تبين لزوم العمل بالشريعة حتى لا يكون المسلم، كمثل اليهود في تركهم العمل بالتوراة، جاء السياق ليبين شريعة عظيمة هي صلاة الجمعة، وهذه الصلاة واجبة في زمن الحضور، أما زمن الغيبة فلعلمائنا فيها خلاف، والذي استظهرته أن وجوبها خاص بالإمام أو مأذونه في زمان بسط يد الإمام، ولذا لم يرد قيام الأئمة من بعد الإمام الحسين بها، ولم يكن ذلك لأجل التقية، وهذا هو السر في اشتهار تركها بين فقهائنا **﴿يا أيها الذين آمنوا إذا نودي للصلاة﴾** وقد كان الرسول ﷺ إذا جلس على المنبر لخطبة الجمعة أذّن بلال على باب المسجد، وكذا جرى أبو بكر وعمر بعده حتى جاء عثمان، فكان يؤذن على سطح داره أولاً ثم إذا جلس على المنبر أذن ثانياً ـ وهذا هو الأذان الثالث الذي قالوا عنه بأنه بدعة، وكونه ثالثاً باعتبار الأذان الإعلامي، والأذان على المنبر، المشروعين ـ أما الأذان على سطح الدار فهو شيء لم يكن في الإسلام **﴿من يوم الجمعة﴾** أي بعض يوم الجمعة، وهو لصلاة الجمعة، وسمي جمعة لاجتماع الناس فيها للصلاة، وقد كان هذا اليوم عيداً قبل الإسلام ثم قرره الإسلام، كما أن النيروز كان عيداً قبل الإسلام ثم قرره الإسلام.

﴿فاسعوا﴾ السعي هو المضي بسرعة وعجلة **﴿إلى ذكر الله﴾** أي

وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿١٠﴾ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿١١﴾ وَإِذَا رَأَوۡاْ

الصلاة الجمعة ﴿**وذروا البيع**﴾ أي دعوا المعاملة، والظاهر أن «البيع» من باب المثال الغالب، وإلا فالمراد كل عمل ينافي الذهاب إلى الصلاة ﴿**ذلكم**﴾ أي السعي إلى الذكر، وترك المعاملة ﴿**خير لكم**﴾ أيها المؤمنون في دينكم ودنياكم ﴿**إن كنتم تعلمون**﴾ أي إن علمتم الأشياء لعلمتم أن السعي خير لكم.

[١١] ﴿**فإذا قضيت الصلاة**﴾ أي أديت صلاة الجمعة ﴿**فانتشروا**﴾ أي تفرقوا أيها المؤمنون ﴿**في الأرض**﴾ بأن يذهب كل إنسان إلى عمله الموجب للانتشار والتفرق ﴿**وابتغوا**﴾ أي اطلبوا بالكسب وما أشبه ﴿**من فضل الله**﴾ رزقه ولطفه، وهذا أمر للإباحة، لأنه بعد الحظر، نحو قوله (وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا)[١] ﴿**واذكروا الله كثيراً**﴾ بأن تكونوا متذكرين له لساناً وقلباً، حال الابتغاء وغيره، فإنه مجلى القلوب عن صدأ الغفلة والمعاصي ﴿**لعلكم تفلحون**﴾ أي لكي تفوزوا برضاه وإحسانه.

[١٢] قال جابر: أقبلت عير ونحن نصلي مع رسول الله ﷺ فانفض الناس إليها فما بقي غير اثني عشر رجلاً أنا فيهم فنزلت هذه الآية، وفي رواية إن الرسول ﷺ قال: والذي نفسي بيده لو تتابعتم حتى لا يبقى أحد منكم لسال بكم الوادي ناراً[٢] ﴿**وإذا رأوا**﴾ هؤلاء الذين حضروا

---

(١) المائدة: ٣.

(٢) بحار الأنوار: ج٢٢ ص٥٩.

تِجَـٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓا۟ إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا ۚ قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَـٰرَةِ ۚ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١٢﴾

لصلاة الجمعة ﴿**تجارة**﴾ مقبلة، فقد كانت تجارتهم تأتي من أطراف البلاد في مواسم معينة، فمن لم يسرع للاشتراء فاتته السلعة، ولزم عليه الانتظار إلى الموسم الآخر لسد حاجاته بالاشتراء ﴿**أو لهواً**﴾ وكان من عادة العير التجارية إذا جاءت أن يدق الطبل إعلاماً لأهل المدينة بمجيئها وهذا هو اللهو الذي يلهي عن ذكر الله ويشغل عن الانصراف إلى الصلاة ﴿**انفضوا**﴾ أي أسرعوا ﴿**إليها**﴾ إلى تلك التجارة واللهو - باعتبار كل واحد منهما - والانفضاض هو التفرق بسرعة ﴿**وتركوك**﴾ يا رسول الله ﴿**قائماً**﴾ تخطب خطبة الجمعة، بأن لم يبالوا بشأنك تقديماً لأمر الدنيا على أمر الآخرة ﴿**قل**﴾ يا رسول الله لهم ﴿**ما عند الله خير من اللهو**﴾ فثوابه على البقاء مستمعاً خطبة الجمعة أفضل من اللهو وخير لكم ﴿**ومن التجارة**﴾ ولعل تقديم التجارة هناك وتأخيرها هنا، لأن هناك شروع من الأقوى يعني أنهم يذهبون للتجارة بل لما دون التجارة وهو اللهو... وهنا شروع من الأضعف يعني أن ما عند الله خير من اللهو وما فوق اللهو وهو التجارة ﴿**والله خير الرازقين**﴾ فلا يزعم أحد أنه لو ترك الاشتراء من العير لبقي بلا رزق، بل الله يرزقه من واسع فضله.



سُورة المنافقون

مدنية /آياتها (١٢)

سميت السورة بهذا الاسم لأنها مشتملة على لفظة «المنافقون» وهي كسائر السور المدنية تشتمل على النظام، بالإضافة إلى قضايا العقيدة، ولما ختمت سورة الجمعة بترك الرسول قائماً، الذي هو من أشباه أعمال المنافقين ابتدأت هذه السورة بقصة من قصص المنافقين التي وقعت في إحدى غزوات الرسول صلى الله عليه وآله وسلم.

وقد ورد أن هذه السورة نزلت في غزوة «بني المصطلق» في سنة خمس من الهجرة، وكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم خرج إليها، فلما رجع منها نزل على بئر، وكان الماء قليلاً فيها وكان الأنس بن سيّار حليف الأنصار وكان جهجاه بن سعيد الغفاري أجيراً لعمر، فاجتمعوا على البئر، فتعلق دلو سيّار بدلو جهجاه فقال سيار دلوي وقال جهجاه دلوي؟ فضرب جهجاه وجه سيار فسال منه الدم، فنادى سيار بالخزرج ونادى جهجاه بقريش، فأخذ الناس السلاح، وكادت أن تقع الفتنة فسمع عبد الله ابن أُبَيّ النداء فقال ما هذا؟ فأخبروه بالخبر، فغضب غضباً شديداً، ثم قال قد كنت كارهاً لهذا المسير، ما ظننت أني أبقى

إلى أن أسمع مثل هذا فلا يكن عندي تغيير ثم أقبل على أصحابه وقال هذا عملكم! أنزلتموهم منازلكم وواسيتموهم بأموالكم ووقيتموهم بأنفسكم وأبرزتم نحوركم للقتل فأرمل نساءكم وأيتم صبيانكم ولو أخرجتموهم لكانوا عيالاً على غيركم.

ثم قال: لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ـ وأراد بالأعز هو وأمثاله، وبالأذل الرسولﷺ والمؤمنين ـ وكان في القوم زيد بن أرقم وكان غلاماً وكان رسول اللهﷺ في ظل شجرة في وقت الهاجرة وعنده قوم من أصحابه من المهاجرين والأنصار، فجاء زيد فأخبره بما قال عبد الله بن أُبَيّ، فقال رسول اللهﷺ: لعلك وهمت يا غلام؟ قال لا والله ما وهمت فقال: لعلك غضبت عليه؟ قال: لا والله ما غضبت عليه. قال: فلعله سفه عليك؟ قال لا والله، فقال رسول اللهﷺ لشقران مولاه أن يقدم راحلته وركب وتسامع الناس بذلك فقالوا ما كان رسول الله ليرحل في مثل هذا الوقت؟ فرحل الناس ولحقه سعد بن عبادة فقال: السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته فقالﷺ: وعليك السلام. فقال: ما كنت لترحل في مثل هذا الوقت؟ فقالﷺ: أو ما سمعت قولاً قاله صاحبكم؟ قالوا وأي صاحب لنا غيرك يا رسول الله قال: عبد الله بن أُبَيّ زعم إن رجع إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل فقال: يا رسول الله فأنت وأصحابك الأعز وهو وأصحابه الأذل فسار رسول اللهﷺ يومه كله لا يكلمه أحد، فأقبلت الخزرج على عبد الله بن أُبَيّ تلومه فحلف عبد الله أنه لم يقل شيئاً من ذلك فقالوا: فقم بنا إلى رسول اللهﷺ حتى نعتذر إليه، فلوى عنقه فلما جن الليل سار رسول اللهﷺ ليله كله، والنهار، فلم ينزلوا إلا للصلاة، فلما كان من الغد نزل رسول اللهﷺ ونزل أصحابه وقد انهدهم الأرض من السهر الذي أصابهم، فجاء عبد

الله بن أُبَيّ إلى رسول الله‌ﷺ فحلف عبد الله أنه لم يقل ذلك وأنه ليشهد أن لا إله إلا الله وأنك لرسول الله وأن زيداً قد كذب علي.

فقبل رسول الله‌ﷺ منه ـ أي أظهر السكوت ـ وأقبلت الخزرج على زيد بن أرقم يشتمونه ويقولون كذب على عبد الله سيدنا، فلما رحل رسول الله‌ﷺ كان زيد معه يقول اللهم إنك لتعلم أني لم أكذب على عبد الله بن أُبَيّ، فما سار إلا قليلاً حتى أخذ رسول الله‌ﷺ ما كان يأخذه من الحالة عند نزول الوحي عليه فثقل حتى كادت ناقته أن تبرك من ثقل الوحي، فسرى عن رسول الله‌ﷺ وهو يسكب العرق عن جبهته، ثم أخذ بأذن زيد بن أرقم فرفعه عن الرحل ثم قال: يا غلام صدقت ووعى قلبك وأنزل الله فيما قلت قرآناً، فلما نزل جمع أصحابه وقرأ عليهم سورة المنافقين ففضح الله عبد الله بن أُبَيّ ثم جاء ولد عبد الله بن أُبَيّ إلى رسول الله وقال: يا رسول الله إن كنت عزمت على قتله فمرني أن أكون أنا الذي أحمل إليك رأسه فوالله لقد علمت الأوس والخزرج أني أبرهم ولداً بوالدي، فإني أخاف أن تأمر غيري فيقتله فلا تطيب نفسي أن أنظر إلى قاتل أبي فأقتل مؤمناً بكافر فأدخل النار، فقال رسول الله: بل نحسن لك صحابته ما دام معنا(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾

[١] ﴿**بسم الله الرحمن الرحيم**﴾ نستعين باسم الإله، ليكون عوناً لنا في حوائجنا، الرحمن الرحيم الذي وسعت رحمته كل شيء ليلطف علينا بالرحمة فيحل مشاكلنا الدنيوية والأخروية.

(١) بحار الأنوار: ج٢٠ ص٢٨٥ .

إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴿٢﴾ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟

[٢] ﴿**إذا جاءك**﴾ يا رسول الله ﴿**المنافقون**﴾ والمراد به عبد الله بن أُبيّ، وقد تقدم أن الجمع قد يستعمل بمعنى الجنس، ويراد به الفرد، وإنما يعبر بالجمع لإفادة أن من هذا وصفه فحكمه حكم ذلك الفرد الصادر منه الفعل كما أن الفرد قد يأتي بمعنى الجنس، حيث تسلخ منه الفردية، وتبقى الجنسية التي في ضمن الفرد، والمنافق هو الذي يبطن الكفر ويظهر الإسلام ﴿**قالوا**﴾ في محضرك ﴿**نشهد إنك لرسول الله**﴾ بأن هذا هو اعتقادنا القلبي، لا إظهارنا اللفظي فقط ﴿ **والله يعلم إنك لرسوله**﴾ وهذه جملة جاء بها القرآن تمهيداً للجملة التالية، لئلا تنصرف إلى إنكار الله سبحانه رسالته حيث يكذب المنافقين ﴿**والله يشهد إن المنافقين لكاذبون**﴾ في ادعائهم أنهم يعتقدون برسالة الرسول من أعماق قلوبهم، فإنهم إنما آمنوا باللسان وقلبهم باق على الكفر والجحود.

[٣] ﴿**اتخذوا**﴾ أي هؤلاء المنافقون ﴿**أيمانهم**﴾ جمع يمين وهي القسم أي حلفهم ﴿**جنة**﴾ أي وقاية يتسترون بها حتى لا يصيبهم أذى من الرسول والمسلمين ﴿**فصدوا**﴾ أي منعوا بسبب حفظ أنفسهم على الكفر باطناً ـ بالحلف الكاذب ـ ﴿**عن سبيل الله**﴾ أي طريق دينه وثوابه لأنهم بنفاقهم يحفظون أنفسهم في زمرة المسلمين، ثم يشاغبون خفية، ويمنعون الناس عن الإيمان الصحيح ﴿**إنهم**﴾ أي المنافقين ﴿**ساء ما كانوا**

يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٣﴾ ۞ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ۖ وَإِن يَقُولُوا۟ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ۖ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ۖ

يعملون﴾ أي بئس العمل عملهم حيث يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر صداً عن سبيل الله.

[٤] ﴿**ذلك**﴾ النفاق إنما كان ﴿**بـ**﴾ سبب ﴿**أنهم آمنوا**﴾ بألسنتهم ﴿**ثم كفروا**﴾ بقلوبهم، فإن المنحرف الطبع إذا رأى خيراً أسرع إليه مخلصاً وإذا رأى التصادم مع مصالحه يبقى في ظاهر الموافقة ـ حزناً ـ ويتراجع في الباطن ترجيحاً لمصالحه ﴿**فطبع على قلوبهم**﴾ إذ تمرنوا على الكفر والتمادي في صفة يوجب تطبع النفس بها إذ تكون ملكة للمتمادي، والطابع هو الله سبحانه، الذي خلق النفس البشرية هكذا، وإن كان الطبع بسبب نفاقهم، والمراد بالقلوب الأنفس ﴿**فهم لا يفقهون**﴾ أي لا يفهمون حقيقة الإيمان والتقوى لأن نفوسهم انحرفت، وإذا انحرفت النفس رأى الجميل قبيحاً والقبيح جميلاً.

[٥] ﴿**وإذا رأيتهم**﴾ أي نظرت إليهم يا رسول الله أو أيها الرائي ﴿**تعجبك أجسامهم**﴾ بحسن منظرهم وتمام خلقتهم وجمال صورهم ﴿**وإن يقولوا**﴾ أي يتكلموا في أي شأن من الشؤون ﴿**تسمع لقولهم**﴾ أي أصغيت إلى كلامهم لجميل بيانهم وفصاحة منطقهم، فهم مع حسن المنظر وعذوبة البيان ﴿**كأنهم خشب مسندة**﴾ فارغون عن الصفات الحسنة والفضائل، كالخشبة الفارغة التي لا تتمكن أن تقف بنفسها فتستند لحائط ونحوه لتقف وتستقيم.

يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ

فالخشبة التي أكلت جوفها الأرضة ظاهرها جميل وباطنها فارغ لا تتمكن أن تقف هي لركاكتها وهؤلاء كذلك لهم ظاهر من غير باطن ﴿**يحسبون كل صيحة**﴾ وكل نازلة ﴿**عليهم**﴾ لجبنهم وفراغ قلوبهم عن فضيلة الإيمان، فإن المؤمن ثابت القلب رابط الجأش أما المنافق فإنه خائف دائماً أن يظهر باطنه فيفضح، ولذا كلما حدث شيء خاف وجبن أن يقع فيه ويفضح باطنه، والفاجعة والنازلة تسمى صيحة لارتفاع الصياح فيها من باب علاقة السبب والمسبب ﴿**هم العدو**﴾ أي أن هؤلاء المنافقين هم أعداؤك الوحيدون يا رسول الله الكاملون في العداوة إذ الكفار لظهورهم يؤمن شرهم، أما المنافق فهو يخفى في الجماعة المؤمنة بإظهار الإيمان حيث لا يرى ولا يعرف حتى يفسد ويسبب المشاكل.

﴿**فاحذرهم**﴾ يا رسول الله عن أن يختلطوا بالمسلمين ويطلعوا على أسرارهم، لأنهم عرفوا بمناطق العزة ونقاط الضعف، فهم أقدر من العدو الخارج على الإفساد والمؤامرة ﴿**قاتلهم الله**﴾ دعاء عليهم بأن يقتلهم الله ليستريح المسلمون من شرهم ﴿**أنى يؤفكون**﴾ أي كيف يصرفون عن الحق مع الأدلة الواضحة؟

[٦] ﴿**وإذا قيل لهم تعالوا**﴾ أي هلموا وأتوا ﴿**يستغفر لكم رسول الله**﴾ أي يطلب لكم غفران الله لما صدر منكم من الذنب ﴿**لووا رؤوسهم**﴾ أي

وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٦﴾ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٧﴾ هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا۟ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ

حركوها حركة المعرض، وعطفوها نحواً إلى جانب يخالف جانب القائل تكبراً وإعراضاً ﴿**ورأيتهم**﴾ يا رسول الله ﷺ أو أيها الرائي ﴿**يصدون**﴾ أي يمنعون عن سبيل الحق ﴿**وهم مستكبرون**﴾ يظهرون كبرهم وأنهم لا حاجة لهم إلى استغفار الرسول.

[٧] وإذ كان أولئك منافقين فـ ﴿**سواء عليهم**﴾ في عدم الانتفاع وعدم غفران الله لهم ﴿**أستغفرت لهم**﴾ يا رسول الله ﴿**أم لم تستغفر لهم**﴾ فإن الاستغفار إنما ينفع المؤمن دون المنافق ﴿**لن يغفر الله لهم**﴾ أبداً لأنهم يبطنون الكفر ﴿**إن الله لا يهدي**﴾ بالألطاف الخفية ﴿**القوم الفاسقين**﴾ الذين خرجوا عن طاعة الله بالنفاق والشقاق.

[٨] ﴿**هم**﴾ المنافقون ﴿**الذين يقولون**﴾ بعضهم لبعض ﴿**لا تنفقوا على من عند رسول الله**﴾ من المؤمنين أصحاب الحاجة ﴿**حتى ينفضوا**﴾ أي يتفرقوا عنه، ويأتي التعليق على كلامهم هذا بقوله ﴿**ولله خزائن السماوات والأرض**﴾ التي يبذل منها لمن حوالي رسول الله ﷺ فقد ظن هؤلاء المنافقون أن خزائن الأرزاق والأموال بأيديهم حتى إذا قطعوا الأموال على المؤمنين يتفرقون، وجهلوا أن الشمس

وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨﴾ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن

والأرض والماء والهواء التي هي خزائن الأموال والأرزاق كلها بيد الله تعالى فيبذل منها على المسلمين بالزراعة والاكتساب وما أشبه، فليس منع أولئك سبباً لتفرق هؤلاء المؤمنين من حول الرسول ﷺ ﴿**ولكن المنافقين لا يفقهون**﴾ أي لا يفهمون أن الخزائن بيد الله تعالى.

[٩] ﴿**يقولون**﴾ هؤلاء المنافقون ﴿**لئن رجعنا إلى المدينة**﴾ من غزوة بني المصطلق ﴿**ليخرجن الأعز**﴾ يريدون المنافقين أنفسهم ﴿**منها**﴾ أي من المدينة ﴿**الأذل**﴾ يريدون الرسول ﷺ وأصحابه، ويأتي الرد عليهم ﴿**ولله العزة**﴾ وهو مع المؤمنين ﴿**ولرسوله**﴾ باعزاز الله له ﴿**وللمؤمنين**﴾ بتمسكهم بالإسلام الموجب لسعادة الدنيا والآخرة وعزتهما ﴿**ولكن المنافقين لا يعلمون**﴾ فيظنون أن العزة لهم حيث يجدون أعواناً من المنافقين ومقداراً يسيراً من المال، وقد دلت التجربة على ذلك، فقد جاء الأذل، وهو ابن أُبيّ ـ إلى الأعز ـ وهو الرسول، يعطي البراءة عما اقترفه.

[١٠] وإذ تقدم ذكر النفاق الذي هو إبطان الكفر وإظهار الإيمان جاء السياق ليذكّر المسلمين بأن لا يفعلوا ما هو من أخلاق المنافقين من الإقبال على الدنيا، وجعل الآخرة وراء ظهرهم ﴿**يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم**﴾ أي لا تشغلكم ﴿**أموالكم ولا أولادكم عن**

ذِكْرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٠﴾ وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١﴾ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَاۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾

ذكر الله﴾ بأن تشتغلوا بها فلا تراعوا حق الله فيها ولا تحضروا للصلاة وغيرها من سائر الفرائض اشتغالاً بالمال والولد.

﴿ومن يفعل ذلك﴾ الاشتغال بالمال والولد عن ذكر الله **﴿فأولئك هم الخاسرون﴾** الذين خسروا أنفسهم إذ لا نجاة لهم في الآخرة من العذاب.

[١١] **﴿وأنفقوا مما رزقناكم﴾** فيما أمرنا من الخمس والزكاة والصلاة وسائر الحقوق ـ ولعله عام يشمل الإنفاق من العلم والجاه والقوة بالإضافة إلى الإنفاق من المال ـ **﴿من قبل أن يأتي أحدكم الموت﴾** أي يحضره الموت، بأن تأتي أسبابه وعلائمه **﴿فيقول﴾** يا **﴿رب لولا﴾** أي هلاّ **﴿أخرتني إلى أجل قريب﴾** بأن أبقى في الدنيا ولو مدة قليلة لأصلح شأني **﴿فأصدق﴾** أي أتصدق وأزكي مالي وأنفقه في سبيل الله **﴿وأكن من الصالحين﴾** أصلي وأصوم وأحج وأبذل نفسي في سبيلك وحسب أوامرك.

[١٢] وهل ينفع هذا الطلب؟ كلا **﴿و﴾** ذلك لأنه **﴿لن يؤخر الله نفساً﴾** بإبقائها في الدنيا زيادة على المدة المقدرة لها **﴿إذا جاء﴾** وحضر **﴿أجلها﴾** فلا يتمكن من العمل الصالح ببدنه والإنفاق من ماله **﴿والله خبير بما تعملون﴾** أيها البشر فلا تفعلوا ما يوجب العقاب والنكال.



سُورة التغابن

مدنية/ آياتها (١٩)

سميت السورة بهذا الاسم لاشتمالها على لفظة «التغابن» وهي كسائر السور المدنية تعالج النظام إلى جنب بيان العقيدة، ولما ختمت سورة المنافقين بالأمر بالطاعة والنهي عن المعصية، افتتحت هذه السورة بذكر المطيع والعاصي.



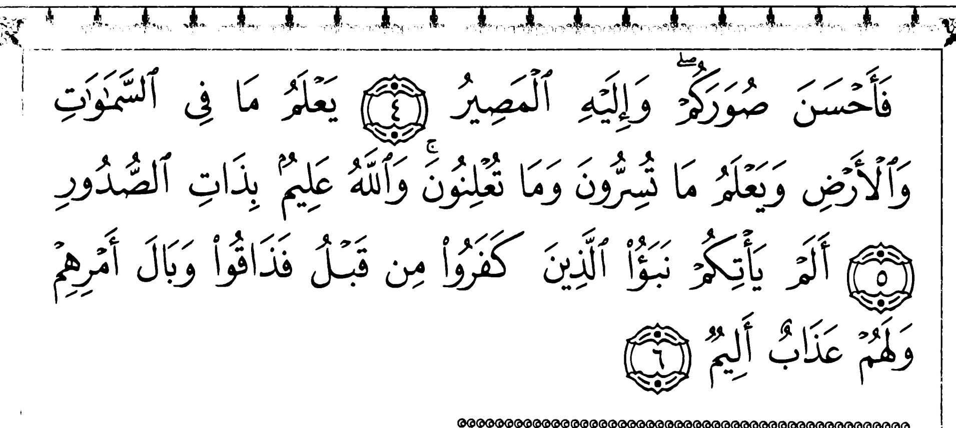
[١] ﴿**بسم الله الرحمن الرحيم**﴾ نبتدئ باسم الله الجامع لجميع صفات الكمال، وهل هناك أحق بالابتداء ممن هو الأول والآخر، ومن كان قبل كل شيء ثم كوّن كل شيء؟ الرحمن الرحيم الذي يرحم كل شيء والرحمة في الإنسان حالة في القلب، ولكن فيه سبحانه يراد بها فعل يترتب على الرحمة من الفضل والإنعام إذ لا مجال فيه سبحانه لمثل هذه الصفات، ولذا قالوا «خذ الغايات واترك المبادي».

يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۖ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢﴾ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣﴾ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ

[٢] ﴿**يسبح**﴾ لعل التعبير بالماضي في بعض السور باعتبار معنى التسبيح، وبالمضارع في البعض باعتبار الحال والاستقبال ﴿**لله**﴾ أي ينزهه عن النقائص ﴿**ما في السماوات وما في الأرض**﴾ ظرفاً ومظروفاً ـ كما سبق ـ ﴿**له الملك**﴾ فهو المالك المطلق الحقيقي، وسائر المالكين ملكهم محدود، وإضافي لاختصاص الشيء بتخصيص الله سبحانه لا أنهم ملاك حقيقيون ﴿**وله الحمد**﴾، إذ المحامد كلها راجعة إليه، فإن الحمد إنما يكون على الجميل الاختياري، وفاعل كل جميل هو الله سبحانه، أما سائر من يحمد فهو محمود حمداً مقيداً إضافياً ﴿**وهو على كل شيء قدير**﴾ يقدر على الإيجاد والإعدام والتصرف كيفما شاء.

[٣] ﴿**هو**﴾ الله ﴿**الذي خلقكم**﴾ أيها البشر ﴿**فمنكم كافر**﴾ بالله بسوء اختياره بعد وضوح الحجة وظهور المحجة ﴿**ومنكم مؤمن**﴾ بالله وبما جاء به الرسل، وهذا التفريع لبيان أنه لا ينبغي الكفر بعد كون الملك والخلق له سبحانه، وبعد تسبيح الكون لعظمته ﴿**والله بما تعملون**﴾ أنتم أيها البشر ﴿**بصير**﴾ يرى الأشياء، ثم يجازيكم عليها.

[٤] ﴿**خلق السماوات والأرض**﴾ ظرفاً ومظروفاً ﴿**بالحق**﴾ فلم يكن الخلق عبثاً ولغواً، كما يفعل الأطفال، من صنع التماثيل من طير ونحوه للهو، فإن خلقها كان لحكمة وغاية ومقصد ﴿**وصوركم**﴾ بأن جعل



لكم الصور الظاهرة من الحواس والكيفيات والصور الباطنة بأن جعل لكم العقل والملكات ﴿**فأحسن صوركم**﴾ بصورة عامة، وإن كان في البشر من ليس حسن الصورة، فإن الأحكام يراد بها النوع لا كل فرد ـ كما قرر في علمي البلاغة والأصول ـ ﴿**وإليه المصير**﴾ أي تصيرون إلى حسابه وجزائه بعد الموت، أو في القيامة.

[٥] ﴿**يعلم ما في السماوات و**﴾ ما في ﴿**الأرض**﴾ مما يحدث وما يعدم وما يتصرف فيه كيف يتصرف ﴿**ويعلم ما تسرون**﴾ أي تعملونه سراً عن الناس ﴿**وما تعلنون**﴾ تعملونه علناً في محضر الناس، أو المراد من السر الأعم مما يدور في الصدور وما يعمل سراً ﴿**والله عليم بذات الصدور**﴾ أي بالأشياء التي تدور في قلوب البشر، وهذا يؤيد كون «ما تسرون» بمعنى تعملون سراً لا الأعم، وإلا كان تأكيداً ـ وهو خلاف الأصل ـ.

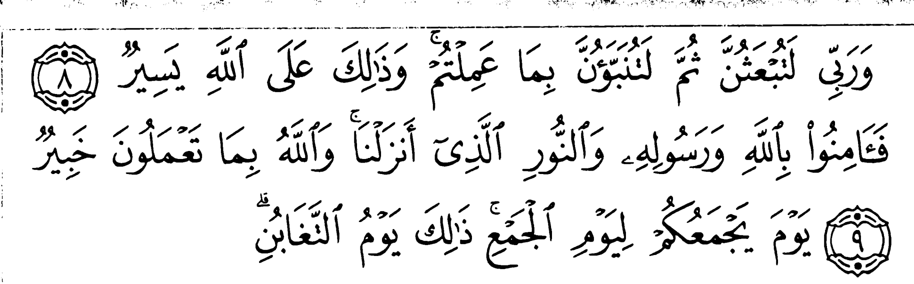
[٦] وإذ بين السياق آيات حول الألوهية، جاء ليهدد الكافرين الذين أعرضوا عن الله والإيمان به بقوله ﴿**ألم يأتكم**﴾ أيها الناس ﴿**نبأ**﴾ أي خبر ﴿**الذين كفروا من قبل**﴾ هؤلاء الكفار المعاصرين للرسول ﷺ حيث إنهم أعرضوا عن الإيمان ﴿**فذاقوا وبال أمرهم**﴾ أي عذبهم الله سبحانه حتى ذاقوا عاقبة كفرهم وتكذيبهم ﴿**ولهم عذاب أليم**﴾ أي مؤلم موجع

ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأۡتِيهِمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٞ يَهۡدُونَنَا فَكَفَرُواْ وَتَوَلَّواْۚ وَّٱسۡتَغۡنَى ٱللَّهُۚ وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٞ ﴿٧﴾ زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ قُلۡ بَلَىٰ

في الآخرة بالإضافة إلى العذاب الذي ذاقوه في الدنيا.

[٧] ﴿**ذلك**﴾ العذاب إنما شملهم وأخذهم ﴿**بـ**﴾ سبب ﴿**أنه كانت تأتيهم رسلهم**﴾ من عند الله ﴿**بالبينات**﴾ أي بالأدلة الظاهرة والحجج والمعاجز ﴿**فقالوا**﴾ أولئك الكفار، في رد دعوة الرسل ﴿**أبشر يهدوننا**﴾ أي كيف يمكن أن يكون الرسول الذي هو بشر مثلنا يهدينا؟ و «بشر» جنس ولذا جيء له بصيغة الجمع «يهدوننا» ﴿**فكفروا**﴾ بالرسل وبما جاءوا به ﴿**وتولوا**﴾ أي أعرضوا عن قبول الحق ﴿**واستغنى الله**﴾ أي فَعَلَ فِعْلَ المستغني عن الشيء وهو تركه وشأنه، وهذا بعد أن طلب منهم الهداية والرشاد فلم يقبلوا، وإنما جيء من باب «الاستفعال» الظاهر في الطلب، لأن الغناء في المتعارف إنما يأتي بعقب الطلب فهو من باب التشبيه بالمحسوس، وإذ كان الكلام موهماً لاحتياج الله بهم قبل ذلك جاء السياق ليدفع هذا التوهم بقوله ﴿**والله غني**﴾ بذاته لا يحتاج إلى شيء ولا أحد ﴿**حميد**﴾ بأفعاله لا يحتاج إلى أن يحمد ولا ينقص عن كونه محموداً بالذات عدم حمد الناس له.

[٨] إن الكفار تولوا عن الإيمان بالله وعن الإيمان بالرسل، وكذلك تولوا عن الإيمان بالبعث ﴿**زعم الذين كفروا**﴾ فلم يكن ذلك تيقناً بل زعماً وظناً ﴿**أن لن يبعثوا**﴾ بعد الموت، ولن يحيوا للحساب والجزاء ﴿**قل**﴾ يا رسول الله رداً لزعمهم ﴿**بلى**﴾ ليس الأمر كما زعمتم



﴿و﴾ حق ﴿ربي﴾ الله، بل ﴿لتبعثن﴾ أي لتحشرن أحياءً بعد الموت ﴿ثم لتنبؤن﴾ أي تخبرن ـ على صيغة المجهول ـ والمخبر هو الله والملائكة والأنبياء ومن يعينونه للحساب والإخبار ﴿بما عملتم﴾ من الكفر والمعاصي، فإن المجرم يخبر بعمله ثم يعاقب ﴿وذلك﴾ البعث والإخبار ﴿على الله﴾ تعالى ﴿يسير﴾ سهل هين، فإن من خلق الخلق ابتداءً قادر على أن يعيدهم.

[٩] وإذ تحقق البعث والحساب وتحقق الجزاء ﴿فآمنوا﴾ أيها البشر ﴿بالله ورسوله﴾ بالإذعان بهما واتباع أوامرهما ﴿والنور الذي أنزلنا﴾ وهو القرآن إذ هو ينير سبيل الحياة المظلمة ليرى الإنسان طريقه نحو السعادة ومن المعلوم أن الأئمة عليهم السلام من مصاديق ذلك النور ـ كما ورد[1] ـ ﴿والله بما تعملون﴾ أيها البشر ﴿خبير﴾ عالم مطلع، فإذا آمنتم جزاكم بالثواب والأجر ولا يذهب إيمانكم هدر.

[١٠] وذلك البعث والجزاء إنما يكون في ﴿يوم يجمعكم﴾ الله ﴿ليوم﴾ يسمى بيوم ﴿الجمع﴾ لاجتماع الخلائق فيه للحساب ﴿ذلك﴾ اليوم ﴿يوم التغابن﴾ وهو تفاعل من الغبن بأن يغبن كلٌّ الآخر، فإن أهل الجنة يغبنون أهل النار باتخاذ منازلهم في الجنة ـ فإن لكل إنسان منزل في الجنة ومنزل في النار ـ وبالعكس يغبن أهل النار أهل الجنة باتخاذ

---

(١) التحصين لابن طاووس: ص٥٨٥ .

وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١١﴾

منازلهم في النار ـ وتسمية هذا الطرف: غبناً من باب الجناس، من قبيل (فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ)[1] ـ.

﴿**ومن يؤمن بالله**﴾ بأن يعتقد به وينزهه عما لا يليق به ﴿**ويعمل صالحاً**﴾ أي عملاً صالحاً، والمراد به جنس العمل الصالح، لا عملاً واحداً ﴿**يكفر**﴾ الله ﴿**عنه سيئاته**﴾ أي يمحي عن ديوانه ما أسلف من الذنوب والمعاصي، فإن التكفير بمعنى الستر والمحو ﴿**ويدخله**﴾ الله سبحانه ﴿**جنات تجري من تحتها**﴾ أي من تحت قصورها وأشجارها ﴿**الأنهار**﴾ من عسل وخمر ولبن وماء، في حال كونهم ﴿**خالدين فيها**﴾ أي دائمين في تلك الجنات ﴿**أبداً**﴾ لا زوال لهم عنها إلى غير النهاية ﴿**ذلك**﴾ الدخول في الجنة خالداً، هو ﴿**الفوز العظيم**﴾ والفلاح الذي ليس وراءه فلاح.

[١١] ﴿**والذين كفروا**﴾ بالله ورسوله ﴿**وكذبوا بآياتنا**﴾ أي بحججنا وأدلتنا ﴿**أولئك أصحاب النار**﴾ الملازمون لها، فإن صاحب الشيء هو الملازم له في حال كونهم ﴿**خالدين فيها**﴾ أي باقون فيها أبداً ﴿**وبئس المصير**﴾ أي بئس النار مرجعاً ومآلاً للإنسان.

(١) البقرة: ١٩٥ .

مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٢﴾

[١٢] وإذ دعا سبحانه إلى الإيمان بيّن بعض ثمار الإيمان الطيبة التي ينالها الإنسان في هذه الدنيا قبل الفوز بالجنان في الآخرة، وقدم لذلك مقدمة بقوله ﴿**ما أصاب من مصيبة**﴾ أي لا تصيب الإنسان مصيبة ولايقع الإنسان في مشكلة ﴿**إلا بإذن الله**﴾ فالله سبحانه هو الذي يقدر الأشياء فلولا تقديره لم يقع شيء في الكون، فإن الله سبحانه قادر على أن يسكن الكوارث حتى لا تنزل بالإنسان، وإنما قرر سبحانه المصائب لتنزل بالإنسان للامتحان والاختبار، وليس معنى ذلك أن المصائب السيئة ينزلها الله سبحانه، بل معناه أنه تعالى لا يأخذ أمامها حتى لاتنزل، فمن يقتل ظلماً ـ باذن الله ـ أي لا يمنع الله القاتل ـ منعاً تكوينياً بأن تشل يده ـ حتى لا يتمكن من القتل وإنما يأذن ولا يأخذ بيد القاتل لكون الدنيا دار اختبار، فلو كان سبحانه يجبر على ترك القبيح لكان الإنسان بمنزلة الحجر والجماد في أفعاله الاضطرارية ويبطل الثواب والعقاب.

وإذ قدم السياق هذه المقدمة، أتى إلى ثمرة الإيمان بقوله ﴿**ومن يؤمن بالله**﴾ إيماناً صحيحاً راسخاً ﴿**يهد**﴾ الله ﴿**قلبه**﴾ حتى يطمئن بأن ما يصيبه إنما هو بعلم الله، وأنه يجازيه بالثواب والأجر على ما أصابه، وإذا علم الإنسان أن ما أصابه من الضرر يتدارك بأضعاف الخير، إطمأن قلبه ولم تصدمه المصيبة كثيراً ﴿**والله بكل شيء عليم**﴾ فيجازي كل امرء بما عمل.

وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَۚ فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴿١٣﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴿١٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ وَأَوۡلَٰدِكُمۡ عَدُوّٗا لَّكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُمۡۚ وَإِن تَعۡفُواْ وَتَصۡفَحُواْ وَتَغۡفِرُواْ

[١٣] ﴿**وأطيعوا الله**﴾ أيها البشر في ما أمركم ﴿**وأطيعوا الرسول**﴾ فيما أتاكم به ﴿**فإن توليتم**﴾ أي أعرضتم عن الإطاعة ﴿**فإنما على رسولنا البلاغ المبين**﴾ أي أن يبلغكم بلاغاً ظاهراً، وقد بلّغ فليس عليه شيء وإنما يرجع وبال العاقبة إليكم حيث أعرضتم بعد البلاغ.

[١٤] ﴿**الله**﴾ الذي تُدعون إلى الإيمان به هو الذي ﴿**لا إله إلا هو**﴾ فلا شريك له ولا نظير ﴿**وعلى الله فليتوكل المؤمنون**﴾ بأن يكلوا أمورهم إليه، ويعتمدوا عليه.

[١٥] وإذ دعا السياق الناس إلى الإيمان، جاء ليبين بعض أعداء المؤمن الذين يثنونه عن الإيمان ليتخذ منهم حذره ﴿**يا أيها الذين آمنوا إنَّ من أزواجكم**﴾ أي نسائكم ﴿**وأولادكم**﴾ أي بعضهم، ولذا جيء بـ «من» ﴿**عدواً لكم**﴾ لأنكم مؤمنون وهم كافرون أو منافقون ﴿**فاحذروهم**﴾ أن لا يصدوكم عن الحق والهدى ﴿**و**﴾ إذا آذوكم بسبب إيمانكم فـ ﴿**إن تعفوا**﴾ عنهم دون الانتقام ﴿**وتصفحوا**﴾ وهو أن يعرض الإنسان ويبدي صفحة وجهه أمام المكروه ﴿**وتغفروا**﴾ بأن تستروا ذنبهم فلا تنتقموا منهم، وكان للأمر ثلاث مراتب: ستر الذنب، وعدم المقابلة

فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٥﴾ إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ

حتى بالكلام، وعدم الانتقام.

﴿فإن الله غفور﴾ لذنوبكم، أو لذنوبهم ـ إذا تابوا ـ ﴿رحيم﴾ بعباده، فعلى المؤمن أن يتعلم الغفران والرحمة منه سبحانه، وهذا بالإضافة إلى الثواب، خطة حكيمة في جلب الناس إلى الإيمان، فإن السلم في مقابل العدو، يخفف من حدته ويلقي في نفسه حب مبدأ المسالم حتى ينجذب إليه.

[١٦] ﴿إنما أموالكم وأولادكم فتنة﴾ أي امتحان لكم، كي يتبين من يطيع الله فيهما ومن يعصيه وهذا من باب المثال، وإلا فأقرباء الإنسان وزوجه أيضاً فتنة وامتحان ﴿والله عنده أجر عظيم﴾ وثواب كبير لمن أطاعه ولم يخالفه لأجل أهله وماله. قال الإمام الباقر عليه السلام إن الرجل كان إذا أراد الهجرة إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم تعلق به ابنه وامرأته وقالوا ننشدك الله أن تذهب عنا وتدعنا فنضيع بعدك، فمنهم من يطيع أهله فيقيم فحذرهم الله أبناءهم ونساءهم ونهاهم عن طاعتهم ومنهم من يمضي ويذرهم ويقول: أما والله لئن لم تهاجروا معي ثم يجمع الله بيني وبينكم في دار الهجرة لا أنفعكم بشيء أبداً، فلمّا جمع الله بينه وبينهم أمره الله أن يحسن إليهم ويصلحهم فقال «وإن تعفوا وتصفحوا وتغفروا فإن الله غفور رحيم»[١].

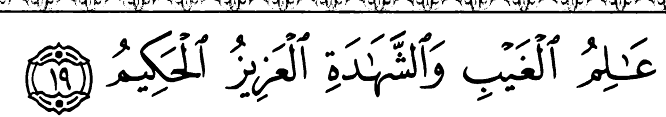
[١٧] ﴿فاتقوا الله﴾ أي خافوا عقابه، بامتثال أوامره ﴿ما استطعتم﴾ أي بقدر

(١) تفسير القمي: ج٢ ص٣٧٢.

وَٱسْمَعُواْ وَأَطِيعُواْ وَأَنفِقُواْ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٧﴾ إِن تُقْرِضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْۚ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٨﴾

استطاعتكم فإنه لا يكلف الله نفساً إلا وسعها ﴿**واسمعوا**﴾ من الرسول ما يأمركم ﴿**وأطيعوا**﴾ بعدما سمعتم، وكأن المراد من السماع أن يستمعوا للعمل ﴿**وأنفقوا**﴾ من أموالكم في سبيل الله ﴿**خيراً لأنفسكم**﴾ أي إنفاقاً خيراً، فإنه عائد لأنفسكم إذ تعطون بدله في الدنيا والآخرة ﴿**ومن يوق**﴾ أي يحفظ ﴿**شح نفسه**﴾ أي بخلها، بأن يحفظه الله سبحانه من البخل، فينفق كما أمر الله سبحانه ﴿**فأولئك**﴾ المتصفون بتلك الصفات أو من وقي شح نفسه ﴿**هم المفلحون**﴾ الفائزون، من أفلح بمعنى فاز وظفر بالسعادة.

[١٨] ثم أن هذا المال الذي ينفقه الإنسان لا يذهب ضياعاً بلا عوض بل هو بمنزلة قرض يقرضه الإنسان لله سبحانه، فيرده عليه أضعافاً مضاعفة ﴿**إن تقرضوا الله قرضاً حسناً**﴾ بأن يكون الإنفاق لله وفي سبيله بلا منّ ولا رياء ولا سمعة ولا حب المدح وما أشبه من مفسدات العمل ﴿**يضاعفه**﴾ الله ﴿**لكم**﴾ أي يعطي بدله أضعافاً، حتى أن الواحد يصل عوضه إلى سبعمائة وأكثر ﴿**ويغفر لكم**﴾ ذنوبكم بسبب ذلك الإنفاق ﴿**والله شكور**﴾ أي فاعل الشكر، فإن الإنسان الشاكر يثني المشكور ويبذل له عوض عمله، وهكذا الله سبحانه يمدح المعطي ويبذل له عوضه ﴿**حليم**﴾ فلا يعاجل العاصي بالعقوبة، فهو شاكر للمطيع، حليم عن العاصي.



[١٩] وهو يعلم كل إنفاق وعمل صالح، فلا يضيع الحسن عنده، فإنه ﴿عالم الغيب﴾ ما غاب عن الحواس ﴿والشهادة﴾ ما ظهر، أي السر والعلانية والمحسوس وغير المحسوس ﴿العزيز﴾ الغالب في سلطانه فيقدر على كل شيء ﴿الحكيم﴾ الذي يفعل الأشياء حسب الحكمة والصلاح.



سُورة الطلاق

مدنية/آياتها (١٣)

سميت السورة بهذا الاسم لاشتمالها على هذه المادة «طلقتم» وغيره، وهي كسائر السور المدنية مشتملة على النظام إلى جنب العقيدة، وحيث ختمت سورة التغابن بالتحذير من بعض النساء، ابتدأت هذه السورة ببعض أحكامهن.



[١] ﴿**بسم الله الرحمن الرحيم**﴾ نستعين باسم الإلة ليكون عوناً لنا في مهامنا، فإنه خير مستعان إذ له العلم والقدرة والحكمة، الرحمن الرحيم الذي يتفضل بالرحمة ولو كان الإنسان عاصياً له غير مطيع لأوامره، فهو يتفضل فوق الاستحقاق ويعين وإن لم يستحق المستعين الإعانة.

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحۡصُواْ ٱلۡعِدَّةَۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمۡۖ لَا تُخۡرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخۡرُجۡنَ إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖۚ

[٢] ﴿**يا أيها النبي**﴾ خطاب للرسول صلى الله عليه وآله وسلم وحيث أن خطاب العظيم يراد به هو ومن معه جاء السياق بلفظ الجمع في قوله ﴿**إذا طلقتم النساء**﴾ أي أردتم طلاق النساء، فإن الفعل يستعمل بمعنى الإرادة، كما أن الإرادة تستعمل بمعنى الفعل ـ كما سبق ـ ﴿**فطلقوهن لعدتهن**﴾ أي وقت عدتهن، وهي كونهن في طهر غير المواقعة، فإن «العدة» بمعنى التعداد، والعدد، و «لام» لعدتهن، للتعدية، أي كون الطلاق في العدة التي هي أيام الطهر ﴿**وأحصوا العدة**﴾ أي احسبوا أيام عدة المرأة التي إذا مرت خرجت من حبالة الزوج الأول وجاز أن تنكح رجلاً جديداً ﴿**واتقوا الله ربكم**﴾ فلا تخالفوا أمره بالطلاق في حال الحيض، أو عدم إحصاء العدة حتى تبقى المطلقة تنتظر الانقضاء، لتكوين بيت جديد، ولا تعرف ذلك.

﴿**لا تخرجوهن**﴾ المطلقات ﴿**من بيوتهن**﴾ أي مساكنهن وقت الطلاق حتى تنقضي العدة، فإن سكناها ما دامت في العدة على الزوج ﴿**ولا يخرجن**﴾ هن من البيوت مدة العدة فإن خرجت بلا ضرورة أثمت ﴿**إلا أن يأتين بفاحشة**﴾ معصية فاحشة أي متجاوزة في الإثم ﴿**مبينة**﴾ أي ظاهرة كالزنى، كما روي عن الصادق عليه السلام[1]، فإذا زنت أخرجت عن البيت ليقام عليها الحد، وفي بعض الروايات تفسيرها بأن

(١) من لايحضره الفقيه: ج٣ ص٤٩٩ .

وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ۚ لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا ﴿٢﴾ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا۟ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ

تؤذي أهل البيت بلسانها فإنها تخرج إلى محل آخر وذلك لإيذائها[1] ﴿**وتلك**﴾ الأحكام التي ذكرت للطلاق ﴿**حدود الله ومن يتعد حدود الله**﴾ بأن يخالف أحكامه ﴿**فقد ظلم نفسه**﴾ أي عرضها للعقاب والنكال، ثم بين سبحانه بعض الحكمة في الأحكام المتقدمة بقوله ﴿**لا تدري**﴾ النفس ﴿**لعل الله**﴾ سبحانه ﴿**يحدث بعد ذلك**﴾ العزم على الطلاق، أو بعد ذلك الطلاق، ﴿**أمراً**﴾ فإن تأخير الطلاق إلى الطهر الذي لم يواقع فيه ربما يغير من رأي الزوج، فلا يطلق وجعل العدة وعدم الإخراج من البيت ربما أوجب نزولهما عن الغضب الموجب للطلاق فيتراجعا عما قصدا من الطلاق.

[٣] ﴿**فإذا بلغن**﴾ النساء المطلقات ﴿**أجلهن**﴾ أي وصلن إلى رأس المدة - قبل انقضاء العدة - بأن بقيت من العدة شيء، تخبر الرجل بين أن يرجع إليهن، أو يذرهن حتى تنقضي العدة ﴿**فأمسكوهن**﴾ إن أردتم الرجوع ﴿**بمعروف**﴾ أن تعاشروهن كما أمر الله سبحانه بالحسنى ﴿**أو فارقوهن**﴾ بأن تدعوهن على حالهن حتى تنقضي العدة ﴿**بمعروف**﴾ بدون إيذاء لها، وأخذ بعض أثاثها، أو إثارة قلاقل حولها كما هو من فعل الجهال. ﴿**وأشهدوا**﴾ إذا أردتم الطلاق ﴿**ذوي عدل منكم**﴾ أي

(١) وسائل الشيعة: ج٢٢ ص٢٢٠ .

وَأَقِيمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِۚ ذَٰلِكُمۡ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ﴿٣﴾ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ

نفرين عادلين من المسلمين حتى يشهدان على الطلاق، والعدالة عبارة عن ملكة في النفس تبعث على الإتيان بالواجبات والترك للمحرمات خوفاً من الله سبحانه، والمعنى أنه يلزم حضور شاهدين عادلين عند إجراء صيغة الطلاق «وذوي» جمع أريد به الإثنان فما فوق، كما فسر في الأحاديث، ﴿**وأقيموا**﴾ أيها الشهود ﴿**الشهادة**﴾ إذا احتاج أحد الطرفين إلى الإشهاد ﴿**لله**﴾ فلا تحرفوا فيها، فإن الأمر إذا جاء به الإنسان لله، راقبه سبحانه، كي لا يزيد ولا ينقص ﴿**ذلكم**﴾ «ذا» إشارة و «كم» خطاب، أي ذلك الذي تقدم من إقامة الشهادة لله، ﴿**يوعظ به من كان يؤمن بالله واليوم الآخر**﴾ فإنه هو الذي يخاف الله ويقيم الشهادة لله، أما غيره فلا يهتم بالحقيقة وهذا كناية عن أن الانحراف في الشهادة كاشف عن عدم الإتيان ﴿**ومن يتق الله**﴾ أي يخافه سبحانه، فيعمل حسب أوامره ﴿**يجعل له مخرجاً**﴾ من مشاكله.

[٤] فلا يظن الإنسان أنه إذا شهد بالحق وقع في المشكلة حيث يغضب عليه المبطل الذي يريد منه الشهادة بالباطل كما لا يزعم أنه يوجب قطع رزقه حيث أن المبطل ربما كان هو السبب في رزقه أو أن له القدرة في أن يسبب إلى ولي رزقه أن يمنعه عنه ﴿**ويرزقه**﴾ الله ﴿**من حيث لا يحتسب**﴾ أي من مكان لا يظن أن يأتي من ذلك المكان الرزق، ولصدق هذا الكلام شواهد كثيرة عند المجربين، ومن الأمثلة البارزة الآن أمامي رجل قتل فاحشة طمعاً في مالها وألقاها في النهر، ثم

وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ﴿٤﴾ وَٱلَّٰٓـِٔى يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ

أعطى مرتزقته الشركاء معه في الإثم أموالاً لئلا يشهدوا عند القاضي وهددهم إن شهدوا، وانتشر الخبر وجاء القاضي يحلف الشهود بالقرآن الكريم، فحلف الكل بالإنكار إلاّ واحد منهم كان صاحباً لهذا المجرم، فإنه قال لا أحلف بالقرآن كذباً، وشهد بالحق وفر من المجرم بعد «ومن الغريب» أن القاضي حكم على المجرم بهذا الشاهد الواحد، وابتلى الكل، إلا هذا الصادق فإنه تاب من أعماله السابقة وهو إلى اليوم في الحياة يمدحه من يعرفه، بينما أن أولئك سجنوا وغرموا، ومات بعضهم في شبابه.

﴿**ومن يتوكل على الله فهو حسبه**﴾ أي من يكل أموره إلى الله يكفيه كل مخوف ومشكلة وينجيه من كل هلكة ﴿**إن الله بالغ أمره**﴾، أي يبلغ ما يريده ولا يفوته شيء من إرادته، فلا يزعم الزاعم أن وعده سبحانه يمكن فيه الخلف ﴿**قد جعل الله لكل شيء قدراً**﴾ أي مقداراً وتقديراً وتسير أموره حسب ذلك فإذا جعل تقدير المتقي الكفاية والرزق لا بد وأن يكون كما أراد بلا خلف.

[٥] ثم بين سبحانه مقدار العدة التي إذا انقضت حل للزوجة أن تنكح زوجاً جديداً ﴿**واللائي**﴾ جمع التي أي النساء المطلقات اللائي ﴿**يئسن من المحيض**﴾ أي يئسن من الحيض فلا يحضن ﴿**من نسائكم إن ارتبتم**﴾ أي شككتم في أمرهن فلا تدرون أن انقطاع الحيض لكبرهن ويأسهن أي بلوغهن سن اليأس، وهو خمسون في غير القرشية والنبطية،

فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشْهُرٍ وَٱلَّٰٓـِٔي لَمْ يَحِضْنَ ۚ وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ أَمْرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيْكُمْ ۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا ﴿٦﴾

وستون فيهما أم لعارض ﴿**فعدتهن ثلاثة أشهر**﴾ فإذا أكملن الثلاثة خرجن من العدة، أما اليائسة فلا عدة لها إذ يجوز لها الزواج بزوج جديد بمجرد الطلاق ﴿**واللائي لم يحضن**﴾ بعد لصغر السن، أو لمرض وغيره، كذلك عدتهن ثلاثة أشهر ﴿**وأولات الأحمال**﴾ أي النساء الحاملات إذا طلقن ﴿**أجلهن**﴾ أي مدة انتظار عدتهن ﴿**أن يضعن حملهن**﴾ فإذا وضعن حملهن فقد انقضت العدة سواء طال الزمان بين الطلاق والولادة أم قصر ﴿**ومن يتق الله**﴾ فلا يخالف أوامره ﴿**يجعل له من أمره يسراً**﴾ أي يسهل أموره حتى لا يقع في المشاكل، وحيث إن هذه الأحكام توجب كبت الغرائز بالنسبة إلى الرجل الذي يريد نكاحهن، وبالنسبة إليهن لفّها السياق بلفائف من التقوى تذكيراً وعظة، لئلا يزلق قدم المرأة أو الرجل المريد للنكاح في مهاوي المخالفة.

[٦] ﴿**ذلك**﴾ الذي ذكر من أحكام الطلاق ﴿**أمر الله**﴾ وحكمه ﴿**أنزله إليكم**﴾ لمصالحكم ﴿**ومن يتق الله**﴾ أي يخافه فلا يخالفه ﴿**يكفر عنه سيئاته**﴾ أي يغفر له ذنوبه، فإن التكفير هو التغطية والستر ﴿**ويعظم له أجراً**﴾ أي يعطيه الأجر العظيم والثواب الجسيم في الآخرة.

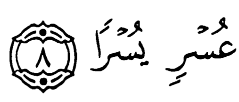
[٧] ثم بيّن سبحانه حال المطلقة في النفقة والسكنى، مدة العدة فقال

أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُواْ عَلَيْهِنَّ وَإِن كُنَّ أُوْلَٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُواْ عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأْتَمِرُواْ بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ ﴿٧﴾

﴿أسكنوهن﴾ أي النساء المطلقات في بيوتكم ﴿من حيث سكنتم﴾ أي مكاناً من سكناكم ومحلكم ﴿من وُجدكم﴾ أي من ما تقدرون عليه، من وجد بمعنى قدر وتمكن، أي من سعتكم ﴿ولا تضاروهن﴾ أي لا تسببوا ضرراً عليهن في السكنى ﴿لتضيقوا عليهن﴾ أي طالبين بالإصرار التضييق عليهن لإزعاجهن حتى يضطررن إلى الزوج.

﴿وإن كن﴾ تلك المطلقات ﴿أولات حمل﴾ أي حاملات ﴿فأنفقوا عليهن﴾ بالكسوة والأكل والشرب وما أشبه ﴿حتى يضعن حملهن﴾ فإن انقضاء عدتهن بالوضع ﴿فإن أرضعن لكم﴾ أولادكم بعد الوضع ﴿فآتوهن﴾ أي أعطوهن ﴿أجورهن﴾ أي أجرة الإرضاع إذ الواجب على الوالد نفقة ولده ﴿وأتمروا﴾ أيها الأبوان والمتعلقون بهما ﴿بينكم﴾ بعضكم مع بعض في أمر إرضاع الولد بما هو الأصلح بحال الجميع لئلا يتضرر أحد من الأطراف الثلاثة الأب والأم والولد، والائتمار قبول الأمر وملاقاته بالتقبل ﴿بمعروف﴾ مقابل المنكر، فلا يكون التشاور بقصد الإضرار وإثارة الأحقاد والكوامن، بل بقصد الإحسان والعدالة ﴿وإن تعاسرتم﴾ أيها المتشاورون في أمر إرضاع الولد، بأن اختلفتم في أمر الأم المرضعة ومقدار الأجرة وما أشبه ذلك ﴿فسترضع له﴾ أي للولد امرأة ﴿أخرى﴾ غير الأم، والمعنى

لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا



فلتسترضع الولد امرأة غير الأم، ولعل فيه إشارة إلى معاتبة الأم بأنها لا ينبغي لها المعاسرة.

[٨] ثم بين سبحانه أن المندوب على الوالد أن يوسع على المطلقة المرضعة، إن كان له سعة ﴿**لينفق ذو سعة**﴾، في المال ﴿**من سعته**﴾ بأن يوسع على المرضعة في الأجرة، ألم تكن زوجته، وأم ولده، ومرضعته؟ ﴿**ومن قدر**﴾ أي ضيق ﴿**عليه رزقه**﴾ بأن لم يكن للأب سعة ﴿**فلينفق**﴾ على المرضعة ﴿**مما آتاه الله**﴾ بقدر التمكن الذي أعطاه الله سبحانه ذلك فلا يطلب من مثل هذا الشخص الزيادة على أجرة المثل ﴿**لا يكلف الله نفساً**﴾ أي أحداً ﴿**إلا ما آتاها**﴾ أي بقدر ما أعطاه من الطاقة المالية، كما لا يكلف إلا بقدر الطاقة الجسدية وسائر الطاقات، ولا يغتم المملق بأنه ليس له، كما يكون الأب المملق كثيراً ما يتحسر على أنه لا يجد الزائد حتى يبذل لمربية ولده ومرضعته، فإنه ﴿**سيجعل الله**﴾ في مستقبل الإملاق ﴿**بعد عسر يسراً**﴾ بعد فقر غنى ـ وبعد ذلة عزة ـ وبعد انحطاط رفعة وهكذا في سائر الأمور.

فإن الدهر مختلفاً يدور
فلا حزن يدوم ولا سرور

وقد بنت الملوك به قصوراً
فما بقي الملوك ولا القصور

وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٩﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴿١٠﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ

[٩] وإذ بين الأحكام، جاء السياق ليبين، أن العاتي العاصي لهذه الأحكام وغيرها، مصيره مصير الأقوام السابقين، الذين أهلكوا بسبب طغيانهم وعتوهم ﴿**وكأين**﴾ بمعنى ـ كم ـ الخبرية المفيدة للتكثير ﴿**من قرية**﴾ من للتبيين والمراد البلدة ﴿**عتت**﴾ أي طغت ﴿**عن أمر ربها**﴾ فلم تطع أوامر الله سبحانه، والمراد أهل القرية، بعلاقة الحال والمحل ﴿**ورسله**﴾ أي عن أمر رسله، بأن لم يطيعوا رسل الله سبحانه ﴿**فحاسبناها حساباً شديداً**﴾ مقابل السماح في الحساب، فإن الإنسان المؤمن العامل بالصالحات يعفى عن جرائمه ويحاسب حساباً يسيراً، جزاءً على إيمانه وعمله، أما العاتي الطاغي، فإنه يحاسب على كل عمل عمله ﴿**وعذبناها عذاباً نكراً**﴾ أي عذاباً منكراً أليماً، والمراد بالمحاسبة في الملأ الأعلى حولهم لا محاسبتهم بالذات إذ الحساب إنما هو بعد الموت، والسياق يفيد كون حساب أولئك قبل عذابهم في الدنيا.

[١٠] ﴿**فذاقت**﴾ تلك القرية ﴿**وبال أمرها**﴾ أي عاقبة صنيعها الشر ﴿**وكان عاقبة أمرها خسراً**﴾ أي خسرت الدنيا وخسرت الآخرة.

[١١] ذلك في الدنيا وقد ﴿**أعد الله**﴾ أي بقي ﴿**لهم**﴾ أي لأهل القرية، ﴿**عذاباً شديداً**﴾ في الآخرة ﴿**فاتقوا الله**﴾ أي خافوا عقابه ﴿**يا أولي الألباب**﴾ أي أصحاب العقول، فإن ألباب جمع لُب، وهو العقل اتقوه

ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ۚ قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١١﴾ رَّسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ

سبحانه حتى لا ينزل بكم مثل ما نزل بأولئك الأمم ﴿**الذين آمنوا**﴾ وصف لأولي الألباب، وإنما وصفهم بذلك لأنهم هم المنتفعون بالتحذير ﴿**قد أنزل الله إليكم ذكراً**﴾ أي مذكراً يذكركم بأس الله وعذابه، والانحراف بعد التذكير أقبح.

[١٢] ثم بين سبحانه الذكر المنزل بقوله ﴿**رسولاً**﴾ أي محمداً ﷺ وكونه منزلاً، باعتبار أنه مبعوث من طرف الله سبحانه تشبيهاً للنزول المعنوي الحسي ﴿**يتلو**﴾ أي يقرأ هذا الرسول ﴿**عليكم**﴾ أيها الناس ﴿**آيات الله**﴾ أدلته وحججه التكوينية، في حال كونها ﴿**مبينات**﴾ أي في حال الآيات تبين وتوضح الأمر وإنما يتلو ﴿**ليخرج الذين آمنوا**﴾ بالله ورسوله وما جاء به ﴿**وعملوا الصالحات من الظلمات**﴾ أي ظلمات الكفر والعصيان ﴿**إلى النور**﴾ أي نور الإيمان والعمل الصالح، وإنما شبه الإيمان بالنور، لأنه ينير الإنسان ليدرك الحقيقة ـ في العقيدة والعمل ـ فمن زعم أنه لا إله أو للإله شريك فهو في ظلمة عن الحقيقة كالإنسان الذي في ظلمة الليل لا يدرك ما أمامه من الأشياء، وكذلك بالنسبة إلى من يشرب الخمر، يزعم أنها لا تضر، فإنه في ظلمة من الحقيقة، وقس على ذلك سائر الاعتقادات والأعمال.

وقوله «الذين آمنوا» يراد بهم ذواتهم قبل الإيمان، وإنما جيء الوصف للإشارة بهم لا أن المراد إخراجهم بعد الإيمان والعمل

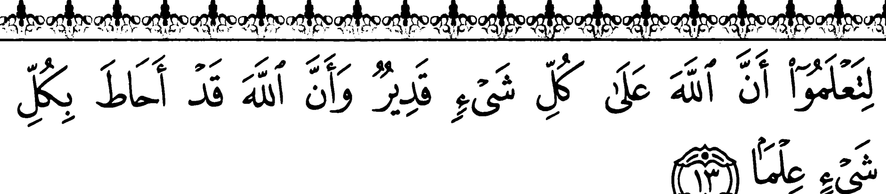
وَمَن يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا (١٢) اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ

الصالح، لأنهم مخرجون بعد ذلك حين الاتصاف ـ كما لا يخفى ـ **﴿ومن يؤمن بالله﴾** إيماناً صحيحاً **﴿ويعمل﴾** عملاً **﴿صالحاً﴾** الملازم لعدم العمل الفاسد **﴿يدخله﴾** الله في الآخرة **﴿جنات تجري من تحتها﴾** أي تحت أشجارها وقصورها **﴿الأنهار﴾** من خمر وعسل ولبن وماء في حال كونهم **﴿خالدين﴾** أي دائمين **﴿فيها﴾** في تلك الجنات **﴿أبداً﴾** بلا نهاية و **﴿قد أحسن الله له﴾** أي لهذا الإنسان المؤمن العامل بالصالحات **﴿رزقاً﴾** إذ يعطى من ثمار الجنة ومياهها وأزواجها وسائر لوازم العيش الراقية.

[١٣] ثم بين سبحانه وصفه ـ ليخاف العاصي ـ ويطمئن المؤمن لوعده بقوله **﴿الله الذي خلق سبع سماوات﴾** لعل المراد بها مدارات الكواكب السيارة، أو ما أشبه **﴿ومن الأرض مثلهن﴾** سبعاً، وقد قال الإمام الرضا عليه السلام أرض تحيط بها سماؤها، ثم أرض تحيط بها سماؤها، إلى أن عدَّ سبعة، وتفصيل الكلام في كتاب ـ الهيئة والإسلام ـ.[1]

وضمير «هن» تأتي للعاقل وغير العاقل كما سبق **﴿يتنزل الأمر بينهن﴾** أي أن أمر الله سبحانه يتنزل من كل سماء إلى أرضها، وهكذا حتى يصل الأرض الأخيرة، وإنما خلق سبحانه ما خلق، مما يشاهده

(١) للعلامة الشهرستاني.



الإنسان ﴿**لتعلموا**﴾ أيها البشر ﴿**أن الله على كل شيء قدير**﴾ قادر على العقاب والثواب، كما قدر على خلق الأفلاك والأرضين ﴿**وأن الله قد أحاط بكل شيءٍ علماً**﴾ فإن الخلق يدل على العلم، إذ لولا العلم لم يمكن الخلق، كما أن سير الكون المشار إليه بقوله «يتنزل الأمر بينهن» دالٌّ على العلم، إذ التسيير محتاج إلى العلم الدقيق.



سورة التحريم

مدنية/آياتها (١٣)

سميت السورة بهذا الاسم لاشتمالها على هذه المادة وهي قوله «لم تحرم» وهذه السورة كسائر السور المدنية، مشتملة على النظام إلى جنب العقيدة وحيث ذكرت في سورة الطلاق أحكام النساء، جاءت هذه السورة لبيان بعض الأمور التي ترتبط بهن.



[١] ﴿**بسم الله الرحمن الرحيم**﴾ نستعين باسم الإله الذي هو خير معين لمن استعان به، وهل أحق بالاستعانة منه، إنه المالك لكل شيء الرحمن الرحيم الذي يتفضل باللطف والإحسان، القادر لكل ما أراد.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ ۖ تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٢ قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾

[٢] ﴿**يا أيها النبي**﴾ خطاب للرسول ﷺ ﴿**لم تحرم ما أحل الله لك**﴾ أي لماذا تحلف لتحرم على نفسك بعض ما أحل الله لك، وقد كان التحريم للحلال بالحلف جائزاً، لكن الله سبحانه بين للرسول أن حلفه حول هذا الموضوع محلولة ـ بهذا التعبير ـ تأنيباً لعائشة وحفصة اللتين آذتا الرسول ﷺ حتى حلف ما حلف.

فقد روى البخاري ـ صاحب الصحيح عند العامة ـ عن عائشة قالت: كان النبي ﷺ يشرب عسلاً عند زينب بنت جحش ويمكث عندها، فتوطأت أنا وحفصة على زينب إذ دخل عليها فلنقل له أكلت مغافير وهو صمغ حلو الطعم كريه الرائحة، إني أجد منك ريح مغافير، قال ﷺ: لا ولكن كنت أشرب عسلاً عند زينب بنت جحش فلن أعود له، وقد حلفت لا تخبري بذلك أحداً[١] ﴿**تبتغي مرضات أزواجك**﴾ أي تطلب بالتحريم رضى زوجاتك، وقد سبق في بعض الآيات أن الأغراض قد تأتي لا للمخاطب بل تقريع الغير ﴿**والله غفور**﴾ يستر على عباده، فإن تحلة اليمين، تحتاج إلى التحلة حتى لايقال كيف خالف الرسول حلفه، وحنث ﴿**رحيم**﴾ يتفضل بالرحم، علاوة على الغفران.

[٣] ﴿**قد فرض الله لكم**﴾ الظاهر كون الخطاب للرسول، وإنما أتى بصيغة الجمع احتراماً، وقد تقدم سابقاً، أن الجمع والمفرد يتناوبان في حمل

---

(١) الطرائف في معرفة مذاهب الطوائف: ج١ ص٢٩٤ .

تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْۚ وَٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣﴾ وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ

أحدهما على الآخر، لنكتة بلاغية، أي أوجب عليكم ﴿**تحلة أيمانكم**﴾ بأن تحلوها فلا تتبعون مفادها، والمراد أن يشرب النبي ﷺ العسل فهو له حلال، وإن الله قد أحل حلفه التي حلفها أنه لا يشرب العسل طلباً لرضى بعض نسائه ﴿**والله مولاكم**﴾ فإذا حل اليمين فقد انحلت كما أن للمولى الحق في أن يحل يمين العبد ﴿**وهو العليم**﴾ بمصالحكم ﴿**الحكيم**﴾ فيما يأمر وينهي، فإذا عرف الصلاح في شيء كان كما أمر فشرب العسل حلالاً للرسول ﷺ وفيه الحكمة والصلاح.

[٤] ثم يأتي السياق ليشير إلى طرف من القصة بقوله سبحانه: ﴿**و**﴾ اذكر يا رسول الله، ولعل ذلك لإفادة أن الرسول ﷺ كيف كان يؤذى من قبل أزواجه كما كان يؤذى من قبل أناس آخرين تفضيحاً لهن في إيذائهن للرسول، ﴿**إذ أسر النبي إلى بعض أزواجه حديثاً**﴾ أي حدثها سراً لتحريم العسل على نفسه ـ والمراد ببعض الأزواج ـ عائشة ـ أو حفصة ـ ولعل إسرار الرسول ﷺ كان لأجل أن لا يقول الناس إنه يحرم شيئاً على نفسه لمجرد رضى زوجته ﴿**فلما نبأت به**﴾ أي أخبرت تلك الزوجة امرأة أخرى بذلك الحديث السري، فقد ورد عن طريق العامة إن الرسول ﷺ أخبر عائشة بحلفه وأمرها بالإسرار لكنها خالفت وأخبرت حفصة ﴿**وأظهره الله عليه**﴾ أي أطلع الله نبيه على ما جرى منها في إفشاء سره ﴿**عرف**﴾ الرسول «عائشة» ﴿**بعضه**﴾ أي بعض ما

وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَٰذَا قَالَ نَبَّأَنِىَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٤﴾ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ

ذكرت «لحفصة» أراد بذلك بيان أنها خالفته في إفشاء سره ﴿**وأعرض**﴾ الرسول ﷺ ﴿**عن بعض**﴾ فإن من محامد الأخلاق أن لا يذكر الإنسان جميع جريمة المجرم وإنما يلمح إليها تلميحاً تأديباً فإن التغافل من خلق الكرام.

﴿**فلما نبأها**﴾ أي أخبر الرسول ﷺ عائشة ﴿**به**﴾ أي بما أعلمه الله سبحانه له من إفشائها سره عند «حفصة» ﴿**قالت**﴾ «عائشة» متعجبة من علم الرسول ﷺ بإفشائها سره ﴿**من أنبأك هذا**﴾ أي من أخبرك بأني أفشيت سرك يا رسول الله ﴿**قال**﴾ الرسول ﷺ في جوابها ﴿**نبأني**﴾ أي أخبرني ﴿**العليم**﴾ بجميع الأمور ﴿**الخبير**﴾ بدقائقها، فإن الخبير غالباً ما يطلق على العالم النحرير المطلع على دقائق الأمور.

[٥] ثم توجه الخطاب إلى «عائشة» و «حفصة» اللتين دبرتا هذه المؤامرة مهدداً لهما بقوله ﴿**إن تتوبا**﴾ أيتها المرأتان ﴿**إلى الله**﴾ بأن تستغفرا مما سلف منكما من إيذاء الرسول ﷺ والتظاهر ضده والافتراء عليه ﴿**فقد صغت قلوبكما**﴾ أي مالت إلى الإثم والباطل، من «صغى» بمعنى مال وقد جرت القاعدة على أن التثنية إذا أضيفت إلى التثنية جاز في المضاف الجمع ـ نحو قلوبكما ـ وهو الأفضل والإفراد، وهو الأوسط، والتثنية وهو الأدون.

﴿**وإن تظاهرا عليه**﴾ أي تتظاهرا، حذفت إحدى تائيه للقاعدة في

فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ﴿٥﴾ عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ

باب المضارع إذا اجتمع في أوله تاءان، والتظاهر هو أن يقوّي بعض ظهر بعض بالتوحيد بينهم لمطالبة أمر، أو لمضادة أمر ﴿**فإن الله هو مولاه**﴾ أي ناصر الرسول يتولى حفظه وحياطته حتى لا يؤثر فيه المكر والمكيدة ﴿**وجبريل**﴾ معين للرسول، بإخباره عن قبل الله بما يراد ضده ﴿**وصالح المؤمنين**﴾ أي خيار المؤمنين، والمراد بـ «صالح» الجنس، يعني أنهم ينصرون الرسول ضد المؤامرات والمظاهرات ﴿**و**﴾ سائر ﴿**الملائكة بعد ذلك**﴾ أي بعدما تقدم من نصرة الله وجبرئيل والمؤمنين ﴿**ظهير**﴾ للرسول يقوون ظهره، والإتيان بالمفرد، وصفاً للجمع باعتبار كل واحد واحد، نحو (فَانظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ)[1] و (وَحَسُنَ أُوْلَئِكَ رَفِيقاً)[2] وقد تقدم أن كلاً من المفرد والجمع يقوم مقام الآخر، باعتبار بلاغي. وقد حذف جواب الشرطين، والتقدير «أن تتوبا إلى الله كانت التوبة في موقعها إذ قد صغت» «وإن تظاهرا عليه، لا يضره التظاهر، إذ الله مولاه».

[٦] ثم جاء السياق ليقلل من أهميتهما، فإن للرسول ﷺ أن يطلقهما، حتى تبوءا بعار المؤامرة والطلاق ولا يبقى الرسول ﷺ بلا زوجة فإن الله يزوجه بمن هي خير منهما ﴿**عسى ربه**﴾ أي لعل الله سبحانه ولعل ليس للرجاء، بل بمعنى الاحتمال الراجح ﴿**إن طلقكن**﴾ المراد إما

---

(١) البقرة: ٢٦٠ .

(٢) النساء: ٧٠ .

أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا ﴿٦﴾

الاثنتان، أو الكل، أو من اشتركت في المؤامرة فإن الحديث تفشى في غيرهما أيضاً ﴿أن يبدله﴾ أي يعوض للرسول ﷺ ﴿أزواجاً خيراً منكن﴾ في الإيمان، وفي مراعاة حقوق الرسول ﷺ ثم وصف تلك أزواجاً بما فيه تعريض بهن ﴿مسلمات﴾ كاملات الإسلام ﴿مؤمنات﴾ مصدقات بالله والرسول، والإسلام هو الاستسلام، فالإيمان أخص منه، كما قال (قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ)[1] . ﴿قانتات﴾ مطيعات لله، خاضعات للرسول ﴿تائبات﴾ عن المعاصي التي تصدر منهن أحياناً، فلا إصرار لهن على الذنب ﴿عابدات﴾ يعبدن الله سبحانه فوق القدر اللازم المفروض من العبادة ﴿سائحات﴾ أي صائمات ـ كما ورد: سياحة أمتي الصوم[2] ـ أو ماضيات في أمر الله والرسول كالسائح الذي يضرب في الأرض ﴿ثيبات﴾ قد رأين الزوج قبل الرسول ﴿وأبكاراً﴾ أي عذارى لم يكن لهن أزواج ـ كما أنتن حين دخلتن بيت الرسول كنتن على قسمين ـ.

[٧] ثم توجه السياق إلى الناس موجباً لهم تأديب نسائهم، قالوا وقد تدرجت الفريضة في البلاغ من النفس إلى العموم حسب الإمكان في خمس آيات وهي النفس أولاً بقوله: (عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لاَ يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ)[3] والأهل ثانياً بقوله: (آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً)[4]

---

(١) الحجرات: ١٥ .
(٢) مستدرك الوسائل: ج١٦ ص٥٤ .
(٣) المائدة: ١٠٦ .
(٤) التحريم: ٧ .

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٧﴾﴾

والعشيرة ثالثاً بقوله: (وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ)[١] وأهل البلدة رابعاً بقوله (وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ)[٢] وأهل العالم أجمع خامساً بقوله: (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ)[٣] والرسول ﷺ أسوة، وبقوله: (وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ)[٤].

﴿**يا أيها الذين آمنوا قوا**﴾ أمر للجمع المذكر، من «وقى» بمعنى حفظ، أي احفظوا ﴿**أنفسكم وأهليكم**﴾ وهو عائلة الإنسان من أولاده وزوجته وأخوته ومن شابههم ﴿**ناراً**﴾ عن نار جهنم التي هي بهذه الصفة ﴿**وقودها**﴾ أي حطبها الموجب لإيقادها وإشعالها ﴿**الناس والحجارة**﴾ وهما يزيدان في قوة النار لدسومة الأول وصلابة الثاني ﴿**عليها**﴾ أي المأمورون على تلك النار ﴿**ملائكة**﴾ جمع ملك وأصله من الألوكة، بمعنى الرسالة لأن الملائكة رسل من قبله سبحانه إلى الأنبياء ﴿**غلاظ**﴾ جمع غليظ وكأن المراد غليظ القلب فلا يرحم أحداً ﴿**شداد**﴾ جمع شديد، وكأن المراد شديد البنية والقوة، فما أراد تمكن منه ﴿**لا يعصون الله ما أمرهم**﴾ من عذاب أهل النار، فلا يرتشون ولا يميلون نحو الكفار مخالفة لله سبحانه ﴿**ويفعلون ما يؤمرون**﴾ من قبل الله سبحانه، وهذا تأكيد لما سبق بأنهم لا يعصون.

---

(١) الشعراء: ٢١٥ .

(٢) التوبة: ١٢٢ .

(٣) سبأ: ٢٩ .

(٤) آل عمران: ١٠٥ .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَعۡتَذِرُواْ ٱلۡيَوۡمَۖ إِنَّمَا تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيُدۡخِلَكُمۡ جَنَّٰتٍ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ

---

[٨] وإذ دخل الكفار النار، أخذوا يعتذرون على سالف أعمالهم فيقال لهم ﴿**يا أيها الذين كفروا**﴾ في الدنيا ﴿**لا تعتذروا اليوم**﴾ وأنتم في النار ﴿**إنما تجزون ما كنتم تعملون**﴾ فهذه النار جزاء أعمالكم السالفة، ولا يفيد الاعتذار.

[٩] وإذ قد سمعتم أيها المؤمنون بكيفية النار، فاللازم أن تتوبوا ـ وأنتم في الدنيا ـ عن معاصيكم لئلا تدخلوها ﴿**يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله**﴾ من معاصيه وارجعوا إلى طاعته، وتخصيص الخطاب بهم لأنهم المنتفعون به.

﴿**توبة نصوحاً**﴾ أي خالصة لوجه الله سبحانه، بمعنى بالغة في النصح وهو صفة التائب لأنه ينصح نفسه بالتوبة وإسناده إلى التوبة مجاز، فإن الإنسان نصوح في التوبة، والتوبة النصوح هي عبارة عن أن يندم الإنسان أشد الندم على المعصية ويعزم أقوى العزم على ترك مثلها في المستقبل، ويأتي بلوازم التوبة من القضاء والكفارة ورد الحقوق وما أشبه ﴿**عسى ربكم**﴾ أي لعل الله سبحانه إذا تبتم ﴿**أن يكفر عنكم**﴾ أي يستر ويمحي ﴿**سيئاتكم**﴾ أي معاصيكم، وسمى العصيان سيئة لأنها تسيء إلى الإنسان ﴿**ويدخلكم جنات تجري من تحتها**﴾ أي تحت قصورها وأشجارها ﴿**الأنهار**﴾ من عسل وخمر ولبن وماء،

يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ ۖ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ

ويكون إدخال التائب الجنة في ﴿**يوم لا يخزي الله النبي والذين آمنوا معه**﴾ أي لا يذلهم بدخول النار، وكان الإتيان بهذه الجملة للترغيب في إدخال الإنسان نفسه في هذه الزمرة المفضلة.

﴿**نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم**﴾ فإن وجوههم وأيديهم اليمنى ـ التي تحمل الكتاب ـ تشع نوراً يخرق ظلمات المحشر، فإذا تحرك المؤمن كان النور يسبقه من أمامه ومن طرفه الأيمن ﴿**يقولون**﴾ مخاطبين لله سبحانه ﴿**ربنا أتمم لنا نورنا**﴾ بأن يضاعف ويكثر، أو يستمر حتى آخر القيامة فلا يطفأ، أو هو دعاء منهم في الدنيا، بأن يوفقهم لما يكثر نورهم، ويبقيه فلا يزول عنهم بالكفر والعصيان ﴿**واغفر لنا**﴾ معاصينا ﴿**إنك على كل شيء قدير**﴾ من إتمام نورنا وغفران ذنوبنا، وسائر ما تريده وهذا مدح له سبحانه في ضمن الدعاء، فإنَّ الدعاء المتضمن على الثناء أقرب إلى القبول.

[١٠] ﴿**يا أيها النبي جاهد الكفار**﴾ بالقتال والمحاربة ﴿**والمنافقين**﴾ بالزجر والردع ﴿**واغلظ عليهم**﴾ أي اشدد عليهم في الجهاد والزجر، فإن اللين إنما هو للمستقيم المعتدل، أما المنحرف فاللازم معه الشدة حتى يستقيم ﴿**ومأواهم جهنم**﴾ أي مصيرهم، من «آوى» بمعنى اتخذ المنزل

وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿١٠﴾ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمۡرَأَتَ نُوحٖ وَٱمۡرَأَتَ لُوطٖۖ كَانَتَا تَحۡتَ عَبۡدَيۡنِ مِنۡ عِبَادِنَا صَٰلِحَيۡنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمۡ يُغۡنِيَا عَنۡهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗا وَقِيلَ ٱدۡخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴿١١﴾

﴿**وبئس المصير**﴾ أي بئس المأوى جهنم لهم، لما فيها من العذاب والنكال.

[١١] ثم جاء السياق ليضرب مثلاً لأزواج الرسول ﷺ مبيناً أن صلاح الزوج لا ينفع الزوجة إذا كانت منحرفة، كما أن فساد الزوج لا يضر الزوجة إذا كانت مستقيمة، منقادة، على طاعة الرسول وعدم الهوى في مهوى العصيان والمخالفة ﴿**ضرب الله مثلاً للذين كفروا**﴾ مبيناً لهم أن صلاح أصحابهم وذويهم لا ينفعهم ﴿**امرأة نوح وامرأة لوطٍ**﴾ فقد ﴿**كانتا تحت**﴾ إدارة وعيلولة ﴿**عبدين من عبادنا**﴾ هما نوح ولوط ﴿**صالحين**﴾ فهما رسولان من قبل الله سبحانه وأي صلاح أشد من ذلك ﴿**فخانتاهما**﴾ خيانة في الدين، إذ كانتا تنافقان وتؤذيان زوجيهما.

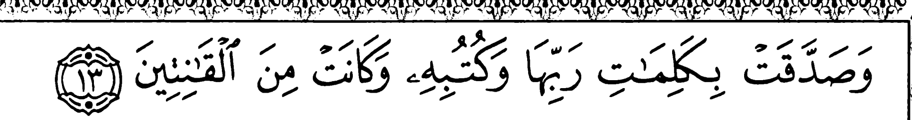
﴿**فلم يغنيا**﴾ أي لم ينفع نوح ولوط ﴿**عنهما**﴾ أي عن الزوجتين ﴿**من**﴾ عذاب ﴿**الله شيئاً**﴾ بأن يخفف عنهما، ولو بعض العذاب ﴿**وقيل**﴾ للزوجتين حين ماتتا ﴿**ادخلا النار مع الداخلين**﴾ فيها، فهما معذبتان مع كونهما زوجتا نبيين، وفي هذا تعريض بعائشة وحفصة اللتين آذتا الرسول ﷺ .

وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٢﴾ وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا

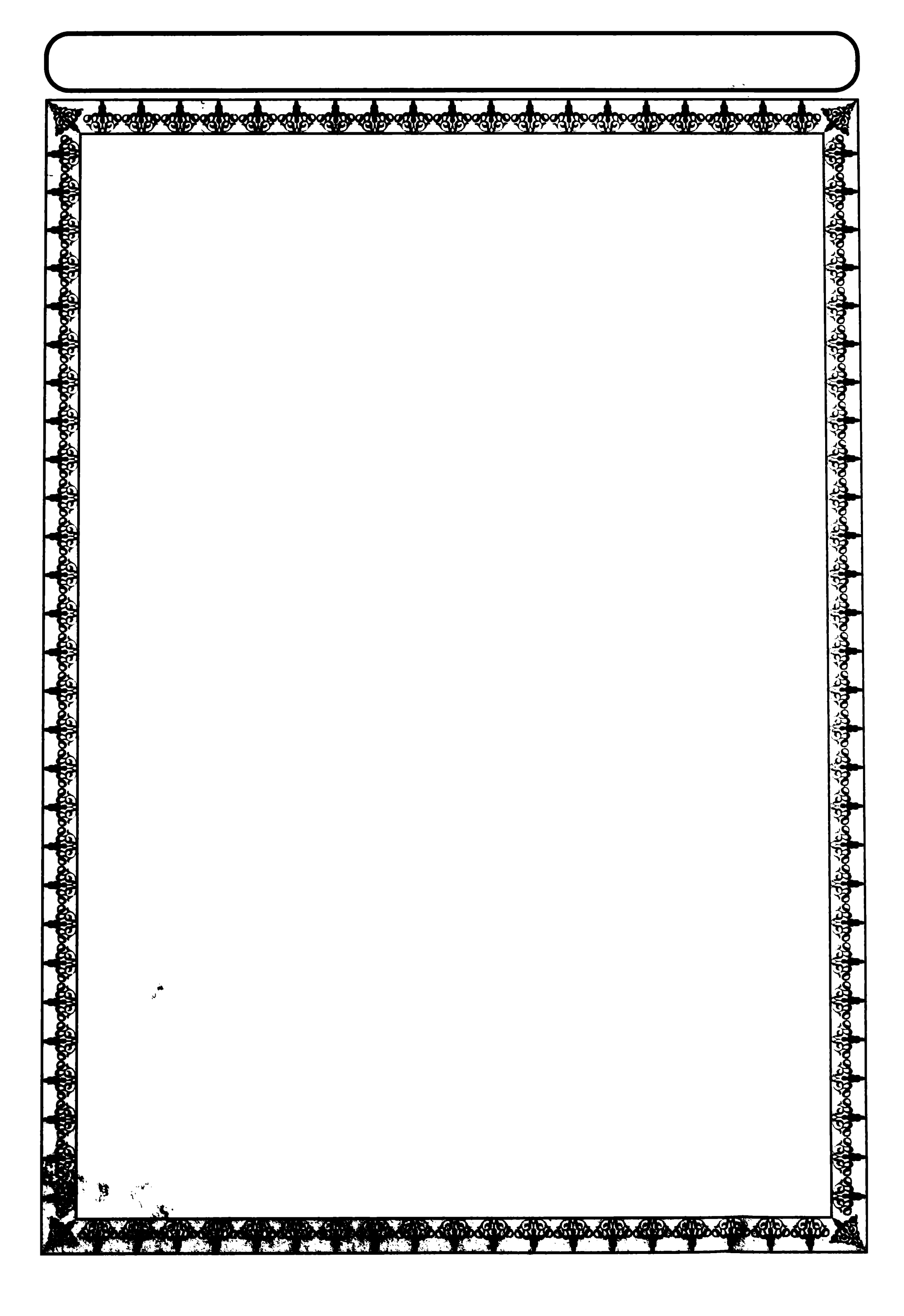
[١٢] ﴿**وضرب الله مثلاً للذين آمنوا**﴾ بياناً لأن الإيمان ينفع صاحبه وإن كان امرأة تحت أكفر الناس ﴿**امرأة فرعون**﴾ آسية بنت مزاحم التي آمنت بموسى وكان زوجها يدعي الربوبية، ويقول أنا ربكم الأعلى ﴿**إذْ قالت**﴾ في مناجاتها لله تعالى يا ﴿**رب ابن لي عندك بيتاً في الجنة**﴾ فإني لاأرغب في بيوت الدنيا ولا أعمل لها ﴿**ونجني من فرعون وعمله**﴾ فإنه كان يعمل بالكفر والعصيان ﴿**ونجني من القوم الظالمين**﴾ أتباع فرعون وحاشيته، فاستجاب الله دعاءها، فقبضها وأدخلها الجنة، ولم يكن يضرها عمل زوجها.

[١٣] كما مثل سبحانه للمؤمنين بامرأة أخرى لم يضرها قول الناس فيها، بعد أن كانت طاهرة ونقية دلالة على أن عمل الغير وقوله السيء لايؤثر في المؤمن شيئاً بعد أن كان هو بنفسه مؤمناً صالحاً ﴿**و**﴾ ضرب الله مثلاً للذين آمنوا ﴿**مريم ابنة عمران التي أحصنت فرجها**﴾ أي حفظته من البغاء، وفيه تكذيب أعداء الله اليهود إذ قالوا فيها ما هم أحق به وأحرى.

﴿**فنفخنا فيه**﴾ أي في فرجها ﴿**من روحنا**﴾ أي الروح المضاف إلينا ـ تشريفاً ـ وذلك كإضافة البيت إليه سبحانه، في قولنا «بيت الله» والمراد به المسيح عليه السلام وكون النفخ فيه باعتبار خروج الولد منه، أو



الضمير عائد إلى «الجسم» أي في جسمها أو «الجيب» أي في جيبها، المعلوم من الخارج، وقد كان النافخ فيه جبرئيل عليه السلام بأمره سبحانه ﴿**وصدقت**﴾ مريم ﴿**بكلمات ربها**﴾ أي بما تكلم الله به وأوحاه إلى أنبيائه من الأصول والفروع ﴿**وكتبه**﴾ النازلة على الرسل ﴿**وكانت من**﴾ جملة ﴿**القانتين**﴾ الخاضعين لله سبحانه، فإنها كانت في بيت المقدس في جملة العباد والزهاد ولذلك قال «القانتين» ولم يقل القانتات. . فعلى المرأة إن كانت ذات زوج أن تقتدي بامرأة فرعون، وإن لم تكن ذات زوج أن تقتدي بمريم الصديقة عليها السلام .

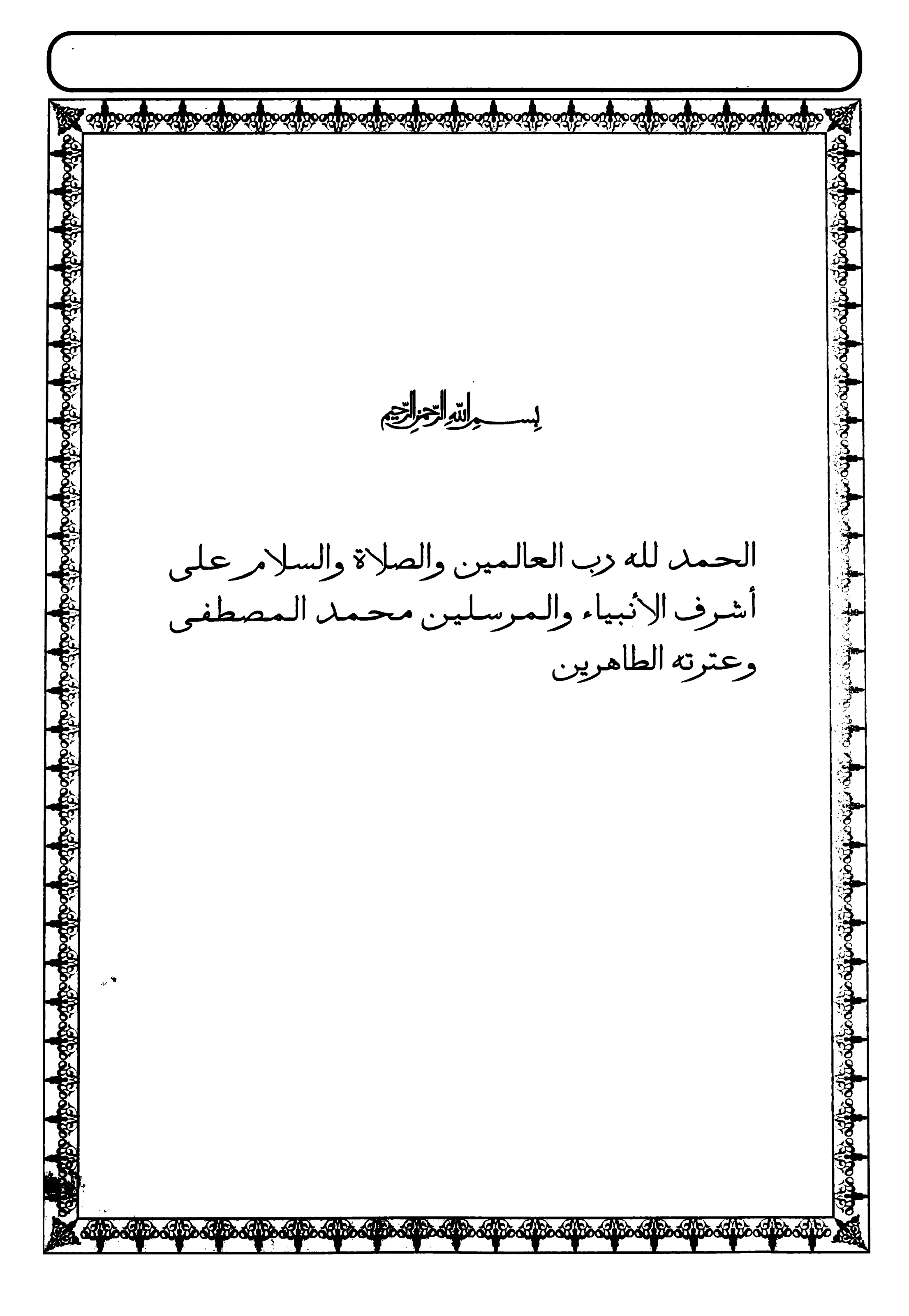




الجزء التاسع والعشرون

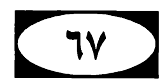
من آية (١) سورة الملك

إلى آية (٥١) سورة المرسلات



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين محمد المصطفى وعترته الطاهرين



سُورة الملك

مكية /آياتها (٣١)

سميت السورة بهذا الاسم لاشتمالها على لفظة «الملك»، وهي كسائر السور المكية تعالج قضايا العقيدة في أصولها الثلاث، وحيث ختمت سورة التحريم بكون الصلة لا تنفع ولا تضر وإنما النافع والضار العمل، افتتحت هذه السورة بأن الإنسان في معرض الامتحان ليظهر المطيع من العاصي.



[١] ﴿**بسم الله الرحمن الرحيم**﴾ نبتدئ باسم الله الذي هو الأول في الكون، الخالق لكل شيء، ليطابق الابتداء باسمه كونه المبدأ والأول الرحمن الرحيم الذي يرحم العباد في الدنيا وفي الآخرة بتكميل نواقصهم وغفران ذنبهم.

﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِي بِيَدِهِ ٱلۡمُلۡكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ۝٢ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡمَوۡتَ وَٱلۡحَيَوٰةَ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفُورُ ۝٣ ٱلَّذِي خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ طِبَاقٗاۖ مَّا تَرَىٰ فِي خَلۡقِ

---

[٢] ﴿**تبارك**﴾ من «برك» أي دام في خير ومصدر خير، ومنه البركة ﴿**الذي بيده الملك**﴾ فهو المالك المطلق لكل شيء في الكون وملك ما عداه إنما هي بتمليكه إياه، وقوله «بيده» من باب تشبيه المعقول بالمحسوس ﴿**وهو على كل شيء قدير**﴾ قادر على إيجاده وإفنائه والتصرف فيه كيف يشاء.

[٣] ﴿**الذي خلق الموت والحياة**﴾ فإن الموت إما أمر وجودي، أو عدم ملكة، وكلاهما مخلوق، فإن عدم الملكة له حظ من الوجود كما تقرر في علم الكلام، وإنما خلق الموت والحياة ﴿**ليبلوكم**﴾ من «بلاه» بمعنى اختبره، أي ليختبركم أيها البشر ﴿**أيكم أحسن عملاً**﴾ من الآخر، والله سبحانه عالم بالإنسان، وإنما الامتحان لتطبيق علمه على الخارج، وإلا فهو غني عن الاختبار، وتعليل الحياة والموت للاختبار باعتبار أن الموت داع إلى حسن العمل وموجب لعدم الوثوق بالدنيا ولذاتها الفانية والحياة توجب قدرة الإنسان على الأعمال الصالحة ﴿**وهو**﴾ سبحانه ﴿**العزيز**﴾ الغالب في سلطانه ﴿**الغفور**﴾ الذي يغفر لمن أذنب إذا تاب، فأنتم أيها البشر في قبضته بمقتضى كونه «عزيزاً»، فاستغفروه يغفر لكم بمقتضى كونه «غفورا».

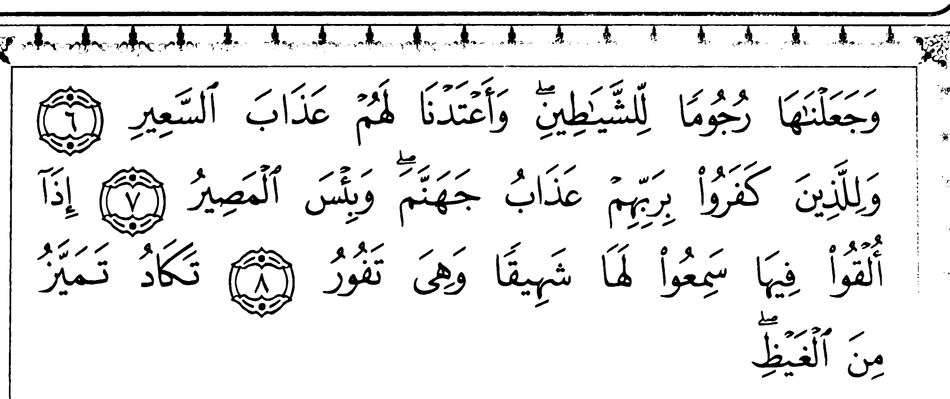
[٤] وهو ﴿**الذي خلق سبع سماوات طباقاً**﴾ واحدة فوق الأخرى مطابقة لها، بلا تفاوت واعوجاج ﴿**ما ترى**﴾ أيها الرائي ﴿**في خلق**

ٱلرَّحۡمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٖۖ فَٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ هَلۡ تَرَىٰ مِن فُطُورٖ ﴿٤﴾ ثُمَّ ٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ كَرَّتَيۡنِ يَنقَلِبۡ إِلَيۡكَ ٱلۡبَصَرُ خَاسِئٗا وَهُوَ حَسِيرٞ ﴿٥﴾ وَلَقَدۡ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ

الرحمن من تفاوت﴾ واختلاف، من جهة أن الجميع مخلوقة بدقة وإتقان وكمال لائق به **﴿فارجع البصر﴾** أي رده إلى الكون، بعد أن كان سابقاً إليه، وكأنه كان ناظراً بلا التفات إلى هذه الجهة، فقيل له رد بصرك بقصد التفحص والبحث **﴿هل ترى من فطور﴾**؟ أي شقوق وفتوق كالبناء الذي ينفطر لخلل فيه، فهل في الكون خلل يدل على الوهن والضعف أم كل شيء وضع في محله اللائق به حسب الحكمة والصلاح؟

[٥] **﴿ثم ارجع البصر كرتين﴾** أي كرة بعد كرة والمراد مكرراً إذ لعل البصر اشتبه في المرة الأولى فلم يرَ فتقاً ـ فإن الإنسان إذا كرر النظر إلى شيء أدرك خلله ـ فانظر إلى الكون مرة أخرى فاحصاً عن الخلل، لكن لاتجده بل **﴿ينقلب﴾** أي يرجع **﴿إليك﴾** أيها الإنسان **﴿البصر﴾** الذي سرحته في الكون **﴿خاسئاً﴾** قد خسأ وطرد وعجز عما طلبه ـ من الفتق ـ **﴿وهو حسير﴾** قد حسر، أي كلَّ وعيّ ولم يجد خللاً ووهناً وما يوجد من الأمراض وما أشبه إنما هو للامتحان والعبرة لا لنقص في الخلق.

[٦] **﴿ولقد زينا السماء الدنيا﴾** أي جمّلنا السماء القريبة من الأرض ـ وهذا لايدل على عدم تزيين سائر السماوات، إذ لا مفهوم للّقب وإنما التخصيص لأنه المدرك المشاهد ـ **﴿بمصابيح﴾** جمع مصباح، والمراد



به الكواكب ﴿وجعلناها﴾ أي جعلنا تلك المصابيح ﴿رجوماً﴾ مراكز للرجم ﴿للشياطين﴾ فإن الشيطان إذا اقترب من مراكز الملائكة في الملأ الأعلى ليسترق بعض الكلمات رجم بالشهب من النجوم، فإن النجوم مراصد ينظر منها إلى الشياطين حتى إذا اقتربوا رجموا، كما سبق في بعض السور ﴿وأعتدنا﴾ أي هيّأنا ﴿لهم﴾ أي للشياطين المسترقين للسمع ﴿عذاب السعير﴾ أي عذاب النار المستعرة الملتهبة، إما بالرجوم، وإما في الآخرة في النار.

[٧] وكما هيّأ العذاب للشياطين كذلك هيّأ للكفار ﴿وللذين كفروا بربهم﴾ بأن أنكروه أو وصفوه بما لا يليق به ﴿عذاب جهنم﴾ مبتدأ، خبره «للذين» ﴿وبئس المصير﴾ أي المآل والمرجع، اسم مكان من «صار».

[٨] ﴿إذا ألقوا﴾ أي الكفار، ألقاهم الملائكة ﴿فيها﴾ أي في جهنم ﴿سمعوا لها﴾ أي لجهنم ﴿شهيقاً﴾ أي صوتاً فضيعاً كصوت الحمار وإنما تشهَق لتدخل في قلوب الكفار الهول والرعب ﴿وهي تفور﴾ فوران القدر إذا غلى، وذلك مما يزيدها هولاً.

[٩] ﴿تكاد﴾ أي تقرب جهنم ﴿تميز﴾ أي تتقطع ﴿من الغيظ﴾ أي شدة الغضب وكثرة اللّهب والفوران، وهذا تمثيل لشدة اشتعالها، فإن

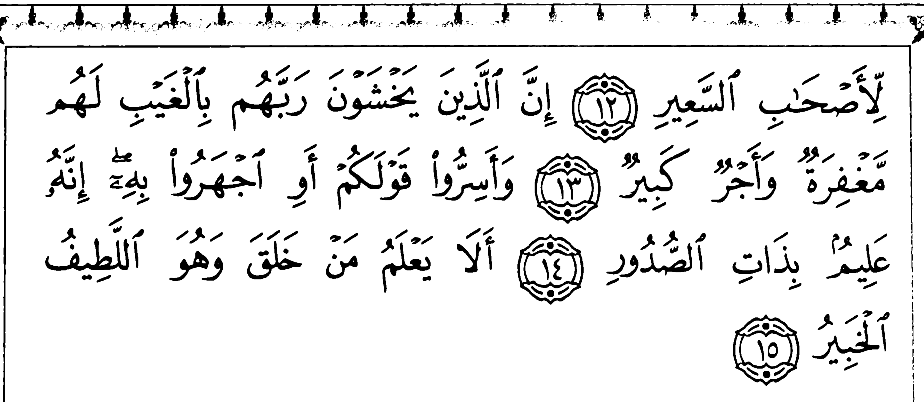
كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٩﴾ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ﴿١٠﴾ وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١١﴾ فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا

الإنسان إذا غضب يكاد ينفجر ويتشقق بعض جلده، وكذلك النار تكاد تتفرق لشدة استعارها ﴿**كلما ألقى فيها**﴾ أي في جهنم ﴿**فوج**﴾ أي جماعة من الكفار والعصاة ﴿**سألهم خزنتها**﴾ أي الملائكة الموكلون بالنار، جمع «خازن» ﴿**ألم يأتكم**﴾ أيها المجرمون ﴿**نذير**﴾ ينذركم ويخوفكم من هذه النار؟ والاستفهام للتبكيت والتقريع.

[١٠] ﴿**قالوا**﴾ أي أهل النار في جواب الخزنة ﴿**بلى قد جاءنا نذير**﴾ رسول أو مبلغ عن الله سبحانه ﴿**فكذبنا**﴾ هذا اليوم وما قاله النذير ﴿**وقلنا ما نزل الله من شيء**﴾ من كتاب أو تشريع ﴿**إن أنتم**﴾ أي ما أنتم أيها المنذرون ﴿**إلا في ضلال كبير**﴾ حيث تزعمون أنكم رسل الله، وإن الله أنزل إليكم الحكم والتشريع.

[١١] ثم يعترف أهل النار بأنهم لم يعملوا عقولهم في الدنيا، حتى ابتلوا بهذا العذاب ﴿**وقالوا لو كنا نسمع**﴾ كلام المنذرين ﴿**أو نعقل**﴾ أي نعمل عقولنا لنميز بين الحق والباطل بالإسماع، فإن الإنسان إذا أعمل عقله لابد وأن يدرك الحق في الجملة ولو لم يسمع شيئاً ﴿**ما كنا**﴾ في هذا اليوم ﴿**في أصحاب السعير**﴾ اسم لجهنم لاستعار نارها.

[١٢] ﴿**فاعترفوا بذنبهم**﴾ الذي أدخلهم النار، في الوقت الذي لا ينفع الإقرار ﴿**فسحقاً**﴾ أي بُعداً، وهذا دعاء عليهم أي أبعدهم الله بعداً عن


لِّأَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ ﴿١٣﴾ وَأَسِرُّواْ قَوۡلَكُمۡ أَوِ ٱجۡهَرُواْ بِهِۦٓۖ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٤﴾ أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ﴿١٥﴾

النجاة ﴿**لأصحاب السعير**﴾ الملازمين لها.

[١٣] أما المؤمن الذي عمل صالحاً فهو في خير وسعادة ﴿**إنَّ الذين يخشون ربهم**﴾ يخافونه فلا يعصونه ﴿**بالغيب**﴾ في حالة كونه سبحانه غائباً عن حواسهم ﴿**لهم مغفرة**﴾ أي غفران لذنوبهم التي صدرت منهم ﴿**وأجر كبير**﴾ ثواب جزيل.

[١٤] ثم يأتي السياق ليبين علم الله سبحانه بكل ما يصدر من الإنسان من قول سواء كان جهراً أو سراً ﴿**وأسروا**﴾ أيها الناس ﴿**قولكم**﴾ الذي يدور في صدوركم، بأن تقولونه سراً ﴿**أو اجهروا به**﴾ فـ ﴿**إنه**﴾ سبحانه يعلم ذلك قبل أن يخرج إلى عالم الألفاظ، إذ هو ﴿**عليم بذات الصدور**﴾ أي بالأشياء التي تدور في صدر الإنسان، وإنما قال «الصدور» لأن القول في القلب والقلب في الصدر، فمن يعلم ما في الصدر لا يعلم اللفظ؟

[١٥] ﴿**ألا يعلم**﴾ الخفايا والظواهر ﴿**من خلق**﴾ الخلق؟ وهذا استفهام إنكاري، أي كيف لا يعلم الله الأشياء وهو الخالق ﴿**وهو اللطيف**﴾ أي العالم بما لطف ودق، والشيء اللطيف هو الذي ينفذ في الأشياء بسهولة ويسر، وتوصيفه سبحانه به باعتبار نفوذ علمه وقدرته ﴿**الخبير**﴾ المطلع على الأشياء، وهو أدق معنى من «العالم».

هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٦﴾ ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ

روى إن المشركين كانوا يقولون عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم الأقوال السيئة وكان جبرئيل عليه السلام يخبره بما قالوا، فإذا أراد أحدهم التحدث حوله صلى الله عليه وآله وسلم قال بعضهم لبعض: أسروا قولكم لئلا يطلع محمد، فنزلت هذه الآيات(١).

[١٦] ﴿**هو**﴾ الله ﴿**الذي جعل لكم**﴾ أيها البشر ﴿**الأرض ذلولاً**﴾ أي سهلة مسخرة، للبناء والزرع ودفن الأموات والسير وإجراء الأنهر والقنوات وغيرها، من «ذل» بمعنى خضع ولان ﴿**فامشوا**﴾ أيها البشر ﴿**في مناكبها**﴾ جمع منكب والمراد به الطريق ﴿**وكلوا من رزقه**﴾ الذي حصلتم عليه بالزرع ونحوه ﴿**وإليه النشور**﴾ أي إن بعثكم إليه سبحانه، فهو المبدأ والمآل، ومعنى «إليه» إلى حسابه وجزائه.

[١٧] ثم بعد التذكير بنعم الله ليشكر البشر، جاء السياق للتهديد بأنهم إن بقوا في الكفر والعصيان كانوا مظنة للعذاب والنكال ـ والسائق للناس إلى الخير إما النعمة أو النقمة ـ ﴿**أأمنتم**﴾ أي هل أمنتم أيها البشر مِن ﴿**مَن في السماء**﴾ من الملائكة الموكلين بأموركم من قِبَله سبحانه ﴿**أن يخسف**﴾ فاعله «من في السماء» ﴿**بكم الأرض**﴾ حتى تنهار الأرض في الأعماق معكم، كما فعل بقارون وقوم لوط. ويحتمل أن يراد

(١) مجمع البيان: ج١٠ ص٧٦ .

فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ﴿١٧﴾ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴿١٨﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿١٩﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ

بـ «من في السماء» الله سبحانه، وكونه في السماء باعتبار أن أمره إلى الأرض يصدر من هناك، كما قال سبحانه (وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الأَرْضِ إِلَهٌ)(١) وقال (وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ)(٢) ﴿**فإذا هي**﴾ أي تفاجئون بأن الأرض ﴿**تمور**﴾ أي تضطرب وتتحرك، من «مار» بمعنى تحرك واضطرب.

[١٨] ﴿**أم أمنتم**﴾ أيها البشر، مِن ﴿**مَن في السماء**﴾ على أحد المعنيين ﴿**أن يرسل عليكم**﴾ إن تماديتم في الكفر والعصيان ﴿**حاصباً**﴾ أي ديماً ذات حجارة، تحصبكم كما حوصب قوم لوط، وتذكير «حاصب» باعتبار تقدير «شيئاً» ﴿**فستعلمون**﴾ حين ذاك ﴿**كيف نذير**﴾ أي كيف كان إنذاري بالعذاب صدقاً.

[١٩] وليس ذلك ببعيد من الكفار، ألم يعرفوا أن الأمم السابقة حيث كذبوا ابتلوا بمثل هذا العذاب ﴿**ولقد كذب الذين من قبلهم**﴾ بآيات الله ورسله ﴿**فكيف كان نكير**﴾؟ أي إنكاري عليهم حيث عذبوا بأنواع العذاب، من غرق وخسف وحصب وغيرها.

[٢٠] وكيف ينكر هؤلاء وجود الله أو قدرته وهم يرون الآيات الكونية بأعينهم؟ ﴿**أولم يروا**﴾ هؤلاء الكفار ﴿**إلى الطير فوقهم**﴾ في السماء

(١) الزخرف: ٨٥ .

(٢) الذاريات: ٢٣ .

صَٰٓفَّٰتٖ وَيَقۡبِضۡنَۚ مَا يُمۡسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحۡمَٰنُۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءِۭ بَصِيرٌ ﴿٢٠﴾ أَمَّنۡ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ جُندٞ لَّكُمۡ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحۡمَٰنِۚ

﴿**صافات**﴾ تصف أجنحتها فوق رؤوسهم في حال الطيران ﴿**ويقبضن**﴾ أجنحتهن بعد البسط، فذات مرة صافات، وذات مرة يقبضن وهو الدفيف، والطير جنس ولذا جيء وصفه بالجمع، كما أن الجمع بالنون يأتي للعاقل وغيره كما مر سابقاً.

﴿**ما يمسكهن**﴾ أي يحفظهن في الهواء في صفيف أو دفيف ﴿**إلا الرحمن**﴾ الذي يتفضل بالرحم لكل شيء، فمن يا ترى أعطى الطير هذه القدرة، وأعطى الهواء قابلية الحمل غير الله سبحانه؟ ﴿**إنه**﴾ سبحانه ﴿**بكل شيء بصير**﴾ فيعرف المناسب لكل شيء والصالح لكل شيء فيعطي حسب الصلاح والحكمة، وحسب بصيرته سبحانه أعطى الطير هذه القدرة والسماء هذه القابلية، و «بصير» هنا بمعنى الخِبْروية في الأمور لابمعنى النظر.

[٢١] ﴿**أمَّن هذا الذي هو جند لكم**﴾ «أم» منقطعة و «من» استفهام مبتدأ، و «هذا» مبتدأ ثان، و «الذي» خبره، و «هو جند لكم» مبتدأ وخبر، والمجموع صلة الذي ﴿**ينصركم**﴾ صفة «جند» والاستفهام إنكاري، والمعنى من هو الذي تزعمونه جنداً لكم ينصركم يوم القيامة من عذاب الله؟... والمراد أنه لا جند لكم هذه صفته ﴿**من دون الرحمن**﴾ وكأنه يقال للكفار بأي قوة تعصون الله؟ ألكم جند يدفع عذاب الله، حتى تعتمدون عليه في عصيانه؟

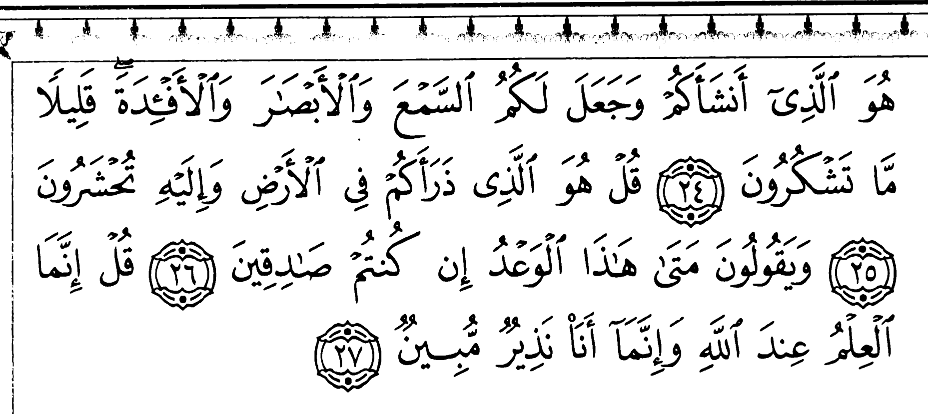
إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ ﴿٢١﴾ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ ۚ بَل لَّجُّوا۟ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴿٢٢﴾ أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٣﴾ قُلْ

ثم يأتي السياق ليبين أنه لا جند للكفار، وإنما غرتهم الحياة الدنيا ﴿**إن الكافرون**﴾ أي ليس الكافرون ﴿**إلا في غرور**﴾ قد غرهم الشيطان بأنه لاعذاب ولا نكال، فاعتمدوا عليه في الكفر والعصيان.

[٢٢] ﴿**أمن هذا الذي يرزقكم**﴾؟ فهل هناك أحد يعطيكم الرزق ﴿**إن أمسك**﴾ الله ﴿**رزقه**﴾ حتى يقوم ذلك الرازق مقام الله في الإعطاء وإذ لا رازق غيره فكيف تعصون الله ولا تخافون أن يقطع رزقكم فتبقون بلا رزق ولا طعام ﴿**بل**﴾ إنهم يعلمون أن لا رازق غيره، وإنما ﴿**لجو**﴾ أي استمروا في اللجاج والمخالفة ﴿**في عتو**﴾ أي تعد عن الحق، من «عتى» ﴿**ونفور**﴾ أي تنفر عن الإسلام والحق.

[٢٣] ﴿**أفمن يمشي مكبّاً على وجهه أهدى**﴾ بأن يكون وجهه وبطنه على الأرض يمشي بكل صعوبة، هل هذا الشخص أحسن وأعلم بالطريق ﴿**أمّن يمشي سوياً**﴾ مستوياً مستقيماً، على رجليه، وهو ﴿**على صراط مستقيم**﴾؟ أي طريق موصل إلى السعادة في أقصر مسافة، فالكافر كمن يمشي مكباً على وجهه، إذ طريقه وعر صعب لا يعرف الخلاص من المشاكل والمكاره، بخلاف المؤمن الذي يرى طريقه ويسهل عليه المشي ويصل إلى الغاية المتوخاة في أقرب وقت.

[٢٤] ﴿**قل**﴾ يا رسول الله لهؤلاء الجاحدين لله، والذين يجعلون معه



شريكاً ﴿هو﴾ الله وحده ﴿**الذي أنشأكم**﴾ أي خلقكم أيها البشر ﴿**وجعل لكم**﴾ أي لمنفعتكم ﴿**السمع**﴾ أريد به الجنس ﴿**والأبصار**﴾ أي العيون ﴿**والأفئدة**﴾ جمع «فؤاد» وهو القلب، وكأن توحيد السمع وتجميع الأبصار والأفئدة للتفنن في التعبير ﴿**قليلاً ما تشكرون**﴾ «ما» مصدرية، أي قليلاً شكركم، بعد إعطائه سبحانه لكم هذه النعم العظام.

[٢٥] ﴿**قل**﴾ يا رسول الله لهؤلاء ﴿**هو**﴾ الله وحده ﴿**الذي ذرأكم**﴾ أي خلقكم بالتناسل والتوالد ﴿**في الأرض**﴾ وأسكنكم إياها ﴿**وإليه**﴾ أي إلى حساب الله وجناته ﴿**تحشرون**﴾ أي تبعثون وتجمعون في يوم القيامة فمنه المبدأ وإليه المعاد.

[٢٦] ﴿**ويقولون**﴾ أي الكفار المنكرون للمعاد ﴿**متى هذا الوعد**﴾ أي في أي زمان يكون البعث ﴿**إن كنتم**﴾ أيها المؤمنون ﴿**صادقين**﴾ في أن هناك حشراً وجزاءً؟

[٢٧] ﴿**قل**﴾ يا رسول الله في جواب هؤلاء السائلين عن وقت المعاد ﴿**إنما العلم**﴾ بوقت القيامة ﴿**عند الله**﴾ فهو العالم به ﴿**وإنما أنا نذير**﴾ لكم أنذركم وأخوفكم عن مجيئه حيث تعذبون إن بقيتم على الكفر والعصيان ﴿**مبين**﴾ واضح ظاهر، أنذركم بكل وضوح وجلاء.

فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ ﴿٢٨﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِىَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِىَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٩﴾

[٢٨] ﴿**فلما رأوه**﴾ أي رأوا العذاب ﴿**زلفة**﴾ أي قريباً، من «زلف» بمعنى قرب، والمراد من «رأوا» المستقبل، وإنما نزل منزلة الماضي لتحقق وقوعه، نحو (وَنُفِخَ فِي الصُّورِ)[1] ﴿**سيئت وجوه الذين كفروا**﴾ أي علت وجوههم الكآبة، وظهرت عليها آثار الخوف والحزن من «ساء» ﴿**وقيل**﴾ للكفار، والقائل الملائكة والرسل والمؤمنون حين يرى الكفار العذاب ﴿**هذا**﴾ هو العذاب ﴿**الذي كنتم**﴾ أيها الكفار ﴿**به تدعون**﴾ أي تطلبون وتستعجلون من الدعاء، قالوا «تَدْعون» و «تَدَّعون» بمعنى، فقد كان الكفار يقولون «متى هذا الوعد»؟ ويطلبون عجلة العذاب استهزاءً.

[٢٩] ﴿**قل**﴾ يا رسول الله لهؤلاء الكفار ﴿**أرأيتم**﴾ أي أخبروني ﴿**إن أهلكني الله**﴾ أي أماتني ﴿**ومن معي**﴾ من المؤمنين قبل تعذيبكم ﴿**أو رحمنا**﴾ بتأخير الموت عنا لنرى عذابكم ﴿**فمن يجير الكافرين من عذاب أليم**﴾ أي أن موتي لا ينفعكم في عدم نزول العذاب بكم، فقد كانوا يتمنون موت الرسول والمؤمنين ليستريحوا إلى كفرهم وأصنامهم، فجاء السياق ليبين أن موت الرسول لا يفيدهم في إجارتهم من عذاب الله الذي استحقوه بسبب الكفر والآثام.

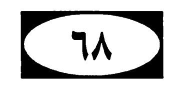
---

(١) الكهف: ١٠٠ .

﴿قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ ﴿٣١﴾﴾

[٣٠] **﴿قل﴾** يا رسول الله لهؤلاء الكفار **﴿هو الرحمن﴾** الذي ندعو إليه **﴿آمنا به﴾** وصدقنا وجوده وصفاته وأوامره ووعوده **﴿وعليه توكلنا﴾** في أمورنا وفوضنا إليه حوائجنا **﴿فستعلمون﴾** أيها الكفار في يوم القيامة **﴿من هو في ضلال﴾** وانحراف **﴿مبين﴾** واضح؟ هل نحن أم أنتم؟

[٣١] **﴿قل﴾** يا رسول الله لهؤلاء الكفار، وكيف تكفرون بالله، والحال أن «ماءكم» الذي به حياتكم تحت أمره وتصرفه حتى لو شاء قطعه عنكم لهلكتم عطشاً؟ **﴿أرأيتم﴾** أي أخبروني **﴿إن أصبح ماؤكم غوراً﴾** أي غائراً في الأرض بحيث لا تتمكنون من إخراجه **﴿فمن يأتيكم بماء معين﴾**؟ أي ظاهر للعيون، أو بمعنى جار سهل التناول؟ فهل هناك أحد غير الله يأتيكم بالماء؟ وإذ لا أحد إلا الله لذلك فكيف تعرضون عنه وتكفرون به.



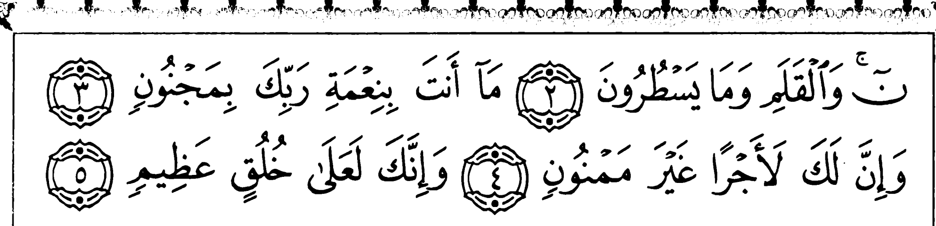
سُورة القلم

مكية /آياتها (٥٣)

سميت السورة بهذا الاسم لاشتمالها على لفظ «القلم»، وهي كسائر السور المكية تعالج قضايا العقيدة في أصولها الثلاث: الألوهية والرسالة والمعاد، وإذا ختمت سورة «الملك» بذكر الكفار وتكذيبهم، افتتحت هذه السورة بمثل ذلك.



[١] ﴿**بسم الله الرحمن الرحيم**﴾ نستعين باسم الإله، فقد أجلَّ القارئ «الله» سبحانه من أن يستعين به وإنما استعان باسمه، نحو «لاذ الفقراء بجنابك» فان «جناب» هو العتبة، كأنه سبحانه أجلَّ من أن يلوذ به الفقراء، الرحمن الرحيم الذي يتفضل بالرحمة لكل شيء، ولكل أحد، فقد وسعت رحمته كل شيء.



[٢] ﴿ن﴾ من جنس هذا الحرف ـ وهي حروف التهجي ـ يتركب القرآن المعجز الذي لو اجتمعت الجن والإنس على أن يأتوا بمثله لا يقدرون أو رمز بين الله وبين الرسول، وفي رواية أنها نهر في الجنة جمد فصار مداداً، وبه وبالقلم كتب على اللوح المحفوظ ما كان وما هو كائن إلى يوم القيامة(١).

﴿والقلم﴾ أي قسماً بالقلم الذي يكتب الناس به، وإنما أقسم به لما تقدم من أن كل خلق من خلق الله جليل عظيم، والله يحلف بمختلف صنوف خلقه، إشارة إلى العظمة الكامنة فيه، أو المراد القلم الذي كتب في اللوح المحفوظ ﴿وما يسطرون﴾ أي قسماً بما يكتب الناس، أو الملائكة، من «سطر» بمعنى كتب.

[٣] ﴿ما أنت﴾ يا رسول الله ﴿بنعمة ربك﴾ أي بسبب نعمة الله عليك بالرسالة ﴿بمجنون﴾ كما يزعم الكفار، فإنهم كانوا يرمونه ﷺ بالجنون بسبب أن الله أنعم عليه بالرسالة.

[٤] ﴿وإن لك﴾ يا رسول الله ﴿لأجراً﴾ وجزاءً على قيامك بمهمة البلاغ ﴿غير ممنون﴾ أي غير مقطوع، فإن «منّ» بمعنى قطع.

[٥] ﴿وإنّك﴾ يا رسول الله ﴿لعلى خلق عظيم﴾ إذ تحتمل المشاق والمتاعب في سبيل التبليغ بكل رحابة صدر، وقد أوذي ﷺ **حتى** قال «ما أوذي نبي مثل ما أوذيت».

---

(١) بحار الأنوار: ج٥٤ ص٣٦٨ .

فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ﴿٦﴾ بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ ﴿٧﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٨﴾ فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٩﴾ وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴿١٠﴾

[٦] ﴿**فستبصر**﴾ أي سترى أنت يا رسول الله ﴿**ويبصرون**﴾ أي يرون هؤلاء الكفار الذين يرمونك بالجنون.

[٧] ﴿**بأييكم**﴾ أنت أم هم ﴿**المفتون**﴾ أي المجنون، أي هل حل الجنون بك أم حل بهم حتى أعرضوا عن الحق فهل المجنون الذي يترك نافعه ويأخذ ضاره؟ والمفتون مصدر أو اسم مفعول تشبيهاً بأن شخصاً مفتوناً حل فيه ـ وهذا من بديع البلاغة ـ.

[٨] ﴿**إن ربك**﴾ يا رسول الله ﴿**هو أعلم بمن ضلّ عن سبيله**﴾ هل هو أنت ـ كما يقولون ـ أم هم ـ كما هو الواقع ـ؟ ومعنى الضلال عن سبيله الانحراف عن الطريقة التي قررها سبحانه للوصول إلى سعادة الدنيا والآخرة ﴿**وهو أعلم بالمهتدين**﴾ الذين اهتدوا إلى السبيل الصحيح وهو سبيل الإسلام.

[٩] وإذ قد تبين لك الطريق الواضح ﴿**فلا تطع**﴾ يا رسول الله ﴿**المكذبين**﴾ بتوحيدك وبشريعتك، بل ذرهم وشأنهم.

[١٠] ﴿**ودّوا**﴾ أي أحب هؤلاء الكفار ﴿**لو تدهن**﴾ أي تجامل الكفار وتلين لهم، فكأن المجامل يستعمل الدهن ليتلائم مع الطرف المقابل، كما يستعمل الدهن لتلائم الشيئين الخشنين حتى لا يصطدما ولا يصطكا بعنف ﴿**فيدهنون**﴾ أي فيجاملونك وبذلك يخففوا من وقع التبليغ على أنفسهم.

﴿وَلَا تُطِعۡ كُلَّ حَلَّافٖ مَّهِينٍ ١١ هَمَّازٖ مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٖ ١٢ مَّنَّاعٖ لِّلۡخَيۡرِ مُعۡتَدٍ أَثِيمٍ ١٣ عُتُلِّۭ بَعۡدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ١٤﴾

[١١] ﴿**ولا تطع**﴾ يا رسول الله، وهو عطف على «فلا تطع» ﴿**كل حلاف**﴾ أي كثير الحلف بالباطل لقلة مبالاته ﴿**مهين**﴾ أي ذليل من «هان» بمعنى ذلّ. وهذان من صفات الكفار لأنهم لما لايجدون سبيلاً إلى إثبات باطلهم يتمسكون بالحلف، ومثل هذا الإنسان يشعر في نفسه بذلة المغلوبية، وإن هرج وتشدّق وصاح وحلف.

[١٢] ﴿**هماز**﴾ كثير الهمز للناس، والهمز هو الطعن في الغير بشدة ﴿**مشاء**﴾ كثير المشي بين الناس ﴿**بنميم**﴾ أي بالنميمة والفتنة والإفساد ليضرب بعض الناس ببعض، والنميم والنميمة بمعنى واحد.

[١٣] ﴿**مناع للخير**﴾ كثير المنع للخير فكلما رأى إرادة الإنسان للخير منعه، لدناءة نفسه ﴿**معتد**﴾ أي مجاوز عن الحق، من اعتدى بمعنى تجاوز وظلم ﴿**أثيم**﴾ أي كثير الإثم والعصيان.

[١٤] ﴿**عتل**﴾ جاف غليظ ﴿**بعد ذلك**﴾ الذي ذكر له من الصفات ﴿**زنيم**﴾ أي دعي ملصق إلى قوم ليس منهم بالنسب. قالوا: والمعني بذلك «الوليد بن المغيرة»[١] وهذه غالبة في الأشرار الذين يصدون عن الحق، ويحضرون كل شر، وقد رأيناهم في عصرنا، إبان المد الأحمر ـ وكأن النفس إذا انحرفت عن جادة الهدى تجمعت فيها كل تلك الصفات.

---

(١) مجمع البيان: ج١٠ ص٨٩ .

أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٥﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾ سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ﴿١٧﴾ إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ

---

[١٥] ﴿**أن كان ذا مال وبنين**﴾ أي لأنا أعطيناه المال والبنين يكذب بآياتنا جزاءً للإحسان بالإساءة، فهو متعلق بما يأتي في قوله «قال أساطير».

[١٦] ﴿**إذا تتلى عليه آياتنا**﴾ تقرأ عليه آيات القرآن ﴿**قال**﴾ في شأنها ﴿**أساطير الأولين**﴾ أي أحاديث الأقوام السابقين التي سطرت بلا أن يكون لها أصل، و «أساطير» جمع أسطورة، وهي القصة الخيالية الوهمية بلا أن يكون لها حقيقة. ومن الغريب شباهة هذا القول من مكذبي عصر الرسول بما يقوله المكذبون في عصرنا، من أن الإسلام رجعية وارتجاع.

[١٧] ﴿**سنسمه**﴾ أي سنعلمه يوم القيامة بعلامة يعرف بها أنه مجرم، فالسين للاستقبال، و «نسم» مضارع من «وسم» بمعنى نُعلمه بعلامة ﴿**على الخرطوم**﴾ أي على أنفه، وسمي خرطوماً تشبيهاً بخرطوم الفيل تحقيراً له، كما أن الوسم على الخرطوم من جهة أن الأنف مظهر الكبر والإعراض.

[١٨] ﴿**إنا بلوناهم**﴾ أي اختبرنا أهل مكة ﴿**كما بلونا أصحاب الجنة**﴾ أي أصحاب البستان الذي كان قرب صنعاء.

فقد قال الإمام الباقر عليه السلام : إن أهل مكة ابتلوا بالجوع كما ابتلى أصحاب الجنة ـ وهي جنة كانت في الدنيا وكانت باليمن يقال لها

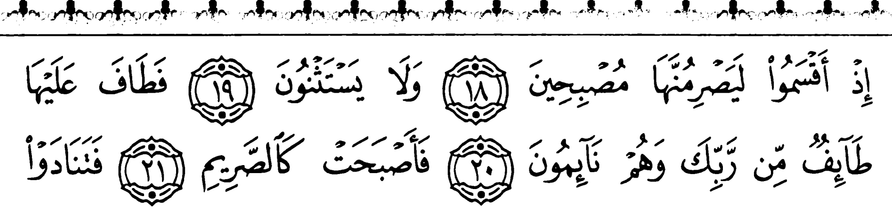
. . . .

«الرضوان» على تسعة أميال من صنعاء[١]، وقصة أصحاب الجنة كما رواها القمي عن ابن عباس: انه كان شيخ له جنة، وكان لا يدخل بيته ثمرة منها ولا إلى منزله حتى يعطي كل ذي حق حقه، فلما قبض الشيخ ورثه بنوه وكان له خمسة من البنين، فحملت جنته في تلك السنة التي هلك فيها أبوهم حملاً لم يكن حملت قبل ذلك، فراحوا الفتية إلى جنتهم بعد صلاة العصر فأشرفوا على ثمر ورزق فاضل لم يعاينوا مثله في حياة أبيهم، فلما نظروا إلى الفضل طغوا وبغوا، وقال بعضهم لبعض: إن أبانا كان شيخاً كبيراً قد ذهب عقله وخرف فهلموا نتعاقد عهداً فيما بيننا أن لانعطي أحداً من فقراء المسلمين «أي مسلمي زمانهم» في عامنا هذا شيئاً حتى نستغني وتكثر أموالنا، ثم نستأنف الصنعة فيما يستقبل من السنين المقبلة.

فرضي بذلك أربعة وسخط الخامس، وهو الذي قال الله فيه «قال أوسطهم ألم أقل لكم لولا تسبحون».. فقال لهم أوسطهم اتقوا الله وكونوا على منهاج أبيكم تسلموا وتغنموا، فبطشوا به وضربوه ضرباً مبرحاً، فلما أيقن الأخ أنهم يريدون قتله دخل معهم في مشورتهم كارهاً لأمرهم غير طائع، فراحوا إلى منازلهم ثم حلفوا بالله أن يصرموا إذا أصبحوا ولم يقولوا «إن شاء الله»، فابتلاهم الله بذلك الذنب، وحال بينهم وبين ذلك الرزق الذي كانوا أشرفوا عليه، فأخبر عنهم في الكتاب فقال «إنا بلوناهم» إلى آخر القصة ـ كما يأتي ـ ولعل تشبيه كفار مكة بأولئك الأخوة من حيث إنهم كفروا نعمة الله سبحانه،

---

(١) تفسير القمي: ج٢ ص٣٨٢ .



فابتلاهم بالقحط والجدب، كما أن الأخوة لما أرادوا منع الفقراء خلافاً لأمره سبحانه ابتلاهم الله بالنار التي أحرقت جنتهم(١).

﴿**إذ أقسموا**﴾ أي حلفوا بالله ﴿**ليصرمنها**﴾ أي يقطعون ثمرها من «الصرم» بمعنى القطع ﴿**مصبحين**﴾ أي في حال كونهم داخلين في الصباح قبل أن يجلو النهار، ليخفوا الأمر على الفقراء والمساكين.

[١٩] ﴿**ولا يستثنون**﴾ أي لم يستثنوا عند الحلف باتيان كلمة إن شاء الله، وإنما يقال لهذه الكلمة: الاستثناء، لأن القائل يقول أفعل كذا إلا أن يشاء الله منعي، وفي معنى ذلك إن شاء الله، وبعدم الاستثناء كانوا قد أساؤوا أولاً بنية المنع عن الفقراء، وثانياً بعدم الاستثناء بالنسبة إلى ما عزموا عليه في المستقبل.

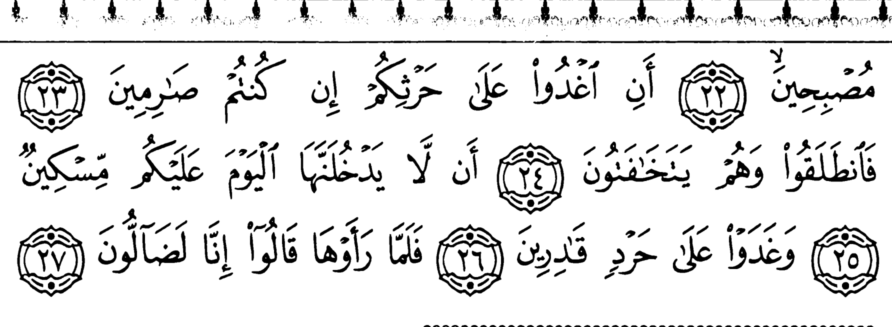
[٢٠] ﴿**فطاف عليها**﴾ أي على الجنة ﴿**طائف**﴾ أي شيء من العذاب طاف على البستان ﴿**من**﴾ قبل ﴿**ربك**﴾ يا رسول الله ﴿**وهم نائمون**﴾ بعد في فراشهم، قالوا بعث الله ناراً على البستان فأحرقت.

[٢١] ﴿**فأصبحت**﴾ الجنة ﴿**كالصريم**﴾ أي كالمقطوع ثماره، من «صرم» بمعنى قطع، أو كالليل المظلم، ويقال الليل والنهار صريمان لانصرام أحدهما عن الآخر.

[٢٢] ﴿**فتنادوا**﴾ أي الأخوة أصحاب الجنة، نادى بعضهم بعضاً

---

(١) تفسير القمي: ج٢ ص٣٨١ .



﴿مصبحين﴾ أي حال كونهم داخلين في الصباح.

[٢٣] وكان النداء من بعضهم لبعض ﴿أن اغدوا﴾ أيها الأخوة، أي أسرعوا غدوة ﴿على حرثكم﴾ أي زرعكم وثمركم ﴿إن كنتم صارمين﴾ من «صرم» بمعنى قطع، أي إن تريدون قطع الثمار.

[٢٤] ﴿فانطلقوا﴾ مضوا إلى البستان ﴿وهم يتخافتون﴾ أي يتسارون بينهم، وأصله من خفت فلان نفسه: إذا أخفى نفسه لئلا يراه أحد، ومنه يسمى مقابل الجهر إخفاتاً.

[٢٥] وكان التخافت بسبب ﴿أن لا يدخلنها﴾ أي الجنة ﴿اليوم عليكم﴾ أي في يوم الصرم وقطع الثمر ﴿مسكين﴾ فاعل يدخل.

[٢٦] وهكذا ذهبوا حتى وصلوا إلى الجنة ﴿وغدوا﴾ أي أصبحوا ﴿على حرد﴾ بمعنى المنع يقال حاردت السنة: إذا منعت قطرها ﴿قادرين﴾ أي قدروا على المنع عن الثمر لا على الثمر، وهذا كالاستهزاء بهم كما يقال فلان امتلأت كفه من الهواء عوض امتلائها من المال، يعني أنهم أصبحوا ممنوعين من الثمر، فقد قدروا على الحرد والحرمان لا على الثمار والأعناب.

[٢٧] ﴿فلما رأوها﴾ أي رأوا الجنة على تلك الصفة ﴿قالوا﴾ أي قال بعضهم لبعض ﴿إنا لضالون﴾ أي ضللنا الطريق، فليست هذه جنتنا.

[٢٨] ولما تأملوا ورأوا أنها جنتهم بعينها، أضربوا عن كلامهم الأول وقالوا

بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ سُبْحَـٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَـٰلِمِينَ ﴿٣٠﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَـٰوَمُونَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ يَـٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَـٰغِينَ ﴿٣٢﴾ عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ

﴿**بل نحن محرومون**﴾ عن الثمار وعن خير الجنة، فلقد احترقت.

[٢٩] ﴿**قال أوسطهم**﴾ أي أعقلهم، ويقال للأعقل أوسط، لأنه لا إفراط في أمره ولا تفريط ﴿**ألم أقل لكم**﴾ حينما أردتم منع الفقراء ﴿**لولا**﴾ أي هلا ﴿**تسبحون**﴾ وتنزهون الله سبحانه؟ فقد قال لهم حين ما تواطأوا على منع الفقراء: أيها الأخوة اذكروا الله ونزهوه عن القبيح فإنه منزه عن أن يعطي الأغنياء ويحرم الفقراء، لكنكم ركبتم رؤوسكم وأعرضتم عن النصح، فهذا جزاء نيتكم السيئة.

[٣٠] وبعد انتهاء كل شيء ﴿**قالوا سبحان ربنا**﴾ فإنه تعالى ليس ظالماً في إحراق بستاننا، بل ﴿**إنا كنا ظالمين**﴾ حيث قصدنا منع الحقوق عن الفقراء.

[٣١] ﴿**فأقبل بعضهم**﴾ أي بعض الأخوة ﴿**على بعض يتلاومون**﴾ أي يلوم بعضهم بعضاً على ما سبق منهم من النية السيئة.

[٣٢] ﴿**قالوا يا ويلنا**﴾ أي يا قوم ويلنا، أو يا ويلنا أحضر فهذا وقتك، والويل هي الحالة السيئة ﴿**إنا كنا طاغين**﴾ في عزمنا على منع الفقراء حقوقهم، والطغيان هو الظلم المتجاوز حده.

[٣٣] ﴿**عسى ربنا**﴾ أي لعل الله سبحانه ﴿**أن يبدلنا خيراً منها**﴾ أي خيراً من

﴿إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ﴿٣٣﴾ كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٣٥﴾ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٦﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٧﴾ أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ﴾

هذه الجنة، بأن يتفضل علينا ببدلها وعوضها، فـ ﴿**إنا إلى ربنا راغبون**﴾ نرغب إليه ونطلب غفرانه ونسأله أن يعوضنا بدل الجنة.

[٣٤] ﴿**كذلك العذاب**﴾ أي كعذاب أصحاب الجنة، يكون عذاب العاصين في الدنيا ﴿**ولعذاب الآخرة أكبر**﴾ من عذاب الدنيا ﴿**لو كانوا يعلمون**﴾ أي لو علموا مقدار عذاب الآخرة، لعلموا أنه أكبر من عذاب الدنيا.

[٣٥] وفي مقابل هؤلاء المتقون ﴿**إن للمتقين**﴾ الذين اتقوا الكفر والمعاصي، بأن خافوا عقاب الله سبحانه ﴿**عند ربهم**﴾ أي في الآخرة وكونه عند الله باعتبار القرب إلى رضاه لا القرب المكاني ﴿**جنات النعيم**﴾ أي بساتين يتنعمون فيها.

[٣٦] ﴿**أفنجعل المسلمين**﴾ الذين أسلموا لله سبحانه ﴿**كالمجرمين**﴾ الذين أذنبوا وعصوا الله سبحانه؟ وهذا استفهام إنكاري، أي كيف نجعل المسلم والمجرم ـ في الآخرة ـ سواء؟ وقد كان الكفار يقولون: إن كان بعث وجزاء لكان حالنا في الآخرة أفضل من أحوال محمد وأصحابه.

[٣٧] ﴿**ما لكم**﴾ أيها الكفار؟ ﴿**كيف تحكمون**﴾ حكماً جائراً في أن المجرم كالمسلم عند الله تعالى؟ وهل يعقل هذا الحكم؟

[٣٨] ﴿**أم**﴾ أي هل أن حكمكم بذلك ليس اعتباطاً، بل ﴿**لكم كتاب**﴾

فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٨﴾ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴿٣٩﴾ أَمْ لَكُمْ أَيْمَـٰنٌ عَلَيْنَا بَـٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴿٤٠﴾ سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ﴿٤١﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ فَلْيَأْتُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ إِن كَانُوا۟ صَـٰدِقِينَ ﴿٤٢﴾

سماوي نزل على الأنبياء السابقين ﴿**فيه تدرسون**﴾ وتقرؤون مساواة المجرم والمسلم؟

[٣٩] تدرسون بـ ﴿**إن لكم**﴾ أنتم الكفار ﴿**فيه**﴾ أي في ذلك الكتاب ﴿**لما تخيرون**﴾ أي للشيء الذي تختارونه من الثواب في الآخرة، وجملة «إن لكم. . » أول الكلام على سبيل الاستهزاء، ولذا كسرت همزة إن، وإن كان في الحقيقة من متعلقات «تدرسون» كما فسرنا.

[٤٠] ﴿**أم لكم أيمان علينا**﴾ أي عهود ومواثيق علينا بأن أخذتم منا عهوداً ﴿**بالغة**﴾ تلك العهود ﴿**إلى يوم القيامة**﴾ تكون هي لكم جيلاً بعد جيل ﴿**إن لكم لما تحكمون**﴾ أي أن تلك العهود هي أن لكم أنتم كلما حكمتم من تساوي المؤمنين بكم، وإدخالكم الجنة؟

[٤١] ﴿**سلهم**﴾ يا رسول الله، أصله «اسأل» حذفت الهمزة تخفيفاً ﴿**أيهم بذلك**﴾ الذي ذكروا من أن لهم مثل ما للمسلمين ﴿**زعيم**﴾ كفيل؟ فمن الكفيل بأن يكون لهم مثل ما للمسلمين؟ وإذ لا كتاب ولا إيمان، ولا كفيل فليعرفوا أن كلامهم فارغ خالٍ من كل حجة ودليل.

[٤٢] ﴿**أم لهم شركاء**﴾ أي آلهة أخرى هم يعطون هؤلاء الكفار في الآخرة مثل ما يعطي الله المؤمنين؟ ﴿**فليأتوا بشركائهم**﴾ في يوم القيامة ليأخذوا منهم ـ وهذا استهزاء بهم ـ ﴿**إن كانوا صادقين**﴾ في كلامهم

يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٣﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ ﴿٤٤﴾ فَذَرْنِى وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ ۖ سَنَسْتَدْرِجُهُم

إن لهم مثل ما للمؤمنين.

[٤٣] فليأتوا بشركائهم في ﴿**يوم**﴾ القيامة الذي تظهر فيه الأهوال والشدائد حتى أنه ﴿**يُكشف عن ساق**﴾ فإن الخوف إذا كان شديداً كشف الإنسان عن ساقه، بأن رفع ثوبه ليكون أسهل في الهرب، فلا يأخذ فاضل ثوبه رجله، وهذا كناية عن الهول ـ كما إن «كثير الرماد» كناية الجود ﴿**ويدعون**﴾ هؤلاء الكفار في ذلك اليوم ﴿**إلى السجود**﴾ فيقال لهم على سبيل التقريع والتوبيخ «اسجدوا» ﴿**فلا يستطيعون**﴾ لأن فِقار ظهرهم تتداخل وتصلب حتى لا يتمكنون من الانحناء للسجود كما يظهر من الأحاديث.

[٤٤] ﴿**خاشعة أبصارهم**﴾ لا يرفعون نظرهم من الأرض ذلة ومهانة ووجلاً ﴿**ترهقهم**﴾ أي تغشاهم ﴿**ذلة**﴾ فإنها تظهر من حركاتهم وسكناتهم ووجناتهم ﴿**وقد كانوا يدعون**﴾ هؤلاء الكفار ـ في دار الدنيا ـ ﴿**إلى السجود**﴾ والخضوع لله سبحانه ﴿**وهم سالمون**﴾ فلا يسجدون، ولذا جُوزوا بتلك الذلة، وبعدم تمكنهم من السجود يوم القيامة.

[٤٥] ﴿**فذرني**﴾ أي دعني يا رسول الله ﴿**ومن**﴾ أي مع الكافر الذي ﴿**يكذب بهذا الحديث**﴾ أي بحديث التوحيد والرسالة والمعاد وهذا تهديد، معناه اني سأجازيهم، كما يقول القائل «دعني وإياه» أي اتركه فإني سوف أحاسبه ﴿**سنستدرجهم**﴾ الاستدراج هو طلب الشيء درجة

مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٥﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿٤٦﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٧﴾ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤٨﴾

درجة حتى يصل إلى النهاية المقصودة، أي نوجب على هؤلاء العقوبة بإعطائهم الحياة والمال حتى يتدرجوا في الكفر والعصيان، ويستحقوا بذلك أشد العذاب ﴿**من حيث لا يعلمون**﴾ إنه استدراج إلى العذاب والعقاب، بل يظنون إنها نعمة وصحة ومال وجاه.

[٤٦] ﴿**وأملي لهم**﴾ أي أمهلهم، فإن الإملاء والإمهال بمعنى واحد ﴿**إنّ كيدي متين**﴾ أي ما أدبّره لعذاب الأشقياء متين مستحكم لا ينفصم ولا يدخله النقص والخلل.

[٤٧] ثم عطفَ على قوله «أم لكم كتاب» قوله: ﴿**أم تسألهم**﴾ أي تسأل يا رسول الله من هؤلاء الكفار ﴿**أجراً**﴾ على أداء الرسالة والدعاء إلى الإسلام ﴿**فهم من مغرم**﴾ أي من لزوم تلك الغرامة، والمال الذي تطلبه منهم ﴿**مثقلون**﴾ قد أثقلهم ذلك المطلوب، ولذا يريدون الفرار من تلك الغرامة، فعدم إيمانهم هل لأنهم يقولون لا فائدة في الإيمان، لأنهم مطمئنون، من كتاب قرأوه أنهم في الجنان مثل المسلمين ـ أم لأنهم يعرفون الفائدة في الإيمان وأن الجنة تتوقف عليه، ولكن في الإيمان غرامة وهم يفرون من تلك الغرامة؟

[٤٨] ﴿**أم عندهم الغيب**﴾ أي أن الوحي ينزل عليهم بأن ما هُم فيه من الكفر والعصيان هو الصحيح ﴿**فهم يكتبون**﴾ ذلك الغيب ويعملون به، ولذا لايرضخون للإسلام، لأن عندهم مثل ما عندك من الوحي والكتاب؟

﴿فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلۡحُوتِ إِذۡ نَادَىٰ وَهُوَ مَكۡظُومٞ ﴿٤٩﴾ لَّوۡلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعۡمَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلۡعَرَآءِ وَهُوَ مَذۡمُومٞ ﴿٥٠﴾ فَٱجۡتَبَٰهُ﴾

[٤٩] وإذ ترى يا رسول الله من الكفار الإعراض بلا حجة أو دليل ﴿**فاصبر لحكم ربك**﴾ في إبلاغ الرسالة، وتحمل المشاق في سبيله ﴿**ولا تكن**﴾ يا رسول الله ﴿**كصاحب الحوت**﴾ أي يونس عليه السلام الذي طلب العذاب لقومه، وخرج من بينهم، لما رأى عدم الفائدة في دعوتهم فقد كان عمله ذلك ترك الأولى بمثل مقام الرسالة ﴿**إذ نادى**﴾ الله سبحانه بإنزال العذاب على قومه ﴿**وهو مكظوم**﴾ قد كظم غيظه على القوم فهو مكظوم الغيظ، يقال كظم غيظه: إذا حبسه، أو المعنى نادى في بطن الحوت (لاَّ إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ)[١] وهو محبوس في بطن الحوت، لكن المعنى الأول أقرب إلى قوله «ولا تكن كصاحب الحوت».

[٥٠] ﴿**لولا أن تداركه نعمة من ربه**﴾ بقبول توبته واستغفاره فان التوبة نعمة من الله سبحانه على العبد ﴿**لنبذ**﴾ يونس، أي طرح من بطن الحوت ﴿**بالعراء**﴾ أي الأرض الجرداء الخالية عن الشجر والسقف حتى يهلك من الحر والبرد والجوع ﴿**وهو مذموم**﴾ لما ارتكبه من الدعاء على قومه، فقد كان ذلك تركاً للأولى، وذلك ـ وإن لم يكن عصياناً ـ إلاّ أنه ليس مناسباً لمقام الأنبياء، ولذا يحتاجون إلى التوبة والتطهير من ذلك.

[٥١] وإذا تداركته نعمة من ربه ﴿**فـ**﴾ استغفر وتاب ﴿**اجتباه**﴾ أي اصطفاه

(١) الأنبياء: ٨٨ .

رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٥١﴾ وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزۡلِقُونَكَ بِأَبۡصَٰرِهِمۡ لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكۡرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجۡنُونٞ ﴿٥٢﴾ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿٥٣﴾

واختاره ﴿**ربه**﴾ بأن قبل توبته وأرجعه إلى مكانه الأول ﴿**فجعله من الصالحين**﴾ الذين يصلحون لأداء رسالته سبحانه.

[٥٢] فاصبر يا رسول الله لحكم ربك، ولا تكن كيونس، واعلم بأن الكفار يريدون إزالتك عن دعوتك ﴿**وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك**﴾ «إن» مخففة من الثقيلة، أي أنه يقرب الكفار من أن يزلقوك، و «زلق» بمعنى لم يتماسك على الأرض بل وقع لتمايل رجله، أي يريد الكفار أن يوقعوك فلا تقوم للتبليغ، وهذا للتشبيه، فإن الذي يترك القيام بالبلاغ كالإنسان الذي وقع فلا وقوف له على رجليه ﴿**بأبصارهم**﴾ أي بأعينهم، فقد كانوا ينظرون إلى الرسول شزراً، والنظر العدائي يوجب انقطاع الإنسان عما قام به، فإن الشخص إذا رأى الإزدراء من السامع لم يتقدم بالكلام ﴿**لما سمعوا**﴾ أولئك الكفار ﴿**الذكر**﴾ أي القرآن ﴿**ويقولون إنه**﴾ أي الرسول ﷺ ﴿**لمجنون**﴾ قد خلط عقله وزال، فكلامه باطل لغو.

[٥٣] ﴿**وما هو**﴾ والحال أنه ليس هذا القرآن ﴿**إلا ذكر للعالمين**﴾ يذكرهم ما أودع في فطرتهم من التوحيد والمعاد وما أشبه.



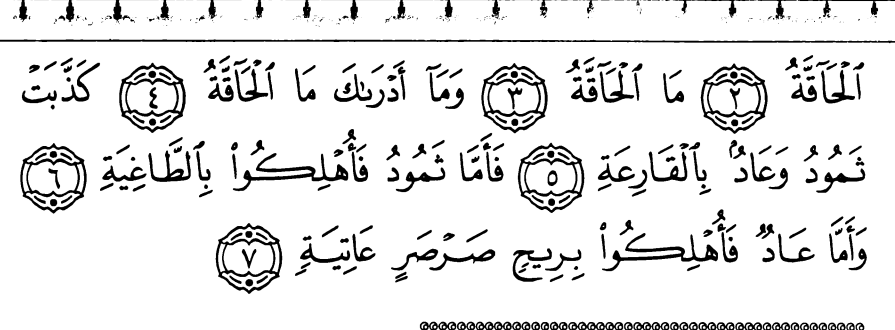
سُورة الحَاقة

مكية/آياتها (٥٣)

سميت السورة بهذا الاسم لاشتمالها على لفظة «الحاقة»، وهي كسائر السور المكية تشتمل على معالجة قضايا العقيدة، وحيث تعرضت سورة «القلم» في أواخرها بقضايا القيامة ووعيد الكفار بها ابتدأت هذه السورة بذلك.



[١] ﴿**بسم الله الرحمن الرحيم**﴾ نشرع باسم الإله الذي له ما في الكون، فاسمه الكريم أفضل شيء يشرع به في الأمور، إنه يبارك على ما ابتدئ فيه باسمه، كما ورد «كل أمر ذي بال لم يبدأ فيه باسم الله فهو أبتر»، الرحمن الرحيم الذي يتفضل بالرحمة لمن سأله ولمن لم يسأله، وإن كان من سأله مورد عنايته وألطافه الخاصة، بالإضافة إلى رحمته التي وسعت كل شيء.



[٢] ﴿الحاقة﴾ هي من أسماء القيامة، وإنما سمي المحشر بها لأنها ساعة تحق وتتحقق، من «حق» بمعنى ثبت وصدق ووجب، وهي في الإعراب مبتدأ خبره:

[٣] ﴿ما الحاقة؟﴾ كما تقول: زيد ما زيد؟ وهو استفهام معناه التفخيم، أيْ أيّ شيء هي؟ وما أكثر أهوالها وشدائدها.

[٤] ﴿وما أدراك﴾ يا رسول الله، أو أيها الإنسان ﴿ما الحاقة﴾ أيْ أيّ شيء هي، فإنك إذا لم تعاينها لم تعلم شدائدها، وهذا ليس نفياً بعلم الرسول ـ لو كان الخطاب موجهاً إليه ـ بل كناية عن شدتها.

[٥] ثم جاء السياق ليبين أحوال جملة من الأمم الماضية الذين كذبوا بالقيامة فأخذهم الله سبحانه وأهلكهم ﴿كذبت ثمود﴾ أي قبيلة ثمود، وهم قوم صالح عليه السلام ﴿و﴾ قبيلة ﴿عاد﴾ قوم هود عليه السلام ﴿بالقارعة﴾ أي بالقيامة، وتسمى «قارعة» لأنها تقرع الأشياء وتدكها وتقرع القلوب وتخيفها.

[٦] ﴿فأما ثمود فـ﴾ قد جوزوا على تكذيبهم بأنهم ﴿أهلكوا بالطاغية﴾ أي بالصيحة الطاغية التي طغت عليهم فخلعت قلوبهم وأهلكتهم.

[٧] ﴿وأما عاد فـ﴾ قد جوزوا على تكذيبهم بأنهم ﴿أهلكوا بريح صرصر﴾ أي باردة شديدة العصوف ﴿عاتية﴾ قد عتت عند حدها المألوف، والريح مؤنث سماعي.

سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٨﴾ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ﴿٩﴾ وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُۥ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ بِٱلْخَاطِئَةِ ﴿١٠﴾

[٨] ﴿**سخرها**﴾ الله ﴿**عليهم**﴾ بأن كانت مرسلة نحوهم ﴿**سبع ليال وثمانية أيام**﴾ فكانت تهلكهم ببردها وصريرها ﴿**حسوماً**﴾ أي في حال كون تلك الليالي والأيام ولاءً متتابعة، مأخوذ من «حسم الداء بمتابعة الكي»، أو بمعنى أنها حسمتهم أي قطعت نسلهم بحيث لم يبق منهم أحد ﴿**فترى**﴾ أيها الرائي ﴿**القوم**﴾ أي قبيلة عاد ﴿**فيها**﴾ أي في تلك الأيام ﴿**صرعى**﴾ مصروعين، جمع صريع، وهو الشخص الواقع ميتاً ﴿**كأنهم أعجاز نخل خاوية**﴾ أي أصول نخل بالية، فإن أعجاز جمع عجز وهو أصل النخل والخاوي الخالي الذي لا شيء في جوفه، وشبهوا بذلك لأن استطالة جسمهم وبقائهم في الأرض يشبه ذلك.

[٩] ﴿**فهل ترى**﴾ أيها الرائي ﴿**لهم**﴾ أي لأولئك الأقوام المكذبين ﴿**من باقية**﴾ أي من نفس باقية؟ وهذا استفهام للإيقاظ، أي لم يبق منهم أحد، وكذلك كل أمة كذبت لا بد لهم من الفناء حتى لا يبقى منهم أحد.

[١٠] ﴿**وجاء فرعون**﴾ وقومه العاصون لموسى عليه السلام ﴿**ومن قبله**﴾ من قوم نوح عليه السلام ونحوهم ﴿**والمؤتفكات**﴾ أي قرى لوط التي قلبت ـ من «أئتفك» أي انقلب ـ والمراد أهل تلك القرى ﴿**بالخاطئة**﴾ أي بالخطأ، فإنها مصدر «خطأ» أو المراد بالخصلة الخاطئة نسبت الخطأ إليها مجازاً بعدما كان منسوباً إلى القوم.

فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً ﴿١١﴾ إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ ﴿١٢﴾ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿١٤﴾ وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ

---

[١١] ﴿**فعصوا**﴾ أولئك الأقوام ﴿**رسول ربهم**﴾ أي كل قوم رسوله، والمراد بالرسول الجنس لا الواحد ـ كما تقدم وجهه سابقاً ـ ﴿**فأخذهم**﴾ الله بالعقوبة ﴿**أخذة رابية**﴾ أي زائدة في الشدة من «ربي» بمعنى زاد وطغى.

[١٢] لقد أخذنا الأقوام المكذبين وأنجينا المصدقين، كما إنا أنجينا المؤمنين بنوح عليه السلام الذين هم أجدادكم أيها الناس ﴿**إنا لما طغى الماء**﴾ أي جاوز الحد المألوف حتى أغرق الأرض كلها ﴿**حملناكم**﴾ إنما نسب الحمل إليهم باعتبار أنهم من أولاد من حملوا ﴿**في الجارية**﴾ أي في السفينة التي كانت تجري في تلك المياه الكثيرة.

[١٣] ﴿**لنجعلها**﴾ أي نجعل تلك الفعلة التي فعلنا بكم حين آمنتم ﴿**لكم**﴾ أيها الناس ﴿**تذكرة**﴾ تتذكرون بها نعم الله سبحانه ﴿**وتعيها**﴾ من «وعى» بمعنى أدرك، أي تحفظها وتدركها ﴿**أذن واعية**﴾ أي أذن تعي المواعظ وتستمع للعبر بقصد التفهم والعمل.

[١٤] وإذا رأيتم عاقبة المكذبين وعاقبة المصدقين في الدنيا فاسمعوا عاقبتهما في الآخرة ﴿**فإذا نفخ في الصور**﴾ أي نفخ إسرافيل في البوق لأجل إحياء البشر نفخته الثانية ﴿**نفخة واحدة**﴾ بلا زيادة عليها إذ لا حاجة إلى أكثر منها، فإن البشر يحيون بمجرد النفخة.

[١٥] ﴿**وحملت الأرض والجبال**﴾ أما حمل الأرض فباعتبار رفع منحدراتها

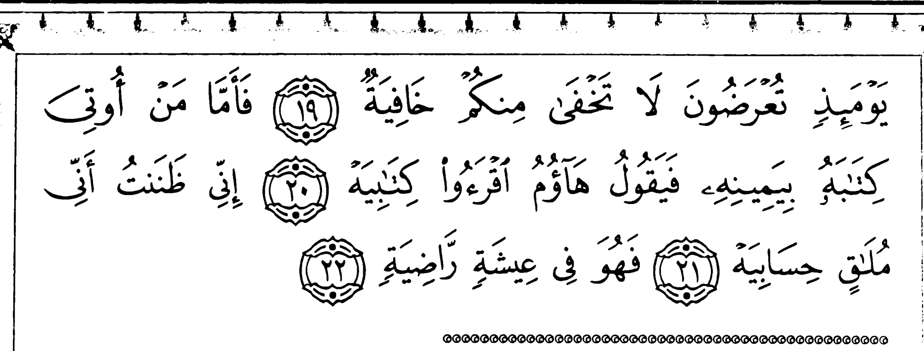
فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ﴿١٥﴾ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١٦﴾ وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِىَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿١٧﴾ وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَآ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ﴿١٨﴾

حتى تستوى مع سائر بقاعها، وأما رفع الجبال فباعتبار أنها تنسف حتى تكون كالهباء لتستوي ظهر الأرض كلها بلا رفع ولا خفض، وتكون ساحة القيامة عليها ﴿**فدكتا**﴾ أي كسرتا ودك بعضها على بعض ﴿**دكة واحدة**﴾ فإن «الدك» يشمل الأرض والجبال مرة واحدة لا تدريجاً.

[١٦] ﴿**فيومئذ**﴾ أي في ذلك اليوم ﴿**وقعت الواقعة**﴾ أي القيامة، وسميت «واقعة» لأنها تقع قطعاً.

[١٧] ﴿**وانشقت السماء**﴾ بمعنى انفرجت حتى ينظر الإنسان إليها فيراها متفطرة كانفطار الجدار ونحوه ﴿**فهي**﴾ أي السماء ﴿**يومئذ**﴾ أي في يوم القيامة ﴿**واهية**﴾ من «وهى» بمعنى ضعف، لأن نظامها يختل، ومداراتها تتداخل وتخرب.

[١٨] ﴿**و**﴾ يرى ﴿**الملك**﴾ النازل للحساب وسائر الأعمال ﴿**على أرجائها**﴾ أي على أطراف السماء ونواحيها، و «أرجاء» جمع «رجا» بمعنى الطرف والناحية ﴿**ويحمل عرش ربك**﴾ يا رسول الله، وهو محل سمي بالعرش يصدر منه أوامر الله سبحانه، كما أن البيت الحرام محل مضاف إليه سبحانه تشريفاً ﴿**فوقهم**﴾ أي فوق أكتافهم ﴿**يومئذ**﴾ أي في يوم القيامة ﴿**ثمانية**﴾ من الملائكة العظام، وكل ذلك لتكثير الهول، والتناسب مع مدارك الإنسان الذي يرى العظمة ويشعر الخوف من هذه الأمور.

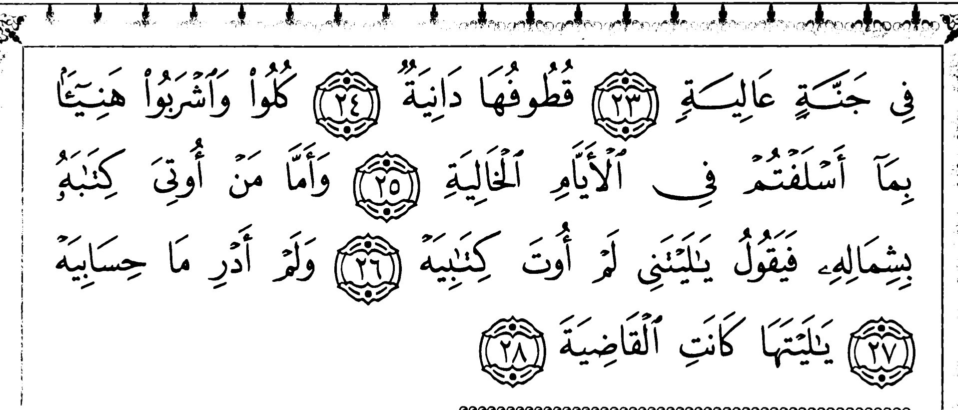


[١٩] ﴿يومئذ﴾ أي في هذا اليوم ﴿تعرضون﴾ أنتم أيها البشر في ذلك العرض الهائل الرهيب ﴿لا تخفى منكم﴾ نفس ﴿خافية﴾ فليس أحد هناك مخفياً لأنه لا محل للاختفاء، بل كلهم بارزون يراهم الناس معهم أعمالهم إن خيراً فخير وإن شراً فشر.

[٢٠] وهناك ينقسم الخلق إلى قسمين: ﴿فأما من أوتي كتابه﴾ أي صحيفة أعماله التي أدرج فيها الملائكة كل ما عمل في دار الدنيا ﴿بيمينه﴾ أي بيده اليمنى، وذلك علامة الفلاح والنجاة ﴿فيقول﴾ لأهل القيامة ـ في فرح وسرور ـ ﴿هاؤم﴾ أي تعالوا وخذوا، اسم فعل أمر بصيغة الجمع، مفرده «ها» ﴿اقرؤوا كتابيه﴾ وانظروا ما فيه من الحسنات، والهاء في «كتابيه» ونحوه للسكت، يقرأ في الوقف ولا يقرأ في الوصل، وكأنه جيء به للتنفس بأن لا يحبس النفس على الياء.

[٢١] ﴿إني ظننت﴾ في الدنيا ﴿أني ملاق حسابيه﴾ في الآخرة، ولذا عملت صالحاً حتى حصلت على هذه المرتبة الرفيعة من الفلاح والنجاح والإتيان بـ «ظننت» لعله لإفادة أن مجرد الظن كافٍ في العمل الصالح إذ رفع الضرر المظنون واجب بحكم العقل.

[٢٢] ﴿فهو﴾ أي صاحب الكتاب الذي أعطي كتابه بيمينه ﴿في عيشة راضية﴾ نسبة الرضا إلى العيش مجاز، فإن صاحب العيش هو الراضي أو أن اسم الفاعل بمعنى اسم المفعول ـ كما قالوا في أن هذين يأتي كل واحد منهما



في مكان الآخر، ف(حِجاباً مَسْتُوراً)[1] بمعنى ساتراً كما تقدم ـ.

[٢٣] ﴿في جنة﴾ أي بستان ﴿عالية﴾ رفيعة القدر والمكان.

[٢٤] ﴿قطوفها﴾ جمع «قطف» وهو ما يجتنى بسرعة، أي ثمارها الناضجة أو أن القطف والقطع ﴿دانية﴾ أي قريبة إلى الشخص، حتى لا يحتاج في قطفها إلى التجشم والتعب، فإذا أرادها قربت من يده ليقطعها.

[٢٥] ويقال لهم ـ على وجه التكريم والإجلال ـ ﴿كلوا﴾ من ثمار الجنة ولحومها وسائر مأكولاتها ﴿واشربوا﴾ من أنهارها ﴿هنيئاً﴾ لكم أي تهنئون هنيئاً، بلا داء ولا علة يوجبها الأكل والشرب ﴿بـ﴾ سبب ﴿ما أسلفتم﴾ أي قدمتم من أعمالكم الصالحة ﴿في الأيام الخالية﴾ أي الماضية، والمراد بها أيام الدنيا التي خلت ومضت.

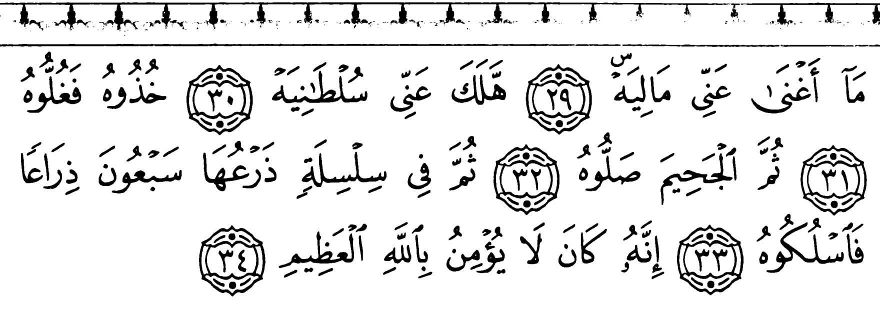
[٢٦] وإذ رأينا أحوال أهل الجنة فلننظر إلى أحوال أهل النار ﴿وأما من أوتي﴾ أي أعطي ﴿كتابه﴾ أي كتاب أعماله التي أدرجها الملائكة فيه ﴿بشماله﴾ أي بيساره، وذلك علامة أهل النار ﴿فيقول يا ليتني لم أوت﴾ أي لم أعط ﴿كتابيه﴾ حتى أرى مايسؤوني فيه.

[٢٧] ﴿ولم أدر﴾ أي يا ليتني لم أعرف ﴿ما حسابيه﴾ أيْ أيَّ شيء حسابي.

[٢٨] ﴿يا ليتها﴾ أي ليت الموتة التي متها في الدنيا ﴿كانت القاضية﴾ تقضي

---

(١) الإسراء: ٤٦ .



على حياتي إلى الأبد فلم أبعث بعدها لأرى سيئات أعمالي وأبتلي بالخزي والعذاب.

[٢٩] ﴿ما أغنى عني ماليه﴾ أي ما دفع عني مالي من عذاب الله شيئاً.

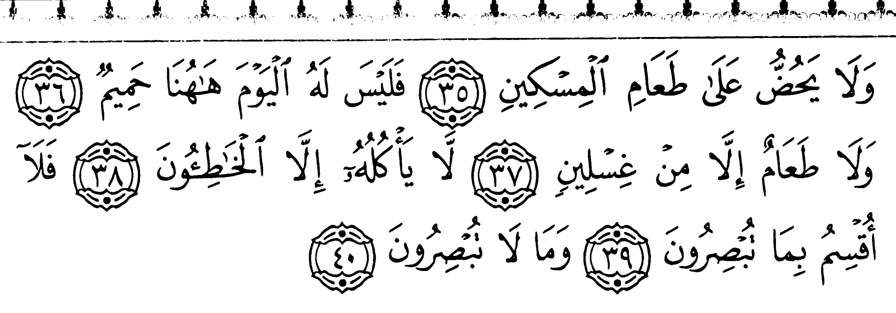
[٣٠] ﴿هلك عني سلطانيه﴾ وسلطنتي وجاهي ذهبتا، فلا مال ينفع ولا سلطان ينجع ـ مما كرست حياتي وجهودي لهما ـ.

[٣١] ثم يأتي الخطاب من المصدر الأعلى للملائكة الموكلين بهذا المجرم ﴿خذوه﴾ فلا تتركوه يفر ويهرب ﴿فغلوه﴾ أي أوثقوه بالغل، وهو الحديد الذي يربط أعضاء الإنسان بعضها ببعض لئلا يتمكن من الفرار.

[٣٢] ﴿ثم الجحيم﴾ بعد إغلاله بالغل ﴿صلوه﴾ أي أدخلوه فيها والجحيم هي النار العظيمة.

[٣٣] ﴿ثم في سلسلة ذرعها﴾ أي طولها بالذراع ﴿سبعون ذراعاً﴾ والطول لتشديد العذاب والغم عليه ﴿فاسلكوه﴾ أي اربطوه بها، وقيل تدخل من حلقه وتخرج من دبره، وهذا هو سلكه فيها.

[٣٤] ثم يأتي السياق ليبين علة هذه الأنواع من العذاب ﴿إنه﴾ أي هذا المجرم ﴿كان﴾ في الدنيا ﴿لا يؤمن بالله العظيم﴾ مع عظمته سبحانه، كان يعاند ولا يؤمن.


وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣٥﴾ فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٦﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٧﴾ لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ ﴿٣٨﴾ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٤٠﴾

[٣٥] ﴿**ولا يحض**﴾ أي لا يحث الناس ـ من باب الأمر بالمعروف ـ أو هو كناية عن منعه بنفسه، لأن المانع لا يحث، فأتى بالمسبب وأريد السبب ﴿**على طعام المسكين**﴾ أي إطعام الفقراء، الذين يجب الحض على إطعامهم لأنهم في معرض الهلكة.

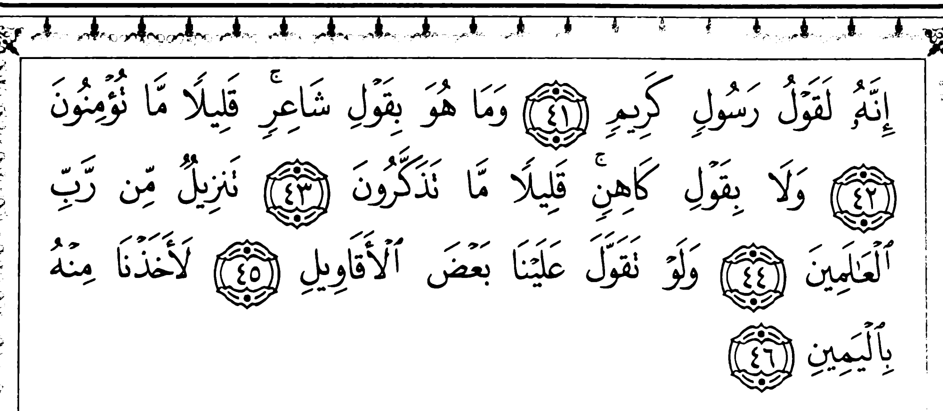
[٣٦] ﴿**فليس له**﴾ هذا الكافر ﴿**اليوم**﴾ أي في يوم القيامة ﴿**ههنا**﴾ في المحشر ﴿**حميم**﴾ صديق ينفعه.

[٣٧] ﴿**ولا**﴾ له ﴿**طعام**﴾ يأكله ﴿**إلاّ من غسلين**﴾ وهو صديد قيح أهل النار، أي غسالتهم.

[٣٨] ﴿**لا يأكله**﴾ أي لا يأكل الغسلين ﴿**إلاّ الخاطئون**﴾ الذين اخطأوا في الدنيا بالكفر والعصيان.

[٣٩] وبعد استعراض أحوال المؤمنين والكافرين في الآخرة يأتي السياق، ليستدل على الرسالة وينفي مزاعم القوم حول الرسول ﷺ ﴿**فلا أقسم بما تبصرون**﴾ أيها البشر.

[٤٠] ﴿**و**﴾ بـ ﴿**ما لا تبصرون**﴾ أي بالمشاهدات والمغيبات، والإتيان بـ «لا» للطيفة، هي الحلف، وإفادة أن الحلف لعظيم، فإذا أردت أن تحلف، وأردت أن تبين أن الحلف عظيم تقول «لا أقسم بحياتك إن الأمر كذا» فأنت لم تحلف مع الإلماع إلى الحلف، وعلى هذا فـ «لا» للنفي، لأنها زائدة.



[٤١] ثم بين متعلق الحلف بقوله: ﴿إنه﴾ أي إن القرآن ﴿لقول رسول كريم﴾ عند الله سبحانه، فهو من قبله، إذ الرسول لا يقول إلاّ من عنده سبحانه.

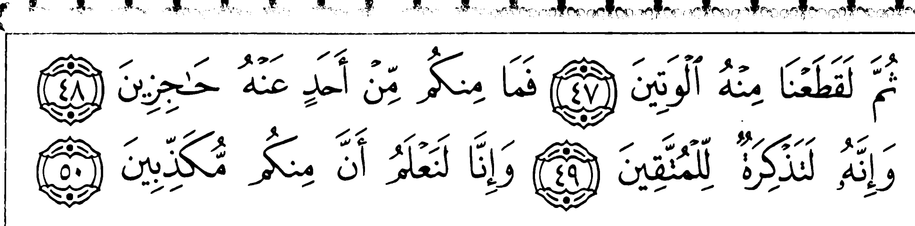
[٤٢] ﴿وما هو﴾ أي ليس القرآن ﴿بقول شاعر﴾ فقد كانوا يقولون: إن محمداً شاعر والقرآن شعر ﴿قليلاً ما تؤمنون﴾ أي قليل إيمانكم، أو يؤمن منكم بالرسول أشخاص قليلون، وهذا للاستنكار والتقريع، أي لِمَ تكونون هكذا؟

[٤٣] ﴿ولا﴾ القرآن ﴿بقول كاهن﴾ فقد كان بعضهم يقول: إن الرسول كاهن، وأن القرآن كهانة، والكاهن من له اتصال بالشياطين فيأتون إليه بأخبار ملفقة مسجعة باطلها أكثر من حقّها ﴿قليلاً ما تذكرون﴾ فلا تتذكرون الحق المودوع في فطرتكم إلاّ قليلاً، أو قليل منكم يتذكرون الحق.

[٤٤] إنه ﴿تنزيل﴾ أي منزل ﴿من﴾ عند ﴿رب العالمين﴾ على الرسول ﷺ.

[٤٥] ﴿ولو تقوّل علينا﴾ أي افترى الرسول علينا ﴿بعض الأقاويل﴾ المكذوبة، والتقوّل اختلاق القول ونسبته إلى من ليس منه.

[٤٦] ﴿لأخذنا منه﴾ أي من الرسول ﷺ ﴿باليمين﴾ أي بيمينه بأن



قطعناها، لأن من يفسد في الأرض جزاؤه أن تقطع يده. ولا يخفى أن هذا الكلام للإنكار على الكفار، لأنه يمس ساحة قدس الرسول ﷺ، وهذا من قبيل (وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ)[1] كما سبق الكلام فيه.

[٤٧] ﴿**ثم لقطعنا منه**﴾ أي من الرسول ﴿**الوتين**﴾ أي قطعنا عرق قلبه، وهو كناية عن إهلاكه، أو المعنى لأخذنا يده اليمنى لنقتله كما يفعل الجلاد بالمجرم يأخذ يده ليسهل قتله.

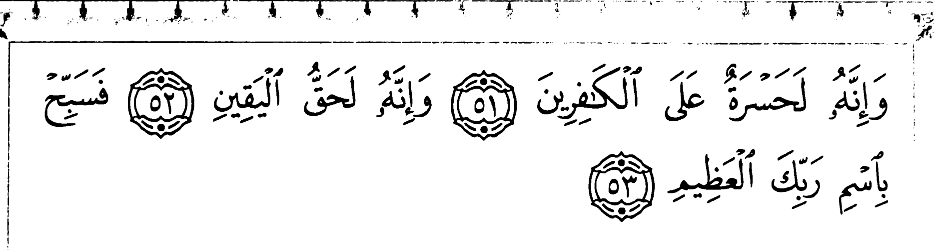
[٤٨] ولو كان كاذباً، وفعلنا به ذلك ﴿**فما منكم**﴾ أيها البشر ﴿**من أحد**﴾ «من» زيادة لتعميم النفي ﴿**عنه**﴾ أي عن الرسول ﴿**حاجزين**﴾ أي لايقدر أحد منكم أن يدفعنا ويحجز بيننا وبين الرسول حتى لا تحل به عقوبتنا.

[٤٩] ﴿**وإنه**﴾ أي القرآن ﴿**لتذكرة**﴾ مذكّر لما أودع في فطرتهم من التوحيد وسائر الأصول ﴿**للمتقين**﴾ الذين يتقون الآثام، فإن الإنسان المحافظ للحدود الذي يتقي ويخاف الزلة يتذكر بالقرآن، والتخصيص بهم لأنهم المنتفعون بالقرآن دون سواهم.

[٥٠] ﴿**وإنا لنعلم أن منكم**﴾ أيها الناس ﴿**مكذبين**﴾ يكذبون بالله وبالرسول، وبالمعاد، وبالقرآن. وهذا تهديد لهم بأنهم سوف يحاسبون ويعذبون بسبب تكذيبهم.

---

(١) الأعراف: ١٥١ .



[٥١] ﴿وإنه﴾ أي القرآن ﴿لحسرة على الكفارين﴾ يوجب الحسرة عليهم يوم القيامة حيث لم يعملوا به مع أنه في متناول أيديهم.

[٥٢] ﴿وإنه﴾ أي القرآن ﴿لحق اليقين﴾ أي هذا القسم من اليقين وهو اليقين البالغ درجة راقية لمطابقته للواقع، فإن هناك علم اليقين وهو ما يعلم بغير أن يشاهد، وحق اليقين وهو ما يعلم ويشاهد ـ وقد سبق المثال بالنار لذلك ـ.

[٥٣] ﴿فسبح﴾ أي نزّه ﴿باسم ربك العظيم﴾ أي سبح الله بذكر اسمه، ولاتعر للكفار بالاً، بل امض في مسؤوليتك، والتنويه بذكره سبحانه على نحو التنزيه عن الصفات السيئة والشركاء ـ مما يزعمها الكفار والمشركون ـ.



سُورة المعَارج
مكية/آياتها (٤٥)

سميت السورة بهذا الاسم لاشتمالها على لفظة «المعارج»، وهي كسائر السور المكية تعالج قضايا العقيدة، إلاّ مفتتحها فإنها مدنية وحيث ختمت سورة «الحاقة» بوعيد الكفار، افتتحت هذه السورة بمثل ذلك.

وقد كان سبب نزول مفتتح السورة على ما روي عن الصادق عليه السلام أنه قال: لما نصب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم علياً يوم غدير خم وقال «من كنت مولاه فعلي مولاه» طار ذلك في البلاد، فقدم على النبي صلى الله عليه وآله وسلم النعمان بن الحرث الفهري فقال: يا رسول الله أمرتنا عن الله أن نشهد أن لا إله إلاّ الله وأنك رسول الله وأمرتنا بالجهاد والحج والصوم والصلاة والزكاة فقبلناها، ثم لم ترض حتى نصبت هذا الغلام - أي علياً عليه السلام - فقلت: مَنْ كنت مولاه فعلي مولاه، فهذا شيء منك أو أمر من عند الله؟ فقال الرسول صلى الله عليه وآله وسلم: والله الذي لا إله إلاّ هو إن هذا من الله. فولى النعمان بن الحرث وهو يقول: اللّهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء، فرماه الله بحجر على رأسه فقتله فأنزل الله «سأل

سائل بعذاب واقع»[١].

أقول: وإلى هذا أشير بقوله سبحانه (وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ)[٢].

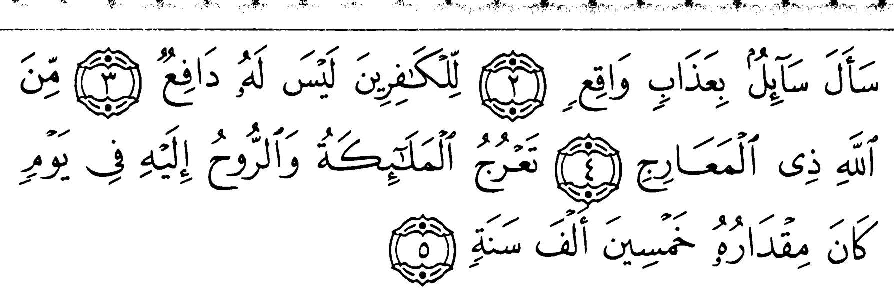
بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿١﴾

[١] ﴿**بسم الله الرحمن الرحيم**﴾ ابتداء باسم الله ليكون شروعاً مباركاً موصولاً بالخير، الرحمن الرحيم الذي يتفضل بالرحم بإصلاح النواقص ديناً ودنيا وآخرة، فإن الرحمة في غيره سبحانه معنى في القلب يبعث على الخير، وفيه سبحانه إعطاء الخير.

---

(١) شواهد التنزيل: ج٢ ص٣٨١.

(٢) الأنفال: ٣٣.

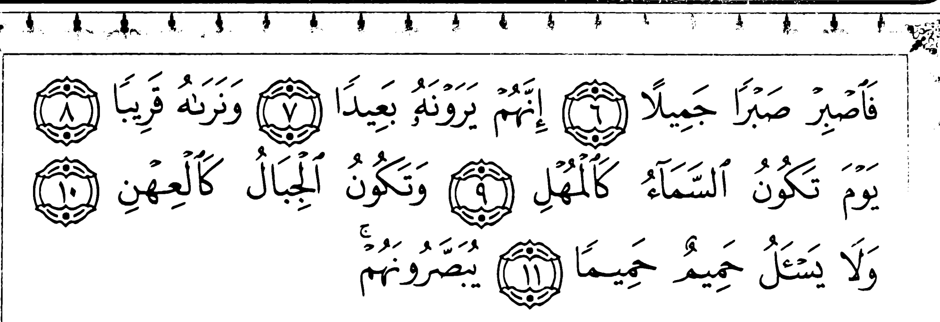


[٢] ﴿سأل سائل بعذاب واقع﴾ يعني استدعى مستدع وطلب العذاب، وقد عرفت أنه «الفهري»، ومن المحتمل أن المراد به أعم منه ليشمل الكفار الذين كانوا يستعجلون بالعذاب ـ استهزاءً ـ.

[٣] ﴿للكافرين﴾ أي أن ذلك العذاب للكافرين، فهو واقع بهم سواء طلبوه أمْ لم يطلبوه ﴿ليس له﴾ أي لذلك العذاب ﴿دافع﴾ يدفعه.

[٤] ﴿من الله﴾ فإن العذاب من قبله سبحانه ﴿ذي المعارج﴾ جمع «معراج» وهو محل العروج والصعود، ولعل المراد بها السماوات التي هي معارج للملائكة ولأرواح المؤمنين، وهذا كناية عن علو شأنه سبحانه، فإذا أراد شيئاً لا بد وأن يقع.

[٥] ثم بين مقدار ارتفاع المعارج، حتى لا يتوهم أن مقدار ارتفاعها كالمألوف في الأذهان من الارتفاعات القليلة ﴿تعرج الملائكة والروح﴾ الذي هو أعظم الملائكة، أو المراد أرواح المؤمنين ﴿إليه﴾ أي إلى المحل الذي جعله سبحانه مصدراً لأمره ومحلاً لتشريفه، كالبيت الحرام الذي جعله محلاً لعنايته ـ فإنه سبحانه منزه عن المكان ـ ﴿في يوم كان مقداره﴾ أي مقدار ذلك اليوم ﴿خمسين ألف سنة﴾ فطول ذلك اليوم ـ إذا سير فيه بالسير العادي ـ خمسون ألف سنة من سني الدنيا، وبمعرفة طول ذلك اليوم يعرف مقدار بُعد محل تشريفاته سبحانه من الأرض.



ويحتمل في العبارة معنى آخر، وهو أن العروج إلى محل تشريفاته إنما هو في يوم القيامة الذي مقداره خمسين ألف سنة، فهو إما لبيان مقدار بُعد محل التشريفات عن الأرض وإما لبيان مقدار ذلك اليوم، وفي الأحاديث كلا المعنيين.

[٦] ﴿**فاصبر**﴾ يا رسول الله ﴿**صبراً جميلاً**﴾ لا جزع فيه ولا شكوى مما تقاسيه من الأتعاب وتكذيب الكفار.

[٧] ﴿**إنهم**﴾ أي الكفار ﴿**يرونه**﴾ أي ذلك اليوم وهو يوم القيامة ـ بناءً على المعنى الثاني ـ أو العذاب ﴿**بعيداً**﴾ ولذا يعملون بالكفر والمعاصي.

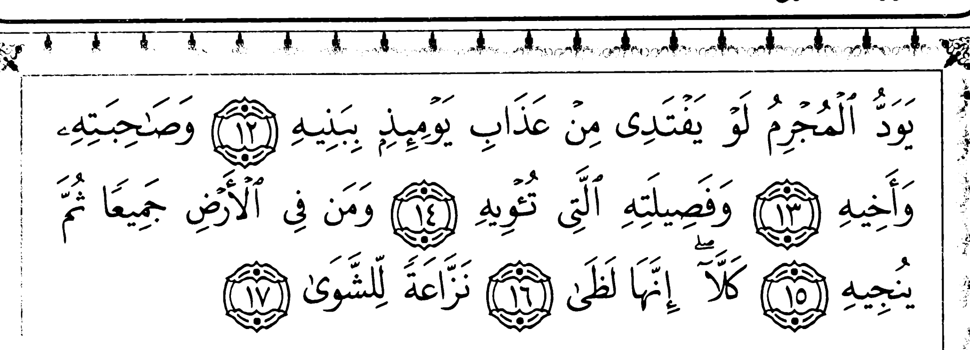
[٨] ﴿**ونراه**﴾ أي نعلمه نحن ﴿**قريباً**﴾ فإن كل آت قريب، وإن طال الأمد في مقاييس الناس.

[٩] ثم بين السياق وقت العذاب، أو وقت ذلك اليوم ﴿**يوم تكون السماء كالمهل**﴾ أي الصفر المذاب، وكأنه للصب على الناس المجرمين.

[١٠] ﴿**وتكون الجبال كالعهن**﴾ كالصوف المنفوش، فإنها تطير في الجو هباءً، كما يطير الصوف.

[١١] ﴿**ولا يسأل**﴾ في ذلك اليوم ﴿**حميم**﴾ أي صديق ﴿**حميماً**﴾ أي عن صديقه لشغل كل إنسان بنفسه.

[١٢] ﴿**يبصرونهم**﴾ أي يرى بعض الأصدقاء بعضاً ولكن لا يسألون عنهم



كيف أنتم؟ والفعل مجهول من باب التفعيل، كأنه يحصل منهم الإبصار قهراً، إشارة إلى أنهم لا يريدون أن يبصروا أصدقاءهم، وإنما تقع عينهم عليهم بدون إرادة ﴿**يودّ المجرم**﴾ أي يتمنى ويحب العاصي ﴿**لو يفتدي**﴾ أي يعطي الفدية عن نفسه لينجيها ﴿**من عذاب يومئذ**﴾ أي يوم القيامة ﴿**ببنيه**﴾ بأن يدفع عوضه أولاده الذين هم أعز الناس عنده فينزل بهم العذاب دونه.

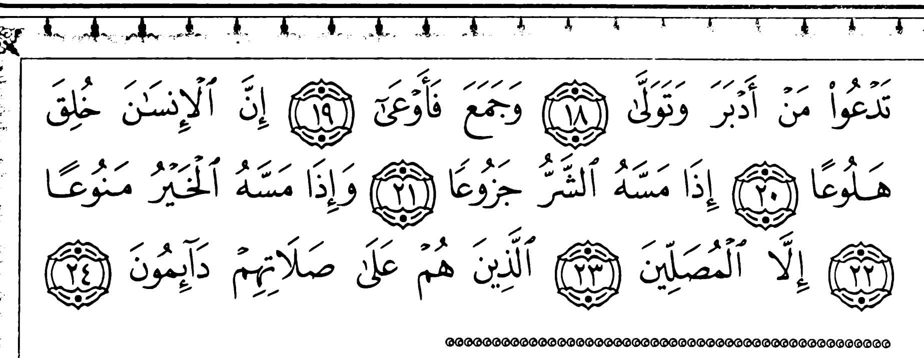
[١٣] ﴿**و**﴾ بـ ﴿**صاحبته**﴾ أي يعطي زوجته للعذاب لينجو بنفسه ﴿**و**﴾ بـ ﴿**أخيه**﴾ حتى ينجو.

[١٤] ﴿**و**﴾ يفتدى بـ ﴿**فصيلته التي تؤويه**﴾ أي عشيرته ـ التي انفصل منهم بالولادة ـ التي كانت تؤوي، أي تعطي المأوى لهذا الإنسان في الشدائد.

[١٥] ﴿**و**﴾ يفتدي بـ ﴿**من في الأرض جميعاً**﴾ أي يعطي بدله جميع الخلائق ﴿**ثم ينجيه**﴾ ذلك الفداء عن العذاب.

[١٦] وهل يفيد الفداء ـ ولو فرضنا أنه تمكن من كل ذلك ـ؟ ﴿**كلا**﴾ لاينجيه شيء ولا يفيده الفداء ﴿**إنها**﴾ أي نار جهنم ﴿**لظى**﴾ أي لهب خالص، والمعنى للمجرم اللهب فلا يفيده الفداء.

[١٧] في حال كونها ﴿**نزاعة للشوى**﴾ أي تنتزع كثير الأطراف فلا تترك جلداً ولا لحماً. «وشوى» الأكارع والأطراف، وتسميتها بالشوى لأنها



تشوى بالنار.

[١٨] ﴿تدعو﴾ النار إلى نفسها، بالالتهاب والالتهام ﴿من أدبر﴾ عن الحق، أي أعطاه دبره ليعرض عنه ﴿وتولى﴾ أي أعرض عن الدين.

[١٩] ﴿وجمع﴾ المال ﴿فأوعى﴾ أي أمسكه في الوعاء ـ كالصندوق ونحوه ـ فلم ينفقه في طاعة الله.

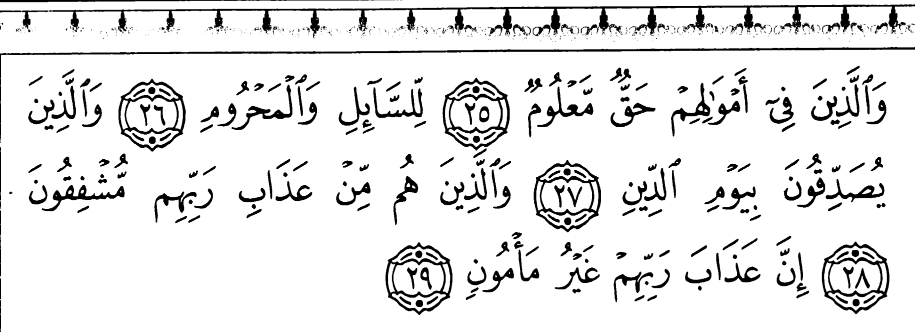
[٢٠] ﴿إن الإنسان خلق هلوعاً﴾ أي شديد الحرص، من «الهلع» وهو الحرص.

[٢١] ثم بين سبحانه معنى الهلوع بقوله: ﴿إذا مسه الشر﴾ أي لامسه ونزل به شر من فقر ومرض وخوف وما أشبه ﴿جزوعاً﴾ أي كان كثير الجزع، بدون أن يصبر وينتظر الفرج.

[٢٢] ﴿وإذا مسه الخير﴾ أي لامسه ونزل به كالغنى والصحة والأمن والجاه ﴿منوعاً﴾ أي كان كثير المنع لخيره عن الناس ولا يقوم بواجب الشكر من بذل ماله وجاهه، والقيام في الخدمات بصحته وأمنه.

[٢٣] إن ذلك طبيعة الإنسان وفطرته التي ركبت فيه ﴿إلا المصلين﴾ الذين اتصلوا بالله سبحانه وارتفعوا عن مهاوي النفس، بالصلاة ـ والإتيان بها لأنها تلازم الإيمان وسائر الصفات الحسنة ـ.

[٢٤] ﴿الذين هم على صلاتهم دائمون﴾ يقيمونها باستمرار، فإن إقامة



الصَّلاة بصورة مستمرة توحي إلى النفس معاني الخير، لما يحصل من الإيماء المكرر الموجب لتهذيب النفس كما قال في آية أخرى (وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ)[1].

[٢٥] ﴿**والذين في أموالهم حق معلوم**﴾ وهو مقدار منه يعطيه للفقراء، وقد ورد أن الحق المعلوم يراد به غير الزكاة مما يفرضه الرجل على نفسه فيخرجه من ماله في كل يوم أو في كل جمعة.

[٢٦] ﴿**للسائل**﴾ الذي يسأل لافتقاره ومسكنته ﴿**والمحروم**﴾ وهو الفقير الذي حرم من الثروة ولا يسأل الناس لعفته.

[٢٧] ﴿**والذين يصدقون بيوم الدين**﴾ أي يؤمنون بالقيامة الذي هو يوم الجزاء ـ إذ الدين بمعنى الجزاء، كما قال «ولا أنت ديّاني فتخزوني» ـ ولعل الإتيان من باب التفعيل لإفادة كثرة تصديقهم بكل ما يقع في ذلك اليوم.

[٢٨] ﴿**والذين هم من عذاب ربهم**﴾ في الدنيا وفي الآخرة ﴿**مشفقون**﴾ أي خائفون، من «أشفق» بمعنى خاف.

[٢٩] وإنما يخافون فـ ﴿**إن عذاب ربهم**﴾ بالكفار والعاصين ﴿**غير مأمون**﴾ أي لا يؤمن حلوله، فلا ينبغي لأحد أن يأمن منه فيتمادى في الكفر

(١) المؤمنون: ١٠ .

وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٣١﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٣٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ ﴿٣٤﴾

والعصيان اغتراراً.

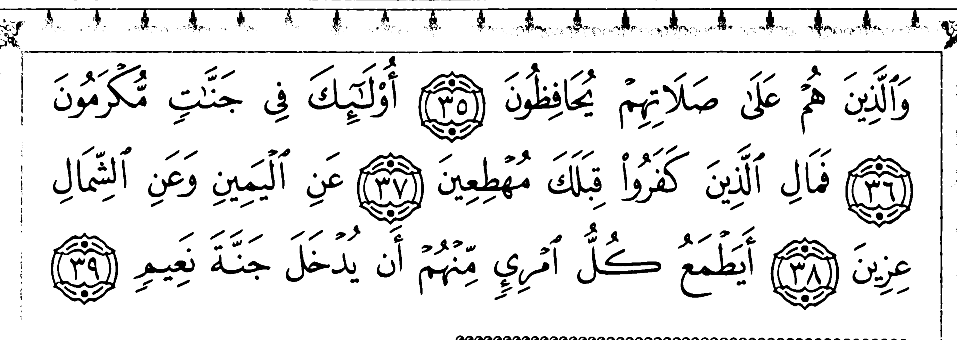
[٣٠] ﴿**والذين هم لفروجهم**﴾ جمع «فرج» وهو القبل والدبر وسمي بذلك لانفراج وانشقاق فيهما ﴿**حافظون**﴾ فلا يستحلونها في المعاصي.

[٣١] ﴿**إلاّ على أزواجهم**﴾ أي زوجاتهم ويعرف العكس بالتلازم ﴿**أو ما ملكت أيمانهم**﴾ أي إمائهم، ونسب الملك إلى اليمين لأنها آلة اكتساب المال الموجبة لشراء الإماء، والمتعة والتحليل داخلان في الأزواج أو الثاني داخل في ما ملكت أيمانهم ﴿**فإنهم غير ملومين**﴾ لايلامون على استعمال فروجهم في هذا النوع الخاص من اللذة.

[٣٢] ﴿**فمن ابتغى**﴾ أي طلب اللذة في ﴿**وراء ذلك**﴾ الذي ذكر بأن استعمله في الحرام في زنى ولواط وسحق واستمناء ﴿**فأولئك**﴾ المبتغون ﴿**هم العادون**﴾ الذين تعدوا الحق وحدود الشريعة، المستحقون بذلك النكال والعذاب.

[٣٣] ﴿**والذين هم لأماناتهم**﴾ التي تودع عندهم ﴿**وعهدهم**﴾ مع من عاهدوا ﴿**راعون**﴾ فلا يخونون الأمانات، ولا ينقضون العهود.

[٣٤] ﴿**والذين هم بشهاداتهم قائمون**﴾ أي يقومون بالشهادة التي تحمّلوها، فإذا صار موقع أن يشهدوا شهدوا بالحق لا بالباطل، ولا يهربون من



الشهادة لخوف أو طمع.

[٣٥] ﴿**والذين هم على صلاتهم يحافظون**﴾ وكأن المحافظة أداؤها بحدودها وآدابها، «دائمون» الاستمرار عليها، أو الآية السابقة في النوافل وهذه في الفرائض، كما روي عن الإمام الباقر عليه السلام.

[٣٦] ﴿**أولئك**﴾ المؤمنون المتصفون بتلك الصفات ﴿**في جنات**﴾ أي بساتين تجنها الأشجار والقصور ﴿**مكرمون**﴾ أي يكرمهم الله سبحانه والملائكة، فهم في نعمة مادية ومعنوية.

[٣٧] وبعد وضوح الحق ﴿**فما للذين كفروا قبلك**﴾ يا رسول الله أيْ أيَّ شيء لهم وما حملهم على أن يفعلوا ما فعلوا؟ ﴿**مهطعين**﴾ من «أهطع» إذا نظر ببصره إلى الشيء لا يزيله عنه، ويكون ذلك عن حب أو عداوة، والمراد هنا الثاني، أي ما لهم ينظرون إليك شزراً نظر عداوة وشنآن؟

[٣٨] ﴿**عن اليمين وعن الشمال**﴾ أي من طرف يمينك وطرف شمالك ﴿**عزين**﴾ جمع «عزة» أي جماعات متفرقين عصبة عصبة، فإن «عزة» بمعنى الجماعة، وهذا هو الغالب في الناس إذا ظهر فيهم مصطلح أو مبدع، فإنهم ينظرون إليه جماعات من كل صوب إذا كان في محل أو مر بمحل.

[٣٩] ﴿**أيطمع كل امرئ منهم**﴾ أي من هؤلاء الكفار ﴿**أن يدخل جنة نعيم**﴾؟

كَلَّآۖ إِنَّا خَلَقۡنَٰهُم مِّمَّا يَعۡلَمُونَ ﴿٤٠﴾ فَلَآ أُقۡسِمُ بِرَبِّ ٱلۡمَشَٰرِقِ وَٱلۡمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ﴿٤١﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَمَا نَحۡنُ بِمَسۡبُوقِينَ ﴿٤٢﴾ فَذَرۡهُمۡ يَخُوضُواْ

فما هذا الطمع السخيف بعد كفرهم وعنادهم؟ فكأنهم إذا أبغضوا الرسول ونظروا إليه نظراً شزراً توقعوا بذلك نيل رضى الله سبحانه ودخول جنته.

[٤٠] ﴿**كلا**﴾ لا يدخلون الجنة، فـ ﴿**إنا خلقناهم مما يعلمون**﴾ من نطفة قذرة، وهل مَنْ أصله نطفة صالح لدخول الجنة بدون الإيمان والعمل الصالح؟ فإن الشيء إما بأصله أو بعمله، وهؤلاء أصلهم نطفة قذرة، وعملهم كفر وعصيان، فلا صلوح لهم لدخول الجنان.

[٤١] ﴿**فلا أقسم برب المشارق والمغارب**﴾ «لا» للنفي، وهذا إلماع إلى حلف، في صورة عدم الحلف ـ كما سبق ـ والمشارق باعتبار شروق الشمس في كل يوم من نقطة من الفلك، وكذا المغارب بالنسبة إلى غروبها ﴿**إنا لقادرون**﴾.

[٤٢] ﴿**على أن نبدل خيراً منهم**﴾ أي أن نهلكهم ونأتي بدلهم خيراً منهم أناساً يؤمنون ولا يعصون ﴿**وما نحن بمسبوقين**﴾ بأن يسبقنا الكفار في الهرب، حتى نبقى وراءهم لا نلحق بهم فلا نتمكن من تعذيبهم كالحاكم الذي يبقى ويهرب منه المجرم فلا يتمكن من إنزال العقوبة به.

[٤٣] ﴿**فذرهم**﴾ أي دع يا رسول الله هؤلاء الكفار ﴿**يخوضوا**﴾ في باطلهم، وأصل الخوض الارتماس في الماء، وشبه به الإنسان الذي

وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَـٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٤٣﴾ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٤﴾ خَـٰشِعَةً أَبْصَـٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٤٥﴾

يتكلم ويعمل بالباطل، كأنه خائض فيه ﴿**ويلعبوا**﴾ أي يفعلوا فعل اللاعب الذي لايريد غاية من عمله وإنما يقضي الوقت بذلك ﴿**حتى يلاقوا يومهم الذي يوعدون**﴾ وهو يوم القيامة.

[٤٤] ثم بين سبحانه ذلك اليوم بقوله: ﴿**يوم يخرجون من الأجداث**﴾ جمع جدث وهو القبر ﴿**سراعاً**﴾ أي مسرعين، لشدة هولهم فإن الخائف يسرع في المشي ليجد مأمناً قبل أن ينزل به العذاب ﴿**كأنهم إلى نُصُب**﴾ جمع نَصب كسُقُف جمع سقف، وهو الصنم ﴿**يُوفضون**﴾ أي يسرعون، فقد كانوا في الدنيا يسرعون إلى أصنامهم في مواسم شركهم وهناك كذلك يسرعون عند خروجهم من القبر.

[٤٥] في حال كونهم ﴿**خاشعة**﴾ أي خاضعة ذليلة ﴿**أبصارهم**﴾ فإن أثر الذلة يظهر في العين لا يستطيعون مدّ بصرهم خوفاً وفزعاً ﴿**ترهقهم**﴾ أي تغشاهم وتحيط بهم ﴿**ذلة**﴾ لأنهم قد علموا جرمهم وأنهم محكوم عليهم بالعذاب ﴿**ذلك اليوم الذي كانوا يوعدون**﴾ في الدنيا فينكرونه والآن قد وصلوا إليه ووجدوا عذابه وهوله.



سُورة نوح

مكية /آياتها (٢٩)

سميت السورة بهذا الاسم لاشتمالها على لفظة «نوح» وقصته وهي كسائر السور المكية تعالج قضايا العقيدة في أسلوب قصصي. وحيث ختمت سورة المعارج بوعيد الكفار، افتتحت هذه السورة بذكر نوح عليه السلام وما لاقى من تكذيب قومه ـ تسلية للرسول وتخويفاً للكفار ـ.



[١] ﴿**بسم الله الرحمن الرحيم**﴾ نستعين باسم الإله، ليكون عوناً لنا في مهام الأمور، وفي هذا الأمر الذي نشرع فيه ـ بصورة خاصة ـ الرحمن الرحيم، الذي يتفضل بالرحم على من طلب منه الرحم وتسهيل الأمر.

إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ أَنۡ أَنذِرۡ قَوۡمَكَ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٢﴾ قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ﴿٣﴾ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴿٤﴾ يَغۡفِرۡ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ وَيُؤَخِّرۡكُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّىۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُۖ لَوۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٥﴾ قَالَ

---

[٢] ﴿**إنا أرسلنا**﴾ أي بعثنا ﴿**نوحاً**﴾ رسولاً ﴿**إلى قومه**﴾ وأوحينا إليه ﴿**أن أنذر قومك**﴾ بأنهم إن تمادوا في الكفر والعصيان ابتلوا بعذاب الدنيا وعذاب الآخرة ﴿**من قبل أن يأتيهم عذاب أليم**﴾ أي موجع مؤلم.

[٣] فامتثل نوح عليه السلام و ﴿**قال يا قوم إني لكم نذير**﴾ أنذركم وأخوفكم ﴿**مبين**﴾ أي واضح ظاهر.

[٤] ﴿**أن اعبدوا الله**﴾ فلا تكفروا به ﴿**واتقوه**﴾ فلا تعصوه ﴿**وأطيعون**﴾ فيما آمركم به من الشريعة، وأصله «أطيعوني» حذف الياء تخفيفاً وتنسيقاً.

[٥] فإنكم إن عبدتموه واتقيتم ﴿**يغفر**﴾ الله ﴿**لكم من ذنوبكم**﴾ أي جنس ذنوبكم، فـ «من» للجنس ﴿**ويؤخركم**﴾، فلا يهلككم عاجلاً ﴿**إلى أجل مسمى**﴾ أي مدة قد سميت في كتابه، في مقابل الكافر الذي يعذبه بعذاب الاستئصال ﴿**إن أجل الله**﴾ أي الأجل الذي عينه الله ﴿**إذا جاء**﴾ وقته ﴿**لا يؤخر**﴾ فبادروا بالإيمان والتوبة قبل فوات الأوان ﴿**لو كنتم تعلمون**﴾ أي لو كنتم عاملين بالأمور لعلمتم بذلك.

[٦] ودعا نوح قومه مدة مديدة بمثل تلك الإرشادات والنصائح، لكن دعاءه لم يكن ينفع فيهم، فتوجه إلى الله سبحانه داعياً ﴿**قال**﴾ نوح عليه السلام: يا

رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٦﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِيَ إِلَّا فِرَارًا ﴿٧﴾ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ ٱسْتِكْبَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٩﴾ ثُمَّ إِنِّيٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿١٠﴾

﴿**رب إني دعوت قومي**﴾ إلى الإيمان ﴿**ليلاً ونهاراً**﴾ أي في كل الأوقات.

[٧] ﴿**فلم يزدهم دعائي إلا فراراً**﴾ فإن دعوتي صارت سبباً لأن يرص الكفار صفوفهم، ويجاهروا بالكفر والطغيان والفرار من الحق.

[٨] ﴿**وإني كلما دعوتهم**﴾ إلى الإيمان والطاعة ﴿**لتغفر لهم**﴾ ذنوبهم إنْ آمنوا وأطاعوا ﴿**جعلوا أصابعهم في آذانهم**﴾ حتى لا يسمعوا كلامي ﴿**واستغشوا ثيابهم**﴾ أي غطوا بها وجوههم ورؤوسهم لئلا يروني ﴿**وأصروا**﴾ أي داموا على كفرهم وطغيانهم ﴿**واستكبروا استكباراً**﴾ أي تكبروا وأنفوا عن قبول الحق، وكأن الإتيان بصيغة الاستفعال لإفادة أنهم طلبوا الكبر، وإن لم يكونوا كبراء حقيقة.

[٩] ﴿**ثم**﴾ لترتيب الكلام لا لترتيب المطلب في الخارج ﴿**إني دعوتهم جهاراً**﴾ أي جهراً بأعلى صوتي.

[١٠] ﴿**ثم إنّي أعلنت لهم**﴾ إعلاناً بالدعوة ﴿**وأسررت لهم إسراراً**﴾ أي علانية وسراً، والمراد الدعوة بكل وجه محتمل، والجهر قسم من الإعلان ـ فليس في ذكر الإعلان بعد الإجهار تكراراً.

فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١١﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١٢﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٣﴾ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٤﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٥﴾

---

[١١] ﴿**فقلت استغفروا**﴾ أيها القوم ﴿**ربكم**﴾ أي اطلبوا غفرانه بالإيمان والطاعة ﴿**إنه كان غفاراً**﴾ كثير المغفرة لمن استغفر.

[١٢] فإن استغفرتم ﴿**يرسل**﴾ الله ﴿**السماء عليكم مدراراً**﴾ أي كثيرة الدرور بالمطر، قيل ان الغيث قد منع عنهم حتى ابتلوا بالقحط ولذا رغبهم نوح عليه السلام في ذلك.

[١٣] ﴿**ويمددكم بأموال وبنين**﴾ أي يكثر أموالكم وأولادكم الذكور ﴿**ويجعل لكم جنات**﴾ أي بساتين، بسبب المطر والأموال ﴿**ويجعل لكم أنهاراً**﴾ تسقون جناتكم، فإن المطر إذا كثر اختزن في الأرض ثم تفجر من العيون وجرى منها .

[١٤] ﴿**ما لكم**﴾ يا معاشر الكفار ﴿**لا ترجون لله وقاراً**﴾ أي لا تعظمون الله تعالى، فإن «الوقار» بمعنى العظمة، والرجاء هو الطمع في شيء مرغوب، فإن من لا يعرف عظمة شخص لا يرجوه، فكأنه قال: ما لكم لا ترجون الله، إذ لا تعترفون له بالوقار والعظمة؟

[١٥] ﴿**و**﴾ الحال أنكم ترون آثار عظمته في أنفسكم، إذ ﴿**قد خلقكم أطواراً**﴾ جمع «طور» فقد انتقلتم من حال إلى حال حتى وصلتم إلى هذا الحال الذي أنتم فيه، أو المراد خلقكم مختلفين، فكل واحد

أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٦﴾ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٧﴾ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٨﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿٢٠﴾

يختلف عن الآخر مما يدل على كمال القدرة.

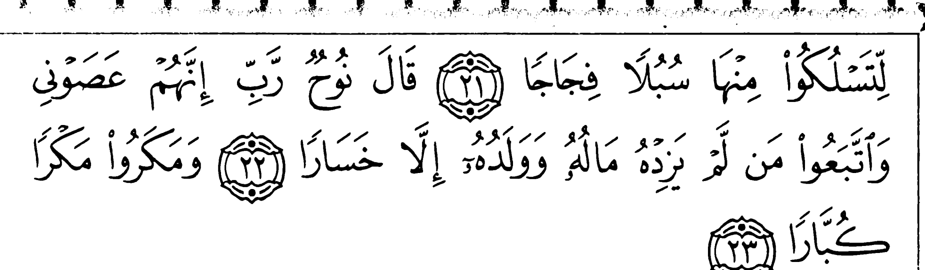
[١٦] إن آثار عظمة الله سبحانه كما هي ظاهرة في أنفسكم كذلك هي ظاهرة في الكون ﴿**ألم تروا**﴾ أيها الكفار ﴿**كيف خلق الله سبع سماوات**﴾ فإن علم الفلك معترف بوجود سبع مدارات للكواكب السيارة ﴿**طباقاً**﴾ أي بعضها فوق الآخر؟

[١٧] ﴿**وجعل القمر فيهن**﴾ أي في تلك السماوات، ويجوز الإتيان بضمير غير العاقل مفرداً وجمعاً ﴿**نوراً**﴾ ينير الظلام بأشعته ﴿**وجعل الشمس سراجاً**﴾ أي مصباحاً يشع ضياؤها حتى تنير الأكوان.

[١٨] ﴿**والله أنبتكم**﴾ أيها البشر ﴿**من الأرض نباتاً**﴾ فإن الإنسان ينبت من الأرض كما أن النبات ينبت منها، ولكن الفرق هو أن الأرض تتحول إلى النبات، والنبات يأكله الإنسان فيصير منياً ثم إنساناً والنبات ينبت ابتداءً، وفي الحقيقة أن الإنسان نبات الأرض المتحرك، كما أن النبات نباتها الساكن.

[١٩] ﴿**ثم يعيدكم فيها**﴾ أي في الأرض، فالميت لا يلبث أن يبلى ويكون تراباً كما كان سابقاً ﴿**ويخرجكم**﴾ من الأرض لدى البعث في يوم القيامة ﴿**إخراجاً**﴾ وإنما ذكر المصدر تأكيداً لبيان أنه كائن لا محالة.

[٢٠] ﴿**والله جعل لكم الأرض بساطاً**﴾ مبسوطة لتتمكنوا من المشي عليها



والبناء فوقها، وتقضوا سائر مآربكم عليها.

[٢١] ثم أشار السياق إلى واحدة من النعم التي هيأها الله للإنسان على الأرض المنبسطة ﴿لتسلكوا﴾ يقال سلك في الطريق إذا مشى فيه وسرى ﴿منها﴾ أي من الأرض والمراد في بعض الأرض ﴿سبلاً﴾ أي طرقاً، جمع «سبيل» ﴿فجاجاً﴾ «الفجاج» هي الطرق المتسعة المتفرقة، واحدها «فج» يعني حتى تتمكنوا من السير في طرق الأرض المختلفة إلى حاجاتكم هنا وهنالك.

[٢٢] وبعد كل هذه التذكيرات والإلفات إلى هذه النعم العظام، لم يستجب القوم لدعوة نوح عليه السلام، فتوجه نوح إلى ربه ﴿قال نوح﴾: يا ﴿رب إنهم﴾ أي القوم ﴿عصوني﴾ فلم يؤمنوا بك، ولم يطيعوا أمري ﴿واتبعوا من لم يزده ماله وولده إلا خساراً﴾ أي اتبعوا كبراء قومهم الذين هم رأس الفساد، فكلما ازدادوا مالاً صرفوه في الشر وكلما ازدادوا ولداً حرفوه عن سنن الحق، فمالهم وولدهم لا يزيدهم إلا خسارة وضرراً، مما يوجب كثرة عقوبتهم وزيادة عذابهم.

[٢٣] ﴿ومكروا﴾ في قبال نوح ﴿مكراً كباراً﴾ أي كبيراً للغاية فإن إطفاء سنن الرسول يحتاج إلى التدابير الكثيرة، وإلا فالناس بطبيعتهم الساذجة يتبعون الحق. وفاعل المكر إما الكبار المشار إليهم بـ «من» أو المراد القوم ـ في الجملة ـ.

وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٤﴾ وَقَدْ أَضَلُّواْ كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا ﴿٢٥﴾ مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ

[٢٤] ﴿**وقالوا**﴾ أي الماكرون، لسائر الناس ﴿**لا تذرن**﴾ أي لا تتركن ﴿**آلهتكم**﴾ الأصنام التي تعبدونها إطاعة لنوح في عبادة إله واحد، ثم خصوا جماعة من الآلهة كانت الأصنام الكبيرة لديهم ﴿**ولا تذرن وداً ولاسواعاً ولايغوث و**﴾ لا ﴿**يعوق و**﴾ لا ﴿**نسراً**﴾ ويغوث ويعوق غير منصرفين للعجمة والعلمية، أو للعلمية والتأنيث كما أن عدم إتيان «لا» على البعض للتفنن في الكلام الذي هو من فنون البلاغة، وهذه كانت أسامي أصنام لهم يعبدونها من دون الله سبحانه. وذكر بعض أن هذه أسماء كانت لرجال صالحين، فلما ماتوا مثلوا لهم تمثالاً يعظمونها باعتبار أنها رموز لأولئك الصالحين، ثم عبدوها ـ بإغواء الشيطان ـ.

[٢٥] ﴿**وقد أضلوا**﴾ هذه الأصنام، يا رب ﴿**كثيراً**﴾ من الناس ونسبة الضلال إلى الأصنام باعتبار أنها الوسيلة في الإضلال، والإتيان بضمير العاقل تماشياً لوحدة السياق بين كلام المؤمنين والكافرين ﴿**ولا تزد**﴾ يا رب ﴿**الظالمين**﴾ الذين ظلموا أنفسهم بالكفر والعصيان وغيرهم بالإضلال والإفساد ﴿**إلا ضلالا**﴾ جزاءً على عنادهم، وإزادة ضلالهم بمنع الألطاف الخفية عنهم، أو المعنى «لا تزد هذه الأصنام إلا ضلالاً لهم» فعلى الأول نهي، وعلى الثاني نفي.

[٢٦] ثم أتى السياق إلى بيان عاقبة هؤلاء الكفار بقوله: ﴿**مما خطيئاتهم**﴾ أي من جهة خطيئة هؤلاء الكفار، و «ما» زائدة والزيادة هنا لأجل

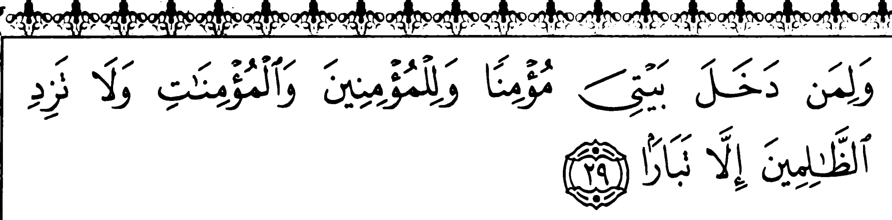
أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا۟ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا ﴿٢٦﴾ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٧﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٨﴾ رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ

تزيين الكلام ﴿**أغرقوا**﴾ بالماء في الدنيا ﴿**فأدخلوا ناراً**﴾ في الآخرة، فقد عوقبوا بعقوبتين متضادتين ﴿**فلم يجدوا**﴾ أولئك الكفار ﴿**لهم من دون الله**﴾ أي غير الله سبحانه ﴿**أنصاراً**﴾ فلم يكن هناك من يمنع عنهم عذاب الله تعالى، فقد ضل عنهم من كان يعدهم النصر.

[٢٧] ﴿**وقال نوح**﴾ قبل أن يغرقوا ـ في دعائه عليهم ـ وإنما أخر ذلك عن الغرق، في الكلام، لتعجيل توصيل العقاب بالانحراف، حتى كأنه انحراف وعقاب بلا فاصلة، يا ﴿**رب لا تذر**﴾ أي لا تدع ولا تبق سالماً ﴿**على الأرض من الكافرين دياراً**﴾ أي أحداً يعمر الديار، أو ينزل الدار، بل عمم عقابك على جميعهم.

[٢٨] ثم بين عليه السلام علة هذا الدعاء بقوله: ﴿**إنك إن تذرهم يضلوا عبادك**﴾ من نسل المؤمنين ﴿**ولا يلدوا**﴾ هم بأنفسهم ﴿**إلا فاجراً**﴾ يفجر ويعصي ﴿**كفاراً**﴾ كثير الكفر، يعني أن أولادهم فاسدو العقيدة والعمل، فلا خير فيهم، وقد علم نوح عليه السلام ذلك من طريق الوحي.

[٢٩] يا ﴿**رب اغفر لي**﴾ وقد سبق أن استغفار الأنبياء والأئمة لما يصدر منهم من المباحات الضرورية، فإنهم يرون ذلك خلافاً للأدب أمام الله الملك العظيم، كما أن من مدّ رجله ـ لمرض أو نحوه ـ أمام الملك رآه سوء أدب وإن كان مضطراً إليه، واعتذر من فعله ذلك ﴿**ولوالدي**﴾



بغفران ذنوبهما ﴿ولمن دخل بيتي مؤمناً﴾ وكأن الدخول في البيت كناية عن الدخول في حوزته وأنصاره، فقد آمن به عليه السلام عدة قليلة بين سبعين وثمانين ـ على ما ذكروا ـ ﴿و﴾ اغفر ﴿للمؤمنين والمؤمنات﴾ من سائر الأمم السابقين واللاحقين ﴿ولا تزد الظالمين إلا تباراً﴾ أي هلاكاً وخسارة، وذلك بمنع الألطاف عنهم، حتى يكون بقاؤهم موجباً لزيادة عذابهم وخسارتهم جزاءً لعنادهم.



سُورة الجن

مكية /آياتها (٢٩)

سميت السورة بهذا الاسم لاشتمالها على لفظة «الجن» وقصة منهم، كسائر السور المكية تعالج قضايا العقيدة في أسلوب قصصي طريف جديد، ولما ختمت سورة نوح بالدعاء للمؤمنين والهلاك للكافرين، ابتدأت هذه السورة بما يماثل ذلك.



[١] ﴿**بسم الله الرحمن الرحيم**﴾ ابتداء باسم الإله الخالق المالك لكل شيء، والابتداء باسمه أولى من الابتداء بأي شيء آخر، فإن الكفار كانوا يبتدئون باسم الأصنام، والمسيحيين باسم «الأب والابن وروح القدس»، والديمقراطيون في زماننا يبتدئون باسم الشعب والملكيون باسم جلالة الملك، والله أحق من الكل بالابتداء باسمه، الرحمن الرحيم الذي يرحم العباد في الدنيا والآخرة.

قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴿٢﴾ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ﴿٣﴾ وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴿٤﴾

[٢] ﴿**قل**﴾ يا رسول الله للناس ﴿**أوحي إليّ**﴾ والوحي هو الإلهام إلى الرسول من قبله سبحانه بواسطة ملك أو إلقاء في القلب بلا واسطة، ويستعمل أيضاً بمعنى مطلق الإلهام، كقوله (وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ)[1] وقوله (وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى)[2] ﴿**أنه استمع نفر من الجن**﴾ أي استمع إلى القرآن طائفة من الجن ـ فإن نفر بمعنى الطائفة ـ والجن مخلوقة من النار رقاق الأجسام كالهواء، ولها أن تتشكل في أبدان غليظة كأبدان الإنسان ﴿**فقالوا**﴾ بعضهم لبعض ﴿**إنا سمعنا**﴾ من الرسول ﴿**قرآناً عجباً**﴾ أي ما يدعو إلى التعجب، لأنه بأسلوب غريب في لفظه ومعناه، وقد سبقت قصتهم في سورة الأحقاف.

[٣] ﴿**يهدي إلى الرشد**﴾ أي يدل على الهدى الذي من سلكه رشد ﴿**فآمنا**﴾ نحن الجن ﴿**به**﴾ أي بذلك القرآن ﴿**ولن نشرك**﴾ بعد سماع القرآن ﴿**بربنا أحداً**﴾ أي لم نجعل له شريكاً.

[٤] ﴿**وأنه تعالى جدّ ربنا**﴾ «الجد» هو الحظ، والمراد به هنا العظمة، أي تعالت وارتفعت عظمته، من أن يكون له شريك أو زوجة أو أولاد ﴿**ما اتخذ**﴾ أي لم يتخذ الله سبحانه ﴿**صاحبة**﴾ أي زوجة ﴿**ولا ولداً**﴾ فقد كان بعض الكفار يقولون أنه سبحانه اتخذ زوجة من الجن، كما قال

(١) النحل: ٦٩ .

(٢) القصص: ٨ .

وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا ﴿٥﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿٦﴾ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿٧﴾

سبحانه (وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الجِنَّةِ نَسَباً)[١]، فنفت الجن هذا الكلام.

[٥] ﴿**وأنه كان يقول سفيهنا**﴾ أي جاهلنا، والمراد به جنس الجهال منهم ﴿**على الله شططاً**﴾ أي كذباً وبُعداً عن الحق، وكأن المراد بذلك ما شاع بينهم من أنه تزوج بالجنية، أو المراد «بسفيه منا» إبليس ـ لأنه من الجن ـ والمراد أقواله حول الله سبحانه، من نسبة الشريك إليه وما أشبه.

[٦] ﴿**وأنّا**﴾ ظهر لنا الآن كذب ذلك السفيه بعدما كنا ﴿**ظننا أن لن تقول الإنس والجن**﴾ الإتيان بالفعل مؤنثاً باعتبار «الجماعة» ﴿**على الله كذباً**﴾ فقد كنا نحسب أن ما يقولون من أن له سبحانه صاحبة وشريكاً وولداً صدق، والآن تبين لنا كذبه.

[٧] ﴿**وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن**﴾ أي يعتصمون ويستجيرون، وكان الرجل من العرب إذا نزل الوادي في سفره ليلاً قال «أعوذ بعزيز هذا الوادي من شر سفهاء قومه» وقد روي عن الإمام الباقر عليه السلام أنه قال: في هذه الآية «كان الرجل ينطلق إلى الكاهن الذي يوحي إليه الشيطان فيقول قل لشيطانك فلان قد عاذ بك»[٢] ﴿**فزادوهم**﴾ أي زاد الجن الإنس العائذين بهم ﴿**رهقاً**﴾ أي طغياناً

---

(١) الصافات: ١٥٩.

(٢) بحار الأنوار: ج٦٠ ص٩٨.

وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا۟ كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا ﴿٨﴾ وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَـٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٩﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَـٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ﴿١٠﴾

حيث إنهم رأوا الجن ظهيراً لهم، أو زاد الإنس الجن طغياناً حيث إنهم ظنوا أن لهم مدخلاً في الأمور الكونية حتى استعاذ بهم الإنس، وأصل الرهق اللحوق، ومنه غلام مراهق، فكأن الإثم والطغيان يلحق الإنسان، ولذا قيل له رهق.

[٨] ﴿**وأنهم**﴾ أي الإنس ﴿**ظنوا كما ظننتم**﴾ أنتم معاشر الجن ﴿**أن لن يبعث الله أحداً**﴾ رسولاً، وهذا من تتمة كلام الجن الذين آمنوا بالرسول.

[٩] ﴿**وأنّا**﴾ معاشر الجن ﴿**لمسنا السماء**﴾ أي مسسناها بإرادة الصعود في طبقات الجو ﴿**فوجدناها**﴾ أي ألفينا السماء ﴿**ملئت حرساً شديداً**﴾ أي حفظة من الملائكة شداداً، «وحرس» جمع حارس وهو الحافظ، وشديد باعتبار كل واحد من الحفظة ﴿**وشهبا**﴾ جمع «شهاب» وهو نور يمتد في السماء حتى يُطفأ، أنها هُيأت لرجم من يريد استراق السمع من الشياطين.

[١٠] ﴿**وأنّا**﴾ معاشر الجن ﴿**كنا نقعد منها**﴾ أي من السماء ﴿**مقاعد للسمع**﴾ أي محلات قريبة من مراكز الملائكة لنستمع ما يدار بينهم من أخبار الأرض لنعلم الأخبار ونأتي بها إلى الكهنة، وهذا إلى قبل ميلاد الرسول ﷺ أو بعثته ﴿**فمن يستمع الآن**﴾ منا إلى كلام الملائكة ﴿**يجد له**﴾ أي لنفسه ﴿**شهاباً رصداً**﴾ يرمى به ويرصد له، ففي النجوم

وَأَنَّا لَا نَدْرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا 

عُيِّن مواضع لحراسة السماء من الجن والشياطين، فمن يتقدم منهم ليسترق الكلام قذف بالشهاب حتى يحترق أو يطرد.

وقد روي عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال ـ في حديث يذكر فيه سبب إخبار الكاهن ـ: وأما أخبار السماء فإن الشياطين كانت تقعد مقاعد استراق السمع إذ ذاك، وهي لا تحجب ولا ترجم بالنجوم وإنما منعت من استراق السمع لئلا يقع في الأرض سبب يشاكل الوحي من خبر السماء ويلبس على أهل الأرض ما جاءهم من الله لإثبات الحجة ونفي الشبهة، وكان الشيطان يسترق الكلمة الواحدة من خبر السماء بما يحدث من الله في خلقه فيختطفها ثم يهبط بها إلى الأرض فيقذفها إلى الكاهن، فإذا قد زاد كلمات من عنده يختلط الحق بالباطل، فما أصاب الكاهن من خبر مما كان يخبر به فهو ما أداه إليه شيطانه مما سمعه، وما أخطأ فيه فهو من باطل ما زاد فيه، فمذ منعت الشياطين من استراق السمع انقطعت الكهانة[1].

[١١] ﴿**وأنّا لا ندري أشرّ أريد بمن في الأرض**﴾ حيث يرجم الشياطين، حتى تقطع الأخبار عن أهل الأرض بعذابهم، فيفاجئون بالعذاب ﴿**أم أراد بهم ربهم رشداً**﴾ بأن يبعث فيهم نبياً؟ والحاصل أن رجم الشياطين لأحد أمرين إما لشر أو لخير؟ وهذا يؤيد كون المراد من الرجم وقت ولادة الرسول، وأن هذا الكلام من الجن حكاية حال ماضية، وإلا فقد عرفوا النبأ بعد فترة وخصوصاً عند وصولهم إلى خدمة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم.

(١) بحار الأنوار: ج٦٠ ص٧٦.

وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَۖ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا ﴿١٢﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعۡجِزَ ٱللَّهَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَن نُّعۡجِزَهُۥ هَرَبًا ﴿١٣﴾ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعۡنَا ٱلۡهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦۖ فَمَن يُؤۡمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخۡسًا وَلَا رَهَقًا ﴿١٤﴾

[١٢] ﴿**وأنّا**﴾ معاشر الجن ﴿**منا**﴾ أي بعضنا ﴿**الصالحون**﴾ بالإيمان والعمل الصالح ﴿**ومنّا دون ذلك**﴾ الصلاح، وإنما عبر بهذا التعبير ليشمل الفرق المختلفة ﴿**كنا**﴾ في السابق ﴿**طرائق قدداً**﴾ أي على طرائق مختلفة «وقدد» جمع قدة وهي القطعة، كأن لكل مذهب لوناً مختلفاً، فهم قطعة مخالفة لقطعة أخرى، وكأن هذه التفصيلات المنقولة من كلام الجن لبيان حقيقتهم، وتوضيح ما يرتبط بهم من المزايا والأحوال.

[١٣] ﴿**وأنّا**﴾ معاشر الجن ﴿**ظننا أن لن نعجز الله في الأرض**﴾ بأن نجمع جموعاً ونهيئ قوىً حتى يعجز سبحانه من التصرف فينا كيف يشاء، وإنما جاء بلفظ الظن، إما لأنهم ظنوا ذلك ولم يتيقنوا، أو لبيان أن الظن كاف في عدم إرادة المخالفة معه سبحانه ﴿**ولن نعجزه هرباً**﴾ أي لا نتمكن من تعجيزه بهربنا من قدرته، فإن قدرته شاملة منبسطة لايمكن الفرار منها.

[١٤] ﴿**وأنا لما سمعنا الهدى**﴾ حيث سمعنا قرآن الرسول ﷺ ﴿**آمنا به**﴾ أي بالهدى وهو الإسلام ﴿**فمن يؤمن بربه**﴾ إيماناً صحيحاً ﴿**فـ**﴾ إنه ﴿**لا يخاف بخساً**﴾ أي تنقيصاً لحقه في الدنيا وفي الآخرة ﴿**ولا رهقاً**﴾ أي ظلماً وطغياناً بالنسبة إليه، فإنه سبحانه عادل لا يظلم أحداً، أما غير

وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا ﴿١٥﴾ وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٦﴾ وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٧﴾ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ

المؤمن فإنه يخاف البخس، إذ حسناته تمحى بسبب سيئاته، ويخاف الرهق بمعنى تبعة الإثم ـ كما سبق في معنى الرهق.

[١٥] ﴿**وأنا منا المسلمون**﴾ الذين دخلوا في دين الله الذي جاء به الرسول ﷺ ﴿**ومنا القاسطون**﴾ من «قسط» بمعنى جار، أي الجائرون الحائدون عن طريق الحق ﴿**فمن أسلم**﴾ أي دخل في الإسلام ﴿**فأولئك تحروا**﴾ أي طلبوا والتمسوا ﴿**رشداً**﴾ أي هداية وحقاً فيه الرشد والعقل، والتحري هو التطلب والتماس الشيء

[١٦] ﴿**وأما القاسطون**﴾ العادلون عن طريق الحق ﴿**فكانوا**﴾ أي يكونون ـ أو كان: لمجرد الربط ـ ﴿**لجهنم حطباً**﴾ يلقون فيها فيوقدونها كما يوقد الحطب النار، كما قال سبحانه (وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ)[1].

[١٧] ﴿**وأن لو استقاموا**﴾ هؤلاء القاسطون ﴿**على الطريقة**﴾ الحقة بأن لم يحيدوا عنها ﴿**لأسقيناهم ماءً غدقاً**﴾ يقال ماء غدق: أي كثير وهذا كناية عن الإفضال عليهم، وهذا ابتداء من كلام الله سبحانه.

[١٨] ﴿**لنفتنهم فيه**﴾ أي كنا نسقيهم الماء الكثير لامتحانهم في ذلك السقي، فإن النعم للامتحان، كما أن النقم للاختبار، وليس المقصود من

---

(١) البقرة: ٢٥ .

وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٨﴾ وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٩﴾ وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿٢٠﴾ قُلْ

الامتحان إلا ظهور السرائر، لتبيين مقادير الاستحقاق في الآخرة، أو أنه تعليل لمجيء الهدى، أي أنا إنما أرسلنا الرسول وأنزلنا الهدى للامتحان ﴿**ومن يعرض عن ذكر ربه**﴾ بأن اتخذ طريقة الكفر والعصيان ﴿**يسلكه**﴾ أي يدخله الله سبحانه ﴿**عذاباً صعداً**﴾ أي عذاباً يصعد عليه ويعلوه، بحيث يشمل جميع جسمه من قرنه إلى قدمه، أو عذاباً غليظاً صعباً.

[١٩] وإذ بين كون الهدى إنما هو للامتحان، جاء السياق ليبين أنه لا يحق لأحد أن يخضع لغير الله سبحانه ﴿**وأن المساجد**﴾ جمع «مسجد» وهو مواضع السجود من الوجه والكفين وغيرهما ﴿**لله**﴾ فإنها مخلوقة له مملوكة لذاته المقدسة ﴿**فلا تدعو**﴾ أيها الإنسان ﴿**مع الله أحداً**﴾ وكيف تدعو غيره بعضو هو له؟ ويحتمل أن يكون المساجد أعم مما تقدم ومن المساجد المبنية، وفيه نهي عن الدعاء لغيره سبحانه فيها، كما كان المشركون يدعون الأصنام في بيت الله تعالى.

[٢٠] ﴿**وأنه لما قام عبد الله**﴾ أي الرسول ﷺ ﴿**يدعوه**﴾ يدعو الله سبحانه وحده ﴿**كادوا**﴾ أي الكفار ﴿**يكونون عليه**﴾ على الرسول ﴿**لبداً**﴾ أي متكاثرين عليه ليمنعوه عن الدعوة، والظاهر أن هذه الجمل كلها من كلام الجن، وأن قوله «لنفتنهم» معترضة.

[٢١] ﴿**قل**﴾ يا رسول الله لهؤلاء الكفار الذين كادوا يكونون لبداً عليك:

إِنَّمَآ أَدْعُواْ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢٢﴾ قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ

﴿**إنما أدعو ربي**﴾ وحده لا شريك له ﴿**ولا أشرك به**﴾ أي بربي ﴿**أحداً**﴾ فليس ذلك بدعاً جديداً يوجب تكاثركم علي وإرادتكم منعي منه.

[٢٢] ﴿**قل**﴾ يا رسول الله لهؤلاء الكفار ﴿**إني لا أملك لكم ضراً**﴾ بأن أضركم ﴿**ولا**﴾ أملك لكم ﴿**رشداً**﴾ بأن أرشدكم، وإنما الضرر والإرشاد بيد الله، وأنه هو الذي أمرني بإرشادكم، فإن لم تقبلوا فهو الذي ينزل الضر بكم، وهذا لبيان أني رسول الله فقط لا شيء بيدي سوى الهداية والإرشاد.

[٢٣] حتى أنا فليس ضري وخيري بيدي ﴿**قل**﴾ يا رسول الله لهؤلاء: ﴿**إني لن يجيرني**﴾ أي لن يحفظني ﴿**من**﴾ تقدير ﴿**الله أحد**﴾ إذا أراد سبحانه بي ضرراً ﴿**ولن أجد من دونه**﴾ سبحانه ﴿**ملتحداً**﴾ أي ملجأً ألْجأ إليه، من التحد بمعنى مال، والإنسان الخائف دائماً يطلب الملجأ في منعطفات الطريق.

[٢٤] إني لا أملك شيئاً ﴿**إلا بلاغاً**﴾ أي تبليغاً ﴿**من**﴾ قبل ﴿**الله**﴾ سبحانه بأن أبلغكم آياته ﴿**ورسالاته**﴾ وهذا استثناء منقطع من «لا أملك» وما بعده، وقد سبق أن الاستثناء المنقطع ينحل إلى ثلاث جمل، ففي المقام هكذا «لا أملك شيئاً» «إلا بلاغاً» «ولا أملك لكم أو لي ضراً أو خيراً» وكأنه قال «لا أملك كذا» و «أملك كذا»، وحق البلاغ منه

وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴿٢٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَـدَدًا ﴿٢٤﴾ قُلْ إِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ مَّا

سبحانه حق لا يكون لكل أحد، كما أن رسالاته سبحانه شيء والرسول يملك ذلك الحق كما يعرف الرسالات، فهما شيئان لا شيء واحد حتى يقال: إن العطف للبيان.

﴿**ومن يعص الله**﴾ بعدم إطاعة أوامره ﴿**ورسوله**﴾ بعدم امتثاله فيما يأمر وينهي ﴿**فإن له نار جهنم**﴾ جزاءً لعصيانه ﴿**خالدين فيها**﴾ أي في حال كونهم دائمين في النار ﴿**أبداً**﴾ وتوحيد الضمير في «له» باعتبار لفظ «من» وتجميعه في «خالدين» باعتبار معناه، وقد قالوا يجوز في ضمير «من وما» مراعاة اللفظ والمعنى.

[٢٥] لكن الكفار لا يبالون اليوم بالنار ﴿**حتى إذا رأوا**﴾ هؤلاء الكفار ﴿**ما يوعدون**﴾ أي العذاب الذي وعدوا به في الدنيا ﴿**فسيعلمون**﴾ إذا رأوا ﴿**من أضعف ناصراً**﴾ هل ناصر الرسول أضعف أم ناصرهم ﴿**وأقلّ عدداً**﴾ فهل جيش الرسول وأعوانه أقل أم جيشهم وأعوانهم، فقد كان الكفار يفتخرون على الرسول بكثرة جموعهم وضعف أصحابه ﷺ فأتى السياق ليبين أن في الآخرة تنقلب الكفة، وأنه يتبدد عددهم ويضعف ناصرهم، فلا يقوى من إنجائهم من عذاب الله سبحانه.

[٢٦] وقد كان الكفار يستعجلون الرسول ﷺ في إنزال العذاب بهم ـ استهزاءً به ﷺ ـ فجاء السياق لردهم بقوله: ﴿**قل**﴾ يا رسول الله لهؤلاء الكفار المستعجلين: ﴿**إن أدري**﴾ أي ما أدري ﴿**أقريب ما**

تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّىٓ أَمَدًا ﴿٢٦﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٧﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٨﴾ لِّيَعْلَمَ

توعدون﴾ أي هل قريب العذاب الذي وعدتم به لكفركم وعصيانكم **﴿أم يجعل له﴾** أي لـ «ما توعدون» **﴿ربي أمداً﴾** أي مدة، فهو بعيد عنكم؟ فإن عذاب القيامة مجهول الوقت إلا عنده سبحانه، فعنده علم الساعة.

[٢٧] فإنه وحده **﴿عالم الغيب﴾** يعلم ما غاب عن الحواس **﴿فلا يظهر﴾** أي لا يعلم **﴿على غيبه﴾** أي الغيب الذي يعلمه هو **﴿أحداً﴾** من عباده، فإن علم الغيب خاص به.

[٢٨] **﴿إلا من ارتضى﴾** أي اختاره للاطلاع على الغيب **﴿من رسول﴾** أو المعنى إلا من ارتضاه للرسالة من أفراد الرسل، فإنه تعالى يظهره على قدر من الغيب ـ حسب الحكمة والصلاح ـ والتي يخبر الإمام أو سائر الناس بقدر ما أذن له في الإخبار، وإذ أعلمه الله سبحانه بالغيب أحاطه بجملة من الحفظة حتى يكونوا مراقبين عليه في البلاغ، مع أنه مأمون في نفسه، وأن الله عالم به، ولكن هذا للتشريفات، كما وكل بالعباد حفظة مع أنه عالم بما يصدر منهم.

﴿فإنه﴾ سبحانه **﴿يسلك﴾** أي يجعل في الطريق **﴿من بين يديه﴾** أي من أمام الرسول **﴿ومن خلفه﴾** أي ورائه **﴿رصداً﴾** من الملائكة يرصدونه في أعماله، تشريفاً للغيب والوحي الذي أعلم الرسول به.

[٢٩] وإنما يرصد **﴿ليعلم﴾** الله سبحانه، والمراد ليقع متعلق علمه في

أَن قَدۡ أَبۡلَغُواْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمۡ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيۡهِمۡ وَأَحۡصَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ عَدَدَۢا ﴿٢٩﴾

الخارج، كقوله (حَتَّى نَعْلَمَ المُجَاهِدِينَ)[1] إلى غير ذلك **﴿أن قد أبلغوا﴾** أولئك الرسل الذين اطلعهم على علم الغيب **﴿رسالات ربهم﴾** فكل ما أوحي إليه رسالة، ومجموع الوحي رسالات **﴿و﴾** ذلك ليس لأنه لايعلم ـ بل للتشريفات، كما ذكرنا ـ إذ قد **﴿أحاط﴾** الله سبحانه **﴿بما لديهم﴾** أي بما يفعله الأنبياء من تبليغ الرسالة **﴿وأحصى كل شيء عدداً﴾** فعلم أعداد الأشياء كلها، فإحاطته بما لدى الأنبياء من مصاديق إحصائه سبحانه عدد كل شيء من الخلائق والأعمال والأحوال.

هذا هو المعنى الذي استظهرته من الآيات المباركة حسب ما يظهر من السياق، وهناك قول آخر في معانيها ليس بهذا القرب إلى الظاهر، والله سبحانه أعلم بمراده.

---

(١) محمد: ٣٢.



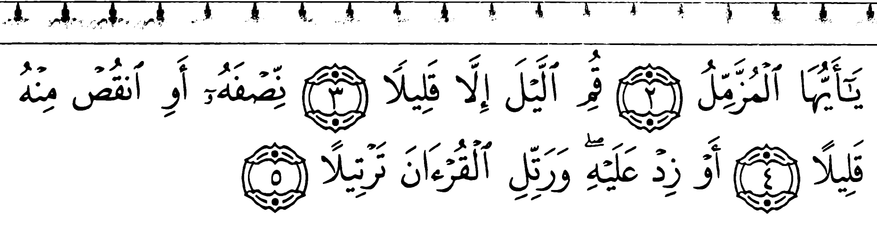
سُورة المزمّل

مكية ـ مدنية/آياتها (٢١)

سميت السورة بهذا الاسم لاشتمالها على لفظة «المزمل»، وهي كسائر السور المدنية مشتملة على النظام والعقيدة، وقيل هي مختلطة من المكية والمدنية. وحيث ختمت سورة الجن بذكر الرسل، ابتدأت هذه السورة بذكر الرسول صلى الله عليه وآله وسلم.



[١] ﴿**بسم الله الرحمن الرحيم**﴾ نبتدئ في السورة باسم الإله، أي ملابساً مع هذا الاسم الكريم، الذي بيد مسماه الكون كله، الرحمن الرحيم الذي يرحم كل شيء خلقاً وتربية، حتى يصل كل شيء إلى كماله اللائق به، ويرحم عبيده المؤمنين في الآخرة بالثواب والفضل.



[٢] ﴿يا أيها المزمل﴾ المراد به الرسول ﷺ، أصله «المتزمل» من باب التفعيل، ثم أدغمت التاء في الزاء، وجيء بهمزة الوصل لتعذر الابتداء بالساكن، ومعنى «تزمل» تلفف في ثوب ونحوه، فقد كان الرسول ﷺ يتزمل بثوبه وينام، فخوطب بهذا الخطاب لمناسبة الحالة للأمر المتوجه إليه في قيام الليل.

[٣] ﴿قم﴾ في ﴿الليل﴾ لأداء صلاة الليل ﴿إلاّ قليلاً﴾ منه فلك أن تنام فيه.

[٤] ثم بين سبحانه مقدار القليل الذي سمح للرسول ﷺ بالنوم فيه بقوله: ﴿نصفه﴾ أي نم في مقدار نصف الليل ﴿أو انقص منه﴾ أي من النصف ﴿قليلاً﴾ بأن تضيف على سهرك، فيكون نومك أقل من النصف.

[٥] ﴿أو زد عليه﴾ أي على النصف، بأن تضيف على نومك فيكون نومك أكثر من النصف، والحاصل أن المأمور به السهر بمقدار نصف الليل، أو أكثر من النصف، أو أقل من النصف ـ والمْحور النصف ـ ﴿ورتل القرآن﴾ أي اقرأه قراءة متوسطة لا بسرعة ولا ببطئ زائد ﴿ترتيلاً﴾ تأكيد لـ «رتل».

وقد سئل الإمام أمير المؤمنين عليه السلام عن هذه الآية فقال: بيّنه بياناً ولا تهذه هذو الشعر «أي لاتسرعون في قراءته كما تسرعون في قراءة الشعر» ولا تنثره نثر الرمل «أي لا تفرقوا بعضه عن بعض كنثر الرمل» ولكن افزعوا قلوبكم القاسية، ولا يكن همّ أحدكم آخر السورة[١].

---

(١) الكافي: ج٢ ص٦١٤.

إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴿٦﴾ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا ﴿٧﴾ إِنَّ لَكَ فِى ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ﴿٨﴾ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ﴿٩﴾

[٦] ﴿**إنّا سنلقي**﴾ أي سنوحي ﴿**عليك**﴾ يا رسول الله ﴿**قولاً ثقيلاً**﴾ أي كلاماً يثقل عليك القيام به، والمراد به القرآن، فإنه يثقل على الإنسان العمل به، أو الرسالة فإنه يثقل أداؤها، أو القيام بالليل.

[٧] كما فسر قوله تعالى: ﴿**إن ناشئة الليل**﴾ أي ساعات الليل لأنها تنشأ ساعة بعد ساعة، والمقصود العمل فيها أو المراد العبادة التي تنشأ في الليل. ﴿**هي أشد وطأً**﴾ أي أكثر ثقلاً وكلفة، لصعوبة القيام ليلاً شتاءً لبرد الهواء، وصيفاً لقصر الليالي، ولعل المراد كونها أشد من ناشئة النهار ﴿**وأقوم قيلاً**﴾ أي قول الليل وعبادته أكثر قواماً واستمساكاً لأنه يؤدى بحضور القلب وتوجه الذهن، ولأن أفضل الأعمال أحمزها.

[٨] ﴿**إن لك**﴾ يا رسول الله ﴿**في النهار سبحاً**﴾ «السبح» التقلب ومنه يسمى المتقلب في الماء سابحاً: أي تقلباً في أشغالك ﴿**طويلاً**﴾ من إراءة الطريق، والإرشاد، وسائر الأعمال فلا يتأتى منك أن تعبد كما ينبغي، ولذا جعل الليل للعبادة.

وقد روي إن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام كان يعمل طول النهار، ويعبد طول الليل، فقيل له: يا أمير المؤمنين ألا تهدأ؟ قال: إذا هدأت النهار كان فيه ضياع الأمة، وإذا هدأت الليل كان فيه ضياع نفسي.

[٩] ﴿**واذكر**﴾ يا رسول الله ﴿**اسم ربك**﴾ بأن تعبده وتخضع له ﴿**وتبتل إليه تبتيلاً**﴾ «التبتل» هو الانقطاع إلى الله عزّ وجلّ وإخلاص العبادة له،

رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴿١٠﴾ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴿١١﴾ وَذَرْنِي وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُو۟لِى ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ﴿١٢﴾ إِنَّ لَدَيْنَآ

من «بتل» بمعنى قطع، وإنما قال «إليه» لأن الانقطاع عن الخلق إليه، لا كون الانقطاع عنه.

[١٠] ثم بين «ربك» بقوله: ﴿**رب المشرق والمغرب**﴾ هو كناية عن الكون، لأن من بيده المشرق والمغرب كان بيده العالم كله ﴿**لا إله إلا هو**﴾ فلا شريك له كما يزعم المشركون، ولذا لا يحق العبادة لغيره ﴿**فاتخذه**﴾ يا رسول الله ﴿**وكيلاً**﴾ أي حفيظاً للقيام بأمرك وفوض إليه أمرك.

[١١] ﴿**واصبر**﴾ يا رسول الله في توحيدك ونبذ الأصنام ﴿**على ما يقولون**﴾ أي الكفار حولك من أنك ساحر أو كاهن أو مجنون أو ما أشبه ذلك ﴿**واهجرهم**﴾ أي ابتعد عنهم ﴿**هجراً جميلاً**﴾ بأن تدعوهم إلى الهدى في عين حالة الهجر، بالحكمة والموعظة الحسنة والمُجادلة بالتي هي أحسن.

[١٢] ﴿**وذرني**﴾ أي دعني لهم فأنا أكفيك شرهم ﴿**والمكذبين**﴾ برسالتك وما جئت به ﴿**أولي النعمة**﴾ أي أصحاب الثروة وغيرها من سائر النعم، فَكِلْ جزاءهم أليّ ﴿**ومهلهم قليلاً**﴾ أي إنهم بعد قليل سيقعون في العذاب، عذاب الدنيا في قصة بدر، وعذاب الآخرة. وقوله «مهلهم» كناية عن الصبر معهم، وهذا تهديد للكفار.

[١٣] ﴿**إن لدينا**﴾ في الآخرة، والمراد بـ «لدينا» لدى حسابنا وجزائنا

أَنكَالًا وَجَحِيمًا ﴿١٣﴾ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٤﴾ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ﴿١٥﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٦﴾

﴿**أنكالاً**﴾ جمع «نكل»، وهي القيود والأغلال ﴿**وجحيماً**﴾ أي ناراً كثيرة، فإن جحيم بمعنى ذلك، وهي من أسماء جهنم.

[١٤] ﴿**وطعاماً ذا غصة**﴾ «الغصة» تردد اللقمة في الحلق بحيث لا يتمكن الإنسان من إساغتها، أي أن أطعمة النار المهيئة لهم ذات غصة فلا يتمكن المجرم من إساغتها إلا بعد علاج وصعوبة ﴿**وعذاباً أليماً**﴾ مؤلماً موجعاً.

[١٥] إن هذه الألوان من العذاب إنما هي في ﴿**يوم ترجف الأرض**﴾ أي تتحرك وتضطرب، فإن الزلزال من علائم القيامة، كما قال سبحانه (إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ)[1] ﴿**والجبال**﴾ لتكثير الهول ﴿**وكانت الجبال**﴾ في ذلك اليوم ﴿**كثيباً مهيلاً**﴾ «الكثيب» الرمل المجتمع الكثير «والمهيل» هو السائل المتناثر، من هال: إذا حرك أسفله فتحرك وسال أعلاه، أي تكون الجبال هكذا سائلة في الأرض.

[١٦] ﴿**إنا أرسلنا إليكم**﴾ أيها الكفار ﴿**رسولا**﴾ يعني محمد ﷺ ﴿**شاهداً عليكم**﴾ بما تعملون من الاعتقاد والعمل، الصحيح أو الفاسد ﴿**كما أرسلنا إلى فرعون رسولاً**﴾ وهو موسى عليه السلام.

---

(١) الحج: ٢.

فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴿١٧﴾ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ﴿١٨﴾ ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا ﴿١٩﴾ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ

[١٧] ﴿**فعصى فرعون الرسول**﴾ بأن لم يطع أوامره، بل خالفه وعانده ﴿**فأخذناه**﴾ أي أخذنا فرعون ﴿**أخذاً وبيلا**﴾ أي شديداً ثقيلاً بإغراقه في البحر، وهكذا أنتم إن لم تؤمنوا أخذناكم بصنوف العذاب.

[١٨] ﴿**فكيف تتقون**﴾ أيها الكفار، أي تجتنبون ﴿**إن كفرتم**﴾ في الدنيا ﴿**يوماً**﴾ أي من عذاب يوم - وهو مفعول «تتقون» ﴿**يجعل الولدان**﴾ جمع ولد ﴿**شيباً**﴾ جمع أشيب، وهو البالغ سن الشيب والشيخوخة فإن يوم القيامة لشدة أهوالها يجعل الأولاد في صورة الشيوخ ببياض الشعر ونحوه، أي هل تتمكنون من الاتقاء عن عذاب يوم القيامة؟ وإذ لاتتمكنون فكيف تكفرون حتى تبتلوا به؟

[١٩] ﴿**السماء منفطر به**﴾ أي بذلك اليوم، أي أن السماء تنفطر بسبب أهوال ذلك اليوم، والسماء يجوز فيها التذكير والتأنيث، ولذا قال في مقام آخر (إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ)[1] والانفطار هو الانشقاق، بأن يرى السماء كالشيء المنشق، لاختلال نظام المدارات، ولون الهواء وغير ذلك ﴿**كان وعده**﴾ سبحانه بمجيء هذه الأمور ﴿**مفعولا**﴾ أي كأنه لا خلف فيه ولا تبديل.

[٢٠] ﴿**إن هذه**﴾ أي صفة الأمور التي ذكرناها لأهوال ذلك اليوم ﴿**تذكرة**﴾

(١) الإنفطار: ٢ .

فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٢٠﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ ۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ۚ

وموعظة لكم أيها البشر ﴿**فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلاً**﴾ أي سلك سبيلاً يؤدي إلى رضوانه، وهو سبيل الدين والإسلام.

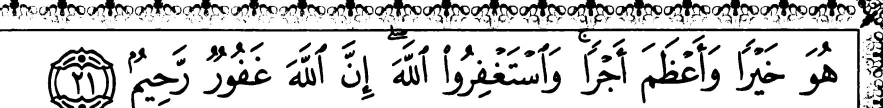
[٢١] ثم عطف السياق نحو قيام الليل الذي ابتدأ به الكلام فقال ﴿**إن ربك**﴾ يا رسول الله ﴿**يعلم أنك تقوم أدنى**﴾ أي في الوقت الذي هو أقرب ﴿**من ثلثي الليل ونصفه وثلثه**﴾ ففي بعض الليالي كان الرسول يقوم قبل ثلثي الليل بأن كان الباقي إلى الفجر ثلثان، وفي بعض الليالي قبل النصف، وفي بعض الليالي قبل الثلث ﴿**و**﴾ تقوم ﴿**طائفة من الذين معك**﴾ من المؤمنين كالإمام المرتضى عليه السلام والصديقة الطاهرة عليها السلام وسائر الخواص.

﴿**والله يقدر الليل والنهار**﴾ أي أن مقدار الليل والنهار بيده، فهو المقدر لها، والمقدر يعلم الأمور المرتبطة بما قدره، ولذا ﴿**علم**﴾ الله سبحانه ﴿**أن لن تحصوه**﴾ أي لا تتمكنون من إحصاء الليل كله، بأن تقوموا فيه من أوله إلى آخره في العبادة والطاعة ﴿**فتاب عليكم**﴾ بأن لم يفرض القيام في الليل عليكم عطفاً وتفضلاً، مع أن المقتضي للإيجاب كان موجوداً ﴿**فاقرؤوا**﴾ في الليل ﴿**ما تيسر من القرآن**﴾ أي من الشيء الذي يقرأ، والمراد به الصلاة والدعاء ونحوهما، والمعنى أنه حيث لاتقدرون على القراءة كل الليل فاقرؤوا ما سهل عليكم وتيسر عندكم.

عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ

ثم بين سبحانه حكمة التسهيل بقوله: ﴿**علم**﴾ الله تعالى ﴿**أن سيكون منكم مرضى**﴾ جمع «مريض»، والمريض لا يقدر على قيام الليل ﴿**وآخرون**﴾ منكم ﴿**يضربون في الأرض**﴾ أي يسافرون ﴿**يبتغون من فضل الله**﴾ أي يطلبون الفضل والتجارة ﴿**وآخرون**﴾ منكم ﴿**يقاتلون في سبيل الله**﴾ لإعلاء كلمته وسبيل دينه، والمسافر والمحارب حيث تعبا في النهار لا يسهل عليهما قيام الليل، ولذا خفف سبحانه عنكم ولم يلزمكم بالقيام، أو بمقدار خاص كالنصف والثلث والثلثين ﴿**فاقرؤوا ما تيسر**﴾ وسهل ﴿**منه**﴾ أي من القرآن، والمراد به الصلاة والدعاء والقرآن الحكيم فإن القرآن مطلق ما يقرأ، فإن هذه العلل الخاصة أوجبت تخفيفاً عاماً ـ على نحو الحكمة ـ ﴿**وأقيموا الصلاة**﴾ في أوقاتها كما فرض سبحانه ﴿**وآتوا الزكاة**﴾ أي أعطوها واجبها ومندوبها ﴿**وأقرضوا الله قرضاً حسناً**﴾ بإنفاق المال في مراضيه، بلا منّ أو رياء أو سمعة أو عجب، وكونه إقراضاً باعتبار أنه سبحانه يرده على الإنسان في الدنيا والآخرة أضعافاً مضاعفة.

﴿**وما تقدموا لأنفسكم**﴾ إلى الآخرة ﴿**من خير**﴾ أي طاعة وعبادة فإن ما يعمله الإنسان من الخير يقدم له إلى الجنة حتى إذا ذهب إليها وجد فيها ثواب ما عمل ﴿**تجدوه**﴾ أي ذلك الخير ﴿**عند الله**﴾ في دار



كرامته ﴿هو﴾ أي تجدوه هو ـ بعينه بلا نقصان أو اختلاف ـ ﴿خيراً﴾ أي في حال كونه خيراً، أو بحذف «تجدوا» أي تجدوا خيراً، أو أنه بيان لهاء «تجدوه»، ﴿و﴾ في حال كونه ﴿أعظم أجراً﴾ أي ثواباً مما كان هو، فثوابه في الآخرة أعظم من نفسه في الدنيا، إذا كان في الدنيا يساوي عشرة، فتجدون في الآخرة ثوابه مائة ـ مثلاً ـ أو أعظم أجراً من الذي يبقى في الدنيا ﴿واستغفروا الله﴾ اطلبوا غفرانه ﴿إن الله غفور﴾ للذنوب ﴿رحيم﴾ يتفضل بالرحمة فوق غفران الذنوب.



سُورة المدثر

مكيّة/آياتها (٥٧)

سميت السورة بهذا الاسم لاشتمالها على لفظة «المدثر»، وهي كسائر السور المكية تعالج قضايا العقيدة في أصولها، وحيث ختمت سورة المزمل بالصلاة والقرآن وسائر أنواع الخير، افتتحت هذه السور بذكر بعض أنواعها الأخر من القيام بالتبليغ، والتكبير، والتطهير.



[١] ﴿**بسم الله الرحمن الرحيم**﴾ نستعين باسم الإله، ليكون لنا عوناً في أمورنا، الرحمن الرحيم الذي يتفضل بالرحم والفضل على العباد.

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ﴿٢﴾ قُمْ فَأَنذِرْ ﴿٣﴾ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴿٤﴾ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴿٥﴾ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ﴿٦﴾ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ﴿٧﴾

[٢] ﴿**يا أيها المدثر**﴾ المراد به الرسول ﷺ، والمدثر أصله من «تدثر» باب التفعل، أدغمت التاء في الدال، وجيء بهمزة الوصل لتعذر الابتداء بالساكن، والمدثر هو لابس الدثار، والدثار هو ما يلبسه الإنسان فوق الثوب الملاصق لجسده لأجل التدفئة، وفي مقابله الشعار وهو الثوب اللاصق بالبدن، يسمى به لأنه لاصق بشعر الإنسان.

وقد روي أن الرسول ﷺ لما أوحي إليه أخذته الرعدة من الهيبة فقال لخديجة عليها السلام: دثريني، فدثرته، فجاء النداء «يا أيها المدثر».

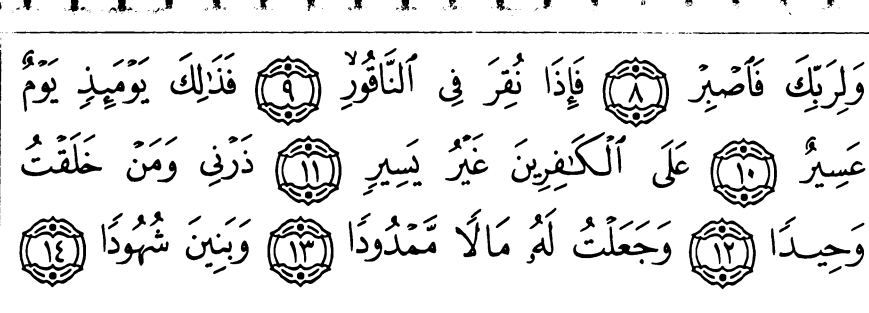
[٣] ﴿**قم**﴾ من استراحتك ﴿**فأنذر**﴾ الناس وخوفهم من العقاب إن تمادوا في الكفر والعصيان.

[٤] ﴿**وربك فكبر**﴾ أي كبر الله وعظمه ـ وحده دون الأصنام ـ.

[٥] ﴿**وثيابك فطهر**﴾ فإن المسلم يجب عليه تطهير قلبه عن أدران الشرك بتكبير الله وحده، وتطهير ثيابه عن الأوساخ بتقصير ذيله حتى لا يتسخ، وتنظيفه من النجاسات. وقد روي في معنى الآية التطهير من النجاسة والتطهير بالتقصير ـ وذلك لأن المراد هو الأعم منهما ـ وفي الحديث «قصر ثوبك يكون أتقى وأنقى وأبقى».

[٦] ﴿**والرجز**﴾ أي القذارة بأقسامها الشاملة للأصنام وللنجاسات الظاهرية، وللرذائل ﴿**فاهجر**﴾ أي ابتعد عنها.

[٧] ﴿**ولا تمنن**﴾ في العطاء ﴿**تستكثر**﴾ أي تطلب الكثير بعدم المنّة، فإن ما يراد به وجه الله يضاعف، أو المعنى لا تعط العطية تلتمس أكثر منها ـ



كما عن الباقر عليه السلام[(١)] ـ أو لا تمنن بعطائك، على الناس مستكثراً ما أعطيته.

[٨] ﴿**ولربك**﴾ أي لأجله سبحانه ﴿**فاصبر**﴾ على أذى الكفار والمشركين.

[٩] فإنه سيأتي يومهم الذي ينتقم فيه منهم ﴿**فإذا نقر في الناقور**﴾ أي نفخ في الصور، والنقر هو الضرب في الشيء، ومنه نقر الغراب، «والناقور» فاعول، بمعنى البوق، لأنه ينقر فيه، فإن النفخ كالنقر.

[١٠] ﴿**فذلك**﴾ النقر ﴿**يومئذ**﴾ أي يوم ينقر ﴿**يوم عسير**﴾ صعب شديد.

[١١] ﴿**على الكافرين**﴾ بالله ورسوله وما جاء به من عنده ﴿**غير يسير**﴾ أي غير سهل، فإن في ذلك اليوم يعذب الكافر. وهذه الجملة للتأكيد، وإفادة أن عسر ذلك اليوم إنما هو للكافر، لا للمؤمن التقي.

[١٢] ﴿**ذرني**﴾ أي دعني يا رسول الله ﴿**ومن خلقت وحيداً**﴾ أي في حال كونه وحيداً لا مال له ولا أولاد، والمعنى انا أكفيك شره، وأنتقم منه جزاءً لتكذيبه.

[١٣] ﴿**وجعلت له مالاً ممدوداً**﴾ أي ذا مدّ وطول، فقد كان «وليد» الذي نزلت فيه هذه الآيات صاحب أموال كثيرة.

[١٤] ﴿**و**﴾ جعلت له ﴿**بنين**﴾ أي أولاداً ﴿**شهوداً**﴾ أي حضوراً عنده،

---

(١) بحار الأنوار: ج٩٣ ص١٤٤ .

وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمۡهِيدٗا ﴿١٥﴾ ثُمَّ يَطۡمَعُ أَنۡ أَزِيدَ ﴿١٦﴾ كَلَّآۖ إِنَّهُۥ كَانَ لِأٓيَٰتِنَا عَنِيدٗا ﴿١٧﴾ سَأُرۡهِقُهُۥ صَعُودًا ﴿١٨﴾

وهذه نعمة أخرى بأن يكون أولاد الإنسان عنده لا يغيبون عنه.

[١٥] ﴿**ومهدت له تمهيداً**﴾ أي هيأت له الأمور تمهيداً، بأن صار ذات جاه في قومه، ومكانة في البلد، وهيأت له الأسباب.

[١٦] ﴿**ثم يطمع**﴾ هذا الشخص ﴿**أن أزيد**﴾ ماله وأولاده.

[١٧] ﴿**كلا**﴾ لا أزيد بعد ذلك شيئاً له، فقد كفر بي، وأبدل مكان الشكر كفراناً ﴿**إنه كان لآياتنا عنيداً**﴾ أي معانداً لأدلتنا وحججنا لا يؤمن بها عناداً ومضادة.

[١٨] ﴿**سأرهقه صعوداً**﴾ أي سأكلفه مشقة من العذاب لا طاقة له بها، والصعود هي العقبة الشاقة المصعد، فإن من يكلف صعودها يشق عليه، فقد شبه العذاب بذلك للتقريب إلى الذهن.

وقد ورد في سبب نزول هذه الآيات وما بعدها ما ذكره القمي قال: نزلت في الوليد بن المغيرة، وكان شيخاً مجرباً من دهاة العرب وكان من المستهزئين برسول الله ﷺ، وكان رسول الله يقعد في الحجر ويقرأ القرآن، فاجتمعت قريش إلى الوليد بن المغيرة، فقالوا: يا أبا عبد شمس ما هذا الذي يقول محمد ﷺ أشعر هو أم كهانة أم خطب؟ فقال: دعوني أسمع كلامه، فدنى من رسول الله ﷺ وقال: يا محمد أنشدني من شعرك؟ قال ﷺ: ما هو شعر، ولكنه كلام الله الذي ارتضته ملائكته وأنبياؤه ورسله. فقال: اتل علي منه شيئاً، فقرأ عليه رسول الله ﷺ حم السجدة، فلما بلغ قوله (فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ

إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٩﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾

أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ)[1] قال: فاقشعر الوليد وقامت كل شعرة في رأسه ولحيته، ومر إلى بيته ولم يرجع إلى قريش من ذلك اليوم. فمشوا إلى أبي جهل فقالوا: يا أبا الحكم إن أبا عبد شمس صبأ «أي مال إلى دين محمد» أما تراه لم يرجع إلينا؟ فغدا أبو جهل إلى الوليد، فقال له: يا عم نكست رؤوسنا وفضحتنا وأشمتّ بنا عدونا وصبوت إلى دين محمد؟ فقال: ما صبوت إلى دينه ولكن سمعت منه كلاماً صعباً تقشعر منه الجلود، فقال له أبو جهل: أخطب هو؟ قال: لا، إن الخطب كلام متصل وهذا كلام منثور ولا يشبه بعضه بعضاً. قال: أفشعر هو؟ قال: لا أما إني لقد سمعت أشعار العرب بسيطها ومديدها ورملها ورجزها وما هو بشعر. قال: فما هو؟ قال: دعني أفكر فيه فلما كان من الغد قالوا له: يا أبا عبد شمس ما تقول فيما قلناه؟ قال: قولوا هو سحر فإنه آخذ بقلوب الناس، فأنزل الله على رسوله في ذلك «ذرني ومن خلقت وحيداً» وإنما سمي وحيداً لأنه قال لقريش: أنا أَتوحد بكسوة البيت سنة وعليكم في جماعتكم سنة، وكان له مال كثير وحدائق وكان له عشرة بنين بمكة، وكانت له عشرة عبيد عند كل عبد ألف دينار يتجر بها[2].

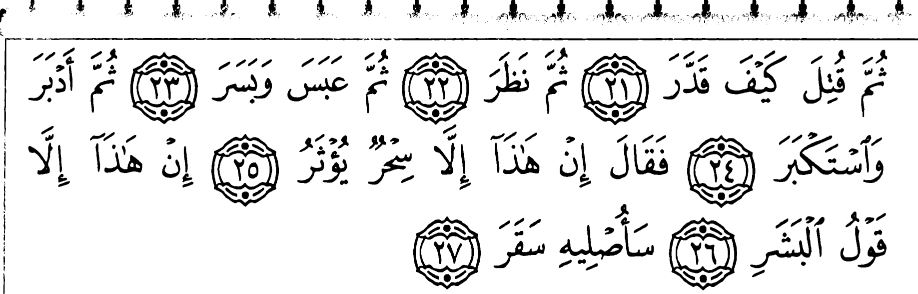
[١٩] ﴿**انه**﴾ أي الوليد ﴿**فكر**﴾ حول القرآن ﴿**وقدّر**﴾ القول في نفسه.

[٢٠] ﴿**فقتل**﴾ دعاء عليه، أي قتله الله ﴿**كيف قدر؟**﴾ تقديراً يوافق أهواء المكذبين وأذهان العامة، فإن الناس يسرعون إلى نسبة السحر إلى كل

---

(١) فصلت: ١٤ .

(٢) تفسير القمي: ج٢ ص٣٩٣ .



ما خرج عن طورهم، وهذا تعجب من تفكيره وتقديره.

[٢١] ﴿ثم﴾ للتراخي في الكلام لا في الخارج ﴿**قتل كيف قدّر**﴾ تكرير لشدة التعجب منه، وإعادة الدعاء عليه.

[٢٢] ﴿**ثم نظر**﴾ في طلب ما يدفع به القرآن، والنظر هنا التفكر.

[٢٣] ﴿**ثم عبس**﴾ أي قطب وجهه وكلحه، ﴿**وبسر**﴾ البسور بُدو التكره في الوجه.

[٢٤] ﴿**ثم أدبر**﴾ أي أعرض عن الحق، وأن يقول في القرآن ما علمه منه ﴿**واستكبر**﴾ فقد منعه كبره عن القول بالحق.

[٢٥] ﴿**فقال إن هذا**﴾ أي ما هذا القرآن ﴿**إلا سحر يؤثر**﴾ أي يروى عن السحرة.

[٢٦] ﴿**إن هذا**﴾ أي ما هذا القرآن ﴿**إلا قول البشر**﴾ فليس وحياً منزلاً من السماء.

[٢٧] ثم جاء السياق ليهدده لهذا الكلام المكذوب الذي افتراه، فإنه لو كان سحراً لقدر السحرة على الإتيان بمثله، ولقدر المشرعون في العالم أن يضعوا قوانين شبيهة به، لكنه كلام الله وقد علموا به وإنما منعهم عن ذلك كبرهم وتمردهم ﴿**سأصليه سقر**﴾ أي سأدخله جهنم، وألزمه إياها، فإن «الإصلاء» إلزام موضع النار.

وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٨﴾ لَا تُبۡقِي وَلَا تَذَرُ ﴿٢٩﴾ لَوَّاحَةٞ لِّلۡبَشَرِ ﴿٣٠﴾ عَلَيۡهَا تِسۡعَةَ عَشَرَ ﴿٣١﴾ وَمَا جَعَلۡنَآ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةٗ وَمَا جَعَلۡنَا عِدَّتَهُمۡ إِلَّا فِتۡنَةٗ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ

---

[٢٨] ﴿**وما أدراك**﴾ أيها السامع ﴿**ما سقر**﴾ أي أنت لا تدري ما هي لشدة عذابها، حتى كأن الإنسان لا يمكن أن يعرفها على حقيقتها.

[٢٩] ﴿**لا تبقي**﴾ شيئاً مما يطرح فيها، بل تأكل اللحم وتحرق الجلد والعظم ﴿**ولا تذر**﴾ إما تأكيداً أو بمعنى أنها لا تدعهم يفنون حتى ينجوا من العذاب، بل تحرق وتعيد، وهكذا دواليك.

[٣٠] ﴿**لواحة**﴾ من التلويح بمعنى تغيير اللون بواسطة الشمس ونحوها ﴿**للبشر**﴾ أي أنها تغير الجلود، و «البشر» جمع بشرة، وهي ظاهر الجلد.

[٣١] ﴿**عليها**﴾ أي الملائكة الموكلون عليها ﴿**تسعة عشر**﴾ وهذا أحد الأعداد الممكنة، ولا مجال لأن يقال: لماذا ليسوا أكثر ولا أقل؟ فإن أي عدد كان محل هذا السؤال، كما أن في سائر الأعداد أيضاً لا إشكال، كثمانية أبواب للجنة، وسبعة للنار، وسبع سماوات طباقاً وهكذا.

[٣٢] ﴿**وما جعلنا أصحاب النار**﴾ أي الموكلون بها ﴿**إلا ملائكة**﴾ لأنهم أقوى، ولعدم رقتهم لأهل النار، بخلاف ما لو كانوا آدميين ﴿**وما جعلنا عدتهم**﴾ أي تعدادهم بكونهم تسعة عشر ﴿**إلا فتنة**﴾ وامتحاناً ﴿**للذين كفروا**﴾ حتى يتبين هل هم يؤمنون أم يضحكون من هذا العدد قائلين لايكفي هذا العدد القليل لتعذيب الكثرة من الكفار والعصاة فإن

لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا

مخلوقاته سبحانه موجبة للفتنة والامتحان سواء كانت نعماً أو نقماً في الدنيا أو في الآخرة، وسواء كان أصل الشيء أو خصوصياته ومزاياه.

وقد ذكرنا عدد الملائكة في القرآن ﴿**ليستيقن الذين أوتوا الكتاب**﴾ أي اليهود والنصارى بأن الرسول حق، حيث يرون أنه ﷺ أخبر بما هو في كتبهم مما لا يعلمه أحد إلا هم فقط، فإخبار إنسان لايطلع على كتبهم ولم يسمع منهم بذلك يوجب تعيينهم بأنه حق وإنما تعلم ذلك بالوحي ﴿**ويزداد الذين آمنوا**﴾ بالرسول ﴿**إيماناً**﴾ حيث يرون تصديق أهل الكتاب ـ الذين هم أهل الفن ـ للرسول ﷺ فيوجب ذلك زيادة إيمانهم ﴿**ولا يرتاب**﴾ أي لا يشك ﴿**الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون**﴾ في نبوة النبي ﷺ. وهذا تأكيد للجملة السابقة، فإن المؤمن قلباً من أهل الكتاب، والمؤمن ظاهراً من سائر الناس بالرسول ﷺ، في معرض الشك والزوال، كما هو الشأن في كل ملكة إذا لم تقو، فإذا وجد هذا الشاهد تقوت الملكة، ولم يكن الإنسان معرضاً للريب.

﴿**وليقول**﴾ اللام للعاقبة، أي أن الغاية من تعريف عدد خزنة النار أمران: الأول زيادة إيمان المؤمنين، وحصول العلم لأهل الكتاب بصدق الرسول. الثاني شدة نفاق المنافق، وكفر الكافر، فيقول ﴿**الذين في قلوبهم مرض**﴾ من المنافقين ﴿**والكافرون**﴾ بالرسول: ﴿**ماذا أراد الله بهذا مثلاً؟**﴾ فكأنهم زعموا أن هذا العدد الخاص من

كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ۚ وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ﴿٣٢﴾ كَلَّا وَٱلْقَمَرِ ﴿٣٣﴾

باب المثل، لا أنه حقيقة مطابق لعدد الموكلين بالنار، فأخذوا يستفسرون عن قصد هذا المثل، فشأن المعاند حيث يستفسر حول كل كلمة من كلمات خصمه لأن التواء قلبه يوجب أن يرى كل شيء متساوياً.

ثم يأتي السياق ليبين جواب هؤلاء السائلين بقوله: ﴿**كذلك**﴾ أي ببيان الحقائق، كما بين عدد ملائكة النار ﴿**يضل الله من يشاء**﴾ فإنه إذا ذكر الحقيقة نفر عنها أناس، فذلك إضلال لهم ﴿**ويهدي من يشاء**﴾ إذ يتعلق بالإيمان أناس آخرون وذلك هداية لهم، فإن إضلاله وهدايته ليسا بمعنى الجبر، بل بمعنى إنزال آية أو بيان حكم يوجب الضلال والهدى ليمتحن الناس.

وبمناسبة بيان عدد جنوده الموكلين بالنار جاء السياق ليقرر حقيقة عامة بقولة: ﴿**وما يعلم جنود ربك**﴾ الموكلين بكل شيء، المحافظين لكل خلق ﴿**الا هو**﴾ سبحانه وحده، إلا إذا أعلم ذلك لبعض، فليس لأحد أن يقول: أن جند كذا أكثر أو أقل مما يخبر الله سبحانه ﴿**وما هي**﴾ أي سقر التي تقدم الكلام حولها ﴿**إلاّ ذكرى للبشر**﴾ أي تذكرة لهم، بمعنى أن ذكرها يذكرهم بالعذاب فيقلعوا عن المعاصي، أو ان هذه السورة تذكرة لهم.

[٣٣] ﴿**كلا**﴾ ليس الأمر على ما توهم هؤلاء الكفار من أنه لا حساب ولا جزاء ﴿**والقمر**﴾ أي قسماً بالقمر.

﴿وَٱلَّيۡلِ إِذۡ أَدۡبَرَ ٣٤ وَٱلصُّبۡحِ إِذَآ أَسۡفَرَ ٣٥ إِنَّهَا لَإِحۡدَى ٱلۡكُبَرِ ٣٦ نَذِيرًا لِّلۡبَشَرِ ٣٧ لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَتَقَدَّمَ أَوۡ يَتَأَخَّرَ ٣٨ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡ رَهِينَةٌ ٣٩﴾

[٣٤] ﴿و﴾ قسماً بـ ﴿**الليل إذا أدبر**﴾ ولّى وذهب ليأتي مكانه النهار.

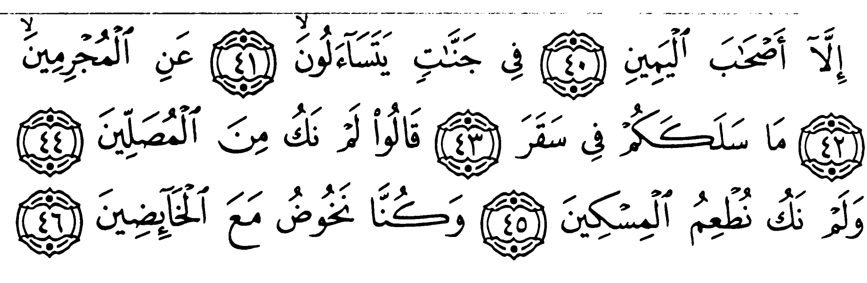
[٣٥] ﴿و﴾ قسماً بـ ﴿**الصبح إذا أسفر**﴾ أي إذا أضاء وجاء.

[٣٦] ﴿**إنها**﴾ أي «سقر» التي تقدم الكلام حولها ﴿**لإحدى**﴾ الآيات ﴿**الكبر**﴾ جمع كبرى، أي إحدى آيات الله العظمى، فإن من قدر على خلق تلك الآيات من القمر والليل والنهار، لقادر على خلق النار وسقر لتعذيب الكفار وغير المؤمنين، ولعل اختيار الحلف بهذه الأمور لإيحائها بالظلمة المختلطة بشيء من الضياء، كالنار التي هي كذلك، كما أن سكون هذه الأمور يوحي بسكون أهل النار الشبيه بالموت بخلاف أهل الجنة الذين هم أحياء.

[٣٧] في حال كونها ﴿**نذيراً للبشر**﴾ تنذرهم بأنهم إن لم يؤمنوا بها ابتلوا بها، كما تقول: هذه السلاسل تنذر المجرمين.

[٣٨] ﴿**لمن شاء منكم**﴾ أيها البشر ﴿**أن يتقدم**﴾ إلى الخير لينجو ﴿**أو يتأخر**﴾ بالعصيان حتى يبتلي، فلكل إنسان أن يختار مصيره «إما إلى جنة وإما إلى النار».

[٣٩] ﴿**كل نفس بما كسبت**﴾ من الطاعة أو المعصية ﴿**رهينة**﴾ كالرهن الذي هو محبوس في مقابل الدين؛ فإن وفى الدين فك وإلا لم يفك، وكذلك إذا وفى الإنسان بما عليه ـ من الإيمان والطاعة ـ فك وحظي بالثواب، وإلا كان مصيره النار والبقاء في حبس الأبد.



[٤٠] ﴿إلاّ أصحاب اليمين﴾ الذين يعطى كتابهم بأيمانهم، ويؤخذ بهم ـ يوم القيامة ـ ذات اليمين نحو الجنان، فإنهم قد فكوا أنفسهم من الرهن بأعمالهم الصالحة.

[٤١] فإنهم ﴿في جنات يتساءلون﴾ أي يسأل بعضهم من بعض، أو من الملائكة، أو من نفس المجرمين.

[٤٢] ﴿عن المجرمين﴾ وعلى الأولين، يلتفتون بعد السؤال إلى المجرمين، كما قال سبحانه (إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ . . إلى قوله : فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الجَحِيمِ * قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ)[1] وعلى الثالث يكون المسؤول ابتداءً هو المجرم.

[٤٣] فيقولون لهم: ﴿ما سلككم﴾ أي ما أدخلكم أيها المجرمون ﴿في سقر﴾ في هذه النار العظيمة؟

[٤٤] ﴿قالوا﴾ أي المجرمون في جوابهم ﴿لم نك﴾ نحن في الدنيا ﴿من المصلين﴾ أي ما كنا نصلي الصلوات المفروضة.

[٤٥] ﴿ولم نك نطعم المسكين﴾ إطعاماً واجباً، بإعطاء الزكاة ونحوها.

[٤٦] ﴿وكنا نخوض﴾ في الباطل ﴿مع الخائضين﴾ أي مع الذين يخوضون في الباطل، وأصل «الخوض» الدخول في الشيء بجميع الجسم فكأن

(١) الصافات: ٥٢ ـ ٥٧ .

وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٧﴾ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ ﴿٤٨﴾ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٩﴾ فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٥٠﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥١﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍۭ ﴿٥٢﴾

الباطل شيء يخاض فيه.

[٤٧] ﴿**وكنا نكذب بيوم الدين**﴾ «الدين» هو الجزاء، أي لا نعترف بيوم القيامة، بل نقول أنه كذب لا يكون.

[٤٨] ﴿**حتى أتانا اليقين**﴾ أي الموت، بأن لم نتب قبل أن نموت وسمي الموت يقيناً لأنه سبب لانكشاف ذلك العالم لدى الإنسان، حتى يتيقن بما هناك.

[٤٩] وإذا كانوا كذلك في الدنيا ﴿**فما تنفعهم شفاعة الشافعين**﴾ أي الذين يشفعون للمذنبين، من الأنبياء والملائكة والعلماء ومن أشبههم، إذ ذنبهم فوق حد الشفاعة، وهذا من باب السالبة بانتفاء الموضوع، إذ لايشفع لهم أحد حتى تنفع.

[٥٠] ثم يأتي السياق ليستغرب من عنادهم في الباطل ﴿**فما لهم**﴾ أي ما لهؤلاء الكفار ﴿**عن التذكرة معرضين**﴾ أي لم أعرضوا عن القرآن الذي يذكرهم بالحقائق وبما فيه نفعهم؟ وأي خير لهم في هذا الإعراض؟

[٥١] ﴿**كأنهم حمر**﴾ جمع «حمار» ﴿**مستنفرة**﴾ أي وحشية نافرة «واستنفر» بمعنى نفر، كأنها طلبت من نفسها الفرار، لما شاهدت من الخوف، وتشبيههم بالحمار لعدم إدراكهم وبلادتهم.

[٥٢] ﴿**فرّت من قسورة**﴾ أي الأسد، فإن الحمار إذا شاهد الأسد فر منه، وكذلك الكفار يفرون من الرسول ﷺ.

بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ﴿٥٣﴾ كَلَّا ۖ بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْآخِرَةَ ﴿٥٤﴾ كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ ﴿٥٥﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿٥٦﴾ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ

[٥٣] **﴿بل يريد كل امريءٍ منهم أن يؤتى﴾** أي يعطى في يوم القيامة **﴿صحفاً منشرة﴾** بأن يوحي إليه وينزل عليه الكتاب من الله سبحانه كما قال سبحانه (لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْنَا المَلائِكَةُ)[1]؟ أو المراد أنهم مع هذا الإعراض عن الحق يريد أن يعطى كتابه يوم القيامة منشوراً فيه الحسنات، إذ الكتاب إذا كان فيه سيئات يطوى لئلا يطلع عليه أحد، أما إذا كان فيه الحسنات ينشر على رؤوس الأشهاد للافتخار والمباهاة، وكأن الإتيان بـ «بل» لإفادة أنهم مع الكفر يتوقعون هذا.

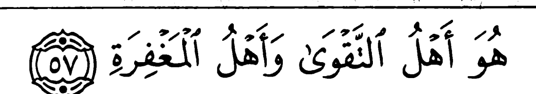
[٥٤] **﴿كلا﴾** لا يعطون كتاباً منشوراً، فإنهم لم يعملوا ما يستحقون به ذلك **﴿بل لا يخافون الآخرة﴾** حتى يدخلوا في زمرة المؤمنين الموجب لإعطاء كتاب منشور بأيديهم، أو المراد أنهم حيث لا يخافون الآخرة أعرضوا عن التذكرة.

[٥٥] **﴿كلا﴾** ليس الأمر على ما توهموا من أن إعراضهم خير لهم **﴿إنه تذكرة﴾** أي القرآن يذكرهم.

[٥٦] **﴿فمن شاء﴾** التذكرة والاهتداء والخير **﴿ذكره﴾** أي اتعظ به، ومن لم يشأ فهو وشأنه.

[٥٧] **﴿وما يذكرون إلا أن يشاء الله﴾** فإن التذكر له طرفان: إرادة الله

(١) الفرقان: ٢٢ .



سبحانه بإرسال الرسول وإرشاد الناس، وتقبل الإنسان، فتذكرهم مرتبط بإرادة الله، وقد أراد سبحانه، وأرشد فبقي عليهم أن يقبلوا **﴿هو﴾** سبحانه **﴿أهل التقوى﴾** أي أهل لأن يتقى منه، إذ الإنسان إنما يتقي من العالم القادر الذي إذا خالفه الإنسان علم بالمخالفة وعاقب، وكل ذلك موجود فيه سبحانه **﴿وأهل المغفرة﴾** أي أهل لأن يغفر الذنب لمن اتقاه وجاء إلى الطريق، فاتقوه أيها الناس حتى يغفر لكم.



سُورة القيَامَة

مكّية/ آياتها (٤١)

سميت السورة بهذا الاسم لاشتمالها على لفظة «القيامة»، وهي كسائر السور المكية تعالج قضايا العقيدة في أصولها الثلاث، وحيث ختمت سورة «المدثر» بما يرتبط بالقيامة ابتدأت هذه السورة بذلك.



[١] ﴿**بسم الله الرحمن الرحيم**﴾ ابتداء باسم الله الذي هو الإله بالحق، ولا إله غيره، الرحمن الرحيم الذي يتفضل على العباد بالرحم والفضل في الدنيا والآخرة.

لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ﴿٢﴾ وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ ﴿٣﴾ أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجۡمَعَ عِظَامَهُۥ ﴿٤﴾ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ ﴿٥﴾

[٢] ﴿**لا أقسم بيوم القيامة**﴾ «لا» للنفي، وقد سبق أن الإتيان بها لنكتة مليحة، هي أن الحالف يريد أن يبين ويؤكد المطلب غير حالف مع الإيماء إلى الحلف، كما تقول «لا أقسم بحياتك إلا أن الأمر كذا» تريد أن لا تحلف به ـ لأمر ـ مع الإلماع إلى الحلف لتحصل فائدة التأكيد.

[٣] ﴿**ولا أقسم بالنفس اللوامة**﴾ وهي النفس اليقظة التي تلوم صاحبها عن التقصير في خدمة الله سبحانه، وإن كان الإنسان في أرقى درجات الطاعة. وقيل أن جهة نفي القسم أن الكفار لم يكونوا يقرّون بالمقسمين، فكأنه قيل لا أحلف بهما لأنكم لا تقرون بذلك.

[٤] ﴿**أيحسب الإنسان**﴾ أي هل يظن ﴿**أن لن نجمع عظامه**﴾ بعد الموت لأن يحشر؟ والمعنى أيظن أنه لا قيامة ولا معاد؟.

[٥] وقد كان زعم الإنسان بعدم الجمع، من جهة حسبانه انه تعالى غير قادر على ذلك، ولذا جاء السياق لدفع هذا الزعم الباطل بقوله: ﴿**بلى**﴾ نجمع عظامه فَإنّا نكون ﴿**قادرين على أن نسوي بنانه**﴾ أي رؤوس أصابعه، وهذا في غاية القدرة، لأن خطوط أصابع الناس يختلف بعضها مع بعض وإن كان البشر عشرات الآلاف من الملايين، ومن يقدر على صنع وإعادة أدق أجزاء الإنسان قادر على إعادة غير ذلك من سائر أجزائه: قالوا: وأعجب ما في الإنسان أربعة: اختلاف الأصوات، والوجوه، وخطوط البنان، وذبذبات الخطوط حتى أنّ

بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ ﴿٦﴾ يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴿٧﴾ فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ﴿٨﴾ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ﴿٩﴾ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ﴿١٠﴾ يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ﴿١١﴾

انسانين لو خطّا كان من المستحيل عادة أن يتساوى خطهما، وإنما يعرف الاختلاف بالمجاهر والآلات الحديثة:

[٦] إن الإنسان لا يكفر بالمعاد، لأنه ينكر في قلبه قدرة الله سبحانه على البعث ﴿**بل**﴾ إنما ينكر لأنه ﴿**يريد الإنسان ليفجر**﴾ أي يعصي ﴿**أمامه**﴾ أي في مستقبل عمره، وحيث إن الاعتراف بالآخرة يمنع عن فجوره، ينكر حتى يكون الطريق مفتوحاً لفجوره، وإذ خوّف من الآخرة أنكرها ليسكت المنكر له:

[٧] فـ ﴿**يسأل**﴾ سؤال منكر ﴿**أيان يوم القيامة**﴾؟ أي متى يكون، بمعنى أنه لايكون، وإلا فأين هو؟

[٨] ثم يأتي السياق ليبين وقت يوم القيامة ﴿**فإذا برق البصر**﴾ أي شخص عند معاينة الأهوال، أو تقلب البرق، أو خرج منه البرق، فإن الإنسان لدى الاصطدام يخرج من عينه مثل البرق.

[٩] ﴿**وخسف القمر**﴾ أي ذهب نوره، فظهر جرماً كمداً بلا نور.

[١٠] ﴿**وجمع الشمس والقمر**﴾ بأن يختل نظامهما الفلكي فيرى كل واحد منهما بجنب الآخر.

[١١] ﴿**يقول الإنسان**﴾ المكذب بيوم القيامة ﴿**يومئذ**﴾ أي في هذا اليوم ﴿**أين المفر**﴾ أي إلى أين يمكن الفرار من هذه الأهوال؟ وهذا استفهام للإنكار، والتحسر، بأنه لا يمكن الفرار.

كَلَّا لَا وَزَرَ ﴿١٢﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ ﴿١٣﴾ يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٤﴾ بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٥﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴿١٦﴾

[١٢] ﴿**كلا**﴾ فإنه لا يمكن الفرار ﴿**لا وزر**﴾ وهو ما يتحصن به الإنسان من جبل ونحوه، أي لا ملجأ للفرار والهرب.

[١٣] ﴿**إلى**﴾ حساب ﴿**ربك**﴾ أيها الإنسان ﴿**يومئذ**﴾ أي في هذا اليوم ﴿**المستقر**﴾ أي المنتهى، فالصالحون إلى جنته، والطالحون إلى ناره.

[١٤] ﴿**ينبؤ الإنسان**﴾ أي يخبر الإنسان، والمخبر هو الله سبحانه بواسطة الأنبياء والشهداء ﴿**يومئذ**﴾ أي في يوم القيامة ﴿**بما قدم**﴾ إلى الآخرة في حياته، من الأعمال الصالحة ﴿**و**﴾ ما ﴿**أخر**﴾ كما لو أوقف وقفاً ومات فجرت الصدقة بعد مماته، وإنما يخبر بذلك للجزاء والثواب، أو النكال فإن المحسن أو المجرم، يقرأ أولاً ما عمل ثم يجازى.

[١٥] ومهما اعتذر الإنسان بشتى الأعذار، فإنه مما لا تقبل منه ﴿**بل الإنسان على نفسه**﴾ وما عمل في الدنيا ﴿**بصيرة**﴾ التاء للمبالغة، أي كامل العلم والعرفان، أو التاء للتأنيث، أي حجة بصيرة، فإن الأعضاء تشهد بما صدر منه.

[١٦] ﴿**ولو ألقى معاذيره**﴾ أي ولو اعتذر لم ينفعه عذره، أو يعلم ما صنع وإن اعتذر في ظاهر لفظه، فإن الإلقاء بمعنى الإعطاء، كما يقال فلان ألقى بحجته، «ومعاذير» جمع معذرة، أو معذار.

[١٧] ثم يأتي السياق لتوجيه الرسول ﷺ في كيفية تحمل القرآن إذا ما يوحى إليه، ولعل المناسبة الربط بين أحوال القيامة وبين العمل الذي

لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٧﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٩﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿٢٠﴾ كَلَّا

يوجه إليه القرآن. قال ابن عباس: كان النبي إذا نزل عليه القرآن عجل بتحريك لسانه لحبه إياه وحرصه على أخذه وضبطه مخافة أن ينساه، ونحوه نقل عن سعيد بن جبير، أقول: ولعل هذا العمل كان منه ﷺ أثناء هذه السورة، ولذا جاء هذا التوجيه في الأثناء ﴿**لا تحرك**﴾ يا رسول الله ﴿**به**﴾ أي بالقرآن ﴿**لسانك**﴾ بأن تقرأه كلمة كلمة بمجرد قراءة جبرئيل قبل أن يتم الوحي ﴿**لتعجل به**﴾ أي لتأخذه على عجلة مخافة أن تنساه.

[١٨] ﴿**إن علينا جمعه**﴾ أن نجمعه ونؤلّفه ﴿**وقرآنه**﴾ أي أن نقرأه عليك.

[١٩] ﴿**فإذا قرأناه**﴾ وذلك بقراءة جبرئيل لك ﴿**فاتبع قرآنه**﴾ أي قراءته.

[٢٠] ﴿**ثم إن علينا بيانه**﴾ أي إيضاحه وتفسيره في مجملاته ومتشابهاته فعلينا الجمع والقراءة والبيان، وعليك الرسالة والتبليغ. وفي الحقيقة الأمر من المدهشات لولا الرسالة، فإنه كيف يتسنى للشخص أن يحفظ هذا المقدار الكبير من الكلام بدون تكرار في القراءة عن كتاب. ألا ترى أن أبلغ الخطباء وأذكرهم إذا صعد المنبر وقرأ مقدار صفحتين، وكان عرفه على حفظه لم يتمكن من قراءته مرة ثانية كما قرأ أولاً، لكن وعد الله سبحانه للرسول بقوله «فلا تنسى» هو الذي أوجب حفظه بمجرد قراءة جبرئيل، ولو كان الرسول غير صادق في دعواه ـ كما زعم الكفار ـ كيف تسنى له هذا الحفظ المدهش.

[٢١] ثم رجع السياق إلى الكلام السابق بقوله: ﴿**كلا**﴾ لا تتدبرون القرآن،

بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ﴿٢١﴾ وَتَذَرُونَ ٱلْآخِرَةَ ﴿٢٢﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٤﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ﴿٢٥﴾ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴿٢٦﴾ كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِىَ ﴿٢٧﴾

ولا تتفكرون في المعاد «إرادة لأن تفجروا أمامكم» ﴿**بل تحبون العاجلة**﴾ أي الدنيا الحاضرة.

[٢٢] ﴿**وتذرون**﴾ أي تتركون ﴿**الآخرة**﴾ فلا تعملون لها.

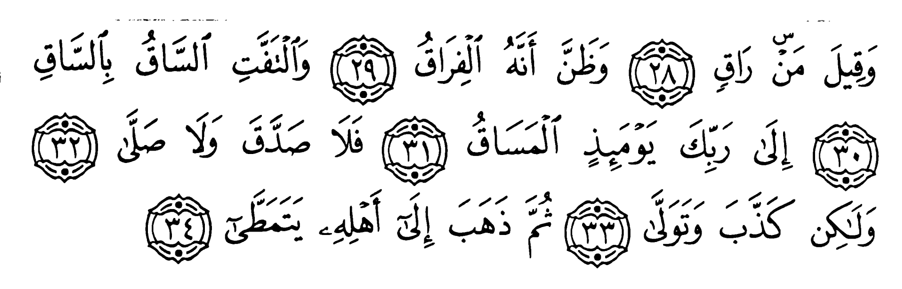
[٢٣] فاعلموا أن من عمل هنا للآخرة كان حاله هناك حسناً، ومن لم يعمل كان حاله سيئاً ﴿**وجوه يومئذ**﴾ أي في يوم القيامة ﴿**ناضرة**﴾ أي ناعمة بهيجة حسنة وهي وجوه المؤمنين.

[٢٤] ﴿**إلى ربها ناظرة**﴾ أي إلى رحمته سبحانه وفضله ولطفه، وهذا كما تقول «أنظر إلى فلان» وهو بعيد عنك، تريد إلى فضله ورحمته، أو إلى حركاته وأعماله.

[٢٥] ﴿**ووجوه يومئذ**﴾ أي في يوم القيامة ﴿**باسرة**﴾ شديدة العبوس والتقطيب، فإن الإنسان المحزون الخائف يبسر وجهه، وهي وجوه الكافرين والعصاة.

[٢٦] ﴿**تظن**﴾ أصحاب تلك الوجوه، ونسبة الظن إلى الوجوه مجاز ﴿**أن يفعل بها فاقرة**﴾ أي داهية تكسر فقار الظهر من شدتها، وإنما قال «تظن» لأن الإنسان مهما رأى العذاب قريباً لا يستعد لأن يعترف بنزوله عليه رجاء أن يدفع عنه، فهو ظان بالعذاب لا متيقن.

[٢٧] ﴿**كلا**﴾ ليس الأمر على ما توهم الكفار من أنها دنيا بلا آخرة، فإنه سيظهر لهم كذب هذا الزعم ﴿**إذا بلغت**﴾ الروح ﴿**التراقي**﴾ جمع



«ترقوة»، وهي العظام المكتنفة بالحلق، وهذا كناية عن الإشراف على الموت.

[٢٨] ﴿وقيل من راق﴾ لعل المراد أن الملائكة تسأل بعضها بعضاً من يرقى بروح هذا الشخص هل ملائكة الرحمة أو ملائكة العذاب؟

[٢٩] ﴿وظن﴾ المحتضر أو من حضره ﴿أنه الفراق﴾ أي أن الذي نزل به هو فراقه من الدنيا، وابتعاده عن الأحبة.

[٣٠] ﴿والتفت الساق بالساق﴾ هذا كناية عن عدم الحيلة في إرجاعه إلى الدنيا، وشفائه من الموت، فإن الإنسان الذي تلتف رجليه، لايتمكن من الهرب والفرار عن المكروه.

[٣١] ﴿إلى ربك﴾ أيها الإنسان ﴿يومئذ﴾ أي في يوم الاحتضار ﴿المساق﴾ أي السوق، فلا علاج إلا الذهاب إليه، وقد تم عمرك في الدنيا.

[٣٢] ﴿فـ﴾ هل عمل هذا الإنسان الكافر عملاً ينجيه هناك؟ كلا ﴿لا صدّق﴾ ما يجب التصديق به ﴿ولا صلى﴾ لله الصلوات المفروضات.

[٣٣] ﴿ولكن﴾ عوض ذلك ﴿كذب﴾ بالله وما يجب الإيمان به ﴿وتولى﴾ أي أعرض عن الحق.

[٣٤] ﴿ثم﴾ لترتيب الكلام، لا لترتيب المطلب في الخارج ﴿ذهب إلى أهله يتمطى﴾ أي يتكبر افتخاراً بتكذيبه، من المط وهو التمدد، فإن الإنسان

أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٥﴾ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٦﴾ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٧﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٨﴾

المتبختر يمدد بدنه، ولعل المراد بـ «ذهب إلى أهله» أن المتبختر إنما يظهر معظم كبره لأهله حين يرجع إليهم من خارج البيت.

[٣٥] ﴿**أولى لك**﴾ الحالة التي أنت عليها من الإيمان والإطاعة، والإتيان بـ «لك» بمعنى أن المتكبر الطاغي أولى له حالته السيئة من الأمر الحسن الذي يدعى إليه، لأنها تجانسه لا الحسن ﴿**فأولى**﴾ أي أيضاً نقول أولى لك تأكيداً لعدم قابليته للإيمان والهداية.

[٣٦] ﴿**ثم أولى لك فأولى**﴾ للتأكيد. وقد روى أن رسول الله ﷺ أخذ ذات مرة بيد أبي جهل وقال له: «أولى لك فأولى ثم أولى لك فأولى» فقال أبو جهل: بأي شيء تهددني لا تستطيع أنت ولا ربك أن تفعلا بي شيئاً وإني لأعز أهل هذا الوادي، فأنزل الله سبحانه هذه الآية(١).

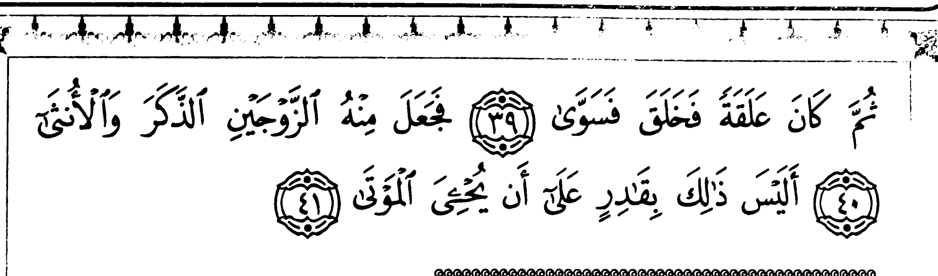
أقول: وقد تمكن الرسول ﷺ وربه تعالى أن يفعلا به كل شيء، فقد قتل أبو جهل في بدر، والتحق بالسعير. ولفظة «أولى لك» تهديد، أي إنك سترى عاقبة ما اخترت من الانحراف.

[٣٧] ﴿**أيحسب الإنسان**﴾ أي هل يظن الإنسان ﴿**أن يترك سدى**﴾ أي مهملاً بلا أمر ولا نهي ولا حساب ولا جزاء؟ فإن «سدى» بمعنى «مهمل».

[٣٨] ﴿**ألم يك**﴾ الإنسان ﴿**نطفة من مني يمنى**﴾ أي يصب ويراق ألا يستدل بذلك وبما اختلف عليه من الأطوار أن الله قادر على أن يعيده.

---

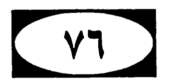
(١) بحار الأنوار: ج١٨ ص١٦٨ .



[٣٩] ﴿ثم كان علقة﴾ وهي القطعة من الدم المنعقد، فإن النطفة تتبدل إلى تلك ﴿فخلق﴾ الله منها بشراً سوياً ﴿فسوى﴾ أي سوى خلقه بإعطائه الآلات والأجهزة والمشاعر وغير ذلك.

[٤٠] ﴿فجعل منه﴾ أي من الإنسان ﴿الزوجين﴾ أي الصنفين ﴿الذكر والأنثى﴾ فمن يا ترى صنع كل ذلك غيره سبحانه؟

[٤١] ﴿أليس ذلك﴾ الله الذي فعل هذا ﴿بقادر على أن يحيي الموتى﴾؟ فمن قدر على الابتداء قدر على الإعادة، فكيف ينكر الكافر قدرته سبحانه على البعث والنشور؟



سُورة الإنسَان

مدنية/آياتها (٣٢)

وتسمى بسورة الدهر، سميت السورة بهذين الاسمين لاشتمالها على لفظي «الإنسان» و «الدهر»، وهي كسائر السور المدنية مشتملة على ما يرتبط بالنظام إلى جنب معالجتها لقضايا العقيدة، وحيث ختمت سورة القيامة بذكر أحوال الإنسان من حين كونه نطفة إلى حين البعث، افتتحت هذه السورة بذكر ابتداء الإنسان، ليرتب عليه معاده ونشره.

نزلت هذه السورة في الخامس والعشرين من ذي الحجة في علي وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام وجارية لهم تسمى فضة، وذلك أنه مرض الحسن والحسين عليهما السلام فأعادهما الرسول صلى الله عليه وآله وجماعة من الصحابة، فقالوا: يا أبا الحسن لو نذرت على ولديك نذراً، فنذر صوم ثلاثة أيام إن شفاهما الله سبحانه. ونذرت فاطمة وكذلك فضة، فبرآ وليس عندهم شيء، فاستقرض علي ثلاثة أصوع من شعير من يهودي فطحنت الزهراء عليها السلام صاعاً منها فاختبزته، وصلى علي المغرب وقربته إليهم، فأتاهم مسكين يدعو لهم وسأهلم فأعطوه أقراصهم

جميعاً ولم يفطروا إلا بالماء، فلما كان اليوم الثاني صاموا جميعاً، وأخذت فاطمة عليها السلام صاعاً فطحنته واختبزته، ولما كان المغرب قدمته للإفطار فإذا يتيم على الباب يستطعم، فأعطوه ولم يذوقوا إلا الماء في إفطارهم، فلما كان اليوم الثالث عمدت فاطمة عليها السلام إلى الصاع الثالث فطحنته واختبزته، ولما كان المغرب وأرادوا أن يفطروا فإذا أسير بالباب يستطعم، فأعطوه أقراصهم الخمسة ولم يفطروا إلا بالماء، فلما كان اليوم الرابع وقد قضوا نذورهم أتى علي ومعه الحسن والحسين إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم وبهما ضعف، فبكى رسول الله مما رأى فيهما من الضعف، فنزل جبرئيل بسورة «هل أتى»(١).

وفي بعض الأحاديث أن الله سبحانه أنزل عليهم مائدة من السماء(٢). قالوا: ومن غريب أمر هذه السورة أنها وصفت نعيم الجنة كله باستثناء ذكر «الحور» تكريماً لفاطمة عليها السلام.



[١] ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ ابتداء باسم الإلة الذي هو أول كل شيء، فمن حسن الابتداء أن يبدأ باسمه الكريم في كل أمر، الرحمن الرحيم الذي يتفضل بالرحم لكل ناقص، فيكمل نقصه ومن تكميل النقص غفران الزلل حتى يكون الإنسان وكأنه لم يذنب.

---

(١) تأويل الآيات الظاهرة: ص٧٢٤.

(٢) الطرائف في معرفة مذاهب الطوائف: ج١ ص١٠٧.

هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴿٢﴾ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٣﴾ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٤﴾ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَا۟

[٢] ﴿**هل أتى على الإنسان**﴾ استفهام للتقرير حتى يقر الإنسان بهذه الحقيقة، فيرتب عليه أنه إذا لم يكن ثم كان، كان مكوّنه قادراً على أن يعيده بعد أن يفنى ويهلك ﴿**حين من الدهر**﴾ أي زمان طويل من الأزمنة السالفة ﴿**لم يكن شيئاً مذكوراً**﴾ أي شيئاً يذكر، بأن كان معدوماً لا أثر له؟ والجواب: أنه نعم كان كذلك، وهل لأحد أن ينكر هذه الحقيقة.

[٣] ﴿**إنا خلقنا الإنسان من نطفة**﴾ هي المني ﴿**أمشاج**﴾ جمع «مشيج» من مشجت بمعنى خَلَطت، أي النطفة أخلاط مختلفة من ماء الرجل وماء المرأة، ومن الأجزاء المتجمعة من المأكولات المختلفة، وإنما خلقناه لـ ﴿**نبتليه**﴾ أي نمتحنه بما نكلفه من الأعمال، هل يحسن أم يسيء؟ ﴿**فجعلناه**﴾ أي الإنسان ﴿**سميعاً بصيراً**﴾ يسمع ويبصر ليتم عليه التكليف.

[٤] ﴿**إنا هديناه السبيل**﴾ أي الطريق إلى الحق ببعث الأنبياء وإرسال الكتب، فـ ﴿**إما**﴾ يكون ﴿**شاكراً**﴾ لأنعم الله سبحانه بالإيمان والإطاعة، ﴿**وإما**﴾ يكون ﴿**كفوراً**﴾ كثير الكفر، فإن كل كافر هو كفور باعتبار مختلف الأزمنة والأحوال.

[٥] ﴿**إنا أعتدنا**﴾ أي هيأنا ﴿**للكافرين سلاسل**﴾ لأن يجروا بها جمع سلسلة

وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا ﴿٥﴾ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٦﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٧﴾

وهي قطعات الحديد المتداخلة، وهي غير منصرفة، لأنها على وزن «مفاعل» ﴿**وأغلالاً**﴾ جمع غل لأن يقيدوا بها ﴿**وسعيراً**﴾ أي ناراً مستعرة، أي ذات لهب واتقاد، والمراد تهيؤ ذلك لهم في الآخرة.

[٦] ﴿**إن الأبرار**﴾ جمع برّ وهو المؤمن الصالح ﴿**يشربون من كأس**﴾ وهي القدح التي تكون فيه الخمر، أو سائر أقسام المشروبات ولعل تقديم الشراب لمناسبته مع ما تقدم من «السعير» الموجبة لطلب الإنسان الماء ـ مناسبة الضد للضد ـ ﴿**كان مزاجها**﴾ أي ما يمزج بشرابها ﴿**كافوراً**﴾ لبرودته وعذوبته وطيب عَرْفه، وإتيان الضمير مؤنثاً لأن الكأس مؤنث سماعي.

وقد كانت العرب تمزج الخمر بالكافور حيناً وبالزنجبيل حيناً، ولذا ذكروا أن خمر الجنة كذلك، تماشياً مع مداركهم، وإن كان هناك ما لا يشبه أطعمة الدنيا وأشربتها، لذة وفضلاً.

[٧] ﴿**عيناً**﴾ أي أن تلك الكأس تملأ من عين، وكأنها منصوبة على تقدير الفعل، أي نبشركم أو نهنئكم ﴿**يشرب بها**﴾ أي منها ـ والإتيان بالباء لنكتة بلاغية ـ ﴿**عباد الله**﴾ الذين عبدوا الله وأطاعوه حق طاعته ﴿**يفجرونها**﴾ أي يجرونها ويخرجونها حيث شاؤوا من منازلهم وقصورهم ﴿**تفجيراً**﴾ ومن المتعة أن يكون المنزل بحيث يمكن تفجير العين فيه، فإنه تلهي وتلذذ.

يُوفُونَ بِٱلنَّذۡرِ وَيَخَافُونَ يَوۡمٗا كَانَ شَرُّهُۥ مُسۡتَطِيرٗا ﴿٨﴾ وَيُطۡعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسۡكِينٗا وَيَتِيمٗا وَأَسِيرًا ﴿٩﴾ إِنَّمَا نُطۡعِمُكُمۡ لِوَجۡهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمۡ جَزَآءٗ وَلَا شُكُورًا ﴿١٠﴾

[٨] ثم وصف عباد الله بقوله: ﴿**يوفون بالنذر**﴾ أي كانوا في الدنيا بحيث إذا نذروا نذراً وفوا به ولم يغشّوا، والنذر هو أن يلتزم الإنسان على نفسه خيراً لأجله سبحانه، كأن ينذر الصيام أو الصدقة أو ما أشبه ﴿**ويخافون يوماً**﴾ أي من أهوال ذلك اليوم، وهو يوم القيامة ﴿**كان شره مستطيراً**﴾ أي منتشراً في كل جهة، حتى يشمل كل كافر وآثم، وليس كشرور الدنيا التي تكون خاصة بأرض أو إنسان أو محل.

[٩] ﴿**ويطعمون الطعام على حبه**﴾ أي لأجل الله سبحانه، وعلى حبه تعالى، أو بمعنى على أنهم يحبون الطعام لجوعهم ﴿**مسكيناً**﴾ وهو الفقير الذي أسكن الفقر حركاته، فإن الغني يتحرك هنا وهناك أما الفقير فإنه يسكن لعدم مال له يصرفه في أموره ﴿**ويتيماً**﴾ وهو الطفل الذي مات أبوه، أو أبواه، وقد يطلق على من ماتت أمه ﴿**وأسيراً**﴾ الذي أسر في الحرب، وقد كان أهل البيت عليهم السلام وفوا بالنذر وأطعموا الثلاثة ـ كما تقدم ـ.

[١٠] وقصدهم حين الإطعام هو ﴿**إنما نطعمكم**﴾ أيها الفقراء ﴿**لوجه الله**﴾ أي لذاته سبحانه وإنما جيء بـ «الوجه» كناية عن الاتجاه والقصد، تشبيهاً بوجه الإنسان الذي يتوجه الإنسان إليه حين طلب مرضاته ﴿**لا نريد منكم**﴾ أيها الفقراء ﴿**جزاءً**﴾ لنا، كأن تعملوا بعض أعمالنا جزاء تصدقنا لكم ﴿**ولا شكوراً**﴾ بأن تشكروننا ولو باللسان ـ وإنما الصدقة خالصة لله سبحانه، للتقرب من رضوانه ـ.

إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١١﴾ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١٢﴾ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٣﴾ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٤﴾ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَـٰلُهَا

[١١] ﴿**إنا نخاف من ربنا**﴾ لو عصيناه بأن لم نف بالنذر، أو لم نطعم المسكين لوجهه ﴿**يوماً عبوساً**﴾ أي مكفهراً تعبس فيه الوجوه. ونسبة العبوس إلى اليوم من باب علاقة الحال والمحل، من قبيل «يا سارق الليلة» ﴿**قمطريراً**﴾ أي صعباً شديداً.

[١٢] ﴿**فوقاهم الله**﴾ أي حفظهم وكفاهم ﴿**شر ذلك اليوم**﴾ أي يوم القيامة ﴿**ولقاهم**﴾ أي استقبلهم وأعطاهم ﴿**نضرة**﴾ في الوجوه، وهي البهجة والحسن ﴿**وسروراً**﴾ في القلوب.

[١٣] ﴿**وجزاهم**﴾ أي كافأهم وأعطاهم جزاءً ﴿**بما صبروا**﴾ أي بسبب صبرهم ﴿**جنة وحريراً**﴾ مكاناً للسكنى، ولباساً وأثاثاً.

[١٤] في حال كونهم ﴿**متكئين**﴾ أي مستريحين ﴿**فيها**﴾ أي في الجنة ﴿**على الأرائك**﴾ جمع أريكة، وهي سرير العروس في الحجلة ﴿**لا يرون فيها**﴾ أي في تلك الجنة ﴿**شمساً**﴾ تحرقهم ﴿**ولا زمهريراً**﴾ أي برداً يؤذيهم.

[١٥] ﴿**ودانية عليهم ظلالها**﴾ يعني أن ظل أشجار الجنة قريبة منهم فإن الضياء الموجود هناك وفيه شيء من الحرارة محجوب بالأشجار وحيطان القصور والسقوف، ويكون الهواء في ظلالها أهنأ وأطيب، وإنما جعل كذلك لتطلب الإنسان تغيير الهواء من الظل إلى الحر،

وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴿١٥﴾ وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَاْ ﴿١٦﴾ قَوَارِيرَاْ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٧﴾ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا

وبالعكس، و «دانية» حال عطف على «متكئين» ﴿**وذللت قطوفها**﴾ جمع قطف وهو الثمرة ﴿**تذليلاً**﴾ أي سهلت أخذ ثمارها باليد، لقربها ونضجها فتقطف بسرعة.

[١٦] ﴿**ويطاف عليهم**﴾ والطائف هم الوالدان المخلدون ﴿**بآنية**﴾ أي ظرف كأنها الإبريق ونحوه مما فيه الماء ﴿**من فضة**﴾ لعل فيها الشراب ﴿**وأكواب**﴾ جمع كوب، وهو القدح الصغير، وذلك لصب الشراب من الآنية في الأكواب لتناول الناس الأبرار ﴿**كانت**﴾ تلك الأكواب ﴿**قواريرا**﴾ أي زجاجات.

[١٧] ﴿**قواريرا من فضة**﴾ فهي من زجاجة بلون الفضة لتجمع بين اللذتين في المشاهدة.

قال الصادق عليه السلام: ينفذ البصر في فضة الجنة كما ينفذ الزجاج(١). أقول: فهي جامعة بين صفاء الزجاجة وشفيفها وبياض الفضة ولينها ﴿**قدروها**﴾ أي قدروا تلك الأكواب ﴿**تقديراً**﴾ كأنها صنعت بـ «الماكنة» في توحيد أشكالها ومزاياها، لا كالأواني المصنوعة باليد التي يراها الإنسان مختلفة تنبو عنها العين لاختلافها.

[١٨] ﴿**ويسقون فيها**﴾ أي في الجنة، والفاعل هم الأبرار المقدم ذكرهم ﴿**كأساً**﴾ أي شراباً في الكأس ـ بعلاقة الحال والمحل ـ ﴿**كان مزاجها**﴾

---

(١) بحار الأنوار: ج٨ ص١١١.

زَنجَبِيلًا ﴿١٨﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ﴿١٩﴾ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢١﴾ عَٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ

أي مزج بشرابها ﴿**زنجبيلا**﴾ أي ما يشبه الزنجبيل في الطعم وهو عقار معروف كانوا يخلطونه بالشراب ـ كما تقدم ـ.

[١٩] ﴿**عيناً**﴾ بدل من زنجيل، أو منصوب على تقدير الفعل كما ذكر سابقاً ﴿**فيها**﴾ أي في الجنة ﴿**تسمى سلسبيلاً**﴾ فالشراب الممزوج بالزنجبيل يؤخذ من تلك العين، وسميت «سلسبيلاً» لسيلانه في الأنهار عذباً صافياً رقراقاً، أو لأنه سائغ في الخلق لصفائه وخفته، فلا يتوهم أن الزنجبيل يوجب لذعاً وحرقة.

[٢٠] ﴿**ويطوف عليهم ولدان مخلدون**﴾ معنى الطواف هو الذهاب من عند هذا إلى ذاك إلى ذلك، وهكذا حتى يرجع إلى الأول، و «الولدان» جمع ولد، ومعنى مخلدون باقون في الجنة إلى الأبد، وهم قسيم للحور، فهم أولاد وتلكم بنات ﴿**إذا رأيتهم**﴾ أيها الإنسان ﴿**حسبتهم**﴾ أي ظننتهم ﴿**لؤلؤاً منثوراً**﴾ لصفاء ألوانهم وبريقها، وتفرقهم هنا وهناك يشبههم باللؤلؤ غير المنظوم، لانتشارهم في الخدمة.

[٢١] ﴿**وإذا رأيت**﴾ يا رسول الله، أو أيها الرائي ﴿**ثم**﴾ أي الجنة، فإن ثم بمعنى هنالك ﴿**رأيت نعيماً وملكاً كبيراً**﴾ أي وسيعاً، فإنه يعطي لأقل أهل الجنة منزلة من القصور والجنان ما يكفي لأن يضيف الثقلين في ضيافة واحدة.

[٢٢] ﴿**عاليهم ثياب سندس خضر**﴾ أي يعلوهم، والمراد يلبسون ثياباً

وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوٓاْ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴿٢٢﴾ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا ﴿٢٣﴾ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ

سندساً، وهو الحرير الأخضر الرقيق، ﴿**وإستبرق**﴾ وهو الحرير الخشن والرقيق أنعم للبدن، والخشن أجمل في المنظر ﴿**وحلّوا**﴾ أي يحلّون بالزينة ﴿**أساور من فضة**﴾ جمع سوار، وهو ما يلبس في اليد من الحلي، والفضة هنا أثمن من الذهب ـ كما قالوا ـ وقد كانت العادة في الملوك والكبراء لبس السوار ﴿**وسقاهم ربهم شراباً طهوراً**﴾ فليس كشراب الدنيا نجساً أو موجباً للرذيلة من السكر ونحوه.

[٢٣] ويقال لهم: ﴿**إنّ هذا**﴾ النعيم الذي أنتم فيه ﴿**كان لكم جزاءً**﴾ على إيمانكم وأعمالكم الصالحة، «وكان» لمجرد الربط ﴿**وكان سعيكم**﴾ وتعبكم في الدنيا ﴿**مشكوراً**﴾ شكره الله سبحانه وقدره، ولذا جزاكم بهذا الثواب.

[٢٤] ثم يأتي السياق ليسلي النبي صلى الله عليه وآله وسلم عما يلاقيه من الأذى في سبيل الدعوة إلى مثل هذه الجنات، بعدما بين جزاء العالمين ﴿**إنا نحن نزلنا عليك**﴾ يا رسول الله ﴿**القرآن تنزيلاً**﴾ والتأكيد بـ «نحن» لدفع كلمات الكفار حول القرآن، بأنه كهانة أو شعر أو يعلمه بشر، أو ما أشبه ذلك.

[٢٥] ﴿**فاصبر**﴾ يا رسول الله في تبليغ القرآن ﴿**لحكم ربك**﴾ بأن تبلغ رسالاته في وسط هذا الموج العاتي من الإنكار والإيذاء والاستهزاء

وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٥﴾ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٦﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴿٢٧﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ

﴿**ولا تطع منهم**﴾ أي من هؤلاء ﴿**آثماً**﴾ أي عاصياً ﴿**أو كفوراً**﴾ أي كافراً، يعني لاتطع الآثم في إثمه ولا الكفور في كفره، بأن لا تبلغ الأصول أو الفروع إطاعة لها وجلباً لرضائها فقد ورد أن أبا جهل نهى الرسول عن الصلاة، كما أن عتبة والوليد قالا له ﷺ: ارجع عن هذا الأمر ونحن نرضيك بالمال والتزويج[1]. والآية عامة تشمل كل كافر يأمر بالكفر وآثم يأمر بالإثم.

[٢٦] ﴿**واذكر**﴾ يا رسول الله ﴿**اسم ربك**﴾ بالذكر والدعاء والصلاة ﴿**بكرة**﴾ أي صباحاً ﴿**وأصيلاً**﴾ أي عصراً، يعني استمر على شأنك والدعاء إليه في طرفي النهار.

[٢٧] ﴿**ومن الليل**﴾ أي بعض الليل ﴿**فاسجد له**﴾ أي لله سبحانه والمراد بالسجود الصَّلاة والعبادة، أي اخضع لله سبحانه ﴿**وَسَبِّحْهُ**﴾ أي سبح الله ونزهه عما لا يليق به ﴿**ليلاً طويلاً**﴾ فإن الليل ربيع العباد يتخذون طوله وسيلة للضراعة والاستكانة، فإن الخواطر الكامنة لا تجيش إلا بطول الضراعة والابتهال. وقد ورد أن «بكرة» لصلاة الصبح و «أصيل» للظهرين و «اسجد له» للعشائين و «سَبِّحْهُ» لصلاة الليل.

[٢٨] ﴿**إن هؤلاء**﴾ الكفار الذين تراهم معرضين عن الله مقبلين على شهواتهم ﴿**يحبون العاجلة**﴾ أي الدنيا والشهوات العاجلة ﴿**ويذرون**﴾

(١) عين العبرة: ص٦٠ .

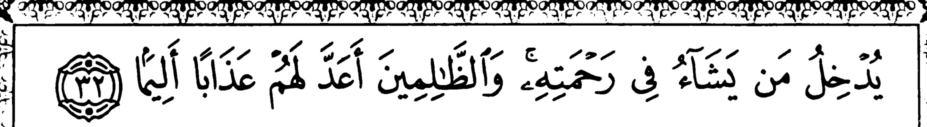
وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴿٢٨﴾ نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٣٠﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣١﴾

أي يتركون ﴿**وراءهم**﴾ في مستقبلهم ﴿**يوماً ثقيلاً**﴾ هو يوم القيامة الذي يثقل على الإنسان لما فيه من الأهوال والشدائد، فلا يعملون لذلك اليوم.

[٢٩] إنهم يكفرون بالله الذي خلقهم وأعناقهم بيده ﴿**نحن خلقناهم**﴾ من العدم ﴿**وشددنا أسرهم**﴾ أي أحكمنا خلقهم، بتنظيم الأجهزة، فإن «الأسر» أصله الشد، ومنه سمي الأسير أسيراً، لأنه يشد بالحبال، فالمعنى أحكمنا شدهم في الخلقة، بحيث لا ينفصم جزء من جزء، بل الأجزاء كلها متماسكة مترابطة ﴿**وإذا شئنا بدلنا أمثالهم**﴾ مكانهم ﴿**تبديلاً**﴾ بأن أهلكنا هؤلاء وجئنا بدلهم مكانهم.

[٣٠] ﴿**إن هذه**﴾ السورة، أو هذه العظات والعبر المذكورة في القرآن ﴿**تذكرة**﴾ تذكر الناس بما أودع في فطرتهم، وإلفات لهم نحو الكون وآياته ﴿**فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلاً**﴾ أي مضى في طريق مرضاته سبحانه، بعدما رأى الحق، وميّز بين الصدق والكذب.

[٣١] ﴿**وما تشاؤون**﴾ أنتم أيها البشر الإيمان والهداية، ﴿**إلا أن يشاء الله**﴾ بأن يرسل الرسول ويوضح الطريق، إذ الهداية لها طرفان: طرف من جانبه بنصب الأدلة، وطرف من جانبكم بالاتباع والاهتداء ﴿**إن الله كان عليماً**﴾ بمصالحكم ﴿**حكيماً**﴾ فيما يفعل، فإن الحكمة وضع



الأشياء موضعها، والله لا يفعل شيئاً إلا بالحكمة والمصلحة.

[٣٢] ﴿**يدخل من يشاء في رحمته**﴾ أي في سعادة الدنيا والآخرة وليس الإدخال اعتباطاً بل إنما يدخل سبحانه عباده الصالحين ﴿**والظالمين**﴾ الذين ظلموا أنفسهم بالكفر أو العصيان ﴿**أعدّ**﴾ أي هيأ سبحانه ﴿**لهم عذاباً أليماً**﴾ أي مؤلماً موجعاً، في الدنيا بعيشة ضنك وفي الآخرة بالنار والنكال.



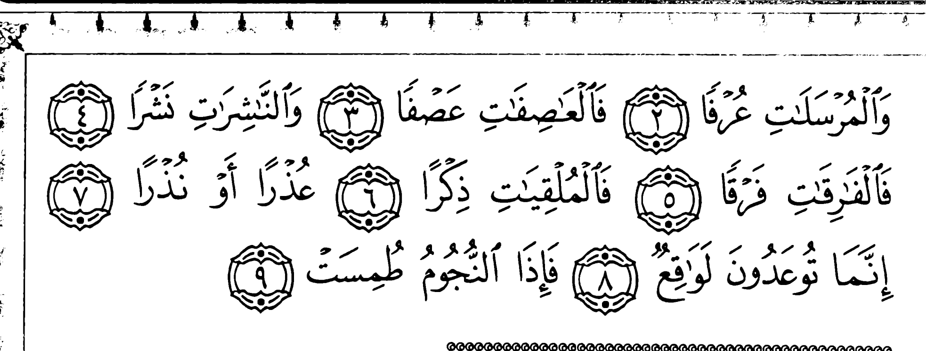
سُورة المُرسلات

مكيّة/آياتها (٥١)

سميت هذه السورة بهذا الاسم لاشتمالها على لفظة «المرسلات»، وهي كسائر السور المكية تعالج قضايا العقيدة في أصولها، وحيث ختمت سورة «الإنسان» بذكر القيامة، افتتحت هذه السورة بمثل ذلك.



[١] ﴿**بسم الله الرحمن الرحيم**﴾ نشرع في السورة باسم الله الذي هو الإله بالحق، وما دونه باطل، الرحمن الرحيم الذي يعطي كل شيء خلقه، ويهديه إلى مصالحه، ويهيئ له المستقبل الحسن، فإن «الرحمن» وما من قبيله من الصفات لا بد وأن يراد بها نتائج هذه الصفات لاستحالة أمثالها في حقه تعالى بمعناها الجاري في حقنا.



[٢] ﴿والمرسلات﴾ أي قسماً بالملائكة التي أرسلت إرسالاً ـ إلى الأرض ـ ﴿عرفاً﴾ أي في حال كونهم كعرف الفرس في تواليه وتتابعه، وهو شعرها النابت على رقبتها.

[٣] ﴿فالعاصفات﴾ أي ثم قسماً بالملائكة التي تعصف عصف الرياح في امتثال أمره سبحانه ﴿عصفاً﴾ مصدر تأكيدي.

[٤] ﴿و﴾ قسماً بـ ﴿الناشرات﴾ أي الملائكة التي تنشر الكتب وتبسطها، أو تنشر الآجال والأرزاق وما أمر الله بنشره ﴿نشراً﴾ مصدر تأكيدي، وأن الإتيان بـ «الواو» للتفنن الذي هو من أنواع البلاغة.

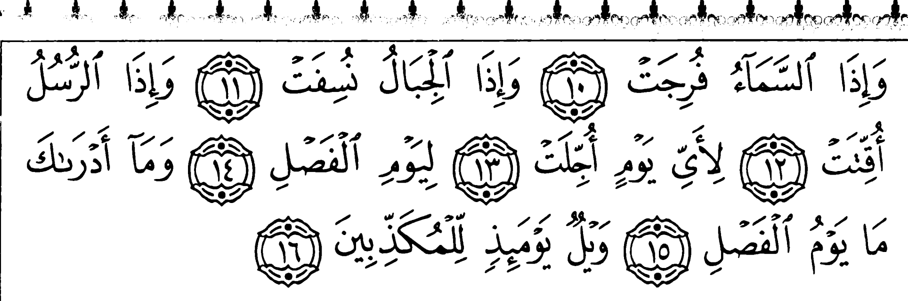
[٥] ﴿فالفارقات﴾ أي قسماً بالملائكة التي تفرق بين الأشياء بأمر الله سبحانه ﴿فرقاً﴾ مصدر تأكيدي.

[٦] ﴿فـ﴾ قسماً بالملائكة ﴿الملقيات ذكراً﴾ أي تلقي الذكر إلى الأنبياء عليهم السلام من قبل الله سبحانه.

[٧] ﴿عذراً أو نذراً﴾ أي لأجل إعذار الله سبحانه، وإنذاره للبشر على كفرهم وعصيانهم.

[٨] قسماً بهؤلاء الطوائف من الملائكة ﴿إن ما توعدون﴾ من أحوال القيامة والجنة والنار ﴿لواقع﴾ أي يقع لا محالة فلا خلف فيه.

[٩] ثم بين علامة القيامة بقوله: ﴿فإذا النجوم طمست﴾ أي ذهب نورها



حتى صارت بلا ضياء أو نور.

[١٠] ﴿وإذا السماء فرجت﴾، أي شقت وصدعت فصار فيها فروج وشقوق، لاختلال نظام المدارات.

[١١] ﴿وإذا الجبال نسفت﴾ أي قلعت من أماكنها، وصارت كالهباء سائرة في الفضاء.

[١٢] ﴿وإذا الرسل أُقتت﴾ أي جمعت لوقتها في القيامة لتشهد على الأمم، وهو من الوقت، وإنما تبدل الواو همزة لكراهة ضم الواو - كما قالوا -

[١٣] ﴿لأي يوم أُجلت﴾ هذا حكاية عن الحال، أي أن الحالة تقتضي أن يقال فيها: لأي يوم أجلت وأخرت الرسل؟ ولماذا يراد جمعهم وهذا تعظيم لليوم وتعجيب من هوله.

[١٤] ويأتي الجواب ﴿ليوم الفصل﴾ الذي يفصل فيه بين أهل النار وأهل الجنة، والسعداء والأشقياء.

[١٥] ﴿وما أدراك﴾ أيها الإنسان، أو يا رسول الله ﴿ما يوم الفصل﴾ أي لاتدري أنت حقيقة هذا اليوم الهائل، وهذا تعبير للتهويل والاستعظام.

[١٦] ﴿ويل﴾ وهي كلمة تقال عند الهول والشدة المتوجهة على أحد ﴿يومئذ﴾ أي في يوم القيامة ﴿للمكذبين﴾ الذين يكذبون بالله ورسوله والمعاد.

أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ (١٧) ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْآخِرِينَ (١٨) كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ (١٩) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (٢٠) أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ (٢١) فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ (٢٢) إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ (٢٣)

---

[١٧] ثم يأتي السياق لإنذار المكذبين بأنهم في معرض العذاب في الدنيا قبل الآخرة ﴿**ألم نهلك**﴾ الأمم ﴿**الأولين**﴾ الذي كذبوا أنبياءهم؟

[١٨] ﴿**ثم نتبعهم**﴾ أي أتبعنا الأولين بـ ﴿**الآخرين**﴾ فأهلكنا الأمم الآخرين أيضاً لما كذبوا الرسل؟ والأولون كقوم نوح وعاد وثمود، والآخرون كقوم لوط وفرعون وقومه.

[١٩] و ﴿**كذلك**﴾ أي إهلاكاً كإهلاك أولئك ﴿**نفعل بالمجرمين**﴾ الذين أجرموا بالكفر والعصيان، فإن العذاب ينزل بهم، وهذا تهديد لكفار مكة.

[٢٠] ﴿**ويل يومئذ**﴾ أي في يوم القيامة ﴿**للمكذبين**﴾ الذين يكذبون بالله وآياته وسائر الأصول.

[٢١] ثم يأتي السياق لبيان جملة من نعم الله على البشر ليشكروه، بعدما هددهم ليخافوا منه ﴿**ألم نخلقكم**﴾ أيها البشر ﴿**من ماء مهين**﴾ أي النطفة التي هي «مهين» أي حقير ذليل، من هان بمعنى ذلّ؟

[٢٢] ﴿**فجعلناه**﴾ أي جعلنا ذلك الماء بعد خروجه من الصلب والترائب ﴿**في قرار**﴾ أي مستقر ﴿**مكين**﴾ أي مستحكم، والمراد به الرحم.

[٢٣] ﴿**إلى قدر معلوم**﴾ أي مقدار من الزمان معين، وهو مدة الحمل.

فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ ﴿٢٤﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٥﴾ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٦﴾ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا ﴿٢٧﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ شَٰمِخَٰتٍ وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا ﴿٢٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٩﴾ ٱنطَلِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٣٠﴾

[٢٤] ﴿**فقدرنا**﴾ على ذلك ﴿**فنعم القادرون**﴾ نحن إذ نقدر على كل شيء، وبعد هذا هل ينكر الكافر قدرتنا على البعث وإعادة الأجسام بعد مماتها؟

[٢٥] ﴿**ويل يومئذ**﴾ أي في يوم القيامة ﴿**للمكذبين**﴾ وتكرار هذه الجملة للتركيز والإيحاء كما سبق في سورة «الرحمن» وغيرها.

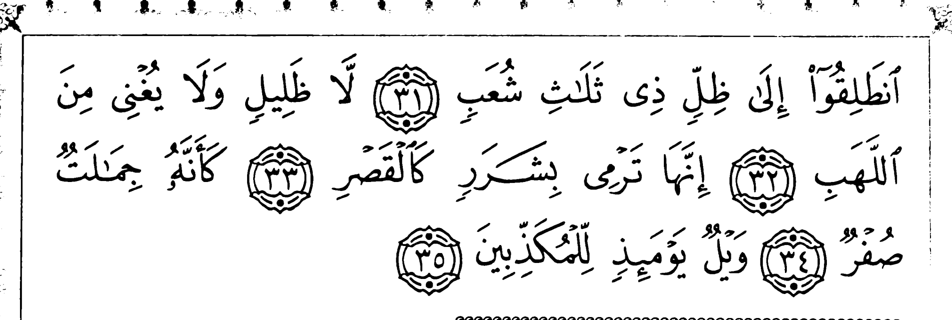
[٢٦] ﴿**ألم نجعل الأرض كفاتاً**﴾ يقال كفت الشيء: إذا ضمَّه، أي ضامة للعباد تكفتهم وتشمل عليهم.

[٢٧] ﴿**أحياءً وأمواتاً**﴾ فتشمل أحياءهم بالبناء والزرع وسائر لوازم الحياة، وتشمل أمواتهم في بطنها.

[٢٨] ﴿**وجعلنا فيها**﴾ أي في الأرض ﴿**رواسي**﴾ جمع راسية، وهي الجبل الشامخ ﴿**شامخات**﴾ أي عاليات مرتفعات تحفظ الأرض عن التصدع والانهيار والتفرق في الهواء ﴿**وأسقيناكم**﴾ أيها البشر ﴿**ماءً فراتاً**﴾ أي عذباً سائغاً؟ أليست كل هذه النعم شاهدة على إله واحد عالم قدير؟ وأليست هذه النعم موجبة لإيمانكم بالله وتصديقكم لرسوله؟

[٢٩] ﴿**ويل يومئذ**﴾ أي في يوم القيامة ﴿**للمكذبين**﴾ بما جاء به الرسول ﷺ، فإنهم يلقون عذاباً ونكالاً.

[٣٠] وإذا قامت القيامة يقال للمكذبين: ﴿**انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون**﴾



أي إلى النار التي كنتم تكذبون بها، وتقولون أنها غير كائنة.

[٣١] ﴿**انطلقوا**﴾ أي اذهبوا أيها الكفار ﴿**إلى ظل ذي ثلاث شعب**﴾ لعل المراد بالظل النار التي فوقها الدخان، وكونه على ثلاث شعب لأنهم كانوا في الدنيا يطوفون بين الكفر والإيمان والنفاق، وقيل: شعبة من فوقهم، وشعبة من يمينهم، وشعبة من يسارهم.

[٣٢] ﴿**لا ظليل**﴾ أي لا يظل صاحبه من الحر ﴿**ولا يغني من اللهب**﴾ أي من لهب النار، وهو ما يعلوها باختلاط الهواء أحمر أو أصفر أو أزرق، فإن هذا الظل ليس كظلال السقوف يمنع الهواء الحار ولهب النار، كما أنهم كانوا يعيشون في الدنيا في ظل الكفر والعصيان.

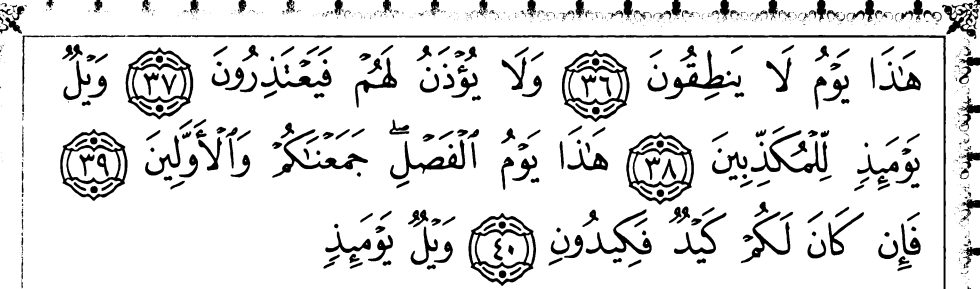
[٣٣] ﴿**إنها**﴾ أي النار ـ التي فهمت من قوله سبحانه (ما كُنتُمْ به تُكَذِّبُونَ)[1] ـ ﴿**ترمي**﴾ أي تطرح وتطير ﴿**بشرر كالقصر**﴾ الشرر هو ما يتطاير من النار لشدة الحرارة، وخفة ذلك الشرر، والقصر هو البيت الجميل من الحجارة، أو أصل الشجر، والأول أظهر، والثاني أنسب.

[٣٤] ﴿**كأنه**﴾ أي الشرر المرمي ﴿**جمالة صفر**﴾ أي أن الشرارة كالجمل الأصفر في لونه، بعد ما كان بقدر القصر في حجمه، والتشبيه بالجمالة لتتابعها وتطايرها كالجمالات التي ترتع هنا وهناك، ونارهن شررها كيف يكون أصلها ومحلها؟

[٣٥] ﴿**ويل يومئذ**﴾ أي يوم القيامة ﴿**للمكذبين**﴾ الذين يكذبون بهذه الأمور

---

(١) المرسلات: ٣٠.



كيف يلقون في النار، ويقاسون العذاب والنكال؟

[٣٦] ﴿**هذا يوم لا ينطقون**﴾ أي المجرمون من شدة الهول والفزع.

[٣٧] ﴿**ولا يؤذن لهم**﴾ في الكلام ﴿**فيعتذرون**﴾ عن سالف أعمالهم وهذا إنما يكون في موقف من مواقف القيامة، وفي موقف آخر يتكلمون ويعتذرون، فللقيامة خمسون موقفاً كل موقف يطول ألف سنة - كما ورد(١).

[٣٨] ﴿**ويل يومئذ**﴾ أي في هذا اليوم ﴿**للمكذبين**﴾ الذين كذبوا بالله وبما أرسل.

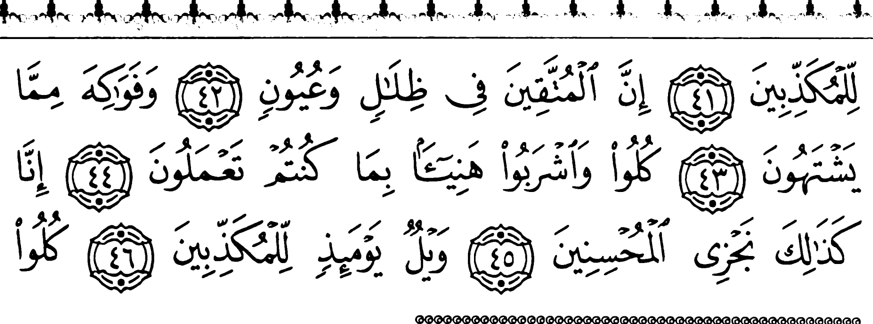
[٣٩] ثم يقال لهم: ﴿**هذا يوم الفصل**﴾ الذي يفصل فيه بين المحسنين والمجرمين، ويدخل كل إلى محله الذي هيأه لنفسه ﴿**جمعناكم**﴾ أيها الكفار ﴿**والأولين**﴾ أي مع المكذبين الأولين السابقين عليكم من سائر الأمم.

[٤٠] ﴿**فإن كان لكم كيد**﴾ في خلاصكم من العقاب ﴿**فكيدون**﴾ أي احتالوا وكيدوا لإنجاء أنفسكم، وهذا استهزاء بهم وتقريع لهم، فقد كانوا يكيدون للمؤمنين في الدنيا، فليكيدوا هنا إن كان لهم كيد وحيلة.

[٤١] ﴿**ويل يؤمئذ**﴾ أي في يوم القيامة، وأصله يوم إذ كان كذا، حذفت

---

(١) مستدرك وسائل الشيعة: ج١٢ ص١٥٥ .



الجملة وقام التنوين مقامها ﴿**للمكذبين**﴾ بهذا اليوم وبسائر ما جاء به الرسل.

[٤٢] وإذا رأينا مقام الكفار، فلننظر إلى مقام الأخيار ﴿**إن المتقين**﴾ الذين اتقوا الكفر والمعاصي ﴿**في ظلال**﴾ من أشجار الجنة، وظلال قصورها ﴿**وعيون**﴾ أي أنهم في أرض بين العيون، أو المراد أنهم يسبحون ويستحمون في نفس العيون.

[٤٣] ﴿**و**﴾ في ﴿**فواكه**﴾ جمع فاكهة، وهي الثمرة أي أن الثمار تحيط من كل جوانبهم ﴿**مما يشتهون**﴾ أي من الأجناس التي يميلون إليها.

[٤٤] ويقال لهم: ﴿**كلوا**﴾ من الثمار ﴿**واشربوا**﴾ من العيون، والمراد بالأمر الإباحة، من قبيل (وإذا حَلَلْتُمْ فَٱصْطَادُوا)[١] ﴿**هنيئاً**﴾ أي أكلاً وشرباً خالياً من الأذى، فإن الهنيء هو النفع الخالص من شائب الأذى ﴿**بما كنتم تعملون**﴾ أي بمقابل أعمالكم الصالحة في الدنيا.

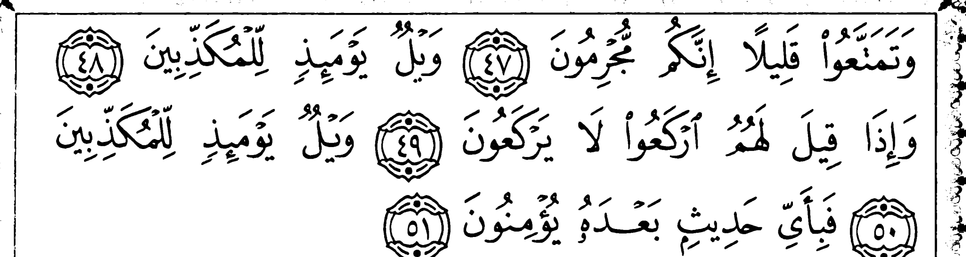
[٤٥] ﴿**إنا كذلك**﴾ أي كالذي ذكرنا من الإنعام والإفضال ﴿**نجزي المحسنين**﴾ الذين أحسنوا بالإيمان والعمل الصالح.

[٤٦] ﴿**ويل يومئذ للمكذبين**﴾ كيف يرون أن هذه النعم أفلتت من أيديهم بسبب أعمالهم الفاسدة في الدنيا، وكم يتحسرون لذلك.

[٤٧] ثم يأتي السياق ليخاطب المجرمين ـ في الدنيا ـ ﴿**كلوا**﴾ أيها الكفار

---

(١) المائدة: ٣.



﴿وتمتعوا﴾ بمتع الحياة الدنيا ﴿قليلا﴾ فإن أمد الدنيا قصير ﴿إنكم مجرمون﴾ وهل من فائدة للأكل والتمتع القليل لمن وراؤه عذاب شديد؟

[٤٨] ﴿ويل يومئذ﴾ أي في يوم القيامة ﴿للمكذبين﴾ الذين كذبوا بالله وبما جاء من عنده.

[٤٩] ﴿وإذا قيل لهم﴾ أي للمكذبين ﴿اركعوا﴾ واخضعوا لله سبحانه، فإن المراد بالركوع إما مطلق الخضوع، أو الركوع كناية عن الصَّلاة ﴿لا يركعون﴾ عناداً واستكباراً.

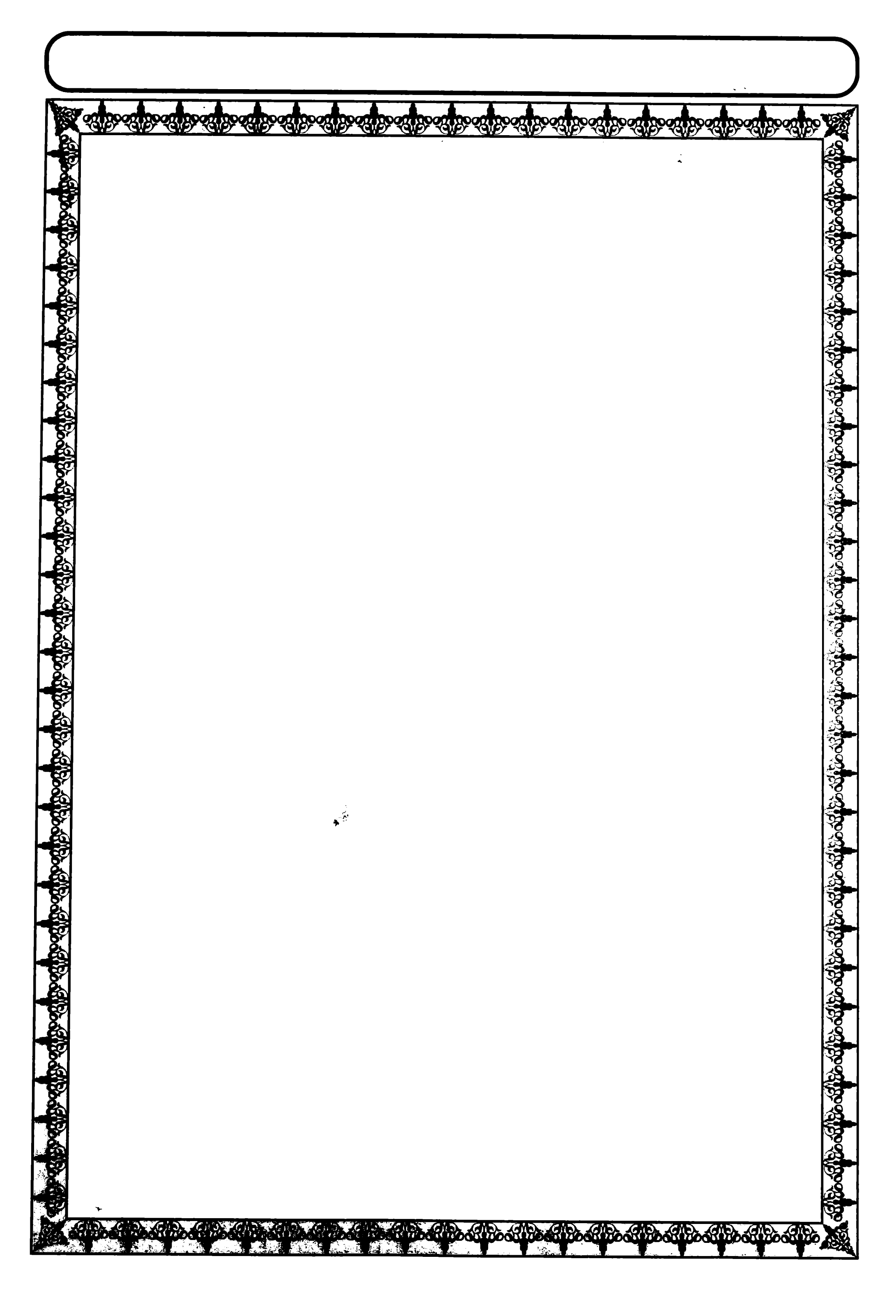
روى أنها نزلت في وفد ثقيف حين أمرهم رسول الله ﷺ بالصلاة فقالوا: لانحني فإن ذلك سبة علينا، فقال ﷺ: لا خير في دين ليس فيه ركوع وسجود[١]. أقول: المراد بـ «لا نحني» أي لا نعطف ظهورنا، فقد استقبحوا رفع عجيزتهم.

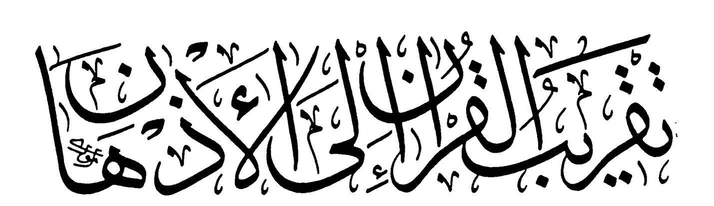
[٥٠] ﴿ويل يومئذ للمكذبين﴾ الذين كذبوا بالأحكام، ولم يصدقوا بالركوع وسائر العبادات، فإنهم يلاقون جزاء ذلك.

[٥١] ﴿فبأي حديث بعده﴾ أي بعد القرآن ﴿يؤمنون﴾ فإنهم إذا لا يؤمنون بالقرآن الذي هو أحسن الحديث من جميع النواحي، فهل هناك رجاء لإيمانهم بشيء آخر؟ كلاّ إنه الشقاء الأبدي الذي يشملهم إن لم يؤمنوا بهذا الكتاب العظيم.

---

(١) بحار الأنوار: ج١٧ ص٥٢ .

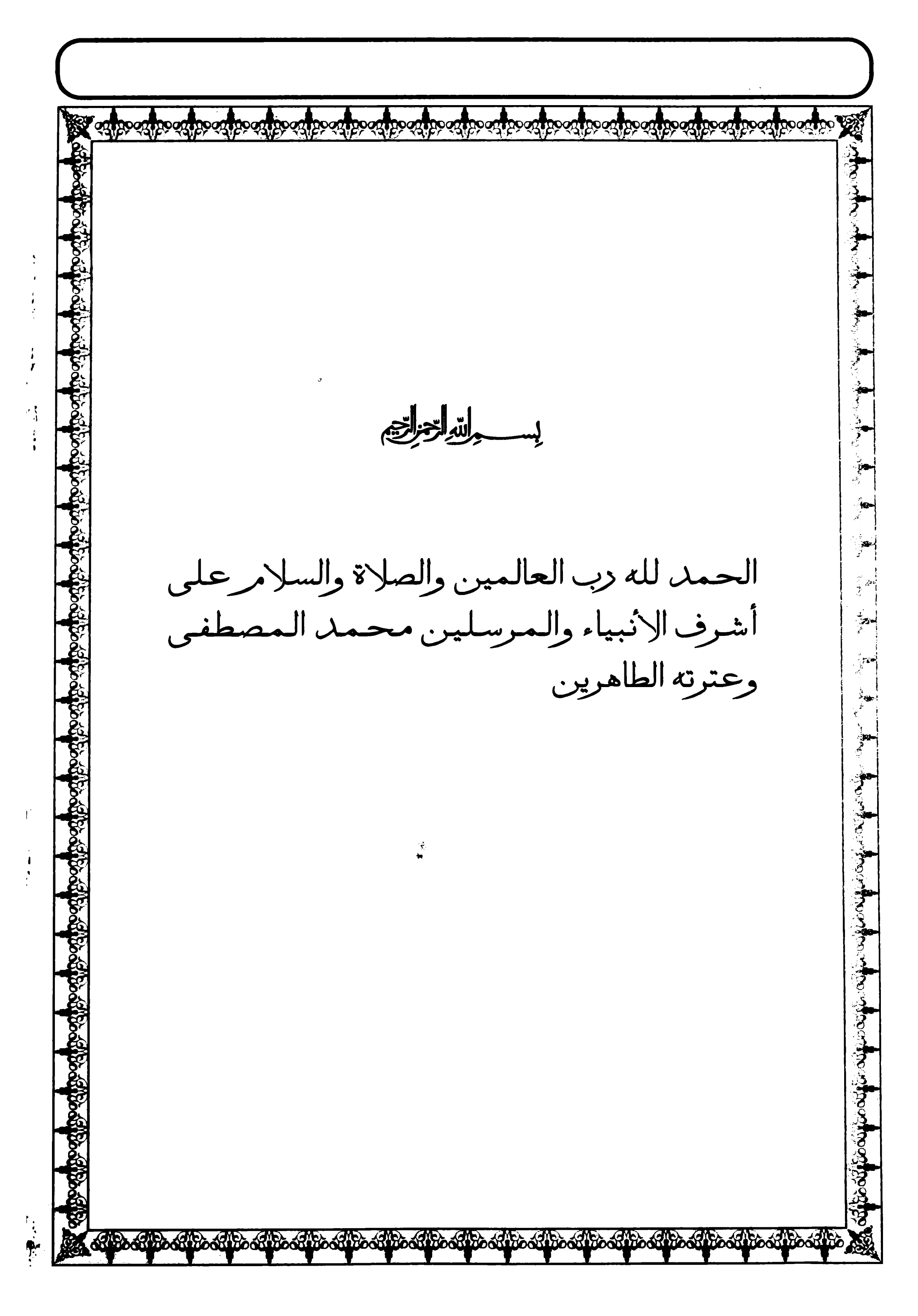




الجزء الثلاثون

من آية (١) سورة النبأ

إلى آية (٧) سورة الناس



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين محمد المصطفى وعترته الطاهرين



سُورة النبأ

مَكيّة/آياتها (٤١)

سميت هذه السورة بسورة النبأ وعم لاشتمالها على لفظة «النبأ» و «عم» وحيث ختمت سورة المرسلات بذكر القيامة ووعيد الكفار بذلك، افتتحت هذه السورة بذلك.



[١] ﴿**بسم الله الرحمن الرحيم**﴾ ابتداء باسم الإله، الذي هو الأول قبل كل شيء، الرحمن الرحيم الذي يرحم العباد بإعطائهم ما يكملهم وبغفران ذنوبهم.

عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢﴾ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ﴿٤﴾

[٢] ﴿عم يتساءلون﴾ أصله «عن ما» مركبة من «عن» الجارة و «ما» الاستفهامية، ثم أدغمت النون في الميم لقرب مخرجهما، وحذفت الألف من «ما» على ما هي القاعدة من حذفها مطلقاً إذا دخل على «ما» حرف الجر، فيقال «بم، ولم، وعم» وهكذا. والمعنى عما ذا يتساءل الكفار بعضهم عن بعض، فقد قال في المجمع قالوا: لما بُعث رسول الله وأخبرهم بتوحيد الله تعالى وبالبعث بعد الموت وتلا عليهم القرآن جعلوا يتساءلون بينهم ـ أي يسأل بعضهم بعضاً على طريق الإنكار والتعجب ـ فيقولون: ماذا جاء به محمد صلى الله عليه وآله وسلم وما الذي أتى به؟ فأنزل الله تعالى «عم يتساءلون»[١].

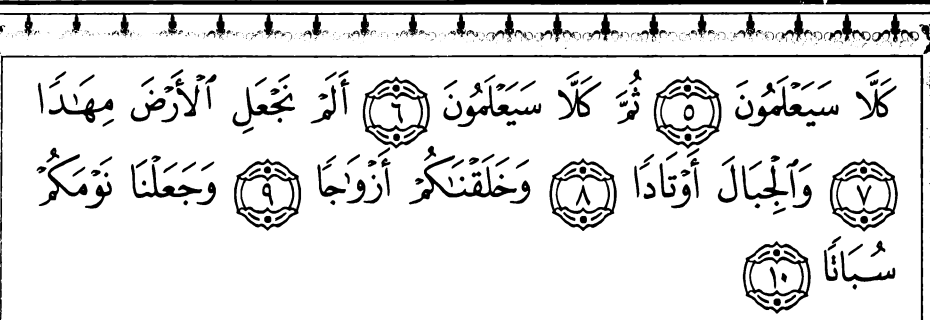
أقول: والمراد بالاستفهام التفخيم، كما تقول: أية قصة هذه؟ إذا أردت تفخيمها، وورد في جملة من الأحاديث: أن المراد بالنبأ العظيم الإمام أمير المؤمنين عليه السلام[٢]، وهذا من باب المصداق ـ إن أريد بالآية الأعم، ومن باب البطون إن أريد بها القيامة فقط.

[٣] ثم جاء الجواب ﴿عن النبأ العظيم﴾ أي الخبر المهم، وهو ما يتعلق بالمبدأ والمعاد.

[٤] ﴿الذي﴾ أي النبأ الذي ﴿هم﴾ أي هؤلاء الكفار ﴿فيه﴾ أي في ذلك النبأ ﴿مختلفون﴾ فمن مصدق له باعتبار كونه من أهل الكتاب أو من أشبههم، ومن مكذب له.

(١) مجمع البيان: ج١٠ ص٢٣٩ .

(٢) الكافي: ج١ ص٢٠٧ .



[٥] ﴿كلا﴾ ليس الأمر كما قالوا وزعموا، حيث أنكروا التوحيد والرسالة والمعاد ﴿سيعلمون﴾ عاقبة تكذيبهم وصدق الرسولﷺ.

[٦] ﴿ثم﴾ لترتيب الكلام ﴿كلا﴾ ليس الأمر كما زعموا ﴿سيعلمون﴾ عند موتهم أو في يوم القيامة: إن الأمر كان كما أخبر الرسول، وإنهم كانوا في ضلال وانحراف، وهذا تهديد بعقب تهديد.

[٧] ثم جاء السياق ليذكر طرفاً من نعمه سبحانه الدالة على وجوده وسائر صفاته، حجة على المنكرين: ﴿ألم نجعل الأرض مهاداً﴾؟ أي وطاءً وقراراً مهيّأً للتصرف، كالمهد الذي يستقر فيه الطفل من غير أذية.

[٨] ﴿و﴾ ألم نجعل ﴿الجبال أوتاداً﴾ جمع «وتد» وهو «المسمار» أي مسامير للأرض حتى لا تتشقق ولا تتبعثر في الهواء من جراء الحركة والجاذبيات، كالوتد الذي يربط بعض ألواح الخشب ببعض حتى لاتنفصم.

[٩] ﴿وخلقناكم﴾ أيها البشر ﴿أزواجاً﴾ جمع «زوج»، وهو الصنف، أي أصنافاً وأشكالاً، باختلاف ألوانكم، وألسنتكم، ومداركم إلى غير ذلك من الاختلافات.

[١٠] ﴿وجعلنا نومكم﴾ أيها البشر ﴿سباتاً﴾ أي قاطعاً للعمل لأجل الاستراحة، ومنه سبت أنفه: إذا قطعه، فمن يا ترى جعل هذه الأمور غير الله سبحانه؟!

وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١٢﴾ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٣﴾ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٤﴾ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا ﴿١٥﴾

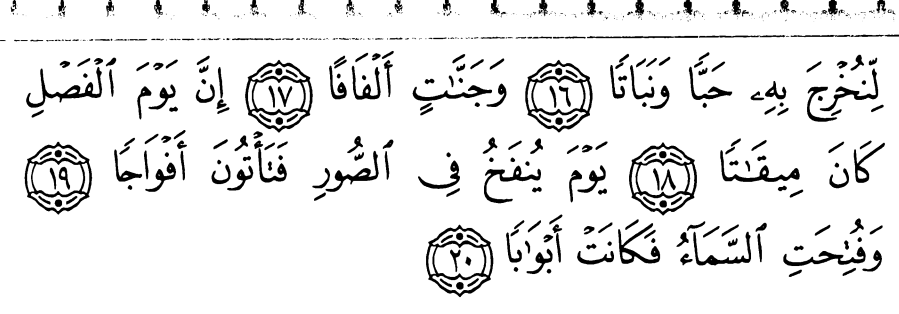
[١١] ﴿**وجعلنا الليل لباساً**﴾ أي غطاءً وسترة يستر كل شيء كما يستر اللباس البدن، وذلك لحكمة الاستراحة والانصراف عن العمل، فإن الليل لو كان مثل النهار لم يهدأ الإنسان ولم يهنأ بالراحة، بالإضافة إلى أن ظلمة الليل تساعد على الراحة والنوم ـ كما قالت الأطباء ـ.

[١٢] ﴿**وجعلنا النهار معاشاً**﴾ المعاش هو العيش، أي وقت العيش تتقلبون فيه لتحصيل أسباب العيش والبقاء، وهذا من الإسناد المجازي، فإن النهار زمان العيش لا نفسه.

[١٣] ﴿**وبنينا فوقكم**﴾ أي خلقنا وصنعنا فوقكم أيها البشر ﴿**سبعاً**﴾ أي سبع سماوات، والمراد بها مدارات الكواكب السيارة، أو ما أشبه ﴿**شداداً**﴾ جمع «شديد» أي محكمة الصنع متقنة الأسلوب والنظام.

[١٤] ﴿**وجعلنا**﴾ في السماوات ﴿**سراجاً**﴾ أي مصباحاً، والمراد به الشمس ﴿**وهاجاً**﴾ أي وقاداً متلألأً بالنور، من «وهج» بمعنى أنار وأضاء.

[١٥] ﴿**وأنزلنا من المعصرات**﴾ بصيغة اسم الفاعل، والمراد بها السحائب، فإنها تعصر نفسها، بما أودع فيها من الطاقات العاصرة حتى تمطر، كالغسالة التي تعصر الثوب حتى تخرج قطرات الماء منه. أو المراد بالمعصرات الرياح التي تعصر السحائب، ومعنى «من» نشوية ﴿**ماءً ثجاجاً**﴾ أي صباباً دفاعاً في الصبابة، من «ثج» بمعنى انصب بكثرة، والمراد المطر الكثير الانصباب.



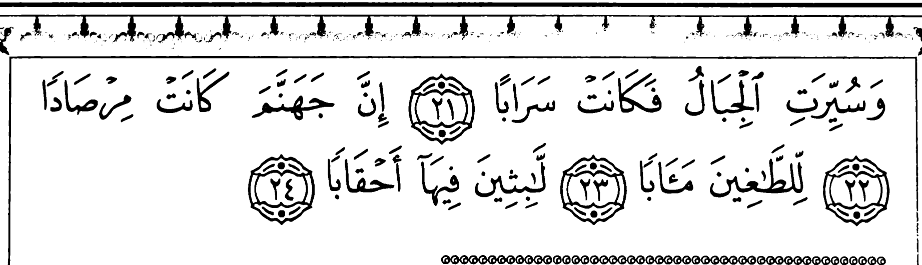
[١٦] وإنَّا أنزلنا المطر ﴿**لنخرج به**﴾ أي بواسطة ماء المطر ﴿**حباً**﴾ كالحنطة ونحوها ﴿**ونباتاً**﴾ كل ما ينبت من أنواع المزروعات.

[١٧] ﴿**و**﴾ نخرج به ﴿**جنات**﴾ أي بساتين ﴿**ألفافاً**﴾ أي ملتفة الشجر، وهو جمع «لف» يراد به الشجر الملتف بعضه ببعض، ويسمى البستان «جنة» لتسترها بالأشجار.

[١٨] ثم يأتي السياق لبيان المعاد، بعدما ذكر جملة من أدلة الألوهية ﴿**إن يوم الفصل**﴾ الذي يفصل فيه بين الخلائق، ليجزي كل إنسان بما عمل من خير وشر، وهو يوم القيامة ﴿**كان ميقاتاً**﴾ أي وقتاً وزماناً لما وعد الله سبحانه من الحساب والجزاء، فإن «الميقات» يستعمل بمعنى الزمان وبمعنى المكان ـ كمواقيت الحج ـ.

[١٩] ثم بين ذلك بقوله: ﴿**يوم**﴾ بدل من «يوم الفصل» ﴿**ينفخ في الصور**﴾ أي البوق، ينفخ فيه إسرافيل لحشر الخلائق وحياتهم بعد الموت، كما ينفخ النافخ في البوق لحركة القافلة أو الجيش أو من أشبه، وهذه هي النفخة الثانية ﴿**فتأتون**﴾ أيها البشر من قبوركم أحياءً ﴿**أفواجاً**﴾ جمع «فوج»، أي جماعات جماعات، كأن كل جماعة تشتمل على المشاكلين في العمل.

[٢٠] ﴿**وفتحت السماء**﴾ أي انشقت وظهرت فيها أبواب ﴿**فكانت**﴾ السماء ﴿**أبواباً**﴾ فإن كلما تتبدل بشكل أبواب تنزل الملائكة منها للحساب



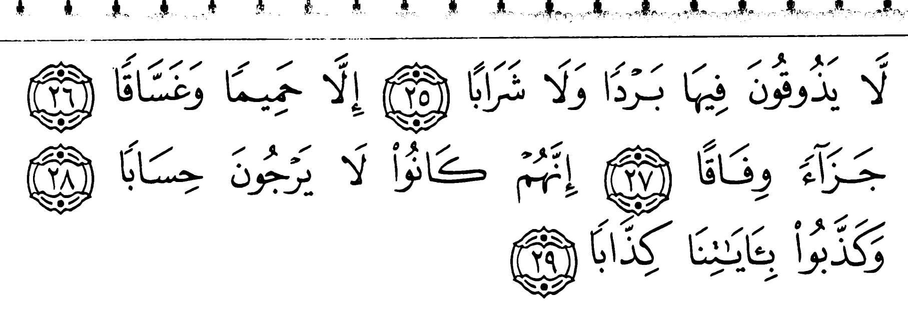
والجزاء وإطاعة الأوامر.

[٢١] ﴿وسيرت الجبال﴾ أي سارت عن أماكنها بعد أن انقلعت وإنما يسيرها الله سبحانه ﴿فكانت﴾ الجبال ﴿سراباً﴾ أي كالسراب ـ الذي هو خيال الماء في الصحراء وقت الظهيرة ـ فإن الجبال إذا رآها الإنسان حسبها جامدة كسابقها، بينما هي صارت كالهباء، ترى شيئاً جامداً وليس بجامد، كالضباب الذي يحسبه البعيد شيئاً وليس بشيء.

[٢٢] ﴿إن جهنم كانت مرصاداً﴾ كالمحل الذي يُرصد فيه لحفظ الدار أو البستان أو ما أشبه، فإنها محل لرصد الملائكة للناس، حيث يرون منها أيّ إنسان يجرم حتى يستحق النار، وأيّاً يُحسن حتى لا يستحقها فإن «المرصاد» هو المكان الذي يراقب فيه العدو.

[٢٣] ﴿للطاغين﴾ أي الذين طغوا وجاوزوا حدود الله سبحانه ﴿مآباً﴾ من «آب» بمعنى رجع، والمراد به المنزل، ويسمى المنزل «مآباً» لأن الإنسان كلما خرج منه رجع إليه.

[٢٤] ﴿لابثين﴾ من «لبث» بمعنى بقى، أي يبقى الطاغون ﴿فيها﴾ أي في جهنم ﴿أحقاباً﴾ جمع «حقب» على وزن عرف، وهو جمع «حقبة»، والمراد بها الزمان الطويل، أي يمكثون في جهنم دهوراً طويلة. وقد روي عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: الأحقاب ثمانية حقب، والحقب ثمانون سنة، والسنة ثلاثمائة وستون يوماً، واليوم (كَأَلْفِ سَنَةٍ



مِّمَّا تَعدُّونَ)[١][٢] أقول: أما المعاند من أهل الباطل فلا مخرج له منها. وأما العصاة فإنهم يخرجون بعد أزمنة طويلة ـ حسب اختلاف عصيانهم ـ.

[٢٥] ﴿لا يذوقون فيها﴾ أي في جهنم ﴿برداً ولا شراباً﴾ فلا هواءٌ باردٌ، ولا طعام بارد، ولا شيء بارد لهم هناك، ولا شراب يشربون ليروى عطشهم المتزايد.

[٢٦] ﴿إلا حميماً﴾ وهو الماء الحار المغلي ﴿وغساقاً﴾ وهو صديد أهل النار، والاستثناء منقطع، أي لا يذوقون إلا الحميم والغساق أما البرد والشراب فليس لهم، أو متصل بقوله «شراباً».

[٢٧] وإنما يجزون بذلك ﴿جزاءً﴾ على كفرهم وعصيانهم ﴿وفاقاً﴾ أي وفق أعمالهم وبقدرها.

[٢٨] ثم يأتي البيان ليبين أعمالهم التي استحقوا بها هذا العذاب:

﴿إنهم كانوا﴾ في الدنيا ﴿لا يرجون حساباً﴾ أي لم يكونوا يتوقعون القيامة، بل كانوا يكذّبون بها، وكأن لفظة «لا يرجون» باعتبار أن كل متوقع لشيء إنما يحتمل النجاح فيه.

[٢٩] ﴿وكذبوا بآياتنا﴾ التي أقمناها على المبدأ والرسالة والمعاد ﴿كذاباً﴾ أي تكذيباً، فلم يكونوا يقبلون الآيات الدالة على الألوهية والرسالة والمعاد.

---

(١) معاني الأخبار: ص٢٢٠.

(٢) الحج: ٤٨.

وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا ﴿٣٠﴾ فَذُوقُوا فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣١﴾ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣٢﴾ حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٤﴾

[٣٠] وهل زعم هؤلاء أن أعمالهم الباطلة لا تأخذهم؟ ﴿**وكل شيء أحصيناه**﴾ أي جميع ماعملوه جمعناه وعددناه وبيناه، ﴿**كتاباً**﴾ أي إحصاءً في الكتاب لا بالقول فقط.

[٣١] وهناك يقال لهم: ﴿**فذوقوا**﴾ هذا العذاب والنكال جزاءً على أعمالكم الباطلة ﴿**فلن نزيدكم إلا عذاباً**﴾ فليس الأمر محتمل النقص والانقطاع، بل تزدادون عذاباً ونكالاً كل يوم وساعة، وذلك باعتبار أن كل يوم يضاف عذاب ذلك اليوم على الأيام السابقة - وإن كان بقدرة في الكيفية -.

[٣٢] وإذا عرفنا أحوال المجرمين في الآخرة فلنتعرف بالمؤمنين ﴿**إن للمتقين مفازاً**﴾ مصدر ميمي، أي أن لهم فوزاً وفلاحاً «والمتقي» هو المؤمن الذي يتقي الله فلا يذنب.

[٣٣] ﴿**حدائق**﴾ بدل من «مفاز» جمع حديقة وهي البستان الصغير المنظم، أو هي الجنة المحوطة بالسور وإن كانت كبيرة، من «حدق» بمعنى أحاط ﴿**وأعناباً**﴾ جمع «عنب» خُصَّ بالذكر مثالاً، ولكثرة الالتذاذ به.

[٣٤] ﴿**وكواعب**﴾ جمع «كاعبة»، وهي المرأة التي استدار ثديها لكونها في أول زمان رشدها ﴿**أتراباً**﴾ جمع «ترب»، عمر الواحدة بعمر الأخرى كأنهم أتراب بعضهن لبعض، أو بعضهن مع أزواجهن، فليس عمر إحداهن أقل من عمر الزوج أو أكثر، ليرى العنت والصعوبة في معاشرتها.

وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٥﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا ﴿٣٦﴾ جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ﴿٣٧﴾ رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَٰنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴿٣٨﴾ يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا

[٣٥] ﴿**وكأساً**﴾ وهو إناء الشراب ﴿**دهاقاً**﴾ أي مملوءة، من «الدهق» بمعنى شدة الضغط، كأنه لا مجال فيها للماء أو الشراب بعد ذلك.

[٣٦] ﴿**لا يسمعون**﴾ أي المتقون ﴿**فيها**﴾ أي في الجنة كلاماً ﴿**لغواً**﴾ لا فائدة فيه ﴿**ولا كذاباً**﴾ أي تكذيباً من بعضهم لبعض.

[٣٧] وإنما يكون المتقون في هذا النعيم الأبدي ﴿**جزاءً من ربك**﴾ يا رسول الله لهم، على أعمالهم الحسنة في الدنيا، في حال كون ذلك الجزاء ﴿**عطاءً حساباً**﴾ أي عطاءً بالحساب، فليس الأمر اعتباطاً.

[٣٨] ثم بين ربك بما يدل على عظمته سبحانه بقوله: ﴿**رب السماوات والأرض وما بينهما**﴾ فكل شيء له خلقاً وتربيةً ﴿**الرحمن**﴾ وجيء بهذا الوصف للدلالة على أنه سبحانه رحيم بعباده يتفضل عليهم بالمغفرة والرحمة، وأنهم إنما استحقوا الثواب برحمته لا بأعمالهم ﴿**لا يملكون**﴾ أي البشر ﴿**منه**﴾ تعالى ﴿**خطاباً**﴾ فلا يقدر أحد أن يكلم الله سبحانه أو يشفع لأحد إلا بإذنه، فهو رحيم ذو هيبة وجلال، وليس كرحيم الدنيا الذي إذا عطف قلبه على أحد يمكن التسلط عليه للين قلبه.

[٣٩] ثم بين معنى «لا يملكون منه خطاباً» بقوله: ﴿**يوم يقوم الروح**﴾ وهو ملك عظيم كما ورد في الأحاديث[١] ﴿**والملائكة صفاً**﴾ كما يصطف

(١) راجع مجمع البيان: ج١٠ ص٢٤٧ .

لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٩﴾ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ﴿٤٠﴾ إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ

الجيش أمام الملك، وذلك مما يزيد القيامة هيبة وهولاً ﴿**لا يتكلمون**﴾ أي أولئك الملائكة والروح، أو أيّ متكلم ﴿**إلا من أذن له الرحمن**﴾ بالكلام، في أي شأن من الشؤون ﴿**وقال صواباً**﴾ وكأن هذا في بعض المواقف، وفي بعض المواقف الأخر يتكلم كل أحد بما يريد من صدق وكذب كما قال سبحانه: (انظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ)[1] أو المراد بالتكلم ـ الشفاعة ـ.

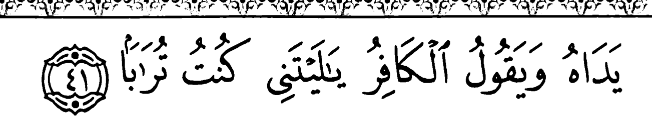
[٤٠] ﴿**ذلك اليوم**﴾ الذي وصف هو اليوم ﴿**الحق**﴾ الكائن لا محالة، فلا كذب في الإخبار به. قالوا: إذا طابق الخبر الواقع فباعتبار كونه مطابقاً للواقع يسمى صدقاً، وباعتبار مطابقة الواقع له يسمى حقاً ﴿**فمن شاء**﴾ منكم أيها الناس ﴿**اتخذ إلى ربه**﴾ أي إلى رضاه وثوابه ﴿**مآباً**﴾، بالإيمان والطاعة، كأن المؤمن اتخذ إلى ربه مآباً، والكافر اتخذ إلى ربه غيره مآباً، حيث يبتعد عن لطفه ورحمته بسبب الكفر والعصيان فليس مآبه إليه.

[٤١] ﴿**إنا أنذرناكم**﴾ أيها الناس ﴿**عذاباً قريباً**﴾ فإن الآخرة قريبة وإن ظنها الناس بعيدة، كما قال سبحانه: (إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيداً * وَنَرَاهُ قَرِيباً)[2].

ثم بيّن وقت ذلك العذاب بقوله: ﴿**يوم ينظر المرء ما قدمت**

(١) الأنعام: ٢٥ .

(٢) المعارج: ٧ و٨ .



يداه﴾ أي يرى جزاء أعماله ويلاقيه. ونسبة التقديم إلى اليد لكونها العضو الفعال في الأمور المرتبطة بالإنسان ﴿**ويقول الكافر يا ليتني كنت تراباً**﴾ لهول ما يرى من العذاب، فإنه يتمنى أن كان في الدنيا تراباً، ولم يكن إنساناً حتى يكفر فيبتلي بذلك العذاب العظيم. لكن تمنيه هناك لا ينفع، كما لاينفع تمني كل مجرم إذا وقع في مخالب الجزاء.



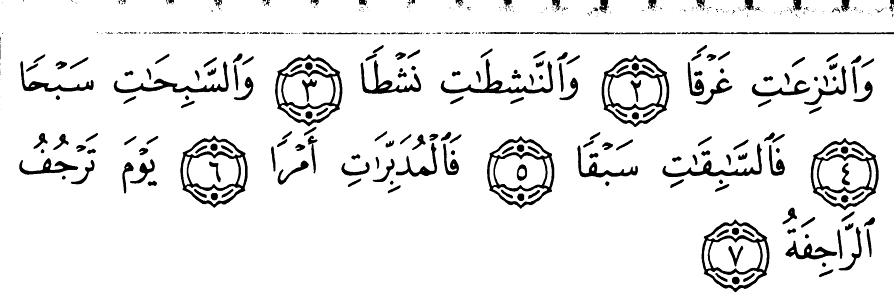
سُورة النازعات

مَكيّة/آياتها (٤٧)

سميت السورة بهذا الاسم لاشتمالها على لفظة «النازعات»، وهي كسائر السور المكية تعالج قضايا العقيدة، أُلوهيةً، ورسالةً، ومعاداً. ولما ختمت سورة النبأ بذكر أحوال القيامة افتتحت هذه السورة بمثل ذلك.



[١] ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ نستعين باسم الله المالك لكل شيء والمتصرف الوحيد في الكون، الرحمن الرحيم الذي يتفضل على العباد بالرحمة المكررة في الدنيا والآخرة.



[٢] ﴿والنازعات﴾ أي قسماً بالنازعات، وهي الملائكة التي تنزع أرواح الكفار عن أبدانهم بشدة ﴿غرقاً﴾ أي إغراقاً في النزع، كما يغرق النازع في القوس فيبلغ به غاية مدّ الوتر.

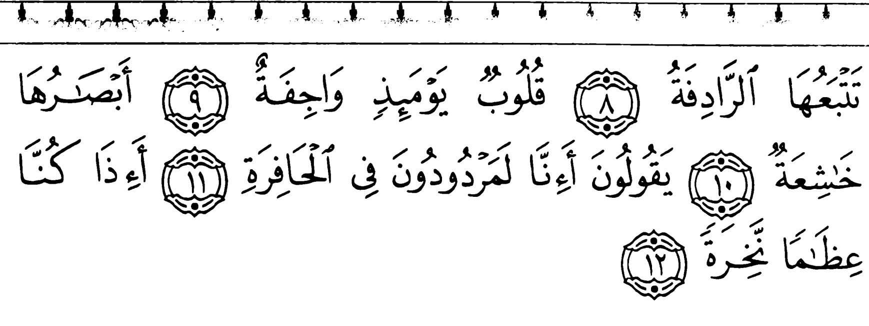
[٣] ﴿والناشطات نشطاً﴾ أي قسماً بالملائكة الناشطات التي تنشط في قبض أرواح الكفار نشاطاً، أو تنشط في الذهاب بأرواحهم نحو الهاوية بعد نزعها.

[٤] ﴿والسابحات﴾ أي قسماً بالملائكة التي تسبح في الفضاء بعد قبض الأرواح، و «السبح» هي الحركة بسهولة كحركة السابح في الماء ﴿سبحاً﴾ مصدر تأكيدي. وروي: أن المراد بذلك الملائكة التي تقبض أرواح المؤمنين يسلّونها سلاً رقيقاً.

[٥] ﴿فالسابقات سبقاً﴾ أي قسماً بالملائكة التي تسبق بالأرواح ـ أو بأرواح المؤمنين ـ نحو الملأ الأعلى، والإتيان بالفاء هنا وبالواو قبله للتفنن في الكلام الذي هو نوع من البلاغة.

[٦] ﴿فالمدبرات أمراً﴾ أي قسماً بالملائكة التي تدبر الأمور بإذن الله سبحانه.

[٧] قسماً بأولئك الطوائف من الملائكة أن ما يأتي من أهوال القيامة وأخبار الجنة والنار صدق مطابق للواقع. وقد حذف هذا في الكلام لدلالة الآيات التالية عليه، أذكر يا رسول الله ﴿يوم ترجف﴾ أي تتحرك وتضطرب ﴿الراجفة﴾ أي الأرض، كما قال سبحانه (يَوْمَ تَرْجُفُ



الأَرْضُ وَالْجِبَالُ)(١).

[٨] ﴿**تتبعها**﴾ أي تتبع رجفة الأرض ﴿**الرادفة**﴾ أي التي تردف وتتبع الأرض في اختلال النظام والاضطراب، وهي السماء، أو المراد بالراجفة النفخة الأولى، وبالرادفة النفخة الثانية.

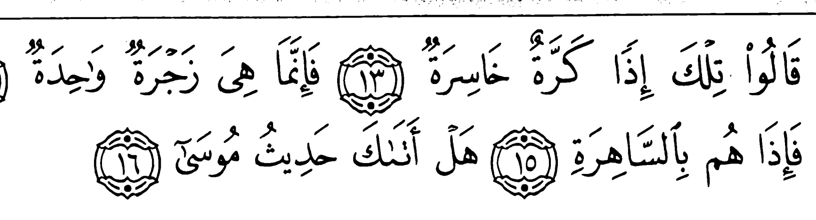
[٩] ﴿**قلوب يومئذ**﴾ أي في هذا اليوم، وهو يوم القيامة ﴿**واجفة**﴾ أي شديدة الاضطراب.

[١٠] ﴿**أبصارها**﴾ أي الأبصار المنسوبة إلى تلك القلوب، أو أبصار أصحابها ﴿**خاشعة**﴾ أي ذليلة، لا تنظر إلا من طرف خفي خشية ورهبة وخوفاً وخجلاً.

[١١] ﴿**يقولون**﴾ أصحاب تلك القلوب ﴿**أإنا لمردودون في الحافرة**﴾ أي الطريقة التي جئنا فيها، فإن «الحافرة» هي الطريقة التي مرّ فيها الإنسان، تسمى بذلك باعتبار أنه حفرها بتأثير أقدامه فيها. وهذا حكاية عن أولئك، حال كونهم في الدنيا حيث يتساءلون: هل نحن نرجع إلى الحياة بعد الموت حتى نكون كالسابق؟ وهذا استفهام إنكاري منهم للمعاد.

[١٢] ﴿**أإذا كنا عظاماً نخرة**﴾ أي وقت كنا عظاماً بالية، من «نخر»: إذا

(١) المزمل: ١٥.



بلى. أي كيف نرجع إلى حالتنا الأولى بعد أن متنا وصرنا عظاماً؟.

[١٣] ﴿**قالوا**﴾ هؤلاء المنكرون للمعاد ﴿**تلك**﴾ أي تلك الرجعة التي تقولون بها أنتم المؤمنون ﴿**إذاً**﴾ أي إذا كانت كما تقولون ﴿**كرة**﴾ أي رجعة إلى الدنيا ﴿**خاسرة**﴾ فإن الإنسان خاسر في تلك الكرة، وإنما أسندت الخسارة إلى الكرة مجازاً، بعلاقة الظرف والمظروف. وقد قال الكفار ذلك على وجه الاستهزاء، لأنهم لم يكونوا يرضون بذلك.

[١٤] وجاء الردّ عليهم بقوله: ﴿**فإنما هي زجرة واحدة**﴾ أي أن الكرة ليست صعبة على الله سبحانه، وإنما الكرة هي صيحة واحدة يصيح بها إسرافيل في الصور ـ في النفخة الثانية ـ وسميت الصيحة «زجرة» لأنها تزجر وتردع المخاطب عن سيره الأول إلى نحو السير الثاني.

[١٥] ﴿**فإذا هم**﴾ أي البشر كلهم ﴿**بالساهرة**﴾ أي راجعون عن بطون الأرض إلى ظاهرها، فإن «الساهرة» هي وجه الأرض، وإنما سميت بذلك لأن الإنسان يسهر عليها ولا ينام ـ إذا كان في صحراء ـ خوفاً من العدو والسبع ـ بعلاقة الحال والمحل، فإن الإنسان يسهر في الأرض، لكن السهر نسب إلى المحل. وفيه إشارة إلى أن المحشر يكون في أرض مستوية كالفلات لا اعوجاج فيها ولا بناء ولا شجر.

[١٦] ثم يأتي السياق ليبين طرفاً من قصة موسى وفرعون ليعتبر الكفار كيف عوقب فرعون لما لم يؤمن ﴿**هل أتاك**﴾ أي هل جاءك وهل سمعت ﴿**حديث موسى**﴾ أي قصته.

إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٧﴾ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٨﴾ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٩﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿٢٠﴾ فَأَرَىٰهُ ٱلْـَٔايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٢١﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٣﴾

---

[١٧] ﴿**إذ**﴾ أي في حين ﴿**ناداه ربه بالوادي المقدس**﴾ أول ما أوحى سبحانه إليه عند مرجعه من «مدين» شعيب إلى أرض مصر ﴿**طوى**﴾ اسم للوادي الذي كلّم الله فيه موسى، وأوحى إليه بالنبوة.

[١٨] قائلاً له ﴿**اذهب إلى فرعون**﴾ الملك الطاغي ﴿**إنه طغى**﴾ أي تجاوز الحد في الكفر والعصيان.

[١٩] ﴿**فقل**﴾ يا موسى له ﴿**هل لك**﴾ طلب بصورة الاستفهام تأدباً ﴿**إلى أن تزكى**﴾ أي هل لك رغبة في أن تسلم، وتطهر نفسك عن الكفر والعصيان؟

[٢٠] ﴿**و**﴾ هل لك أن ﴿**أهديك إلى ربك**﴾ أي أدلك عليه، فإن الإنسان لايعرف مزاياه سبحانه إلا بعد الإرشاد والهداية ﴿**فتخشى**﴾ أي تخشاه باجتناب الكفر والعصيان، إذ الخشية إنما تكون بعد المعرفة.

[٢١] ﴿**فأراه**﴾ أي أرى موسى عليه السلام فرعون ﴿**الآية**﴾ أي المعجزة ﴿**الكبرى**﴾ وهي العصا، أو المراد جنس الآية من جميع آياته التسع.

[٢٢] ﴿**فكذب**﴾ فرعون بالآيات ﴿**وعصى**﴾ موسى فلم يتمثل أمره في الإذعان لله سبحانه.

[٢٣] ﴿**ثم أدبر**﴾ فرعون، أي ولّى الدبر ﴿**يسعى**﴾ ويجتهد ليطلب ما يكسر

فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٤﴾ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٥﴾ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْءَاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ﴿٢٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ ﴿٢٧﴾ ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٨﴾

به حجة موسى، ويبطل به نبوته.

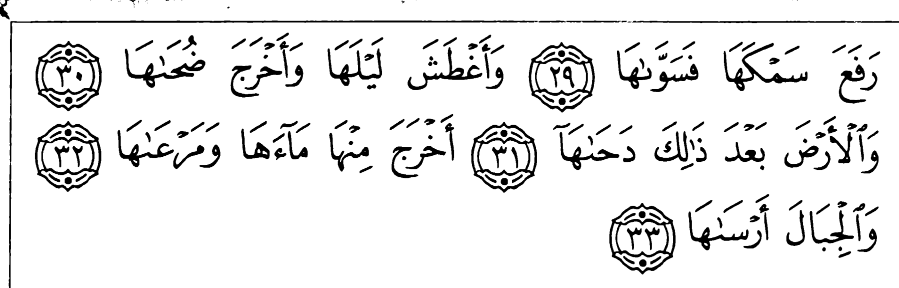
[٢٤] ﴿**فحشر**﴾ فرعون، أي جمع حاشيته وجنوده ﴿**فنادى**﴾ وخطب فيهم.

[٢٥] ﴿**فقال**﴾ لهم: ﴿**أنا ربكم الأعلى**﴾ فإن الأصنام تحت ألوهيتي، وإنما الرب الأعلى ـ الذي لا رب فوقه ـ هو أنا، لا كما يزعم موسى بأن لي إلهاً فوقي.

[٢٦] ﴿**فأخذه الله**﴾ بالعذاب، وهو إغراقه وجنوده في البحر وإدخاله النار ﴿**نكال الآخرة والأولى**﴾ «النكال» هو العقوبة، وهو مصدر تأكيدي، لأن معنى «أخذ» نكل به، أي عاقبه سبحانه عقوبة الآخرة في النار، وعقوبة الأولى بالغرق، أي عذبه بالصنفين من العذاب.

[٢٧] ﴿**إن في ذلك**﴾ النكال الذي حلّ بفرعون ﴿**لعبرة**﴾ أي لعظة واعتباراً ﴿**لمن يخشى**﴾ النكال والعقاب، كي يعتبر به ويعلم أن الكفر عاقبته العقاب والنكال.

[٢٨] وبعدما أَتم قصة فرعون ـ في سرعة موقظة ـ يأتي السياق ليحدد من اعتزاز الكفار بقوتهم أمام أمر الله سبحانه، مبيناً أنهم لا شيء قبال خلق الله سبحانه، فكيف بهم في قبال أمره سبحانه؟ ﴿**أأنتم**﴾ أيها البشر، أو يا كفار مكة ﴿**أشدّ خلقاً**﴾ وأقوى استحكاماً ﴿**أم السماء**﴾ ولا شك أن الجواب: كون السماء أشد. وهذا لا ينافي كون الإنسان ألطف وأدق وأجمل خلقاً، لأن الكلام في الشدة لا في الجمال والدقة ﴿**بناها**﴾ الله



سبحانه، وباني السماء لا يصعب عليه شيء، ولا تعادل قوته قوة.

[٢٩] ﴿**رفع**﴾ الله ﴿**سمكها**﴾ أي سقفها، فإن السُمك هو الارتفاع أي أنه سبحانه رفع كثيراً السماوات في جهة الطول ﴿**فسواها**﴾ أي عدلها بلا شقوق ولا فطور ولا فساد وخلل.

[٣٠] ﴿**وأغطش ليلها**﴾ أي أظلمها ﴿**وأخرج ضحاها**﴾ أي أظهر ضياءها. وإنما نسب الأمران إلى السماء لأنها مصدرهما، بطلوع الشمس وغروبها.

[٣١] ﴿**والأرض بعد ذلك**﴾ أي بعد خلق السماوات وتنظيم أمورها ﴿**دحاها**﴾ أي بسطها، فإنه سبحانه أولاً خلق الأرض غير مدحوة، ثم خلق السماوات، ثم دحى الأرض، و «الدحو» هو البسط، وقد استدلّ علماء الفلك بهذه الآية على حركة الأرض، لأن الدحو هو الرمي المستلزم للحركة، ولذا يقال للإمام أمير المؤمنين عليه السلام «داحي الباب» كذا استدلوا بقوله (أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ كِفَاتاً)[١] من كفت الطير: إذ طار والله العالم.

[٣٢] ﴿**أخرج منها**﴾ أي من الأرض ﴿**ماءها**﴾ بأن فجّر العيون وفلق البحار ﴿**ومرعاها**﴾ أي مروجها التي هي محل رعي الحيوانات والبهائم وذلك بمعنى أنه سبحانه خلق فيها الأعشاب والنبات.

[٣٣] ﴿**والجبال أرساها**﴾ أي أثبتها في أطراف الأرض لئلا تتزلزل

(١) المرسلات: ٢٦ .

﴿مَتَٰعٗا لَّكُمۡ وَلِأَنۡعَٰمِكُمۡ ﴿٣٤﴾ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلۡكُبۡرَىٰ ﴿٣٥﴾ يَوۡمَ يَتَذَكَّرُ ٱلۡإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ ﴿٣٦﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلۡجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴿٣٧﴾ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٨﴾ وَءَاثَرَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ﴿٣٩﴾﴾

الأرض وتضطرب.

[٣٤] وإنما فعل كل ذلك ﴿**متاعاً لكم ولأنعامكم**﴾ أي لأجل تمتعكم ومنفعتكم أنتم البشر، وتمتع أنعامكم بالسكون في الأرض، وتحصيلكم المعايش ورعي البهائم، «وأنعام» جمع نعم، وهي الإبل والبقر والغنم.

[٣٥] ﴿**فإذا جاءت الطامة**﴾ هي القيامة، سميت بذلك لأنها تطم أي تعلو وتغلب على كل شيء، يقال «طم الطائر الشجرة» أي علاها وتسمى الداهية «طامة» لأنها تعلو الشيء وتغلبه ﴿**الكبرى**﴾ لأنها أكبر من كل داهية هائلة.

[٣٦] وذلك ﴿**يوم يتذكر الإنسان ما سعى**﴾ أي ما عمله من خير وشر، فإن الإنسان في ذلك اليوم يتذكر كل عمل عمله إما ذكراً في الخاطر، وإما ذكراً من مطالعة كتابه الذي كتبه الملكان الموكلان به.

[٣٧] ﴿**و**﴾ يوم ﴿**برزت**﴾ أي أظهرت، والمظهر لها هو الله سبحانه ﴿**الجحيم**﴾ هي جهنم ﴿**لمن يرى**﴾ أي لكل من تأتي منه الرؤية، فإنهم يرونها ظاهرة مكشوفة، وجواب «إذا» محذوف، أي كان الناس قسمين، وإنما حذف لدلالة ما بعده عليه.

[٣٨] ﴿**فأما من طغى**﴾ أي تكبر وتجاوز الحد في كفره وعصيانه.

[٣٩] ﴿**وآثر**﴾ أي اختار ﴿**الحياة الدنيا**﴾ على الحياة الآخرة، بأن كانت

فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤٠﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤١﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤٢﴾ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٣﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٤﴾

أعماله للدنيا ولم يعمل شيئاً للآخرة.

[٤٠] ﴿**فإن الجحيم هي المأوى**﴾ له، «والمأوى» من آوى، بمعنى اتخذ المنزل، أي أن مصيره إلى النار الكثيرة ـ فإن الجحيم بمعنى ذلك.

[٤١] ﴿**وأما من خاف مقام ربه**﴾ أي المقام المربوط بالرب تعالى وهو يوم القيامة، والإضافة تشريفية، من قبيل «بيت الله» بمعنى خاف عذاب الآخرة ﴿**ونهى النفس عن الهوى**﴾ أي نهى نفسه وحفظها من أن يتبع هواها ومشتهياتها في ارتكاب المحرمات وترك الواجبات.

[٤٢] ﴿**فإن الجنة هي المأوى**﴾ له، فإنه يصير إليها.

[٤٣] وحيث كان الكلام في القيامة أتى السياق لجواب سؤال الناس عن وقت القيامة ﴿**يسألونك**﴾ يا رسول الله ﴿**عن الساعة**﴾ أي القيامة ﴿**أيان مرساها**﴾ أي متى يكون قيامها، من «الإرساء» وهو الثبوت والاستقرار.

[٤٤] ﴿**فيم أنت**﴾ أي فيما ذا أنت يا رسول الله ﴿**من ذكراها**﴾ أي من تذكر الساعة فإنك لا تعلم وقت قيامها، كأن الإنسان إذا كان داخلاً في شيء علم مزاياه، أما إذا كان خارجاً لا يعلم خصوصياته، و «فيم أنت» للإنكار، أي لست من ذكراها في شيء حتى تعلمها فإنما علمها خاص بالله سبحانه.

إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٥﴾ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ﴿٤٦﴾ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴿٤٧﴾

[٤٥] **﴿إلى ربك﴾** يا رسول الله **﴿منتهاها﴾** أي انتهاء علم الساعة إلى الله سبحانه، فإذا سئل شخص عن الساعة حوّله المسئول عنه إلى غيره وغيره إلى آخر، وهكذا حتى ينتهي إلى الله الذي هو عالم بوقتها، والمنتهى أضيف إلى الساعة، والمراد بها وقتها ـ بعلاقة الملابسة ـ.

[٤٦] وليس علم وقت الساعة مربوطاً بك، فـ **﴿إنما أنت﴾** يا رسول الله **﴿منذر من يخشاها﴾** أي شأنك الإنذار لمن يخشى من الساعة، وإنما خص الإنذار بهم لأنهم المنتفعون بالإنذار دون سواهم.

[٤٧] ثم جاء السياق لينذر الناس ويذكرهم بأن لبثهم في الدنيا قليل حتى **﴿كأنهم﴾** أي الناس **﴿يوم يرونها﴾** أي يرون الساعة، فيما إذا قامت عليهم **﴿لم يلبثوا﴾** أي لم يمكثوا ولم يبقوا في الدنيا **﴿إلا عشية﴾** أي مقدار عصر يوم **﴿أو ضحاها﴾** أو صبح تلك العشية، والمعنى يظنون أنهم لم يكونوا في الدنيا إلا نصف يوم صباحاً أو مساءً.



سُورة عبس

مكيّة/آياتها (٤٣)

سميت السورة بهذا الاسم لاشتمالها على لفظة «عبس»، وهي كسائر السور المكية مشتملة على معالجة قضايا العقيدة، وحيث ختمت سورة «النازعات» بإنذار من يخشى، افتتحت هذه السورة بإنذار شخص خاص.

«عبس وتولى» وقد نزلت هذه السورة في «عثمان بن عفان»، حيث كان عند الرسول مع جملة من أصحابه، فجاء أعمى وجلس قرب عثمان، فعبس عثمان وجهه وتولى عنه وجمع ثيابه، وأقبل على بعض الجالسين الآخرين الذين كان لهم ثراء، فنزلت الآيات[١].

ومن غريب الأمر أن بعض بني أمية المبغضين للرسول ﷺ نسب هذا الأمر إلى الرسول لتبرئة ساحة قريبهم «عثمان» وقال: إن الرسول هو الذي عبس وتولى، مخالفاً بذلك نص القرآن العظيم (وإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ)[٢] و (عَزِيزٌ عَلَيْهِ ما عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بالمؤمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ)[٣] وغيرها.

(١) بحار الأنوار: ج١٧ ص٨٥ .

(٢) القلم: ٥ .

(٣) التوبة: ١٨ .

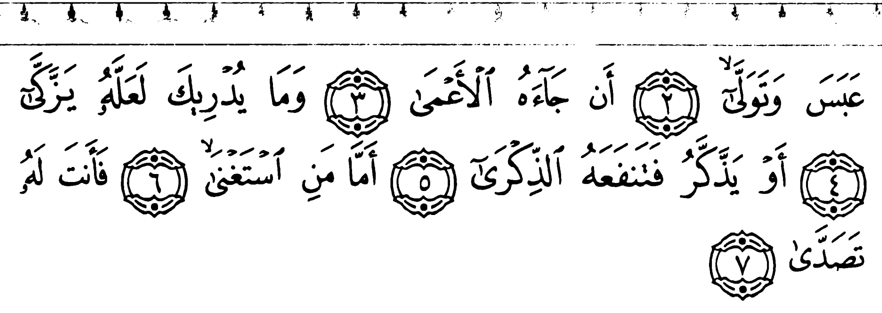
ثم جاء جماعة من الوهابيين فأخذوا يلحسون قصاع الأمويين في نسبة هذه السبة إلى الرسول، بتزويقات وزخارف من القول، وقد صار ذلك حراباً في أيدي الصليبيين في الهجوم على الرسول ﷺ حتى أن بعض كراريسهم كتبت: أيهما خير المسيح أو محمد، فإن الأول كان يبرئ الأعمى - بنص كتابكم ﴿وَأُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ﴾[1] والثاني كان يعبس ويتولى إذا جاءه الأعمى بنص كتابكم؟



[١] ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ ابتداء باسم الإله الذي له ما في السماوات والأرض، فهو أحق بالابتداء باسمه من غيره، إذ هو المبدأ الذي بيده كل شيء، الرحمن الرحيم الذي يرحم العباد، ويتفضل عليهم بما يكمل نقصهم.

---

(١) آل عمران: ٥٠ .



[٢] ﴿عبس﴾ عثمان بن عفان، أي قطّب وجهه ﴿وتولى﴾ أي أعرض.

[٣] ﴿أن جاءه الأعمى﴾ أي بسبب أن جاءه شخص أعمى. قالوا وكان الأعمى ابن أم مكتوم.

[٤] ثم أخذ السياق لتأنيب عثمان بما فعله موجهاً الخطاب معه، كما هو دأب القرآن في توجيه الخطاب إلى الناس، نحو (أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً)(١) ﴿وما يدريك﴾ أيها العابس ﴿لعله يزكى﴾ أي لعل الأعمى يتطهر بالعمل الصالح؟ فيكون الإعراض عنه إثماً، حيث إنه إعراض عن الزاكي الطاهر.

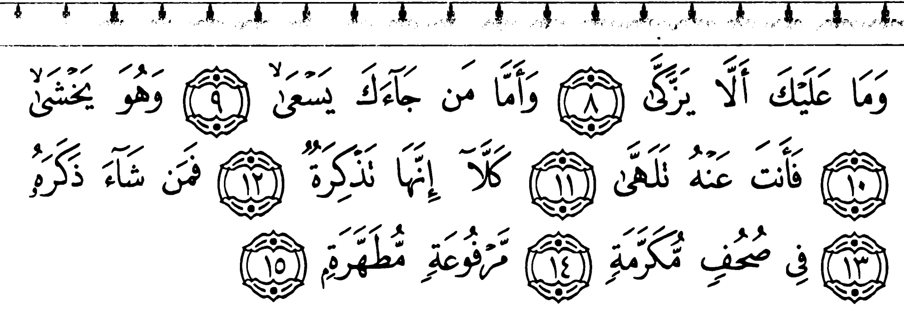
[٥] ﴿أو يذكر﴾ أي يتذكر بسبب الوعظ والإرشاد، أصله «تذكر» ثم أدغمت التاء في الذال لقرب مخرجهما، فجيء بهمزة الوصل لتعذر الابتداء بالساكن ﴿فتنفعه الذكرى﴾؟ والفرق بين الآيتين أن الأولى «زكاة» من نفسه، والثانية «زكاة» بواسطة التذكير.

[٦] ﴿أما من استغنى﴾ أي كان غنياً بالمال، والإيتان من باب الاستفعال، من جهة أن الشخص يطلب الغنى.

[٧] ﴿فأنت﴾ يا عابس ﴿له تصدى﴾ أي تتعرض، أصله «تتصدى» حذفت إحدى تائيه على القاعدة، أي تقبل عليه وتحاوره.

---

(١) النازعات: ٢٨ .



[٨] ﴿وما عليك ألا يزكى﴾ أي لا تبالي هل هو زكي أم لا؟ فإن المال هو الذي يعظم في نفسك لا الدين، ولذا لا تبالي بالدين إذا كان الشخص ذا مال.

[٩] ﴿وأما من جاءك يسعى﴾ ساعياً لأجل الخير والرشد كابن أم مكتوم.

[١٠] ﴿وهو يخشى﴾ الله عزّ وجلّ.

[١١] ﴿فأنت﴾ أيها العابس ﴿عنه﴾ عن ذلك الساعي ﴿تلهى﴾ أي تتلهى ـ على غرار تصدى ـ أي تتغافل وتشتغل بغيره، لأنه فقير معدوم.

[١٢] ﴿كلا﴾ ليس الأمر على ما زعمت: من أن المال خير من الدين ﴿إنها﴾ أي هذه الآيات ﴿تذكرة﴾ مذكرة بالحسن والقبيح الكامن في النفس والفطرة.

[١٣] ﴿فمن شاء﴾ الخير والسعادة ﴿ذكره﴾ أي ذكر ما أودع في نفسه وفطرته، بأن عمل بالوعظ والإرشاد.

[١٤] إن هذه التذكرة هي ﴿في صحف مكرَّمة﴾ عند الله سبحانه، والمراد «بالصحف» اللوح المحفوظ وسائر الألواح الموجودة في الملأ الأعلى.

[١٥] ﴿مرفوعة﴾ في السماء ـ حساً ـ أو معظمة مجللة ـ معنىً ـ ﴿مطهرة﴾ أي منزهة من الخطأ والنقائص وما أشبهها.

بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ﴿١٦﴾ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴿١٧﴾ قُتِلَ الْإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ ﴿١٨﴾ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ﴿١٩﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ ﴿٢١﴾

[١٦] ﴿**بأيدي سفرة**﴾ أي إن تلك الصحف إنما هي بأيدي الملائكة الكرام، فإن «سفرة» جمع «سافر» وهو الكاتب، أو السفير.

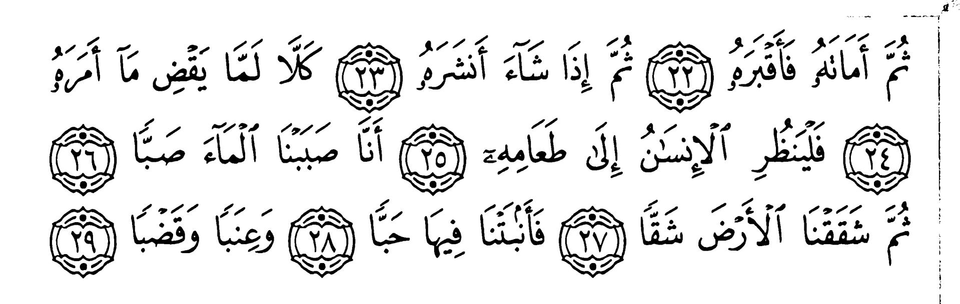
[١٧] ﴿**كرام**﴾ جمع كريم، أي ذوي مقامات رفيعة ﴿**بررة**﴾ جمع «بارّ»، وهو المحسن.

[١٨] ثم يأتي السياق ليتعجب من الكافر كيف يكفر بهذا الكتاب العظيم، المنزل من عند الله سبحانه الذي هو الخالق وبيده أزمّة كل شيء ﴿**قتل الإنسان**﴾ دعاء عليه، أي اللهم أقتله، والمراد به الجنس المنحرف بدلالة القرائن الآتية ﴿**ما أكفره**﴾؟ تعجب من كفره وضلاله بعد وضوح الحجة وتمام المحجة.

[١٩] ﴿**من أيّ شيء خلقه**﴾ الله تعالى؟ أي ألا ينظر إلى أصل خلقه كيف خلقه تعالى من ماء مهين، حتى جعله إنساناً بهذه الغرابة في الدقة والأجهزة والآلات؟

[٢٠] ﴿**من نطفة**﴾ أي قطرة من المني ﴿**خلقه فقدره**﴾ أي قدر مزاياه وخصوصياته من حواسه ومشاعره وآلاته وأجهزته وكمه وكيفه وطوله وعرضه وغير ذلك.

[٢١] ﴿**ثم السبيل يسره**﴾ أي يسر وسهل له سبيل الحياة، بأن هيأ له الأسباب والوسائل وأرشده إلى خيره وسعادته، والأصل يسر له السبيل ثم حذف الجر ـ على قاعدة القطع والتوصيل ـ.



[٢٢] ﴿ثم﴾ بعد أن انتهى أمده في الحياة ﴿أماته﴾ بأن قبض روحه ﴿فأقبره﴾ أي أدخله القبر، وهو المحل الذي يشتمل على جسمه بعد الموت، وإن كان البحر أو نحوه، أو من باب الغلبة.

[٢٣] ﴿ثم إذا شاء﴾ وأراد سبحانه قيام القيامة ﴿أنشره﴾ أي بعثه حياً سوياً.

[٢٤] فهل تراه تهيأ للنشور واستعد لذلك اليوم العظيم بالإيمان والعمل الصالح؟ ﴿كلا﴾ إنه في غفلة وسبات و ﴿لما يقض﴾ أي لم يأت بعد بـ ﴿ما أمره﴾ الله سبحانه من الإيمان والعمل الصالح.

[٢٥] ثم يأتي السياق لتذكير الإنسان بجملة من الآيات الكونية تدليلاً على وجوده سبحانه بالآيات الآفاقية بعد أن ذكره الآيات الأنفسية ﴿فلينظر الإنسان إلى طعامه﴾ الذي يأكله، ليتذكر أصل الخلقة، ومن خلقها، ليرعوي عن غيّه وضلاله.

[٢٦] ﴿أنا صببنا الماء﴾ المطر من السماء ﴿صباً﴾ أي إنزالاً.

[٢٧] ﴿ثم شققنا الأرض﴾ بإخراج النبات منها ﴿شقاً﴾ حتى أن النبات الضعيف خرج من الأرض الصلبة.

[٢٨] ﴿فأنبتنا فيها﴾ أي في الأرض ﴿حباً﴾ أي جنس الحبوب من الحنطة والشعير وأمثالهما.

[٢٩] ﴿و﴾ أنبتنا فيها ﴿عنباً﴾ خُص بالذكر لكثرته ولذته وعظم فائدته ﴿وقضباً﴾ وهو القت الرطب الذي يقضب ويقطع مرة بعد أخرى لعلف الدواب.

وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٣٠﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣١﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣٢﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٣﴾ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٥﴾

---

[٣٠] ﴿**وزيتوناً**﴾ وهو ما يعصر منه الزيت ﴿**ونخلاً**﴾ وهو الشجرة التي تعطي التمر.

[٣١] ﴿**وحدائق**﴾ جمع «حديقة»، وهو البستان المحوّط بالسور أو البستان الصغير ذو الأشجار والأوراد ﴿**غلباً**﴾ جمع «غلباء» وهي الحديقة العظيمة الملتفة الأشجار، كأنه مأخوذ من التغالب، لتغالب أشجارها في الارتفاع للاستفادة من الهواء والضياء.

[٣٢] ﴿**وفاكهة**﴾ أي سائر ألوان الفواكه ﴿**وأبا**﴾ وهو المرعى من الحشيش وغيره الذي يرعاه الحيوان.

[٣٣] وإنما أنبتنا كل ذلك ﴿**متاعاً لكم**﴾ أي لأجل متاعكم وعيشكم ﴿**ولأنعامكم**﴾ أي بهائمكم. قالوا: الفاكهة لكم، والأبّ لأنعامكم.

[٣٤] ثم ينتقل السياق من المبدأ إلى المعاد بقوله تعالى: ﴿**فإذا جاءت الصاخة**﴾ وهي من أسامي القيامة، بمعنى الصاكة، لأنها تصك الأسماع، أي تبالغ في إسماعها، من أصواتها الشديدة، كصوت النفخة، وصوت النار، وأصوات الملائكة، وما أشبه. والجواب محذوف، أي يكون الناس يؤمئذ قسمين، وقد دل على الجواب ما يأتي في قوله «وجوه».

[٣٥] ثم بين وقت مجيئها بقوله: وذلك ﴿**يوم يفر المرء**﴾ أي كل أحد ﴿**من أخيه**﴾ خوفاً بأن يبتلى به، بأن يطلب منه شيئاً، أو يلقى عليه بعض تبعته.

وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٦﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٧﴾ لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُمۡ يَوۡمَئِذٖ شَأۡنٞ يُغۡنِيهِ ﴿٣٨﴾ وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ مُّسۡفِرَةٞ ﴿٣٩﴾ ضَاحِكَةٞ مُّسۡتَبۡشِرَةٞ ﴿٤٠﴾ وَوُجُوهٞ يَوۡمَئِذٍ عَلَيۡهَا غَبَرَةٞ ﴿٤١﴾ تَرۡهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤٢﴾

[٣٦] ﴿وأمه وأبيه﴾ حذراً من أن يكون قصر في حقهما، أو يطالبانه بشيء.

[٣٧] ﴿وصاحبته﴾ أي زوجته، وهو من باب المثال، وإلا فالزوجة أيضاً تفر من زوجها ﴿وبنيه﴾ أي أولاده، والمراد إنه يفر من أعز أقربائه وعشرائه.

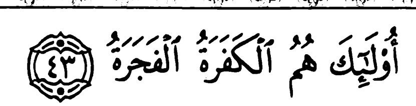
[٣٨] ﴿لكل امرئ منهم﴾ أي من هؤلاء الفارين، أو كل من حضر في القيامة ﴿يومئذ شأن﴾ أي أمر عظيم ﴿يغنيه﴾ عن شؤون غيره لأنه مبتلى بحساب نفسه يشغله عن الاهتمام بالآخرين.

[٣٩] ﴿وجوه يومئذ﴾ أي يوم القيامة، وهي وجوه المؤمنين ﴿مسفرة﴾ أي مشرقة مضيئة، «من أسفر» بمعنى ظهر فإنها تظهر عليها آثار الفرح والسرور.

[٤٠] ﴿ضاحكة﴾ من السرور ﴿مستبشرة﴾ استبشرت بالخير والثواب أي فرحت وتهللت.

[٤١] ﴿ووجوه يومئذ﴾ أي يوم القيامة، والمراد بها وجوه الكفار والعصاة ﴿عليها غبرة﴾ أي سواد وكآبة وحزن، مشتق من الغبار وهو التراب المتصاعد الذي يعلو الأشياء.

[٤٢] ﴿ترهقها﴾ أي تعلو تلك الوجوه وتغشاها ﴿قترة﴾ وهي ظلمة الدخان، فالغبار والدخان وعبوس النفس كلها تظهر على وجوههم، ولا يجليها رضوان الله ورحمته، كما يجلي وجوه المؤمنين، لو فرض



مرورها من محلات القيامة المغبرة.

[٤٣] ﴿**أولئك**﴾ الذين وصفوا بتلك الأوصاف السيئة ﴿**هم الكفرة**﴾ جمع كافر ﴿**الفجرة**﴾ جمع فاجر أي العاصي، يعني أن الكفار والفجار هم الذين تكون على وجوههم غبرة وقترة.



سُورة التكوير

مكية/آياتها (٣٠)

سميت السورة بهذا الاسم لاشتمالها على الفعل من هذا المصدر، وهو قوله «كورت» وهي كسائر السور المكية تبين قضايا العقيدة في أصولها الثلاث، وحيث ختمت سورة «عبس» بذكر القيامة، افتتحت هذه السورة بذكر علاماتها.



[١] ﴿**بسم الله الرحمن الرحيم**﴾ ابتداء باسم الله الذي هو المبدأ لكل شيء، فمنه سبحانه جاء الكون، وإليه مصير الخلق، الرحمن الرحيم بكل شيء خلقاً وتربيةً ولطفاً.

إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتۡ ﴿٣﴾ وَإِذَا ٱلۡجِبَالُ سُيِّرَتۡ ﴿٤﴾ وَإِذَا ٱلۡعِشَارُ عُطِّلَتۡ ﴿٥﴾ وَإِذَا ٱلۡوُحُوشُ حُشِرَتۡ ﴿٦﴾ وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ سُجِّرَتۡ ﴿٧﴾ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتۡ ﴿٨﴾

[٢] ﴿**إذا الشمس كوّرت**﴾ أي ذهب نورها فأظلمت، والتكوير هو اللف، كأن المراد لف ضوؤها، فذهب انبساطها في الآفاق، فتصير سوداء مظلمة.

[٣] ﴿**وإذا النجوم انكدرت**﴾ بأن يذهب نورها وضياؤها، من الكدرة.

[٤] ﴿**وإذا الجبال سيرت**﴾ قلعها الله عن مكانها، وسيرها كالهباء في الفضاء.

[٥] ﴿**وإذا العشار**﴾ وهي النوق الحوامل، جمع «عشراء» وهي الناقة الحامل، والناقة التي وضعت لتمام ﴿**عطلت**﴾ أي تركت هملاً بلا راع ولا محافظ، وذلك كناية عن أن أهوال ذلك اليوم بحيث توجب أن يذهل الإنسان عن أعز ماله.

[٦] ﴿**وإذا الوحوش**﴾ جمع وحش، وهو الحيوان البري الذي لا يأنس، أو مطلق الحيوان ﴿**حشرت**﴾ أي جمعت في ذلك اليوم ليقتص للمظلوم منها من الظالم.

[٧] ﴿**وإذا البحار سجرت**﴾ أي حولت إلى النيران، ومنه تسجير التنور، بإيقاد النار فيه.

[٨] ﴿**وإذا النفوس زوجت**﴾ بأن قرنت كل نفس إلى من يشاكلها فالمؤمن مع المؤمن، والكافر مع الكافر، أو زوجت نفوس المؤمنين بحور العين ونفوس الكافرين بالشياطين، أو زوجت النفوس بالأحباء، بعد

وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ﴿٩﴾ بِأَيِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ ﴿١١﴾ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ﴿١٣﴾ وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ﴿١٤﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ﴿١٥﴾

مفارقتها عنها في حال الموت.

[٩] ﴿**وإذا الموؤدة**﴾ من وئد بمعنى دفن الشيء حياً، فقد كانت العرب تئد البنات خوف الفقر والعار ﴿**سئلت**﴾ أي يسأل عنها.

[١٠] ﴿**بأي ذنب قتلت**﴾؟ يسأل عن الذين وأدوا بناتهم: بأي ذنب صدر منهن قتلتموهن، وهن بريئات لا ذنب لهن؟

[١١] ﴿**وإذا الصحف نشرت**﴾ أي صحائف أعمال الناس تنشر ليقرأها أصحابها ويطلعوا على ما فيها من خير وشر حتى يجازون بما عملوا.

[١٢] ﴿**وإذا السماء كشطت**﴾ الكشط هو القلع عن شدة، كأن السماء جلد يكشط ويقلع عن الكون، وذلك كناية عن تبدل الأنظمة العلوية حتى يرى الإنسان السماء غير السماء كما يرى البدن المكشوط جلده بغير شكله السابق.

[١٣] ﴿**وإذا الجحيم**﴾ أي النار ﴿**سعرت**﴾ أي أوقدت، بأن ترتفع نارها ولهيبها لتشتد وتزداد حرارة وهولاً.

[١٤] ﴿**وإذا الجنة أزلفت**﴾ أي قربت، كأنها في محل بعيد في الفضاء ثم تدنى إلى الأرض التي هي المحشر والموقف، أو المراد قربت إلى المؤمنين قرباً زمانياً.

[١٥] إذا كانت هذه الأمور ﴿**علمت نفس ما أحضرت**﴾ أي عرفت أعمالها

فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ ﴿١٦﴾ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡكُنَّسِ ﴿١٧﴾ وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ﴿١٨﴾ وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٩﴾ إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ﴿٢٠﴾

التي عملتها في دار الدنيا من خير وشر وسعادة وشقاء والتي أحضرتها ليوم القيامة، فإنها تعرف بأعمالها لتجازى عليها.

[١٦] ثم جاء السياق لتثبيت أمر الرسالة وبيان أن القرآن ليس كلام الرسول ﷺ ـ كما يزعم الكفار ـ ﴿**فلا أقسم بالخنس**﴾ قد سبق أن «لا» للنفي، وإنما يؤتى بها لنكتة هي إرادة تعظيم القسم والإشعار به مع عدم الحلف واقعاً. كما تقوم لرجل عظيم «لا أقسم بحياتك لكن الأمر كذا». و «الخنس» جمع الخانس، وهو الذي يستتر ويرجع، والمراد بها الكواكب، أي لا أقسم بالكواكب التي تستتر عند مغيبها في المغرب، أو لضياء النهار.

[١٧] ﴿**الجوار**﴾ جمع جارية، لأن الكواكب تجري وتسير في السماء ﴿**الكنس**﴾ جمع «كانس» وهو الذي يستتر في محله، كالضبي الذي يأوى إلى كناسه أي منزله، وكأن المعنى لا أقسم بالكواكب السيارة التي ترجع في دورتها الفلكية وتجري وتختفي في أماكنها، فإن أول الليل يرى الإنسان الكواكب رجعت عن مغيبها، ثم يرى جريانها ثم اختفاءها عند المغرب أو عند إضاءة الصباح.

[١٨] ﴿**و**﴾ قسماً بـ ﴿**الليل إذا عسعس**﴾ أي أقبل، أو بمعنى أدبر.

[١٩] ﴿**و**﴾ قسماً بـ ﴿**الصبح إذا تنفس**﴾ أي أسفر وأضاء.

[٢٠] ثم جاء متعلق الحلف بقوله: ﴿**إنه**﴾ أي إن هذا القرآن ﴿**لقول رسول كريم**﴾ المراد به جبرئيل عليه السلام، في مقابل أن يكون من مخترعات

﴿ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢١﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢٢﴾ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢٤﴾ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴿٢٥﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿٢٦﴾﴾

الرسول ـ كما زعم الكفار ـ وكونه قول جبرئيل يراد به حكايته لذلك عن الله سبحانه، لا إنه قوله الاستقلالي ـ كما لا يخفى ـ.

[٢١] ﴿**ذي قوة**﴾ جسدية وعقلية، فيتمكن من النزول من السماء إلى الأرض، ويبلغ رسالة الله إلى الرسول كاملةً بلا زيادة أو نقصان ﴿**عند ذي العرش مكين**﴾ أي له مكان عظيم عند الله سبحانه ـ الذي هو صاحب العرش، المالك للكون كله، كما يقال للملك «صاحب العرش» كناية عن كونه ملكاً ـ و «مكين» بمعنى متمكن.

[٢٢] وهو ﴿**مطاع**﴾ للملائكة، أي يطيعونه الملائكة لكبر مقامه ﴿**ثم**﴾ أي هناك في الملأ الأعلى ﴿**أمين**﴾ على الوحي فلا يزيد فيه ولا ينقص.

[٢٣] فالقرآن إذاً كلام الله تعالى، أما الرسول ﴿**وما صاحبكم**﴾ أيها الكفار ـ والمراد به الرسول صلى الله عليه وآله الذي صحبهم ـ ﴿**بمجنون**﴾ قد خلط عقله كما تتقوّلون عليه.

[٢٤] ﴿**ولقد رآه**﴾ أي رأى الرسول صلى الله عليه وآله جبرئيل ﴿**بالأفق المبين**﴾ في ناحية المشرق عند الأفق الواضح، فلم يكن وهماً أو إلقاءً من الشياطين أو ماأشبه ـ كما تزعمون ـ.

[٢٥] ﴿**وما هو**﴾ أي الرسول صلى الله عليه وآله ﴿**على الغيب**﴾ أي وحي الله سبحانه له ﴿**بضنين**﴾ بمتهم، من «الضنة» بمعنى التهمة، أو ببخيل.

[٢٦] ﴿**وما هو**﴾ أي ليس القرآن ﴿**بقول شيطان رجيم**﴾ مرجوم أي مطرود

فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴿٢٧﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٩﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾

باللعن، كسائر الكهانات التي هي أقوال الشياطين تلقى على الكهنة.

[٢٧] ﴿**فأين تذهبون**﴾ أيها الكفار؟ وكيف لا تؤمنون والقرآن شاهد صدق على نفسه، بأنه ليس كلام مجنون، ولا كلام شيطان، ولا ما زيد فيه أو نقص لبخل الرسول بإعطاء الوحي كاملاً، فإنه من طرف المنزل، وهو الله، ومن طرف المنزل إليه وهو الرسول، أحسن كتاب للهداية.

[٢٨] ﴿**إن هو**﴾ أي ليس القرآن ﴿**إلا ذكر للعالمين**﴾ أي لجميع الأجيال والعوالم، عالم الإنس وعالم الجن، يذكرهم بما أودع في فطرتهم من الأمور المرتبطة بالألوهية والرسالة والمعاد، والأخلاق وما أشبه ذلك.

[٢٩] ﴿**لمن شاء منكم**﴾ أيها المكلفون ﴿**أن يستقيم**﴾ في عقيدته وعمله، بأن لا ينحرف يميناً أو شمالاً، وإنما خصهم لأنهم المنتفعون بالذكر، كما تقول «هذا معلم لمن شاء أن يتلمذ عنده» تعني أن المريد هو المستفيد منه، وإن كان هو مستعد لتعليم كل فرد.

[٣٠] ﴿**وما تشاؤون**﴾ أنتم الاستقامة ﴿**إلا أن يشاء الله رب العالمين**﴾ فإن الإنسان لا يتمكن على الاهتداء إلا بعد مشيئة الله بنصب الأدلة وقد شاء سبحانه ذلك، وأرسل الرسول، وأنزل الكتاب، فلم يبق إلا مشيئة البشر أن يقبلوا الهدى ويتبعوا السبيل. وفي هذا تحريض العباد على المشيئة إذ الله رب العالمين قد شاء، فهل يحق للبشر أن لا يشاء؟



سُورة الإنفطار

مكيّة/آياتها (٢٠)

سميت السورة بهذا الاسم لاشتمالها على فعل المصدر وهو قوله «انفطرت»، وهي كسائر السور المكية تعالج قضايا العقيدة في أصولها، وحيث كانت سورة «التكوير» لبيان أهوال القيامة، جاءت هذه السورة مؤكدة لتلك.



[١] ﴿**بسم الله الرحمن الرحيم**﴾ نشرع في السورة باسم الإله الذي له كل شيء، فإن الله علم للذات المستجمع لجميع صفات الكمال، الرحمن الرحيم الذي يرحم العباد ويتفضل عليهم بتكميل نواقصهم.

إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلۡكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتۡ ﴿٣﴾ وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ فُجِّرَتۡ ﴿٤﴾ وَإِذَا ٱلۡقُبُورُ بُعۡثِرَتۡ ﴿٥﴾ عَلِمَتۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ وَأَخَّرَتۡ ﴿٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ﴿٧﴾

[٢] ﴿**إذا السماء انفطرت**﴾ أي انشقت وظهر فيها أثر الانفطار حتى إذا شاهدها الإنسان رآها كالحائط المنفطر.

[٣] ﴿**وإذا الكواكب انتثرت**﴾ أي تهافتت واختلفت أمكنتها وبطل نظامها الحالي، من النثر وهو التبعثر.

[٤] ﴿**وإذا البحار فجرت**﴾ كما تتفجر العيون، بأن أخذت تغلي بالماء أو باللهب.

[٥] ﴿**وإذا القبور بعثرت**﴾ أي قلب ترابها لخروج الأموات منها، والشيء المبعثر هو المتفرق.

[٦] إذا صار كل ذلك، فقد قامت القيامة و ﴿**علمت**﴾ كل ﴿**نفس**﴾ والمراد بالنفس الجنس، ولذا أدخلنا عليها «كل» ﴿**ما قدمت وأخرت**﴾ أي يعرف كل إنسان ـ بالنظر إلى صحيفة عمله ـ ما قدم إلى الآخرة في حال كونه في الدنيا وما أخر إلى الآخرة بعد وفاته، بما خلف من صدقات جارية وكتب علم ودين أو أشياء ضارة وما أشبه ذلك، فإنه يعرف بكل ذلك ليجزى حسب ما عمل إن حسناً فحسن، وإن سيئاً فسيء.

[٧] ثم يأتي السياق لإيقاظ الإنسان من نومه، بقوله: ﴿**يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم**﴾؟ أي أيّ شيء خدعك بربك حتى صرت تعصيه

ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ﴿٨﴾ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴿٩﴾ كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ﴿١٠﴾ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَـٰفِظِينَ ﴿١١﴾

وتخالفه، آمناً من عذابه وعقابه؟ وهل كان من العدل أن تقابل كرمه بالعصيان؟ وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان؟ ـ وفي حديث أن النبي ﷺ لما تلا هذه الآية قال: غره جهله(١).

[٨] ﴿**الذي خلقك**﴾ بأن أوجدك منياً ﴿**فسواك**﴾ جعل أجهزتك سليمة معدة لمنافعها ﴿**فعدلك**﴾ أي جعل بعض أعضائك عدل بعض كعينين ويدين ورجلين وما أشبه بحيث يتناسب أحدهما مع الآخر دون كبر في بعض وصغر في بعض.

[٩] ﴿**في أيّ صورة ما شاء**﴾ «ما» زائدة لتأكيد اختلاف الصور ﴿**ركبك**﴾ أي ركبك في أية صورة شاء من أنواع الصور الحسنة والقبيحة والمليحة أو غيرها وهكذا، فإن بسائط الجسم من لحم وعظم وشحم ودم وغيرها ركب سبحانه منها صورة كل إنسان بشكل خاص.

[١٠] فهل بعد ذلك كله تنكرون وجود الله، أو قدرته على البعث ﴿**كلا**﴾ ليس الأمر على ما تزعمون ﴿**بل تكذبون بالدين**﴾ أي بالجزاء لا تؤمنون، بل تكذبون.

[١١] وتظنون أن لا حساب ﴿**وإن عليكم**﴾ أيها الناس ﴿**لحافظين**﴾ من الملائكة، يحفظون أعمالكم بكتابتها في دواوين لتجزون عليها يوم القيامة، و «حافظين» اسم «إنّ».

---

(١) بحار الأنوار: ج٧ ص٩٤ .

كِرَامًا كَٰتِبِينَ ﴿١٢﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٣﴾ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٤﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴿١٥﴾ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿١٦﴾ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ ﴿١٧﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٨﴾ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ

---

[١٢] ﴿**كراماً**﴾ أي ملائكة كراماً ذوي رفعة ومكانة رفيعة ﴿**كاتبين**﴾ يكتبون أعمال بني آدم.

[١٣] ولا يسقط من حسابهم شيء، بل ﴿**يعلمون**﴾ كل ﴿**ما تفعلون**﴾ من طاعة ومعصية وخير وشر.

[١٤] ثم في يوم القيامة يجازى كل حسب ما عمل ﴿**إن الأبرار**﴾ جمع «بر» وهو المحسن في العقيدة والعمل ﴿**لفي نعيم**﴾ الجنان ورفاهها وخيرها.

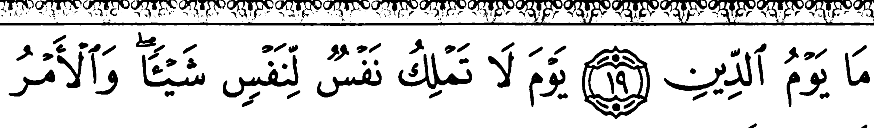
[١٥] ﴿**وإن الفجار**﴾ جمع «فاجر» وهو العامل بالمعاصي، كفراً كان أو غيره ﴿**لفي جحيم**﴾ اسم من أسامي جهنم، وهي النار الكثيرة.

[١٦] ﴿**يصلونها**﴾ أي يدخلونها ملازمين لها ﴿**يوم الدين**﴾ أي يوم القيامة.

[١٧] ﴿**وما هم**﴾ أي الفجار ﴿**عنها**﴾ أي عن الجحيم ﴿**بغائبين**﴾ بأن يغيبوا عن النار في بعض الأوقات، بل إنهم مؤبدون فيها بلا انقطاع.

[١٨] وإذ تقدم ذكر يوم القيامة جاء السياق لتهويل شأنه ﴿**وما أدراك**﴾ أيها الإنسان ﴿**ما يوم الدين**﴾؟ أي أيّ شيء هو؟ فإن أهوالها لا تدرك، حتى يراها الإنسان رأي العين.

[١٩] ﴿**ثم**﴾ لترتيب الكلام وتكثير التهويل ﴿**ما أدراك**﴾ أيها الإنسان


مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٩﴾ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ


يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴿٢٠﴾

﴿**ما يوم الدين**﴾؟ أي ما هو الجزاء.

[٢٠] إنه ﴿**يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً**﴾، فلا يقدر أحد الدفاع عن غيره، أو إنقاذه بسائر الوسائل ﴿**والأمر يومئذ**﴾ أي في ذلك اليوم ﴿**لله**﴾ وحده، ولا ينفع للنجاة إلا العمل الصادر لله تعالى.



سُورة المطفّفين

مكيّة ـ مدنيّة/آياتها (٣٧)

سميت السورة بهذا الاسم لاشتمالها على لفظة «المطففين»، ولعل السورة مركبة من المدنية والمكية لاشتمالها على ما يشبه النظام إلى جنب قضايا العقيدة، وحيث ختمت سورة الانفطار بذكر القيامة وأحوال الناس فيها، ذكر في هذه السورة ذلك أيضاً.



[١] ﴿**بسم الله الرحمن الرحيم**﴾ ابتداء باسم الإله الذي له الملك وهو الأول لكل شيء، فما أجدر أن يبتدأ باسم الكريم، الرحمن الرحيم الذي يتفضل بالرحم على العباد ويكمل نقص كل إنسان.

وَيۡلٞ لِّلۡمُطَفِّفِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكۡتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسۡتَوۡفُونَ ﴿٣﴾ وَإِذَا كَالُوهُمۡ أَو وَّزَنُوهُمۡ يُخۡسِرُونَ ﴿٤﴾ أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبۡعُوثُونَ ﴿٥﴾ لِيَوۡمٍ عَظِيمٖ ﴿٦﴾

[٢] ﴿**ويل**﴾ وهي كلمة تقال بمعنى سوء الحال، أي أن سوء الحال ﴿**للمطففين**﴾ و «التطفيف» هو نقص الكيل والميزان.

[٣] ثم فسره سبحانه بقوله: ﴿**الذين إذا اكتالوا على الناس**﴾ أي كالوا ما على الناس ليأخذوه لأنفسهم، كما لو دفعوا مالاً لاشتراء مَنٍّ من الحنطة، فإذا كالوها ﴿**يستوفون**﴾ أي يأخذون بمقدار حقهم وافياً، ولما كان الكيل والوزن من جنس واحد اكتفى بأحدهما عن ذكر الآخر.

[٤] ﴿**وإذا كالوهم**﴾ أي كالوا لهم ﴿**أو وزنوهم**﴾ أي وزنوا لهم، بأن أرادوا بيع مَنّ من الحنطة مثلاً للناس وقبض الثمن لأنفسهم ﴿**يخسرون**﴾ أي ينقصون فيما يعطون، فمثلاً ينقصون من المنّ حقةً. ولا يخفى أن العمل الأول ليس محرماً، وإنما يكون بشعاً إذا قيس بالعمل الثاني، كما أن إطراء الناس في وجههم ليس محرماً، ولكن إذا ضم إلى ذمهم في قفاهم صار بشعاً، وسمي الفاعل لذلك ذا لسانين، وكان له يوم القيامة لسانان من نار ـ كما ورد ـ.

[٥] ثم يأتي السياق ليهددهم بقوله: ﴿**ألا يظن**﴾ والإتيان بلفظ الظن لإفادة أن مجرد الظن كاف في الانقلاع، فكيف بالعلم ﴿**أولئك**﴾ المطففون ﴿**أنهم مبعوثون**﴾، أي يبعثون .

[٦] ﴿**ليوم عظيم**﴾ في يوم القيامة الذي يحاسب فيه كل إنسان بما عمل.

يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧﴾ كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ ﴿٨﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ﴿٩﴾ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿١٠﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿١٢﴾

[٧] وهو ﴿**يوم يقوم الناس**﴾ من قبورهم ﴿**لرب العالمين**﴾ أي لحسابه وجزائه.

[٨] ﴿**كلا**﴾ ليس الأمر على ما زعمتم من أنه لا حساب ولا جزاء، بل هناك يجازي كل إنسان بما عمل، فـ ﴿**إن كتاب الفجار**﴾ جمع فاجر، وهو العاصي لله سبحانه، سواء كان بالكفر أو الإثم، والمراد بكتابهم ما أدرج فيه أسماؤهم وخصوصياتهم ﴿**لفي سجين**﴾ وهو السجل على جهة التخليد فيه، يعني أنه قرر لهم السجن الأبدي، وهكذا سجل أسماؤهم بأنهم في سجين، كما تقول: «كتاب فلان في المجرمين» أي أنه كتب مجرماً في ضمن سائر المجرمين.

[٩] ثم جاء السياق لتهويل أمر سجين بقوله: ﴿**وما أدراك**﴾ أيها الإنسان، أو يا رسول الله ﴿**ما سجين**﴾؟ فما أعلمك به، بل أنتم لا تدرون به.

[١٠] إنما هو ﴿**كتاب مرقوم**﴾ قد رقم وكتب وفرغ منه، فلا يمكن تبديله وتغييره، بأن يمحي اسم الفاجر منه، ليدرج في كتاب الأبرار.

[١١] ﴿**ويل يومئذ**﴾ أي في يوم القيامة ﴿**للمكذبين**﴾.

[١٢] ثم حدد معنى المكذبين و المراد بهم بقوله: ﴿**الذين يكذبون بيوم الدين**﴾ أي بيوم القيامة، فإن الدين بمعنى الجزاء، والتكذيب بيوم القيامة يلازم التكذيب بسائر الأصول.

وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٣﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٤﴾ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٥﴾ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٦﴾

[١٣] **﴿وما يكذب به﴾** أي بيوم القيامة **﴿إلا كل معتد﴾** يعتدي ويظلم ويتجاوز عن الحد **﴿أثيم﴾** يأثم ويعصي في كثرة ويبالغ في الاعتداء.

[١٤] **﴿إذا تتلى عليه﴾** أي تقرأ على ذلك المعتدي **﴿آياتنا﴾** الدالة على الألوهية والتوحيد وسائر الأصول، أو المراد بها القرآن **﴿قال﴾** هذه التي تتلونها هي **﴿أساطير الأولين﴾** حكاياتهم وكلماتهم الخرافية، جمع «أسطورة» وهي القصة الخيالية التي لا حقيقة لها، وفي هذا اليوم يسمون الدين «رجعية» عبارة أخرى عن «أساطير الأولين».

[١٥] **﴿كلا﴾** ليست الآيات أساطير **﴿بل ران على قلوبهم﴾** «الرين» في الأصل بمعنى الغلبة، أي غلب عليها **﴿ما كانوا يكسبون﴾** من الذنوب والآثام، حتى أن عصيانهم سبّب تحجّر قلبهم، فلا يرون الحق إلا باطلاً، والآيات إلا أساطير. قال الصادق عليه السلام: يصدأ القلب، فإذا ذكرته بالله انجلى[١].

[١٦] **﴿كلا﴾** لا يبقى هؤلاء في خير ونعيم إلى الأبد، كما يظن الكفار بأنهم هناك أيضاً يحظون بكرامة الله وإحسانه قائلين (وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَى رَبِّي لأَجِدَنَّ خَيْراً مِنْهَا مُنقَلَباً)[٢] **﴿إنهم عن ربهم﴾** أي عن لطفه ورحمته **﴿يومئذ﴾** أي في يوم القيامة **﴿لمحجوبون﴾** ممنوعون، وهذا كما

---

(١) مجمع البيان: ج١٠ ص٢٩٣.

(٢) الكهف: ٣٧.

ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿١٨﴾ كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ ﴿١٩﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿٢٠﴾ كِتَابٌ مَّرْقُومٌ ﴿٢١﴾ يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٢﴾

تقول «حجبني فلان عن الملك» أي منع لطفه عني.

[١٧] ﴿**ثم إنهم**﴾ بعد أن حجبوا عن فضل الله ولطفه ﴿**لصالوا الجحيم**﴾ أي داخلون فيها ملازمون لها.

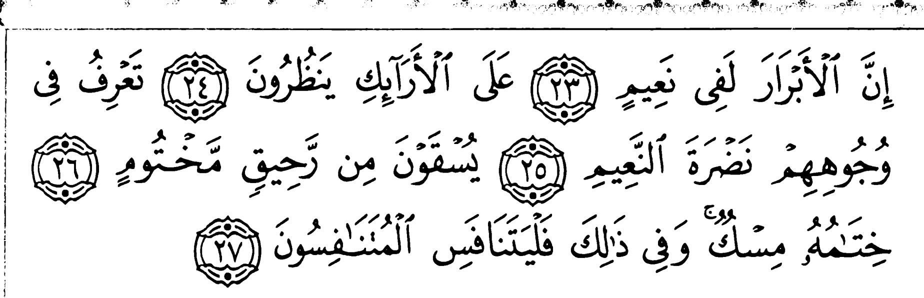
[١٨] ﴿**ثم يقال**﴾ لهم بعد أن دخلوا الجحيم على وجه التقريع والتوبيخ ﴿**هذا الذي**﴾ ذقتموه من العذاب والنكال ﴿**كنتم به**﴾ في الدنيا ﴿**تكذبون**﴾ وتقولون: لا جنة، ولا نار، ولا حساب، ولا جزاء.

[١٩] ﴿**كلا**﴾ ليس الأمر كما زعمتم من أنكم أهل كرامة الله، إن الكرامة ليست لكم، وإنما هي للأبرار ﴿**إن كتاب الأبرار**﴾ أي الكتاب الذي أدرج فيه أسماؤهم وعين فيه مقاماتهم، و«أبرار» جمع برّ وهو المحسن عقيدة وعملاً ﴿**لفي عليين**﴾ أي مراتب عالية، فإنهم مكتوبون في سجلهم أن مقامهم هناك.

[٢٠] ثم جاء السياق لتعظيم مقامهم بقوله: ﴿**وما أدراك**﴾ أيها الإنسان، أو يا رسول الله ﴿**ما**﴾ هي ﴿**عليون**﴾؟

[٢١] إنه ﴿**كتاب مرقوم**﴾ قد رقم وسجل فلا يمحى عنه أسماء الأبرار.

[٢٢] ﴿**يشهده**﴾ أي يعرفه ويعلم مزاياه ﴿**المقربون**﴾ أي الملائكة المقربون، وفي ذلك كرامة أخرى للأبرار، لأن الإنسان يجب أن يطلع الناس وغيرهم على أعماله الحسنة.



[٢٣] ثم جاء القياس يعين مكان الأبرار الذي كتب في كتابهم أنهم في عليين ﴿**إن الأبرار لفي نعيم**﴾ في الملاذ والمشتهيات.

[٢٤] وهم جالسون ﴿**على الأرائك**﴾ جمع أريكة، وهي كرسي العروس الذي تجلس عليه ﴿**ينظرون**﴾ إلى هنا وهناك ليلتذوا بالنظر كما التذوا بسائر أنواع الحواس.

[٢٥] ﴿**تعرف**﴾ أيها الإنسان، إذا نظرت إلى أولئك الأبرار ﴿**في وجوههم نضرة النعيم**﴾ أي بريقه وحسنه وجماله، فإن الإنسان الذي في نعمة وراحة يظهر على وجهه بريق ولمعان ونضارة.

[٢٦] ﴿**يسقون**﴾ والساقي هم الملائكة بأمره سبحانه ﴿**من رحيق**﴾ هو الشراب الخالص من كل كدورة وفساد ﴿**مختوم**﴾ قد ختم على آنيته بعد أن سد رأسه، لئلا يصيبه الأذى من الخارج، كالمربيات والأشربة التي تقفل وتختم في العلب في الدنيا.

[٢٧] ﴿**ختامه مسك**﴾ فإن المداد الذي يختم به على أواني الرحيق من المسك المذاب، وفي ذلك تشويق وأناقة ودلالة على النعيم وكثرة الرفاه ﴿**وفي ذلك**﴾ النعيم ﴿**فليتنافس المتنافسون**﴾ أي فليرغب الراغبون بالمبادرة إلى طاعة الله سبحانه، وأصل التنافس التزاحم على الشيء، إن نعيم الجنة هو القابل لأن يتزاحم فيه الناس، وذلك بأن يبادر إلى كل الأعمال الصالحة لينالها، لا أن يتنازعوا في ملذات الدنيا

وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٨﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣١﴾

فإنها زائلة فانية.

[٢٨] ﴿**ومزاجه**﴾ أي الشيء الذي مزج بذلك الرحيق ﴿**من**﴾ عين تسمى بالـ ﴿**تسنيم**﴾ وهي عين جيدة، سميت بالتسنيم لارتفاعها، من سنم بمعنى ارتفع.

[٢٩] في حال كون ذلك التسنيم ﴿**عيناً**﴾ أو منصوب على المدح ﴿**يشرب بها**﴾ أي منها ﴿**المقربون**﴾ الذين قربوا إلى رضوان الله تعالى بأعمالهم الصالحة.

[٣٠] ثم يأتي ليبين أن ما يراه المجرم والمحسن هناك إنما هو جزاء أعمالهم ﴿**إن الذين أجرموا**﴾ أي فعلوا الجرائم والآثام في دار الدنيا ﴿**كانوا من الذين آمنوا يضحكون**﴾ على وجه السخرية بهم والاستهزاء لهم، و «من» ابتدائية، كأن ضحكهم كان يبتدئ وينشأ من طرف المؤمنين، وهذا حكاية عن أحوالهم وهم في الدنيا وكأن الحكاية في الآخرة حين يعاتب المجرمين ويثاب المحسنون.

[٣١] ﴿**وإذا مروا**﴾ أي المؤمنون ﴿**بهم**﴾ أي بالمجرمين ﴿**يتغامزون**﴾ بأن يشير بعضهم إلى بعض بالعين والحاجب استهزاءً بالمؤمنين، ومن المعلوم أن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام كان ممن يتغامز به المنافقون ولذا ورد في بعض الروايات تفسير الآية بذلك[1]، وهو من باب المصداق.

---

(١) بحار الأنوار: ج١٨ ص١٧٢ .

وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ ﴿٣٢﴾ وَإِذَا رَأَوۡهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٣﴾ وَمَآ أُرۡسِلُواْ عَلَيۡهِمۡ حَٰفِظِينَ ﴿٣٤﴾ فَٱلۡيَوۡمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلۡكُفَّارِ يَضۡحَكُونَ ﴿٣٥﴾ عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٦﴾ هَلۡ ثُوِّبَ ٱلۡكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ﴿٣٧﴾

[٣٢] ﴿**وإذا انقلبوا**﴾ أي رجع أولئك المجرمون ﴿**إلى أهلهم**﴾ أي إلى بيوتهم ﴿**انقلبوا**﴾ ورجعوا في حال كونهم ﴿**فكهين**﴾ الفكه هو المرح الأشر، أي متلذذين بالسخرية منهم، كما هو شأن الجهلاء دائماً.

[٣٣] ﴿**وإذا رأوهم**﴾ أي رأى المجرمون، المؤمنين ﴿**قالوا**﴾ أي قال بعضهم لبعض ﴿**إن هؤلاء**﴾ المؤمنين ﴿**لضالون**﴾ عن طريق الصواب حيث تركوا نعيم الدنيا، بزعم نعيم الآخرة «وهل عاقل باع الوجود بدين»؟

[٣٤] ﴿**و**﴾ الحال أن الكفار ﴿**ما أرسلوا عليهم**﴾ أي على المؤمنين ﴿**حافظين**﴾ أعمالهم ويشهدون برشدهم وضلالهم.

[٣٥] ﴿**فاليوم**﴾ أي يوم القيامة ﴿**الذين آمنوا من الكفار يضحكون**﴾ جزاءً وفاقاً كما ضحك الكفار منهم في الدنيا، فإن بعض الأحوال السيئة لشخص يوجب ضحك الطرف المقابل.

[٣٦] ﴿**على الأرائك**﴾ جمع أَريكة وهو الكرسي المعد لجلوس العروس ﴿**ينظرون**﴾ أي ينظر المؤمنون إلى الكفار، وهم في النار يتقلبون.

[٣٧] ثم يأتي بالمستهزئين جزاء استهزائهم بالمؤمنين في الدنيا ﴿**هل ثُوّب الكفار**﴾ أي أثيبوا وجوزوا ﴿**ما كانوا يفعلون**﴾ في الدنيا؟ نعم أثيبوا وها هم في النار يتقلبون.



سورة الانشقاق

مكيّة/آياتها (٢٦)

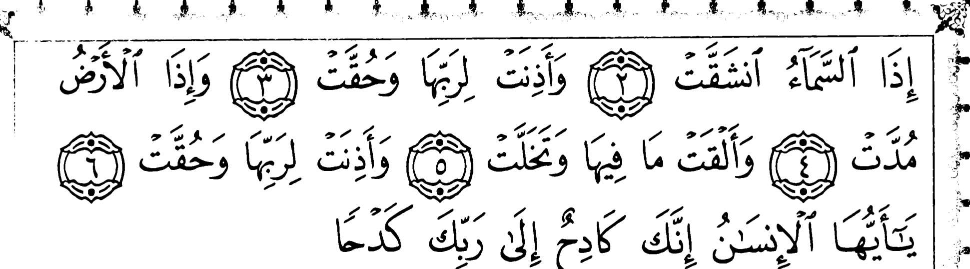
سميت السورة بهذا الاسم لاشتمالها على الفعل من هذا المصدر، وهو «انشقت»، وهي كسائر السور المكية تعالج قضايا العقيدة، وحيث ختمت سورة المطففين بذكر القيامة، ابتدأت هذه السورة بذكر أهوالها.



[١] ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ نستعين باسم الله، ليكون سبحانه عوناً لنا في أمورنا، الرحمن الرحيم الذي يتفضل بالرحم على الأشياء كلها كما قال (وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ)(١)، وهو أن يفعل بالشيء ما يخرجه من النقص إلى الكمال.

---

(١) الأعراف: ١٥٧.



[٢] ﴿**إذا السماء انشقت**﴾ أي تصدّعت وانفرجت، كما ينشق الحائط فيظهر للعين في السماء لون الانفطار والانشقاق، وتتناثر النجوم لاختلال النظام.

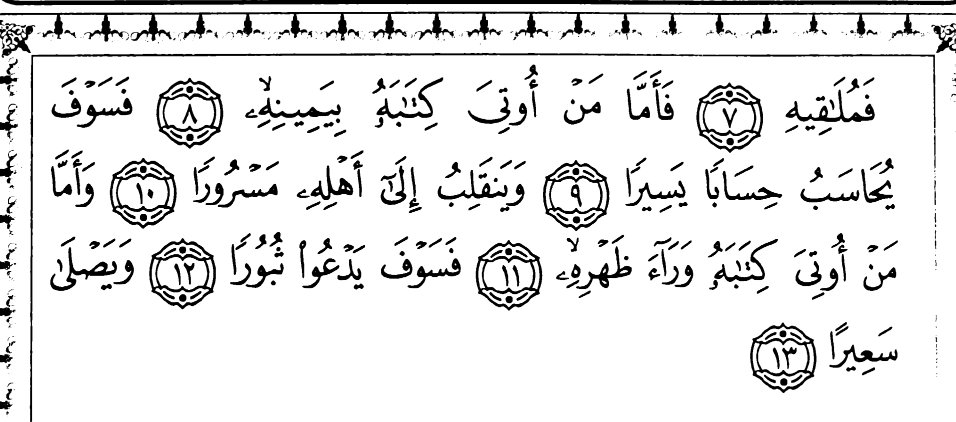
[٣] ﴿**وأذنت**﴾ السماء ﴿**لربها**﴾ أي خالقها، والمراد انقادت لله سبحانه، وأصل الإذن الاستماع، يقال «أذن فلان لأمري» أي استمع، واستعمل مجازاً بمعنى الانقياد بعلاقة السبب والمسبب ﴿**وحقّت**﴾ أي وحق لها أن تأذن وتنقاد، وإنما جيء بالمجهول لأن المعنى أنها جعلت حقيقة بالانقياد، بأن خلقت بكيفية تنقاد وتطيع الأمر.

[٤] ﴿**وإذا الأرض مُدّت**﴾ أي بسطت باندكاك جبالها حتى تصير كالصحيفة الملساء فتوسع لأنه لا عوج فيها ولا أمت.

[٥] ﴿**وألقت ما فيها**﴾ أي أخرجت ما في جوفها من الكنوز والمعادن والأموات ﴿**وتخلت**﴾ أي خلت فلم يبق في بطنها شيء.

[٦] ﴿**وأذنت**﴾ أي انقادت الأرض ﴿**لربها**﴾ الله سبحانه ﴿**وحقت**﴾ لها أن تأذن بالإطاعة والانقياد، والجواب لـ «إذا» محذوف، أي انقسم الناس إلى قسمين ناج وهالك، يدل على ذلك قوله «فأما من» الآتية.

[٧] ثم توجه الخطاب إلى الإنسان ليستعد لهذا اليوم المهول ﴿**يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحاً**﴾ «الكدح» هو السعي الشديد في الأمر، أي سعى إلى ربّه ـ أي إلى جزائه وحسابه ـ سعياً شديداً، فإن



الإنسان لايزال يسعى في الأرض بجهد وشدة ـ إذ الدنيا دار تعب وعناء ـ حتى ينتهي إلى حساب الله سبحانه ﴿فملاقيه﴾ أي تلاقي كدحك ـ بمعنى جزاء عملك ـ عندما صرت إلى حساب ربك.

[٨] ﴿فأما من أوتي﴾ أي أعطي ﴿كتابه﴾ الذي كتبه الملكان، المدروج فيه أعماله ﴿بيمينه﴾ أي بيده اليمنى، وذلك دليل السعادة والفلاح.

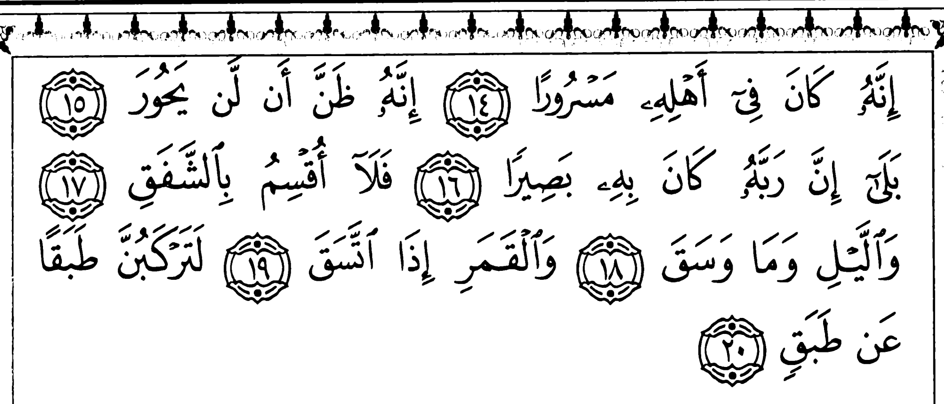
[٩] ﴿فسوف﴾ بعده بمدة ﴿يحاسب حساباً يسيراً﴾ سهلاً بلا أتعاب ونقاش، ولعل المدة بين إعطاء الكتاب وبين الحساب طويل ولذا جيء بـ «سوف».

[١٠] ﴿وينقلب﴾ أي يرجع من محل المحاسبة ﴿إلى أهله﴾ الذين حوسبوا قبله وانتظروا مقدمه، أو المراد حور العين التي أعدت له ﴿مسروراً﴾ فرحاً.

[١١] ﴿وأما من أوتي كتابه وراء ظهره﴾ بأن يأخذ الملائكة بيده اليسرى إلى وراء ظهره ثم يعطى كتابه هناك، تكثيراً للخزي والفضاحة وإيذاناً بأنه من أهل النار والعذاب.

[١٢] ﴿فسوف يدعو ثبوراً﴾ أي هلاكاً، إذا قرأ كتابه فيقول «واثبوراه» أي يا هلاك احضر فهذا وقتك.

[١٣] ﴿ويصلى سعيراً﴾ أي يدخل النار المستعرة الملتهبة، ملازماً لها.



[١٤] ﴿**إنه**﴾ أي هذا المجرم ﴿**كان في أهله**﴾ في الدنيا ﴿**مسروراً**﴾ بما أوتي من أمور الدنيا فلا يهتم بأمر الآخرة، بخلاف من يهتم بأمر الآخرة فإنه حزين لأنه لا يدري ماذا يصنع به، وما تكون عاقبته.

[١٥] ﴿**إنه ظن**﴾ في الدنيا ﴿**أن لن يحور**﴾ أي لن يرجع إلى حال الحياة بعد الموت، من حار: بمعنى رجع.

[١٦] ﴿**بلى**﴾ يرجع، وظنه فاسد ﴿**إن ربه كان به بصيراً**﴾ يرى أعماله فيجازيه عليها ولا يتركه سدى هملاً.

[١٧] ﴿**فلا أقسم**﴾ أي أقسم، أو أن «لا» للنفي كما اخترنا سابقاً ﴿**بالشفق**﴾ وهي الحمرة التي تبقى في الأفق عند الغروب.

[١٨] ﴿**و**﴾ لا أقسم بـ ﴿**الليل وما وسق**﴾ أي ما جمع وضم مما كان منتشراً بالنهار من أقسام الحيوان، وأفراد الإنسان، يقال وسقه: إذا جمعه.

[١٩] ﴿**و**﴾ لا أقسم بـ ﴿**القمر إذا اتسق**﴾ أي إذا تكامل بدراً فإنه يجتمع حينئذ، افتعال من «وسق».

[٢٠] ﴿**لتركبن**﴾ أي لتشاهدون، وتعانون ﴿**طبقاً**﴾ أي حالاً ﴿**عن طبق**﴾ أي بعد حال سابقة، مما قدر لكم من الأحوال، والإتيان بـ «عن» لأنها

فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢١﴾ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ ﴿٢٢﴾ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ ﴿٢٣﴾ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴿٢٤﴾

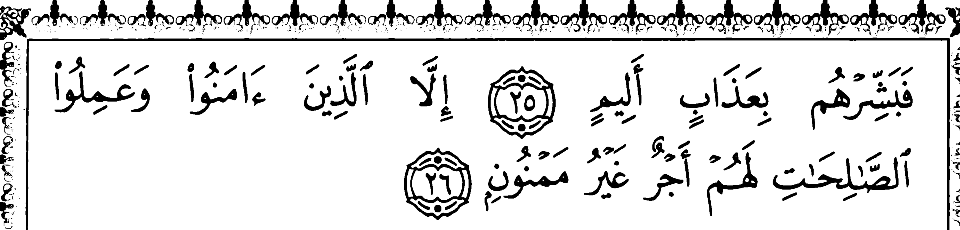
للتجاوز، أي تركبن حالاً مجاوزين عن حال سابقة، وإنما سمي الحال طبقاً لأنه يطابق الإنسان، والمعنى أنكم تسيرون في أحوالكم المختلفة سيراً حتى تنتهون إلى يوم القيامة، كما قال في أول السورة «إنك كادح» وهذا هو جواب «لا أقسم»، وكأن هذه الجمل للتنبيه على تغير أحوال الدنيا، فلا يغتر الإنسان بحالها الحسن وينسى الآخرة حتى تفوته دنياه وآخرته.

[٢١] وإذا كانت الدنيا معرض زوال وفناء، وأحوالها معرض تبدل وانقلاب **﴿فما لهم﴾** أي لهؤلاء الكفار **﴿لا يؤمنون﴾** بالله حتى ينجون من عذاب الآخرة الباقية؟

[٢٢] **﴿و﴾** ما لهم **﴿إذا قرئ عليهم القرآن لا يسجدون﴾** أي لا يخضعون لله سبحانه، بعد أن تتلى عليهم آياته، وتتم عليهم الحجة بقراءة القرآن عليهم؟

[٢٣] **﴿بل الذين كفروا﴾** عوض أن يخضعوا **﴿يكذبون﴾** بالله والرسول واليوم الآخر.

[٢٤] **﴿والله أعلم﴾** من كل أحد حتى من أنفسهم **﴿بما يوعون﴾** هؤلاء المكذبون، والمعنى بما يضمرون في صدورهم من الكفر والنوايا السيئة، من «وعي» بمعنى تقبل وجمع، يقال «فلان يعي الكلام» أي يتقبله ويحفظه.



[٢٥] ﴿**فبشرهم**﴾ يا رسول الله، والإتيان بلفظ البشارة للاستهزاء بهم - بعلاقة الضد - ﴿**بعذاب أليم**﴾ مؤلم موجع لهم.

[٢٦] ﴿**إلا الذين آمنوا**﴾ بالله والرسول واليوم الآخر ﴿**وعملوا**﴾ الأعمال ﴿**الصالحات**﴾ الملازم لعدم الإتيان بالسيئات ﴿**لهم أجر غير ممنون**﴾ أي غير مقطوع، لأن نعيم الآخرة دائم لا نفاد له، والظاهر أن الاستثناء منقطع، وقد سبق أن ذكرنا وجه الاستثناء المنقطع في مثل هذه المقامات.

٨٥

سُورة البُروج

مكيّة/آياتها (٢٣)

سميت السورة بهذا الاسم لاشتمالها على لفظة «البروج»، وهي كسائر السور المكية تعالج قضايا العقيدة، وحيث ختمت سورة الانشقاق بذكر المؤمنين، ابتدأت هذه السورة بذكرهم.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿١﴾

[١] ﴿**بسم الله الرحمن الرحيم**﴾ ابتداء باسم الإله الذي هو المبدأ لكل شيء، ولا أحق بالابتداء منه، ليطابق الابتداء في الكلام للابتداء في الخارج، الرحمن الرحيم الذي يرحم العباد بإعطائهم ما يحتاجون، ويتفضل عليهم بغفران ذنوبهم.

وَالسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ﴿٢﴾ وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ ﴿٣﴾ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴿٤﴾ قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ﴿٥﴾

[٢] ﴿**والسماء ذات البروج**﴾ أي قسماً بالسماء التي هي صاحبة البروج، جمع برج وهو القطعة من السماء، سميت برجاً لظهوره، من برج: إذا ظهر، والبروج هي الحمل والثور والجوزاء والسرطان والأسد والسنبلة والميزان والعقرب والقوس والجدي والدلو والحوت، والقمر في سيره النفسي يقطع كل برج في ظرف يومين ونصف، والشمس تقطعه في ظرف شهر.

[٣] ﴿**و**﴾ قسماً بـ ﴿**اليوم الموعود**﴾ وهو يوم القيامة، الذي وعد به الخلق.

[٤] ﴿**و**﴾ قسماً بـ ﴿**شاهد ومشهود**﴾ في ذلك اليوم، أو كل شاهد ومشهود. وهذا الأقرب بالعموم، وإن أورد في التفسير معاني مختلفة لهما.

[٥] ﴿**قتل أصحاب الأخدود**﴾ هو الشق العظيم في الأرض، أي قتل الله أصحاب الأخدود الكفار الذين حفروا الأخاديد في الأرض لتعذيب المؤمنين، وهذا دعاء على أولئك الكفار، وكان من قصتهم على ما نقله القمي: إن الذي هيج الحبشة على غزو اليمن ذو نواس، وهو آخر من ملك من حمير تهود واجتمعت معه حمير على اليهودية، وسمى نفسه يوسف، وأقام على ذلك حيناً من الدهر، ثم أخبر أن بنجران بقايا قوم على دين النصرانية وكانوا على دين عيسى وعلى حكم الإنجيل، ورأس ذلك الدين عبد الله بن برياس، فحمله أهل دينه على أن يسير إليهم ويحملهم على اليهودية ويدخلهم فيها فسار حتى قدم نجران، فجمع من كان بها على دين النصرانية، ثم عرض عليهم دين اليهودية والدخول فيه فأبوا عليه، فجادلهم وعرض عليهم وحرص الحرص كله

ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلۡوَقُودِ ﴿٦﴾ إِذۡ هُمۡ عَلَيۡهَا قُعُودٞ ﴿٧﴾ وَهُمۡ عَلَىٰ مَا يَفۡعَلُونَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ شُهُودٞ ﴿٨﴾ وَمَا نَقَمُواْ مِنۡهُمۡ إِلَّآ أَن يُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ﴿٩﴾

فأبوا عليه وامتنعوا من اليهودية والدخول فيها واختاروا القتل، فاتخذ لهم أخدوداً وجمع فيه من الحطب وأشعل فيه النار، فمنهم من أحرق بالنار ومنهم من قتل بالسيف ومثّل بهم كل مُثلة فبلغ عدد من قتل وأحرق بالنار عشرين ألفاً وأفلت رجل منهم يدعى «دوس»[1].

[٦] ﴿**النار**﴾ بدل عن أخدود أي أصحاب النار ﴿**ذات الوقود**﴾ الكثير، إشارة إلى عظم تلك النار، والوقود: هو الحطب الذي توقد به النار.

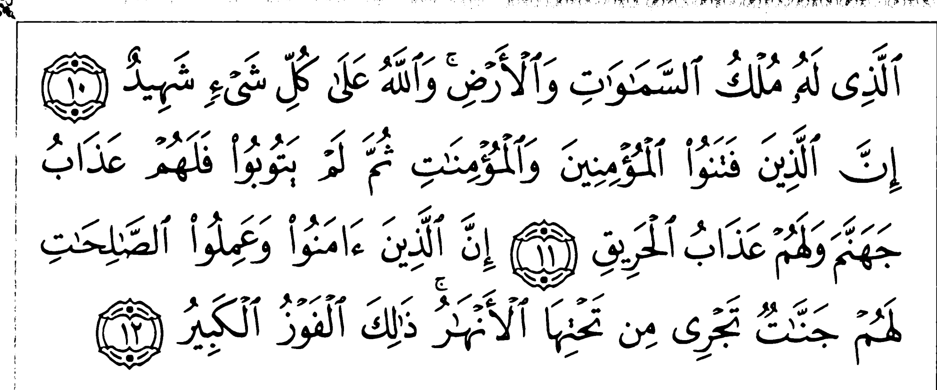
[٧] ﴿**إذ هم**﴾ أي أولئك الأصحاب الكفار ﴿**عليها**﴾ أي على حوالي النار ﴿**قعود**﴾ جمع قاعد، أي كان الكفار قاعدين أطراف النار يشاهدون ما يفعل بالمؤمنين من رميهم فيها.

[٨] ﴿**وهم**﴾ الملك الكافر وأصحابه ﴿**على ما يفعلون**﴾ جلاوزتهم ﴿**بالمؤمنين**﴾ من إلقائهم في النار ﴿**شهود**﴾ جمع شاهد، أي حاضرون مشاهدون، وهذا ذم لهم كيف رضوا وسمحت لهم أنفسهم بأن يشاهدوا هذا النحو من التعذيب البشع.

[٩] ﴿**وما نقموا منهم**﴾ أي ما كره الملك وأصحابه من المؤمنين ﴿**إلا أن يؤمنوا بالله**﴾ ويتركوا دين الملك الباطل ﴿**العزيز**﴾ الغالب في سلطانه ﴿**الحميد**﴾ المجرد في أفعاله، إشارة إلى أن الغلب كان للمؤمنين،

---

(١) تفسير القمي: ج٢ ص٤١٣ .

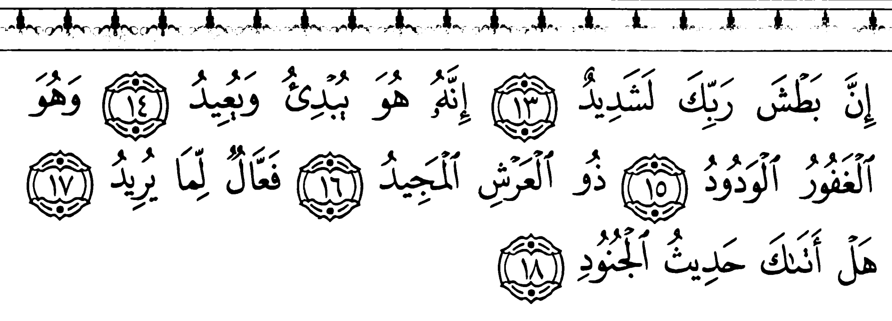


وإن صال الملك وجال أياماً، كما أن ما فعل بالمؤمنين كان لحكمة وصلاح لهم لعلو درجاتهم.

[١٠] ﴿**الذي له ملك السماوات والأرض**﴾ فهو المالك المطلق لهما ﴿**والله على كل شيء شهيد**﴾ أي حاضر عالم، فلم يغب عنه ما فعلوا بالمؤمنين فسينتقم منهم.

[١١] ﴿**إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات**﴾ أي عذبوهم وأحرقوهم بنار الأخدود، من أصحاب ذلك الملك الطاغي ﴿**ثم لم يتوبوا**﴾ بعد ذلك بالإيمان والطاعة ﴿**فلهم عذاب جهنم**﴾ في الآخرة بكفرهم ﴿**ولهم عذاب الحريق**﴾ بما أحرقوا المؤمنين، وكأن المراد بعذاب جهنم سائر أنواع عذابها من لدغ السامات وأكل الزقوم، وشرب الغسلين وما أشبه، و «حريق» اسم النار، ولذا أضيف إليه «عذاب».

[١٢] وفي مقابل أولئك المؤمنون ﴿**إن الذين آمنوا**﴾ بالله ورسوله واليوم الآخر ﴿**وعملوا**﴾ الأعمال ﴿**الصالحات لهم جنات**﴾ أي بساتين، وسميت جنة لتستر أرضها بالأشجار والقصور ﴿**تجري من تحتها**﴾ أي من تحت قصورها وأشجارها ﴿**الأنهار**﴾ من عسل ولبن وخمر وماء وغيرها ﴿**ذلك**﴾ التنعم بتلك الجنات ﴿**الفوز**﴾ والفلاح ﴿**الكبير**﴾ الذي ليس فوقه فوز. ولعل المراد بـ «إن الذين فتنوا»، و «إن الذين



آمنوا»، مطلق الكفار والمؤمنين، لا خصوص الكافر والمؤمن من أصحاب الأخدود، أو أصحاب الرسول ومعاصريه.

[١٣] ﴿**إن بطش ربك**﴾ يا رسول الله، أي أخذه للكافرين وانتقامه منهم ﴿**لشديد**﴾ فانه إذا بطش بأحد يغشاه العذاب، بمختلف ألوانه وصنوفه، فليحذر الكفار والعصاة بطشه.

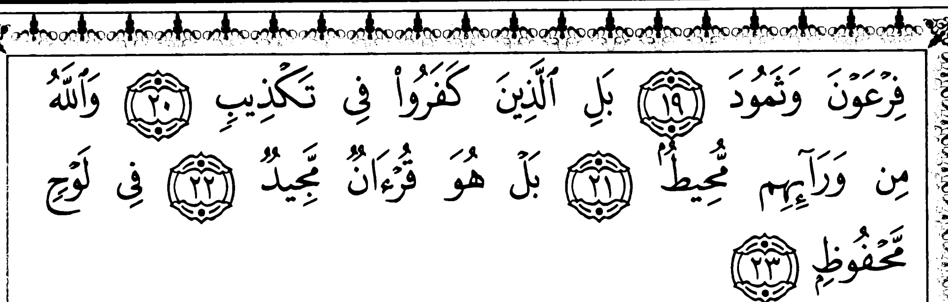
[١٤] ﴿**إنه**﴾ سبحانه ﴿**هو يبدئ**﴾ الخلق، بأن يعطيهم الحياة من العدم أولاً ﴿**ويعيد**﴾ للخلق بعد الممات أحياءً.

[١٥] ﴿**وهو الغفور**﴾ لمن تاب وآمن، أي كثير المغفرة ﴿**الودود**﴾ الذي يحب الناس فلا يريد تعذيبهم إلا إذا تمادوا في الكفر والعصيان.

[١٦] ﴿**ذو العرش**﴾ وهو كناية عن أن له الملك، يقال للملك «صاحب العرش» كناية عن سلطانه، وإن لم يكن له كرسي يجلس عليه ﴿**المجيد**﴾ الموصوف بالمجد والعظمة.

[١٧] ﴿**فعال**﴾ أي كثير الفعل ﴿**لما يريد**﴾ فكل شيء أراده فعله لا يمتنع عليه شيء، وهذه الآيات للإلماع إلى وجوب رجاء البشر إياه، وخوفهم منه، لأن له الملك والعظمة وأنه يفعل ما يشاء فعله.

[١٨] ثم جاء السياق لبيان شاهد على ما تقدم من أنه سبحانه يفعل ما يريد، ليرجوه المؤمن ويخافه الكافر ﴿**هل أتاك**﴾ يا رسول الله أو أيها السامع ﴿**حديث الجنود**﴾ أي هل بلغك خبر الذين تجندوا على خلاف الله



ومحاربة أنبيائه، لتعرف كيف صنع الله بهم؟

[١٩] ﴿**فرعون**﴾ وجنده، الذين أرسل إليهم موسى عليه السلام ﴿**وثمود**﴾ الذين أرسل إليهم صالح عليه السلام، فإنهم لما كذبوا الأنبياء عذبهم الله سبحانه، وهكذا عادة الله سبحانه مع المكذبين.

[٢٠] إن كفار مكة لا يرعوون عن كفرهم وعصيانهم بهذه الأمثال والقصص ﴿**بل الذين كفروا**﴾ بالله ورسوله ﴿**في تكذيب**﴾ للإسلام والقرآن، أي مشغولون عنه، ومعرضون عن الحق.

[٢١] ﴿**والله من ورائهم**﴾ أي من جوانبهم ﴿**محيط**﴾ كأنهم في دائرة علم الله سبحانه الشامل، وقدرته الواسعة فيعلم ماذا يصنعون، وهم في قبضة قدرته، يقول الملك «أنا محيط بفلان» يريد إحاطة علمه وقدرته لاإحاطة الجسم.

[٢٢] وليس كما ذكر الكفار إن القرآن شعر أو كهانة أو ما أشبه ﴿**بل هو قرآن مجيد**﴾، ذو مجد وعظمة لأنه من قبله سبحانه.

[٢٣] ﴿**في لوح محفوظ**﴾ من التغيير والتبديل، فهو محفوظ باق وإن اجتهد الكفار لمحوه وإبطاله.



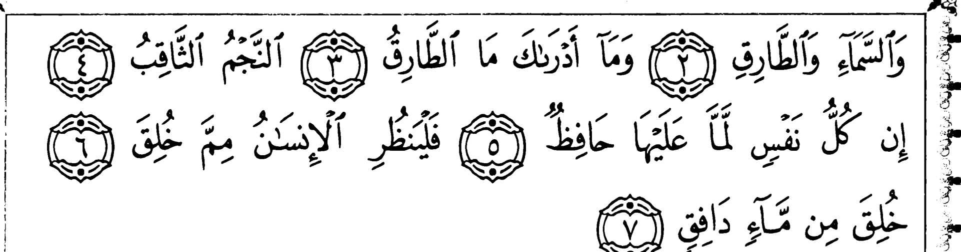
سُورة الطَارق

مكيّة/آياتها (١٨)

سميت السورة بهذا الاسم لاشتمالها على لفظة «الطارق»، وهي كسائر السور المكية مشتملة على قضايا العقيدة، وحيث ختمت سورة البروج بتهديد المكذبين، افتتحت هذه السورة بمثل ذلك.



[١] ﴿**بسم الله الرحمن الرحيم**﴾ ابتداء باسم الإله المستجمع لجميع صفات الكمال، فهو شعار للمسلم الذي يصفه أول كل حركة وسكون له ليصبغ بهذه الصبغة، الرحمن الرحيم، إعلاماً لكونه إلهاً رحيماً، لا قاسياً غليظاً، كما كانت بعض آلهة الكفار توصف بالقسوة والخشونة.



[٢] ﴿**والسماء**﴾ أي قسماً بالسماء ﴿**والطارق**﴾ أي قسماً بالطارق وهو الذي يأتي ليلاً، سمي طارقاً لأنه يطرق الباب، أما في النهار فقد كانت العادة الجارية لديهم أن تفتح الأبواب، فإذا جاء أحد استأذن ودخل، والمراد به هنا النجم الذي يطلع ليلاً.

[٣] ﴿**وما أدراك**﴾ أيها الإنسان، أو أيها الرسول ﴿**ما**﴾ هو ﴿**الطارق**﴾؟ وذلك لتعظيم شأنه.

[٤] هو ﴿**النجم الثاقب**﴾ الذي يثقب السماوات بنوره، ومن يعرف عظم النجوم وكثرة بُعدها حتى أنها تحتاج إلى سنوات ضوئية حتى توصل نورها إلى الأرض يعرف عظم هذا القسم. والظاهر أن المراد بالنجم الجنس لا خصوص نجم واحد، وما ذكر له في التفسير من المصداق فهو من باب المثال.

[٥] ﴿**إن كل نفس**﴾ أي ما كل إنسان ﴿**لما عليها حافظ**﴾ أي إلاّ عليها حافظ من قبل الله سبحانه، وهم الملائكة الذين يحفظون البشر من المهالك كما يحفظون أعمالهم، وهذا هو متعلق القسم.

[٦] وإذا كان الإنسان في شكٍّ من الإله فليفكر في أصله ونشأته ﴿**فلينظر الإنسان**﴾ أي ليفكر ويتدبر ﴿**ممَّ خلق**﴾ أي مماذا خلق؟ وما هو أصله؟

[٧] ﴿**خلق من ماء دافق**﴾ أي ماء يدفق، والدفق هو الصب الذي فيه دفع وقوة، فإن المني يخرج هكذا.

﴿يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ﴿٨﴾ إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ ﴿٩﴾ يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ﴿١٠﴾ فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ﴿١١﴾ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ ﴿١٢﴾ وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ ﴿١٣﴾﴾

---

[٨] ﴿**يخرج**﴾ ذلك الماء الذي هو مبدأ الإنسان ﴿**من بين الصلب**﴾ للرجل، وهو العظم الذي في ظهره مركز المني ﴿**والترائب**﴾ نواحي الصدر، واحدتها تريبة، فإن مني المرأة مركزه هناك.

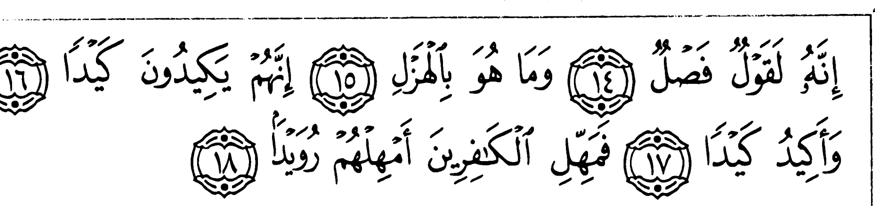
[٩] إن الله خلق الإنسان بهذه الكيفية ﴿**إنه على رجعه**﴾ أي إرجاعه إلى الحياة بعد الموت ﴿**لقادر**﴾ كما قدر على ابتداء خلقه حين لم يكن شيئاً مذكوراً.

[١٠] قادر على رجعه في ﴿**يوم تبلى السرائر**﴾ أي تختبر الضمائر، فإن «سرائر» جمع سريره، وهي المحل الكامن في الإنسان، فإن يوم القيامة تظهر بواطن الناس وما انطووا عليه من خير وشر.

[١١] ﴿**فما له**﴾ أي للإنسان ﴿**من قوة**﴾ يدفع بها العذاب ﴿**ولا ناصر**﴾ ينصره من تلك الأهوال، فليخش وليحذر أن يخالف الله سبحانه حتى لا يبتلي بالعذاب.

[١٢] ﴿**والسماء**﴾ أي قسماً بالسماء ﴿**ذات الرجع**﴾، التي ترجع في كل دورة إلى مكانها الأول، أو ذات المطر، وسمي المطر رجعاً لأنه يرجع كل نفسه، أو لأنه يرجع إلى الأرض بعد التصاعد منها بالأبخرة.

[١٣] ﴿**والأرض**﴾ أي قسماً بالأرض ﴿**ذات الصدع**﴾ التي تتصدع وتتشقق فيخرج منها النبات.



[١٤] ﴿**إنه**﴾ أي القرآن، أو ما ذكره من رجوع الخلق بعد الموت وتشقق الأرض عنهم، وهذا هو المناسب للآيتين السابقتين ﴿**لقول فصل**﴾ يفصل بين الحق والباطل.

[١٥] ﴿**وما هو بالهزل**﴾ أي اللعب، فإنه كلام واقعي لا أنه قيل على وجه اللعب والهزل.

[١٦] ﴿**إنهم**﴾ أي الكفار ﴿**يكيدون**﴾ ويحتالون لإبطال هذا الكلام الذي هو قول فصل ﴿**كيداً**﴾ بقولهم إنه شعر وسحر وكهانة وما أشبه ذلك.

[١٧] ﴿**وأكيد**﴾ أي أريد أمراً آخر ضد ما يريدون، وسمي كيداً للمشابهة ﴿**كيداً**﴾ كما أنهم يكيدون.

[١٨] ﴿**فمهل**﴾ يا رسول الله ﴿**الكافرين**﴾ أي انتظر بهم قليلاً فلا تشغل نفسك بهم ﴿**أمهلهم رويداً**﴾ أي زماناً قليلاً حتى ترى بأس الله فيهم.



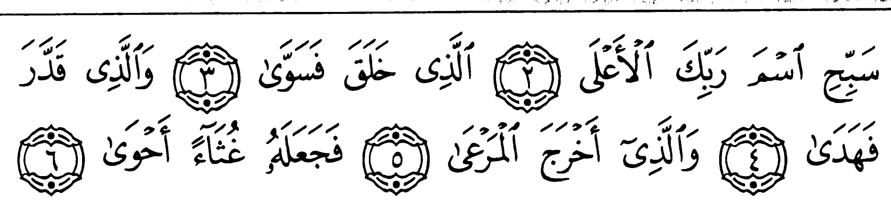
سُورة الأعلى

مكيّة/آياتها (٢٠)

سميت السورة بهذا الاسم لاشتمالها على لفظة «الأعلى»، وهي كسائر السور المكية بصدد بيان العقيدة في أصولها، وإذ ختمت سورة «الطارق» بكيد الله سبحانه للكافرين افتتحت هذه السورة بأنه تعالى «أعلى» تأكيداً لما ذكر.



[١] ﴿**بسم الله الرحمن الرحيم**﴾ ابتداء باسم الإله الذي له الخلق والأمر، وهو الأول والآخر، الرحمن الرحيم الذي يتفضل على كل شيء بالرحمة، فضلاً منه وامتناناً، وذكره تعالى بهذه الصفة يدر الرحم على الذاكر، فإنه شاكر لمن شكره، وذاكر لمن ذكره.



[٢] ﴿سبح﴾ أي نزّه يا رسول الله، أو أيها المخاطب ﴿اسم ربك﴾ عما لايليق به من الشرك والولد، فلا تنسب إليه شيئاً ينافي مقام الألوهية وذكر «اسم» للتعظيم، فمن يجب أن يسبح اسمه يجب أن يسبح هو بالأولى ﴿الأعلى﴾ أي الأرفع من كل شيء، فلا شيء أرفع منه في العلم أو القدرة أو الخلق أو الرزق أو غير ذلك من سائر صفات الذات وصفات الفعل.

[٣] ﴿الذي خلق﴾ الخلق كلهم ﴿فسوّى﴾ بينهم في الإحكام والإتقان والدقة، فليس بعض الخلق متقناً وبعضه غير متقن، كما سوّى خلق كل شيء فأعطاه ما يصل به إلى الكمال اللائق به من الأجهزة والآلات.

[٤] ﴿والذي قدّر﴾ والتقدير هو التخطيط، كما يقدر المهندس البناء ثم يبنيه ﴿فهدى﴾ كل ذي روح إلى مصالحه، فهو خلق، وإعطاء أجهزة، وتقدير للحياة، وهداية.

[٥] ﴿والذي أخرج المرعى﴾ أي أنبت الحشيش الذي ترعاه الحيوانات من الأرض.

[٦] ﴿فجعله﴾ أي المرعى بعد الخضرة ﴿غثاء﴾ أي هشيماً جافاً كالغثاء الذي تراه فوق السيل، بمعنى المجتمع من هنا وهناك بلا علاقة وارتباط ومشابهة ﴿أحوى﴾ أي أسود بعد الخضرة، فإن الحوة بمعنى السواد.

سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ﴿٧﴾ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ﴿٨﴾ وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٩﴾

[٧] ومن هدايته سبحانه أنه أنزل القرآن على الرسول، وقد قال ابن عباس: كان النبي صلى الله عليه وآله إذا نزل عليه جبرئيل بالوحي يقرأه مخافة أن ينساه، فكان لا يفرغ جبرئيل من آخر الوحي حتى يشرع الرسول في القراءة. فأنزل الله تعالى عليه هذه الآية[1] ﴿**سنقرئك**﴾ القرآن، أي نتلو عليك لتقرأه ﴿**فلا تنسى**﴾ منه شيئاً، فقد شاءت إرادته سبحانه أن يكون النبي صلى الله عليه وآله منزّهاً عن النسيان، وكذلك سائر الأنبياء عليهم السلام. أما قوله «تنسى» فهو من قبيل (إنَّا نَسِيناكُمْ)[2]، ولعل العمل كان تعليماً للمسلمين فيما بعد بأن يحرصوا على القرآن مثل هذا الحرص.

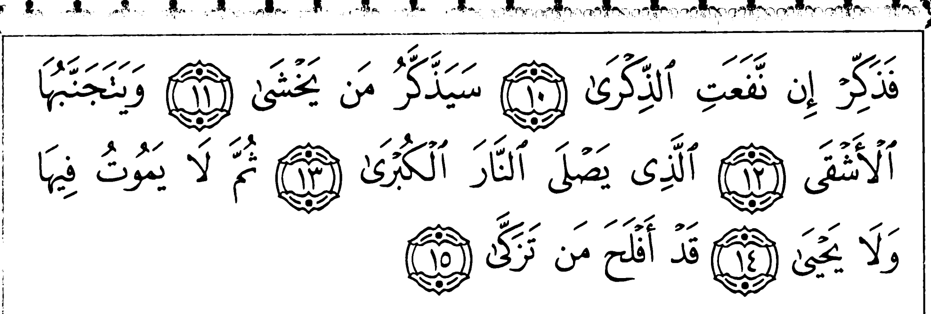
[٨] ﴿**إلا ما شاء الله**﴾ أن تنساه، وفيه دلالة على أن عدم نسيانه إنما هو من الله سبحانه، حتى أنه إذا شاء غيره قدر عليه، قالوا: ودخول المشيئة في هذه الآية للدلالة على أن النبي مهما بلغ من العظمة فإن جميع أموره بيده تعالى ﴿**إنه**﴾ سبحانه ﴿**يعلم الجهر**﴾ من الكلام ﴿**وما يخفى**﴾ كالسر والنجوى، فكل ذلك من الإقراء وعدم النسيان إلا بمشيئته تابع لعلمه الواسع الذي يشمل كل شيء، وبما علّمه من الصلاح جعل النبي صلى الله عليه وآله بحيث لا ينسى، وإلا فلو كان ينسى لم يؤمن على التبليغ، لتطرق احتمال النسيان في كل شيء من أقواله وأفعاله.

[٩] ﴿**ونيسرك**﴾ يا رسول الله، أي نوفقك ﴿**لليسرى**﴾ أي الطريقة اليسرى

---

(١) مجمع البيان: ج١٠ ص٣٢٩ .

(٢) السجدة: ١٥ .



في جميع الأمور، فإن أحكامه سبحانه توصل إلى السعادة بأيسر الطرق وأسهلها.

[١٠] ﴿**فذكر**﴾ يا رسول الله الناس بما أودع فيهم من الفطرة الدالة على الألوهية والمعاد وما أشبه ﴿**إن نفعت الذكرى**﴾ أي إن كان الذكر في معرض النفع ولو إتمام الحجة، أما إذا علم الرسول أن ذكره لا ينفع إطلاقاً في الهداية لليأس، ولا في إتمام الحجة لتمام الحجة على المخاطبين سابقاً، فلا لزوم للتذكير. وقيل «إن» بمعنى «قد» أي قد نفعت الذكرى، بمعنى قد تنفع.

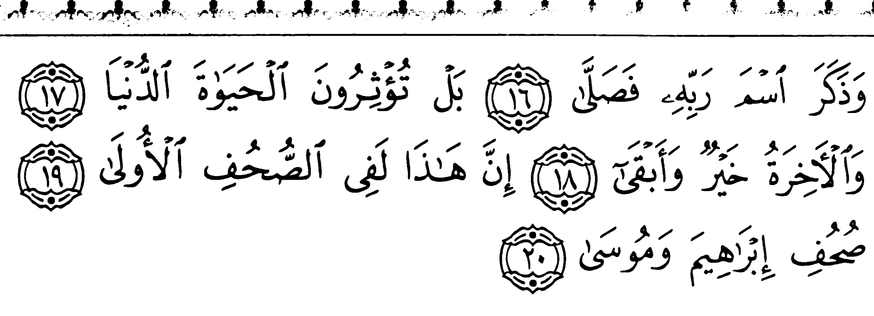
[١١] ﴿**سيذكر**﴾ أصله «يتذكر» أدغمت التاء في الذال وجيء بهمزة الوصل لتعذر الابتداء بالساكن ﴿**من يخشى**﴾ أي سيتعظ بالقرآن وبكلامك من يخشى عقاب الله سبحانه.

[١٢] ﴿**ويتجنبها**﴾ أي يبتعد عن الموعظة والذكرى ﴿**الأشقى**﴾ أي الأكثر شقوة، فإن الكافر المجتنب للذكرى أكثر شقاءً من العاصي.

[١٣] ﴿**الذي يصلى**﴾ أي يدخل ويلازم ﴿**النار الكبرى**﴾ وهي نار جهنم.

[١٤] ﴿**ثم لا يموت فيها**﴾ أي في تلك النار ليستريح ﴿**ولا يحيى**﴾ حياةً هادئة مريحة.

[١٥] ﴿**قد أفلح**﴾ أي فاز ونجح ﴿**من تزكى**﴾ أي تطهر باجتناب الرذائل، والتحلي بالفضائل.


وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾ إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾

[١٦] ﴿وذكر اسم ربه﴾ أي تذكر الله سبحانه بقلبه، والإتيان بـ «اسم» للتعظيم ﴿فصلى﴾ لله، أي خضع وخشع، أو أتى بالصلاة فإنها دليل خشوع الإنسان وتذكره لله تعالى. وفي بعض الروايات أن المراد بها زكاة الفطرة وصلاة العيد، والظاهر أنها من باب المصداق، وانطباق الكلي على مصاديقه يمكن أن يكون بعد مدة ـ عند وجود المصداق ـ فلا يقال: كيف يصح والسورة مكية ولم يكن هناك زكاة فطرة ولا صلاة عيد؟

[١٧] ﴿بل﴾ أنتم أيها الناس لا تفعلون ذلك، وإنما ﴿تؤثرون﴾ أي تختارون ﴿الحياة الدنيا﴾ أي الحياة القريبة، تختارونها على الآخرة فتصرفون أموالكم وأوقاتكم في ملاذّها، لا في الزكاة والصلاة.

[١٨] ﴿والآخرة﴾ أي الجنة ﴿خير﴾ من الدنيا، لأن نعيمها أكثر ولا يشوبها كدر ﴿وأبقى﴾ لأنها دائمة مستمرة، بخلاف الدنيا فإنها فانية زائلة.

[١٩] ﴿إن هذا﴾ الذي ذكر من فلاح المتزكي المصلي، أو سائر ما ذكر في هذه السورة ﴿لفي الصحف الأولى﴾ فكل كتب الله المنزلة تحرض على الزكاة والصلاة وسائر الخيرات، وليس هذا بدعاً من القرآن.

[٢٠] ﴿صحف إبراهيم وموسى﴾ وذكر هذين النبيين من باب المثال، وإلا فكل الأنبياء كانوا يدعون إلى التزكي والتطهر والصلاة والزكاة.



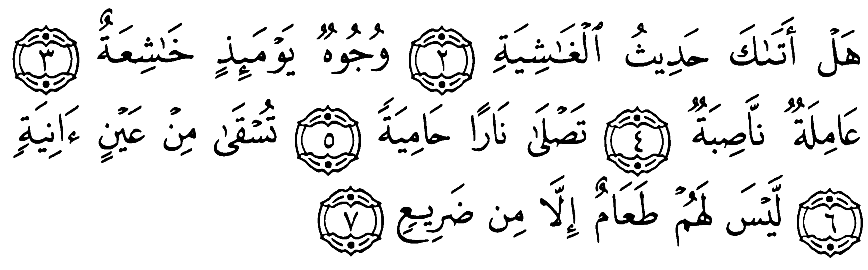
سُورة الغَاشيَة

مكيّة/آياتها (٢٧)

سميت السورة بهذا الاسم لاشتمالها على لفظة «الغاشية»، وهي كسائر السور المكية تعالج قضايا العقيدة، وحيث تضمنت سورة الأعلى انقسام الناس في الآخرة إلى قسمين، جاءت هذه السورة لمثل ذلك.



[١] ﴿**بسم الله الرحمن الرحيم**﴾ ابتداء باسم الإله المالك لكل شيء فهو أفضل شيء يبتدأ به، الرحمن الرحيم الذي يتفضل بالرحمة على كل العباد.



[٢] ﴿هل أتاك﴾ أيها الإنسان، أو يا رسول الله ﴿حديث الغاشية﴾ أي خبر القيامة؟ وتسمى بالغاشية لأنها تغشى الناس بأهوالها، والاستفهام للإلفات والإيقاظ.

[٣] ﴿وجوه يومئذ﴾ أي في يوم القيامة ﴿خاشعة﴾ ذليلة بسبب ما عملت من الكفر والآثام، وإنما نسب الخشوع إلى الوجوه لظهوره فيها.

[٤] ﴿عاملة﴾ قد عملت في النار وكدت ﴿ناصبة﴾ وتعبت، فإن النصب بمعنى التعب، ولكنها لم تنتفع بأعمالها وأتعابها، بل بالعكس صارت دنياه سبباً للعذاب والعقاب.

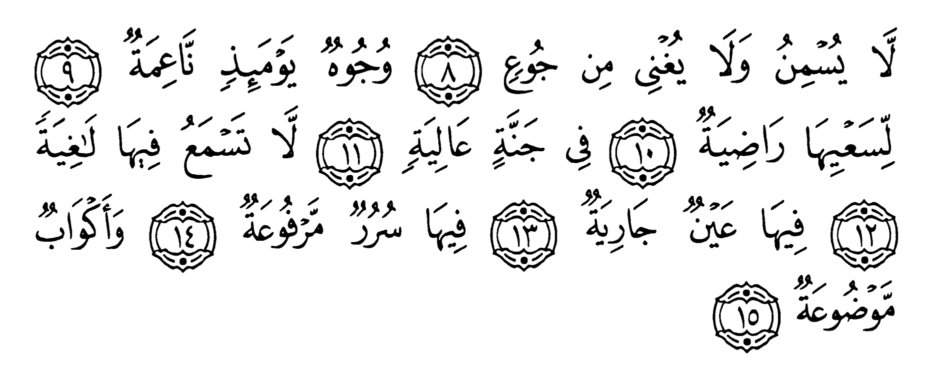
[٥] ﴿تصلى ناراً﴾ أي تدخل تلك الوجوه النار وتلازمها ﴿حامية﴾ قد حميت حتى تناهت في الحرّ.

[٦] ﴿تسقى﴾ أي أصحاب تلك الوجوه، وقد أطلق الوجوه على أصحابها بعلاقة الجزء والكل، من قبيل إطلاق «الرقبة» على الإنسان ﴿من عين آنية﴾ قد بلغت حرارتها وأناها إلى منتهى الدرجة، فإن آنية بمعنى البالغة أشد درجات الحرارة.

[٧] ذاك شرابهم، فما هو طعامهم؟ ﴿ليس لهم طعام إلا من ضريع﴾ وهو نبت يضر ولا ينفع. وفي حديث عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم إنه شيء يكون في النار يشبه الشوك أمرّ من الصبر وأنتن من الجيفة وأشد حرّاً من النار[١].

---

(١) مجمع البيان: ج١٠ ص٣٣٦.



[٨] ﴿**لا يسمن**﴾ أكله ﴿**ولا يغني من جوع**﴾ فآكله يحس بالجوع بعد أكله كما يحس بالجوع قبل أكله.

[٩] ذلك أحوال العصاة فلننظر إلى أحوال المتقين ﴿**وجوه يومئذ**﴾ أي في يوم القيامة ﴿**ناعمة**﴾ منعمة في أنواع اللذات ظاهر عليها أثر النعمة والسرور.

[١٠] ﴿**لسعيها**﴾ في الدنيا وما عملت سابقاً ﴿**راضية**﴾ حيث قد حصلت على الجنة بسببها.

[١١] ﴿**في جنة عالية**﴾ رفيعة المكان والقدر، فإن قصورها ومكانها في أعالي الجو.

[١٢] ﴿**لا تسمع**﴾ أولئك الأشخاص أصحاب الوجوه الناعمة ﴿**فيها**﴾ في الجنة ﴿**لاغية**﴾ أي كلمة ساقطة لا فائدة فيها.

[١٣] ﴿**فيها**﴾ أي في تلك الجنة ﴿**عين جارية**﴾ تجري حتى يتناول الماء كل إنسان يمر بها، والماء الجاري أطيب ذوقاً وأجمل في النظر.

[١٤] ﴿**فيها**﴾ أي في تلك الجنة ﴿**سرر**﴾ جمع سرير، وهو الكرسي ﴿**مرفوعة**﴾ في المكان، وفي القيمة، وفي القدر.

[١٥] ﴿**وأكواب**﴾ جمع كوب، وهو قدح صغير جميل ﴿**موضوعة**﴾ على حافات الأنهر للاستقاء والشرب، وفي تقابل «موضوعة» لـ «مرفوعة»

وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ﴿١٦﴾ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ﴿١٧﴾ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿٢٠﴾

بلاغة بديعة.

[١٦] ﴿**ونمارق**﴾ جمع نمرقة، وهي الوسادة التي يتكأ عليها ﴿**مصفوفة**﴾ قد صف بعضها إلى جانب البعض.

[١٧] ﴿**وزرابي**﴾ جمع زربي، وهو البساط ﴿**مبثوثة**﴾ أي منتشرة مفروشة للجلوس عليها.

[١٨] وإذ ذكر سبحانه بعض أحوال الجنة والنار عطف السياق نحو الأدلة الدالة على الألوهية، تعبئة للناس نحو السعادة الأبدية ﴿**أفلا ينظرون**﴾ هؤلاء المنكرون للخالق ﴿**إلى الإبل كيف خلقت**﴾ في إحكام وتدقيق، وليس لأي حيوان بالذات خصوصية، في التذكير بالله سبحانه والدلالة عليه، إذ كل حيوان آية دالة على وجود الله وسائر صفاته، وإنما ذكر الإبل لأنها إحدى الآيات الأليفة للعرب، مع مناسبة لها بسائر ما ذكر في الآيات التالية فإن السماء المرفوعة والأرض المسطوحة الوسيعة والجبال المرفوعة إنما تلائمها الإبل السائرة عبر الصحاري حيث لا شيء إلا الأرض والجبال والسماء.

[١٩] ﴿**وإلى السماء كيف رفعت**﴾؟ والمراد بها الكواكب، أو المدارات، أو ما يرى من الهواء الملون.

[٢٠] ﴿**وإلى الجبال كيف نصبت**﴾ على الأرض كالأوتاد لئلاّ تزول وتتحرك وتضطرب؟.

وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢١﴾ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢٢﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٣﴾ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٤﴾ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ﴿٢٥﴾ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٧﴾

---

[٢١] ﴿**وإلى الأرض كيف سطحت**﴾؟ أي بسطت لتصلح طرائق للناس، والمراد أفلا يتفكرون في هذه المخلوقات حتى يستدلوا بها على وجوده سبحانه وسائر صفاته؟ والاستفهام للتوبيخ والتقريع.

[٢٢] ﴿**فذكر**﴾ يا رسول الله الناس بهذه الآيات ﴿**إنما أنت مذكر**﴾ تبين لهم الحقائق ليتذكروا ما أودع في فطرتهم من الألوهية والمعاد وما أشبه.

[٢٣] ﴿**لست عليهم**﴾ أي على هؤلاء القوم ﴿**بمسيطر**﴾ أي بمسلط، حتى تكون مسؤولاً عن انحرافهم، وإنما شأن الأنبياء التذكير والوعظ، فمن شاء اهتدى ومن شاء انحرف.

[٢٤] فذكر، فإن الذكرى تنفع ﴿**إلا**﴾ في ﴿**من تولى**﴾ أي من أعرض عن الحق ﴿**وكفر**﴾ بالله واليوم الآخر، وذلك لا يفلت من قبضة الله سبحانه.

[٢٥] ﴿**فيعذبه الله العذاب الأكبر**﴾ وهو عذاب الآخرة.

[٢٦] ﴿**إن إلينا**﴾ أي إلى جزائنا وحسابنا ﴿**إيابهم**﴾ أي رجوعهم بعد الموت، من «آب» بمعنى رجع.

[٢٧] ﴿**ثم إن علينا**﴾ بعد الإياب ﴿**حسابهم**﴾ فيحاسب كل بما عمل، ويعطى جزاؤه إن شراً فشر وإن خيراً فخير.



سُورة الفَجر

مكيّة/آياتها (٣١)

سميت السورة بهذا الاسم لاشتمالها على لفظة «الفجر»، وهي كسائر السور المكية تعالج قضايا العقيدة في أصولها، ولما ختمت سورة الغاشية بذكر عذاب «من تولى» في الآخرة ابتدأت هذه السورة بذكر تعذيبهم في الدنيا.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿١﴾

[١] ﴿**بسم الله الرحمن الرحيم**﴾ نستعين باسْمِ الله الذي بيده كل شيء، وهو المبدأ والمعاد، وهل شيء أولى بالابتداء من اسم الله تعالى؟ الرحمن الرحيم الذي يتفضل بالرحمة على العباد.

وَالْفَجْرِ ﴿٢﴾ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ﴿٣﴾ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ﴿٤﴾ وَالَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴿٥﴾ هَلْ فِى ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِى حِجْرٍ ﴿٦﴾ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٧﴾ إِرَمَ

[٢] ﴿**والفجر**﴾ أي قسماً بالفجر، وهو انفجار الصبح قبل طلوع الشمس، فإن النور يظهر ممتداً في جانب المشرق قبل ساعة ونصف من الطلوع.

[٣] ﴿**وليالٍ عشر**﴾ أي قسماً بالليالي العشر من ذي الحجة ـ على ما ذكروا ـ وكأن الحلف هنا بما ينشأ منه الخير، فإن الفجر ينشأ منه الضياء، وهذه الليالي محل الأعمال والطاعات.

[٤] ﴿**و**﴾ قسماً بـ ﴿**الشفع**﴾ ركعتا صلاة الليل ﴿**والوتر**﴾ الركعة الأخيرة منها، أو الشفع يوم تروية، والوتر يوم عرفة ـ كما روي ـ.

[٥] ﴿**و**﴾ قسماً بـ ﴿**الليل إذا يسر**﴾ أي يمضي، كقوله: (واللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ)[1] وأصله «يسري» حذف الياء للسياق، والمقسم له محذوف، تقديره لنعاقب الكفار، دلّ عليه قوله «ألم تر..».

[٦] ﴿**هل في ذلك**﴾ الذي تقدم من الأيمان ﴿**قسم**﴾ يكن ﴿**لذي حجر**﴾ أي ذي عقل؟ فإن «الحجر» من أسماء العقل، سمي بذلك لأنه يحجر صاحبه عن الإتيان بما لا يليق به، والاستفهام للتأنيب، بمعنى كيف لاتصدقون بما نقول بعد هذه الأيمان؟.

[٧] ﴿**ألم تر**﴾ يا رسول الله، أو أيها السامع، والمراد بالرؤية العلم، أي ألم تعلم ﴿**كيف فعل ربك بعاد**﴾ أي بقبيلة عاد؟

[٨] ﴿**إرم**﴾ عطف بيان لـ «عاد»، وهي اسم أرض بنت عاد عليها أبنية فخمة

(١) المدثر: ٣٤ .

ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ﴿٨﴾ ٱلَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي ٱلْبِلَٰدِ ﴿٩﴾ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ﴿١٠﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ﴿١١﴾

جميلة، وإنما مع أن تكون «إرم» عطف بيان، لأن «عاداً» اسم لقبيلتين «عاد» الأولى و «عاد» الثانية، فالأولى كانت صاحبة «إرم» والتقدير «عاد إرم»، وهذا كما تقول «مررت ببني هاشم، المدينة المنورة» **﴿ذات العماد﴾** جمعه عمد، أي أبنية إرم التي كانت لها أعمدة، ويستعمل العماد في القوة والشرف، يقال «فلان رفيع العماد».

فقد قالوا إن «شداد» من أبناء «عاد» توسع سلطانه، وعظم أمره، وكان كافراً بالله، فسمع بالجنة وأوصافها، فقال نبني في الأرض مثلها، فبناها في «إرم» وسميت بهذا الاسم، وكانت عظيمة فخمة جميلة ذات قصور وحدائق وأثاث ورياش، فلما أن أراد هو وقومه وجيشه دخولها أهلكهم الله سبحانه، بأن بعث عليهم صيحة عظيمة فهلكوا جميعاً.

[٩] **﴿التي لم يخلق مثلها﴾** أي مثل قبيلة عاد ـ في القوة والثروة وما أشبه ـ أو مثل «إرم» في الفخامة والضخامة والجمال **﴿في البلاد﴾** والظاهر أن المراد عدم خلق مثلها في تلك الأزمنة، لا مطلقاً.

[١٠] **﴿و﴾** ألم تر كيف فعل ربك بـ **﴿ثمود﴾** قوم صالح **﴿الذين جابوا الصخر﴾** أي قطعوا الصخور من الجبال، وجاؤوا بها **﴿بالواد﴾** أي وادي قرى، وهو مسكنهم فبنوا بها البيوت الصخرية؟

[١١] **﴿و﴾** ألم تر كيف فعل ربك بـ **﴿فرعون ذي الأوتاد﴾** جمع «وتد» الذي كان يدق في جسم مخالفيه الوتد، ويذره حتى يموت ـ كما قيل ـ

ٱلَّذِينَ طَغَوۡاْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ﴿١٢﴾ فَأَكۡثَرُواْ فِيهَا ٱلۡفَسَادَ ﴿١٣﴾ فَصَبَّ عَلَيۡهِمۡ رَبُّكَ سَوۡطَ عَذَابٍ ﴿١٤﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلۡمِرۡصَادِ ﴿١٥﴾ فَأَمَّا ٱلۡإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ

والمراد به فرعون موسى عليه السلام وقد مثل الله سبحانه بأقوى الأمم في زمانهم، ليبين أنهم حيث عتوا وخالفوا أوامر الله سبحانه أهلكهم سبحانه ولم تنفعهم قوتهم شيئاً ومصير هؤلاء الكفار ـ الذين هم أضعف من أولئك ـ مصير أولئك لو تمادوا في الكفر والطغيان.

[١٢] ﴿**الذين طغوا في البلاد**﴾ أي تجبروا على أنبياء الله، وعملوا بالكفر والمعاصي.

[١٣] ﴿**فأكثروا فيها**﴾ أي في البلاد ﴿**الفساد**﴾ بالقتل والفجور وغيرهما.

[١٤] ﴿**فصبّ عليهم ربك سوط عذاب**﴾ وإنما عبر عن العذاب بالسوط لشدة إيلامه، ونسب إليه الصب لأن السوط حيث فيه لين يأتي إلى الجسم تدريجياً مشابهاً للصب، الذي يأتي على الجسم بتدريج ـ وفي هذا التعبير من البلاغة ما لا يخفى ـ.

[١٥] ﴿**إن ربك**﴾ يا رسول الله ﴿**لبالمرصاد**﴾ هو المحل الذي يجلس الإنسان ليرصد ويراقب أحوال غيره ـ من حيث لا يرونه ـ وهذا كناية عن أنه سبحانه مطلع على الناس، فمن كفر وأساء مراقب من قبله تعالى، لايفوته.

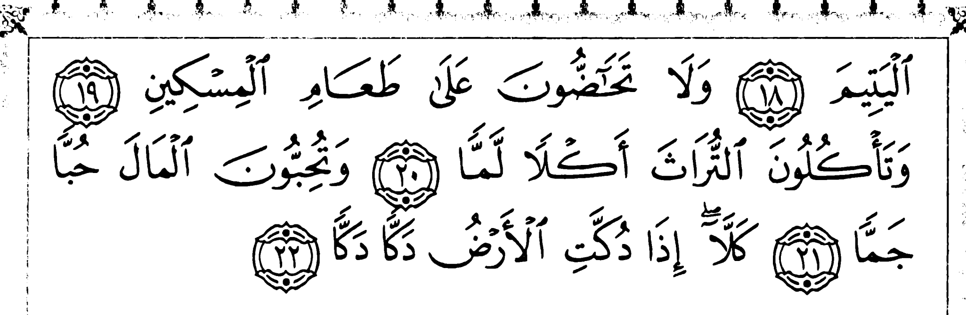
[١٦] وهكذا يطغي الإنسان ـ ليكون له ذلك المصير ـ إذا لم يسترشد بإرشادات الله تعالى ﴿**فأما الإنسان**﴾ والمراد به الذي لم يهتد بنور الإيمان ﴿**إذا ما ابتلاه ربه**﴾ أي امتحنه واختبره، و «ما» مزيدة جيئت

فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٦﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٧﴾ كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ

للتأكيد، ولعل النكتة في زيادتها الإلماع إلى أن «ابتلاءه» ليس بابتلاء حقيقة، وإنما هو شيء طفيف يصيبه ومع ذلك لا ينجح في الامتحان ﴿**فأكرمه ونعّمه**﴾ بأن جعل له مكاناً كريماً ذا شرافة، ونعمة وافرة، ليختبره هل يعمل بوظيفته في الثروة والجاه أم لا؟ ﴿**فـ**﴾ يفرح بذلك ويظنه ثواباً له وجزاءً على عمله، وأنه باستحقاق أوتي ما أوتي و ﴿**يقول ربي أكرمنِ**﴾ حذفت الياء تخفيفاً، أي أن هذا لكرامتي على الله، ولا يعتبره امتحاناً.

[١٧] ﴿**وأما إذا ما ابتلاه**﴾ أي امتحنه الله سبحانه بالفقر والضعة ﴿**فقدر**﴾ أي ضيق ﴿**عليه**﴾ أي على الإنسان ﴿**رزقه**﴾ فجعله فقيراً مملقاً ﴿**فـ**﴾ يحزن لذلك ويظن أن ذلك هوان من الله عليه، و ﴿**يقول ربي أهاننِ**﴾ أي أهانني، ولا يعتبر ذلك ابتلاءً، وهذا بخلاف الإنسان المؤمن الذي يرى كل شيء يصيبه اختباراً وامتحاناً، فيخاف من النعمة لئلا يعصي الله فيها فلا يشكره، ولا يحزن من الفقر لأنه يعتبره امتحاناً له إن صبر كان رفعاً لدرجته.

[١٨] ﴿**كلا**﴾ ليس الأمر كما ظن هذا الإنسان، فإن التنعيم ليس لكرامة، والإفقار ليس لإهانة بل كل ذلك مختلف، والمجموع للابتلاء والاختبار ﴿**بل**﴾ إنهم غافلون عن حكمة الإعطاء والمنع، ذاهلون أن كل ذلك للابتلاء، ولذا لا يقومون بواجب العطاء ـ ولم يذكر القيام بواجب الفقر من الصبر، لأن الكلام كان موجهاً نحو الأغنياء من الناس الذين مثل لهم بمصارع عاد وثمود وفرعون ـ فـ ﴿**لا تكرمون**



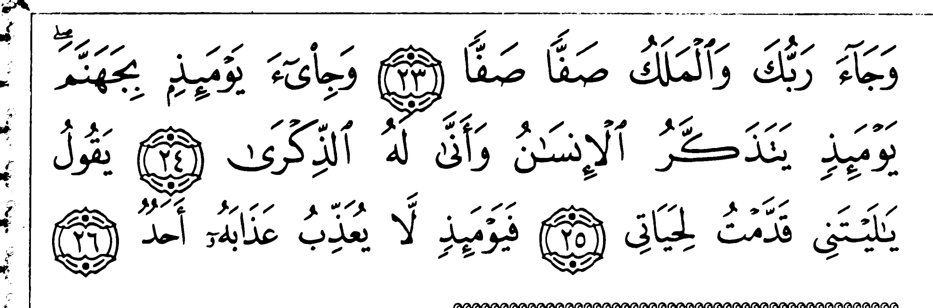
اليتيم﴾ الذي مات أبواه، بإيوائه وإعطائه.

[١٩] ﴿ولا تحاضون﴾ من الحض ـ وهو الحث ـ أي لا يحث بعضكم بعضاً ﴿على طعام المسكين﴾ أي الفقير الذي أسكنه فقره عن الحركة في الأمور.

[٢٠] ﴿وتأكلون التراث﴾ أي الميراث ﴿أكلاً لمّاً﴾ شديداً تلمون جميعه في الأكل، بلا إعطاء حقوق الميت، وحقوق الله، وحقوق سائر ذوي الميراث، فإنهم كانوا يحرمون النساء والصبيان والضعفاء من الورثة، فلا يعطونهم من حقهم شيئاً، وهذا دليل الشِرة نحو المال وإنهم لايجعلون المال دليلاً للابتلاء، بل دليلاً لتكريم الله لهم.

[٢١] ﴿وتحبون المال حباً جماً﴾ أي حباً كثيراً شديداً، حتى أنهم لا ينفقونه فيما يجب أو يستحب إنفاقه، كما هو شأن من لا يؤمن بالله واليوم الآخر، ولا يجعل المال دليل الابتلاء ليعمل فيه بأمر الله ويخشى مغبته.

[٢٢] ﴿كلا﴾ ليس الأمر كما زعمتم بأنه لا عواقب وخيمة لأعمالكم هذه، فإن من يظن تكريم الله له يسهل عليه العمل بالوظائف في أموره وشؤونه فـ ﴿إذا دكت الأرض﴾ أي كسر كل شيء على ظهرها ﴿دكاً دكاً﴾ كسراً كسراً، من جبال ومرتفعات وأنصبة وأشباهها، وذلك لأن الأرض تسوى حتى لا يبقى على ظهرها عوج ولا أمت.

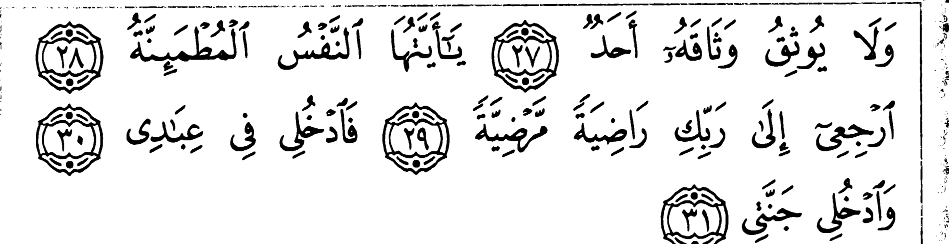


[٢٣] ﴿وجاء ربك﴾ أي أمر ربك، كما يظهر ملوك الدنيا في هيبة وجلال، فإن الهيبة والجلال التي تظهر يوم القيامة لله سبحانه تكون بمثابة مجيء الله سبحانه، لكنه حيث كان منزهاً عن الجسم ولوازمه، يجيء آثار جلاله ﴿و﴾ جاء ﴿الملك﴾ المربطون بذلك اليوم في حال كونهم ﴿صفاً صفاً﴾ أي مصطفين صفوفاً متعددة.

[٢٤] ﴿وجيء يومئذ﴾ أي يوم القيامة ﴿بجهنم﴾ بأن تمتد نيرانها إلى المحشر بعدما كانت مبتعدة مستعدة لالتهام الكفار والعاصين ﴿يومئذ﴾ أي في هذا اليوم ـ وأصله يوم إذ كان كذا ـ ﴿يتذكر الإنسان﴾ أي يتعظ ويخاف ويهتدي ﴿و﴾ لكن ﴿أنى له الذكرى﴾؟ أي من أين ينفعه التذكر في ذلك اليوم، فقد مضى وقت نفع التذكر، وإنما هناك جزاء فقط لا عمل.

[٢٥] ﴿يقول﴾ الإنسان العاصي، ﴿يا ليتني قدمت﴾ عملاً صالحاً ﴿لحياتي﴾ هذه التي تبقى إلى الأبد، ولكن لا ينفعه التمني، كما يقول المثل «ندم زيد ولما ينفعه الندم».

[٢٦] ﴿فيومئذ﴾ أي في ذلك اليوم ﴿لا يعذّب عذابه أحد﴾ أي لا يعذب مثل عذاب الله أحد، فإن عذابه ليس كسائر أنواع عذاب الناس بعضهم لبعض، وإنما هو عذاب غريب عجيب.



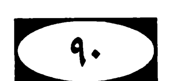
[٢٧] ﴿و﴾ يومئذ ﴿لا يوثق وثاقه﴾ أي مثل وثاقه سبحانه وتعالى ﴿أحد﴾ والوثاق هو الشد، يقال أوثقته أي شددته.

[٢٨] ثم يخاطَب المؤمنون بقوله سبحانه ﴿يا أيتها النفس المطمئنة﴾ من أهوال ذلك اليوم، لما عملت في الدنيا من الإيمان والإطاعة.

[٢٩] ﴿ارجعي إلى ربك﴾ أي إلى ثوابه وجزائه في حال كونك ﴿راضية﴾ عن الله سبحانه ﴿مرضية﴾ له تعالى، فإنه سبحانه راض عنك بسبب إيمانك وأعمالك.

[٣٠] ﴿فادخلي في﴾ زمرة ﴿عبادي﴾ الصالحين.

[٣١] ﴿وادخلي جنتي﴾ فأنت في رضاي وفي جنتي، وكأن الخطاب للنفس لزيادة التكريم، حتى كأنها هي التي تحملت أتعاب الجسد، فاستحقت أن تكون هي صاحبة المثوبة.



سُورة البَلد

مَكيّة/آياتها (٢١)

سميت هذه السورة بهذا الاسم لاشتمالها على لفظة «بلد»، وهي كسائر السور المكية تعالج قضايا العقيدة وتحتج عليها، وحيث كانت السورة السابقة لتقسيم الناس إلى صالحين وطالحين جاءت هذه السورة لتبين ذلك بوجه آخر.



[١] ﴿**بسم الله الرحمن الرحيم**﴾ نبتدئ باسم الله، وإنما جاء بالاسم لأنه هو المبدوء به لا الذات، الرحمن الرحيم الذي يرحم العباد بتكميل نواقصهم وإبلاغهم الكمال الممكن فيهم تكويناً وإرشاداً.

لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ﴿٢﴾ وَأَنتَ حِلٌّ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ﴿٣﴾ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ﴿٤﴾ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ﴿٥﴾

[٢] ﴿**لا أقسم بهذا البلد**﴾ والمراد به مكة، و «لا» إما للنفي جيء بها للتلويح إلى القسم مع تعظيم المقسم به، وإما زائدة، فالمعنى أقسم بهذا البلد، والآية الثانية تناسب الأمرين باعتبارين.

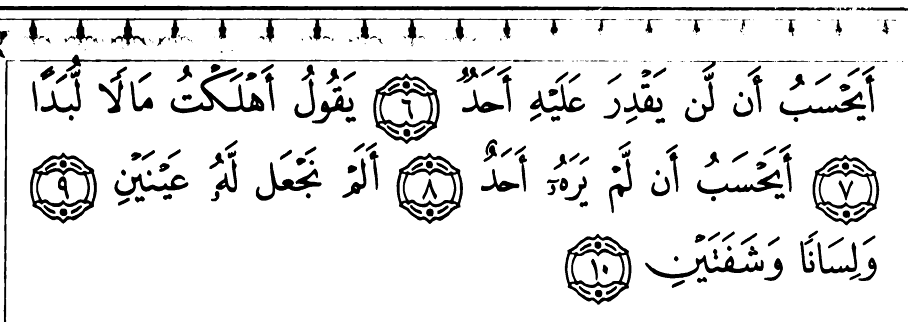
[٣] ﴿**وأنت**﴾ يا رسول الله ﴿**حلّ**﴾ أي مقيم قد حللت ﴿**بهذا البلد**﴾ فإنه قد تشرف بك، فإن شرف المنزل بشرف النازل، و «الحل» بمعنى الحال، وكلاهما بمعنى الساكن، فهذا البلد إنما يقسم به لشرفه بك أو يعظم فلا يقسم به لشرفه بك.

[٤] ﴿**و**﴾ قسماً بـ ﴿**والد وما ولد**﴾ أي كل والد وكل ولد، أو المراد آدم عليه السلام وأولاده، فإن كل خلق الله عظيم يصح أن يجعل في معرض القسم. نعم ليس لنا أن نحلف بكل شيء، لما ورد من قوله صلى الله عليه وآله: «من كان حالفاً فليحلف بالله أو ليسكت»[١].

[٥] وجواب القسم قوله: ﴿**لقد خلقنا الإنسان في كبد**﴾ أي في تعب ومشقة، فإنه يكابد الشدائد والمصائب والمتاعب، فإن «الكبد» لغة بمعنى شدة الأمر، والمعنى أنه لا يزال يكابد الأتعاب ـ بما قدر الله له وللكون من الأنظمة ـ ولذا قال تعالى في حديث قدسي «إني ما جعلت الراحة في الدنيا والناس يطلبونها فيها فلا يجدوها».

[٦] إن الإنسان الذي خلق في عناء ومشقة، ليدل ذلك على ضعفه وعجزه إذا رأى بعض القوة في ذاته عتا وتكبر وزعم أنه لا قادر عليه

(١) متشابه القرآن ومختلفه: ج٢ ص١٩٨ .



أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ﴿٦﴾ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا ﴿٧﴾ أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٨﴾ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ﴿٩﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿١٠﴾

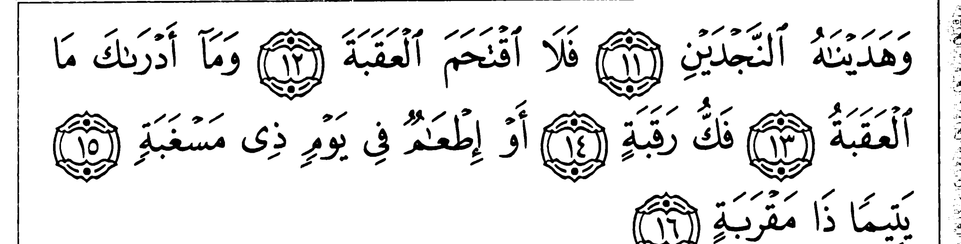
﴿**أيحسب**﴾ أي هل يظن ويزعم الإنسان ﴿**أن لن يقدر عليه أحد**﴾ بسلبه القوة والثروة والحياة وما أشبه؟

[٧] وإذا قيل له: ابتغ مرضاة الله ببذل الأموال في سبيله لأنك عبد عاجز ضعيف له سبحانه، وهو قادر على تقليبك كيف يشاء ﴿**يقول**﴾ في الجواب: ﴿**أهلكت**﴾ في الإنفاق ﴿**مالاً لبداً**﴾ أي كثيراً، مأخوذ من تلبد الشيء إذا تراكم بعضه على بعضه، وحسبي ما أنفقت ـ كما أن هذا هو منطق الأثرياء غالباً ـ.

[٨] ﴿**أيحسب**﴾ أي يزعم ﴿**أن لم يره أحد**﴾ حيث أنفق؟ بل إنّ الله رآه وعرف قدر إنفاقه ولم يكن ما أنفق كثيراً بالنسبة إلى أمواله وبالنسبة إلى مقابلته بالثواب المرجو في الآخرة للمنفقين. قيل: إنها نزلت في الحرث، وذلك أنه أذنب ذنباً فاستفتى رسول الله؟ فأمره أن يكفر، فقال: لقد ذهب مالي في الكفارات والنفقات منذ دخلت في دين محمد ﷺ.

[٩] إنه يبخل عن بذل بعض ماله في سبيل الله الذي أودع فيه القوى التي لاتثمن بثمن فلم يؤدّ شكرها، ولم يبصر بسببها طريق الرشاد ﴿**ألم نجعل له عينين**﴾ ليبصر بهما ويرى طريقه؟

[١٠] ﴿**ولساناً وشفتين**﴾؟ لينطق به ويتجمل بالشفة لعدم قبح منظره بفغر الفم.



[١١] ﴿وهديناه﴾ أي أرشدناه ﴿النجدين﴾؟ أي سبيل الخير وسبيل الشر، وأصل «النجد» هو العلو، وكأن الطريق موجب لارتفاع الإنسان ارتفاعاً معنوياً بوصوله إلى حاجته، أو لظهور الطريق سمي نجداً تشبيهاً بالمرتفع من الأرض.

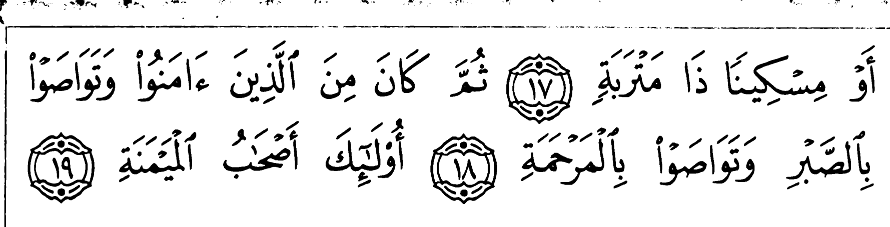
[١٢] ﴿فلا اقتحم العقبة﴾ «الاقتحام» هو الدخول في الشيء بشدة، و «عقبة» هي الطريق الصعب في الجبل، أي أن الإنسان لم يشكر تلك النعم التي أعطيناها إياه باقتحام الأمور الحسنة والعمل بها، وسميت عقبة لشدة أمرها على الإنسان.

[١٣] ﴿وما أدراك﴾ أيها السامع ﴿ما العقبة﴾ أي ما هي العقبة؟ وهذا التعبير لتعظيم أمرها والإجلال لها، ثم فسرت العقبة بأنه عتق العبد والإطعام.

[١٤] العقبة هي ﴿فكّ رقبة﴾ أي تحرير العبد من إسار الرق، وإنما أطلق على الإنسان «الرقبة» بعلاقة الجزء والكل ـ كما قرر في البلاغة.

[١٥] ﴿أو إطعام﴾ «أو» بمعنى الواو، يعني أن من أفراد «العقبة» إطعام الناس ﴿في يوم ذي مسغبة﴾ «السغب» هو الجوع، والمسغبة المجاعة.

[١٦] ﴿يتيماً﴾ مفعول «إطعام» أي ليطعم الطفل الذي مات أبوه ﴿ذا مقربة﴾ أي ذا قرابة من المُطعم، فإن الإِحسان إلى الأقرباء أفضل من الإحسان



إلى غيرهم، كما قال عليه السلام: «لا صدقة وذو رحم كاشح»[(١)].

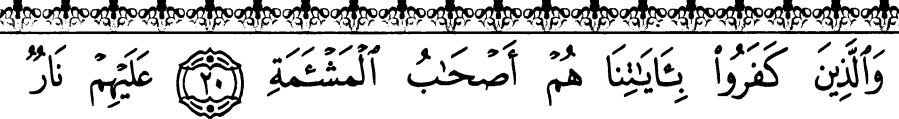
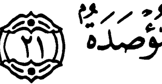
[١٧] ﴿أو مسكيناً﴾ وهو الفقير الذي أسكنه الفقر، فإن الأغنياء يتحركون في مختلف حوائجهم، أما الفقراء فإنهم حيث لا مال لهم لايتمكنون من التصرف في الشؤون ﴿ذا متربة﴾ بمعنى الحاجة الشديدة من قولهم «ترب الرجل» إذا افتقر، وأصله من التراب، لأن الفقر يلازم التراب، لعدم فراش له ليقيه منه، فالمعنى قد لصق بالتراب من شدة فقره.

[١٨] ﴿ثم﴾ لترتيب الكلمة لا ترتيب المطلب ﴿كان﴾ ذلك الإنسان الذي لم يقتحم العقبة ﴿من الذين آمنوا﴾ بالله ورسوله وما جاء به، وهذا عطف على النفي، أي لم يقتحم العقبة مع كونه مؤمناً ﴿وتواصوا بالصبر﴾ أي أوصى بعضهم بعضاً بأن يصبر على الشدائد، طاعة كانت أو معصية أو مصيبة، بأن يعمل الأول، ويترك الثاني، ولا يجزع في الثالث ﴿وتواصوا بالمرحمة﴾ أي برحم الناس والعطف عليهم، فإن «مرحمة» مصدر ميمي بمعنى الرحم.

[١٩] ﴿أولئك﴾ المتصفون بفك الرقاب وإطعام الطعام والتواصي بالصبر والمرحمة ﴿أصحاب الميمنة﴾ يؤخذ بهم ـ في القيامة ـ ناحية اليمين نحو الجنان، ويعطون كتابهم بأيمانهم، أو أنهم أصحاب يمن وبركة.

---

(١) راجع من لايحضره الفقيه: ج٢ ص٦٨، وردت كلمة محتاج بدل كاشح في الحديث.

[٢٠] ﴿**والذين كفروا بآياتنا**﴾ حججنا الدالة على التوحيد وسائر الأصول ﴿**هم أصحاب المشئمة**﴾ فإنهم كانوا أصحاب شؤم على أنفسهم.

[٢١] ﴿**عليهم نار مؤصدة**﴾ أي أن أبواب النار عليهم مسدودة مطبقة، من أوصد الباب: إذا سدّه وغلقه.

٩١

سُورة الشَمس

مكيّة/آياتها (١٦)

سميت السورة بهذا الاسم لاشتمالها على لفظة «الشمس»، وهي كسائر السور المكية تعالج قضايا العقيدة، وهي مثل السورة السابقة تصنف الناس صنفين: صنفاً للنار، وصنفاً للجنة.



[١] ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ نستعين باسم الإله الذي هو خير معين لمن استعان، الرحمن الرحيم الذي يتفضل بالرحمة والعطف لكل خلق كما قال سبحانه (وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ)[١].

---

(١) الأعراف: ١٥٧.

وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا ﴿١﴾ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ﴿٢﴾ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ﴿٣﴾ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰهَا ﴿٤﴾ وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ﴿٥﴾ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا طَحَىٰهَا ﴿٦﴾ وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾

[٢] ﴿والشمس﴾ أي قسماً بالشمس ﴿و﴾ قسماً بـ ﴿ضحاها﴾ أي انبساط ضوؤها في الآفاق.

[٣] ﴿و﴾ قسماً بـ ﴿القمر إذا تلاها﴾ أي تبع الشمس، فأخذ من ضوئها وسار في عقبها.

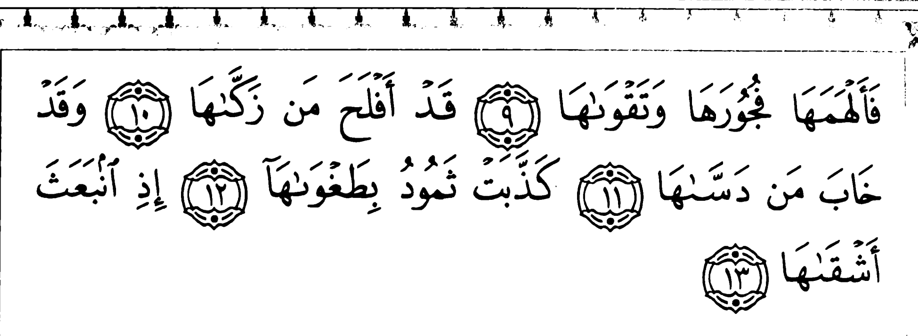
[٤] ﴿و﴾ قسماً بـ ﴿النهار إذا جلاها﴾ أي جلى الشمس وأظهرها وفيه لطف حيث أسند تجلية الشمس إلى النهار من باب «القلب»، فكأن النهار لشدة ضوئه يوضح الشمس ويظهرها، كما قال أهل البلاغة في قوله «كما طينت بالفدن السياعا».

[٥] ﴿و﴾ قسماً بـ ﴿الليل إذا يغشاها﴾ أي يغشي الشمس فيغطيها عن الأبصار ويخفيها.

[٦] ﴿و﴾ قسماً بـ ﴿السماء وما بناها﴾ أي «وقسماً بمن بنى السماء» والمراد به الله تعالى، أو «ما» مصدرية، أي وبنائها المحكم المتقن.

[٧] ﴿و﴾ قسماً بـ ﴿الأرض وما طحاها﴾ «الطحو» بمعنى البسط، أي ومن بسطها وهو الله، أو طَحْوِها، على أن تكون «ما» مصدرية ـ كما سبق ـ.

[٨] ﴿ونفس﴾ أي قسماً بكل نفس، والإتيان بها نكرة للتفنن والبلاغة ﴿وما سوّاها﴾ أي الذي صنعها، وكون «ما» موصولة ـ هنا ـ أقرب، بقرينة الآية التالية.



[٩] ﴿**فألهمها**﴾ أي عرّفها بطريق الإلقاء في القلب ﴿**فجورها**﴾ أي عصيانها ﴿**وتقواها**﴾ أي إطاعتها، فإن كل إنسان يميز بين الخير والشر والطاعة والعصيان، وهذه الأقسام في هذه السورة وغيرها إنما تلفت الأنظار إلى هذه الآيات والمعارف، بالإضافة إلى كونها حلفاً، فلا يقال: أية حاجة لهذه الأيمان؟.

[١٠] ﴿**قد أفلح من زكاها**﴾ هذا هو المقسم له، أي فاز من زكى نفسه وطهرها من الآثام والكفر.

[١١] ﴿**وقد خاب**﴾ أي خسر ﴿**من دساها**﴾ أي أخملها وأخفى محلها بالكفر والعصيان، فإن «دس» نقيض «زكى».

[١٢] ثم جاء السياق ليهدد الذين يدسون أنفسهم بأن مصيرهم مصير أولئك الأقوام المكذبين من قلبهم ﴿**كذبت ثمود**﴾ أي قبيلة ثمود وهم قوم صالح عليه السلام ﴿**بطغواها**﴾ أي بسبب طغيانها، فإن الطغيان يوجب التكذيب والكفر كما قال سبحانه (ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاؤُوا السُّوأَى أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ)[1]. و «طغوى» و «طغيان» بمعنى واحد، وهو مجاوزة الحد في العصيان.

[١٣] ﴿**إذ انبعث**﴾ فقد بعثه الأشقياء لارتكاب هذه الجناية، فانبعث ﴿**أشقاها**﴾ أي أشقى ثمود، بمعنى الفرد الذي هو أكثر شقوة من غيره

---

(١) الروم: ١١ .

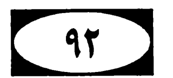
فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا ﴿١٤﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ﴿١٥﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا ﴿١٦﴾

من أفراد القبيلة، وهو «قدار»، وهو الذي عقر الناقة.

[١٤] ﴿**فقال لهم**﴾ تفريع على «كذبت» لا على «انبعث»، والضمير عائد إلى قبيلة ثمود ﴿**رسول الله**﴾ والمراد به صالح عليه السلام: احذروا ﴿**ناقة الله**﴾ بأن تمسوها بسوء ﴿**و**﴾ احذروا ﴿**سقياها**﴾ أي شربها من الماء فلا تزجروها في شربها، فقد كان هناك نهر، وقرر صالح أن يكون ماء النهر يوماً للناقة وتعطي بعوضه اللبن بقدر احتياج القبيلة، ويوماً للناس، وقال لهم: إن مسستم الناقة بسوء أخذكم العذاب ـ كما تقدم تفصيل القصة ـ.

[١٥] ﴿**فكذبوه**﴾ أي كذب أهل قبيلة ثمود صالحاً عليه السلام ـ المتقدم باسم «رسول الله» ـ ﴿**فعقروها**﴾ أي نحروا الناقة وضربوا يديها ورجليها بالسيف، والعاقر كان واحداً لكن تآمرهم على ذلك ورضاهم به أوجب إسناد الفعل إلى جميعهم ﴿**فدمدم عليهم ربهم**﴾ أي دمر عليهم الله تعالى، فإن الدمدمة ترديد الحال المستكره بمضاعفة ما فيه المشقة ﴿**بذنبهم**﴾ أي بسبب ذنبهم بعقر الناقة ﴿**فسواها**﴾ أي سوى الله الدمدمة عليهم أجمعين بحيث لم يفلت منها أحد، أو سوّى الله أرضهم بحيث استوت فلا شيء فيها.

[١٦] ﴿**ولا يخاف**﴾ الله سبحانه ﴿**عقباها**﴾ أي عاقبة الدمدمة، فإنه هو السلطان المطلق الذي لا معقب لأمره، وليس كأفراد البشر ـ الذين يخافون عاقبة بعض أعمالهم ـ وإن بلغوا ما بلغوا من السلطة والشوكة.



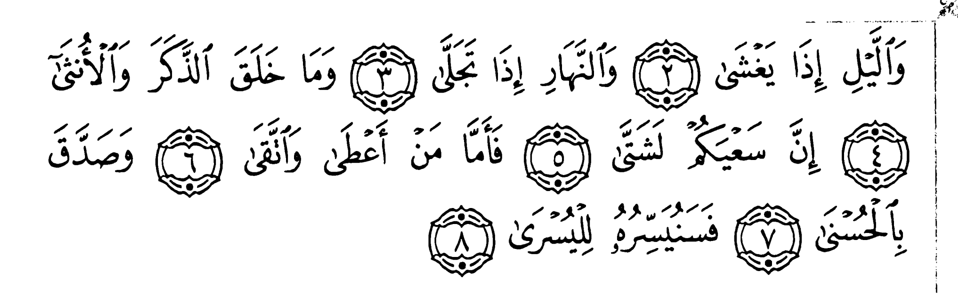
سورة الليل

مكيّة/آياتها (٢٢)

سميت السورة بهذا الاسم لاشتمالها على لفظة «الليل»، وهي كسائر السور المكية تشتمل على قضايا العقيدة، ويظهر من القصة الآتية أنها مدنية أو بعضها، وهذه السورة كالسورة السابقة بصدد تصنيف الناس إلى صنفين.



[١] ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ ابتداء باسم الله الذي هو أول كل شيء، وكما هو الأول في الكون كان من الجدير أن يبدأ به في أول كل أمر، الرحمن الرحيم الذي يرحم العباد بسد خللهم وغفران زللهم.



[٢] ﴿والليل﴾ أي قسماً بالليل ﴿إذا يغشى﴾ أي يحيط بظلمته على الأشياء، وتخصيص بعض الأقسام بأمور خاصة، من باب التفنن في البلاغة.

[٣] ﴿و﴾ قسماً بـ ﴿النهار إذا تجلى﴾ أي ظهر وبان وأضاء.

[٤] ﴿و﴾ قسماً بـ ﴿ما خلق الذكر والأنثى﴾ «ما» إما موصولة، أي الذي خلق، والمراد به الله سبحانه، وإنما جيء بـ «ما» دون «مَنْ» لأن «مَنْ» في الغالب يستعمل للبشر ونحوهم، وإما مصدرية أي قسماً بخلق الصنفين.

[٥] ﴿إن سعيكم﴾ أيها الناس، في الأمور، وتطلبكم للأشياء ﴿لشتى﴾ جمع شتيت كمرضى جمع مريض، أي أنه مختلف، فمن طالب دنيا ومن طالب آخرة، والحلف على ذلك باعتبار ما يعقبه من النتائج، أو لتبديد أوهام الزاعمين بأن السعي ليس إلا للدنيا فحسب، إذ ليس هناك آخرة.

[٦] ﴿فأما من أعطى﴾ المال في سبيل الله ﴿واتقى﴾ الكفر والمعاصي.

[٧] ﴿وصدق بالحسنى﴾ أي بالكلمة الحسنى، وهي الشهادتان، وحيث إن المقام كان في الإعطاء تقدم، ثم ذكر التقوى لأنه من أقسام الإعطاء، ثم جاء دور العقيدة بعد ذين الأمرين.

[٨] ﴿فسنيسره لليسرى﴾ أي سنهوّن عليه الطريقة اليسرى، وهي طريقة الطاعة، أو نيسره للحياة اليسرى، أي الأسهل، فإن من تبع نهج

وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسۡتَغۡنَىٰ ﴿٩﴾ وَكَذَّبَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ﴿١٠﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡعُسۡرَىٰ ﴿١١﴾ وَمَا يُغۡنِي عَنۡهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ﴿١٢﴾

الإسلام سهلت عليه الأمور لما في الإسلام من المناهج السهلة الموجبة للسعادة والرفاه يقال «يسره» إذا سهل عليه، و «يسرى» مؤنث «أيسر» بمعنى الأسهل.

[٩] ﴿**وأما من بخل**﴾ بماله فلم ينفقه في سبيل الله ﴿**واستغنى**﴾ أي طلب الغنى بجمع المال والبخل من إنفاقه.

[١٠] ﴿**وكذب بالحسنى**﴾ أي بالكلمة الحسنة، وهي كلمة الشهادتين أو المراد في الموضعين «العدة الحسنى» وهي الثواب والجنة.

[١١] ﴿**فسنيسره للعسرى**﴾ أي سنهون عليه الطريقة الأعسر وهي طريقة الكفر، وهذا على سبيل المزاوجة في الكلام ـ من قبيل (فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُوا عليهِ)[1]، إذ الله سبحانه لا يسهل على أحد سبيل العسر، وإنما المراد أنه سبحانه يخلي بينه وبين ما يعمل ـ.

[١٢] ﴿**وما يغني عنه ماله**﴾ أي لا يفيده ماله الذي بخل به ﴿**إذا تردى**﴾ أي هلك وسقط في الهاوية.

روي أن رجلاً كانت له نخلة فرعها في دار رجل فقير ذي عيال وكان الرجل إذا جاء فدخل الدار وصعد النخلة ليأخذ منها التمر فربما سقطت التمرة فيأخذها صبيان الفقير، فينزل الرجل من النخلة حتى يأخذ التمر من أيديهم، فإن وجدها في فم أحدهم أدخل إصبعه حتى يأخذ التمرة من فيه، فشكا ذلك الرجل إلى النبي ﷺ وأخبره بما يلقى من صاحب النخلة، فقال النبي ﷺ: إذهب، ولقي رسول الله

(١) البقرة: ١٩٥ .

﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ ﴿١٤﴾﴾

صاحب النخلة فقال: تعطيني نخلتك المائلة التي فرعها في دار فلان ولك بها نخلة في الجنة؟ فقال له الرجل: إن لي نخلاً كثيراً وما فيه نخلة أعجب إليّ تمرة منها. قال: ثم ذهب الرجل، فقال رجل كان يسمع الكلام من رسول الله ـ وقيل اسمه أبو دحداح ـ: يا رسول الله أتعطيني ما أعطيت الرجل نخلة في الجنة إن أنا أخذتها؟ قال: نعم.

فذهب الرجل ولقي صاحب النخلة فساومها منه، فقال له: أشعرت أن محمداً ﷺ أعطاني بها نخلة في الجنة فقلت له يعجبني تمرها وإن لي نخلاً كثيراً فما فيه نخلة أعجب إلى تمرة منها. فقال له الآخر أتريد بيعها؟ فقال: لا إلا أن أُعطى ما لا أظنه أُعطى؟ قال: فما هناك؟ قال: أربعون نخلة، فقال الرجل: جئت بعظيم تطلب بنخلتك المائلة أربعين نخلة، ثم سكت عنه، فقال له: أنا أعطيك أربعين نخلة، فقال له: اشهد إن كنت صادقاً، فمر إلى أناس، فدعاهم فأشهد له بأربعين نخلة، ثم ذهب إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله إن النخلة قد صارت في ملكي، فهي لك. فذهب رسول الله إلى صاحب الدار، فقال له: النخلة لك ولعيالك، فأنزل الله تعالى «والليل» فمن أعطى «أبو دحداح» ومن بخل «صاحب النخلة»[1].

[١٣] ﴿**إن علينا للهدى**﴾ أي أن اللازم على الله سبحانه ـ بقاعدة اللطف ـ أن ينصب الأدلة ويرسل الرسل، أما الاتباع والاهتداء فعلى الناس من شاء اهتدى ومن شاء بقي على ضلاله.

[١٤] ﴿**وإن لنا للآخرة والأولى**﴾ أي الدنيا، فمن اهتدى منحناه السعادة في

(١) بحار الأنوار: ج٢٢ ص٦٠ .

فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٥﴾ لَا يَصْلَاهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ﴿١٦﴾ ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٧﴾ وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴿١٨﴾ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿٢٠﴾

الدارين، ومن بقي على كفره حرم من خير الدنيا وسعادة الآخرة.

[١٥] ﴿**فأنذرتكم**﴾ أيها الناس ﴿**ناراً تلظى**﴾ أي تتلظى ـ حذفت إحدى تائيه لقاعدة اجتماع التائين على رأس المضارع ـ ومعنى التلظي المتلهب والمتوقد وهذه النار عذابها أشد.

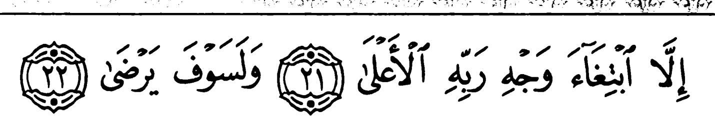
[١٦] ﴿**لا يصلاها**﴾ أي لا يدخلها ملازماً لها ﴿**إلا الأشقى**﴾ أي الأكثر شقوة، وهو الكافر، مقابل العاصي الذي هو أقل شقوة فإنه وإن دخل النار لكنه لا يلازمها.

[١٧] ﴿**الذي كذب**﴾ بآيات الله تعالى، وكفر به ﴿**وتولى**﴾ أي أعرض عن الحق.

[١٨] ﴿**وسيجنبها**﴾ أي سيجنب النار، ويجعل منها على جانب، ودخول «السين» لكون القيامة في المستقبل ﴿**الأتقى**﴾ أي الأكثر تقوى وهو المؤمن المطيع، وأما المؤمن غير المطيع فإنه يدخل فيها وإن خرج بعد مدة.

[١٩] ﴿**الذي يؤتي ماله**﴾ أي ينفق ماله في سبيل الله تعالى ﴿**يتزكى**﴾ أي يطلب الزكاة والطهارة بإعطاء ماله، فإن الإنفاق يطهر القلب من الرذائل.

[٢٠] ﴿**وما لأحد عنده من نعمة تجزى**﴾ أي لا يعطي الأتقى ماله لأن لأحدٍ عليه إحساناً، يريد بهذا الإنفاق جزاء ذلك المحسن، و «من» لنفي



الجنس. . . والمراد أنه لا يعطي جزاءً لإحسان، وإنما عطاؤه لوجه الله سبحانه.

[٢١] ﴿إلا ابتغاء﴾ أي طلب رضى ﴿وجه ربه الأعلى﴾ أي رضاه سبحانه، وإنما أضيف إلى «وجه» لأنه الذي يظهر عليه أثر الرضا في الإنسان، فهو من باب تشبيه المعقول بالمحسوس، والاستثناء منقطع، والتقدير لايعطي ماله جزاءً، بل إنما يعطي قربة إلى الله سبحانه.

[٢٢] ﴿ولسوف﴾ في الآخرة، يعطيه الله من الثواب والأجر ما به ﴿يرضى﴾ فقد ورد ما معناه أن الإنسان يعطى في الجنة بما لم يخطر على قلبه كمّاً وكيفاً.



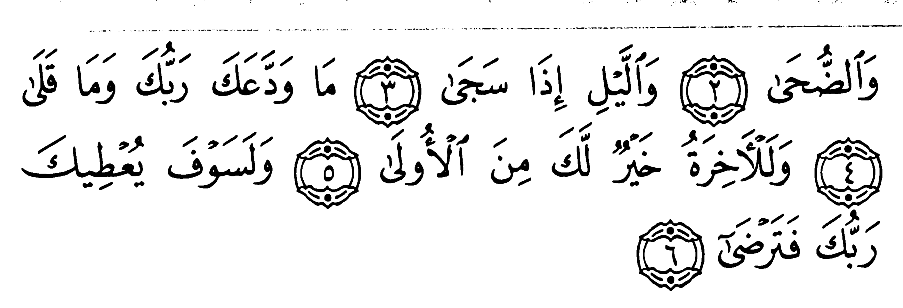
سورة الضحى

مكيّة/آياتها (١٢)

سميت السورة بهذا الاسم لاشتمالها على لفظة «الضحى»، وهي كسائر السور المكية تعالج قضايا العقيدة، مع تركيز خاص بأمر الرسول ﷺ وحيث ختمت سورة الليل بأن الأتقى يعطى حتى يرضى، جاءت هذه السورة تبين ترضية الله سبحانه لنبيه بما يعطيه من الأجر والثواب.



[١] ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ ابتداء باسم الإله الذي هو الذات المستجمع لجميع صفات الكمال، الرحمن الرحيم الذي يرحم العباد بتكميل نواقصهم وغفران معاصيهم.



[٢] ﴿والضحى﴾ أي قسماً بالضحى، وهو وقت ارتفاع الشمس في كبد السماء بحيث يعم نورها، والواو في مثل هذه المواضع استئنافية لتمليح الكلام وتوحيد السياق.

[٣] ﴿والليل﴾ أي قسماً بالليل ﴿إذا سجا﴾ أي سكن واستقر ظلامه، فإن «السجو» بمعنى السكون.

[٤] ﴿ما ودعك﴾ يا رسول الله ﴿ربك﴾ أي ما ترك عنك الوحي توديعاً لك، بأن يكون كالمفارق الذي يودع صديقه ﴿وما قلى﴾ أي ما قلاك، بمعنى ما أبغضك، فإن القلى بمعنى المبغض. روى عن الإمام الباقر عليه السلام إن جبرئيل أبطأ على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأنه كانت أول سورة نزلت «إقرأ باسم ربك الذي خلق» ثم أبطأ عليه، فقالت خديجة: لعل ربك قد تركك فلا يرسل إليك؟ فأنزل الله تبارك وتعالى «ما ودعك ربك وما قلى»[1].

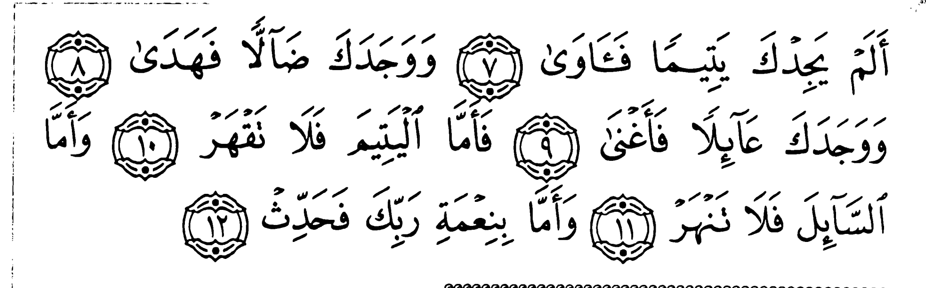
[٥] ﴿وللآخرة﴾ «اللام» للتأكيد ﴿خير لك﴾ يا رسول الله ﴿من الأولى﴾ أي الدنيا، فقد أعد لك الخير هناك، فكيف يتركك ويقلاك في منتصف الطريق؟

[٦] ﴿ولسوف يعطيك﴾ يا رسول الله، في الآخرة ﴿ربك﴾ بما تشاء ﴿فترضى﴾ من كثرة فضله وإحسانه، ومن جملة ما يعطى صلى الله عليه وآله وسلم الشفاعة ـ كما لا يخفى.

[٧] ثم أخذ السياق يعدد بعض نعم الله سبحانه عليه سابقاً ليؤكد أنه صلى الله عليه وآله وسلم

---

(١) تفسير القمي: ج٢ ص٤٢٨ .



الآن في وسط الطريق بين نعمة سبقت ونعمة تأتي فكيف يقلاه بعد ذلك؟ ﴿**ألم يجدك**﴾ الله ﴿**يتيماً**﴾ قد مات أبوك ﴿**فآوى**﴾ أي آواك، وأعطاك مأوى ومنزلاً وعشيرة تأوي إليهم، في حين أن اليتيم كان ذليلاً مهاناً لدى أهل الجاهلية؟

[٨] ﴿**ووجدك**﴾ يا رسول الله ﴿**ضالاً**﴾ قد تفردت في أناس جاهليين كالشيء الثمين الذي يضل في صحراء مقفرة ﴿**فهدى**﴾ الناس إليك فأخرجك عن الوحشة والتفرد حيث لا يهتدي الناس؟

[٩] ﴿**ووجدك**﴾ الله ﴿**عائلاً**﴾ أي فقيراً لا مال لك ﴿**فأغنى**﴾ أغناك بالمال، كَمال خديجة عليها السلام وغيره.

[١٠] وإذ قد ذاق الرسول مرارة اليتم والضلال والفقر، فليحن على البائسين ويعطف على المنكوبين ﴿**فأما اليتيم فلا تقهر**﴾ أي لا تقهره يا رسول الله، بأن تزعجه وتظلمه. والرسول وإن كان منزهاً عن ذلك لكن الأوامر والنواهي شاملة له كشمولها لغيره من سائر المكلفين.

[١١] ﴿**وأما السائل**﴾ الذي يسأل المال، وهو الفقير ومن أشبهه ﴿**فلا تنهر**﴾ أي لا تطرده خائباً، بل أعطه شيئاً، أو رده رداً جميلاً.

[١٢] ﴿**وأما بنعمة ربك**﴾ التي أنعمها عليك، والمراد بها جنس النعمة - ومن أعظمها الهداية - ﴿**فحدث**﴾ للناس، حتى تظهر فضله سبحانه فإنه بالإضافة إلى كونه شكراً، فهو تعليم للناس بأن لا يستروا النعم، كما جرت عادة الكثيرين، بأن يذكروا نواقص حياتهم، ولا يذكرون فضائله سبحانه عليهم.



سُورة الشَرح

مكيّة/آياتها (٩)

سميت السورة بهذا الاسم لاشتمالها على لفظة «نشرح» كما تسمى سورة «ألم نشرح» و «الانشراح» أيضاً، وهي كسائر السور المكية بصدد الأمور المرتبطة بالعقيدة مع تركيز خاص بأمر الرسول ﷺ كالسورة السابقة، وحيث كانت سورة «الضحى» بصدد الأمر المتعلق بالرسول، جاءت هذه السورة معقبة لتلك.



[١] ﴿**بسم الله الرحمن الرحيم**﴾ شروع باسم الإله الذي هو خير شعار للمعتقد به سبحانه، وهل شيء أحسن من جعله تعالى شعاراً في أول كل أمر؟ الرحمن الرحيم الذي يتفضل بالرحم على كل شيء، كما قال تعالى (وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ)(١).

---

(١) الأعراف: ١٥٧ .

﴿أَلَمۡ نَشۡرَحۡ لَكَ صَدۡرَكَ ۝٢ وَوَضَعۡنَا عَنكَ وِزۡرَكَ ۝٣ ٱلَّذِيٓ أَنقَضَ ظَهۡرَكَ ۝٤ وَرَفَعۡنَا لَكَ ذِكۡرَكَ ۝٥﴾

[٢] ﴿ألم نشرح لك﴾ يا رسول الله ﴿صدرك﴾؟ وشرح الصدر توسعته بالأخلاق الفاضلة، فكأن صدر من لم يكن حليماً أو سخياً أو عالماً ـ أو ما أشبه ـ ضيق كالإناء الضيق الذي لا يحتوي إلا على شيء قليل، والنسبة إلى الصدر لأن القلب الذي هو محل الفضائل في الصدر، ولعل وجه ذلك أن الإنسان إذا ضاق بأمر حمى قلبه، فيحتاج إلى هواء أكثر لتبريد القلب، فتنتفخ الرئة انتفاخاً كثيراً مما يضيق الصدر حساً، ثم أن في الاستفهام حلاوة ليس في الإخبار.

[٣] ﴿ووضعنا﴾ أي حططنا ﴿عنك﴾ يا رسول الله ﴿وزرك﴾ أي حملك الثقيل، فإن «الوزر» هو الحمل، وذلك بشرح صدرك حتى لا يثقل عليك حمل التبليغ، وهذا ما يحسه كل إنسان مرشد، فإنه في أول أمره يرى حملاً ثقيلاً عليه من جراء الإرشاد، ثم يتسع صدره ـ بفضله سبحانه ـ ويحس كأنه وضع عنه الثقل، حتى يشعر أحياناً بأنه لا حمل إطلاقاً.

[٤] ﴿الذي أنقض ظهرك﴾ من ثقله، و «أنقض» بمعنى أسمع الصوت فإن الإنسان إذا حمل حملاً ثقيلاً سمع لظهره فرقعة، وهذا هو الإنقاض ـ وذلك من باب التشبيه للمعقول بالمحسوس ـ.

[٥] ﴿ورفعنا لك﴾ يا رسول الله ﴿ذكرك﴾ حتى يعرفك كل أحد بالصدق والأمانة وما أشبه ذلك، هذا بالإضافة إلى ما رفعه سبحانه ـ بعد ذلك ـ من ذكره في المآذن وغيرها.

﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٧﴾

[٦] وإذ تقدم بيان أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم صار في اليسر بعد ما كان في العسر، جاء السياق يؤكد هذه الحقيقة في مختلف أدوار الحياة لكل إنسان ﴿**فإن مع العسر يسراً**﴾ فإذا عسر الأمر على الإنسان واشتد كان لا بد وأن يأتي بعده يسر وسهولة.

[٧] ﴿**إن مع العسر يسراً**﴾ هذا للتأكيد، مع أن فيه تأسيساً، وهو كون «يسر» الثاني غير «يسر»» الأول لأنه منكر، بخلاف «العسر» في الموضعين فإنه واحد، لكون اللام ـ سواء كان للعهد أو الجنس ـ توجب الإشارة إلى الحصة المعهودة، ولذا لو قلت «اشتريت فرساً ثم بعت الفرس» فهم ان المبيع هو المشترى ولو قلت «اشتريت فرساً ثم بعت فرساً» فهم أن المبيع غير المشترى.

وقد روي أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم خرج مسروراً فرحاً وهو يضحك ويقول: لن يغلب عسر يسرين فان مع العسر يسراً، إن مع العسر يسراً[(١)].

أقول: وقد نظم الشاعر ذلك بقوله:

إذا ضاقت بك الدنيا
تفكر في ألم نشرح

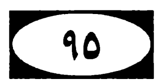
تجد يسرين مع عسر
إذا ذكرتها تفرح

(١) مجمع البيان: ج١ ص٣٩٠ .



[٨] ﴿فإذا فرغت﴾ يا رسول الله من أمورك الخاصة ﴿فانصب﴾ في الدعاء والعبادة، من «النصب» بمعنى التعب، أي أتعب نفسك في الاشتغال بالله سبحانه.

[٩] ﴿وإلى ربك﴾ وحده ﴿فارغب﴾ أي اجعل رغبتك فيما عند الله سبحانه، فإنه هو الذي سهل عليك الأمر، ويسر الحمل الثقيل.



سُورة التين

مكيّة/آياتها (٩)

سميت السورة بذلك، لاشتمالها على لفظة «التين»، وهي كسائر السور المكية بصدد بيان الأمور المرتبطة بالعقيدة، وحيث ختمت سورة «الإنشراح» بالرغبة إليه سبحانه جاءت هذه السورة لتؤكد بأن الله هو أحكم الحاكمين وأن بيده الأمور، فالرغبة إليه توجب حسن الجزاء.



[١] ﴿**بسم الله الرحمن الرحيم**﴾ ابتداء باسم «الله» الذي هو علم للذات المستجمع لجميع صفات الكمال، الرحمن الرحيم الذي يتفضل بالرحمة لكل عباده، ترغيباً لهم في أن يطلبوا من واسع فضله ورحمته.

وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ﴿٢﴾ وَطُورِ سِينِينَ ﴿٣﴾ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ﴿٤﴾ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٥﴾ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ﴿٦﴾

---

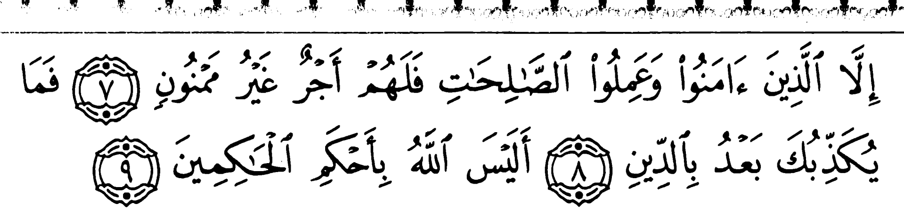
[٢] ﴿**والتين والزيتون**﴾ أي قسماً بهاتين الفاكهتين، وإنما جاء الحلف بهما لكثرتهما في الشام وحواليها المباركة ـ التي يراد التلميح إليها لكونها مبعث الأنبياء ومهبط ملائكة السماء ـ.

[٣] ﴿**و**﴾ قسماً بـ ﴿**طور سينين**﴾ يعني الجبل الذي كلم الله عليه موسى و «سينين» و «سيناء» لغتان فيه فالقسم برزق الله المادي الفواكه، وفضله المعنوي الرسالات.

[٤] ﴿**و**﴾ قسماً بـ ﴿**هذا البلد**﴾ وهو مكة ﴿**الأمين**﴾ الذي يأمن فيه الخائف، فكأنه لا يخون وارده بإهلاك وإيذاء.

[٥] ﴿**لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم**﴾ هذا جواب القسم، والتقويم بمعنى تصيير الشيء على ما ينبغي أن يكون عليه من التأليف والتعديل يعني الإنسان مخلوق في أحسن طراز من جهة حواسه وظواهره، ومن جهة مشاعره وأجهزته، وهذا يناسب القسم، لأن الكل إحسان وإفضال ففاكهة، ووحي، وإنسان ينتفع بهما في مادياته ومعنوياته.

[٦] ﴿**ثم رددناه**﴾ أي أرجعنا الإنسان ﴿**أسفل سافلين**﴾ أي تركناه ولم نلطف به الألطاف الخفية حتى تردى في أبعد مهوى، وصار في أسفل من كل إنسان، والمعنى أن الإسنان له شأنية هذا النحو من التردي إذا أعرض عن الإيمان والهدى واتبع الأهواء والشهوات.



[٧] ﴿**إلا الذين آمنوا**﴾ بالله ورسوله واليوم الآخر ﴿**وعملوا**﴾ الأعمال ﴿**الصالحات**﴾ الملازمة لاجتناب السيئات ﴿**فلهم أجر**﴾ وثواب في الآخرة ﴿**غير ممنون**﴾ أي غير مقطوع بل متواصل دائم إلى الأبد، من «منّ» بمعنى قطع.

[٨] ﴿**فما يكذبك**﴾ أيها الإنسان ﴿**بعد**﴾ أي بعد هذه الحجج والآيات وبيان طرفي الإنسان صعوداً وهبوطاً ﴿**بالدين**﴾ أي بالجزاء، والمعنى ما الذي يسبب أن تكذب بالجزاء بعد أن عرفت الرفعة والانحطاط في الإنسان، كما لو بين الأستاذ مضرة الرسوب ومنفعة النجاح يتساءل ما الذي يوجب للتلميذ أن يترك درسه؟

[٩] ﴿**أليس الله بأحكم الحاكمين**﴾؟ أي أحسن حكماً من كل حاكم، حيث قرر للإنسان هذين النوعين من الجزاء، فمن أحسن له أجر غير ممنون ومن أساء فهو يتردى في مهاوي الانحطاط.



سُورة العَلق

مكيّة/آياتها (٢٠)

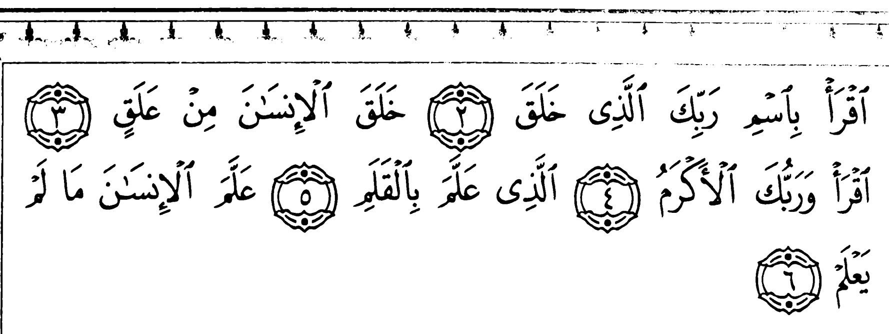
وهي أول سورة نزلت على الرسولﷺ بمكة على المشهور، وسميت بهذا الاسم لاشتمالها على لفظة «علق»، وهي كسائر السور المكية بصدد الأمور المرتبطة بالعقيدة وما إليها، وإذ تقدم في تلك السورة ذكر خلق الإنسان في أحسن تقويم، جاءت هذه السورة مؤكدة لذلك.

ولا يخفى أن ترتيب السور ـ كما ورد ـ إنما كان بأمر الرسولﷺ كما أن إدخال كل آية في سورة خاصة كان كذلك، وتسميتها بأسامي خاصة أيضاً بأمرهﷺ، وهذا لا ينافي النزول على غير هذا الترتيب. وأما ما صنعه «أبو بكر» و «عثمان» حتى اشتهر بأنهما جمعا القرآن، فإنما كان كل إنسان كتب بعض القرآن في زمن الرسولﷺ بمقدار ما سمع، فهما ردا الجميع إلى أصل واحد هو المنظم المرتب على ترتيب الرسولﷺ، كما لو فرضنا أن كتاب أحد المؤلفين قسم إلى أجزاء وبيد كل شخص جزء، ثم جاء شخص، وجمع الكل على

نسق كتابه، وجاء بعده آخر فأحرق الناقصات وأمر بلزوم أن يكون الكتاب المتداول بلا زيادة أو نقصان ـ وللكلام تفصيل ذكرناه في بعض ما كتبناه ـ.



[١] ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ ابتداء باسم الله، الذي لا أحق بالابتداء منه، فإن بيده الابتداء والانتهاء، وهو المبدئ والمعيد، الرحمن الرحيم الذي يتفضل بالرحمة لكل إنسان ولكل شيء.


ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ﴿٣﴾ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ﴿٤﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ﴿٥﴾ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ﴿٦﴾

[٢] ﴿**اقرأ**﴾ يا رسول الله، القرآن مصاحباً قراءتك ﴿**باسم ربك الذي خلق**﴾ فإذا قرأ كل إنسان ما يقرأ بدون اسم الله، فأنت اقرأ مع اسم الله، وفي الحديث أن جبرئيل نزل على الرسولﷺ في جبل «حراء» بمكة. فقال: «اقرأ» قالﷺ: أقرأ ولست أنا بقارئ فقالعليه السلام: «اقرأ...»(١).

[٣] ﴿**خلق الإنسان**﴾ تخصيص بعد التعميم، فإن «خلق» الأول حيث حذف متعلقة أفاد العموم ﴿**من علق**﴾ والعلق هو الدم المنجمد الذي ينقلب المني إليه، بعد استقراره في الرحم، وهذا هو بدء الإنسان.

[٤] ﴿**اقرأ**﴾ للتأكيد في القراءة ﴿**وربك**﴾ يا رسول الله هو ﴿**الأكرم**﴾ من كل كريم، ومن كرمه خلق الإنسان من تلك العلقة القذرة، وأوصله إلى المقامات الرفيعة.

[٥] ﴿**الذي علم**﴾ الإنسان المعارف أو العلوم ﴿**بـ**﴾ سبب ﴿**القلم**﴾ فلولا خلقه للقلم وتعليمه للإنسان الكتابة لبقي الإنسان في دياجير الجهل والرذيلة، فمنه سبحانه «القراءة» فـ «إقرأ...» ومنه الكتابة فعلم «بالقلم» ومنه البدء «من علق» ومنه الإيصال إلى الكمال.

[٦] ﴿**علم الإنسان ما لم يعلم**﴾ من أنواع العلوم والمعارف.

[٧] وهل يشكر الإنسان هذا الفضل العظيم لله سبحانه، حيث أوجده من

(١) راجع بحار الأنوار: ج١٨ ص١٧٤ .

﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ﴿٧﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ ﴿٨﴾ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجۡعَىٰٓ ﴿٩﴾ أَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي يَنۡهَىٰ ﴿١٠﴾ عَبۡدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴿١١﴾﴾

العدم إلى أن أبلغه إلى غاية الكمال الجسدي، وقد كان جاهلاً ضالاً فأبلغه رتبة العلم والهدى؟ ﴿**كلا**﴾ لا يشكر الإنسان، فـ ﴿**إن الإنسان ليطغى**﴾ يتجاوز حدوده ويتكبر على ربه.

[٨] لـ ﴿**أن رآه**﴾ أي حين رأى نفسه ﴿**استغنى**﴾ في جسمه وماله ويظن أنه غني بعد ذلك فلا يحتاج إلى ربه.

[٩] ﴿**إن إلى ربك**﴾ يا رسول الله ﴿**الرجعى**﴾ مصدر «رجع»، أي رجوع الخلق، ويُرجع إليه تعالى ـ أي إلى جزائه وحسابه ـ فيمن يرجع هذا الطاغي الذي طغى على الله سبحانه.

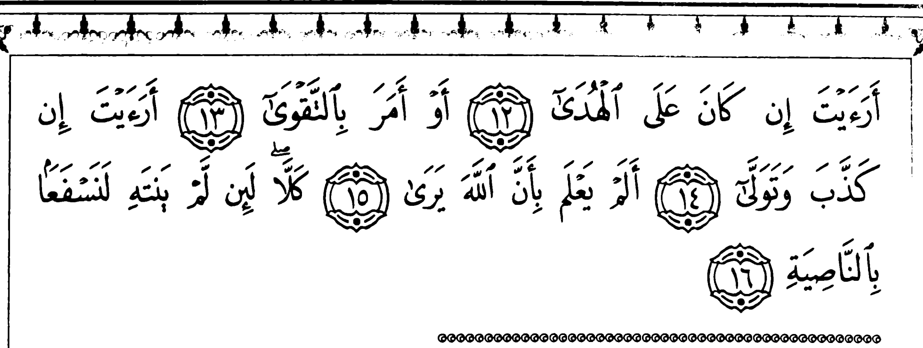
[١٠] ﴿**أرأيت**﴾ يا رسول الله ﴿**الذي**﴾ طغى على الله، حتى أنه ﴿**ينهى**﴾.

[١١] ﴿**عبداً إذا صلى**﴾ فإنه لم يكتف بطغيانه على الله في تركه الصَّلاة ـ بنفسه ـ حتى أصبح ينهى سائر العباد إذا قاموا للصلاة؟ أرأيت هذا الإنسان يا رسول الله؟ وهذا استفهام لتوبيخ ذلك الشخص الناهي وتهديده.

قال القمي: كان الوليد بن المغيرة ينهى الناس عن الصَّلاة وأن يطاع الله ورسوله، فنزلت هذه الآية[١]. وفي رواية أخرى أن أبا جهل قال: هل يغير محمد وجهه بين أظهركم؟ قالوا: نعم. قال: فبالذي يحلف به لئن رأيته يفعل ذلك لأطأن على رقبته، فقيل: ها هو ذلك يصلي، فانطلق ليطأ على رقبة الرسول ﷺ، فما جاءهم إلا وهو ينكص على عقبيه ويتقي بيديه، فقالوا: مالك يا أبا الحكم؟ قال:

---

(١) تفسير القمي: ج٢ ص٤٣٠ .



رأيت بيني وبينه خندقاً من نار وهولاً وأجنحة، وقال الرسول ﷺ: والذي نفسي بيده لو دنى مني لاختطفته الملائكة عضواً عضواً[1]، فأنزل سبحانه «أرأيت...» وكأن التقدير أرأيت المانع عن الصَّلاة؟ وهل علمت ماذا يكون جزاؤه؟ لبيان عظمة هذا العمل من حيث الإثم.

[١٢] ﴿**أرأيت**﴾ يا رسول الله ﴿**إن كان**﴾ العبد الذي صلى ـ وهو الرسول ـ ﴿**على الهدى**﴾ وكانت صلاته حسب أمر الله سبحانه؟

[١٣] ﴿**أو أمر**﴾ ذلك العبد ﴿**بالتقوى**﴾ والمخافة من الله سبحانه باجتناب نواهيه؟ ماذا كان مصير ذلك له؟ أليس مصيره إلى العذاب والنكال؟

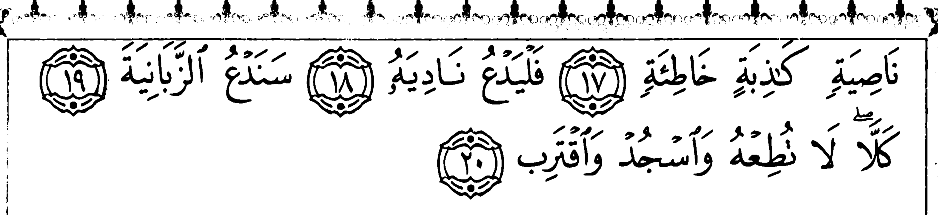
[١٤] ﴿**أرأيت**﴾ يا رسول الله ﴿**إن كذب**﴾ ذلك الناهي ـ وهو أبو جهل أو الوليد ـ بآيات الله ورسوله ﴿**وتولى**﴾ أي أعرض عن الحق، ما هي عاقبته؟

[١٥] ﴿**ألم يعلم**﴾ ذلك الناهي ﴿**بأن الله يرى**﴾ عمله ونهيه عن الصَّلاة وكذبه وتوليه؟ ولم يعلم جزاء هذه السيئات؟ فإنه كيف ينهى ويكفر ويعصي، وجزاء من يفعل ذلك النار والنكال؟

[١٦] ﴿**كلا**﴾ ليس الأمر على ما توهم من أنه لا جزاء على أعماله السيئة ﴿**لئن لم ينته**﴾ هذا الناهي عن أعماله وسيئاته ﴿**لنسفعاً بالناصية**﴾ أي لنجرنّه بناصيته إلى النار، من «سفع» بمعنى جذب الشيء جذباً شديداً، «والناصية» هي شعر مقدم الرأس، فإنه أسهل للأخذ وأوجب لانقياد المأخوذ.

---

(١) بحار الأنوار: ج٩ ص١٧٠.



[١٧] ﴿**ناصية كاذبة خاطئة**﴾ نسبة الكذب والخطأ إلى الناصية مجاز باعتبار علاقة الجزء والكل، كما أن نسبة الإيمان إلى الرقبة في قوله (رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ)[١] كذلك والمراد أن صاحب الناصية كاذب في أقواله خاطئ في أعماله.

[١٨] ﴿**فليدع**﴾ ذلك الإنسان الناهي ﴿**ناديه**﴾ أي أهل مجلسه وأصدقائه، فإن «النادي» هو محل الاجتماع، الذي ينادي بعضهم بعضاً إليه، ونسبة النداء إليه مجاز من باب «اسأل القرية» يعني يدعوهم لخلاصه فهل يتمكنون إنقاذه من بطش الله سبحانه؟

قال ابن عباس: لما أتى أبو جهل رسول الله ﷺ انتهره الرسول ﷺ، فقال أبو جهل: أتنتهرني يا محمد فوالله لقد علمت ما بها أحد أكثر نادياً مني؟ فأنزل الله هذه الآية.

[١٩] ﴿**سندع الزبانية**﴾ يعني إنا ندعو الملائكة الموكلين بالنار لقبض ذلك الشخص الناهي، وليدع هو ناديه، حتى يظهر أينا يغلب الآخر. وهذا تهديد له بأنه لا منقذ له من بطشه سبحانه، و «الزبانية» جمع «زبينة» وهي النفس التي تدفع، من «الزبن» بمعنى الدفع، فإن الملائكة يدفعون المجرمين إلى النار دفعاً.

[٢٠] ﴿**كلا**﴾ ليس الأمر كما زعم هذا الناهي، فـ ﴿**لا تطعه**﴾ يا رسول الله في ترك الصَّلاة التي ينهى عنها ﴿**واسجد**﴾ لله سبحانه، أو بمعنى أخضع له بالصلاة ونحوها ﴿**واقترب**﴾ من رضوان الله بطاعته وعبادته من «القرب». وسورة اقرأ إحدى «العزائم» الأربع، وهذه هي آية السجدة.

---

(١) النساء: ٩٣.



سُورة القدر

مكية أو مدنية/آياتها (٦)

سميت السورة بهذا الاسم لاشتمالها على لفظة «القدر»، وهي إما مكية ـ كما يظهر من سياقها ـ أو مدنية، وعلى أي حال ترتبط بقضايا العقيدة وإذ ختمت سورة «العلق» بذكر الاقتراب منه سبحانه، بينت في هذه السورة إن الاقتراب إليه في ليلة القدر أفضل من الاقتراب إليه سبحانه في سائر الأوقات.



[١] ﴿**بسم الله الرحمن الرحيم**﴾ نستعين باسم الإله، ليكون عوناً لنا في أمورنا، الرحمن الرحيم الذي يرحم العباد ويتفضل عليهم بما يستر زللهم ويسد خللهم.

﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ ۝٢ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ ۝٣﴾

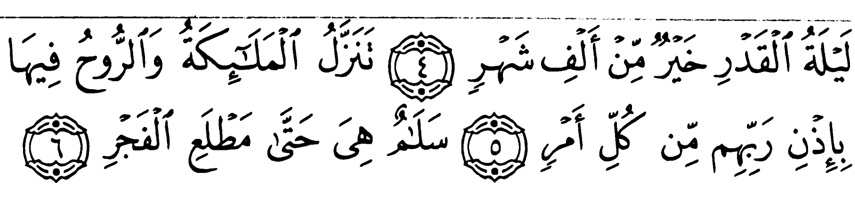
[٢] ﴿**إنا أنزلناه**﴾ أي القرآن ـ المعلوم من السياق ـ والإتيان بلفظ الجمع في «إنّا» و «أنزلنا» باعتبار التعظيم، فقد كان المتعارف أن يتكلم كل رئيس عن نفسه وعن أتباعه، ثم استعير «الجمع» في كل تعظيم ﴿**في ليلة القدر**﴾ وهي «التاسعة عشرة» أو «الواحدة والعشرون» أو «الثالثة والعشرون» من شهر رمضان المبارك، فقد نزل القرآن بجملته إلى البيت المعمور ـ في السماء الرابعة ـ في إحدى هذه الليالي الثلاث، ثم نزل منجماً على رسول الله ﷺ في ظرف ثلاث وعشرين سنة، أو المراد أن إنزاله على قلب الرسول ﷺ كان في هذه الليلة، وإنما إتيان جبرئيل به أقساطاً من السماء ـ بمناسبات ـ كان في ظرف ثلاث وعشرين سنة، وسميت الليلة بـ «القدر» لتقدير أعمال العباد في هذه الليلة.

وقد ورد في الأحاديث ان في هذه الليلة من كل سنة تنزل أفواج من الملائكة بالتقديرات لتلك السنة، إلى الإمام الحي من الأئمة الإثني عشر عليهم السلام بعد الرسول ﷺ فيعلم الإمام بما قدر الله سبحانه للخلائق من الآجال والأرزاق والأعمال وسائر الأمور المرتبطة بهم[1]، وهذا لايعني أنهم كالرسول ﷺ في نزول الوحي، فقد نزل جبرئيل على مريم وليست رسولاً، بل هو تشريف من الله سبحانه للإمام الذي هو خليفة في أرضه بعد الرسول، وفي دورنا تنزل الملائكة بالتقديرات ـ في ليلة القدر ـ على الإمام المهدي المنتظر «عجل الله فرجه».

[٣] ﴿**وما أدراك**﴾ يا رسول الله، أو أيها السامع ﴿**ما**﴾ هي ﴿**ليلة القدر**﴾؟ وهذا لتعظيم شأنها.

---

(١) راجع بحار الأنوار: ج٨٢ ص٥٢ .



[٤] ﴿ليلة القدر خير من ألف شهر﴾ يعني أن الأعمال الصالحة في ليلة القدر خير من العمل الصالح في ألف شهر ـ التي هي أكثر من ثمانين سنة ـ فإن الأزمان إنما تفضل بعضها على بعض بما يقع فيها من الأعمال أو المعنى أن تلك الليلة التي نزل فيها القرآن، خير من ألف شهر لما حدث فيه من أمر عظيم هو نزول القرآن.

[٥] ﴿تنزل﴾ أصله «تتنزل» حذفت إحدى تائيه على القاعدة ـ كما سبق ـ ﴿الملائكة والروح﴾ وهو ملك عظيم، أو جبرئيل عليه السلام ﴿فيها﴾ أي في تلك الليلة ﴿بإذن ربهم﴾ فإن الله يأذن لهم في النزول على الرسول والإمام لبيان مقدرات العباد في تلك السنة ﴿من كل أمر﴾ فقد جاء جبرئيل وسائر الملائكة إلى الرسول صلى الله عليه وآله وسلم في تلك الليلة ومعهم كل أمر مربوط بالأرض من الهداية والإرشاد، والتنظيم والتقنين والسعادة والخير؟ وكذلك يأتون في كل سنة إلى الإمام الحي بذلك كله.

[٦] ﴿سلام هي﴾ أي تلك الليلة، فقد قدر فيها منهاج السَّلام العام للعالم، سلامة الروح عن الأوضار، وسلامة الجسم عن الأمراض، وسلامة المجتمع عن المفاسد، وسلامة العقل عن الخرافة. أو المعنى أن الليلة هي سلام، بمعنى كونها سالمة عن البلايا والآفات، فلا يقدر فيها إلا السَّلام ﴿حتى مطلع الفجر﴾ فإذا طلع الفجر انتهى تنزل الملائكة، ويتم الأمر، كما حين طلع الفجر من ليلة نزول القرآن انتهى تنزل الملائكة وقدر الأمر. ومن المستحب الدعاء والضراعة في هذه الليلة، تذكراً لابتداء الوحي، وطلباً لأن يقدر فيها الخير، بالنسبة إلى السنة المقبلة.



سُورة البيّنة

مدنية أو مكيّة/آياتها (٩)

سميت السورة بهذا الاسم لاشتمالها على لفظة «البينة» وهي كسائر السور المكية تعالج قضايا العقيدة، وهناك قول آخر بأنها مدنية، وفيها بعض إماراتها. وحيث بينت سورة القدر أن القرآن نزل في ليلة القدر، جاءت هذه السورة تبين أن الكفار لم يزالوا على كفرهم وضلالهم، حتى أتاهم القرآن، فاهتدى بعضهم به.



[١] ﴿**بسم الله الرحمن الرحيم**﴾ ابتداء باسم «الله» الذي هو الذات المستحق لكل تجلة وإعظام، الرحمن الرحيم، الذي يرحم كل شيء بإعطائه خلقه ثم هدايته إلى طريق حياته، ويرحم الإنسان بصورة خاصة بإرشاده وغفران خطأه إن تاب وأناب.

لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿٢﴾ رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُواْ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴿٣﴾ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴿٤﴾

[٢] ﴿**لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب**﴾ يعني اليهود والنصارى والمجوس، والوصف ليس للتصنيف بل للبيان، فإن كل أهل الكتاب قد كفروا بنسبتهم إلى الله الولد والشريك وتوصيفهم له بما لا يليق بجلال شأنه ﴿**و**﴾ من ﴿**المشركين**﴾ الذين أشركوا بالله وعبدوا الأصنام معه ﴿**منفكين**﴾ أي منتهين عن كفرهم، من «انفك» بمعنى زال عنه، وابتعد ﴿**حتى تأتيهم البينة**﴾ أي الحجة الظاهرة ـ وهو القرآن الكريم، والرسول العظيم ـ إذ لا مجال لهم في عرفان الحقائق بعدما حرّفوا كتبهم وبدلوا دينهم.

[٣] ثم بين المراد بالبينة بقوله: ﴿**رسول من الله**﴾ أي من طرفه سبحانه ﴿**يتلو**﴾ ويقرأ عليهم ﴿**صحفاً مطهرة**﴾ هي صحائف القرآن الحكيم التي طهرت عن الكفر والشرك ونسبة ما لا يليق إلى الله وإلى أنبيائه، فإن النبي وإن كان يتلو عن ظهر القلب لكنه كان يقرأ عن اللوح المحفوظ عكس كتاب العهدين.

[٤] ﴿**فيها**﴾ أي في تلك الصحف ﴿**كتب قيمة**﴾ «الكتاب» يستعمل بمعنى الموضوع، كما يقال: كتاب الصلاة، وكتاب الحج، يراد موضوعهما ـ ولذا نرى كتاب الصلاة، مثلاً في ضمن كتاب «شرائع الإسلام للمحقق»، أو أن الكتاب بمعنى المكتوب، وهو في الصحيفة، يعني أن تلك الصحف تشتمل على موضوعات ذات قيمة وثمن، أو بمعنى

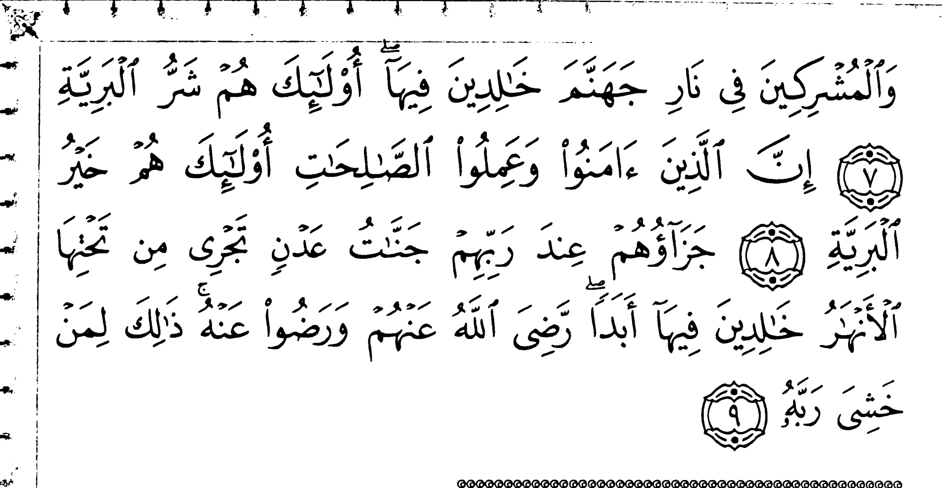
وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿٥﴾ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴿٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ

ذات استقامة، فإن القيمة بمعنى المستمرة في جهة الصواب.

[٥] ﴿**وما تفرق الذين أوتوا الكتاب**﴾ أي أعطوا الكتاب السماوي ﴿**إلا من بعد ما جاءتهم البينة**﴾ أي الحجة الواضحة، والمعنى أن أهل الكتاب إنما اختلفوا ـ في أمر الرسول أو أمر دينهم السابق بأن صار لكل فئة مذهب وطريقة ـ بعد أن تمت عليهم الحجة وعرفوا الصواب، وإنما اختلفوا بغياً وحسداً.

[٦] ﴿**و**﴾ الحال أن الله لم يأمرهم إلا بعبادته واتباع طريقته، فإنهم ﴿**ما أمروا إلا ليعبدوا الله**﴾ وحده في حال كونهم ﴿**مخلصين له الدين**﴾ أي يخلصون الطريقة لله سبحانه، بلا زيادة أو نقصان، أو شرك أو انحراف، في حال كونهم ﴿**حنفاء**﴾ جمع حنيف، أي مائلين عن الأديان الباطلة والطرائق الزائفة، من «حنف» بمعنى مال ﴿**ويقيموا الصَّلاة**﴾ أي يداوموا على إقامة الصَّلاة ﴿**ويؤتوا الزكاة**﴾ أي يعطوها، والمراد بها إما مطلق الإعطاء، أو الزكاة المفروضة. فقد فرضت الزكاة في الأديان السابقة ـ ﴿**وذلك**﴾ الدين المشتمل على هذه الأمور المذكورة ﴿**دين القيمة**﴾ أي دين الكتب القيمة ـ التي تقدم ذكرها ـ بمعنى أنه الدين المذكور في تلك الكتب.

[٧] ﴿**إن الذين كفروا من أهل الكتاب**﴾ استمروا على كفرهم فلم يؤمنوا



بالرسول ﷺ ﴿و﴾ من ﴿**المشركين**﴾ بأن استمروا في شركهم يكونون ﴿**في نار جهنم**﴾ في الآخرة حال كونهم ﴿**خالدين فيها**﴾ أي في النار إلى الأبد ﴿**أولئك هم شر البرية**﴾ أي شر الخلق، فإن البرية هي الخليقة، من برأ بمعنى خلق وأنشأ.

[٨] ﴿**إن الذين آمنوا**﴾ بالله ورسوله واليوم الآخر ﴿**وعملوا الصالحات**﴾ أي الأعمال الصالحة، الملازمة لعدم الإتيان بالأعمال الفاسدة ﴿**أولئك هم خير البرية**﴾ أي الأفضل من جميع الخلق، وفي مقابلهم من آمن وعصى، فإنه ليس بذلك الشر ولا بذلك الخير.

[٩] ﴿**جزاؤهم عند ربهم**﴾ أي المحل الذي أعده للحساب والجزاء فإنه سبحانه لا مكان له ﴿**جنات عدن**﴾ أي بساتين إقامة، من «عدن» بالمكان إذا أقام فيه ﴿**تجري من تحتها الأنهار**﴾ أي من تحت أشجارها وقصورها، أنهار من عسل وخمر ولبن وماء ﴿**خالدين فيها**﴾ أي في تلك الجنات ﴿**أبداً**﴾ دائماً لا يزولون عنها ﴿**رضي الله عنهم**﴾ حيث عبدوه وأطاعوه ﴿**ورضوا عنه**﴾ حيث أكرمهم وتفضل عليهم بالخير والسعادة ﴿**ذلك**﴾ الثواب والفضل ﴿**لمن خشي ربه**﴾ أي خافه فلم يعصه ولم يرتكب ما يخالف أوامره.



سُورة الزلزلة

مَدنية أو مكيّة/آياتها (٩)

و تسمى سورة «الزلزال» أيضاً، لاشتمالها على كلمة «زلزلت»، وفي كونها مدنية أو مكية خلاف لكنها تعالج قضايا العقيدة، وهي التي تؤكد كونها مكية، وحيث ختمت سورة «البينة» بجزاء المطيعين في الجنان، والعاصين بالنيران، افتتحت هذه السورة بذكر أشراط الساعة، وعلائم القيامة، التي هي يوم الفصل والجزاء.



[١] ﴿**بسم الله الرحمن الرحيم**﴾ ابتداء باسم الله الذي هو الأول، فلا شيء قبله ومعه، تطابقاً للشروع في الشيء مع الخارج، بجعل اسم الله سبحانه شعاراً، الرحمن الرحيم الذي يتفضل بالرحمة لمن استرحمه، ولمن لم يسترحمه، وإن كان فرق بينهما في زيادة التفضل والمثوبة وما أشبه.

إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿٢﴾ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴿٣﴾ وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ﴿٤﴾ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٥﴾ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴿٦﴾ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا

[٢] ﴿**إذا زلزلت الأرض زلزالها**﴾ أي حركت تحركها الشديد، واضطربت اضطراباً عظيماً.

[٣] ﴿**وأخرجت الأرض أثقالها**﴾ كل ما فيها من الأشياء الثقيلة، من معادن ودفائن وأموات وأشباه ذلك، فإنها تلقيها على ظهرها عند قيام الساعة.

[٤] ﴿**وقال الإنسان**﴾ متعجباً من هذه الحوادث: ﴿**مالها**﴾ أي ما للأرض تتزلزل وتضطرب وتخرج ما في بطنها؟!

[٥] ﴿**يومئذ**﴾ أي في ذلك اليوم ـ وهو يوم القيامة ـ ﴿**تحدث**﴾ الأرض ﴿**أخبارها**﴾ ورد عن الرسول ﷺ أنه قال: أتدرون ما أخبارها؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: أخبارها أن تشهد على كل عبد بما عمل على ظهرها.

[٦] كل ذلك الزلزال والإخراج والحديث يصدر من الأرض ﴿**بـ**﴾ سبب ﴿**أن ربك**﴾ يا رسول الله ﴿**أوحى لها**﴾ أي للأرض بأن تعمل ذلك، والسماء والأرض مطيعتان لله سبحانه فيما يأمر، كما قال سبحانه (قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ)(١).

[٧] ﴿**يومئذ**﴾ أي في ذلك اليوم ﴿**يصدر الناس**﴾ أي يرجع الناس من قبورهم إلى المحشر ﴿**أشتاتاً**﴾ جمع «شتيت» أي متفرقين، بعضهم

---

(١) فصلت: ١٢.

﴿لِّيُرَوۡاْ أَعۡمَٰلَهُمۡ ۝٦ فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ ۝٨﴾

لعاقبة حسنة وبعضهم لعاقبة سيئة ﴿**ليروا**﴾ ـ على البناء للمفعول ـ أي حتى يريهم الله ﴿**أعمالهم**﴾ التي عملوها ويجازي كل على عمله.

[٨] ﴿**فمن يعمل**﴾ في الدنيا ﴿**مثقال ذرة**﴾ أي بقدر ثقل ذرة ـ وهي الهباءة التي ترى في الشمس إذا دخلت من الكوة في المحل المظلم ـ ﴿**خيراً يره**﴾ أي يرى جزاء ذلك الخير، في ذلك اليوم.

[٩] ﴿**ومن يعمل**﴾ في الدنيا ﴿**مثقال ذرة شراً**﴾ من الكفر والعصيان ﴿**يره**﴾ في ذلك اليوم، ولا يظلم أحد شيئاً، إلا أن يدرك عامل الشر شفاعة، إن كان من أهلها، أو عامل الخير إحباطاً، لأنه أتى بسيئة تحبط أعماله.



سُورة العاديات

مدنيّة أو مكيّة/آياتها (١٢)

سميت السورة بهذا الاسم لاشتمالها على لفظة «العاديات»، وهي كسائر السور المدنية تلمح إلى الأمور المرتبطة بالنظام إلى جنب العقيدة، وهذه السورة نظير السورة السابقة في ذكر الجزاء.



[١] ﴿**بسم الله الرحمن الرحيم**﴾ نشرع باسم الله، ليكون شروعاً مباركاً، فإنه لا يبدأ شيء باسم الله إلا كان الخير قرينه بلطفه وفضله، الرحمن الرحيم، الذي يرحم العباد ويتفضل عليهم بالسعادة والإحسان.

وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا ﴿٢﴾ فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا ﴿٣﴾ فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ﴿٤﴾ فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ﴿٥﴾ فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا ﴿٦﴾

[٢] ﴿**والعاديات**﴾ أي قسماً بالأفراس التي تعدو في سبيل الله للجهاد ﴿**ضبحاً**﴾ أي تضبح ضبحاً، «والضبح» هو صوت الجوف الذي يسمع من الخيل حين تعدو.

[٣] ﴿**فالموريات**﴾ أي قسماً بالموريات، والفاء للترتيب في الكلام أي الخيل التي توري النار وتظهرها، بوطء حوافرها على الأحجار ﴿**قدحاً**﴾ مثل نار الزناد إذا قدح، تقدح قدحاً أي تضرب ضرباً يقال أورى القادح النار: إذا أظهرها.

[٤] ﴿**فـ**﴾ قسماً بـ ﴿**المغيرات**﴾ أي الأفراس التي أغارت على العدو ﴿**صبحاً**﴾ بعد أن سار المجاهدون ليلاً، حتى إذا أصبحوا أغاروا.

[٥] ﴿**فأثرن**﴾ تلك الأفراس ﴿**به**﴾ أي بذلك المكان ـ المعلوم من السياق ـ ﴿**نقعاً**﴾ أي غباراً، يعني أن تلك الخيل أثارت بذلك المكان الغبار الكثير لمطاردتها الأعداء، و «نون» جمع المؤنث يأتي للعاقلة وغير العاقلة ـ كما سبق ـ.

[٦] ﴿**فوسطن**﴾ تلك الأفراس ﴿**به**﴾ أي بذلك المكان ﴿**جمعاً**﴾ أي صرن في وسط ذلك المكان، حتى فتحوا على العدو، إذ حصلوا في وسطهم وأحدثوا الفوضى والاضطراب فيهم على حين غرة، وهذه الآيات نزلت في «غزوة ذات السلاسل». وهي كما في كتاب «قادة الإسلام»[1] اشتركت قبائل من «لخم» و «جذام» و «بلقين» و «بهر» و

---

(١) للمؤلف.

. . . .

«بلى» و «طي» و «عذرة» وغيرها في حرب «مؤتة» وساعدت الكفار على المسلمين، وبعد وقعة «مؤتة» تجمعت قوى هؤلاء لمحاربة المسلمين وكان عددها اثني عشر ألف مقاتل، فأراد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم أن يؤدبهم ويأخذ بثأر المسلمين الذين استشهدوا في «مؤتة»، فجهز جيشاً من أربعة آلاف نفر، برئاسة «أبي بكر» وأمرهم بالذهاب إلى الكفار ومقاتلتهم، وتوجه أبو بكر إلى تلك المنطقة، فلما رأوه خرجوا إليه وحذروه من محاربتهم، فخاف أبو بكر ورجع، واغتاظ الرسول صلى الله عليه وآله وسلم من رجوعه، ثم أمر الرسول صلى الله عليه وآله وسلم «عمر» على الجيش فأرسلهم وحذرهم من الجبن، لكن عمر جبن كأخيه من قبل، «وآب بخفي حنين» ثم أمر الرسول «عمرو بن العاص» وأرسلهم لكنهم أيضاً رجعوا حينئذ عقد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم اللواء بقيادة الإمام أمير المؤمنين عليه السلام ووصاه بما أوصى به أولئك ثم قال الرسول صلى الله عليه وآله وسلم : أنه لا بد وأن يفتح الله على يديك. . جاء الإمام عليه السلام حتى وصل إلى قرب معسكر الكفار بحيث يرونه ويراهم، فانحاز من معسكرهم مائتا رجل، وكلموا الإمام فدعاهم الإمام إلى الإسلام، لكنهم أبوا وقالوا: إنا لنقتلكم جميعاً وضربوا الموعد يوم غد، وانصرفوا إلى معسكرهم ينتظرون غداً.

أمر الإمام جيشه أن يستعدوا، فأخذوا كامل استعدادهم في الليل فلما أصبح الصباح وصلوا صلاة الصبح، أمر الإمام الجيش بالهجوم على القوم، فهجم جيش المسلمين يقدمهم الإمام عليه السلام على الكفار وهم نائمون إلا قليلاً منهم، وأولئك القليل لم يكونوا مستعدين للقتال فانهزموا أمام الجيش الإسلامي، وقد أكثر فيهم الجيش من

إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٞ ﴿٧﴾ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٞ ﴿٨﴾ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلۡخَيۡرِ لَشَدِيدٌ ﴿٩﴾ أَفَلَا يَعۡلَمُ إِذَا بُعۡثِرَ مَا فِي ٱلۡقُبُورِ ﴿١٠﴾ وَحُصِّلَ مَا فِي ٱلصُّدُورِ ﴿١١﴾

القتل والأسر، ولم تطلع الشمس إلا والجيش الإسلامي يحملون الأسرى والغنائم، ليعودوا إلى المدينة منتصرين، واستقبل الرسول صلى الله عليه وآله وسلم والمسلمون الإمام عليه السلام وجيشه، وهنا نزلت سورة العاديات(١)..

[٧] قسماً بتلك الأقسام المتقدمة ﴿**إن الإنسان لربه لكنود**﴾ أي لكفور، ومنه الأرض الكنود التي لا تنبت شيئاً، والأصل فيه منع الحق.

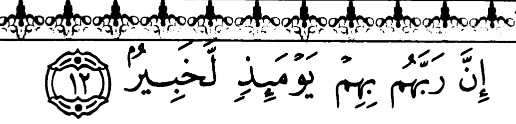
[٨] ﴿**وإنه**﴾ أي الإنسان ﴿**على ذلك**﴾ الكفر ﴿**لشهيد**﴾ أي يشهد بذلك، فإن الإنسان يعلم ما له وما عليه، وإن لم يعترف بما عليه، أو المعنى أنه يشهد بذلك يوم القيامة، حيث يختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون.

[٩] ﴿**وإنه**﴾ أي الإنسان ﴿**لحب الخير لشديد**﴾ فإنه شديد في حب كل خير لنفسه، هذا طبع الإنسان، لو لم يخرجه الإيمان.

[١٠] ﴿**أفلا يعلم**﴾ الإنسان ﴿**إذا بعثر ما في القبور**﴾ أي بعث الموتى وأخرجوا من قبورهم، منتشرين مبعثرين هنا وهناك؟

[١١] ﴿**وحصل ما في الصدور**﴾ بأن ظهرت نوايا الناس وما أضمروه من خير وشر؟ ليجازي كل حسب ما نواه وأضمره وعمله وأتى به. ألا

(١) تفسير فرات الكوفي: ص٥٩١ .



يعلم ماذا يكون مصيره يومذاك؟ فكيف يعصي ويكند؟ كما تقول لمن يعصي: ألا تعترف بالحساب؟ تريد بذلك تهديده.

[١٢] ﴿**إن ربهم**﴾ أي الله الذي خلقهم ورباهم ﴿**بهم**﴾ أي بالناس ﴿**يومئذ**﴾ أي في يوم القيامة ﴿**لخبير**﴾ عالم مطلع، فيجازي كل إنسان حسب عمله ونيته، وقوله «يومئذ» من جهة أن الجزاء في ذلك اليوم، وإلا فكونه سبحانه خبيراً عام لكل الأزمان.



سُورة القارعة

مكية أو مدنية/آياتها (١٢)

سميت السورة بهذا الاسم لاشتمالها على لفظة «القارعة»، وهي كسائر السور المكية تعالج قضايا العقيدة، وحيث ختمت سورة «العاديات» بتهديد العصاة، جاءت هذه السورة لتبين علائم القيامة، موعد التهديد.



[١] ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ نبتدئ باسم «الله» الذي هو المستجمع لجميع صفات الكمال، لنجعله شعاراً لنا في أعمالنا وأمورنا، إذ لا شيء أفضل منه في أن يكون شعاراً لمعترف بربه، الرحمن الرحيم، الذي يتفضل على العباد بالرحمة والغفران.

ٱلْقَارِعَةُ ﴿٢﴾ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٣﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٤﴾ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ﴿٥﴾ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ﴿٦﴾ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٧﴾

[٢] ﴿**القارعة**﴾ هي من أسماء القيامة، لأنها تقرع القلوب بالخوف وتقرع الناس بالعذاب، وتقرع الجبال فتجعلها دكاً دكاً.

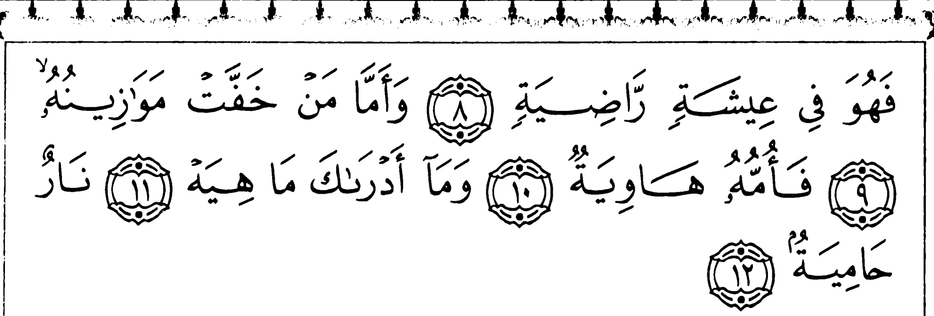
[٣] ﴿**ما القارعة**﴾ أي ما هي القارعة؟ وذلك لتفخيم شأنها وتعظيم أمرها، و «القارعة» الأولى مبتدأ، و «ما» مبتدأ ثان، و «القارعة» الثانية خبر «ما»، والجملة خبر «قارعة» الأولى.

[٤] ﴿**وما أدراك**﴾ أيها الإنسان أو أيها الناس ﴿**ما القارعة**﴾؟ هذه الجملة لتفخيم شأنها، يعني أنها من الهول بحيث لا تعلمها ولا تدركها، إلا بعد أن تراها.

[٥] ﴿**يوم يكون الناس كالفراش**﴾ وهو الغوغاء من الجراد الذي ينفرش ويركب بعضها فوق بعض ﴿**المبثوث**﴾ أي المنتشر، فإن الناس يكونون مثل الفراش في الكثرة والاضطراب والانتشار.

[٦] ﴿**وتكون الجبال كالعهن**﴾ أي الصوف الملون ﴿**المنفوش**﴾ أي المندوف، فإنها تقلع عن أماكنها وتحطم حتى تكون كالصوف ذي الألوان الخفيف اليسير، وألوانها، لاختلاف ألوان الجبال فإنها بيض وحمر وسود وغيرها.

[٧] ﴿**فأما من ثقلت موازينه**﴾ أي رجحت حسناته وكثرت والإتيان بالجمع



لأن لكل عمل حسن ميزان فميزان للصلاة، وميزان لبر الوالدين، وهكذا. وهل المراد بالميزان هو المعهود في الدنيا ـ كما هو الظاهر ـ أو غيره احتمالان؟

[٨] ﴿**فهو في عيشة راضية**﴾ أي عيشة ذات رضى يرضاها صاحبها ونسبة الرضى إليها ـ مع كون الراضي هو الذي يعيش ـ مجاز.

[٩] ﴿**وأما من خفت موازينه**﴾ بأن قلت حسناته، وكثرت سيئاته.

[١٠] ﴿**فأمه**﴾ أي مأواه ﴿**هاوية**﴾ أي جهنم، والمعنى أن محله النار، فكما أن الولد يأوي إلى أمه كذلك يأوي العاصي إلى جهنم، وإنما سميت بالهاوية لهوى الشخص فيها.

[١١] ﴿**وما أدراك**﴾ يا رسول الله، أو أيها الإنسان ﴿**ماهيه**﴾؟ هذا تفخيم لعذاب النار، حتى أن الرسول ـ أو السامع ـ لا يدرك حقيقتها وتفصيلها لهولها، والهاء للسكت.

[١٢] إنها ﴿**نار حامية**﴾ قد بلغت آخر شدتها في الحرارة والالتهاب.



سورة التكاثر

مكيّة/آياتها (٩)

سميت السورة بهذا الاسم لاشتمالها على لفظة «التكاثر»، وفي كونها مكية أو مدنية خلاف، وهي تعالج قضايا العقيدة، وحيث اختتمت سورة «القارعة» بذكر النار، افتتحت هذه السورة بغفلة الناس عنها.



[١] ﴿**بسم الله الرحمن الرحيم**﴾ ابتداء باسم الإله الذي له كل شيء ولا أحق بالابتداء منه، الرحمن الرحيم، الذي يتفضل على العباد بالرحمة تفضلاً وامتناناً.

أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ﴿٢﴾ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ﴿٣﴾ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ﴿٦﴾ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ﴿٧﴾

[٢] ﴿**ألهاكم**﴾ أي أشغلكم عن طاعة الله وعبادته، أيها الناس ﴿**التكاثر**﴾ بالأموال والأولاد والأمور المرتبطة بالدنيا، والتفاخر بكثرتها يقال تكاثر إذا تباهى بالكثرة.

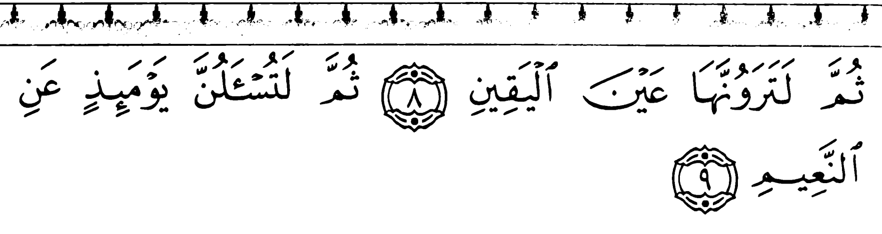
[٣] ﴿**حتى زرتم المقابر**﴾ أي ذهبتم إلى القبور لزيارتها، فإن هناك ينتبه الإنسان إلى فناء الدنيا، وعدم الفائدة في التباهي والتفاخر بكثرة الأمور المرتبطة بها، أو المعنى حتى أدركتم الموت، وكني عن ذلك بزيارة المقابر دلالة على عدم بقاء الإنسان فيها أيضاً، فإنه ينتقل منها إلى الدار الآخرة.

[٤] ﴿**كلا**﴾ ليس الأمر كما أنتم عليه من التكاثر ﴿**سوف تعلمون**﴾ عاقبة الاشتغال بالدنيا، والغفلة عن الآخرة، وهذا تهديد لهم.

[٥] ﴿**ثم**﴾ لترتب الكلام ﴿**كلا**﴾ ليس الأمر على ما أنتم عليه ﴿**سوف تعلمون**﴾ كرّر للتركيز والإيحاء بالارتداع عن التكاثر لوخامة عاقبته.

[٦] ﴿**كلا**﴾ ليس الأمر كما زعمتم ﴿**لو تعلمون علم اليقين**﴾ أي علماً يقينياً، بحيث تتيقنون بالآخرة ـ لا علماً استدلالياً فقط ـ أي لو تعلمون لعلمتم أن التباهي والتكاثر لا ينبغي، وإنما الاشتغال بالآخرة هو الأمر اللازم.

[٧] ﴿**لترون الجحيم**﴾ رؤية بالقلوب، حتى كأنكم تشاهدونها، فتخافون من الاشتغال عن أمرها، بما لا فائدة فيه من التباهي والتفاخر.



[٨] ﴿ثم﴾ بعد كثرة التفكير في الجحيم ورؤيتها بالقلب ﴿لترونها﴾ أي الجحيم ﴿عين اليقين﴾ أي اليقين الذي هو كالمعاينة، كما قال الإمام أمير المؤمنين عليه السلام «فهم والجنة كمن قد رآها فهم فيها منعمون، وهم والنار كمن قد رآها فهم فيها معذبون» فأولى المراتب العلم الاستدلالي، ثم ذوق القلب باليقين الصادق ثم استيلاء اليقين على القلب حتى كأن الإنسان يشاهد الشيء المعلوم.

[٩] ﴿ثم لتسألن﴾ أيها الناس ﴿يومئذ﴾ يوم زاد يقينكم حتى صار عين اليقين ﴿عن النعيم﴾ فإن الإنسان إذا زاد يقينه أخذ يبحث في أموره حتى لايكون فيها حرام أو مشتبه، فيسأل من أين جاء بهذا المال والولد؟ ومن أين له هذا الجاه والمقام؟ أمِنْ حل أو من حرام؟ وما أشبه ذلك، فهو كالمسؤول الذي تسأله نفسه عن تلك الأمور، ويحتمل أن يراد كون السؤال هناك في الآخرة، وكذلك رؤية الجحيم ـ كما في بعض الأحاديث.



سورة العصر

مكية/آياتها (٤)

سميت السورة بهذا الاسم، لاشتمالها على لفظ «العصر»، وهي كسائر السور المكية بصدد بيان قضية العقيدة، وحيث ختمت سورة «التكاثر» بوعيد من ألهاه التكاثر، افتتحت هذه السورة بمثل ذلك.



[١] ﴿**بسم الله الرحمن الرحيم**﴾ نستعين باسم الله الذي له كل شيء ويقدر على جميع أنواع الإعانة، الرحمن الرحيم الذي يرحم كل شيء بخلقه وتكميله، ويرحم الإنسان بغفران ذنبه وجبر كسره.

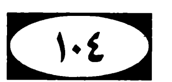
وَٱلۡعَصۡرِ ﴿٢﴾ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ﴿٣﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ ﴿٤﴾

---

[٢] ﴿**والعصر**﴾ قسماً بالعصر، أي عصر النبوة، أو عصر الدهر، أو عصر الحجة عليه السلام، أو العصر مقابل الصبح، كما حلف سبحانه بـ «الضحى» وما أشبه ـ وقد سبق الوجه في هذه الأقسام ـ.

[٣] ﴿**إن الإنسان**﴾ بطبيعته ﴿**لفي خسر**﴾ أي خسارة مستمرة، إذ يتدرج نحو الفناء، كما تتدرج أخلاقه في الانحطاط، فإن الإنسان كلما دخل في الدنيا أكثر، زاد تكالبه ورذائله، بالإضافة إلى أن كل ساعة تذهب ولم يعمل الإنسان فيها صالحاً كان خاسراً، إذ ذهب من رأس ماله ـ الذي تمكن به من تحصيل أرقى الدرجات ـ هباءً هدراً، ولو لم يحصل على المعصية في تلك الساعة فرضاً.

[٤] ﴿**إلا الذين آمنوا**﴾ بالله ورسوله وما جاء به ﴿**وعملوا**﴾ الأعمال ﴿**الصالحات**﴾ التي لا يشوبها السيئات ﴿**وتواصوا بالحق**﴾ بأن أوصى بعضهم بعضاً، بأن يلازم الحق ويعمل به ﴿**وتواصوا بالصبر**﴾ بأن يصبروا على مكاره الدنيا، وذلك بالصبر على الطاعة، والصبر على المعصية، والصبر في الرزية. وخصص السياق هذين الأمرين، بعد دخولهما في مطلق الأعمال الصالحة، لشدة الاحتياج إليهما، في تلازم العمل الصالح فإنهما عمادان له.



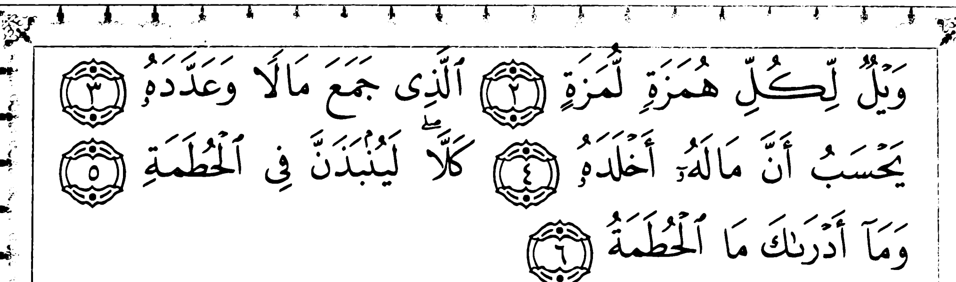
سُورة الهمزة

مكيّة/آياتها (١٠)

سميت السورة بهذا الاسم لاشتمالها على لفظة «الهمزة»، وهي كسائر السور المكية بصدد بيان قضايا العقيدة وما إليها، وحيث ذكر في السورة السابقة كون الإنسان في الخسر، أتت هذه السورة لتبين بعض أسبابها.



[١] ﴿**بسم الله الرحمن الرحيم**﴾ ابتداء باسم الإله الذي هو الأول قبل كل شيء، الرحمن الرحيم، ذو الرحمة المكررة المؤكدة التي وسعت كل شيء.



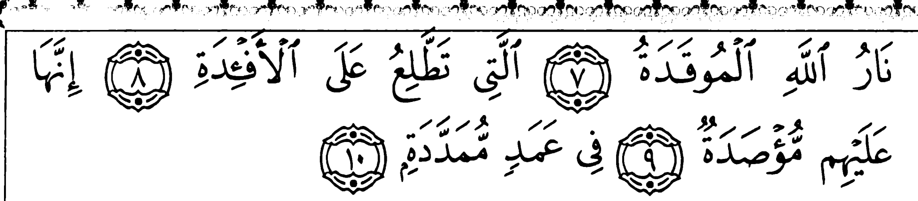
[٢] ﴿ويل﴾ هي كلمة تقال لبيان سوء حال المقولة فيه ﴿لكل همزة﴾ هو الكثير الطعن على الناس بغير حق العائب لهم، وأصل الهَمز الكسر، فكأن العائب يكسر الشخص ويهدم شوكته ﴿لمزة﴾ هو المغتاب للناس، وهما وصفان بمعنى «همّاز» و «لمّاز».

[٣] ﴿الذي جمع مالاً﴾ من هنا وهناك ﴿وعدده﴾ أي أحصاه، ليرى كم زاد، وهذه صورة للإنسان الشرِه المنحط النفس الذي يدأب في جمع المال، ويعيب الناس كلهم بلا استثناء.

[٤] ﴿يحسب﴾ أي يظن ﴿أن ماله أخلده﴾ أي يبقيه في الدنيا ويمنعه من الحوادث، فإن كل حادث ينوبه يدفع بالمال رشوة، أو إنفاقاً لدفع جريمة عملها، أو مرض جاء إليه، أو ما أشبه. والمراد أن فعله فعل من يحسب ذلك وإن كان كل إنسان يعلم بالموت، ويدري أنه لا مفر له منه.

[٥] ﴿كلا﴾ ليس الأمر على ما توهم، من أنه ذو مال مرح إلى الأبد، وأنه خالد بماله ﴿لينبذن﴾ أي يطرحن هذا الهمزة اللمزة طرحاً بدون مبالاة واعتناء ﴿في الحطمة﴾ اسم من أسامي جهنم، سميت بها لأنها تحطم كل شيء وتكسره فتحطم النار كيانه وكبرياءه.

[٦] ﴿وما أدراك﴾ أيها الإنسان، أو أيها الرسول ﷺ ﴿ما الحطمة﴾؟ وهذه لتفخيم شأنها وأنها لا تدرك إلا إذا شاهدها الإنسان.



[٧] ثم جاء البيان لها بقوله: هي ﴿**نار الله الموقدة**﴾ وكم يقدر الإنسان عظمة النار التي يوقدها ويؤججها الله سبحانه الذي هو أقدر القادرين للنكال والعقاب.

[٨] ﴿**التي تطلع على الأفئدة**﴾ جمع فؤاد، أي تشرف على القلوب لتحرق مكان انبعاث السخرية وحب المال وتعداده بلا إنفاقه في سبيل الله وفي وجوه الخير.

[٩] ﴿**إنها**﴾ أي الحطمة ﴿**عليهم**﴾ أي على هؤلاء المجرمين ﴿**مؤصدة**﴾ فتغلق أبوابها عليهم لييئسوا من الخروج، من أوصد الباب: بمعنى أغلقه.

[١٠] ﴿**في عمد**﴾ جمع عمود ﴿**ممددة**﴾ أي موثقين في أعمدة ممدودة، فقد اعتاد الملوك السابقون أن يربطوا رجل المجرم بعمود ممدود مبني في الأرض أو في الحائط لئلا يفر، وهذا لزيادة النكال والعذاب.



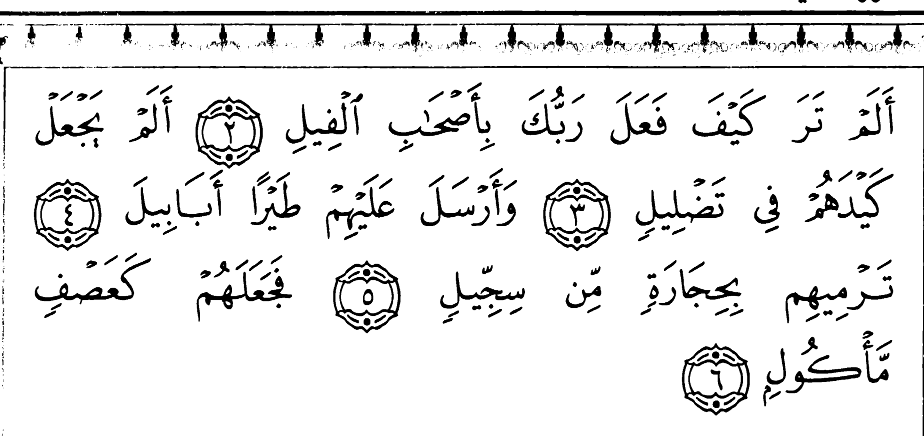
سُورة الفيل

مكيّة/آياتها (٦)

سميت السورة بهذا الاسم لاشتمالها على لفظة «الفيل»، وهي كسائر السور المكية لمعالجة قضية العقيدة، وحيث تقدمت في السورة السابقة نكال الله بالكافرين في الآخرة، ذكر في هذه السورة نكاله بهم في الدنيا.



[١] ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ ابتداء باسم الله المستجمع لجميع صفات الكمال، الرحمن الرحيم الذي يتفضل بالرحمة لكل أحد.



[٢] ﴿**ألم تر**﴾ أي ألم تسمع يا رسول الله، أو أيها السامع ﴿**كيف فعل ربك**﴾ من العذاب والنكال ﴿**بأصحاب الفيل**﴾ الذين جاؤوا به لهدم الكعبة؟

[٣] ﴿**ألم يجعل**﴾ الله ﴿**كيدهم**﴾ الذي كادوا لهدم البيت واحتالوا لإطفاء نور الله ﴿**في تضليل**﴾ أي في تضييع وإبطال، فكأن كيدهم عوض أن يهدي إلى مقصدهم أضلهم وأورث هلاكهم ودمارهم.

[٤] ﴿**وأرسل**﴾ الله ﴿**عليهم طيراً**﴾ يسمى ﴿**أبابيل**﴾ وهو الخطاف أو بمعنى جماعات، فإن أبابيل في اللغة بمعنى جماعات في تفرقة أي جماعة جماعة.

[٥] ﴿**ترميهم**﴾ تلك الأسراب من الطير ـ فإن المراد بالطير الجنس ﴿**بحجارة من سجيل**﴾ أي تقذفهم بأحجار صغار صلبة هي من طين متحجر، وهو مُعَّرب «سَنْكِ كَل»، وذلك أشد وأصلب وأوجع إذا أصاب الإنسان.

[٦] ﴿**فجعلهم**﴾ أي جعل الله أولئك الأصحاب ﴿**كعصف**﴾ أي زرع ﴿**مأكول**﴾ قد أكل ثمره فبقي خالياً خاوياً، فقد كان الحجر إذا أصاب أحدهم، جعله خالياً، كأنه تبن بلا حب.

. . . .

وكان الأصل في ذلك أن فئة من قريش خرجوا تجاراً إلى أرض النجاشي، فساروا حتى دنوا من ساحل البحر، وفي حقف من أحقافها بيعة من بيع النصارى تسميها قريش«الهيكل»، فنزل القوم فجمعوا حطباً ثم أججوا ناراً وشووا لحماً، فلما ارتحلوا تركوا النار كما هي في يوم عاصف، فذهبت الرياح بالنار فاضطرم الهيكل ناراً، فغضب النجاشي لذلك فبعث أبرهة لهدم الكعبة، فجاء أبرهة بالفيل مع الجيش، فلما أدنوه من باب المسجد قال له عبد المطلب: أتدري يا فيل أين يؤم بك؟ قال برأسه: لا. قال: أتوا بِكَ لتهدم كعبة الله أتفعل ذلك؟ فقال برأسه: لا، فجهدت به الجند ليدخل المسجد فامتنع، فحملوا عليه بالسيوف وقطعوه فأرسل الله إليهم طيراً أبابيل بعضها إثر بعض، ترميهم، فكان مع كل طير ثلاثة أحجار، حجر في منقاره، وحجران في مخالبه، وكانت ترفرف على رؤوسهم وترمي الحجر بدماغهم، فيدخل الحجر في أدمغتهم ويخرج من أدبارهم فتنتقض أبدانهم[١].

---

(١) بحار الأنوار: ج١٥ ص٦٣٢ .



سورة قريش

مكيّة/آياتها (٥)

سميت بـ «لايلاف» أيضاً، لاشتمالها على اللفظتين، وهي كسائر السور المكية بصدد معالجة قضية العقيدة، ولما ذكر سبحانه دفعه الأعداء عنهم، ألحق بذلك لطفه عليهم بإطعامهم وتهيئة أسباب العيش لهم.



[١] ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ ابتداء باسم الإله الأول قبل كل شيء، ليكون شعاراً للمسلم المعترف بذلك، الرحمن الرحيم، الذي يتفضل بالرحمة المتكررة في الدنيا والآخرة على عباده.

لِإِيلَٰفِ قُرَيۡشٍ ﴿٢﴾ إِۦلَٰفِهِمۡ رِحۡلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيۡفِ ﴿٣﴾ فَلۡيَعۡبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلۡبَيۡتِ ﴿٤﴾ ٱلَّذِيٓ أَطۡعَمَهُم مِّن جُوعٖ وَءَامَنَهُم مِّنۡ خَوۡفِۭ ﴿٥﴾

[٢] ﴿**لإيلاف قريش**﴾ من «آلف» نقيض «أوحش» يعني من أجل أن جعل الله الحرم وطرقه آمنا حتى ألف قريش أن يذهب إلى الشام وإلى اليمن، في أمن ودعة، بلا استيحاش وخوف.

[٣] ﴿**إيلافهم رحلة الشتاء**﴾ أي رواحهم في الشتاء إلى اليمين لأجل التجارة ﴿**والصيف**﴾ أي رواحهم في الصيف إلى الشام لأجل التجارة، وهذا توضيح لقوله «لإيلاف قريش».

[٤] ﴿**فليعبدوا**﴾ هذا متعلق «لإيلاف» أي ليعبد قريش ﴿**رب هذا البيت**﴾ إله الحرم لأجل ما صنع لهم من الأُلفة والأمن، حتى ألفوا السفر في كل سنة بلا خوف ولا وحشة، فقوله «لإيلاف» متعلق بقوله «فليعبدوا».

[٥] ثم بين بعض أوصافه سبحانه مما تخصهم بقوله: الرب ﴿**الذي أطعمهم**﴾ أي طعم ﴿**من جوع**﴾ بما سبب لهم من الأرزاق في رحلتي الشتاء والصيف ﴿**وآمنهم من خوف**﴾ بما هيأ لهم حرماً آمناً، لا يلقون فيه إلا الأمن حيث يختطف الناس من حولهم، ومعنى «من»: بعد، أي أطعمهم بعد الجوع، وآمنهم بعد الخوف، أو بمعنى «من حيث» أي من هاتين الناحيتين ـ وهذا أقرب بالنسبة إلى الموضوع ـ

قال القمي: نزلت في قريش، لأنه كان معاشهم من الرحلتين رحلة في الشتاء إلى اليمن ورحلة في الصيف إلى الشام، وكانوا يحملون من مكة الأدم واللب وما يقع من ناحية البحر من الفلفل

. . . .

وغيره، فيشترون من الشام الثياب والدرمك «وهو دقيق الحبوب» والحبوب، وكانوا يتألفون في طريقهم ويثبتون في الخروج في كل خرجة رئيساً من رؤساء قريش، وكان معاشهم من ذلك، فلما بعث الله نبيه محمدﷺ استغنوا عن ذلك، لأن الناس وفدوا على رسول اللهﷺ وحجوا إلى البيت[١].

(١) تفسير القمي: ج٢ ص٤٤٤ .



سُورة المَاعون

مكيّة أو مدنيّة/آياتها (٨)

سميت السورة بهذا الاسم، لاشتمالها على لفظة «الماعون»، وفي كونها مكية أو مدنية خلاف، وعلى كل فهي بصدد بيان العقيدة وما إليها، وإذ تقدم في السورة السابقة نعمة الله على قريش، جاءت هذه السور لتردعهم عن الكفر والعصيان. بعد إسباغ تلك النعم الجليلة عليهم.



[١] ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ نستعين باسم «الله» ليكون سبحانه عوناً لنا في مهام الحياة، وفي ما بعد الممات، ذي الرحمة الشاملة التي وسعت كل شيء، فتعم الأشياء عامة، والمؤمنين خاصة.

أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ﴿٢﴾ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ﴿٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٤﴾ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٥﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٦﴾

[٢] ﴿**أرأيت**﴾ يا رسول الله، أو أيها الرائي ﴿**الذي يكذّب بالدين**﴾ أي بيوم القيامة. فإن «الدين» بمعنى الجزاء، أو المراد بدين الإسلام وهذا استفهام تعجبي. يعني كيف أنه يكذب مع كثرة الآيات الدالة على صحة الدين ووقوعه.

[٣] ﴿**فذلك**﴾ الإنسان المكذب بالدين، هو ﴿**الذي يدع اليتيم**﴾ «الدع» هو الدفع بشدة، أي يدفع اليتيم فلا يحسن إليه، فإن التكذيب بالدين يلازم الأعمال البشعة القاسية.

[٤] ﴿**ولا يحض على طعام المسكين**﴾ أي لا يحث الناس على إطعام الفقراء الذين أسكنهم الفقر عن الحركة والعمل، و «الحض» وإن لم يكن واجباً ـ في غير مورد الأمر بالمعروف وما أشبه ـ إلا أن ذلك دليل القساوة ونضوب معين الفضيلة من القلب، مما لا يكون إلا من ملازمات الكفر، وقد ورد إن بعض كفار قريش كان كذلك إذا جاءه يتيم يطلب رفده طرده بقساوة، وهكذا كان بالنسبة إلى المساكين.

[٥] وإذا كان «دعّ اليتيم» و «عدم الحض على طعام المساكين» موجباً للذم والتوبيخ، فمن يعمل باسم الإسلام وهو بعيد عنه كان أولى بالذم والتوبيخ، إذ المنافق أسوأ حالاً من الكافر ﴿**فويل للمصلين**﴾.

[٦] ﴿**الذين هم عن صلاتهم ساهون**﴾ أي غافلون غير مبالين بها إذ عدم المبالاة يلازم السهو.



[٧] ﴿**الذين هم يراؤون**﴾ فإذا صلوها صلوا للرياء لا لله سبحانه. وقال بعض: إن المعنى أنهم إن لم يكن أحد لم يصلوا، وإن كان أحد صلوها ليراؤوه.

[٨] ﴿**ويمنعون الماعون**﴾ وهو كل ما فيه منفعة للناس، أي يمنعون خيرهم ورفدهم ـ وذلك مما يلازم عدم الإيمان الراسخ في القلب.



سُورة الكوثر

مكية أو مدنية/آياتها (٤)

سميت السورة بهذا الاسم لاشتمالها على لفظة «الكوثر»، وفي كونها مكية أو مدنية خلاف وهي موجهة إلى الرسول ﷺ، ولعل المناسبة بين السورتين التحدث عن «الماعون» و «الكوثر»، فهم يمنعون الماعون والله سبحانه يعطي الخير الكثير، أو المناسبة أنهم يسهون عن الصلاة، ويمنعون الخير، والرسول مأمور بالصلاة والخير.



[١] ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ ابتداء باسم الله الذي ما ابتدئ به شيء إلا بورك فيه، الرحمن الرحيم الذي يتفضل بالرحمة والغفران.

إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ﴿١﴾ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ﴿٢﴾ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ﴿٣﴾

[٢] ﴿إنا أعطيناك﴾ يا رسول الله ﴿الكوثر﴾ مشتق من الكثرة، بمعنى الخير الكثير. قالوا: إن السورة نزلت في العاص بن وائل السهمي، وذلك أنه رأى رسول الله ﷺ يخرج من المسجد فالتقيا عند باب بني سهم وتحدث مع الرسول، وصناديد قريش جالسون، فلما أن دخل قالوا له مع من كنت تتحدث؟ قال: مع الأبتر ـ يعني الرسول ﷺ ـ، وقد كانت قريش تسمي من لا ولد له «أبتر» من البتر بمعنى القطع، كأنه مقطوع ليس له ولد حتى يبقى ذكره، وقد كان مات «عبد الله» ابن رسول الله من خديجة عليها السلام، فنزلت هذه السورة[١]، ولذا كان من جملة الأقوال في معنى كوثر أن المراد بها «فاطمة» عليها السلام التي سببت كثرة النسل للرسول ﷺ، وحيث إن «الكوثر» بمعنى الخير الكثير، وهو عام، كان شاملاً للنبوة والعلم، والنسل، وحوض الكوثر في الآخرة، وغيرها من سائر المعاني التي يشملها لفظ «الكوثر» بعمومه.

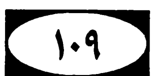
[٣] ﴿فصلّ﴾ يا رسول الله ﴿لربك﴾ شكراً على هذه النعمة العظمى. ﴿وانحر﴾ الإبل لإطعام الناس، فإن الله سبحانه يحب إطعام الطعام، أو المراد إرفع يديك إلى نحرك عند التكبير ـ كما ورد[٢] ـ فإن في ذلك خضوعاً لله سبحانه، يلائم الشكر على نعمته بإعطائه الكوثر.

[٤] ﴿إن شانئك﴾ أي مبغضك الذي ينسبك إلى «البتر» ﴿هو الأبتر﴾ المقطوع عن الخير، الخامل الذكر، لا أنت كما نسب إليك ـ وهذه السورة على صغرها إحدى معاجز الرسول، وأدلة معجزية القرآن الحكيم.

---

(١) بحار الأنوار: ج١٧ ص٢٠٣.

(٢) راجع من لايحضره الفقيه: ج١ ص٣٠٣.



سورة الكافرون
مكيّة أو مدنيّة/آياتها (٧)

سميت السورة بهذا الاسم لاشتمالها على لفظة «الكافرون»، وحيث إن «الكافرون» علم لها لا يتغير في الإعراب، كما يقال «دعاء أبو حمزة»، وفي كون السورة مكية أو مدنية خلاف، وعلى كل فإنها تعالج قضايا العقيدة، وحيث ختمت سورة «الكوثر» بذكر شانئ الرسول، جاءت هذه السورة لتبين مباينة الرسول معهم في الطريقة، فلا أنه يتبعهم، ولا أنهم يتبعونه ـ كفراً وعناداً ـ.

وقد ورد إن جماعة من قريش قالوا للرسول ﷺ هلم يا محمد فلنعبد ما تعبد، وتعبد ما نعبد، فنشترك نحن وأنت في الأمر، فإن يكن الذي نحن عليه الحق فقد أخذت بحظك منه، وإن يكن الذي أنت عليه الحق فقد أخذنا بحظنا منه فنزلت السورة[1].

(١) بحار الأنوار: ج٧ ص٣٣.

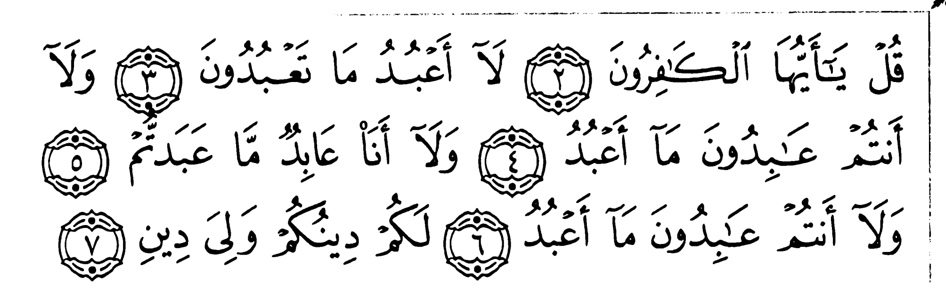
وفي حديث عن الصادق عليه السلام أنهم قالوا للرسول صلى الله عليه وآله : تعبد إلهنا سنة ونعبد إلهك سنة، وتعبد إلهنا سنة، ونعبد إلهك سنة. فأجابهم الله بمثل ما قالوا ـ أي مكرراً[1] ـ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ (١)

[١] ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ شروع في السورة مصاحباً باسم الله ليكون شعاراً للشارع، وعوناً في مهمات الحياة، الرحمن الرحيم الذي يتلطف بالرحمة الخاصة على من يشاء من عباده، ورحمته العامة وسعت كل شيء.

---

(١) بحار الأنوار: ج٩ ص٢٥٣ .



[٢] ﴿**قل**﴾ يا رسول الله، مخاطباً للكافرين ﴿**يا أيها الكافرون**﴾ النزول وإن كان خاصاً لكن المراد عام لكل كافر معاند لا يتزحزح عن كفره وطغيانه.

[٣] ﴿**لا أعبد**﴾ أنا ﴿**ما تعبدون**﴾ أنتم من الأصنام والأوثان، والمعنى لا أعبد في الحال ما تعبدونه الآن.

[٤] ﴿**ولا أنتم عابدون**﴾ أي تعبدون ﴿**ما أعبد**﴾ إذ عاندتم وكابرتم الحق، وهذا إخبار عن الواقع، وإن كانوا مأمورين بالعبادة حسب الشرع والعقل.

[٥] ﴿**ولا أنا عابد**﴾ في المستقبل ﴿**ما عبدتم**﴾ من الأصنام.

[٦] ﴿**ولا أنتم عابدون**﴾ في المستقبل ﴿**ما أعبد**﴾ أنا، وحيث إن الجملة الاسمية تدل على الدوام والثبوت فسرنا الآيتين بـ «المستقبل»، بخلاف الجملة الأولى حيث كانت فعلاً وظاهر الفعل «الحال» وعطفنا عليه الجملة الثانية سياقاً.

[٧] ﴿**لكم دينكم**﴾ فالزموه حتى ترون جزاءه السيء ﴿**ولي دين**﴾ وهذا إجمال لما فصل أولاً، والأصل «ديني» حذف ياء المتكلم للتخفيف ودلالة الكسرة عليه.



سورة النصر

مدنيّة/آياتها (٤)

سميت السورة بهذا الاسم لاشتمالها على لفظة «النصر»، وهي كسائر السور المدنية تبين الفتح المرتبط بالنظام والدولة، وإذ كان ختم سورة «الكافرون» ذكر الدين، جاءت هذه السورة لظهور الدين.



[١] ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ ابتداء باسم «الله» الذي هو الأول في الكون، فيبدأ باسمه في أول كل شيء، الرحمن الرحيم الذي يتفضل بالرحمة خاصة وعامة لعباده المؤمنين، الذين يبدؤون باسمه ويؤمنون به.

﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝٢ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ۝٣ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ۝٤﴾

[٢] لقد نزلت هذه السورة بعد حجة الوداع حين أخذت القبائل تدخل في الدين أفواجاً أفواجاً حيث رأوا سلطان الإسلام يعم الجزيرة، فلما نزلت قال رسول الله ﷺ: نعيت إليّ نفسي[1].

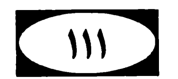
قالوا: وذلك لأنها دلت على تمام مهمة الرسول ﴿**إذا جاء**﴾ يا رسول الله ﴿**نصر الله**﴾ لدينه على سائر الأديان، وللمسلمين على الكفار ﴿**والفتح**﴾ أي جاء فتح مكة، بأن فتحت عاصمة الوثنية والشرك في الجزيرة، مما أخضع الجزيرة فتحها.

[٣] ﴿**ورأيت**﴾ يا رسول الله ﴿**الناس**﴾ القبائل وغيرهم ﴿**يدخلون في دين الله**﴾ الإسلام ﴿**أفواجاً**﴾ أي فوجاً بعد فوج، وجماعة بعد جماعة.

[٤] ﴿**فسبح**﴾ يا رسول الله ﴿**بحمد ربك**﴾ أي نزهه عن النقائص بذكر الحمد، فإن الحمد تنزيه وتحميد، لأن ذكر الجميل مدح مطابقي وتنزيه التزامي ـ كما سبق ـ، والتسبيح والتحميد إنما ذلك للشكر على النصر والفتح ﴿**واستغفره**﴾ هضماً للنفس، حتى لا تتعالى وتظن أن النصر إنما هو بالأتعاب، والرسول وإن كان منزهاً عن ذلك، وإنما هو تعليم، بالإضافة إلى ما تقدم: من أن الأعمال الضرورية المباحة لدى الكاملين العارفين بالله مما يعدونها ابتعاداً عن ساحة قربه سبحانه، فتوجب الاستغفار ﴿**إنه**﴾ سبحانه ﴿**كان تواباً**﴾ أي كثير الرجوع من «تاب» إذا رجع، بمعنى أن العبد مهما أذنب ثم تاب تاب الله عليه.

---

(١) بحار الأنوار: ج١٨ ص١١٦ .



سُورة المسَد

مكية/آياتها (٦)

سميت السورة بهذا الاسم، لاشتمالها على لفظة «مسد»، كما أنها تسمى بسورة «أبي لهب» وهي كسائر السور المكية ترتبط بقضية العقيدة، وإذ تقدم في سورة النصر نصر الله للرسول جاءت هذه السورة لبيان ما كفاه سبحانه من أمر أعدائه.



[١] ﴿**بسم الله الرحمن الرحيم**﴾ ابتداء باسم الإله المستجمع لجميع صفات الكمال، الرحمن الرحيم الذي يتفضل على العباد بالرحم والفضل.

تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿٢﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ﴿٣﴾ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٤﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ﴿٥﴾

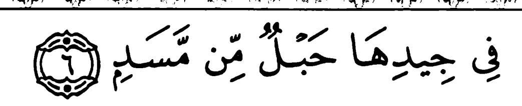
[٢] لقد كان أبو لهب عم النبيﷺ في جملة من يرمي النبيﷺ بالحجارة ويؤذيه، وكانت زوجته أم جميل تحمل الشوك في الليل فتنشره في طريق الرسول، حتى إذا أراد الرسولﷺ الخروج من منزله نغزت الأشواك رجله الكريمة، فنزلت ﴿**تبت يدا أبي لهب وتب**﴾ أي خسرت يداه، وهذا من جهة أن ما ارتكبه من الإثم كان بيديه، كما قال الرسول لعروة «بارك الله في صفقة يمينك» حين كان البيع بيده، و ﴿**تب**﴾ الثاني تأكيد للأول، أي خسرت يداه وخسرت.

[٣] ﴿**ما أغنى عنه**﴾ أي عن أبي لهب ﴿**ماله**﴾ أي ما نفعه في دفع العذاب عنه ﴿**وما كسب**﴾ أي ما عمل من الكفر والآثام وإيذاء الرسول، و «ما» موصولة عائدها محذوف، أي ما كسبها.

[٤] ﴿**سيصلى**﴾ في الآخرة، أي يدخل النار ملازماً لها ﴿**ناراً ذات لهب**﴾ أي اشتعال وتوقد، كما كان هو «أبا لهب»، باعتبار أن وجنتيه محمرتان كأنهما ملتهبتان من شدة البريق.

[٥] ﴿**وامرأته**﴾ أي تبت وخسرت امرأته، أعني ﴿**حمالة الحطب**﴾ وسميت بهذا الاسم لأنها كانت تحمل الشوك كما تقدم، ونصب «حمالة» على الذم، كما قال ابن مالك:

واقطع أو اتبع إن يكن معيناً
بدونها أو بعضها اقطع معلنا



وارفـع أو انـصـب إن قـطـعـت مـضـمـرا
مـبـتـــدءاً أو نـاصـبـاً لـــن يـظـهـــرا

[٦] ﴿في جيدها﴾ أي جيد امرأته أم جميل، وكانت أخت «أبي سفيان» المعروف ﴿حبل من مسد﴾ هو «الليف»، فقد كانت تعلق الحبل المشدود على الأشواك بعنقها، ويحتمل أن يكون «وامرأته» مبتدأ و «في جيدها» خبره.



سُورة الاخلاص

مكية أو مدنية/آياتها (٥)

وتسمى بسورة «التوحيد»، سميت بـ «الإخلاص» لأن فيها إخلاص المبدأ من الشريك، وسميت بـ «التوحيد» لاشتمالها على توحيد الله سبحانه، في قوله «الله أحد»، وفي كونها مكية أو مدنية خلاف، وعلى أي حال فإنها ترتبط بقضايا العقيدة، وحيث كانت السورة السابقة مرتبطة بالرسول، جاءت هذه السورة مرتبطة بالمرسل.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ (١)

[١] ﴿**بسم الله الرحمن الرحيم**﴾ ابتداء باسم الإله الذي له ما في السماوات والأرض، وهو الواحد المنفرد في الكون بالألوهية، الرحمن الرحيم الذي يتفضل على العباد بالرحم واللطف.



[٢] ورد إن اليهود جاؤوا إلى رسول الله ﷺ فسألوا منه ما نسبة ربك؟ فأنزل الله سبحانه هذه السورة[1] ﴿**قل**﴾ يا رسول الله ﴿**هو**﴾ ربي الذي أدعو إليه ﴿**الله أحد**﴾ لا شريك له ولا جزء.

[٣] ﴿**الله الصمد**﴾ «الصمد» لغة: بمعنى السيد المقصود الذي لا يقضى أمر إلا بإذنه، يعني أنه السيد المطلق الذي بيده كل شيء، فلا يقع أمر في الكون إلا بإذنه وأمره.

[٤] ﴿**لم يلد**﴾ أحداً، فليست الملائكة بناته ـ كما زعم الكفار ـ ولا المسيح وعزير واليهود والنصارى أبناؤه ـ كما زعم أهل الكتاب ـ ﴿**ولم يولد**﴾ من أحد، فلا أب له ولا أم.

[٥] ﴿**ولم يكن له كفواً**﴾ خبر كان، أي مثلاً ونظيراً ﴿**أحد**﴾ اسم كان، أي ليس أحد كفوه بمعنى نظيره ومثله، فهو المتفرد الذي لا شبيه له ولا نظير.

---

(١) مجمع البيان: ج١٠ ص٤٨٥ .



سُورة الفلق

مَدَنيّة/آياتها (٦)

سميت السورة بهذا الاسم لاشتمالها على لفظة «الفلق»، والسورة مدنية، وإن كانت بصدد بعض الأمور المرتبطة بالإنسان حين يصدم بمكروه، وحيث كانت سورة الإخلاص إقراراً بالإله الواحد، كانت هذه السورة استعاذة به.



[١] ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ ابتداء باسم الله المستجمع لجميع صفات الكمال، الرحمن الرحيم، الذي يتفضل بالرحمة واللطف على جميع الخلق ابتداءً وتربية، وتكميلاً للنواقص والنقائض.

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ﴿٢﴾ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴿٣﴾ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴿٤﴾ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ﴿٥﴾ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴿٦﴾

[٢] ﴿قل﴾ يا رسول الله ﴿أعوذ﴾ أي أعتصم وأستجير من المكاره ﴿برب الفلق﴾ «الفلق» هو الصبح، وأصله الشق، لأن الظلمة تنشق عنه.

[٣] ﴿من شر ما خلق﴾ أي شر كل ما خلقه الله سبحانه من المؤذيات، إنساناً كان أو جناً أو حيواناً أو جماداً كالسيل والعواصف.

[٤] ﴿ومن شر غاسق﴾ أي الليل، من «الغسق» بمعنى الظلمة ﴿إذا وقب﴾ أي إذا دخل، فإن كثيراً من الشرور يتوجه إلى الإنسان في الليل وفي ظلامه، حيث العيون نائمة، والظلام مخيم.

[٥] ﴿ومن شر النفاثات في العقد﴾ جمع «نفاثة» وهي المرأة الساحرة التي تنفث ـ أي تنفخ ـ في الشيء الذي عقد السحر به، و «عقد» جمع عقدة، فإن الساحرة تعقد الخيط بقصد عقد حظ أحد، أو عقده عن زوجته، ثم تنفث في تلك العقدة بسحرها وأورادها، والسحر له أثر، كما ثبت في علم النفس، ودلت على ذلك التجربة.

[٦] ﴿ومن شر حاسد إذا حسد﴾ فإن الإنسان إذا حسد غيره أورثه حسده على أن يؤذيه بلسانه ويده، ولعل معنى إذا حسد: إذا ظهر حسده، وعمل بمقتضاه.



سورة الناس

مدنيّة/آياتها (٧)

سميت السورة بهذا الاسم لاشتمالها على لفظة «الناس»، وهي مدنية، وتعالج بعض الأمور المرتبطة بالإنسان، وهي نظير السورة السابقة في الاستعاذة بالله، من بعض أقسام الشرور.



[١] ﴿**بسم الله الرحمن الرحيم**﴾ ابتداء باسم «الله» الذي هو علم للذات المستجمع لجميع صفات الكمال، وهل هناك أحق بالابتداء منه، الرحمن الرحيم الذي يتفضل على العباد بالرحم والفضل، فقد وسعت رحمته كل شيء.

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝٢ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٣ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٤ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۝٥ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٦﴾

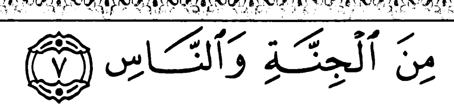
[٢] ﴿**قل**﴾ يا رسول الله ﴿**أعوذ**﴾ أي أستجير وأعتصم من الشرور ﴿**برب الناس**﴾ خالقهم ومربيهم.

[٣] ﴿**ملك الناس**﴾ فهو المالك المطلق لهم، لا ملك غيره وسائر الملوك إنما هم صوريون، لا حقيقة لملوكيتهم إلا الاعتبار.

[٤] ﴿**إله الناس**﴾ الذي هو إلههم، فليست الأصنام آلهة كما يزعم الكفار، فهو «رب» و «ملك» و «إله» فتربية الناس منه، وسيدهم المالك لهم هو، ومعبودهم الذي لا معبود سواه هو سبحانه.

[٥] ﴿**من شر الوسواس**﴾ أي أعوذ بالله من شر الشيء الذي يوسوس للإنسان، ليلقيه في الكفر والعصيان، وأصله من «الوسوسة» وهي الصوت الخفي، فإن من يريد الإغواء من إنس أو شيطان يخفي الصوت في أذن الشخص أو صدره، حتى يضله ويلقيه في المعصية ﴿**الخناس**﴾ من «خنس» بمعنى اختفى، وذلك لأن من يريد الإضلال كثير الاختفاء، أما الشيطان فواضح، وأما الإنسان فإنه إذا أراد الإضلال يخفي نفسه لئلا يراه أحد فيحبط وسوسته، وتظهر مكيدته للناس فيزدرونه ويطردونه.

[٦] ﴿**الذي يوسوس في صدور الناس**﴾ أما وسوسة الشيطان في الصدر فواضح، وكونه في الصدر لأن الوسوسة في القلب والقلب في الصدر، وأما وسوسة الإنسان فيه فلأنه يلقي الكلام إلى القلب ـ من



الأذن ـ والقلب في الصدر.

[٧] ﴿من الجنة والناس﴾ بيان للوسواس، أي الوسواس الذي هو من جنس الجن ـ أي الشياطين فإنهم قسم من الأجنة ـ أو من جنس الإنس.

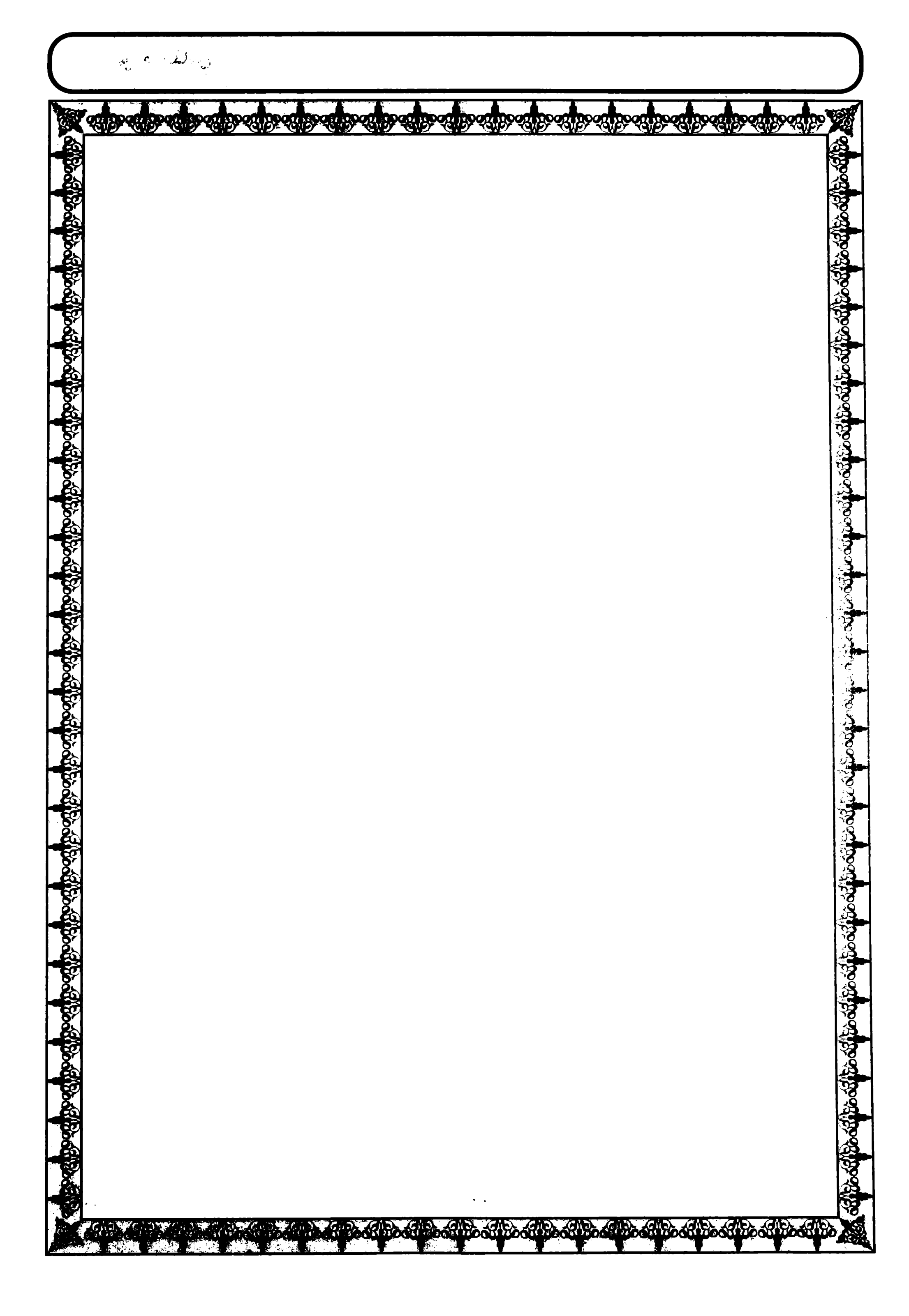
وقانا الله جميعاً من شر كل شر بمحمد وآله الطاهرين (سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ العِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ * وَسَلامٌ عَلَى المُرْسَلِينَ * وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ)[١] وصلى الله على محمد وآله الطيبين الميامين.

تم على يد مؤلفه محمد بن المهدي الحسيني الشيرازي

سنة ١٣٨٤ هجرية بكربلاء المقدسة

---

(١) الصافات: ١٨١ ـ ١٨٣ . .



المصادر والمراجع

١- الاحتجاج، أبو منصور، أحمد بن علي الطبرسي، نشر المرتضى - مشهد، ١٤٠٣ هـ. ق.

٢- الاقتصاد. الشهيد السيد حسن الحسيني الشيرازي، مؤسسة الوفاء، لبنان، ١٩٨٠م

٣- الإسلام يتحدى.

٤- الأمالي، الشيخ الطوسي، دار الثقافة للنشر - قم، ١٤١٤ هـ. ق.

٥- الأمالي، الشيخ الصدوق، المكتبة الإسلامية، ١٤٠٤ هـ. ق.

٦- أنيس الأعلام، الشيخ محمد صادق فخر الإسلام.

٧- بحار الأنوار، العلامة المجلسي، مؤسسة الوفاء، بيروت لبنان، ١٤٠٤ هـ. ق.

٨- بصائر الدرجات، محمد بن الحسن بن فروخ الصفار، مكتبة آية الله المرعشي - قم، ١٤٠٤ هـ. ق.

٩- تأويل الآيات الظاهرة، السيد شرف الدين الحسيني، مؤسسة النشر الإسلامي - قم، ١٤٠٩ هـ. ق.

١٠- التحصين، السيد علي بن طاوس الحلي، مؤسسة دار الكتاب - قم، ١٤١٣ هـ. ق.

١١- تفسير الإمام العسكري ، المنسوب إلى الإمام العسكري عليه السلام، مدرسة الإمام المهدي - قم، ١٤٠٩ هـ. ق.

١٢- تفسير العياشي، محمد بن مسعود العياشي، المطبعة العلمية - طهران،

١٣٨٠ هـ. ق.

١٣- تفسير فرات الكوفي، فرات بن إبراهيم الكوفي، مؤسسة الطبع و النشر، ١٤١٠ هـ. ق.

١٤- تفسير القمي، علي بن إبراهيم بن هاشم القمي، دار الكتاب - قم، ١٤٠٤ هـ. ق.

١٥- التهذيب، الشيخ الطوسي، دار الكتب الإسلامية - طهران، ١٣٦٥ هـ. ش.

١٦- تنزيه الأنبياء، السيد المرتضى علم الهدى، دار الشريف الرضي - قم

١٧- ثواب الأعمال، الشيخ الصدوق، دار الرضي للنشر - قم، ١٤٠٦ هـ. ق.

١٨- جواهر الكلام، محمد حسن النجفي

١٩- حرية الفكر، سلامة موسى

٢٠- الخصال، الشيخ الصدوق، مؤسسة النشر الإسلامي - قم، ١٤٠٣ هـ. ق.

٢١- دائرة المعارف، وجدي

٢٢- دلائل الإمامة، محمد بن جرير الطبري، دار الذخائر للمطبوعات - قم

٢٣- ديوان الإمام علي، الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام، دار نداء الإسلام للنشر - قم، ١٤١١ هـ. ق.

٢٤- رسول الله في المدينة (سلسلة قادة الإسلام)، الإمام السيد محمد الحسيني الشيرازي، مطبعة الآداب، النجف الأشرف

٢٥- روضة الواعظين، محمد بن الحسن الفتال، دار الرضي - قم

٢٦- شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد المعتزلي، مكتبة آية الله المرعشي - قم، ١٤٠٤هـ. ق.

٢٧- شواهد التنزيل، الحاكم الحسكاني، مؤسسة الطبع و النشر، ١٤١١ هـ. ق.

٢٨- الطرائف، السيد علي بن طاوس الحلي، مطبعة الخيام - قم، ١٤٠٠ هـ. ق.

٢٩- عبادات الإسلام، الإمام السيد محمد الحسيني الشيرازي، مؤسسة الفكر

الإسلامي، لبنان بيروت، ١٩٩٣م
٣٠- العدالة الإسلامية ، الإمام السيد محمد الحسيني الشيرازي، مطبعة الغري ، النجف الأشرف، ١٣٨٠ هـ. ق
٣١- عدة الداعي، أحمد بن فهد الحلي، دار الكتاب الإسلامي، ١٤٠٧ هـ. ق.
٣٢- على حافة العالم، الاثيري
٣٣- عوالي اللآلئ، ابن أبي جمهور الأحسائي، دار سيد الشهداء قم، ١٤٠٥ هـ. ق.
٣٤- عين العبرة، أحمد بن موسى بن طاوس الحلي، دار الشهاب - قم
٣٥- الفلسفة والكلام
٣٦- الفقه حول القرآن الكريم، الإمام السيد محمد الحسيني الشيرازي، دار العلوم ، لبنان، ١٩٨٧م
٣٧- فقه القرآن، قطب الدين الراوندي، مكتبة آية الله المرعشي - قم، ١٤٠٥ هـ. ق.
٣٨- الفقه (الموسوعة الاستدلالية)، الإمام السيد محمد الحسيني الشيرازي، دار العلوم، لبنان، ١٩٨٧م
٣٩- قصص الأنبياء ، قطب الدين الراوندي، مؤسسة البحوث الإسلامية - مشهد، ١٤٠٩ هـ. ق.
٤٠- قصص الأنبياء ، السيد نعمة الله الجزائري، مكتبة آية الله المرعشي- قم، ١٤٠٤ هـ. ق.
٤١- الكافي، ثقة الإسلام الكليني، دار الكتب الإسلامية - طهران، ١٣٦٥ هـ. ش.
٤٢- كامل الزيارات، ابن قولويه القمي، دارالمرتضوية - النجف الأشرف، ١٣٥٦ هـ. ق.
٤٣- كنز العمال، للمتقي

٤٤- اللهوف، السيد علي بن طاوس الحلي، دار العالم (جهان) - طهران، ١٣٤٨ هـ. ش.

٤٥- متشابه القرآن، ابن شهر آشوب المازندراني، دار بيدار للنشر، ١٣٦٩ هـ. ق.

٤٦- مجمع البيان في تفسير القرآن، الطبرسي، مؤسسة الاعلمي للمطبوعات، لبنان، ٢٠٠٠م

٤٧- مستدرك الوسائل، المحدث النوري، مؤسسة آل البيت - قم، ١٤٠٨ هـ. ق.

٤٨- المس الروحي، عبد الرزق نوفل

٤٩- معاني الأخبار، الشيخ الصدوق، مؤسسة النشر الإسلامي - قم، ١٤٠٣ هـ. ق.

٥٠- مفاتيح الجنان ، الشيخ عباس القمي، دار العلوم،لبنان، ٢٠٠٣ م

٥١- مفتاح الفلاح، الشيخ البهائي، دار الأضواء - بيروت، ١٤٠٥ هـ. ق.

٥٢- مناقب آل أبي طالب، محمد بن شهر آشوب المازندراني، مؤسسة العلامة للنشر ، قم ، ١٣٧٩هـ،ش

٥٣- من لا يحضره الفقيه، الشيخ الصدوق، مؤسسة النشر الإسلامي - قم، ١٤١٣ هـ. ق.

٥٤- نهج البلاغة، الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام، دار الهجرة للنشر - قم.

٥٥- الهيئة والإسلام ، للعلامة الشهرستاني

٥٦- وسائل الشيعة، محمد بن الحسن الحر العاملي، مؤسسة آل البيت - قم، ١٤٠٩ هـ. ق.

٥٧- الوسيلة، ابن حمزة الطوسي، مكتبة آية الله المرعشي - قم، ١٤٠٨ هـ. ق.

الفهرس